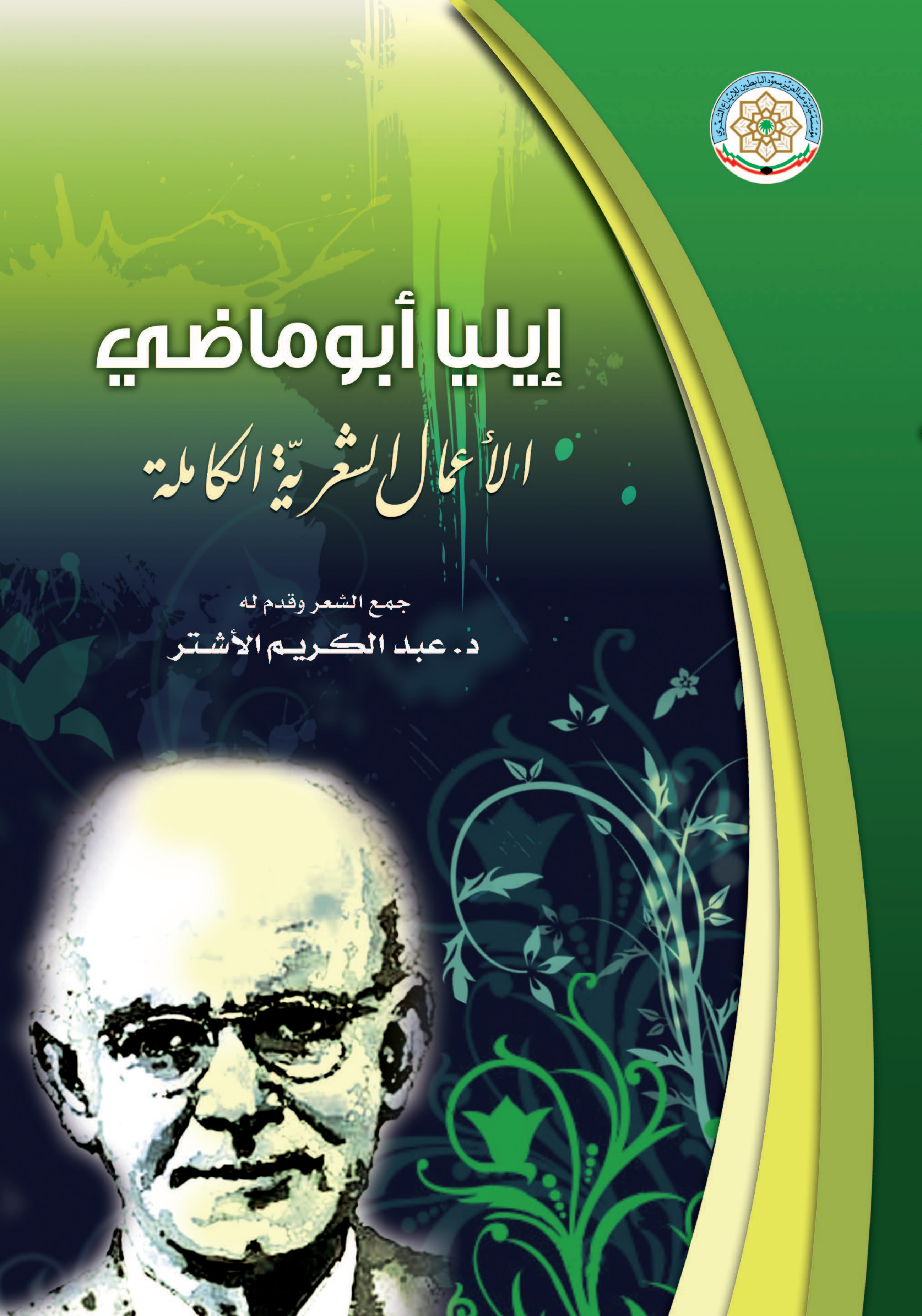


إيليا أبو ماضي

الأعمال الشعرية الكاملة

الناشر
مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
الكويت 2008

إيليا أبو ماضي

(الأعمال الشعرية الكاملة)

جمع الشعر وقدّم له

د. عبد الكريم الأشتر

الكويت

2008

راجعـــه الباحث بالمؤسسة

محمود إبراهيم البجالي

الصـف والتـنفيـذ

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

تصميـم الغــــلاف

محـمـد عبدالوهاب

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

811.9566 الأشتر، عبدالكريم.

إيليا أبوماضي: حياته وشعره (الأعمال الشعرية الكاملة) جمع الشعر وضبطه وشرحه وقدم له د.عبدالكريم الأشتر. - ط1. - الكويت: مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2008.

1167 ص؛ 24 سم

ردمك: 8 - 55 - 72 - 99906 - 978

1 - الشعر العربي - دواوين وقصائد - لبنان - العصر الحديث.

2 - إيليا أبوماضي - دواوين وقصائد. أ - العنوان

ردمـــــك: ISBN : 978 - 99906 -72 - 55 - 8

رقم الإيداع: Depository Number: 2008 / 251

هاتف: 2430514 فاكس: 2455039 (00965)

E-mail : kw@albabtainprize.org

التصديـر

رأى مجلس أمناء مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري أن يتم اختيار عدد من الشعراء الذين وردوا في «معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين» لإعادة إصدار إبداعاتهم وإنجازاتهم الشعرية كاملة... فوقع الاختيار على الشعراء عبدالغفار الأخرس (القرن التاسع عشر) من العراق، وإيليا أبي ماضي (الذي ولد عام ١٨٨٩ وتوفي عام ١٩٥٧) من الشعراء المهجريين، وصقر الشبيب (القرن العشرين) من الكويت ليمثلوا شعراء القرنين التاسع عشر والعشرين.

يُعد إيليا أبوماضي من رواد الشعر المعاصر وهو أحد أعلام النهضة الأدبية العربية في المهجر، فلقد أبصر النور في وطنه لبنان حيث الطبيعة الساحرة الخلابة ونشأ في أحضان سهول وجبال بلدته «المحيدثة» الجميلة، فألهمته التفكر والتأمل في الحياة وفلسفتها، ثم ارتحل يافعًا إلى مصر، وهناك التقى بالمثقفين اللبنانيين الذين لجأوا إلى مصر هربًا من بطش السلطة العثمانية، وفيها نشر قصائده في المجلات والصحف اللبنانية الصادرة في مصر، كما أصدر فيها أول دواوينه الشعرية «تذكار الماضي» عام ١٩١١، وبعد ذلك حطّت به عصا الترحال في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تعرف هناك إلى عدد من المفكرين والشعراء في المهجر وأسس مع جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة «الرابطة القلمية» التي ذاع صيتها ومن خلالها كانت له ولزملائه شهرة واسعة.

لقد كان لمنشأ أبي ماضي وترحاله وهجرته أكبر الأثر في إبداعه الشعري من حيث المبنى والمعنى، ولقد صقلته تجربة المهجر الطويلة، وأثر عليه الموطن الجديد الذي اختاره وشهد من خلاله أهم أحداث العالم وراقب منه ما يحدث في وطنه العربي

الكبير، واهتم أبوماضي في مجمل شعره بوطنه لبنان معبرًا عن شوقه وحبه، لكنه لم ينسَ قضايا أمته، فتفاعل معها في شعره فهاجم الاستعمار والاحتلال مهما كان مصدره، وظلّ في قصائده محافظًا على شرقيته وعروبته رغم حياته في الغرب وتأثره بمجريات الحياة فيه اجتماعيّاً وأدبيّاً.

عزيزي القارئ

يسر مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري أن تقدم لمحبي هذا الشاعر الكبير كل ما وصلت إليه من أعماله الشعرية من دواوينه المعروفة («تذكار الماضي بجزئيه» و«الجداول» و«الخمائل» و«تبر وتراب») إضافة إلى ما لم تجمعه هذه الدواوين، وهي القصائد التي وردت في كتاب (إيليا أبوماضي - دراسات عنه وأشعاره المجهولة) للدكتور جورج ديمتري سليم، وبذلك فإن المؤسسة تقدم لأول مرة أعمال الشاعر كاملة في سفرٍ واحد، ويسعدني أن أقدم بالغ الشكر للأستاذ الدكتور عبدالكريم الأشتر الذي أعد هذا الكتاب ليكون متاحًا للجميع، والشكر موصول لكل من ساعد في إعداده ومراجعته.

والله ولي التوفيق...

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت في 7 شعبان 1429هـ
الموافق 7 أغسطس 2008م

****

إيليا أبو ماضي

حياته وشعره

(الأعمال الشعرية الكاملة)

« دراســـــة »

قدّم بها لمجموع شعره في دواوينه الستة

الدكتور عبد الكريم الأشتر

إيليا أبوماضي.. حياته وشعره
الأعمال الشعر الكاملــة
دراســـــة
(١)

لم تُولِ الدراسات، التي تناولت شعر الشاعر المهجري إيليا أبي ماضي، الاهتمام الكافي بالجوانب المأساوية الحزينة، من حياته، وما خلفت من أثر في مواقفه وشعره، من الحياة وأحداثها، ومذاهبه في تصويرها وتفسيرها، ومواقفه من الأحياء ومسالكهم التي اختاروها لأنفسهم فيها، في حدود تكوينه الخاص من ناحية، وظروف نشأته وأدوار نموه النفسي والفكري، في البيئات التي خالطها وخضع لملابساتها في الوطن والمهجر، من ناحية أخرى.

فتح الطفل إيليا عينيه في لبنان سنة ١٨٨٩ ـ وكان في نهاية القرن التاسع عشر، ما يزال جزءاً من سورية ـ في قرية اسمها (المحيدثة)، من قرى المتن الشمالي فيه، قريبة من بكفيّا، في سفح جبل صنيّن، غارقة في الخضرة، منتشية بجمال الطبيعة الممتدة من حولها.

ولكن يد السلطة العليا فيها، منذ سنة ١٩٠٧، كانت للسلطنة العثمانية التي كان المتصرف (يوسف باشا فرنكو) يمالئها، فيما يقول معاصرو تلك المرحلة.

كانت الأوضاع السياسية مضطربة، والدولة العثمانية على وشك الانهيار، حتى لقد اصطُلح، في معجم السياسة الدولية، على تسميتها بـ«الرجل المريض»، فكانت ترقب فيه نشاط العناصر المسيحية بخاصة، على اختلاف مذاهبها، بحذر بالغ، يفسِّر إعجابَ أبنائها المستمر بثورة يوسف بك كرم الذي مثّل في أعينهم إرادة التحرر الوطني[١].

---

(١) في شعر إيليا أبي ماضي نص يحيي فيه هذا «البطل» لحّنه أحد الموسيقيين من المهاجرين اللبنانيين في أمريكة، وجعل (١٩٢٥) منه نشيداً ينشدونه في بعض المناسبات (ما لم تجمعه الدواوين: النص٣٧ «نشيد يوسف بك كرم»).

ففي هذه الظروف انفتح باب الهجرة إلى أمريكا التي كانت تستدعي إليها الراغبين في تأسيس حياة جديدة لأنفسهم، بعيداً من أوطانهم التي ضاقوا بأوضاعهم فيها، أو طمحوا إلى كسب فرص جديدة يجنون من خيراتها ما لم يتح لهم جَنْيه في أوطانهم.

ولكن الهجرة إليها من لبنان كانت تحكمها رقابة صعبة، فلجأ فريق من أهله إلى جعل مصر مرحلة من مراحل الهجرة إلى أمريكا. ويبدو أن أسرة الصبي إيليا، الذي لم يجاوز الحادية عشرة (١٨٨٩-١٩٠٠)(١). لم تكن ميسورة. وكان أحد أقربائه (عمه «نعّوم») ينوي الرحيل إليها، فلم يجد الصبي ما يمنعه من صحبته. ثم إن أخاه (مراد) بِكر الأسرة، كان قد سبقه إلى الهجرة (٢)، وحلّ في أمريكا في مدينة سِنْسِنّاتي Cincinnati، من ولاية أوهايو، وزاول فيها مهنة تجارة السِّمانة.

ولسنا ندري، على التحقيق: هل كان الصبي، وهو في الإسكندرية، يتطلع إلى متابعة الهجرة إلى أمريكا، والالتحاق بأخيه فيها، فقد التحق به حقاً بعد أن جاوز العشرين (١٨٨٩- أواخر١٩١١)(٣). ولكنه خلّف، على الحالين، في الإسكندرية، مرحلة غنية من مراحل نشاطه، في ميدان السياسة والشعر، لا يمكن تجاوزها، ولا يسهل الفصل معها في الحكم على ما كان نواه.

✲✲✲✲✲

نقف عند نهاية هذه المرحلة الأولى من هجرته، قبل أن يغادر الإسكندرية، نستخلص فيها حقائق نشأته: طفلاً في لبنان، وصبياً في الإسكندرية، وقد بلغ فيها مرحلة الشباب الأولى، قبل أن يتابع هجرته إلى العالم الجديد.

---

(١) تضطرب المراجع التي في أيدينا، في تحديد سنة ولادته في (المحيدثة)، ابتداءً من سنة ١٨٨٤ إلى ١٨٩٠ ! ولكنها تجتمع، في آخر الأمر، على اعتماد سنة ١٨٨٩ .

(٢) يبدو أنه سبق إيليا في الرحيل إلى مصر (الإسكندرية) لأن إيليا، بعد أن عمل في بيع الدخان والسجائر في دكان أبي الياس بمينا البصل، ثم في دكان أخرى، انتقل إلى العمل معه في حي العطارين، بالإسكندرية.

(٣) بعض المراجع تجعل رحيله إلى أمريكة سنة ١٩١٢، إذ زار لبنان قبل رحيله إليها، فمكث فيه بضعة أشهر، ووقف فيها إلى جانب المعارضة للمتصرف العثماني (يوسف باشا فرنكو)، هرب بعدها، وفي جعبته واحدة من قصائده السياسية (انظر الديوان الثاني «وداع وشكوى» النص ٩، وسنعود إليها من بعد).

كان الطفل – وقد نشأ في وسط يفيض بجمال الطبيعة وقوّتها، في الجبال المكسوّة بالأشجار – يتردد على مدرسة القرية الصغيرة، ويدّخر من غنى ما يطالعه، من حوله، صوراً أخصبتْ بها نفسُه، وجد فيها – بعد أن استوى عوده، وأخذ يتمرس بالتعبير عمّا يحس، وهو في الإسكندرية – مشاهد حية من سِحْر الطبيعة وألوانها: زهراً وعطراً وندًى وطيراً وجدولاً وخريرًا.

يقول في ديوانه الأول (تذكار الماضي) الذي طبعه في الإسكندرية ١٩١١، من قصيدة بعنوان «قصيدة الطبيعة»[1] التي نسجها على منوالٍ لا بدّ يحفظه، من «ديوان العرب»:

روضٌ إذا زُرتَه كئيباً
نفّسَ عن قلبك الكُروبا
إذا بكاه الغمامُ شقّتْ
من الأسى، زهرُه الجُيوبا
وشّاهُ قَطرُ الندى فأضحى
رداؤه مُعْلَماً قشيبا
فمن غصونٍ تميس تِيهاً
ومن زهورٍ تضوعُ طِيبا
ومن طيورٍ إذا تغنّت
عاد المغني بها طَروبا
ونرجسٍ كالرقيب يرنو
وليس ما يقتضي رقيبا
وأقحُوانٍ يُريكَ دُرّاً
وجلّنارٍ حكى اللهيبا
وجدولٍ لا يزال يجري
كأنه يقتفي مُريبا

---

(١) النص ٢٣.

تَسمعُ طوراً له خريراً

وتارةً في الثَّرى دبيبَا

وكلُّ معنىً به جميلٌ

يُعلِّم الشاعرَ النَّسيبا

أرضٌ إذا زارها غريبٌ

أصبح عن أرضه غريبا

ويقول، في المرحلة نفسها، يصف النيل، من قصيدة جعل عنوانها (يا نيل)[1]، فافتتح وصفه على هذا النحو الفخم القوي الجزل:

فثمّ جلالٌ يملأ النفسَ هيبةً

وثمّ جمالٌ يملأ العينَ باهرُهْ

وألحظُ شمسَ الأفق، وهْي مُطلّةٌ

تسايرُ فيه ظلَّها إذْ تسايره

إذا هيَ ألقتْ في حواشيه نورَها

رأى التِّبرَ يجري في حواشيه ناظرُهْ

يروحُ النسيم الرَّطبُ في جَنَباته

يداعبه طوراً، وطوراً يحاوره

وتقبِض من مبْسوطه نفحاتُه

كما قبضَ الثوبَ المطرَّزَ ناشرُه

كأني بها سِفْرٌ تدانتْ سطورُه

أوائلُهُ قد شُكِّلتْ، وأواخرُه

ومن هنا نجده، في دلالة مستمرة، يسمي ديوانه الثالث (الجداول)، وديوانه الرابع (الخمائل). ومن هنا أيضاً تتدخل الطبيعة في أغراض شعره، تعينه على تدفق خاطره الشعري فيه. فإذا بكى حجب الليلُ قمرَه، وإذا ضحك أضحك الدراري معه.

(١) النص ٥٢ من الديوان نفسه.

يقول يصف حال المحزون، في الديوان نفسه[1].

وأعـــوزه عـــلـى الـــبـــلـــوى مُـــعـــينٌ
وأعـــوز لـــيـــلَه الـــقـــمـــرُ الـــتَّـــمـــامُ

فـــضـــاقَ فـــؤادُه بـــالـــهـــم ذرْعـــاً
وضـــاق بـــهـــمِّه وبـه الـــظلامُ

كـــأن نجـــومه أجـــفـــانُ بـــاكٍ
كـــأن الـــلـــيل صبٌّ مـــســـتـــهـــام

وبـــالأقـــمـــار مـــا بي، فـــهْي مـــثـــلي
تحـــاول أن تـــنـــام فلا تـــنـــام

كـــأني قـــارئٌ والـــلـــيل سِـــفْـــرٌ
لـه بـــدءٌ ولـــيـس لـه اخـــتـــتـــام

✡✡✡✡

أعـــدى غـــرامي الـــنـــجـــومَ حـــتى
أســـهـــرَهـــا من الـــدجى غـــرامي[2]

✡✡✡✡

بدأ الفتى، وهو بعد في الإسكندرية، في أول تفتّحه - كما تقول بعض أخباره الأولى - يدرس قواعد النحو والصرف لنفسه، وفي بعض الكتاتيب القائمة في الإسكندرية يومذاك، وأخذ يقرض الشعر، وقد تحركت له نفسه، بحكم تكوينه، قبل كل شيء، ينسج قصائده، على مثال ما يقرأ من شعر العرب، كما رأينا، يلتزمه ويحاكيه، ويقف عند بعض قصائده وأعلامه، في المواقف التي اختار أن يقفها، منحازاً، ضمن الحزب الوطني الذي يرأسه مصطفى كامل، إلى الحركة الوطنية[3]، في ظل المقاومة التي أخذت تنشط، للاحتلال

(١) تذكار الماضي: النص ٤٩، وسيأتي الكلام على دواوينه الأخرى من بعد.
(٢) النص ٣٢ (أنا إمام الذين هاموا).
(٣) من اللافت: وقوفه إلى جانب الحركة التعليمية فيه (سميت باسم: مدارس الشعب) والحركة العمالية. وفي شعره ما يمثل لهذا التأييد ويجهر به بالرغم من ظهور خلافات جرّاءها، داخل الحزب.

الإنكليزي الذي أطبق على مصر منذ سنة ١٨٨٢، ورجاله وأتباعه، مهنئاً من يُفرَج عنه من رجالها (عبد العزيز جاويش)[١]، ومرحِّباً بمن يعود منهم من منفاه (محمد فريد)، وراثياً من يقضي من زعمائهم (مصطفى كامل)، إلى جانب رثائه رجال الفكر والإصلاح (الشيخ محمد عبده) والأدب (جرجي زيدان)، ومندداً بالسلطات العثمانية و«باستبدادها» بقومه، تنديداً ضارياً، معلناً شماتته بانكساراتها وهزائمها، محيياً خصومَها، مشيداً ببطولاتهم، وبمن يرجع إلى الحق والدستور من رجالها[٢].

وتقع، إلى جانبه، في الإسكندرية (١٩٠٩) فاجعة مبكرة: وفاة أخيه (طانيوس)[٣]، مفتتحاً بمأساته مأساة أخويه الآخرَيْن من بعد: واحدٍ إلى جانب أبي ماضي أيضاً، في مدينة سِنسِنّاتي، في المهجر الأميركي، سنة قدومه إليها من مصر (ديمتري ١٩١٦)، منتحراً برصاصة أطلقها على نفسه، قبل أن يتجاوز العقد الثاني من عمره، وأخته (أوجيني- جيني) في لبنان، إثر ولادتها الأولى (١٩٢٣)[٤]، فضلاً عن موت فريق من أهل زوجته (دوروثي نجيب دياب) في سن مبكرة.

وقد أُتيحَ له، وهو بعدُ في هذه المرحلة من حياته في الإسكندرية، أن يصل صوتُه إلى بعض صحف المهجر، فنُشرت فيها بعض قصائده التي كانت بعضُ الصحف المصرية تنشرها «اللواء» و«الهداية» و«الشعب» و«القلم»، وهي قصائد تحمل شكواه الاجتماعية أو السياسية، ضمّها، من بعد، إلى (تذكار الماضي)، وتشير إلى ما تحمل نفسه من هموم الغربة وأوجاع الأحداث التي تقع من حوله، في الوطن الذي غادره (لبنان) والوطن الذي يعيش فيه (مصر)، وتحمل شكواه من بعض الوقائع العامة، ومن المعاناة الذاتية التي تضطرب بها نفسه.

---

(١) نشر سنة ١٩٠٩ في جريدة اللواء (وهي جريدة الحزب) كلمة عنيفة، في ذكرى واقعة (دنشواي)، فحكم عليه بالسجن. اندفع أبو ماضي، مخالفاً نصيحة الكثيرين، فنشر في (اللواء) قصيدةً، هنأه فيها بالإفراج عنه.

(٢) تراجع الأمثلة، في هذا كله، في ديوانيه: الأول (تذكار الماضي) والثاني (الجزء الثاني من ديوان إيليا أبي ماضي)، إذ لا فائدة في إيراد نماذج منها هنا، أو في تحديد نصوصها.

(٣) في (تذكار الماضي) قصيدة بعنوان «البدر الآفل» يبكيه فيها بكاء مرّاً: النص ٣٧.

(٤) في المراجع، بين أيدينا، نبأ عن موت أخ آخر له، سمته (إبراهيم)، لم أجد تفصيلاً عنه.

يقول، مثلاً، من قصيدة تحمل عنوان «شكوى فتاة أرغمها ذووها على الاقتران برجل طاعن في السن»، فصوّر بلسانها عجزها عن الرضا بما كُتب لها، وتطلعَها إلى الحياة التي ترى نفسها أهلاً لها، حتى كأنه كان يحكي حكاية فُرقته عن أهله، وما كان يتطلع إليه ويرى نفسه قادراً على تحقيقه، بموهبته التي أصبح يسعى أن يلفت إليها الناس:

زعَـــمــــوا أنّ الـــغــــوانيْ لُـــعَبٌ
إنمـا الـلُّـعْـبـةُ، طـبـعـاً، لـلـصـبي
وأنـــا مـــازلتُ في شَـــرْخِ الـــصِّـــبـــا
فـــلـــمـــاذا فـــرِّط الأهـــلـــون بي؟
لـيَ قَـــدٌّ وجـــمـــالٌ يـــزدري
ذاكَ بـــالـــغُـــصن، وذا بـــالـــكـــوكب
قـــد جـــرى حبُ الـــعلا مـــجـــرى دمي
فـــهْيَ سـؤلي، والـــوفـــا من مَـــشـــربي
أنـــــا، لـــــو يـــعـــلـم أهـــلي، درّةٌ
ظُـــلـمِتْ في الــبـيـع كـالـمُـخْـشَـلب[1]

على هذا النحو، نحسب عمله في الحقل السياسي، ودفاعه عن مصر وحقوقها، ونشره شعرَه في صحفها، واتصاله برجالها[2]، موصولاً باختيار السبيل إلى تعريف المصريين به، وبموهبته التي أصبح، من بعد، يعتزُّ بها غاية الاعتزاز[3]، ويرفعها، أحياناً، فوق مستواها الإنساني[4].

(١) تذكار الماضي: النص ٥، والمخشلب: الخرز، والحجر المزيف المصنوع.

(٢) في أخباره، عن هذه المرحلة اهتمامه بقضية المرأة، وقضية الإصلاح الديني ورجاله (الشيخ محمد عبده) والدعوة إلى الدستور، والانتصار للواقفين في وجه تمديد الترخيص لشركة قناة السويس البريطانية، أربعين عاماً (على حين أيّد أغلب الضيوف «الشوام « ضدّ الترخيص). ومن أخباره أيضاً، امتداحه ديواناً من الشعر كتبه علي الغاياتي، باسم (وطنيتي) صادرته سلطات الاحتلال البريطاني التي كان على رأسها المعتمد (سير الدون غورست). وفي شعر أبي ماضي ذكر له وتنديد به : ما لم تجمعه الدواوين: النص ٥٢ (مصر والاحتلال).

(٣) انظر الأبيات الأولى من قصيدته «١٩١٠» (من : تذكار الماضي) والأبيات الأخيرة من النص٤٤ «مريض بالغرور».

(٤) انظر النص رقم ٥١، «إنّه الشاعر» (ما لم تجمعه الدواوين ص١١٢٥).

على أنه وصل، في نهاية هذه المرحلة، إلى أن أوصل صوته، عن طريق الصحف في الوطن والمهجر، إلى الناس من المحررين وأصحاب الصحف ومن يقرؤها، وأن يجد في نفسه القدرة على تكوين ديوانٍ من مجموع قصائده التي أجازها الرقيب، ودَّع به هذه المرحلة من حياته، وادّخر في جعبته قصائد أخرى سياسية لم يُجِزْ له الرقيب نشرها. وقال في آخر الديوان: إنه ينوي نشرها في «الجزء الثاني.. وإنّ نشْرها لقريب»[1].

فهكذا نرى أن صوته الخاص، في هذه المرحلة، لم يكن غائبًا عنها، كما توحي بعض الدراسات التي تناولت شعره فيها، وإن كان صوت الآخر هو الغالب عليه، في اختياره قوالب التعبير الفني لقصائده، على نحوٍ يذكّرنا، ونحن نقرؤها، بقصائد معينة لكبار شعرائنا القدامى.

ففي (تذكار الماضي) أصواتٌ يمكن أن نصل في تتبع أصداء مواقفها، إلى دواوينه الأخرى التي نشرها، في مراحل عمره التالية، مثل موقفه الشائع في شعره، من الإنسان وتعاليه على الطينة التي خلق منها[2]:

قالوا: ترقّى سليلُ الطين، قلت لهم:
الآن تم شقاء العالَم الآنا
إن الحديدَ إذا ما لان صار مُدىً
فكنْ على حذرٍ منه إذا لانا
والمرء وحشٌ، ولكنْ حسنُ صورتِه
أنسى بلاياه مَن سمَّاه: إنسانا

وموقفه من قيمة الإنسان الروحية، وتقديمها على صورته الظاهرة: «فالسرّ في الأرواح»، كما صار يقول من بعد[3]:

إذا كان حُسنُ الوجه يُدعى فضيلةً
فإن جمالَ النفس أسمَى وأفضلُ

(١) ملاحظة وردت في آخر ديوانه (تذكار الماضي) ص٢٣١.

(٢) تذكار الماضي: النص الأول (الإنسان والدين) وانظر فيه أيضاً النص رقم ٤٧ «الكبرياء خُلّة الشيطان». ونعود إلى الوقوف عليه، من بعد.

(٣) النص ١٢ في (الديوان الثاني) ص٢٩٦.

وموقفه من رجال الدين الرهبان، في خطابه إلى لبنان وأهله[1]:

إنَّ الأبالسَ حين أعيا أمركُمْ
جاءتكمُ في صورة الرُّهبانِ
فحذارِ من أن تُخدعوا بلباسهمْ
فهمُ الضواري في لباس الضَّانِ
إن كان لي ذنبٌ وهم غفرانُه
آثرتُ أن أبقى بلا غفران
أو كنت في النيران حيث لديهمُ
منها النجاةُ، رضِيتُ بالنيران

فإذا رجعنا إلى النظر في اختيار أساليب التعبير، وصوغ الجمل فيها، طغى صوت الآخر، وبدأت تتوارد على الذاكرة أسماء كبار شعراء تراثنا الشعري(المتنبي، أبو العلاء، بشار، أبو نواس، وغيرهم) على نحوٍ يشعرنا بمطالعات إيليا الجادّة لدواوينهم، واختيار القصائد السائرة، من شعرهم، في جمهور المتأدبين [2]

والذي ننتهي إليه أن الشاب، في أولى مراحله، كان يستكمل عدَّته، ويستعرض أسس ثقافته الشعرية، قبل أن يرتقي بها، من بعد انتقاله إلى العالم الجديد، وتأثره، في مراحله المقبلة، بأجوائه، وانتظامه عضوًا في(الرابطة القلمية)، والتقائه بكبار أعضائها: جبران ونعيمة ورشيد أيوب ونسيب عريضة.

****

---

(١) انظر النص ٣٩ «في سبيل الإصلاح» (تذكار الماضي) .

(٢) نلاحظ من بعد، أن أبا ماضي تعدى، في مطالعاته، شعراء العصر العباسي، إلى شعراء العصور المتأخرة (العصر الأيوبي والمملوكي، لحاقاً بشعراء مرحلته الزمنية :شوقي وحافظ والبارودي والأخطل الصغير وبدوي الجبل). وربما كان تأثره بكل واحد منهم يحتاج إلى درس خاص، حتى في اقتباس بعض معانيه!

(٢)

ولكنه قطع شوطًا آخر، مهّد له الطريق، نجد معالمه المتقدمة في ديوانه الثاني الذي نشرته له، في نيويورك جريدة (مرآة الغرب اليومية) سنة١٩١٩ . ففيه نستطلع المقدمات الحقيقية التي انتهى إليها في ديوانه الثالث (الجداول)، وشكّلت عالمه الشعري الرحب الذي دخل به تاريخ الشعر العربي من بابه الخاص، وأصبح معه مَعْلماً متقدماً من مَعالم التجديد في حياتنا الأدبية.

ولهذه المعالم، من هذا الجانب وحده، في هذا الديوان (الثاني)، رضي جبران أن يقدم له بمقدمة حفظ لأبي ماضي فيها قدرته على تخطي عالم الحس، وقرّبه من مفهومه الخاص للشعر، بأسلوبه المجازي المعروف: «الشعر عاطفة تتشوق إلى القصيّ غير المعروف، وتجعله قريباً معروفاً، وفكرةٌ تناجي غير المدرك، فتحوله إلى شيء ظاهر مفهوم... فالشعر يصعد إلى الملأ الأعلى على سُلّم أقوى وأبقى من الجبال ! يصعد بعزم الروح ويتمسك بحبالٍ غير منظورة... يتمسك بحبال الفكر، ويملأ كأسه من عصير أرقّ من ندى الفجر، يملؤها من خمرة الخيال. والخيال هو الحادي الذي يسير أمام مواكب الحياة نحو الحق والروح... وإيليا أبو ماضي شاعر، وفي ديوانه سلالم بين المنطق وغير المنطق، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها...».

وقد كان الفاصل الزمني بين الديوانين، الأول والثاني، ثماني سنوات (١٩١١-١٩١٩)، وهو عين الفاصل الزمني بين ديوانه الثاني هذا وديوانه الثالث (الجداول: ١٩١٩ - ١٩٢٧).

فأما الفاصل الفكري والنفسي والفني بين هذين الديوانين (الأول والثاني) فأبعد كثيراً من هذا الفاصل الزمني، وكان لانتقاله إلى العالم الجديد، لاشك، والتقائه بعض

أعضاء الرابطة أثر فيه، بالرغم من أن انتقاله من سِنْسِنّاتي[1] إلى نيويورك ١٩١٦[2] حين التقى بجبران ونعيمة وزملائهما، واختلط بهم، تمّ في سنوات قليلة، قبل ظهور هذا الديوان، أعني قبل أن يعاد تشكيل الرابطة القلمية[3]، وتعلِن عن برنامجها وتصدِر مجموعتها سنة١٩٢١ .

على أن الديوان الثاني اشتمل أيضاً على قصائد كان كتبها في الإسكندرية، ولم يتح له نشرها، لأسباب سياسية. وفيه، لاشك، قصيدة أو أكثر كتبها في زيارته لبنان، لبضعة أشهر، قبل أن يركب البحر إلى أمريكا، هارباً، على ما تقول بعض المراجع، من وجه السلطة العثمانية القائمة فيه آنذاك، بعد أن انضم إلى صفوف معارضيها[4]. منها قصيدته التي سماها «وداع وشكوى»[5]، شكا النوى في أولها، ووصف موج البحر الهائج الذي أحاط بمركبه، حتى ظن الموت قريباً منه. ثم قال، كأنه يخاطبه من الحال التي نعرفها في لبنان اليوم:

نيويوركُ يابنت البحار، بنا اقصِدي
فلعلنا في الغرب ننسى المشْرِقَا
وطنٌ أردناه على حب العُلا
فأبى سوى أن يَستكين إلى الشّقا
أوَ كلما جاء الزمان بمُصلحٍ
في أهله، قالوا طغى وتزندقا

---

(١) انضم في سنسنّاتي إلى أخيه (مراد) في عمله التجاري، ولم يصدر له شيء خلال عمله معه، إلا أن يكون ما نشر في بعض الصحف والمجلات.

(٢) دعي، في انتقاله، إلى الإشراف على مجلة تُصدرها مجموعة من الشباب الفلسطينيين، باسم (المجلة العربية). ثم انتقل إلى العمل مع شكري بخّاش في المجلة التي كان يصدرها باسم (الفتاة)، إلى أن استقر أخيراً في العمل مع نجيب موسى دياب، في جريدته (مرآة الغرب اليومية)، وفيها تم طبع ديوانه الثالث (الجداول) أيضاً.

(٣) ظهرت (الرابطة) في منتصف عام ١٩١٦، ثم أعيد تشكيلها من بعد، لإبعاد (نجيب موسى دياب) صاحب (مرآة الغرب) عنها.

(٤) (إيليا أبو ماضي، دراسات عنه وأشعاره المجهوله) لجورج ديمتري سليم، ص ١٧٧، دار المعارف – القاهرة ١٩٧٧.

(٥) النص ٩ (الديوان الثاني) ص٢٧٩.

هــذا جــزاءُ ذوي الــنُّــهى في أمــةٍ
أخـذ الجـمـودُ عـلـى بـنـيـهـا مَـوثـقـا
وطنٌ يــضــيق الحــرّ ذَرْعــاً عــنــدَهُ
وتــراه بــالأحــرار ذرْعــاً أضْــيَــقــا
شـعبٌ كـمـا شـاء الـتـخـاذل والـهـوى
مــتــفــرقٌ، ويــكــاد أن يــتــمـزّقـا
لا يــرتــضـي دينَ الإله مــوفّــقــاً
بـين الـقـلـوب، ويـرتـضـيه مـفـرِّقـا
لم يـعـتـقـد بـالـعـلـم، وهْـوَ حـقـائقٌ
لـكـنه اعـتـمـد الـتـمـائمَ والـرُّقى
وحـكـومـةٌ مـا إن تـزحـزحُ أحـمـقـاً
عن رأسـهـا، حـتى تـولي أحـمـقـا
بـيـنـا الأجـانبُ يـعـبـثـون بـهـا كـما
عـبث الـصَّـبـا سـحَـراً بـأغـصـان الـنَّـقـا
(بـغـدادُ) فـي خـطـر، و(مـصـر) رهـيـنـةٌ
وغـداً تـنـال يـدُ المـطـامع (جِـلَّـقَـا)!

ثم التفت يصف الحياة في مغتربه الجديد، في ردة الفعل لما وقع له في لبنان:

أصـبـحتُ حـيث الـنفسُ لا تـخـشى أذىً
أبـداً، وحـيثُ الـفـكـرُ يـغـدو مُـطـلَـقـا
هـذي هـي «الـدنـيـا الجـديـدة» فـانـظـري
فـيـهـا ضـيـاءَ الـعـلـمِ كـيـف تـألَّـقـا
إني ضـمِـنتُ لكِ الحـيـاةَ شـهـيـةً
في أهـلـهـا، والـعـيشَ أزهـرَ مُـونِـقـا
نـفـسي! اخـلُـدي ودعي الحـنـينَ فـإنمـا
جـهلٌ بُـعـيـد الـيـوم أن نـتـشـوَّقـا

وفي الديوان نصوص أخرى ـ نُشر بعضها في عدد (السائح) الممتاز التي كان عبد المسيح حداد يصدرها، وفي(الفنون) لنسيب عريضة ـ من نتاج هذه المرحلة التي سبقت مجيئه إلى نيويورك.

ثم تم، في آخر الأمر، انتقاله محرِّراً في جريدة (مرآة الغرب) أوائل سنة ١٩١٨، وتمت خطبتُه لابنة صاحبها «نجيب موسى دياب»: «دوروثي– دورا». لكنّ حادثاً آخر لاحقه، وقع في السنة نفسها لأخت خطيبته (أولغا)، اذ دهمتها سيارة، في بروكلن، ذهبت بحياتها.

هذه جملة مقدمات هذا الديوان، توحي بأن كثيراً من قصائده كانت كتبت، كما أشرنا، في المرحلة الأولى من حياته، في الإسكندرية، وجعلته يسميه باسم (الجزء الثاني)، كأنه لاحق بالجزء الأول (تذكار الماضي).

وهذا إذن تفسير ما اتصفت به جملة قصائد هذا الديوان بما اتصفت به قصائد ديوانه الأول (تذكار الماضي)، من النزوع إلى تقليد الشعراء الكبار القدامى[1]: التمسك بالجزالة في الصياغة، والقوة في المطالع، وطغيان الحسّية، والذهاب إلى النهايات في مواقف النفس مما تشاهده أو تعانيه: الكلف بالمبالغات، والتزام مذهبهم في الوصف والتصوير واختيار التشابيه، بما يعني، في آخر الأمر، اقترابه منهم، في موقفه من صورة الحياة والإنسان في أنفسهم.

ولعل ما نقلناه هنا، قبل قليل، من قصيدته (وداع وشكوى) يمثل لما نقول. فالأبيات فيها وحدات مستقلة، تنفرد بمعانيها. والتراكيب تقريرية ذات خط بياني واحد، تدل على تماثل الرؤية، وإملاء الأحكام إملاءً يجعل المتلقي يتلقاها بفتور. ثم إن الصورة التشبيهية الوحيدة في الأبيات مقحمة، أملاها التزام التقفية، بل هي لا تخلو من التنافر، فعبثُ الأجانب المرذول بوطنه لا يُسيغ الإحساسُ السليم تشبيهه «بعبث الصَّبا، المرغوب سحَراً، بأغصان النَّقا»!

---

(١) الرجوع إلى كتاب (إيليا أبو ماضي بين التجديد والتقليد) لطالب زكي طالب، يزود الباحث بأمثله كافية، تمثل لهذا النزوع في شعر أبي ماضي، وتردّه إلى المتنبي حيناً، وإلى أبي العلاء حيناً، وإلى آيات من القرآن الكريم حيناً.

ومن نصوص الديوان المنتقاة قصيدته «أنا وأخت المهاة والقمر»[1] المصوغة على نحو يذكِّر المتلقي بقصيدة معروفة لبشار بن برد، إذ البناء في القصيدة واحد، والروح واحد، والموقف النفسي واحد. وقد اقتضى أن يتقارب فيها سياق المعاني والصور، وإن اختلفت المفردات.

وقصيدة «بلادي»[2] تفوح منها ريح خطابية وصياغات وأبنية تصلنا رأساً بالمناخ التقليدي في شعرنا القديم:

رويــــدَك أيـــــهـــــا الّلاحـي رويـــــداً
لك الــــويلاتُ، لــــيت ســــواك لامـــــا
رجــالَ الــتـركِ مـا نـبـغي انـتـقـاصـاً
لَـــعَـــمــرُكمُ، ولا نـــبــغي انـــتــقــامـــا

وفيها ما يذكّرنا بقصيدة عمرو بن كلثوم وأسلوب التفاخر فيه:

ألــــســـنـــا نـــحن أكـــثـــرَهم رجـــالاً
إذا عُـــدّوا، وأرفـــعَـــهم مـــقـــامـــا

وبالمعاني التقليدية، في مثل المواطن التي كانت تقال فيها:

وعِـــــلْمُ المــــرءِ أنّ المــــوت آتٍ
يُــهــوِّنُ عــنــده المــوت الــزؤامــا

****

(١) النص ٥ من الديوان الثاني.
(٢) النص ٢٢ .

(٣)

بعد سنتين من صدور الديوان الثاني (١٩١٩ ـ ١٩٢١)، أصدرت (الرابطة القلمية) مجموعتها الأولى، من نتاج أعضائها العاملين (وقد سمتهم: «عُمّالا»)، وفيها خمسُ قصائد مختارة لأبي ماضي، ثلاث منها كانت صدرت في هذا الديوان الثاني «فلسفة الحياة» و«لم أجد أحداً» و«ابنة الفجر»[1] واثنتان تضمّنهما ديوانه الثالث الذي صدر بعد ست سنوات من صدور المجموعة (الجداول ١٩٢٧)، وهما: «المساء» و«نحن»[2].

يعدّ اختيار هذه القصائد في مجموعة الرابطة، بمثابة براءة انتساب إلى الحركة الأدبية الجديدة التي «تتخذ من الأدب رسولاً بين نفس الكاتب ونفس سواه، لا معرضاً للأزياء اللغوية، والبهرجة العروضية»، على حد ما جاء في مقدمة المجموعة التي صاغها مستشارها وأمين سرها ميخائيل نعيمة، «يرى القارئ من نفسه [فيه] ما كان خفياً عنه، وينطق بما كان لسانه عيياً عن النطق به، فيقترب من نفسه، ويقترب من العالَم » [3].

ضمن هذه المقدمات صدرت مجموعة أبي ماضي الشعرية الثالثة، (الجداول)، بعد أن مضى على صدور المجموعة الثانية، ثماني سنوات (١٩١٩-١٩٢٧) كما ذكرنا، أمضاها أبو ماضي في أجواءٍ أشاعتها قصائده المختارة التي أقبل القراء في الوطن العربي[4] على قراءتها، وطلبة المدارس على حفظها.

وقد اختلطت الأحداث السارة في حياته، خلال هذه السنوات، بالأحداث الحزينة، فأمدته كلتاهما بالزاد الوجداني والفكري، وبالحافز الفني، في تأمل الحياة وتفسيرها

---

(١) انظر فيه، على التتابع، للنصوص التالية: ٣ و١١ و٧٩.

(٢) النص ١٥ و١٩. وقد صدر النص الثاني «نحن»، في (الجداول)، بعنوان مغاير «العميان».

(٣) مجموعة الرابطة القلمية ص ١٨.

(٤) كانت المجلات والصحف، في الوطن، تنقل نتاج المهجريين المختار إلى قرائها، على نحو ما كانت تُنقل في المهجر. وتقف (المقتطف) و(الهلال) في مقدمتها.

وتصوير معانيها وعبَرها، والنفوذ إلى حقائقها، في ضوء ما حاق به وأتيح له معاً:

فقد ماتت خلالها (١٩٢١) حماته (كاترين) بالسرطان، في أول العقد الرابع من حياتها، ورزق بعدها بسنتين (١٩٢٣) بأول أولاده (ريتشارد). ولكنه أصيب بعدها، بأشهر قليلة، بموت أخته (أوجين) في لبنان، في ولادتها الأولى، كما أشرنا، ووصل والداه إلى نيويورك، بعد وفاتها بأشهر. ورزق، في السنة التالية (١٩٢٤)، ولده الثاني المعوّق(إدوارد)، وصار خلالها وكيلاً لمجلة (المقتطف)، وخاض بعدها حرباً هجائية قاسية نعود إليها من بعد[1].

وكان ديوان (الجداول) نتاج ما خلّفته هذه الوقائع وتأمّل الحياة في أضوائها المتعاقبة، ومع ما اكتسب خلالها من قدرات فنية جديدة أرهفتها حقائق الحياة، في المحيط الجديد، وما أشاعه الرابطيون فيه، وبتأثيره، من حقائق العمل الأدبي ومعانيه الجديدة عندهم. فأبو ماضي، في هذا الديوان، طلْق الفكر، طلق الإحساس، طلق العاطفة، طلْق التعبير.

✡✡✡✡✡

وامتد الزمن، بعد (الجداول)، ثلاثة عشر عاماً، غادر خلالها عمله في (مرآة الغرب)، بعد أن أمضى فيه أكثر من عشر سنوات (١٩١٨-١٩٢٨). ثم تتابعت الأحداث: ففي الأخبار: أن خلافاً مالياً شب بينه وبين حَميه (صاحب: مرآة الغرب) استوجب، سنة ١٩٣٣، اللجوء إلى المحاكم[2]. وفي الأخبار أن والده رجع إلى لبنان ١٩٢٨، بعد أن أمضى في أمريكا خمس سنوات، وخلّف زوجه (أم أبي ماضي: سلمى) فيها، حيث أمضت بقية حياتها! مما قد يعني أن خلافاً شديداً دب بين الزوجين، ماتا بعده، خلال هذه المدة، منفصلَين (مات أبوه سنة،١٩٣١ وماتت أمه، بعد وفاة زوجها باثني عشر عاماً ١٩٤٣)!

وفي أخبار هذه المرحلة أيضاً ما يشير إلى مكان جبران من نفسه، فقد كان في اللجنة التي هَيأت لحفل يوبيل جبران الفضي(١٩٢٩) في بروكلن - نيويورك. والخبر يعني

---

(١) نجد آثارها في الشعر الذي أغفله أبو ماضي وجورج صيدح، فلم يُجمع في الدواوين (انظر: مالم تجمعه الدواوين، النصّان المتتابعان: ٤٢ و٤٣).

(٢) انظر كتاب جورج ديمتري سليم ص ١٨٠.

أن تأثره بفكر جبران ينبغي أن يَرِدَ في تقويم نتاجه، مهما بدا محدوداً عند بعض دارسيه. على أن الحدث العريض، في هذه المرحلة، هو إنشاؤه مجلة (السمير)، وصدورها (١٩٢٩) نصف شهرية، قبل أن تتحول إلى جريدة يومية، بعد سبع سنوات من إنشائها (١٩٣٦)[(١)].

ولكن أباه توفي في لبنان، في بلدته (المحيدِثة)، بعد إصدار (السمير) بسنتين (١٩٣١)، وأُعلنت، بعد وفاته، بأقل من أسبوعين، وفاة جبران (١٩٣١/٤/١٠)، فخصصت (السمير) عدداً لذكراه. وتوفيت أخت زوجه (أولغا) في عقدها الثالث (١٩٣٢)، إثر عملية الزائدة المعوية. ولكنه رزق، في العام الذي تلا وفاتها (١٩٣٣)، بابنه (روبرت) ثالث أولاده.

خليط من الأحداث السارة والوقائع الحزينة، سنّة الحياة التي تُظِلُّ الناس جميعاً، ولكنها، في حياة أبي ماضي، تبدو، في الجملة، أشدّ كثافة وأكثر قَتاماً.

على أن الأخبار تتوارد أيضاً بتكريمه، في حفل خاص (١٩٣٥) رعته الجالية السورية. ويُطبع (الجداول)، في العالم العربي، من غير استئذان، في سورية والعراق، بما يفيد امتداد شهرته امتداداً لعل شاعراً آخر لم ينافسه فيه.

ومع هذه المقدمات أيضاً صدر ديوانه (الرابع: الخمائل ١٩٤٠)، وطبع في مطابع جريدته (السمير)، وأقيمت له حفلة نشرت (السمير) الكلمات التي ألقيت فيها. وتبع صدورَه انتشارٌ بعض قصائد (الجداول) على ألسنة كبار المطربين في العالم العربي: فقد غنى محمد عبد الوهاب (١٩٤٤) مقاطع من قصيدة (الطلاسم)، واختارت أسمهان، في العام نفسه، أجزاءً من قصيدة (المساء) لتغنيها، لحنها لها رياض السنباطي، ولكنها ماتت قبل تسجيلها[(٢)].

✡✡✡✡✡

---

(١) أدرجنا، في آخر هذه الدراسة، عدداً من صفحاتها المصورة، تنقل بعض ما كان يكتبه فيها أبو ماضي.

(٢) خطوط هذه الأخبار كلها، وكثير غيرها، استقيت من المصدر السابق. وحيثما أُغفل ذكر المصدر، لوقائع من حياة أبي ماضي، فالمرجع فيها: كتاب جورج ديمتري سليم.

ثم عاد أبو ماضي فواجه، بعد صدور (الخمائل)، أيام الأحزان وأيام المسرّة التي حفلت بها حياته كلها، على النمط المختلط نفسه: فقد توفيت والدته (سلمى) بعد صدور الديوان بثلاث سنوات (١٩٤٣)، وشارك في تأبين بعض أصدقائه، ودشّن، في السنة نفسها، المبنى الجديد لجريدته (السمير)، وشارك أيضاً في بعض حفلات الزّفاف، ورأس، في الوقت نفسه، حفلة أقيمت لتأبين زميله في (الرابطة) الشاعر الحمصي: نسيب عريضة، ورثى، زميله الحمصي الآخر: ندرة حداد.

وأتيح له أن يزور وطنه لبنان في مؤتمر اليونسكو الذي عقد في بيروت (١٩٤٨)، مع صدور الطبعة الثانية، من ديوان (الخمائل) فيها، فزار (المحيدثة) وأقيمت له حفلة تكريم في نادي مدرستها. وأذاعت الإذاعة مقتطفات من شعره كانت دعته إلى تسجيلها. وصدر، في هذه الأوقات السارة، مرسوم بمنحه وسام الاستحقاق الفخري المذهّب. وأقيمت حفلة علّق على صدره فيها وسام الأرز الوطني اللبناني، من مرتبة ضابط.

وزار سورية أول عام (١٩٤٩)، فأقيمت له في الجامعة السورية (جامعة دمشق) حفلة تكريم رعاها رئيس الجمهورية، وعلق على صدره فيها وسام الاستحقاق بدرجة ممتاز[١].

ثم مضى ما يقرب من ثماني سنوات بعدها، أمضاها أبو ماضي في رعاية جريدته (السمير). ولكنه مرض في نهايتها. ولم يلبث أن توفي بالسكتة القلبية سنة ١٩٥٧، بعد أن باع مطابع الجريدة وتخلى عنها، فأقيمت، في ذكراه، حفلات في سورية ولبنان ومصر والمهجر.

✡✡✡✡✡

وكان قد ترك، في الصحف والمجلات، نصوصاً شعرية، قيل: إنه جمع بعضها، قبل وفاته، فنهض صديقه جورج صيدح باختيار ما يرضيه منها، وكوّن منها ديواناً سمّاه (تبر وتراب)، نشرته دار العلم للملايين في بيروت، في طبعته الأولى سنة ١٩٦٠، بعد عشرين

(١) كان كاتب هذه السطور في جملة من حضرها من طلبة الجامعة، ولكن القصيدة التي كتبها لهذه المناسبة لم يلقِها هو، فألقاها بالنيابة عنه، وهو يسمعها، الشاعر سليم الزركلي. وربما خشي أن يبين في إلقائه أثر الغربة الطويلة التي كان أمضاها في المهجر (١٩١١- ١٩٤٩).

سنةً من صدور (الخمائل)، وحوالي خمسين سنة من صدور ديوانه الأول، لم يحتجب ذكر أبي ماضي خلالها عن ضمير القراء العرب في الوطن والمهجر.

وقد ضم هذا الديوان الخامس تسعة وخمسين نصّاً شعرياً لم تُضِف لأبي ماضي شيئاً لم يُقَلْ فيه قبل صدوره، أو شيئاً لم نصل إليه.

وأكثر نصوصه قيل في مناسبات محدَّدة، بعضها ذو قيمة نفسية أو قيمة إنسانية ساطعة، مثل «وطن النجوم»[1]، في مخاطبة وطنه (لبنان)، وقد رأى النجوم (في زيارته له ١٩٤٨) تتلألأ في سمائه، بعد أن غادر سماء أمريكا التي تحجبها الأضواء المصنوعة، ومثل «تحية الشام»[2] التي ألقيت في دمشق (١٩٤٩) في حفلة التكريم التي أشرنا إليها، ومثل قصيدته «الشاعر والكأس»[3] التي تصوِّر، حالاً من أحوال النفس، يرى صاحبها من حوله كل ما يتطلع إليه، ولكنه لا يعبأ به، كأنه لا يراه ولا يريده:

كالتماثيل حوله ... من نحاسٍ ومن رُخامْ
لا اكتئابٌ ولا رضا ... لا بكاءٌ ولا ابتسامْ
فإذا الكون عنده ... جَدَثٌ كله رِمامْ

ومثلها، في أغلبه، مقطوعات قصيرة. أما قصائد المناسبات فطويلة، ولكنها مصروفة إلى غاياتها التي كتبت من أجلها. وربما جاء فيها بما كان يشغله ويصرف همَّه إليه. ففي قصيدته «تلك السنون»[4] التي ألقاها في حفلة اليوبيل الفضي لجريدته «السمير» (١٩٥٤) وصفٌ لما عانى في متابعة إصدارها:

إني أراني بعد ما كابدتُه
كالفُلْك خارجةً من الأنواء
وكسائحٍ بلغ المدينة بعدما
ضلَّ الطريق وتاهَ في البيداء

---

(١) النص ١ ص٨٤٩.
(٢) النص ٢ ص٨٥١.
(٣) النص ٣ ص ٨٥٦.
(٤) النص ٩ ص ٨٦٩.

وشكرٌ لمن عاونه في رفع شأنها، وتقديرٌ لقيمة ما بذلوه في رَفدها. ثم انعطف بعدها يقول، على عادته في خطاب من يسميهم «الأعداء» أو «الحسّاد»:

شكراً لأعدائي، فلولا عَيْثُهم
لم أدرِ أنهمُ من الغوغاء
نهشَ الأسى، لما ضحكتُ، قلوبَهم
عرسُ المحبةِ مأتَم البغضاء
ذنبي إلى الحسّاد أني فُتُّهم
وتركتهمْ يتعثّرون ورائي
...
عفوَ المروءة والرجولة، إنني
أخطأتُ حين حسبتُهمْ نظرائي!

وفي الديوان، من مثل هذه المناسبات، عدد كبير، لحظَه بعض الدارسين، فعدّ الديوان به خطوةً إلى الوراء: شغَلَه الانصراف فيه إلى المناسبة، عن تأمل الحياة في معانيها العميقة ومجاليها الطلقة، واستجابةِ الفكر في تفسيرها وتصويرها وجلائها.

على أن هذا الحكم لا يصح، على إطلاقه، ففي الديوان قصائد كتبها أبو ماضي في بعض المناسبات، فكانت المناسبة فيها فرصة أتاحت له الوصول إلى عالَم جديد، أو فكرةٍ مبدَعة[1].

✲✲✲

ولو لم ينتدب جورج ديمتري سليم نفسه لجمع ما لم تجمعه الدواوين، من شعر أبي ماضي، لبقي جانب منه مطوياً عنّا. صحيح أن الصورة، في جملتها، لن تتغير علينا، ولكنها، في بعض أطرافها، لن تكتمل. ولن تكتمل صورة الحياة آنذاك، من جانبيها الاجتماعي والثقافي، في أوساط المهاجرين العرب. يكفي أن نذكر أن مجموع ما جمعه في

---

(١) انظر قصيدته التي كتبها في قدوم أحد الأعياد «الغبطة فكرة»، فانتهى فيها إلى أننا قادرون على استجلاب الإحساس بالغبطة عن طريق الفكر، باستذكار ما نحن فيه من نعمة الوجود والتمتع بقدرات الحواس وسلامتها. (الخمائل) : النص ٤٤ ص٧٩٣. وسنقف أيضاً، من بعد، على قصيدته (إنه الشاعر) التي ألقاها في حفلة تكريم زميله في (الرابطة)، الشاعر نسيب عريضة (ما لم تجمعه الدواوين: النص ٥١) وساقه الردّ على أصحاب «الكشاكيل» إلى صوغ مثاله (العير المتنكر).

كتابه هذا يزيد على خُمْس مجموع شعر أبي ماضي، وأنه يغطي أيام إقامته في الوطن (في مقامه في مصر ولبنان) وفي المهجر.

فقصيدته «مصر والاحتلال»، مثلاً، كتبها أيام إقامته في الإسكندرية (١٩١٠)، ولكنه لم ينشرها في ديوانه الأول الذي أصدره فيها، ونشرتها جريدة (الشعب)، وكانت تنطق بلسان الحزب الوطني الذي اتصل به أبو ماضي، كما علمنا، إلى حد الظن بانتسابه إليه[1]. ومثلها قصيدته في تهنئة الشيخ عبد العزيز جاويش بخروجه من السجن، وقصائد أخرى تتصل بالسلطة العثمانية ودستورها المعلن سنة ١٩٠٨، ويلزم أن تكون كلها مما كتبه أبو ماضي خلال إقامته في الإسكندرية، فهي تنتسب إلى الدور الأول من حياته، دور التقليد والمشي على خطا حافظ إبراهيم وأحمد شوقي والبارودي والأخطل الصغير وبدوي الجبل، وصوتهم فيها واضح تماماً.

ومثلها قصائد حنّ فيها إلى وطنه لبنان، وجرى فيها على بساط التقليد نفسه، مثل «نفثة مصدور» التي شكا فيها من الأوضاع القائمة فيه:

ولا أدري وقد طال اغترابي
لمن أشكو وقد طال انفرادي

....

فيالَهْفي على لبنانَ يُمْسي
وأهلوه على وشْك الحِداد
يسوم الساكنيه الخسْفَ غرٌّ
غويّ ضلَّ عن نهج الرشاد[2]

وقصيدته (نجوى لبناني)[3] التي طلع فيها طلعة تقليدية خالصة! ودعا فيها قومه إلى النهوض:

(١) كتاب جورج ديمتري سليم ص ٩٦.

(٢) يعني سياسة المتصرف (يوسف باشا فرنكو) الذي قيل: إنه كان يمالىء العثمانيين.

(٣) النص ٦ ص ١٠٠٩.

لا الـغِـيـدُ تُـصـبـيـنـي ولا الأقـداحُ
مـهـمـا تـغـالى فـيـهـمـا المُـدَّاحُ

إني امـرؤٌ كـلِـفٌ بـإدراك الـعلا
دأبي الجـهـادُ وغـايـتي الإصلاحُ

أهـوى بلادي دانـيَـاً أو نـائـيَـاً
أعـليٌّ في حب الـبلاد جُـنـاح؟

✡✡✡✡✡

وفي المجموعة، بعد هذه، قصائد تنتسب إلى المهجر، هاجم فيها مَنْ سماهم (حاملي الكشاكيل)[1] ممن يسعَون إلى جمع المال باسم التبرعات الخيّرة، وفيهم رجال كانوا يحملونها باسم الدين:

كـذا الـذي طاف عـلـيكم يـسـتـدر الـصدقهْ
ويـسـتـثـير الـدينَ فـيـكم وهـو ربُّ الـزنـدقه
فـمـا تـراءى شـبحٌ مـنـكـمُ إلا لحِـقَه
ومـا رأى مـائـدةً إلا أمـالَ عـنـقَهْ

وفيها تفصيلات صغيرة من مجتمع المغتربين المتعلمين في المهجر. فعدا عمّن سماهم «أصحابَ الكشاكيل»، أناس ندبوا أنفسهم للطعن على مَن تقدمَهم، باتهامهم بالسرقة، أو بارتكاب الأخطاء في اللغة. وقد رد عليهم أبو ماضي، من قصيدة طويلة عنوانها (ماذا؟)[2].

تبٌّ الـنُّـحـاةُ وتبّ المـؤمـنـون بـهمْ
أهلُ الـسَّـخـافـاتِ والـتـضـلـيلِ والـكذبِ

....

(١) انظر النصين ٨-٩ (ص١٠١٥- ١٠٢٠). والكشكول: جعبة يحملها صاحبها ليجمع فيها ما يحصّله من الآخرين..

(٢) النص ١٠ ص ١٠٢٤.

النحوُ والصَّرفُ والإعراب أجمعُها

سفاسفٌ لم تكن من قبلُ في العرَب

وربما اتسعت أوقاتهم للتظرُّف أيضاً، وإنشاء المواقف الضاحكة، والغمز، عن طريقها، ممن أساء إليهم من أهلهم، أو مَنْ آلمهم، على مثال قول أبي ماضي في أبياتٍ ملحقة بقصيدةٍ وصف فيها كلبه[1]:

وأنتَ يا واو عمروٍ	حتّام تَتْبَع عَمْرا
ولستَ تجلبُ نفعاً	ولست تدفع ضُرّا
إن البليّة غِرٌّ	أمسى يناصرُ غِرّا
لا تعذُلِ الشِّعرَ إما	جنى عليك الأمَرّا
قد كنتَ قبل القوافي	أقلَّ عقلاً وقدْرا

وقد يشتد أُوار الخصام فيدخل حقل المهاجاةِ المُرّة. وهذا الذي دعا أبا ماضي، إلى ألاّ ينقل ما جاء في ردوده منها، في الدواوين التي أصدرها. وقال بعضهم: إنه كفَّ عنها، وفضَّل أن تبقى حبيسة الصحف التي نشرتها، سماحاً منه لأصحابها، وترفعاً عن إيرادها في دواوينه. وتبعه، صديقُه جورج صيدح الذي جمع نصوص ديوانه الخامس (تبر وتراب)، فأغفلها.

قال مثلاً، من قصيدة عنوانها «أيا عجل اليهود»[2]:

توعّدني مقلّد نِفطويه

كما تتوعدُ الأنثى الرِّجالا

ويعلم أنه دوني مَقاماً

ولكنْ ينبحُ الكلبُ الهلالا

....

---

(1) النص ١١ ص ١٠٢٩ «حكاية»، والأبيات في ص ١٠٣٢.

(2) النص ١٢ ص ١٠٣٣.

ويـــــكـــــذبُ آدمٌ إمّـــــا ادّعـــــاهُ
فـــإن الـــنـــاس لا تـــلـــدُ الـــبِـــغـــالا

....

ويـــا لـــهفَ الـــصـــحـــافـــةِ يـــدّعـــيـــهـــا
حـــــمـــــارٌ طـــالمـــا لـــبِس الجِلالا

....

أتـــنـــهق والـــغـــضـــنـــفـــرُ قِـــيـــدُ بـــاعٍ
وتحـــسَـــبـــه ومـــا عـــاف الـــقـــتـــالا
فـــلـــستُ بـــنـــابغِ الـــشـــعـــراء إن لم
أردّ عـــلـــيك جُـــلّك والـــسِّـــحـــالا[1]

....

زعـــانفُ لـــست أرضـــاهـــا مـــطـــايـــا
ولا أرضى رؤوسَـــــهُمُ نِـــــعـــــالا!

وقد شُهِر من خصومه شاعر كان يعمل في الصِّحافة (وأغلب الظن أنه هو من وجّه إليه قصيدته السابقة)، واسمه أسعد رستم. وقد ختم بالرد عليه أبياته التي عنوانها «دعْه ينبح»[2] بقوله:

قل لمَن ســـبّه لـــئـــيـــمٌ كـــهـــذا
شبّ بل شـاب وهـو في الـلـؤم يـسـبحْ
عـــرِّفِ الـــكـــلـب أنه الـــكـــلبُ لـــلـــنـــا
س، ودَعْه، من بـــعـــد ذلك، يـــنـــبحْ

ووجه إليه، في الرد على قصائدَ كان أسعد رستم نشرها في جريدة (الهُدى)،

---

(١) الجلّ للدابة كالثوب للإنسان، والسحال: اللجام.

(٢) النص ٤٣ ص١١١٤.

(٣) النص ٤٢ ص١١٠٩، وقد رد أسعد رستم عليها، من بعد، بقصيدة جعل عنوانها: «ها ها..الدور لي»!

قصيدة بعنوان» إلى النابح العاوي»[٣].

يـا أيـهـا الـنـابحُ الـعـاوي بلا سـببٍ
أمـا لـنـفـسِكَ ذو ودٍّ فـيـنـهـاهـا
إن كـان غـرّك أن الحِـلمَ شـيـمـتُـنـا
فـربمـا خـالـفتْ نـفسٌ سـجـايـاهـا

....

يـا كـلبَ سـوقٍ ويـا خِـنـزيـر مـزبـلـةٍ
يـا جـيـفـةً مـا تَـحـامى الـنـاس إلاهـا
عـلى الـدروب كلابٌ مـالـهـا عـددٌ
لا شك أنكَ أعـداهـا وأغـواهـا

....

إنّ الـسـفـالـةَ لـو تـأوي إلى سـكَنٍ
كـالخـلْق لم يكُ إلا أنتَ مـأواهـا
أعـيـاكَ أن تـرتـقي حـتى تـرى بـشـراً
فـصـرتَ كـالـتـيس نـطّـاحـاً وتـيّـاهـا

✲✲✲✲

على أن في المجموعة طائفة أخرى من القصائد التي غنّى فيها أبو ماضي جمالاتِ الطبيعة، وجعل منها أمثلة للعطاء السخي المكتوم، مثل «الجدول الطروب»[١]، وإطاراً لتكريم بعض النابغين من الشعراء من أصحابه، وسما بهم، في قدرتهم على الافتتان بجمال الطبيعة، إلى أن جعلهم من نسل الآلهة[٢].

وطائفة أخرى من قصائد المناسبات (رثاء، خطبة، عرس، توديع، تعميق، امتداح).

---

(١) النص٤٥ ص ١١١٦.

(٢) النص ٥١ ص ١١٢٥ من قصيدته: «إنه الشاعر»، ونعود إليه بعد: انظر ص ٥١ - ٥٣ من هذه الدراسة.

(٣) النص ٤٧ ص ١١١٨ من قصيدته : «يا ليتني»!

وطائفة من أبيات الغزل الرقيق[٣]، تبدو العودة فيه، إلى شعراء الغزل العرب لا معنى لها، فقوة الانفعال في موقفٍ مثله يمسّ القلب، تظهر الطبيعة فيه ناطقة:

إذا أطلَّ البدرُ مِن خِدرِهِ
فإنما يطلُعُ كي تنظُريهْ
وإنْ شَدا البلبلُ في وَكْرِهِ
فإنما يشدو لكي تَسمعيهْ
وإن يَفُحْ عطرُ زهورِ الرُّبا
فإنما يعبَق كي تَنشَقيهْ
يا ليتني البدرُ الذي تنظرينْ!
يا ليتني الطيرُ الذي تسمعين!
يا ليتني العطرُ الذي تنشقين
أواه لو تصدق «يا ليتني»!

فقد حول الطبيعة وكائناتها إلى توابع لمن يحب، وحشد لها أجمل ما فيها نوراً وشدواً وعطراً، ونوّع في إيقاع الجمل والمفردات والقوافي استجابة لغنى الإيقاع النفسي.

ومثلها مقطوعته التي نهج فيها النهج نفسه[١]:

لـمّا رأيتُ الوردَ في خديكِ
وشقائقَ النعمانِ في شفتيكِ
ونشَقتُ من فَوديكِ نَدّاً عاطراً
لما مشت كفّاك في فَوديك
ورأيتُ رأسك بالأقاح متوجاً
والفلُّ طاقاتٍ على نهديكِ
أيقنتُ أنك جنةٌ خلاّبةٌ
فحننتُ، من بعد المشيب إليكِ

---

(١) الخمائل: النص ٣٠ (يا جنّتي).

ولــذاك قــد صــيّــرتُ قــلــبي نــحْــلــةً
يــا جــنّــتي، كــيــمــا يــحــوم عــلــيكِ
روحــي فـــداؤكِ، إنـــهـــا لـــو لم تـــكن
في راحـــتـــيكِ هـــوتْ عـــلـى قـــدمـــيكِ!

لكنه هنا مشى على خطوات شعراء مرحلته في الوطن، الأخطل الصغير، مثلاً، فإن صوته يتردد فيها. ولكنه احتفظ لها بالطعم الذاتي، في إشارته إلى المشيب مع الحنين.

وطائفة من شعر المواقف السياسية والوطنية التي اعتاد أبو ماضي أن يقفها في أدوار حياته كلِّها، منذ أيامه في الإسكندرية، مثل «توديع رستم بك: السفير العثماني في واشنطن»، و«عيد الحرية العثماني»، و«النكبة في سورية»[١] وغيرها.

وطائفة تصور جلسات السمر في مجالسهم وبيوتهم، وهي المجالس التي كانوا يتبادلون فيها شعراً خفيفاً يجري على نغمة «انقر يا دف على الطارة»[٢].

****

(١) (ما لم تجمعه الدواوين) النص ١٤ ص١٠٤٣ والنص ٤ ص١٠٠١ والنص ٢٥ ص ١٠٧٦، على التتابع.
(٢) (ما لم تجمعه الدواوين) النص ١٦ ص٢٧ والنص ٢٦ ص ١٠٥٠.

(٤)

على أن السؤال الكبير الذي يلزم أن تطرحه هذه الدراسة هو: بِمَ اكتسب شعر أبي ماضي مكانته في حياتنا الأدبية؟ ما هي خصائصه وصفاته الأولى؟ وما الجديد الذي جاء به ؟ وما الذي أضافته إليه الإقامة في المهجر؟

للإجابة عن هذا السؤال الذي يجمع ما كنا أشرنا إليه في الفِقَر السابقة، نعود إلى المرحلة التي تخطاها أبو ماضي بسرعة، وهي مرحلة التمرس والتقليد والمران التي يمثل لها أكثر ما أورده في ديوانه الأول (تذكار الماضي) وكثير مما أورده في ديوانه الثاني.

ففي هذه المرحلة يطغى، كما كنا أشرنا من قبل، صوت تراثنا الشعري، بسماته الكبرى: جَهارة الصياغة، وحسية الصورة، والكلف بالمبالغة، على صوت أبي ماضي الخاص. ولكن هذا ينبغي ألا يذهب ببوادر توحي بالقدرة على النماء والتفتح. منها الميل إلى القص والاسترسال العفوي في الحوار:

سفرتْ فقلت لها: أهذا كوكبُ؟

قالت: أجل! وأين مني الكوكبُ؟

وتبسّمتْ فرأيتُ رئماً ضاحكاً

عن لؤلؤٍ، لكنه لا يُوهَب

وتمايلتْ فالسمهريُّ مصمَّمٌ

ورنَتْ، فأبصرتُ السهامَ تصوَّبُ

قد كلّمتْ قلبي، ولم ترفُقْ به

واللحظُ ، لو درتِ المليحةُ، مِخلب[١]

✡✡✡✡✡

(١) تذكار الماضي: النص ٣١، من قصيدته، «الحسن لا يُشرى ولا يُستجلب» ص١٦٩.

وقـــائـلـــــةٍ مــــاذا لـــقـــيتَ مِن الحب؟

فقلتُ:الردى والخوفَ في البعدِ والقربِ

فـــقـــالت: عـــهــدتُ الحبَّ يُـكــسِب ربَّه

شـــــمــــائلَ غُـــــرّاً لاتُـــــنــــــال بلا حُبّ

فـقـلـتُ لــهـــا: قـــد كـــان حـــبّــاً، فـزاده

نـفـورُ المـهـا «راءً» فـأمـسـيتُ في «حـرب»

لـــقـــد كـــان لي قـــلـب وكـــنـت بـلا هـــوىً

فـلـمـــا عـــرفتُ الحب صــرتُ بلا قـلـب[1]!

ومنها: سهولة النظم ويسر الخاطر عليه، حتى كأن اختيار الوحدات اللغوية وبناءها يتمان دون جُهد، وهي صفة يدركها قارىء شعره على الفور، وهي وإن لم تخلُ من إحساسه بضعف شحنها بانفعال كاتبها، تقرّبه، في الوقت نفسه، من الإحساس بامتلاء خاطره بها، بحكم التكوين. وإنما يكون الاكتساب لإغناء الأداة وصقلها والتمرُّس بها، وشحن الخاطر بالرؤى.

ومنها التلاعب بموسيقا الشعر، مستوحياً تلاعب الوشّاحين القدامى بها، على الصورة التي تطالعنا في قصيدته «طبيبي الخاص»[2]، وقد جعلها في مقاطع[3]: يشتمل كل مقطع منها على أربعة أبيات، والرابع فيها يجيء على الرويّ الذي صاغه في البيت الأول وأفرده في مطلع النص[4]، مع انتهاء صدور الأبيات، في كل مقطع، برويّ واحد:

بتُّ أرعى في الـــظلام الأنْـــجُـــمـــا

لـــيس لـــلـــعـــشـــاق حظ في الـــكَـرى

✲✲✲✲✲

(١) المصدر نفسه: النص ٢٥ ص١٥٢ من قصيدة «بلا قلب».

(٢) تذكار الماضي : النص ٢٩ ص١٦٠.

(٣) يسميها الوشّاحون: الأبيات.

(٤) هو المطلع في الموشح أيضاً، ثم هو القفل من بعد.

صرعتني نظرة حتى لقدْ
كِدْتُ أن أحسُد من لا يبصرُ
نظرة قد أورثتْ قلبي الكمَدْ
ما بلاءُ القلب إلا النظرُ
لا رعاكَ اللهُ يا يومَ الأحدْ
لا ولا حيّاكَ عني المطرُ
أنت من أطلعتَ هاتيكَ الدُّمى
سافراتٍ فتنةً للشُّعَرا

والنص طويل يمتدّ فيه النفَس على أربعة عشر مقطعاً، على النحو الذي نراه. وقد أنهاه بهذا المقطع:

وجعلنا بعد أن طال العناقْ
نتناجَى بأحاديثِ القلوبْ
بينما نحن على هذا الوفاقْ
قُرِعُ البابُ فأوشَكْنا نذوبْ
فأشارتْ ليَ: قد حان الفِراقْ
فانقطعْنا وارتدتْ ثوبَ الطبيبْ
أقبل القومُ فقالت: كلُّ ما
كان يشكو منه، عنه قد سرى!

✡✡✡✡✡

فأما في (ديوانه الثاني) فتبدأ تتجلى، في بعض نصوصه، حركة الفكر، والنزوع إلى التفلسف، وتناول موضوعات متصلة بمعنى الحياة، وتأمل مكان الإنسان منه، وكيف ينبغي أن يفهمه ويرعاه في مسلكه الذي يلزم أن يختاره بمقتضاه. ويقرب أن يكون (للرابطة) ورجالها، - وقد ظهرت، كما أشرنا، سنة ١٩١٦ في الوقت الذي غادر فيه أبو ماضي سِنسِنّاتي إلى نيويورك، بعد أن خالطهم طوال هذه السنوات الثلاث التي سبقت صدور

الديوان ـ أثر في التفاته إليها. وهو، في ظني، ما جعل جبران يقدم له على هذا النحو الذي وقفنا عنده من قبل، وجعل نعيمة يقدم للديوان الثالث (الجداول) من بعد.

وكنتُ سمعت من نعيمة ـ في الحوار الطويل الذي أجريته معه سنة ١٩٥٨ ـ ما يذهب هذا المذهب[1]. وقد أعاد نعيمة يومها الفضل فيه إليه، ونسب إليه المنحى الذي نحاه أبو ماضي في شعره، من بعد، صفة «التجديد»[2].

والحق أن استعداد أبي ماضي للذهاب في شعره مذهب المفكرين والمتفلسفين يكاد أن يكون نزعة من نزعاته المفطورة، فهو، بحكم التكوين، لا ينقطع عن التأمل والتفكر في مظاهر الحياة والطبيعة ومكان الإنسان منها. وقد بدا هذا النزوع في شعره منذ بدأ تفتحه في الإسكندرية.

ثم إن صبياً تضطره الحياة إلى مفارقة أبويه والهجرة إلى أرض جديدة يمارس فيها عملاً يقعده في بعض الحوانيت، يرقب منه الوقائع والأحداث، ويستقبل ما تنتهي إليه بعد أن بدأ يعي معانيها ويتتبع أثرها في الواقع القائم من حوله، ويجد نفسه، من بعد، على الدوام، عرضة للمصائب المقيمة والوافدة: موت أخوته الثلاثة واحداً إثر واحد، وبينهم المنتحر، إضافة إلى موت أخته وهي تضع مولودها، الأول، ووضع زوجه مولودها الثاني (ادوار) مريضاً معوَّقاً حياته كلها[3]، يطالع إيليا وجهه صباح مساء، لا بدّ أن تجتذبه إلى التفكر وتوسّع من مساحته في العقل.

وما نستطيع أن ننكر، مع هذا، أن تأثره بجبران ونعيمة ونسيب عريضة، بعد هجرته إليهم، عمّق فيه هذا النزوع إلى التأمل في آفاق الحياة، وفي مجالي الطبيعة الساحرة التي نشأ في أحضانها، في سفوح جبل صنّين بلبنان، والتفكير في معنى الوجود وغايته، حتى جعل منه، في النهاية، مذهبه الأول في شعره، وهو المذهب الذي وقف عنده دارسوه، ووجدوا فيه مزيته الكبرى، وأعادوا إليه فتح صفحة التجديد في الشعر العربي الحديث.

---

(١) ينكر مراد أبو ماضي، أخو الشاعر، تأثر أبي ماضي بنعيمة، بحجة اختلاف الدربين والنزعتين، يؤيده في إنكاره صديق أبي ماضي: جورج صيدح (أوراق مهجرية : رسائل جورج صيدح إلى الكاتب، ص١١٩ - ١٢١).

(٢) المرجع نفسه ص ٧٨

(٣) كتاب جورج ديمتري سليم : انظر فيه خلاصة لوقائع حياة أبي ماضي ص ١٧٦ وما بعدها.

ولعل قصيدته المشهورة، التي سماها (فلسفة الحياة)[1]، تمثل الطلعة الأولى لذهابه هذا المذهب الذي لامس قضايا الإنسان الكبرى، وتولى فحص نظرته إلى الوجود، وكيف ينبغي أن يجعل موقفه منه. وقد كان يمكن، بعد هذه الوقائع التي ذكرناها في حياته، أن ينكفئ إلى عالمه الداخلي، أو يسرح فيما وراء الحس. ولكنه حاول أن يرجع إلى عقله وإدراكه في فهمها، ويسعى وراء المعرفة عن طريق العقل لا عن طريق الحدْس، ويفلسف ما يهديه إليه تأمله في الطبيعة التي تحتويها، فوقع على أسلوب في مخادعة النفس، لفَتها عن الرسوف في الإحساس بالعجز عن كشف أسرار الوجود، انتهى معه إلى التمثل بالكائنات الأخرى من حولها، وسلوك مسلكها في تقبل الحياة والعمل على اختطاف حلاوات التمتع المباشر بما تعرض الطبيعة من صور الجمال في ألوانها ومشاهدها، متناسياً عن قصد وتصميم، ما ستصير إليه بعد وقت قصير، وملاحظة ما يفرق بينه وبين كائناتها الأخرى من الوعي والإدراك، يغفلهما في حرارة رغبته في إحكام الخديعة، والتستر على حقائق العملية الأولى:

أحْكَمُ النّاسِ في الحياة أناسٌ
علّلوها فأحسنوا التعليلا

فتمتعْ بالصبح مادمتَ فيه
لا تخفْ أن يزولَ حتى يزولا

وإذا ما أظلَّ رأسَك همٌّ
قصِّرِ البحثَ فيه كي لا يطولا

أدركتْ كنهَها طيورُ الروابي
فمن العار أن تظلَّ جَهولا

تتغنَّى وقد ملك الجوُّ
عليها، والصائدون السَّبيلا

فاطلبِ اللهو مثلما تطلب الأطيارُ،
عند الهجير، ظلاً ظليلا!

---

(١) الديوان الثاني: النص٣ ص٢٥٥.

ولكنه، في هذا كله، لم يستطع آخر الأمر أن يبرح إحساسه بالعجز عن الوصول إلى الطمأنينة المبتغاة، وإسكات الصوت العميق المنبعث من الأعماق:

لا خـــلـــودٌ تحت الـــســـمـــاء لحيٍّ

فـــلـــمـــاذا تُـــراود المـــســـتـــحـــيلا؟

فالواضح أن أبا ماضي يطلب أن يغمض الإنسان عينيه عن مأساة الموت ويتجاهلها. الدواء عنده أن يتناسى الإنسان سيف القدر المسلط! فكيف يتهيأ للإنسان هذا النسيان؟ كيف يتهيأ له أن يكفَّ عقله عن السؤال وقلبه عن الإحساس بالمأساة المنتظرة؟ أو ليس السعي إلى معرفة الجواب هو منشأ الفلسفات والأديان؟.

إنّ ما يطلبه أبو ماضي من إشاعة التفاؤل في الناس، والنظر إلى الوجود من وجهه الباسم، لا يكون إلا مع الإيمان بجدوى الحياة، ومعايشة الموت بصفته وجه الحياة الآخر الذي تتم به دورتها.... فحينذاك قد تكتسب أبياته معناها المقنع، وينتفي التفاؤل الكاذب الذي تستريح إليه البهائم والأشياء وحدها، ويصبح للّيل وللرياح السَّموم التي تسفي التراب معناها في جدلية الوجود والعدم، ويقع بيته الأخير في القصيدة موقعه الصحيح، إذ يجعل الجمال ينبع من داخل النفس المطمئنة:

أيـــهـــذا الـــشـــاكي ومـــا بك داءٌ

كن جـــمـــيلاً تـــرَ الـــوجـــود جـــمـــيلا[1]

على أنه استقلّ، وحده، بإعلانه العجز الصريح عن الوصول إلى الطمأنينة المطلقة، فجعله الإقرار يبدو أقرب إلى الحقائق الإنسانية، وأدْخلَ إلى حدود قدراتها. وجعل شعره قريباً من فهم القارئ العربي، إلى اليوم، وزاده قرباً من وضوح مقاصد شعره.

وما قلناه، حتى الآن، يثبت أن انصراف أبي ماضي إلى جلاء هذه المعاني في شعره، ونحوَه فيها المنحى التأملي الفلسفي، ومحوره: الخروج إلى الطبيعة الحية، وخلط النفس بها لتفكيك الكآبة عنها، والتماس العزاء في الاستكانة إلى اليأس من قدرة العقل

---

(١) انظر كتابنا (في ديوان العرب – أحاديث في الشعر والشعراء، من عصر الجاهلية إلى العصر الحديث) الجزء الثالث ص ٢٢٦.

على فهم كنه الوجود، وفي التمثل بكائنات الطبيعة الأخرى[1]، قائم أساسه في النفس، أعانت، على تفتيحه وتقويته، عوامل متعددة استقوى أثرها، من بعد، في وقائع حياته العميقة الأثر من ناحية، وتأثره، في اتباع منهجه فيه، ببعض زملائه الذاهبين إلى ما وراء الحس، من أعضاء الرابطة، وفي رأسهم جبران ونعيمة من ناحية، وحياته في المجتمع الأميركي الجديد المنصرف، في ثقافته العامة يومذاك، إلى هذه الآفاق التي ورثوها عن كتّابهم وأدبائهم المعروفين بانتحائهم هذا المنحى في أدبهم (وِيتمان، وإمرسون، وثورو)[2].

كانت هذه صورة ما حاط بالديوان الثاني، وما استُقبل به في العالم العربي، فقد أقبل تلامذة المدارس على حفظ (فلسفة الحياة) في استظهاراتهم، وتناشدها الناس في محافلهم وندواتهم. لقد كانت على رأس محفوظاتنا، في الثلاثينيات من القرن الماضي. هذا ولم يمض على أبي ماضي في مغترَبه الجديد زمن طويل (١٩١١ – ١٩١٩) أضيفت إليه ثماني سنوات أخرى (١٩١٩ – ١٩٢٧)، قبل أن يصدر ديوانه الثالث، وفيه قصيدته التي أوشكت أن تتحول إلى «ملحمة نفسية» اختار لها عنواناً ذا رنين يرنُّ في أسماعهم (الطلاسم)، وختم مقاطعها بقرار واحد (لست أدري)، وشبحَ نفسَه فيها على حيطان الوجود، حائراً، ملتاعاً، مغمض العينين، يكاد يجهل من لغز الوجود والخلق والتكوين كل شيء، فهزت سوق الشعر يومذاك، حتى سماها أحد الباحثين «إحدى معلقات العصر»[3]، وراجت معها سوق الديوان، فأقبلت بعض دور النشر على معاودة طبعه، دون إذن من الشاعر.

والغريب أن الناس قبلوها من زاوية الصدق في خطابها وخطاب النفس معها، والتوفيق بين الفلسفة والشعر، وهزّتهم نغمة الإقرار بجهل حقائقها في مقاطعها التي زادت على السبعين. وتماسُكِ الشاعر أمامها، واحتفاظه معها بالنزوع إلى التفاؤل، وإن صرفه ذلك عن الانفعال، فبقي حديثه فاتر العاطفة، معوّضاً، قدراً من التعويض، بالوصف وبغناء الطبيعة، وبالتقرير في بعض الأحيان.

---

(١) المصدر السابق: الجزء نفسه ص ٢٢٧ .

(٢) انظر بعض التفصيل في دراسة صغيرة لصلاح عبد الصبور منشورة آخرَ طبعة دار العودة، من ديوان أبي ماضي (تذكار الماضي) – دار العودة بيروت ١٩٧٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٩ .

اتسع إذن، في (الجداول) أفق الشاعر، في التفاته إلى الإنسان، في شعره، وتناول قضايا وجوده الكبرى. ونحسب أن ما لقيتْ بعض نصوص ديوانه الثاني من الرعاية، مثل «فلسفة الحياة» التي وقفنا عندها، وهي في الرأس، وقصيدة «الخلود»[(١)] و«١٩١٤»[(٢)]، حفزه إلى تعميق هذا الخط، وجعل صوت العقل والفكر والتأمل أعلى الأصوات في تناول هذه القضايا الكبرى في شعره، وهو الفتح المبين الذي كتبه لنفسه، وكتبه له دارسوه، وأعلَوْا من ذكره فيه، وزها به الشاعر، من بعد، زهواً شديداً[(٣)].

ففي مطوّلته «الطلاسم» التي نحن في ذكرها، حيرة فلسفية، يحكيها أبو ماضي ببساطة وحميمية، بلغة سهلة بعيدة تماماً عن الرغبة في اختيار المفردة ذات الوقع الخاص، وهي اللغة التي تميز بها شعره، أحياناً كثيرة، ووصمها بعض دارسيه «بالعقم» و«النثرية»، وبميل الشاعر فيها، إلى «العاميّة الساقطة»[(٤)].

والذي نراه: أنه يجنح في لغته، على العموم، إلى التعامل مع المفردة السائرة، حتى ليبدو، في هذا الموطن بعينه (الطلاسم)، رجلاً من عامة الناس، يشكو لمن يسمعه، ما هو فيه من الجهل بحقائق قائمة بين السمع والبصر، ولكنه لم يَمْرُن على تأملها ومراجعة العقل فيها:

جئتُ لا أعلمُ من أين، ولكني أتيتُ
ولقد أبصرتُ قدّامي طريقاً فمشَيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟
لستُ أدري

---

(١) النص ١٩ ص ٣١٦.

(٢) النص ٣٠ ص ٣٦٣ .

(٣) انظر في كتاب جورج ديمتري سليم ص ١٠٥ وما بعدها، رسالة بخطه، أرسلها، أو كان يزمع إرسالها إلى طه حسين الذي نقد (الجداول)، في (حديث الأربعاء)، من الجانب اللغوي، نقداً حاداً، وجاء فيها قوله: «هل رأيت، في كل ما رأيت، من الدواوين الحديثة التي صدرت باللغة العربية، قبل (الجداول)، ديواناً (كالجداول)، يحوي فكراً وشعراً وفلسفة، في قصائد لم يسبق أن نزل مثلها في ديوان الشعر العربي كله؟

(٤) إيليا الحاوي :(إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل والتفاؤل) ، ص ٨٠ وما بعدها.

أ جـديـدٌ أم قـديمٌ أنـا في هـذا الـوجـودْ
هل أنـا حـرٌ طـلـيقٌ أم أسـيـرٌ في قـيـود
هل أنـا قـائـدُ نـفسي في حـيـاتي أم مَقود
أتــمـــنّى أنـــني أدري، ولـــكنْ

لـــست أدري

على هذا النحو المفطور يأخذ الشاعر يتساءل، كأنه يشير بيديه، عن حل معضلات الوجود الكبرى، لا يريد ممن يسمعه شيئاً على الإطلاق، بل هو لم يسْعَ إلى من يسمعه، ولكنْ يريد أن يحكي حكاية هذه «الطلاسمْ «التي يعذبه الوصول إلى فهمها، بلغته البسيطة التي تجري كما يجري الماء بطبيعته في الأرض. هكذا وقف يخاطب البحر ويسائله عن سر بقائه، على حين يمضي الشاعر إلى الفناء:

فـيك مـثـلي أيـهـا الجـبـار أصداف ٌورملُ
إنمــــا أنـت بـلا ظلٍ، ولـي في الأرض ظلُّ
إنمـا أنت بـلا عـقلٍ ولـي يـا بـحــر عـقل
فـلـمـــاذا يــا تــرى أمــضي وتــبــقى؟

لـــست أدري

ويمضي: فيقف على الدير، فيرى عقول رجاله آسنة، ويرى قلوب نسائه تموت في ظلمة الدير، فيسائلهم عن سر ما هم فيه. ثم يزور المقابر يسأل أهلها: هل وجدوا الراحة في حفائرهم؟ وهل، بعد هذه الحياة، حياة أخرى؟ وهل يَصْدُقُ ما يسمعه عن دعوى البعث والخلود، أم هو الفناء لا شيء بعهده ؟

أ وراءَ الـقـبـر بـعـدَ المـوتِ بـعثٌ ونـشـورُ؟
فـحــيـــاةٌ فـخــلــودٌ أم فــنــاءٌ ودثــور؟
أ كلام الـنــاس صـدق أم كلام الـنــاس زُوْر
أ صــحـــيحٌ أن بـــعضَ الــنــاس يــدري؟

لـــست أدري!

ويمضي، بعدها، في جولته التي تعمّ مملكة الإنسان حيث يكون، فيقف على الكوخ والقصر، فيرى صاحبيهما يتماثلان، على اختلاف نصيبيهما من الدنيا، في الشك واليقين، وفي رسوفهما في قيود الزمان والمكان. ويسائل نفسه عن حركة الفكر: أين يذهب بعدها؟ وكيف يبحث عنه وهو معه داخل نفسه؟ ويطرح، في نهاية القصيدة، سلسلة طويلة من الأسئلة عما يتبدل في نفسه، ويتصارع من حوله، ينتهي بعدها إلى اليأس والحيرة من جديد، فيتراءى له أن الجهل بما يسأل عن حله، واليأس من الوصول إليه، ربما تستريح النفس إلى عجزها فيه، فتجد نعيم الراحة عنده:

كلما أيقنتُ أني قد أمطتُ السِّترَ عني
وبلغتُ السرّ، سرّي، ضحكتْ نفسيَ مني
قد وجدتُ اليأس والحَيرةَ لكن لم أجدْني
فهل الجهلُ نعيمٌ أم جحيم؟
لست أدري

ويختم مقاطع القصيدة بقوله:

إنني جئت وأمضي، وأنا لا اعلمُ
أنا لغز، وذهابي كمجيئي طِلْسَم
والذي أوجد هذا اللّغز لَغْزٌ مبهم
لا تجادلْ ذو الحِجَا مَن قال: إني
لست أدري

☼☼☼☼☼

كان يمكن الإخفاق في التماس الرد على هذه الأسئلة، أن يُلجئ أبا ماضي إلى الانكفاء والانسحاب إلى عالمه الداخلي. ولكن الحياة العملية اجتذبته إليها، فلم ينقطع ما بينه وبينها، ولم يستسلم معها للعوالم الصوفية التي استسلم لها زميلاه جبران ونعيمة، وإن لامسها أحياناً. فبقي القلق والشك (بحكم تكوينه، وبحكم الضغوط التي أشرنا إليها، من قبل، في وقائع حياته، وبحكم التأثر بأجواء الثقافة الشائعة، قريباً من (الرابطة) وبعيداً

عنها، تعترض حياته، ويغالبها أبو ماضي مغالبة ظاهرها الرغبة في الانتصار عليها، وحقيقتها رسوفه في قيودها، على نحو ما قلناه في قصيدته «فلسفة الحياة».

✡✡✡✡✡

وإلى جانب هذه القصيدة «المُطوّلَة» تناقل الناس، في وطنه، قصائد أخرى سلك فيها المسلك نفسه، في الجمع بين الفكر الفلسفي والشعر عن طريق الأمثال التي تقرّبه من الناس، مثل قصيدة «العنقاء» و«الحجر الصغير» و«الطين» و«الغدير الطموح» و«الضفادع والنجوم» و«التينة الحمقاء» و«العَير المتنكر» وغيرها[1].

وتناقلوا في (الخمائل) قصائد أخرى، تقف على رأسها قصيدة طويلة اقتدى أبو ماضي، في اختتام الديوان بها (بالجداول) في «الطلاسم» هي قصيدة «الأسطورة الأزلية» صاغها على أبيات متسلسلة في مقاطع، يشمل المقطع منها من يمثل دوراً من أدوار العمر، أو صفة من الصفات التي تمثل هويته (الفتى، والشيخ، والحسناء، والجارية، والفقير، والغني، والأبله، والأريب)، وصاغ على ألسنتهم أبياتاً يعلنون فيها سخطهم على ما هم فيه من حدّ السن، أو الصفة، أو الغنى. ويختم الأسطورة بقوله:

لمّا وعى اللهُ شكايا الورى
قال لهم: كونوا كما تشتهونْ!
فاستبشرَ الشيخُ، وسُرَّ الفتى
والكاعب الحسناء، والحَيْزَبون
لكنهم لمّا اضمحلّ الدُّجَى
لم يجدوا غيرَ الذي كانا!

---

(١) نقصد بالأمثال هنا: المعنى الذي يقرّبها من الخرافات ذات المغزى التربوي أو التعليمي(**Les Fables**) على مثال خرافات لا فونتين (**la Fontaine**) مثل : «خرافة الطيرين» و «الحمار والكلب» و «الحصان والحمار» (ونعتقد أن أبا ماضي اطّلع عليها قبل أن يكتب قصيدته «العَير المتنكر ») و«الأرنب والسلحفاة» الخ.. وخرافات الحكيم اليوناني القديم (إيزوب **Aisopos**). ولكنها، في شعر أبي ماضي، تعدّت عالَم الحيوان (على نحو ما فعل شوقي وإيزوب) إلى عالَم النبات «التينة الحمقاء» و «الجماد الحجر الصغير» و«الطين»، وعالَم الطبيعة «الغدير الطموح»، وعالَم الإنسان («في الأسطورة الأزلية»). ونرى أنّ دراستَها، في شعره، تستوجب الدراسة.
(انظر الحاشية ١ ص ٤٨). وفي تراثنا، في الموضوع نفسه، رسالة «الصاهل والشاحج»لأبي العلاء المعري، ونظْم «كليلة ودمنة» لابن المقفع، شعراً، لوزير السلاجقة (ابن الهبّاريّة – ت ٥٠٩ هـ).

إذ تتساوى الأمور في آخر المطاف، في الصفة والحدِّ والمرتبة، أمام حقائق الحياة:

هم حــدّدوا الــقُــبحَ فــكــان الجــمــالْ

وعــرّفــوا الخــيــرَ فــكــان الــطلاحْ

ولـــيس من نـــقصٍ ولا من كـــمـــالْ

فــالــشوكُ، في الــتــحــقــيق، مــثلُ الأقــاح

وذرّةُ الـــرَّمــلِ كـــكلِّ الجـــبـــالْ

وكـــالـــذي عـــزّ الـــذي هـــانـــا!

وإذن فالحياة وحدة تتساوى فيها المتناقضات، وتتكامل الأضداد، وتتوحد الثنائيات من قبح وجمال، وخير وشر، ونقص وكمال. وما تناقضها، في أعيننا، إلا من صنع الوهم.

ولكنّ هذه الثنائيات والمتناقضات التي يجمعها حيناً ويفرقها، حيناً، ويوحدها حيناً، ويقرّبها حيناً، ويبعدها حيناً، لم تصل به إلى الحقيقة التي تفسرها وتستريح نفسه إليها، ولم تذهب بحيرته أمام لغز الوجود وقضاياه الكبرى، وما زالت حياته نهباً للوساوس والأسئلة الحارة التي تذهب به في كل اتجاه، حتى يجد ألاّ مفرّ أمامها إلا بالاستسلام إلى الرؤى التي تولدها والفكرة التي تبدعها:

ســرُّ الــســعــادةِ في الــرؤى، إنَّ الــرؤى

لا كفّ تُــثــبــتــهــا ولا تــمــحــوهــا[1]

---

(١) الجداول: «الكمنجة المحطّمة »: النص ١٦. وانظر قصيدته: «الغبطة فكرة» (الخمائل : النص ٤٤) والتي أنهاها بقوله:

أيــهــا الــشــاكي الــلــيــالي إنمــا الــغــبــطــة فــكــرة
ربمــا اســتــوطــنت الــكــوخ ومــا في الــكــوخ كَــســرة
وخــلــت مــنــهــا الــقــصــور الــشــامــخــات المشــمــخــرّة
تــلــمس الــغــصن المعرّى، فــإذا في الــغــصن نَــضــرة
وإذا رفّت عــلــى الــقــفــر اســتــوى مــاءً وخُــضــرة
وإذا مــســت حــصــاة صــقــلــتــهــا فــهي درّة
لك، مـــا دامت لكَ، الأرض ومـــا فـــوق المجـــرّة
وإذا ضــيّــعــتــهــا فــالــكــون لا يــعــدل ذرّة !

ثم تعود نفسه إلى الشك في رؤاها التي ظن أنها أراحته من عذاب الحَيْرة، فيراها، بدورها، وهماً من الأوهام، وينتهي إلى أن للأقدار غايات تحققها فيما ينفعنا وما يضر بنا، ولكنّ النفس تظل في ظمئها الحار وتطلعها الدائم إلى شدة اليقين.

وفي تصوير هذا الصراع القائم في النفس الذي يجلوه شعره وفي تناوله وتأمله والتفكير في مآثيه ومعانيه وفي مداخله ومخارجه حيناً بعد حين، كتب أبو ماضي أجمل شعره، وأحفله بالإثارة، وأقدره على مزج الفلسفة بالشعر، والفكر بالوجدان، وكسب به شهرته الواسعة، حتى جعله بعض شعراء المرحلة (فدوى طوقان ونازك الملائكة) من أقدر شعرائها، وجعله آخرون (فدوى طوقان) أقدر الشعراء في قديم الشعر العربي وحديثه، بصرف النظر عمّا قالوه في دور العاطفة فيه ومكانها منه، بجانب قوة الفكر ودور العقل ومكانه منه.

وقد كان عالم الصوفية الذي يعتمد العرفان (المعرفة عن طريق الحدس الداخلي) قريباً منه، عالم جبران ونعيمة ورشيد أيوب، ولكنه كان، بحكم التكوين، وحكم الانغماس في الحياة العملية، كما ذكرنا، أقرب إلى العالَم الآخر، عالَم الفكر الحي والاتصال المباشر بالواقع القائم من حوله. وهذا الذي جعله يطمح إلى المعرفة، عن طريق المحاكمة العقلية والتأمل الواعي في الأشياء.

ولو استعرضنا حياته، منذ بدأ يعي الأشياء في عهد الصبا الأول في الإسكندرية، وانحيازه إلى جانب المعارضة ومدافعة الاحتلال والاستبداد بحقوق الشعب (على الجبهة العثمانية والجبهة الغربية)، بدت لنا رغبته في المجاهرة برأيه والقتال دفاعاً عنه، في وضح النهار، وفي ضوء الحقائق المعلنة.

وفي ضوء هذا الذي نقوله اكتسبت قصيدته وحدتها، إذ لا يمكن أن تتم المكاشفة إلا عن طريقها، ووردت فيها الأمثال المنتزعة من الواقع القائم من حول قارئها، فقربته منها مثل «التينة الحمقاء» و«الحجر الصغير» و«الضفادع والنجوم» و«العَيْر المتنكر». واتجه فيها إلى السرد، فكسب شعره به سِمة القَصّ الموحي، إلى جانب خروجه الدائم إلى

الطبيعة: زهرها وشجرها وسمائها ونجومها وقمرها، وخلْطِ النفس بها، بغية تفكيك الكآبة عنها، والتخفف من عبء القلق والحَيْرة، وإعمال العقل في فهم كنه الوجود.

وقد نجّى، ذلك كله، شعره التأملي، من أن يقع في حبائل الجفاف الذهني الذي يصيب الشعر المتجه إلى الفلسفة والتفكر، والطموح إلى كشف الأستار عن وجوه الأشياء والكائنات، فوصل بالقارئ إلى تذوق جمال الموقف الشعري الذي وقفه منها، وتقبُّل حيرته في فهم أسرارها، وربما استجاب له في دعوته إلى الفرح بها والاستجابة لمفاتنها.

ونقف هنا عند قصيدته «التينة الحمقاء»، ومقطوعته «العَير المتنكر» اللتين سلك فيهما مسلك المثل المضروب: ففي «التينة الحمقاء» يقول: إن الإنسان ينمو بالعطاء (مماشاة سنة الطبيعة) لا بالمنع (مخالفة سنتها). فهذا معنى العطاء وجدواه.

وفي «العَير المتنكر» يدعو إلى أن يلتزم الإنسان حقيقته التي خُلق لها، فلا يتعدّاها.

ويعزز في قصيدة «المساء» دعوته إلى التفاؤل، على غير المسلك الذي سلكه في قصيدته «فلسفة الحياة»[1] التي عرضنا لها من قبل.

ففي «التينة الحمقاء»[2] تقول التينة، في آخر الصيف، لأترابها:

بئسَ القضاءُ الذي في الأرض أوجدَني
عندي الجمالُ، وغيري عنده النظرُ
كم ذا أكلِّفُ نفسي فوق طاقتها
وليس لي بل لغيري الفيْءُ والثمرُ

فتهزها هذه الحقيقة، وتقرر أن تكون لنفسها وحدها:

إنّي مفصِّلةٌ ظلّي على جسدي
فلا يكون به طولٌ ولا قِصَرُ

(١) الديوان الثاني : النص ٣ ص٢٥٥.

(٢) الجداول: النص ١٢ ص٥٨٥.

ولــسـت مــثـــمــرةً إلا عـــلــى ثــقـــةٍ
أنْ لــيس يــطــرُقُــني طــيــرٌ ولا بــشــرُ!

فلما جاء الربيع واكتست الأشجار بخضرة أغصانها، في هذه الصورة الحية التي يرسمها الشاعر:

عــاد الــربــيــعُ إلى الــدنــيــا بمــوكــبهِ
فـازّيـنـتْ واكـتـستْ بـالـسُّـنـدس الـشجـرُ
وظـلـت الــتــيــنــةُ الحــمــقــاءُ عــاريــةً
كـــأنـــهـــا وتِـــدٌ في الأرض أو حـــجـــرُ

كانت نهايتها على هذه الصورة البائسة:

ولـم يـطقْ صـاحبُ الـبـسـتـان رؤيـتَـهـا
فـاجـتـثَّـهـا، فـهـوتْ في الـنـار تـسـتـعر
من لـيس يسـخـو بما تـسـخـو الحـياةُ به
فـــإنه أحـــمـقٌ بـــالحـــرصِ يــنـــتـــحـــر

فهي لو أعطت لم تختنق بما قصَرته عن نفسها وكسبت بما أعطته لا بما حفظته.

وفي «العَير المتنكر»[1]، بصفته مثلاً من الأمثال، يقرّب فيها ممن يقرؤه بعض الحقائق الإنسانية، لتكون، كما أشرنا من قبل، أفعلَ في نفسه، إذ تشخَصُ بها الفكرة، وينهض بها موقفٌ يُصَوَّر أو حدث يُسرد. وتستحق، كما أشرنا منذ قليل[2]، درساً خاصاً إذ أدخلَ، عن طريقها، أيضاً، عنصر الحركة والتحليل وتصوير الشخصيات:

زعم المـــؤدّبُ أن عَـــيْـــراً ســـاءهُ
ألاّ يُـــســـارَ بـه إلى المـــيـــدان[3]

(١) الجداول: النص ٧ ص٥٧١ استُلت هذه الأبيات الستة من قصيدة طويلة بعنوان «يا نوح! أين دلائل الطوفان»؟ (ما لم تجمعه الدواوين : النص ١٣ ص١٠٣٧).
(٢) الحاشية رقم ١ ص٤٨.
(٣) كما يسار بالحصان.

فـمـضَى فـقـصَّـرتِ الـقـواطعُ ذيـلَهُ
وسَـطَتْ مـواضـيـهـا عـلـى الآذان
حـتـى إذا جـاء المـروِّض واعـتـلـى
مـتْـنـيه راب الـفـارسَ الـكـشْـحـان[1]
لـكـنـه مـازال غـيـرَ مُـصـدِّقٍ
حـتـى علا صـوتٌ كـصـوتِ الجـان
فـاسـتـلَّ صـارمَهُ فـطـاحَ بـرأسه
ورمى بـجـثـتـه إلى الـغِـربـان
مـادام يـصـحَبُ كلَّ حيٍ صـوتُه
فـالـعَـيْـر لا يُـخـفـيه جـلـدُ حِـصـان

وفي قصيدة «المساء»[2] يخاطب الإنسانَ عَبر فتاة سماها سلمى[3] وبدأها على نحوٍ أخاذٍ يجمع مظاهر الرهبة في الطبيعة:

الـسُحْبُ تـركضُ في الـسـمـاء الـرحب ركضَ الخـائـفـينْ
والـشـمسُ تـبـدو خـلـفـهـا صـفـراءَ عـاصـبـةَ الجـبـين
والـبـحـرُ سـاجٍ صـامتٌ فـيـه خـشـوعَ الـزاهـدين
لـكـنـمـا عـيـنـاكِ بـاهـتـتـان في الأفق الـبـعـيـدْ
سلمى بماذا تَـفْـكُرين؟
سلمى بماذا تَـحْـلُـمين؟

جعل فيها المساء رمزاً للغروب والفناء، وصوّر، على هذا النحو الذي وصفه فيه، خوف الإنسان من فكرة العدم الزاحف قدَرُه على الروح: اختفاءَ النور، وانتشار الصمت، وانطفاءَ مظاهر الحياة في الكون، بما يعكس ما يحسُّ الشاعر نفسُه من رهبتها، ثم خرج منها على ما نعرف من تهوين الموقف مما يخافه الإنسان وما يأسى له، إلى دعْوته إلى

---

(١) الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي.
(٢) الجداول: النص ١٥ ص٥٩٢.
(٣) اسم أمه التي كان أبو ماضي، كما تقول أخباره، يحبها حباً جماً.

تجاهل هذا الوجه الكئيب من وجوه الحياة، والتعلق بالوجه المستبشر الآخر، قبل أن يطويه ضباب العدم. ذلك أن الليل الذي يطمس ملامح الكائنات على الأرض، يوقظ، في الوقت نفسه، الأحلام المرغوبة، وتنتشر في سمائه الكواكب النيِّرة، فلنتملَّ إذن من الليل هذا الوجه، ولنحاولْ أن ننسى وجهه المعتم الآخر! ثم إن مظاهر أخرى من مفاتن الطبيعة ما تزال حية في الليل:

إن كان قد ستر البلاد سهولَها ووعورَها
لم يسلُب الزهر الأريجَ ولا المياهَ خريرَها
كلا ولا منع النسائمَ في الفضاء مسيرَها
مازال في الورق الحفيفُ وفي الصَّبا أنفاسُها
للعندليب صُداحُهُ
لا ظُفرُه وجَناحُهُ

ولكن الشاعر لم يستطع أن ينسى، مع هذه الدعوى التي تتردد في شعره، كأنه ما يفتأ يسكّن بها روعَه هو وهواجسَه، أن الفناء بالمرصاد، وأن الموت بالباب، ومن ثَم لا يجد في يديه غير دعوته التقليدية التي سُمّيَ بها: شاعر التفاؤل: أن ندير ظهورنا له، ونقْصُر همَّنا على التمتع باليوم الذي نحن فيه، فينعطف يتابع خطابه لسلمى:

فاصغي إلى صوت الجداول جارياتٍ في السفوحْ
واستنشقي الأزهارَ في الجنات[1] مادامتْ تفوح
وتمتَّعي بالشهْب في الأفلاك ما دامت تَلوحْ
من قبل أن يأتي زمانٌ كالضباب أو الدخانْ
لا تبصرين به الغديرْ
ولا يلذُّ لك الخرير

ثم يختم النص بما اعتاد أن يختم دعوته إلى الفرح بالحياة: بالدعوة الصريحة إلى أن نعيش الحياة، بدَل أن نُرجع البصر في بعض حقائقها، وأن نكفَّ من غرب[2] العقل، وننشد الاستراحة إلى اليأس من كشف المجهول:

---

(١) البساتين.

مــات الــنــهــار ابن الــصــبــاح فلا تــقــولي: كــيف مــاتْ ؟
إن الـــتـــأملَ في الــحــيـــاةِ يـــزيـــد آلامَ الــحــيـــاةْ
فــدعي الــحــكــايــةَ والأسى واســتــرجــعي مــرحَ الــفــتــاةْ
قــد كــان وجــهُكِ في الــضــحى مــثلَ الــضــحى مــتــهــللا
فــيه الــبشــاشة والــبهاءْ
لــيكن كــذلك في المــســاءْ

حاول أبو ماضي أن يكسب لنفسه لقب «شاعر التفاؤل» في فلسفته للحياة، ودعوته الإنسان العربي إلى مواجهة ما يعتاده من الكآبة بالابتسام، وقصْره البحثَ في معنى الحياة وقضاياها وثنائياتها الكبيرة: للموت والحياة، والخير والشر، والجمال والقبح، والحرب والسلام، والإنسان والآخر. وسلك في هذه السبيل مسلكاً يقوم على اعتماد بعض قوى النفس، من مثل عمل الإرادة والقدرة على صنع النسيان، برغم حقائق تكوينه التي تقفه موقف التساؤل الدائم من معرفة الحقيقة في خلق الكون والكائنات، واستخلاص عبرها عبر صورها المختلفة، وهو ما سماه، في الجملة «فلسفة الحياة».

وقد يذهب من يقرأ شعره في هذه الدعوة والسير على بساطها الممدود، إلى أن أبا ماضي يحاول أن يخرج من أزمته النفسية التي حاكتها الأحداث المأساوية التي وقعت في حياته. فدعوته نوع من «المناجاة» عن طريق تحويلها إلى «حوار بينه وبين الآخرين»، ينتهي دائماً إلى التعلل باليأس والوقوف على حَدِّه.

وقد استطاع أبو ماضي أن يستميل كثيراً من الناس بدعوته هذه برغم ما تستبطنه من الرغبة في تحويل خط العجز الذاتي، إلى وهْمِ الرضا بالواقع والاستكانة له، إذ وجدوا فيها صوتاً أفادوا من صداه في أنفسهم، ورأوا فيه الخلاص السهل مما يُعجِزهم تغييره، فتغنَوا به وردّدوه وحفظوه، وحفظوا للشاعر به ذكراً جميلاً.

وربح الشعر بما حقق من التوفيق بين الفكر والشعر، عن طريق الرموز المستوحاة من الطبيعة، وسلوك الكائنات الأخرى فيها، بما جعله يمتلك أيضاً قدرة التمثيل والتخييل والإثارة الجمالية، وهو أقصى ما يعمل له الشعر في كل أحواله.

ثم إن الشاعر، وإن لم يستطع النفوذ في شعره إلى استيعاب ما تعنيه دورة الحياة الأبدية التي تبدأ بالولادة وتنتهي بالموت، حتى يتعذر تصور الحياة دون الموت الذي هو البداية دورتها الجديدة ليقيم تفاؤله على هذا الأساس المكين الذي قد يستريح إليه العقل في آخر المطاف. قد استطاع في كل حال أن يحوّل الشعر العربي في عصره إلى الاحتفال بقضايا الإنسان الكبرى واستطاع من ناحية أخرى أن يصل بهذا الشعر إلى تحقيق وحدة القصيدة عن طريق رسم الدورات النفسية والانتهاء بها إلى نقطة المركز التي تتشعع عنها حين تتجلى في آخر النص الحقيقة الكبيرة التي تجمع خيوطه المتفرقة فيها.

✡✡✡✡✡

وينبغي ألا ننسى، في النهاية، أن أبا ماضي رفَدَ تكوينه الموهوب[1]، وقد طالعه في وقت مبكر من حياته حارَ بعض الدارسين في تصديقه[2]، كما أشرنا، في الإسكندرية، على الدرس، لنفسه، في الليل، وفي بعض الكتاتيب، كما تقول الروايات. وشعره يُنبئ بأنه لم ينقطع أبداً عن الاطلاع المكين المتصل بتراث العربية شعراً ولغةً، إلى حد الوصول بتقليب بعض مواد اللغة العربية في المعاجم، على معانيها الدقيقة، للإفادة منها في تركيب جملته الشعرية واستكمالها. أعانه في ذلك – لا شك – ذاكرة قوية قادرة، أحياناً كثيرة، على إشاعة الحياة في التعبير الذي يواتيه، بما تملك من دقائق المعاني وألوان الظلال التي ترخيها عليها، وإيقاظ الإحساس بغنى الرجع النفسي الذي تثيره وبجماليّاته العميقة.

وعلى من يقرأ شعره ألا ينسى، إلى جانب هذا، أن أبا ماضي لم يستكمل مراحل تعلمه الأولية في مدرسة القرية (المحيدثة)، وأن ظروف الأسرة اضطرته إلى مغادرتها، والعمل في بلد بعيد، في بعض الدكاكين. فما وصل إليه، في تعلمه، هو نتاج الصبر العظيم، والرغبة القوية، والطموح العريض، والثقة العميقة بالنفس.

---

(١) لا يبعد أن يكون هذا الأمر متصلاً بحساسية موروثة تعدت أبا ماضي إلى بعض أفراد الأسرة الآخرين، فأخوه الأكبر (مراد) أصدر في مرحلة متأخرة (١٩٥٢)، ديوان شعر سمّاه (السنابل)، وكان له شعر في تأبين أخيه إيليا.

(٢) يجسّد هذه الحَيرة خلافهم في تحديد سنة مولده على مدى خمس سنوات ! إذ لم يصدقوا أن يصل هذا الفتى إلى ما وصل إليه، في أكثر ما وصل إليه، في (تذكار الماضي)؟

ولعلنا نجد تصديقاً لهذه الصفات في الشعر نفسه، ففيه قدرة نفسية هيأته، برغم ما حاق به، للاستمرار في الصعود إلى الدرجات العالية التي وجدناه يذكرها لنفسه[1]. ونجد إشارة بالغة إليها في الرسالة التي كتبها إلى الدكتور طه حسين،[2] في أعقاب نقده الحاد لديوان (الجداول).

ويعود أكثر ما حصّل أبو ماضي، في هذا الجانب الثقافي، إلى الطموح الحار الذي عُرف به، وصدَّقه انخراطه في الحياة السياسية المصرية، وهو في هذه السن الصغيرة، أملاً في الحصول على مكانٍ يحفظه لنفسه في مغتربه الأول، ونشره قصائد من شعره في الصحف والمجلات (اللواء) و(العلم) و(الشعب) و(الزهور)، إضافة إلى ما كانت (مرآة الغرب) و(الهدى) في الوقت نفسه، تنشرانه له في المهجر!

ومازلنا، إلى اليوم، نعدُّ أبا ماضي صفحة مفردة في تاريخنا الأدبي، نتجاوز فيها، على الأغلب، شعره الوطني والاجتماعي والسياسي إلى شعره الإنساني وحدَه، تقريباً، إذ فيه يقع تميّزُه في الدعوة إلى جبر الروح المكسورة في الإنسان، والاستعلاء على الخوف والضعف، من خلال وقوفه أمام قضاياه الكبيرة القائمة، وثنائيات حياته المقلقة، عن طريق الفكر الشعري الحار الذي تحمله لغته السهلة القريبة من الحس، تأكيد إرثه، في الجانب الموروث من ثقافته الأدبية، مكّنه من يسر التعبير، ويسر التأليف بين الوحدات، ومن الرهافة العاطفية (إرث التكوين المفطور المتأثر بظروف حياته في المغتربات)، ومن الغنى الذي وفَرته لها ثقافة معجمية جادّة، مما يمكن أن يُعدَّ الجمع بين عناصره، توفيقاً بين صوت الأصالة وصوت العصر، في التجديد المعتدل الذي يقبله الناس، ويألفونه ويحبونه، ولا يحسون بالغربة معه.

وقد لا يصحّ أن يعني التحديث الواعي، في رأيه، تجاوز تراثنا الشعري والإفادة من طاقاته الإبداعية، الفكرية واللغوية، وكان المتنبي والمعري ركيزتيه فيه، بما ضَمِن له قدرة

---

(١) انظر قوله مثلاً: **إن الكواكب في منازلها　　　لو شئتُ لاستنزلتها كلِما**

الديوان الثاني: النص ٦٤.

(٢) انظر الحاشية ٣ من الصفحة ٤١ من هذه الدراسة.

التأثير الدائمة في القارئ العربي الذي ألِف مراجعة التراث الشعري (إذ إنّ كلاً منهما ينحو، بطريقته التي تتفق وتكوينه وظرفه، نحو العقل: يجمع المتنبي إليه عاطفته القوية، في حين يلجأ المعري إلى السخرية المبطنة والظاهرة، في التعليل لعجزه عن فهم أمور الخلق).

فالانصراف عن هذا التراث العظيم، والإزراء به، طمعاً في كسب صفة الحداثة لذاتها، فيما نكتبه، فهمٌ خاطئ لمعنى التحديث، يغرّبه في عيون الأجيال، ويقطع حركته الواعية عن امتصاص روح التراث والتعبير عنها، في تناول قضايانا التي نعيش همومها، ونتطلّع إلى الفوز بفهمها وجلاء مكانها من حياتنا.

إن أول ما يتطلبه هذا الفهم العميق لحركة التحديث في الأدب عامةً: امتلاك اللغة امتلاكاً سليماً ينفذ بنا إلى أعماق المفردة العربية، ويضع في يدنا زمامها، ويقربنا من القيم التي تكوّن جوهرها، فتجعلنا أقدر على مخاطبتها وإعادة تشكيلها في نتاجنا الإبداعي الذي تظل الموهبة «الموهوبة في التكوين» هي الأساس فيه، وفي كل عملٍ إبداعي.

والمعنى الذي يكرره الحداثيون في كتاباتهم، فيما يطلقون عليه «تفجير اللغة» يلزم أن يشرب من هذا النبع، حتى لا تتطاير أشلاء الكلمات من حولهم، في غير نفع، وتتحول النصوص التي نكتبها إلى مقابر أشباحٍ وهياكل عظمية، تغرينا بحفرها الرغبة في أن نطلع فيها طلعةً لافتة على حساب القيم الصحيحة الأخرى. وإن من يقرأ شعر أبي ماضي الباقي في ضمير الأجيال العربية، في ضوء هذا الفهم لحركة التجديد والتحديث، يدرك تماماً مبلغ ما وعى من حقائقها، وهو ما قرّبه من نتاج المهجريين الباقي أثره في النفس العربية إلى اليوم.

ولعل هذا هو الذي حبّب إليه الاحتفاظ بموسيقا الشعر الموروثة، في نظامه العمودي، ومن المحافظة على وقع القافية فيها، حتى لقد كرر القافية في صدر البيت وعجزه معاً، في بعض الأحيان. على أنه أفاد من التلاعب بموسيقاه الشعرية مقتدياً بالموشح الأندلسي. وجرّأه النجاح فيه على التلاعب بموسيقا الأبيات في القصيدة، على نحوٍ مميّز، ينفرد فيه بيت واحد، أحياناً، بمكانه في النص، أو يُترك شطر من شطريه طلْقاً في أواخر المقاطع.

ومكّن هذا الناسَ، من ناحيةٍ أخرى، من حفظ شعره وتناقله، فأعان على مدِّ شهرته وتأثيره. ومكّن طلبة المدارس من إنشاده. وقد رجَعت إلى نفسي، فوجدتُني أحفظ من شعره الذي حكى فيه بعض الحكايات، أو ضرب فيه بعض الأمثال، أكثر مما أحفظه للآخرين، منذ أيام التلمذة.

وما نستطيع، مع هذا، أن نُغفِل حبه للموسيقا وتعلقه بسماعها في جلساتها وحفلاتها، وسعيه إليها في البيوت التي شُهرت برعايتها. ولهذا انتُخب، في أوساط المهاجرين العرب في أميركا، رئيساً لنادي الموسيقا العربية (١٩٣٣). ولم ينسَ، وهو في دمشق سنة ١٩٤٩، أن يسهر في بيت النائب يومذاك، فخري البارودي، المعروف برعايته للموسيقا والموسيقيين[١]. وله، في سهرته تلك، أبياتٌ أصرّ فيها على أن تظل السهرة عامرة إلى الصباح:

لـــتـــنـــعَس الأنجمُ في أفلاكِـــهـــا

ســـنـــســـهـــرُ الـــلـــيلَ ولا نـــنـــعسُ[٢]

فمما يمكن قَبوله إذن أن يجد في إيقاع القوافي المتتابعة، في القصيدة الواحدة، ما يدعوه إلى الحرص عليها. ثم إن ما انتهت إليه حركة التحديث الشعرية اليوم، في شعر التفعيلة، من إغفال القوافي المتتابعة، لم يكن منتشراً آنذاك، ولعله لم يكن، على نحوٍ ما، مقبولاً. وقد كان يسعه إغفالها، تأثراً بالشعر الغربي الذي لابد أن يكون قرأ أو سمع أطرافاً منه، ولكنه لم يفعل، مكتفياً بالتلاعب بها، على نحوٍ قريبٍ مما فعل الوشّاحون في الأندلس. لقد غلب عليه، في أدوار حياته كلِّها، تأثُّره العميق بالشعر العربي، قديمه وحديثه على السواء، لدى الكبار منهم في الجانبين، وأرضته، في صوغ تعبيره عن فكره، جمالياته في البناء والتركيب والإيقاع المنتظم. وامتدَّ هذا الشعور إلى حدّ المساس، في شعر المرحلة الأولى، بمَن سماهم «الشبان المتفرنجين» من قومه، وهو يعيش إلى جانبهم، معهم، في دارٍ واحدة[٣].

✡✡✡✡✡

---

(١) يلزم أن نشير إلى تلحين بعض قصائده وإنشادها في أوساط المهاجرين العرب، من اللبنانيين وغيرهم، مثل قصيدته التي ذكرناها من قبل «نشيد يوسف بك كرم»، وقصيدتِه «بين الضحك واللعب»، وقد لُحنت سنة ١٩٢١، وصدرت، مع لحنها، في ثماني صفحات.

(٢) (ما لم تجمعه الدواوين): النص ٦١.

(٣) تذكار الماضي : النص ٦.

ليس معنى هذا الذي قلناه ونقوله، أنّا لم نقف في لغته عند مفردات ممسوحة تبدو كأنها منقولة مباشرة عن المعجم، لم ينفخ فيها أبو ماضي من روحه. وهو ما التفت إليه بعض دارسيه، ورمَوه بالجمع بين الشعرية والنثرية في بعض صياغاته ومفرداته[1]. والسبب يعود، في رأينا، إلى أن حصيلة أبي ماضي من الثقافة اللغوية عامةً، وثقافة المفردات خاصةً، حصّلها بالمطالعة والجمع لا بالمعايشة الحيّة. فقد يقع القارئ، في لغته، على مفردات مقهورة، أدخلها في مواضع لا تريدها، فطغت فيها صفة النظم وخفّت صفة الشعر، أو انعدمت أحياناً.

ولكن الذي طغى على هذا كله، يقظة الفكر في شعره، ونجاحه، أحياناً كثيرةً، في التوفيق بين الفكر والشعور، أعني بين العقل والقلب، فبقي الفكر حينها، وتحصيل المعرفة عن طريقه، هو سيّد المواقف وتعليلها في شعره، وخفّت مكانة العاطفة والسؤالُ عنها، إذ خطف الفكر وتوهجُه، مكان الالتفات إليها، كما خطف مكان المفردة الحية.

٭٭٭

وقد كتب أبو ماضي الشعر في أغراض مختلفة، في الاجتماع والسياسة والتاريخ. تغنى بالوطن، وصوّر بعض الوقائع في حياته وحياة أصحابه، وردّ على منتقديه و«حسّاده». ولم ينقطع، في الوقت نفسه، عن عمله الصحفي، منذ هبط نيويورك ١٩١٦، وبعد أن تفرّد بإنشاء جريدته (السمير)[2]، عن كتابة افتتاحياتها، كل ليلة، وتحرير بعض مقالاتها وردودها.

وهو، في هذا كله، لم يبلغ ما بلغه في تناول قضايا الإنسان الكبرى، من حيث الارتفاع إلى مستوى الشعر الذي يقرّب الإنسان من نفسه، ويحرّك، عن طريق الإيحاء،

---

(١) إيليا حاوي :(إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل والتفاؤل) ص ١٠ وما حولها، وانظر الأمثلة التطبيقية التي وردت فيها.

(٢) في آخر الدراسة، كما أشرنا في الحاشية ١ ص ١٦ من هذه الدراسة، نماذج مصوّرة من الجريدة، تضم بعض افتتاحياته، ومقالاته وردوده. ومن المؤسف أن دور الكتب العامة عندنا لا تحتفظ بنسخة كاملة منها. وقد اضطررت أن أرجع إليها يوماً، فوجدت أعداداً منها في مكتبة مجلس النواب اللبناني ببيروت. انظر كتابنا (النثر المهجري- الجزء الأول) - المقدمة.

جُذوة الروح فيه، ويبعث قلق الرغبة في المعرفة، والإجابة عن أهم أسئلة الوجود الغامضة، ويعدّ صوته، في هذا الاتجاه، أحد أهم الأصوات وأعلاها في أدب المهجر الشمالي (الأمريكي) الذي عُني بمدّها حتى أصبحت سمةً من أبْيَنِ سماته، منذ انطلاقته الأولى، وأكثرَها وضوحاً في نتاجه. وقد يمكن أن تُعدّ تعبيراً عما أحس المهاجرون من أوجاع الغربة والضياع عن الذات المهاجرة القلقة المتشوّفة، في مخاضها العنيف الذي تعرضت له عَبْر الصراع، بين قيم الحضارة الجديدة وقيم المهاجرين القديمة، حتى شبّه بعضهم نيويورك ببابل القديمة التي «تبلبلت «فيها أصوات الشعوب[١].

يمكن أن نقول في الإجمال: إن أبا ماضي وسّع من مساحة الفكر في شعره، وكساه ثوباً لغوياً شفّ، في أسلوب طرحه، عن جماليات الطبيعة التي لم يبعد عنها حياته كلها، وقرّبه من وجدان القارئ في وقت واحد، وهيأه للتفكير في قضاياه واتخاذ موقفه منها. فبقي شعره، لهذا الذي نقوله، محتفظاً، في ساحة الشعر العربي، بقدرته على التأثير ومحتفظاً بخصائصه معاً.

☆☆☆☆☆

أمّا الأغراض العامة التي تناولها في شعره، فكثيرة، يطغى عليها، إلا في المختار منها، التقليد، يغيب فيها صوت الشاعر الخاص، ويعلو صوت الجماعة، لإحساسه بأنه يتحدث إليهم، أو نيابة عنهم. ولكنه يلطف في المختار منها، لدنوّها من نفسه.

قصيدته «بنت الدوالي»[٢] من هذا المختار الذي يبين فيه صوته، وإنْ ظلَلْنا نذكر معه، على نحوٍ ما، بشار بن برد وأبا نواس معاً. وقد تلاعب بموسيقاها، في مقاطع تجتمع وتتفرق.

---

(١) انظر كتابينا (الأول والثاني) في درس النثر لدى أعضاء (الرابطة القلمية) في المهجر الشمالي. وانظر بخاصةٍ ص ١٦ من الكتاب الأول.

(٢) الديوان الثاني: النص ٣١ ص٣٦٧.

هاتِ اسقني بالقدح الكبيرِ
صفراءَ لونَ الذهب المصهورِ
كأنها في أكؤس البَلُّور
شعلة نارٍ في بقايا نور

✡✡✡✡✡

عجبتُ للكأس التي تَحويها
كيف استقرَّتْ والحياةُ فيها
لو لم يُدرِهْا بيننا ساقيها
دارتْ على القوم بلا مُديرِ

✡✡✡✡✡

بهذه اللغة السهلة الجارية التي يحملها الحسُّ على أجنحة الخيال، يصور ساعة من ساعات النشوة، يزيد الإيقاع السريع، واختيار المفردات والرويّ المكرور، من قدرتنا على تذوق نشوتها معه، وهو غاية ما يستطيع الشعر رفْع المتلقي إليه، وضمَّه، من الداخل، إلى تجربة الشاعر.

✡✡✡✡✡

ومنه قصيدته «موميات»[1] وقد اختار لها أيضاً إيقاعاً سريعاً ورويّاً طلْقاً مكروراً. فقد حركت فيه رؤية الفندق الفخم الذي لم ير فيه إلا عجائزَ فانيات، رؤية شعريّة تقوم على الجمع بين المتناقضات، وهو المعنى الكبير الذي وقف عنده في قصائد أخرى، وخرج منه إلى، رؤية فلسفية توحد بينها. ولكنه هنا، غاب عنها:

لمن يَضوعُ العبيرُ؟	لمن تغني الطيورُ؟
لمن تُصَفُّ القناني؟	لمن تُصَبُّ الخمورُ؟
ولا جمالٌ أنيقٌ!	ولا شبابٌ نضيرُ!
بل مومياتٌ عليها	أطالسٌ وحريرُ!

(١) الخمائل: النص ١١ ص ٧٠٢.

اللغة هنا تكرّ على اللسان، كأنما يكلّم الشاعر فيها نفسه، دون أن يسعى إلى تحصيلها. وترد معانيها على الخاطر فور أن تقع العين على المشهد.

✡✡✡✡✡

ومنه، من شعر المناسبات، في تكريم أصحابه، قصيدة (سماها: «إنه الشاعر»)[1]، ارتفع فيها، من حدود المناسبة، إلى حدود الشعر الكونية، بل تعداها إلى خالق الكون نفسه، إذ هو صانع الجمال الذي يرضيه أن يتعبّده الشاعر فيه. وقد لزمه، في مطلع القصيدة، أن يصوّر بعض حواشي جماله:

عندما أنشأ الوجودَ اللهُ
في زمانٍ، في الدهر، ما أقصاهُ!
وبدَتْ في النَّباتِ والماء والأحْـ
ـياء والصخر يقظةٌ وانتباهُ
فأطلّتْ من السماء الدَّراري،
وتجارت على الصعيد المياه
وترامى النسيم، في صفحة النهـ
ـر، بأسرار وجْده وهواهُ
وسرى الفجرُ يوقظُ الروضةَ الوسْـ
ـنى ويُذري على المروج نَداهُ
ومشى الليلُ بعده يطمس الأشْـ
ـياءَ إلا أحلامَه ورؤاه
والورودَ الحسناءَ إلا شذاها
والغديرَ الطروب إلا صداه
نظر اللهُ في السَّماء وفي الأر
ضِ طويلا، فتمتمتْ شفتاه:

(١) ما لم تجمعه الدواوين: النص ٥١ ص ١١٢٥.

«إنني قد خلقتُ كوناً بديعاً
كلُّ شيءٍ فيه كما أهواه
غيرَ أني نسيتُ أخلق شيئاً
لازماً لا يُتمُّه إلاّهُ
وهو عينٌ ترى الوجودَ كعيني
ولسانٌ يقول: ما أحلاه»!

مقدمة لا يظن قارئها أنها مرتبطة بتكريم صديقه الشاعر (نسيب عريضة)، وتكشف عن شعرية مفطورة، كأنما تجري معها كتابة الشعر دون إجهاد الخاطر، ويجري اختيار المفردات اللغوية وتشكيل الجمل، من أقصر الطرق، بالاستجابة الطبيعية لديه. وقد عُرف عنه أنه كان يُدعى، في بعض الحفلات، فيكاد يرتجل الشعر الذي يلقيه فيها ارتجالاً.

وإذن فقد «تمنى» الله أن يتدارك سَهوَه:

فإذا كائنٌ له هيكلُ الطِّيْـ
ـن، وفي هيكل التراب إله!
كل مَن يعشق الجمالَ أخوه
كلُّ أرضٍ فيها الهوى مغناه!

ويتساءل كأنه يريد أن يفجأ من يتتبعُه:

من تُراه هذا الذي صاغه الله كما يشتهيه لمّا اشتهاه؟

ويجيب على الفور:

إنه الشاعرُ الذي كلُّ دنيا
تنطوي قبلَ تنطوي دنياه

ويأخذ يصفه كأنه يصف نفسه:

وجد المال عاتياً مستبداً
فأبَى أن يكونَ من أسراه

لا تــقــولــوا: مــاذا اقــتــنى وحَــواه؟
أيُّ شيءٍ خــيــالــه مــا حــواه
إنه الــشــاعــر الــذي ازدادت الــدُّنْـ
ـيــا بــهــاءً لمّــا غــدتْ مــأواه
فــاشــربــوا يــا رفــاقُ سرَّ فــتى الــعــا
صي، وحــيّــوهُ، إنه إيّــاه!

ما أراده أبو ماضي، في هذه القصيدة، برغم ما أثارته عند فريق ممن درسوه، من ظن ادّعاء الألوهة، هو أن يُفرد الشاعرَ بخلق الرؤى والأفكار، وهو ما نسميه: الإبداع في الفن. والخلق من صفات الألوهة، فبهذا المعنى يكون الشاعر هو خالقَ الفكرة المبدَعة، وهو هيكلها الترابي:

إنــني قــد خــلــقتُ كــونــاً بــديــعــاً
كلُّ شيءٍ فــيــه كــمــا أهــواه
غــيــر أني نــســيتُ أخــلق شــيــئــاً
لازمــاً لا يُــتــمّــه إلاّه

وليس الاعتداد بقدرة الخلق جديداً على الشاعر في هذا النص، فأبو ماضي شديد الاعتداد بقدراته الفنية. وما يضفيه على نفسه، في شعره، يزيد كثيراً على ما أضفاه الشعراء من قبله على أنفسهم، باستثناء محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل) الذي وصل بالفكرة إلى أقصى ما تصل إليه، حتى تعدّى بها خلق الله(١):

نُــشــاركُ الــلــهَ، جلّ الــلــهُ، قــدرتَه
ولا نــضــيق بــهــا خَــلْــقــاً وإتــقــانــا
وأين إنــســانُه المــصــنــوعُ من حَــمَــأٍ
ممن خــلــقــنــاه أطــيــابــاً وألحــانــا

---

(١) الديوان - دار العودة - بيروت، ص ١٢٩.

ولـــو جلا حـــســنَه إنـــســانُ قـــدرتـــنـــا

لـــودّ جـــبـــريـلُ لـــو صُـــغـــنـــاه إنـــســانـــا

وأيُّ نُـــعـــمـــى نـــرجِّـــيـــهـــا لـــدى بـــشـــرٍ

والـــلـــهُ قـــرَّبـــنـــا مـــنـــه وأدنـــانـــا

وليس يبعد تأثر أحد الشاعرين بالآخر. إن ذهب كلّ منهما، بالفكرة، في اتجاه.

****

(٥)

ونفضل أن ننهي هذه الدراسة المكثفة ببيان موقف أبي ماضي من وطنه الذي وسع الأرض العربية كلها، وهو موقف كاد أن يمتاز فيه، من زملائه، في (الرابطة القلمية)[1]، فقد كان دائم التفكير في لبنان وسورية، وفي مصر، وفي أرض الجزيرة العربية. يستجيب لآلامها وأحداثها، فإن من خصائص تكوينه الوفاء للأرض التي نمَته، والأرض التي ينتسب إليها، وتذكير المهاجرين معه بوطنهم الذي خلّفوه لئلا يناموا عنه (متى يذكر الوطن النوّم)[2]؟.

وإن مراجعة سريعة لشعره في دواوينه الخمسة، وفي شعره خارج هذه الدواوين، تصلنا بفيض من القصائد احتفظت بعناوينها، أو بإشارات كثيرة وقعت ضمنها، تغنى فيها بالوطن، وحنّ إليه، وشكا ألمه مما يلقى من مستبديه ومستعمريه، منذ غادره إلى أن دفن في مهجره البعيد.

ففي ديوانه الأول (تذكار الماضي) الذي أهداه إلى «الأمة المصرية... لا طلباً للمثوبة ولا ابتغاء للشكر، ولكن إظهاراً لما تكنه جوانحه من العطف عليها والتعلق بها»، دافع عن مناضليها وشارك في مدافعتهم المحتل ورثى زعمائها الذين قاوموه، وجمع إليها معاناة أهله في الشام وما بات يشكو من وجع الحنين إليهم[3]:

تحِنُّ إلى بلاد الشام نفسي
أَقُطرَ الشامِ حيَّاك الغمامُ!
وما غيرُ الشآم وساكنيهِ
لبانتُنا وإن بَعُدَ الشآم

---

(١) قد يلزم، أن نضيف إليه إلى حدٍّ كبير، صديقه الشاعر الحمصي (نسيب عريضة).

(٢) الديوان الثاني : النص ٤٧.

(٣) تذكار الماضي: النص ٤٩.

ولــــولا أن في مـــصـــرٍ مُـــقـــامي

لــعـــمـــرُ أبـــيك مـــا طـــال المُـــقـــام

ومـــا مـــصـــرُ الـــتي مـــلـــكت فـــؤادي

ولـــكنْ أهـــلُـــهـــا قـــومٌ كـــرام

يـــودُ الـــطـــامـــعـــون بـــأرض مـــصـــرٍ

لـــو أنـــهمُ بـــهـــا أبـــداً أقـــامـــوا!

ووصف النيل والشمس تنسكب عليه، وصفاً حياً يعجب القارئ أن يصل إلى كتابته شاب لم يتعدّ العِقد الثاني من عمره. ولكنّ ذلك يعود، مع قدراته المبكرة، إلى ارتباطه العاطفي بالنيل، ارتباطًا له دلالته القوية على ارتباطه بالأرض[١]:

فـــثـمّ جلالٌ يملأ الـــنـــفسَ هَـــيـــبـــةً

وثَمّ جـــمـــالٌ يملأُ الـــعـــينَ بـــاهـــرُهْ

وألحظُ شـــمسَ الأفْقِ وهْـيَ مُـــطـــلّـــةٌ

تـــســـايـــر فـــيه ظـلَّـــهـــا إذ تُـــســـايـــره

...

إذا هـيَ ألـــقتْ في حـــواشـــيه نـــورَهـــا

رأى الـتِّـبر يـجـري في حـواشـيه نـاظرُه

أطـــالتْ به الـــتَّـــحـــديقَ حـــتى كـــأنمـــا

تحـــاول مـــنـــه أن تَـــبـــين ســـرائـــره

كـــأني به سِـــفْـــرٌ تـــدانتْ ســـطـــورُه

أوائـــلُـه قـــد شُـــكِّـــلـت وأواخـــره

وكانت له، في هذه المرحلة من حياته، حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، قصائد نال فيها من السلطة العثمانية وممثليها منالاً وصل به إلى مواجهة الهلال (رمز الدولة العثمانية) بالصليب (رمز قوى الغرب التي واجهتْها، على إطلاقه) وهي مواجهة قد لا تتفق مع ميوله

(١) (تذكار الماضي) النص ٥٢ ص٢٢٥.

العلمانية الأصيلة (بصفة الهلال رمزاً إسلامياً) ولكن كرهه للعثمانيين الذين أذلّوا وطنه - فيما كان فريق كبير من الوطنيين مسيحيين ومسلمين يرونه - أورده هذا المورد.

ووقف موقفاً متشدداً جداً من المحتل الإنجليزي بعدهم، حتى لقد أيقظ النسب الذي يجمعه بأهلها[1]:

خلِّني أستصرخُ القومَ النِّياما
أنا لا أرضى لمصرٍ أن تُضَاما
....
قَسَماً بالنيل لو أن به
ما بنفسي مِن هوىً سالَ ضِراما
حسْبُ مصرٍ أنها الأرضُ التي
أمَّنَ الله بها البيتَ الحراما
....
لستُ مصريَّاً ولكن نسبةٌ
بيننا تجمع مصراً والشآما

ثم انثنى يخاطب المحتل:

كبِّلوا أقلامَنا جُهدَكمُ
وامنعوا الألسُن والصحْفَ الكلاما
وإذا عزَّ عليكمْ أننا
في وئامٍ فانشروا فينا الخِصاما!

وفي ديوانه الرابع (الخمائل) يأسى لموت فيصل «أبي غازي»[2] ويرثيه رثاءً أراع معه «البيت والبلد الحرام»، ومجّد «خُلُق الصحارى ومروءة الخِيام» التي خرج منها، وخاطب من سكتوا عن إسقاطه عن عرش الشام ورحيله عنها:

(١) ما لم تجمعه الدواوين : النص ٢ (مصر والاحتلال).
(٢) الخمائل: النص ٤٢ وراجع في كتابنا (النثر المهجري) موقفاً لزملاء أبي ماضي في (الرابطة)، من (فيصل)، في مؤتمر الصلح، بعد الحرب العالمية الأولى، ص ١٤٧ وما حولها.

فقلْ للساخطينَ على الليالي
ومَن سكنُوا على يأسٍ وناموا
سينْحَسرُ الضَّبابُ عن الروابي
ويبدو الوردُ فيها والخُزام
ونُرجعُ أمةً تُرجى وتُخْشَى
وإن كَرِهَ الزعانفُ والطَّغام

وشغلته مأساة فلسطين وأهلها شغلاً دائماً(١):

فخطْبُ فلسطينَ خطْبُ العُلا
وماكان رزءُ العُلا هيّنا
سهرنا له فكأنَّ السيوفَ
تحزُّ بأكبادِنا ههُنا
وكيف تطيبُ الحياةُ لقومٍ
تُسَدُّ عليهم دروبُ المُنَى
بلادهمُ عُرضةٌ للضَّياعِ
وأُمّتُهم عُرضةٌ للفنا
لقد دافعوا أمسِ دونَ الحِمى
فكانت حروبُهمُ حَربَنا
وجادوا بكلِّ الذي عندهم
ونحن سنبذلُ ما عندنا
فقل لليهود وأشياعِهم
لقد خدعتكمْ بُروق المُنى
فإنا سنجعل من أرضها
لنا وطناً، ولكم مَدفنا

(١) المصدر نفسه: النص ٤٣.

كتب هذا الكلام وأصدره في ديوان نشره سنة ١٩٤٠، قبل قيام دولة الاغتصاب بثماني سنين، وفيه نستطيع أن نلمس الجرح المفتوح، منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ثم إنه كتبه وقد أمضى في المهجر الأمريكي ثلاثين عاماً بعيداً عن المنطقة. ويلمس قارئه فيه حُرقة صادقة هي التي جعلت صلته بها لا تنقطع.

وقد زار لبنان بعدها وخاطبه الخطاب الذي أشرنا إليه في السابق، للرد على من نَسب إليه نِسْيانه، وذكر معه الفقر الذي عرفه فيه، مباهياً به[١]:

زعموا سَلوتَكَ...ليتَهمْ نسبـوا إلـيَّ الممكنا

فالمرءُ قد ينسى المسي ءَ المفتري والمُحسـنا

ومـرارةَ الفقـر المذِ لِّ بلى، ولـذَّاتِ الغنـى

لكنـه مهمـا سَـلا هيهات ينسى الموطنا!

وكانت تعذبه فيه، حين يذكره، ما حمل معه من ذكرى الفتن الطائفية قبل تقسيم ديار الشام، وبعده. يقول في (ديوانه الثاني)، داعياً إلى التسامح:

مـا كـان أحـوجَ سـوريّـا إلى بـطلٍ

يـردّ بـالـسـيف عـنـهـا كل مـفـتـرسِ

ولا يـزال بـهـا والـسـيفُ في يـده

حـتى يـطـهـرَهـا من كل ذي دَنَس

ويـجـعل الحبَّ دين الـقـاطـنـين بـهـا

دينٌ يـقـرِّبُ بـين «الـبـيت» والـقُـدُس

حـتى أرى ضـاربَ الـنـاقـوسِ يُـطـربُهُ

صـوتُ الأذين، وهـذا رنّـة الجَـرَس[٢]

ولما زار دمشق، كما ذكرنا، مطلع سنة ١٩٤٩، وألقى فيها تحيته، وحيّا شهيدها يوسف العظمة الذي استُشهد على أبوابها، ونعى على قومه ما وقع في فلسطين، وكانت نكبتها حلّت بهم:

---

(١) تبر وتراب: النص ١ ص٨٤٩ (وطن النجوم).

(٢) الديوان الثاني: النص ٤٩ ص٤٣٦. والأذين: هو الأذان. وارجع في المصدر نفسه (الديوان الثاني) إلى مطوّلته التي سماها (يا بلادي) النص ٥٦ ص٤٦٣.

عـجـبـاً لـقـومي والـعـدوّ بـبـابـهمْ
كـيف استـطـابـوا الـلـهـوَ والألـعـابـا
وتــخــاذلتْ أسـيــاقُــهمْ عن سَـحــقِهِ
فـي حــين كـان الـنـصـرُ مـنـهم قـابـا
......
دنــيــاكَ يــا وطنَ الــعـروبـةِ غــابـةٌ
حَـشـدتْ عــلـيك أراقِـمَــاً وذئــابـا
فـالـبَسْ لـهـا مـاءَ الـحديـدِ مَـطـارفـاً
واجـعلْ لـسـانَكَ مِـخْـلـبـاً أو نـابـا
....

ثم أخذ يصف مجد دمشق:

فـاسـتــنـطقِ الـتَّـاريخَ هل في سِـفْـرِهِ
مــجـدٌ يــضـاهي مــجـدَهـا الخلاّبـا
شـابتْ حـضــاراتٌ، ودالتْ وانـطـوتْ
أممٌ، ومــجــدُ أمـيــةِ مــا شــابـا

على أن في شعراء المهجر الشمالي مَنْ جارى أبا ماضي في هذا الميدان. ولكنّ في التاريخ إشاراتٍ لعلها لم تُكتب لغيره ممن زاملوه وعاصروه وغنَّوا وطنهم معه(١).صفحة لعله ينفرد بها في المهجر الشمالي (الولايات المتحدة الأمريكية) خاصة. وقد تستأهل هذه الإشارات، أن تظلّ ريشةً في تاج الدور التاريخي الذي لعبه أبو ماضي في الحركة الشعرية المهجرية، في الشمال، إلى جانب بعض الشعراء المعروفين في المهجر الجنوبي (البرازيل والأرجنتين).

****

(١) انظر في انفراد أبي ماضي، في موقفه من الانتداب الفرنسي على سورية، بعد الحرب العالمية الأولى، مخالفاً زملاءه من أعضاء (الرابطة) في لجنة سمّيت (لجنة تحرير سورية ولبنان): كتابنا: (النثر المهجري - الكتاب الأول ص ١٥٣ وما قبلها وما بعدها).

الخـاتمـة

خلاصة ما ننتهي إليه، في هذه الصفحات، ألا شيء يَخْلُدُ معه العمل المبدَع غير الصدق الذي يحييه ويشتقه من أضلاع المبدِع. وما النصوص الشعرية التي كتبها أبو ماضي، وبقيت إرثاً أدبياً ثميناً في تراثنا الشعري الحديث، إلا التعبير الصادق عن حَيرته العميقة، في فهم مرامي الحياة، فيما عرض من صورها وتساءل عن حقائقها ومعانيها.

وقد تهيأ له بهذا أن يغزو ميداناً جديداً في تاريخ الشعر العربي، لم يتهيأ لشاعرٍ قبله، على امتداد عصورنا الأدبية أن يغزوه، أعني: ميدان الفكر والعقل والتفلسف، وصياغة الفكر الشعري الحارّ الذي يتناول أعقد ما يواجه عقل الإنسان ويتحدّاه: لغز الوجود، ومعنى الحياة مع الموت، وما وراء الموت. فغنّى الفكرَ، في تساؤله عنها، غناءً رقيقاً عذباً فُتن به الناس، وأقبلوا عليه، وتغنَّوا به.

وقاده هذا التساؤل، الملحُّ، بدوره، إلى صياغة المطوّلات الشعرية، وما داخَلها من تنوع المساءلات، وألوان التعبير عنها واختلاف الإيقاعات، في نظم الحكايات والأمثال، واتباع طرق السرد الشعري المكثّف السريع، في وصف الأحداث وتصوير شخوصها، وإدارة الحوار بينها، وتطوير مسالكه إلى النهاية المرسومة.

وحاول أن يتخفف من ضغوطه النفسية، على مدار حياته في لبنان ومصر والمهجر الشمالي، عن طريق التأمل والتفكر، فاتجه إلى دعوة الآخر إلى التفاؤل والابتسام، على ما عانى من قسوة الأقدار التي لاحقته، منذ طفولته إلى خاتمة حياته، وعلى ما كان فيه من الإحساس بالحاجة التي اضطرته إلى العمل ليل نهار، في ميدان الصحافة المتعب. وبدت، في دعوته هذه، على إخلاصه فيها، الرغبة في التغافل عن حقائق الواقع الإنساني، وحدود القدرات فيه، فانتهى، أخيراً، إلى التسليم بالعجز عن الوصول إلى أجوبة ما تساءل عنه. واتخذ من هذا التسليم سبيلاً إلى الرضا بما هو فيه، ودعا الناس إلى أن يحذوا حذوه.

عن هذه الطريق، حاول أن يقنع نفسه بنفي التناقضات والثنائيات التي يعذبه التفكير فيها، فليرضَ إذن بما كان يتمنى أن يتغير في حظوظ الخلق والتكوين، إذ لا سبيل، في النهاية، إلى تغييره. ولو تغير لتمنّى أن يعود إلى ما كان عليه، فالسعادة في الحياة، والفرح بالوجود، يتدفقان من داخل النفس، عن طريق التأمل فيما وُهِبَه، وفيما يستطيعه، بما يملك من القدرات والنِّعم (الغبطة فكرة).

ولم يبخل على قومه، مع هذا، بوصف ما هم فيه من أسباب التخلف والشقاق، فدعا إلى نفيها عن حياتهم. وحثّهم على التضامن ورصّ الصفوف، وحمل على مدّعي الصلاح منهم، ولو كانوا من رجال الدين، فسماهم «أصحاب الكشاكيل»، وحضَّ قومه على ردِّهم والوقوف في وجوههم.

وحمّل اللغة الشعرية هذا العبء كله، فجرت على قلمه ولسانه جرياناً سهلاً، بدت المفردات معه، في كثيرٍ من الأحيان، هامدةً لا روح فيها.

☆☆☆☆☆

يبقى أبو ماضي، في دوريه: التقليدي والمجدد، ظاهرةً تستحق الالتفات. فهذا رجلٌ خلقه الله، ولكنه صنع نفسه، وأخضع ظرفه، وشقّ طريقاً، في الشعر، يُنسب إليه. حاول أن يُسعِد الناس ويفيدهم ويمتعهم، عبر معاناته الذاتية، حتى لقد كاد، وهو يخاطبهم ويدعوهم إلى الفرحة بالحياة، يتخذ من خطابهم سبيلاً إلى خطاب الذات.

****

المصادر والمراجع

١ – تذكار الماضي: إيليا أبو ماضي - بيروت (دار العودة) ١٩٧٤.

٢ – إيليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر (مع دراسة لزهير ميرزا) - دمشق (دار اليقظة العربية) ١٩٥٤.

٣ – الجداول: إيليا أبو ماضي - نيويورك ١٩٢٧.

٤ – الخمائل: إيليا أبو ماضي - بيروت (دار العلم للملايين) ١٩٦٣.

٥ – تبر وتراب: إيليا أبو ماضي - بيروت (دار العلم للملايين) ١٩٦٠.

٦ – ديوان إيليا أبو ماضي - بيروت (دار العودة) ٢٠٠٢.

٧ – إيليا أبو ماضي (دراسات عنه وأشعاره المجهولة): جورج ديمتري سليم - القاهرة (دار المعارف) ١٩٧٧.

٨ – مجموعة الرابطة القلمية ١٩٢١ – بيروت (دار صادر ودار بيروت) ١٩٦٤.

٩ – إيليا أبو ماضي شاعر التساؤل والتفاؤل: إيليا حاوي - بيروت (دار الكتاب اللبناني) ١٩٧٢.

١٠ – إيليا أبو ماضي رسول الشعر العربي الحديث: عيسى الناعوري - بيروت (منشورات عويدات) دون تاريخ.

١١ – إيليا أبو ماضي: عبد اللطيف شرارة - بيروت (دار صادر) ١٩٦٥.

١٢ – إيليا أبو ماضي: جميل جبر - بيروت (دار المشرق) دون تاريخ.

١٣ – إيليا أبو ماضي بين التجديد والتقليد: طالب زكي طالب - صيدا - بيروت (منشورات المكتبة العصرية) دون تاريخ.

١٤ – الشعر العربي في المهجر (أمريكا الشمالية) إحسان عباس ومحمد يوسف نجم - بيروت (دار صادر ودار بيروت) ١٩٥٧.

١٥ – شعراء الرابطة القلمية: نادرة جميل سراج - القاهرة (دار المعارف) ١٩٦٤.

١٦ – قراءة جديدة لإيليا أبي ماضي: صلاح عبد الصبور ـ ملحقة بديوان «الخمائل» – بيروت (دار العلم للملايين) ١٩٦٣.

١٧ – شعر من المهجر: محمد قره علي ـ بيروت (دار الإنصاف) ١٩٥٤.

١٨ – الشعر العربي في المهجر: محمد عبد الغني حسن ـ القاهرة (مكتبة الخانجي) ١٩٥٥.

١٩ – أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية: جورج صيدح ـ بيروت ١٩٥٧

٢٠ – أوراق مهجرية: عبد الكريم الأشتر ـ دمشق (دار الفكر) ٢٠٠٢.

٢١ – أدب المهجر: عيسى الناعوري ـ القاهرة (دار المعارف) ١٩٥٩.

٢٢ – الأدب العربي في المهجر: حسن جاد حسن ـ القاهرة ١٩٦٢.

٢٣ – التجديد في شعر المهجر: أنس داود ـ القاهرة (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر) دون تاريخ.

٢٤ – في ديوان العرب (أحاديث في الشعر والشعراء من عصر الجاهلية إلى العصر الحديث)، الجزء الثالث (العصر العثماني والعصر الحديث): عبد الكريم الأشتر ـ حلب ٢٠٠٦.

٢٥ – النثر المهجري (المضمون وصورة التعبير): عبد الكريم الأشتر ـ دمشق (دار الفكر الحديث) ١٩٦٤.

****

كلمة موجزة

لا يحتاج هذا العمل، بعد الذي قدّمناه في درسه، إلى مقدمة طويلة، ففيه جِماع أعمال أبي ماضي الشعرية، على امتداد حياته، في لبنان ومصر وأميركة، واحتوته دواوينه الخمسة التي أصدر أولها (تذكار الماضي)، في الإسكندرية، قبل أن يغادر مصر (١٩١١)، وأصدر الدواوين الثلاثة بعده في نيويورك (الجزء الثاني من ديوانه - وهو «ديوانه الثاني» ١٩١٩- و«الجداول» ١٩٢٧، و«الخمائل» ١٩٤٠). ثم أصدر صديقه الشاعر المهجري جورج صيدح، ديوانه الخامس (تبر وتراب)، بعد وفاته (١٩٥٧) بثلاث سنين (١٩٦٠)، جمعه من الشعر المنشور في الصحف والمجلات، مما لم تجمعه دواوينه الأربعة، في الوطن والمهجر.

ثم تصدّى أحد الباحثين، ممن عاشوا زمناً في المهجر الأميركي، الدكتور جورج ديمتري سليم، لجمع ما لم تجمعه هذه الدواوين الخمسة المنشورة، فجمعه من الصحف والمجلات العربية، في الوطن والمهجر، بعد أن تتبّع ما نُشِر من شعر الشاعر فيها، في كتابٍ سماه: (إيليا أبو ماضي - دراسات عنه وأشعاره المجهولة[1]).

وإذن، فالذي نقدمه اليوم، كتاب يجمع، للمرة الأولى، شعرَ الشاعر المنشور كله، ما جمعته دواوينه الخمسة، وما لم تجمعه. فيه صورة الشاعر، من وجوهها المختلفة، وفيه نصوص شعره، من جانبها المعروف لنا، وجانبها المحجوب عنا، منذ عرفنا الشاعر.

على أن المعروف من شعر الشاعر، لدى عامة القرّاء العرب، لم يكن يتعدّى، في الغالب، بعض نصوص شعره ومطولاته المعروفة، الذاهبة مذهب التأمل والتفكر في قضايا الوجود الكبرى، مثل قصيدته «فلسفة الحياة» ومطولتيه «الطلاسم» و«الأسطورة الأزلية»، وبعض الحكايات الرمزية والأمثال المسرودة سرداً شعرياً، مثل «الحجر الصغير»، و«التينة الحمقاء»، و «الشاعر والسلطان الجائر».

---

(١) نشرته دار المعارف بالقاهرة (١٩٧٧).

وما تعدّى هذه النصوص، فيلزمه، معها، بعد الجمع، الضبط والشرح، إذ تكررت طبعاته في بعض دور النشر العربية، في لبنان وسورية والعراق، دون أن يُعنى ناشروه بضبطه وشرح معانيه، ومراجعة البعيد، من مفرداته، عن ساحة التداول العام، إذ كان من مذهب الشاعر، أحياناً - وهو الذي لم يجاوز، في نشأته، بعض مرحلة الدراسة الأولية، في مدرسة القرية - أن يلجأ إليها أحياناً، ليدل على اطلاعه على مفردات اللغة البعيدة الساكنة في بطون المعاجم، على مثال «الأذين» «في مكان «الأذان»، و«الكِبا» مكان «البَخور»، و«السَّميْدع» مكان «السيد السخي»، و«الرقيع» مكان «الرقعة»، و «الإكدار» مكان «الكدَر» الخ.

ثم إنّ غير المعروف، من نصوص شعره، لم يحظَ بالمراجعة، إلى جانب حجبه وحجزه عن النشر في الدواوين. وما قدّمه الدكتور جورج ديمتري سليم، لم يتعدّ حدود الجمع، وإلقاء الضوء على مناسبات نظمه، أو أسباب إلقائه في الحفلات.

وقد رأيت أن أحفظ للدواوين الخمسة، صورتها التاريخية، لأحفظ لها موضعها من حياة الشاعر الإبداعية. ولكني توّجت النص برقْمٍ يسهل الرجوع إليه. وجعلت المجموع، من شعره، خارج هذه الدواوين، يحمل رقْم الديوان السادس بعد الدواوين الخمسة. وبقيت أرقام الصفحات، في كل ديوان، تتسلسل، تعين القارئ على الرجوع إلى النص المطلوب.

ويلزمني، في هذه الكلمة الموجزة، أن أنقل إلى القارئ بعض ما عانيت، في الوصول إلى بعض دواوين الشاعر، في طبعاتها الأولى التي صدرت في حياته («تذكار الماضي»، والجزء الثاني - أعني «الديوان الثاني» – و«الجداول»)، وما وُفّقتُ في تحصيله، وما عَجزت عنه فعوّضته بالرجوع إلى مصادر أخرى بديلة.

والخيبة الكبيرة كانت في الوصول إلى «الديوان الثاني»، إذ عانى الدارسون، قبلي، من خيبة الوصول إليه، حتى جعل بعضهم (في دار اليقظة العربية)، قبل رحيل الشاعر[1] يفخر بتقديم أكثر مادة هذا الديوان، في طبعته الأولى، لِما سمَّاه: «إيليا أبو ماضي، شاعر المهجر الأكبر»، إذ وفَرَها للقارئ في السوق! وما يزال الوصول إلى هذا الديوان - إذ لم

(١) صدر الكتاب سنة ١٩٥٤، وتوفي الشاعر سنة ١٩٥٧ .

يُطبع بعد طبعته الأولى، في نيويورك (١٩١٩) - متعذِّراً تماماً. وقد وجدتُ، وأنا أطلب وألحُّ في الطلب، بطاقةً تحمل اسمه، في (مكتبة الجامعة الأمريكية)، في بيروت، ولكني لم أجد الديوان!

فلجأتُ، مرة أخرى، إلى كتاب الدكتور جورج ديمتري سليم، إذ أحصى - وكان الديوان في يده - نصوصَه، وسلسلها في صفحة منفردة، بعناوينها وأعداد أبياتها، في المراجع التي رجع إليها، بغية توثيقها، من ناحية، وإعانة الدارسين على الإحاطة بها، من ناحية أخرى. وقد تابعته، في إصدار (دار اليقظة العربية ١٩٥٤)، خطوةً خطوة. وامتنع عليّ، في النهاية، الوصول إلى نصين من نصوص هذا الديوان (نص الإهداء، ونص «معرّب» عن الإنجليزية، بعنوان «نشيد التباراري»). فحفظتُ لهما مكانهما في الكتاب[1]، لعلِّي أصل إليهما يوماً، وإنْ لم يكن لهما، في ظني، قدْرٌ في الدرس.

ووجدت النسخة الأصلية من ديوان «الجداول «المطبوعة في نيويورك (١٩٢٧) في مكتبة المقاصد الإسلامية في طرابلس الشام بلبنان، ونجحت في الحصول على صورة لها. أمّا (تذكار الماضي)، ديوانه الأول الذي نشره في الإسكندرية (١٩١١)، فقد وجدت صورةً له في مكتبة جامعة حلب.

ولا أعرف مصدراً لجملة النصوص التي جمعناها في «ما لم تجمعه الدواوين» من شعره، غير كتاب الدكتور جورج ديمتري سليم الذي أشرت إليه. ويهمّني أن يعرف القارئ العربي والدارس والباحث، أنّ هذا الكتاب يقرّب الشاعر منهم، على نحوٍ يلزم أن يُذكَرَ له[2] تبقى، بعد ذلك، كلمةٌ في تقويم الشاعر ومكانه من حركة الشعر العربي الحديث، ومن حركة التجديد فيها. فهذا ليس موضعه هنا، وموضعه في الدراسة المكثفة التي تتقدم الكتاب.

---

(١) أهدى الديوان إلى تاجر السجاد الشرقي، في نيويورك، وقد طُبع الديوان على نفقته، واسمه: نعمة تادرس . وفي ديوان (ما لم تجمعه الدواوين) نص، من أربعة أبيات، كتبه الشاعر بعنوان:«توديع نعمة تادرس» . (النص ٣٣ ص١٠٩٢) ورقم النص الثاني: «نشيد التباراري» ٧٥ ص ٥٣٣ .

(٢) كان صاحب الكتاب صديقاً لولد الشاعر الثاني (روبرت)، ومكّنه، بعد وفاة أبيه، من الرجوع إلى المخطوطات التي خلّفها، وعنها نقل صاحب الكتاب نصاً لم يُنشَر أبداً (ص ٢٢ من الكتاب). وفيها شعر آخر له، لم يُنشَر من بعد (ص٩٤ من الكتاب).

وما تعدّى هذه النصوص، فيلزمه، معها، بعد الجمع، الضبط والشرح، إذ تكررت طبعاته في بعض دور النشر العربية، في لبنان وسورية والعراق، دون أن يُعنى ناشروه بضبطه وشرح معانيه، ومراجعة البعيد، من مفرداته، عن ساحة التداول العام، إذ كان من مذهب الشاعر، أحياناً - وهو الذي لم يجاوز، في نشأته، بعض مرحلة الدراسة الأولية، في مدرسة القرية - أن يلجأ إليها أحياناً، ليدل على اطلاعه على مفردات اللغة البعيدة الساكنة في بطون المعاجم، على مثال «الأذين» «في مكان «الأذان»، و«الكِبا» مكان «البَخور»، و«السَّمَيْدع» مكان «السيد السخي»، و«الرقيع» مكان «الرقعة»، و «الإكدار» مكان «الكدَر» الخ.

ثم إنّ غير المعروف، من نصوص شعره، لم يحظَ بالمراجعة، إلى جانب حجبه وحجزه عن النشر في الدواوين. وما قدّمه الدكتور جورج ديمتري سليم، لم يتعدّ حدود الجمع، وإلقاء الضوء على مناسبات نظمه، أو أسباب إلقائه في الحفلات.

وقد رأيت أن أحفظ للدواوين الخمسة، صورتها التاريخية، لأحفظ لها موضعها من حياة الشاعر الإبداعية. ولكني توّجت النص برقْمٍ يسهل الرجوع إليه. وجعلت المجموع، من شعره، خارج هذه الدواوين، يحمل رقْم الديوان السادس بعد الدواوين الخمسة. وبقيت أرقام الصفحات، في كل ديوان، تتسلسل، تعين القارئ على الرجوع إلى النص المطلوب.

ويلزمني، في هذه الكلمة الموجزة، أن أنقل إلى القارئ بعض ما عانيت، في الوصول إلى بعض دواوين الشاعر، في طبعاتها الأولى التي صدرت في حياته («تذكار الماضي»، والجزء الثاني - أعني «الديوان الثاني» – و«الجداول»)، وما وُفّقتُ في تحصيله، وما عَجزت عنه فعوّضته بالرجوع إلى مصادر أخرى بديلة.

والخيبة الكبيرة كانت في الوصول إلى «الديوان الثاني»، إذ عانى الدارسون، قبلي، من خيبة الوصول إليه، حتى جعل بعضهم (في دار اليقظة العربية)، قبل رحيل الشاعر[١] يفخر بتقديم أكثر مادة هذا الديوان، في طبعته الأولى، لِما سمّاه: «إيليا أبو ماضي، شاعر المهجر الأكبر»، إذ وفّرَها للقارئ في السوق! وما يزال الوصول إلى هذا الديوان - إذ لم

---

(١) صدر الكتاب سنة ١٩٥٤، وتوفي الشاعر سنة ١٩٥٧ .

يُطبع بعد طبعته الأولى، في نيويورك (١٩١٩) - متعذِّراً تماماً. وقد وجدتُ، وأنا أطلب وألحُّ في الطلب، بطاقةً تحمل اسمه، في (مكتبة الجامعة الأمريكية)، في بيروت، ولكني لم أجد الديوان!

فلجأتُ، مرة أخرى، إلى كتاب الدكتور جورج ديمتري سليم، إذ أحصى - وكان الديوان في يده - نصوصَه، وسلسلها في صفحة منفردة، بعناوينها وأعداد أبياتها، في المراجع التي رجع إليها، بغية توثيقها، من ناحية، وإعانة الدارسين على الإحاطة بها، من ناحية أخرى. وقد تابعته، في إصدار (دار اليقظة العربية ١٩٥٤)، خطوةً خطوة. وامتنع عليّ، في النهاية، الوصول إلى نصين من نصوص هذا الديوان (نص الإهداء، ونص «معرّب» عن الإنجليزية، بعنوان «نشيد التباراري»). فحفظتُ لهما مكانهما في الكتاب[١]، لعلّي أصل إليهما يوماً، وإنْ لم يكن لهما، في ظني، قدْرٌ في الدرس.

ووجدت النسخة الأصلية من ديوان «الجداول «المطبوعة في نيويورك (١٩٢٧) في مكتبة المقاصد الإسلامية في طرابلس الشام بلبنان، ونجحت في الحصول على صورة لها. أمّا (تذكار الماضي)، ديوانه الأول الذي نشره في الإسكندرية (١٩١١)، فقد وجدت صورةً له في مكتبة جامعة حلب.

ولا أعرف مصدراً لجملة النصوص التي جمعناها في «ما لم تجمعه الدواوين» من شعره، غير كتاب الدكتور جورج ديمتري سليم الذي أشرت إليه. ويهمّني أن يعرف القارئ العربي والدارس والباحث، أنّ هذا الكتاب يقرّب الشاعر منهم، على نحوٍ يلزم أن يُذكَرَ له[٢] تبقى، بعد ذلك، كلمةٌ في تقويم الشاعر ومكانه من حركة الشعر العربي الحديث، ومن حركة التجديد فيها. فهذا ليس موضعه هنا، وموضعه في الدراسة المكثفة التي تتقدم الكتاب.

---

(١) أهدى الديوان إلى تاجر السجاد الشرقي، في نيويورك، وقد طُبع الديوان على نفقته، واسمه: نعمة تادرس. وفي ديوان (ما لم تجمعه الدواوين) نص، من أربعة أبيات، كتبه الشاعر بعنوان:«توديع نعمة تادرس». (النص ٣٣ ص١٠٩٢) ورقم النص الثاني: «نشيد التباراري» ٧٥ ص ٥٣٣.

(٢) كان صاحب الكتاب صديقاً لولد الشاعر الثاني (روبرت)، ومكّنه، بعد وفاة أبيه، من الرجوع إلى المخطوطات التي خلّفها، وعنها نقل صاحب الكتاب نصاً لم يُنشَر أبداً (ص ٢٢ من الكتاب). وفيها شعر آخر له، لم يُنشَر من بعد (ص٩٤ من الكتاب).

جهد أسأل الله أن يجعله في حسنات العمر، ويجزيَني به. فإني بدأت العمل لا أقصد به غير الاستجابة لمن ندبني له. فلمّا بدأته أصبح شُغليَ الشاغل، وأصبحت أراه، على نحوٍ ما، رسالةً أؤديها، لا عملاً أعمله فحسب.

والله وحده المسؤول أن ينفع به.

د. عبد الكريم الأشتر

****

الديوان الأول

الجزء الأول

(تذكار الماضي)

الطبعة الأولى (المطبعة المصرية. الإسكندرية ١٩١١)

يضم الديوان الأول «تذكار الماضي» - وهو، عند أبي ماضي، الجزء الأول من ديوانه، إذ أتبعه، بعد ثماني سنوات، من هجرته إلى أمريكة، بالجزء الثاني - أربعة وخمسين نصاً شعرياً، بين طويل، ومعتدل، وقصير.

وقد طبعه في الإسكندرية، وكان مضى على هجرته إلى مصر حوالي عشر سنوات (١٩٠٠ - صيف ١٩١١) قبل هجرته، مرة أخرى، إلى أمريكة. فعمره إذن، حين تمّ له طبع هذا الجزء الأول، لا يزيد كثيراً على العشرين (١٨٨٩ - ١٩١١).

****

إهداء الديوان

إلى الأمة المصرية

« أيتها الأمة الودود!

هذا ديواني الذي نظمته تحت سمائك، وبين مغانيك، أرفعه إليك، لا طلباً للمثوبة، ولا ابتغاء للشكر، ولكن إظهاراً لما تكنه جوانحي من العطف عليك والتعلق بك..

وهو بحمد الله لا يجمع بين دفتيه سوى ما يرضي الحق، ويرضيك، ويرضي هذا الفن الجميل..

ولقد يكون لي أن أهديه إلى أحد أفرادك من ذوي الفضل، جرياً مع العادة، ولكني رأيت المجموع خيراً وأبقى»

(إيليا)

****

١ - الإنسان والدين

[البسيط]

إني عـرفتُ من الإنسـان مـا كـانا
فلستُ أحـمـدُ بعـدَ اليـوم إنسـانا

بلوتُهُ، وهْوَ مـشـتـدُّ القـوى، أسـداً
صـعبَ المراس، وعند الضّـعفِ ثُعـبانا

تعـوَّدَ الشّـرَّ حـتى لو نبَتْ يدُهُ
عنه إلى الخـيـر سـهـواً، بات حَـسْـرانا

خَـفْـهُ قـديراً وخَـفْـهُ لا اقـتـدارَ له
فـالظلمُ والغـدرُ إمـا عـزٌ أو هـانا

القـتلُ ذنبٌ شنيعٌ غـيـرُ مُـغـتَـفَـرٍ
والقـتلُ يغـفِـرُه الإنسـانُ أحـيـانا

أُحِلّ قـتلُ نفـوسِ السّـائـمـاتِ له
والطيـرِ، والقـتلُ قـتلٌ حـيـثـمـا كـانا

أذاقَ ذئبَ الفـلا من غـدره طَرفـاً
فـلا يزالُ مـدَى الأيام يقظانا

ونفَّـرَ الطيـرَ حـتى مـا تلمُّ به
إلا كـمـا اعـتـادتِ الأحـلامُ وسْنَانا

سـرورُه في بكاءِ الأكـثـرينَ له
وحـزنُه أن ترى عـيناهُ جَـذْلانا

كـأنما المجـدُ ربٌّ ليس يعطفُـهُ
إلا إذا قـدَّمَ الأرواحَ قُـربانـا

هوالذي سلبَ الدنيـا بشـاشـَتَـهـا

وراحَ يملؤهـا همَّـــاً وأحـــزانا

لا تصطَفـيـــهِ وإن أثقلتَــهُ مِنناً

يـعْـــدُو عليك وإنْ أولاكَ شُـكْرانـا

قــالوا ترقَّى سليلُ الطِّينِ قلتُ لهمْ

الآن تم شــقـــاءُ العــالمِ الآنا

إن الحــديدَ إذا مــا لانَ صــار مُـدًى

فكنْ علـى حـــذرٍ مِنْـه إذا لانـا

والمرءُ وحشٌ، ولكنْ حُـسنُ صـورتِهِ

أنسى بلاياه من ســمَّـــاهُ إنســانا

قــد حـاربَ الدينَ خـوفـاً من زواجـرِهِ

كـــأن بين الورَى والدينِ عُـــدوانا

وراحَ يهـدمُ مـا الرحـمنُ شـيَّـدَهُ

وليس مـا شَـيَّـدَ الرحـمنُ بنيـانا

إني ليـأخـذني من أمــره عـجبٌ

أكلَّمــا زاد عِلمـــاً زادَ كُـفــرانا ؟

وكلَّمـــا انقــادتِ الدنيــا وصـــار له

زمــامُــهـــا إنقــاد للآثام طغــيــانا

يرجـوالكمـالَ من الدنيـا وكـيف له

نيلُ الكمـــالِ من الدنيـــا ومـــا دانا

إذا ارتدى المرءُ مـــا فـي الأرض من بُرُدٍ

وعـــافَ للدين برداً عـــاد عُـــريانا

هوالحـيـاةُ التي مـا غـادرت جـسـداً

إلا اغـتـدى الميْت أحـيـا منه وجدانا

وهوالضـيـــاءُ الذي يمحــو الظلامَ فـمَن

لا يهــتـــدي بسَناهُ ظلَّ حــيــرانا

والمنهلُ الرائقُ العـــذبُ الورودِ فـــمَن

لا يســتَــقي منه دامَ الدهرَ عطشـــانا

ليس المبـــذِّرُ من يقْلِي[1] دراهمَـــــهُ

إنّ المبـــذِّر مَن للدِّينِ مـــا صـــانا

ليس الكفـيفُ الذي أمـسى بلا بصـرٍ

إني أرى من ذوي الأبصَـارِ عُـمـيـانا

****

(١) قلاه - يقليه: أبغضه.

٢ - المرأة والمرآة

[الطويل]

أقـامتْ لدى مـرآتِهـا تتـأمَّلُ

على غـفْلَةٍ مِـمَّن يلومُ ويعـذِلُ

وبَين يديْهـا كلُّ مـا ينبـغي لِمَن

يصـوِّرُ أشـبـاحَ الورى ويمثِّلُ

مِنَ الغِـيْـدِ تَقْلي كلَّ ذاتِ مَـلاحـةٍ

كـمـا باتَ يَقلي صـاحِبَ المالِ مُـرْمِلُ

تَغـارُ إذا مـا قِـيْلَ: تلكَ مليـحـةٌ

يَطيبُ بهـا للعـاشـقينَ التَـغـزُّلُ

فـتـحـمـرُّ غَيظاً ثمَّ تحـمـرُّ غَـيْـرةً

كـأنَّ بهـا حُـمَّى تجيءُ وتُقْـفِلُ

وتُضْـمـرُ حـقـداً للمحـدِّث، لودَرَى

به ذلكَ المسكينُ مـا كـادَ يهـزِلُ

أثارَ عليـهِ حِـقـدَها غـيـرَ عـامِدٍ

وَحِـقْـدُ الغَـواني صـارمٌ لا يُفَلَّلُ

فلو وَجَـدتْ يومـاً على الدَّهر غـادةٌ

لأوشكَ مِنْ غُـلْوائهِ يتـحـوَّلُ[1]

فـتـاةٌ هي الطاووسُ عُـجْـبـاً وذيلُهـا

- ولَمْ يكُ ذيلاً - شـعـرُها المتـهـدِّلُ

---

(١) وجَدَ عليه موجدةً: حقد. والغُلْواء: الغلوّ (يريد: حقد الغواني، في البيت السابق).

سعَتْ لاحتكارِ الحُسْنِ فيها بأسْرِهِ
وكمْ حاولتْ حسناءُ ما لا يؤمَّلُ

وتجهلُ أنَّ الحسنَ ليس بدائمٍ
وإن هوَ إلا زهرةٌ سوف تَذْبُلُ

وأنَّ حكيمَ القومِ يأنَفُ أنْ يُرَى
أسيرَ طِلاءٍ بعْدَ حينٍ سينصُلُ

وكلُّ فتىً يرضى بوجهٍ منمَّقٍ
مِنَ الناعماتِ البيضِ فهو مُغفَّلُ

إذا كان حُسْنُ الوجهِ يُدعى فضيلةً
فإنّ جمالَ النفسِ أسمَى وأفضلُ

ولكنّما أسماءُ بالغيدِ تَقْتدي
وكلُّ الغواني فِعْلَ أسماءَ تفعلُ

فلو أمِنتْ سُخطَ الرجالِ وأيقَنَتْ
بسخْطِ الغواني أوشكتْ تترجَّلُ[1]

قدِ اتخذَتْ مرآتَها مُرشداً لها
إذا عنَّ أمرٌ، أوتعرَّضَ مُشكلُ

وما ثَمَّ مِنْ أمرٍ عويصٍ وإنَّما
ضعيفُ النُّهى في وهْمِهِ: السَّهْلُ معضلُ

تُكَتِّمُ عمَّن يعقلُ الأمرَ سرَّها
ولكنّها تُفْشيهِ ما ليسَ يعقلُ

فلو كانتِ المرآةُ تحفظُ ظلَّها
رأيتَ بعينيكَ الذي كنتَ تجهلُ

وزادَ بها حبُّ التبرُّجِ أنَّهُ
حبيبٌ إلى فتيانِ ذا العَصْرِ، أوَّلُ

---

(١) ترجّل (في اللغة): مشى راجلاً. والقصد هنا: أوشكت تكون رجلاً.

أَلَمُّوا به حتى لَقد أشبهوا الدُّمى

فما فاتَهُمْ، واللهِ، إلا التكحُّلُ

فَتَى العصرِ أضحى في تطرّيهِ حُجَّةً

تُقاتلنا فيها النساءُ فَتَقْتُلُ

إذا ابتذلَتْ حسناءُ ثمّ عذلتَها

تولَّتْ وقالتْ كلُّكُمْ متبذِّلُ

****

٣ - المودّة

[الخفيف]

مــــا لِهنْدٍ وكلُّ حـــــسناءَ هندُ

كلَّ يـومٍ تبـــــدو بـزيٍّ جـــــديدِ

تلبَسُ الثّــوبَ يومَـــهَـــا وهي تُطْريـ

ـهِ وتُطريهِ عندَها كلُّ خُـــودِ[١]

فـــإذا جـــاء غـــيـــرُهُ أنكرتْهُ

فـرأينا الحـمـيـدَ غـيـرَ حـمـيـدِ

أولعتْ نفـــسَـــهـــا بكلِّ طريفٍ

ليـتَـهـــا أُولعَتْ ببـعضِ التَّليـدِ[٢]

أصــبـحتْ تعـشقُ المِشـدَّ[٣] ولم أبـ

ـصِرْ طليـقـاً مـتـيّمـاً بالقـيودِ

رحـمـةً بالخـصـورِ أيتـهـا الغِيـ

ـدُ ورفـــقـــاً بتلكَ القـدودِ

مـــا جنَتْـــهُ الزنودُ حـتى ينالَ الـ

ـعُــرْيُ منهـــا، يا عـــاريات الزنود؟

وعـــلامَ الأذيالُ أمـــستْ طوالاً

كليـــالي الصُّـــدودِ أوكـــالبُنُود؟[٤]

---

(١) الأصل: خَود، وهي الحسناء.

(٢) القديم.

(٣) «الكورسيه».

(٤) الأعلام.

لوتكونُ الذيولُ أعــــمــــارَ قــــوم

لَضــــــمنًا لــهُمْ نـوالَ الخـلـودِ

قـصَـرتْ همَّــهـا الحـسـانُ على اللهـ

ـو، ويا ليت لـهــوَها بالمفـــيـــدِ

سـاء حــالُ الأزواجِ في عــصـرنا هـ

ـذا، وســـاءت أحـــوالُ كلِّ ولـيـــدِ

كلُّ زوجٍ شـــاكٍ، وكلُّ صــغـــيـــرٍ

دامعُ الطرفِ كـــارهٌ للوجـــــودِ

يظلُمُ الدهـرَ حين يعـــزو إليـــه الـ

ـبُــــؤسَ، والبـــؤسُ كلُّ أمٍ كَنـودِ[1]

لا رعـى اللـهُ زوجـــــةً تـنـفـق الأمْـ

ـوال والعـــمـــرَ في اقـــتـناء البُـرُود

ليسَ في اللهــو والبَطالةِ فـــخـــرُ

إنما الفـــخـــرُ كلُّ عِـــرسٍ كـــدودِ[2]

****

(١) كافرة بالنعمة.

(٢) شديدة في العمل.

٤ - عن مصر

[البسيط]

لا آخِـذُ الدّهرَ مـهـمـا ضنّ أوبخِـلا
تالله يحـملُ وزري وهو مـا عـقـلا[١]

جنى عليّ طلابُ العلـم في فـئـةٍ
لا تعـرف المرءَ إلا بالـغنى رجـلا

وكـان للحـرّ أن يُثـري ثراءهمُ
لوكـان يرضى به من عِـرضـه بدلا

أهوى الحيـاة فـإن عنّت على ضَـعـةٍ
صـدفتُ عنهـا كـأني أعـشقُ الأجَـلا

ليـست حـياةُ الفـتى إلا كـرامـتُـه
سـاء الذليلُ مُـقـامـاً أينمـا نزلا

يا رُبَّ مـعـتـرضٍ في قلبـه مـرضُ
وافى يسـوق ليَ التـعنيف والعَـذَلا

حـتَّـامَ تدفعُ عن مـصـرٍ ولست لهـا
بابنٍ ولا ناقـةً تبـغِي ولا جـمـلا

فلُذتُ بالصَّـمتِ حـتى لاح لي علَمٌ
ضـافٍ تداعـبُـه أيدي الصَّـبا جَـذلا

وقلت: أُنظر، فـولّى شطـرَهُ فـرأى
رسمَ الهـلالِ[٢] فـوارَى وجـهَـه خـجـلا

---

(١) لا يعقل.

(٢) إشارة إلى الراية العثمانية.

وعـــدتُ أرثـــي لـه مما ألـمَّ بــه

وعـــاد يعـــثرُ في أذياله خَـــبَلا

☆☆☆☆☆

وقــائلٍ: كـيف ترقى مـصــرُ؟ قلت له:

حَسْبُ الكنانةِ شـعبٌ يعـشقُ العـمـلا

يقظانُ لا جَــزعَــاً مما يحــاذرهُ

فـمَن يخفْ فـشــلاً في سـعـيـه، فـشِـلا

ثبْتُ العــزيمةِ لا يَلوي بهـمّــتــه

كـيـد الطُّغَـام ولا بُعـد المَـرام، ولا

خـيــرُ المحــبِّين صبٌّ لا سلوّ له

لا خـيـرَ فـيـمن إذا حُمَّ الفـراقُ سَـلا

شـعبُ يسـابقُ نحـو المجدِ هاجسَـهُ

إنّي وجـدتُ التَّـواني يخلقُ الكسـلا

ولا يني إنْ عَـــرَاهُ حـــادثٌ جللٌ

حــتى يكونَ عليــه حــادثاً جللا

حــوادثُ الدهر إعـصـارٌ تهبُّ، فـمـا

يَبقى عليـهـا سـوى من أشـبَـهَ الجـبلا

ولو أقــال الفــتى من غـمــرةٍ وجَلٌ

لم تلقَ في الناس من لم يعـرفِ الوجَـلا

شـعب أحبُّ إليـه الموتُ مـحــترمـاً

من أن يعـيشَ طَوال الدّهر مُـبـتَـذَلا

☆☆☆☆☆

مـا أجملَ الحكمَ بين القـومِ مـشـتـركـاً

فـــالمرءُ منفـــرداً لا يـأمنُ الخطَـلا

لا يَعـجَب النّاسُ إمـا سـوّدوا رجـلاً

فـسـامـهمْ مـا يَسـوم الجـازرُ الهَـمَـلا

فـالبـدرُ يكسِفُ نورُ الشـمسِ طلعـتَـهُ

والبـدرُ لولا ضيـاءُ الشـمسِ مـا كـمَـلا

إنّ المـمـالكَ قـد تحـيـا بلا مَلِكٍ

إذا أرادتْ ، ولا تحـيـا الملوكُ بلا...[1]

وإنْ سرَى الجـهلُ في شعبٍ فضعضَعهُ

فـالعلمُ خـيـرُ دواءٍ يُصلحُ الخللا

بحـرٌ لئن غـاضَ[2] مـات الخلقُ من ظمـأٍ

وكـوكبٌ تُظلِمُ الدّنيـا إذا أفـلا

هوالجُـرازُ[3] الذي مـا مَـسّـه فلَلٌ

وكلُّ عـضْبٍ نرى في حَـدّه فللا

بلى هوالسـيفُ لكن لا يُريق دمـاً

وليس يكتـمُـه غِـمـدٌ إذا نَصَـلا[4]

لولاه لـمّـا نرَ الأمـواجَ حـاملةً

من الحـديدِ جبـالاً تحـمل القُلَلا[5]

من كلّ سـابحـةٍ في اللُّجِّ تَحـسَـبُـهـا

ذا حـاجـةٍ راحَ يعـدو نحـوها عَـجِلا

جـزءٌ من الأرض فـوقَ الماء منتَـقلٌ

فـيـه من الناس جـزءٌ بات مُـرتَحِلا

ولا القطارُ الذي أضـحى يخُبُّ بنا

في كل فجٍّ يروض الحَـزْن والسَّـهَلا

---

(١) الملوك لا تحيا بلا شعوب.

(٢) جف.

(٣) السيف.

(٤) نصل: ظهر نصله.

(٥) أعالي الجبال.

من كلِّ مـــضطربٍ في الأرض ذي لجَبٍ

يُنسِـــيكَ منظرهُ الأحـــداجَ[1] والإبلا

لا يشـتكي في السُّـرَى أيْناً ولا لغَـبـاً[2]

وتشـتكي الأرضُ جـهـراً عبءَ مـا حـمَـلا

سِوى عـجـائبَ لا يُحـصى لهـا عـددٌ

حـــتى يَعُـــدَّ يَراع الكاتب الرمَـــلا[3]

ولـو يُـطيف ذووهـا بـالأُلَـى درَجُـــــوا

من قــبلنا حـسِـبَـتْـهم رُسْلُهم رُسُـلا

مـــا كـــان يخطر في قلبي ولا خلَدي

أنّي أرى المرءَ في الأفـــلاكِ منتَـــقِـــلا

سـمـــا إلى الأفق فـــارتاعتْ فـــراقدُه

حـتى اغـتـدَى زُحَلٌ يخـشـى به زُحَـلا

وأيقن الليثُ أن لا حـــصن يعـــصِمُـــه

فكاد من ذعـرهِ يسـتـعطفُ الحـمَـلا

وأصـبـح الحـوتُ ملتـاعَ الفـؤاد أسىً

كـالحـوت في الماء يخشى النارَ والأسَـلا[4]

كـــذلك العلمُ يُعلي قـــدرَ صـاحـبِـهِ

فـي الناس حـتى يُرى بالشـهب منتـعـلا

انظر إلى الشـرق في جـهـلٍ وخـذ عظةً

وانظر إلى الغـرب في علمٍ وخـذ مـثـلا

****

---

(١) ما تحمله الجمال من بيوت الراحلين.

(٢) الأيْن واللغَب: التعب والإعياء.

(٣) يقصد التمهّل في العد.

(٤) الرماح.

٥ - شكوى فتاة

نظمها الشاعر بلسان فتاة أرغمها ذووها على الاقتران برجل طاعن في العمر.

[الرمل]

لـيَ بـعـلٌ ظنَّـهُ الـنـاسُ أبـي
صـدِّقـوني، إنّه غـيـرُ أبي
واعـدِلوا عن لوم مَنْ لومـزَجَتْ
مَـا بهـا بالماءِ لم يُستـعْـذَبِ
رُبَّ لـومٍ لـم يـفـدْ إلا الـعَنَـا
كم سـهـامٍ سُـدِّدَتْ لم تُصِبِ ؟
يشـتكي المرء لمن يَرثـي لـهُ
رُبَّ شكوى خـفـفتْ من نَصَبِ

☆☆☆☆☆

زعـمـوا أن الـغـواني لُعَبٌ
إنّمـا اللعـبةُ طبـعـاً للصّـبي
وأنا مـا زلتُ في شَـرخِ الصِّـبـا
فلمـاذا فـرّطَ الأهلونَ بي؟
ليَ قـدٌّ وجـمـالٌ يزدري
ذاكَ بـالـغُـصـنِ، وذا بـالـكوْكبِ
قـد جـرى حبُّ العُـلا مـجـرى دمي
فـهْيَ سُـؤلي والوفـا من مَـشـرَبي
أنـا لـو يـعـلـمُ أهـلـي درّةٌ
ظُلِمَتْ في البـيعِ كـالـمُـخـشلَبِ(١)

---

(١) الخرز.

أخـــــذوا الـديـنـارَ مـنّـي بَـدلاً
أتُـرانـي سلعـــــــــةً لـلـمكسبِ ؟
لا، ولكن راعـــــهُمْ عـــصـــــرٌ بـه
ســـاد في الفـــتـــيـــانِ حبُّ الذهبِ
لـيـس لـلآداب قـــــــدرٌ بـيـنـهـمْ
آهِ لـوكـــــان نُـضـــــاراً أدبـي !
حَـــسِـــبـــوني حين لازمتُ البكا
طفلـةً أجـــهـلُ مــــا يَدري أبـي
ثـمَّ بـالـغُـــــــولِ أبـي هـدَّدنـي
أين مِنْ غـــول المنايا مَـــهْـــرَبي ؟
أشـــيـبُ لـو أنـه يغـــشـى الدُّجى
شـــابَ ذعـــراً منهُ رأسُ الغَـــيْـــهَبِ[1]
لـيت مــــا بيـنـي وبـين الـنوم مِنْ
فُـــرقـــةٍ بيـنـي وبـينَ الأشـيـبِ
يا لـه فظّاً كـــثـــيـــرَ الحـــزنِ، لا
يـعـــــرفُ الأنـسَ، قـلـيـلَ الـطَرَبِ
يَخْـضِبُ الشَّـــعـــرَ ولكنْ عــبــثــاً
ليس تخــفى لغـــةُ المســتــعـــربِ

☆☆☆☆

قل لأهل الأرض: لا تخـــشُـــوا[2] الردى
إنـه مـــشــتـــغـلُ في طلبي
ولمنْ يعـــجـبُ مِنْ بُـغـــضـي لـه:
أيّهـــا الجـاهـلُ أمـــري، اتّـئبِ[3]

(١) الظلمة.
(٢) الأصل: « تخشَوا».
(٣) اتّأب: تأنّى وتمهّل واستحيا.

إنّمـــا الغــــصْنُ إذا هبَّ الهـــوا
مـــالَ للأغــــصــانِ لا للحطبِ
وإذا المرءُ قــضى عــصــرَ الصِّــبــا
صـــارَ أولى بالردَى في مَـــذهَبي

****

٦ - إلى الشبان المتفرنجين

[الكامل]

يا أيهـا الشـرقُ التـعـيسُ، انظرْ إلى الـ
قـومِ الذين شـدَدْتَ أزرَكَ فـيـهمُ
مـا زلتَ تكلؤُهم بطرْفٍ سـاهرٍ
يُحـيي الظّلامَ وهمْ هجـودٌ نوّمُ
والغـربُ يرنو خـائفـاً أن يَخلفـوا
أجـدادَهُمْ ويودُّ لو لم يَنْعَـمـوا
حـتى إذا طرّتْ شـواربُهم وبا
تَ من الشـبـابِ لهُم طرازٌ مُـعْلَمُ
خـرجـوا عليكَ وأنتَ لا تدري وهمْ
لا يشـعـرون ولو دروا لتندّمـوا
يا طالما مـثَلوا لديك كـأنّهم
أسْـدُ الشّـرَى فنسـيتَ أنكَ تحلُم
ورجـوتَ مـا يرجـوهُ كل أبٍ لدى
أبنائِه، إنّ العـقـوقَ مـذمَّمُ
ولطالما شِـدْتَ القـصـورَ مِنَ المُنى
خـابَ الرجـاءُ وسـاء مـا تَتَـوهَّمُ
ألهـتْـهُمُ الدُّنيـا فـهـذا بالطّلا
صبٌّ، وهذا بالحِـسـانِ مـتـيَّمُ
والخـمـرُ فـاتكةٌ فكيفَ بناعمٍ
ترِفٍ يكادُ من النسـائمِ يُسْـقَمُ

قد أصبحوا وقفاً على شهواتِهِم
يستسلمون لها ولا تَسْتَسلمُ
لم يفهموا معنى الحياةِ وكُنْهَها
إن البليّةَ أنّهمْ لم يفهموا
فليُقلِعوا عن غِيِّهم، إنّي أرى
خَوَرَ الشيوخِ بهم ولمّا يهرموا
قد قلّدوا الغربيَّ في آفاتِه
تقليدُهُ الشرقيُّ فيما يَعْصِمُ
فتنتهُمُ لغةُ الأعاجمِ إنّما
لغةُ الأعاجمِ منهُمُ تتبرَّمُ
أمسى الذي تُهدى إليه لآلئٌ
وكأنّما هو بالحجارةِ يُرجَمُ
لا تعذلِ الشُّعراءَ إن بخلوا بِهِ
إنّ القريضَ على الغبيِّ مُحَرَّمُ
بتْنا وباتَ الشرقُ يمشي القَهْقَرى
مع ذاكَ نحسَبُ أنّنا نتقدَّمُ!

****

٧ - هديتي

إلى مدارس الشعب بالاسكندرية (وهي مدارس كان الحزب الوطني قد أنشأها بالمدينة)

[الكامل]

مــا للهُــمومِ الطَّارقــاتِ ومــا لي

أســهَــرْنني ورقــدْنَ عن أوجــالي

أمــسينَ ملءَ جــوانحي، مــا نابني

خطبٌ، ولا خطرَ الغــرامُ ببَــالي

أهوَى وقــد عــبثَ المشــيبُ بمَفــرِقي

ليس الغِــواية للكبــيــر البــالي

مــا ثَمّ داءٌ يُســـتطار له الكرى

مــا ثمَّ غــيــرُ كــآبةٍ ومَــلالِ

أرعى الثــواقبَ[١] فــي الظّلام كــأنّهــا

زَهرُ الحــدائقِ أو نثــيــرُ لآلِ

وكــأنّما شوكُ القَــتَــادِ بمضــجــعي

وكــأنّ حَــشــوَ وســادتي بَلْبــالي[٢]

حــتى إذا عكفتْ عليّ وســاوسي

ونبَــا الفــراشُ نزعتُ للتَّــجْــوال

فــخــرجتُ كــالمنشــور بعــد مماتِه

وركــبتُ متنَ الليل غــيــرَ مُــبَــال

(١) الثاقب: صفة للشهاب (شهاب ثاقب) أراد: النجوم الثواقب (جمع: ثاقبة).

(٢) قلقي.

وذهبتُ اخـتـرقُ المسـالكَ مـدْلجـاً[1]

وكـأنما أُطلقت من أغـلال

أسعى ومـا من غـايةٍ أسعَى لهـا

سـعيًـا إلى أملٍ من الآمـال

فـاسْتـوقـفـتني ضجّـةٌ في حـانةٍ...

حـبستْ مقـاعـدَها على الجّـهـال

حـامـوا على الصّـهـبـاء يرتشفُونَها

كـالطيـر حـولَ مـصفّقِ السّلسـال[2]

في غـفلةِ العُـذّال في غـسَقِ الدجى

إنّ السّـعـادةَ غـفلةُ العُـذّال

نهَبَ الكؤوسُ عـقـولَهمْ ونُضـارَهم

نـهْبَ المديرِ الخـادعِ المحـتـال

أمـسى يسـوقُ إليـهـمُ آجـالهم

وحـتُـوفـهمْ في صـورة الجـريال[3]

شرُّ الشرابِ الخمرُ، يصبح صبُّهـا

قـيـدَ الضّنَى، ويبـيُت رهنَ خَـبـال

يـا سـالبَ الأرواحِ بـعض تـرفُقٍ

يكفـيـكَ أنك سـالبُ الأمـوال

لا تدفـعنْ تلك النفـوسَ إلى الردى

إنّ النفـوسَ وإن صـغُـرْنَ غـوال

وإذا بمخـمـورٍ يتـيـه مُـعربداً

خـبَلٌ به، مـا زال تِيـهُ دلال

---

(١) سائراً بالليل.

(٢) تصفيق الشراب: تحويله من إناء إلى آخر.

(٣) الخمر.

حـــيـــرانَ مـــضطربَ الخُطا فكأنما

قــد راح يمشي فــوق جــمــرٍ صَــال

مـــتـــخـــمِّطٍ[1] في سـيَــرِه مـــتـــأودٍ

كـــالـغـصن بين صَـبـا وبين شَـمـال

عـــقَـــدَ الشَّـــرابُ لســـانَهُ ولقـد يُرى

طلْقــــاً، وفكَّ مـــجـــامعَ الأوصـــال

فكَبَـا كـمـا يكبـو الجـوادُ على الثَّرى

شُــدَّت عليــــه فــــوادحُ الأثقـــال

وتقـــدَّم الشـــرطيُّ يمشي نحـــوَهُ

مـــشيَ الفـخـورِ بنفـســـه، المخْـتَـال

مـــتلفـــتـــاً عن جـــانبـيــه كــعـــاشقٍ

مُـــتلفِّتٍ حـــذرَ الرقـــيبِ القَـــالي[2]

ورأيتُـــــه وبنانُه في جَـــيـــبِـــهِ

فـــعَلِمتُ ســـرَّ تلفُّتِ المحـــتـــال

لا تعـــجَـــبُـــوا ممَّا أحـــدِّثُكُمْ به

كم تحت ذاك الثـــوبِ من نشَّـــال

ثم انثنى مـــتـــبـــســـمـــاً وإذا فـــتىً

غضّ الإهـاب ممزَّقَ الســـربـــال

وأتى فـــحـــركّـــهُ فـــألفى جـــثّـــةً

همَـــدتْ فـــأجـــفلَ أيّمـــا إجـــفـــال

وحنَا علـيـــه يضـــمُّـــه ودمـــوعُـــهُ

تنهـلُّ مـــثلَ العـــارضِ الهطَّال

---

(١) نوع من أنواع السير.

(٢) الكاره.

وأتى ذويهِ نعـيُّـه فـتـألَّبُـوا
والغـيـدُ تُعْـولُ أيُّمـا إعـوال

أرخـصنَ مـاء الجَـفنِ ثمّ أذلْنَه[1]
ولقـد يكون الدمعُ غـيـرَ مُـذَال

ولقـد شـهـدتُ صِغـارَهُ في حَـيرةٍ
من أمـرِهِمْ، لهـفي على الأشـبـال

لا يفـقـهـون الحـزنَ غـيـرَ تأوّهٍ
مـا الحـزنُ غـيـرُ تأوّهِ الأطفـال

مـا كنتُ أعلم قـبلَ مـا حـقّـوا به
أنّ الشـقـيَّ الجَـد[2] ربُّ عِـيـال

أسـفي عليـه مُـضـرَجـاً لم تمتـشقْ
يدُهُ الحـسـامَ ولم يسِـرْ لقِـتـال

أودَى ضَـحـيَّـةَ جـهلِهِ، كم يائسٍ
أودى شـهـيـدَ الجـهلِ والإهمـال

فـرجـعتُ مـصـدُوعَ الفـؤاد أبثّكُمْ
شَـجْـوي وأندبُ حـالةَ العـمّـال

باتـوا مـن الأرزاء بـين مـخـالبٍ
من دونهـنَّ مـخـالبُ الرِّئبـال[3]

خَطَرانِ من جـهلٍ وفـقـرٍ، مـا الرَّدَى
غـيـرُ اجـتـمـاعِ الجـهل والإقـلال

فـخُـذوا بناصِـرهمْ فـإنّ حـيـاتَهم
في مـأزِقٍ حـرجٍ مـن الأهـوال

---

(١) الإذالة: الإهانة. أذاله: أهانه.

(٢) الحظ.

(٣) الأسد.

مـا أجـدرَ الجـهـلاءَ أنْ يتـعلّمـوا
فـالعلمُ مـصـدرُ هيـبـةٍ وجَـلال
فـاسـعَـوا لنشـر العلم فـيـهمْ إنّمـا
فـضلُ الغـمـام يَبينُ في الإمْـحـال[1]
إنّ الجَـهـولَ إذا تعلّم واهتـدَى
بثّ الهـدَى في صَحـبِـه والآل
يا قـومُ إن لم تسـعـفـوا فـقـراءَكُمْ
فَلِمَ ادّخـاركمُ إذًا لـلمـال
هلاّ رضـيـتمْ بالمحَـامد قُنيَـةً
إنّ المحـامـدَ قُنيَـةُ المفْـضَـال
أولسـتمُ أبناء مَن سـارتْ بـهمْ
في الـمُكْرَمـاتِ روائعُ الأمـثَـال
جُـودوا فـغـيـرُ الحـمـد غـيرُ مـخلّدٍ
مـا المالُ؟ إن المالَ طيفُ خـيـال
هيـهـاتَ ! مـا يبقى ولوعـددَ الحـصى،
أنّـى يـدومُ وربُّـه لـلـزوال؟

****

(١) الجدب.

٨ - الرجل والمرأة

[البسيط]

يا رُبَّ قـــائلةٍ، والقـــولُ أجـملُه

مـــا كـــان من غـــادةٍ حـتى ولو كَـذِبا

إلامَ تُحـــتَـــقَـــرُ الغـــاداتُ بينكمُ

وهنَّ فـي الكون أرقـى منكمُ رُتَـبـــا

كنّا[1] لكمْ سـبـبًـا في كلِّ مكرُمَـةٍ

وكنتمُ فـي شَـقـاء المرأةِ السَّـبَـبـا

زعـــمـــتمُ أنهنَ الخـــامـــلاتُ نُهىً

ولوأردنَ لصـيَّـرنَ الثَّـرى ذهَـبـا

فـــقلتُ لو لم يكنْ ذا رأيَ غـــانيـــةٍ

لهـاجَ عند الرّجـال السُّخطَ والغَضَـبـا

لم تنصِـفـينا وقـدْ كنّا نؤمّل أن

لا تُنصـفِـينا لهـذا لا نرى عَـجَـبـا

هيـهـاتَ تَعـدِلُ حـسناءُ إذا حكَمتْ

فـالظلمُ طبعٌ علـى الغـادات قـد غلَبـا

✡✡✡✡✡

يحـارب الرجلُ الدنيـا فـيخـضـعُـهـا

ويفـزع الدّهرُ مـذعـوراً إذا غـضـبـا

يرنو فـتـضْطَرِبُ الآسـادُ خـائفـةً

فـإنْ رنتْ ذاتُ حـسنٍ ظلّ مُـضْطربا

---

(١) إشباع الحركة (كنّا) لضرورة الوزن.

فـــإن تشـــأ أودعتْ أحـــشـــاءَهُ بَرَداً
وإنْ تشـــأ أودعتْ أحـــشـــاءَه لهَـــبـــا
يُفني اللـيـــــاليَ في همٍّ وفي تـعـبٍ
حِــذارَ أن تشــتكي من دهرها تعَــبـــا
ولو درَى أن هذي الشُــهبَ تزعــجُــهـــا
أمــسى يروِّع فـي أفــلاكـهـا الشُّــهَـبـا
يشـقى لتـصـبحَ ذاتُ الحلْي ناعــمــةً
ويحــملُ الهمّ عنهـــا راضـيــاً طَرِبا
فــمـــا الذي نفـحَــتْــهُ الغــانيـاتُ به
سِــوى العــذابِ الذي في عَـينه عــذُبا
هذا هو المرءُ يا ذاتَ العــفـــافِ، فــمن
ينصــفْــهُ لاشك فـيـــه يُنصفُ الأدبا
عنّفــتِــــه وهــو لا ذنبٌ جناهُ سِــوى
أنْ ليس يرضى بأن يغــدو لهـــا ذَنَبـا!

****

٩ - عبّاد الذهب

[البسيط]

مـا سـاء نفـسي مـن الدنيـا سِوى نفَـرٍ
لا خـيـرَ فـيـهمْ ولكنْ شـرُّهمْ عَـمَمُ
مـاتتْ ضـمـائرُهمْ فـيـهمْ أنانيَـةً
فليس تَنشـرُ حـتَّى تُنشَـرُ الرِّمم
سـاءتْ خـلائقُـهُمْ، أوْلاَ خـلاقَ لهم
إلا الشـراهةُ والإيثـارُ والنَّهم
إذا رأوا صـورةَ الـديـنـارِ بـارزةً
خـرّوا سُـجـوداً إلى الأذْقَـانِ كلُّهمُ
قـدْ أقـسـمـوا أنهمْ لا يُشـركـونَ بهِ
بئسَ الإلهُ وبئسَ القـومُ والقَـسَم

****

١٠ - (الإنسان والدنيا)[1]

[الكامل]

المرءُ فـي غَـفَـلاتِـه وسُـبَـاتـهِ
والـدّهرُ كـالرئبـالِ[2] في وثَبـاتـهِ
والعـمـرُ ظِلٌّ والزمـانُ يَجِـدُّ فـي
إخـفَـائه، والمرءُ في إثبـاتـه
والحـربُ لا تنفكُّ بينهـمـا ولا
ينفكُّ هذا المرءُ في حَـسَـراته
لا تعـجـبـوا مـن جَـهله وغُـروره
وتعـجَّـبُوا إنْ حـالَ[3] عـن حَـالاته
يسـعـى ولا يدري إلى حـيث الردى
وكـذا الفَـراشُ يحـوم حـولَ مماتِه
وتُحـبِّبُ الدنيـا إليـه نفـسَـهُ
فَـيُطيـعُـهـا، والنّفسُ من آفـاته
ويَضـيـرُهُ إفـلاتُه من قـيـدهـا
وسـعـادةُ الإنسـان فـي إفـلاته
يلقى الضّـراغِمَ[4] غـيـرَ مكتـرثٍ بهـا
فـإذا سطَتْ ضـربتْ على سطواته
مـا قـاتلُ البطلِ النّجـيـدِ غـضنفـرٌ[5]
إنّ الغـضنفـرَ مَنْ عـصى شـهـواتِه

****

(١) هذه القصيدة في الأصل بلا عنوان.

(٢) الأسد. (٣) تغيرعنها.

(٤) الأسود. (٥) أسد.

١١ - وردة وأميل

[الكامل]

يا ليتـمـا خُلقَ الزمـانُ أصيـلا
إنّي أراهُ كـالشبـابِ جـميـلا

ولّى فـودّعتِ السـمـاءُ بهـاءَها
من بعـده، وهوى النهـارُ عليـلا

جنَحتْ ذُكـاءُ[1] إلى الغـروب كـأنّمـا
تبـغي رُقـاداً أوتريدُ مَـقِـيـلا[2]

وتناثرتْ قطعُ السّـحـابِ كـأنهـا الـ
جـيشُ اللُّهـام[3] إذا انْثَنى مـفلولا[4]

هذا وقـدْ بسطَ السكونُ جناحَـهُ
والليلُ أمسى سـترُه مَسْـدولا

قـد بات كلُّ مسـهّـدٍ طوعَ الرُّقـا
دِ وكلُّ جَـفنٍ بالكرَى مكحُـولا

إلا مـهـفـهـفـةً[5] بهـا نزل الهـوى
ضـيـفـاً ولكن لا يريدُ رحـيـلا

غـيداءَ قـد وصلتْ ذوائبُهـا الثَّـرَى
إنّي لأحـسِـدُ ذلك الموصـولا

---

(١) الشمس.
(٢) القيلولة: الراحة، وعادة تكون بعد الظهر.
(٣) الكثير العدد، كأنه يلتهم كل شيء.
(٤) يريد: الكسرة.
(٥) ضامرة البطن.

تحكي المدامــــةَ رقّــــةً وقـســـاوةً

تحكي المهَــــاةَ لواحظاً وتليـــلا[١]

مــاءُ الحـيــاةِ يجـولُ من وجَناتِهــا

فكأنَّ في تلك الكؤوس شَــمـــولا[٢]

والخـــدُّ أبهجُ مـــا يكون مُـــورَّداً

والطرفُ أفتنُ مـــا يكونُ كـحِـيــلا

نظَرتْ ورُبَّ منيَّـــــــةٍ مِـــن نـظرةٍ

قــد كــان عنهـا ربُّهـــا مـشـغـولا

فـــهَــــوتْ، ورُبَّ هوًى تُنالُ به المنى

وهوًى يُنالُ بـه الحِـمَـــامُ نبـيــلا

والحبُّ مـصـدرُه العـيـونُ وربما

تَخِـذَ السَّـمـاعَ إلى القلوب سـبـيـلا

فــإذا عــشـقتَ فــلا تلُمْ أحــداً سِـوى

عــينيكَ إنَّ من الـعــيــون قَـتـولا

ودَّتْ وقـــد نال الذبولُ خـدودهــا

لـو أن في الشَّــوق المقـيـمِ ذُبولا

وإذا تملَّكَتِ الصَّــبـابةُ فـي امـرئٍ

لم يُجْـدِ عَـذلُ العــاذلينَ فـتـيــلا

سـمـعتْ دويّاً في الظلام فـهـرولتْ

مــذعــورةً بعــد الوقـــوفِ طويلا

وأنينَ مــحــتــضَــرٍ يقـول قـتلْتِني

ثكلتكِ أمُّكِ لم أنَلْ مـــــأمــــولا

تعــدو وتجــذبُهــا روادفُــهــا إلى

خلفٍ فـتُـجـهـدُ خـصـرَهـا المتبـولا[٣]

---

(١) العنق.

(٢) الخمر.

(٣) السقيم، و يعني هنا النحيف.

فكأن في ذاكَ الوشَاحِ مُتيَّمًا
وكأن في ذاك الإزار عَذُولا
تَخِذَتْ من الليل المخيِّمِ صاحباً
ومن الأنين إلى الأنين دليلا
تبغي الوقوفَ على حقيقةِ أمرِهِ
تبغي جليلاً لا تراهُ جليلا
وتديرُ في تلك البَنانِ مُسَدَّساً
تركت قذائفُه السّهامَ فضولا
في طَرْفِهِ كَمَنَ الهلالُ فلو رَنا
طرْفُ الزمانِ إليه عاد كَلِيلا
قد أسكَنتْ أكرُ الرّصاصِ جفونَهُ
فكأن أكباداً تُجِنُّ غليلا
يحمي الضعيفَ من القويِّ وربما
قتلَ الجبانُ به الفتى البُهلولا[1]
ومن الأسَى لم تَعرفِ الحسناءُ هل
قطعتْ ذراعاً في السُّرى أم ميلا
حتّى إذا رأت المرادَ وما رأت
إلا خيالاً واقفاً مجهولا
حسِبتْهُ قاتلَ من تحبُّ وأيقنتْ
أنّ الذي علقتْ به المقتُولا
فدَنتْ وأطلقتِ المسدسَ نحو من
بصُرت به عَرَضاً، فخَرّ قتيلا
صرعتْ فتًى صرَعَ الرقيبَ، وجندلتْ
أسداً يخِرُّ له الهِزبْرُ ذليلا

---

(١) العزيز الجامع لكل خير.

كالبدرِ حُسناً، كالغمامِ سماحةً،

كالغصن غضاً، كالحسام صقيلا

ثبْتُ الجَنانِ قويُّه، عفُّ الإزا

رِ نقيُّه، ما خان قطُّ خليلا

هذا هوالدَّنِفُ[1] الذي أرضى الهوى

فيها، وأغضب كاشحاً وعذولا

ما نال بعدَ جهاده إلا الرّدى،

والبدرُ يُكسبُه المسيرُ أُفُولا

لم تَعْلَمِ الحسناءُ أنّ قتيلَها

مَن لم ترَ[2] أبداً سِواهُ جميلا

عرفتْ، وذلك عندما طلعَ الضُّحى،

ورأت عِياناً نعشَه محمولا

لم يبلغوا القبرَ المعدَّ لدفنه

إلا وقد بلغ الرّدى العُطْبولا[3]

يا صاحبي إنْ جُزتَ في قبريْهما

فَاتْلُ السلامَ عليهما ترتيلا

من شاعرٍ ما حرّك الغصنَ الهوا

إلا تذكّرَ «وردةً وأميلا»

****

(١) المريض.

(٢) مد حركة الراء للضرورة.

(٣) المرأة الممتلئة.

١٢ ـ أنا هو

[الكامل]

كـانت قُـبـيلَ الـعـصـرِ مـركـبـةٌ
تجـري بمن فـيـهـا من السَّـفْـرِ[١]
مـا بين منخـفِضٍ ومـرتفـعٍ
عـالٍ وبين السَّـهـلِ والـوعـرِ
وتَخُطُّ بالـعـجـلات سـائرةً
فـي الأرض أسـطـاراً ولا تـدري
كـتـبتْ بلا حـبـرٍ، وعزّ على
الأقـلام حـرفٌ دونما حِـبْـرِ
سـيـارةٌ في الأرض مـا فَـتـئتْ
كـالطيـر من وكْـرٍ إلى وَكْـرِ
تـأبـى وتـأنـفُ أن يَـلُـمَّ بـهـا
تـعبٌ، وأن تشكو سـوى الزّجـرِ
حـملتْ من الرُّكّـاب كلَّ فـتًـى
حـسَنَ الرُّواء[٢] وكلَّ ذي قـدْرِ
يتـحـدثونَ، فـذاكَ عن أملٍ
آتٍ، وذا عن سـالفِ العُـمْـرِ
يتـحـدّثونَ وتلك سـائرةٌ
بالقـوم لا تلوي على أمـرِ
فكأنما ضـرَبتْ لـهـا أجَـلاً
أن تلتـقي والشـمسَ في خِـدْرِ

---

(١) المسافرون.
(٢) المظهر.

حـــتى إذا ســـارت بداحـيـةٍ[1]

ممدودةٍ أطرافُـــهَــا صِــفْــر

ســقطتْ من الـعـــجــلاتِ واحــدةٌ

فــتــحطَّمتْ إرْباً على الصّـــخــر

فــتَـــشـــاءمَ الركّـــابُ واضطربوا

مما ألـمَّ بـهـمْ مـن الـضُّــــــر

وتفـــرقـــوا بعـــدَ انتظامـــهمُ

بـدداً، وكـم نـظْـمٍ إلـى نَـثــــر

والشـمسُ قـد مــالتْ أشعــتُـهَــا

تكســـو أديمَ الأرض بالـتِّــبْــر

والأفْقُ مُـــحـــمــرٌّ كــأن به

حـنـقَـــاً عـلـى الأيّـام والـدهـر

والقـــومُ واجِـــفـــةٌ قلوبُهمُ

قلقــاً كــأنهمُ على الجــمــر

قـــد كـــان بين الجَــمع ناهدةُ الثْـ

ـثَــدْيينِ ذات مَــلاحَـــةٍ تُغْــري

تبكي بكـاءَ القـــانطِينَ، ومـــا

أســخى دمـــوعَ الغـــادةِ البِكْر!

وقـــفتْ وشـــمسُ الأفْقِ غـــاربةٌ

تذري عُـــلاً كـــالورد.. كـــالقطْر

شـــمـــســانِ لولا أن بينهـــمـــا

صلةٌ لما بكَتَــــا من الهَـــجْــر

وتديرُ عـــينيـــهـــا على جَــزَعٍ

كـــالظبي مُلتـــفِـــتــاً من الذُّعْــر

(١) الأرض المنبسطة.

وإذا فتًى كالفَجْرِ طلعتُهُ

بل ربّما أربَى[1] على الفجر

وافَى إليها قائلاً عجَباً

ممَّ البُكاءُ شقيقةَ البدر؟

قالتْ أخافُ الليلَ يَدهمُنِي

ما أوحشَ الظلماءَ في القَفْر

وأشَدُّ ما أخشاهُ سفكُ دمي

بيَدِ الأثيمِ اللصِّ ذي الغَدر

«هنري» اللعينُ، وما الفتى «هنري»

إلا ابنُ أمّ الموتِ لو تدري

رصدَ السبيلَ فما تمرُّ به

قدَمٌ، ولا النسَماتُ إذ تسري

وا شِقْوتي إن الطريق إلى

سَكَني على مُسْتَحسَنِ النُّكر

إني لأعلَمُ أنّما قَدَمي

تسعى حثيثاً بي إلى القَبْر

قال الفتى: هيهاتَ خوفُكِ لن

يُجديكِ شيئاً ربَّةَ الطُّهر

فَتشَجَّعي وعليَّ فَاتَّكِلي

فأنا الذي يحميكِ من «هنري»

قالت: أخافُ من الخَؤونِ على

هذا الشبابِ الناعمِ النَّضْر

فأجابها: لا تجزَعي وثِقي

إني على ثقةٍ من النّصْر

---

(١) زاد.

عـــادتْ كـــأنْ لم يَـغْـــرُهَـا خَلَلٌ
تَـخِـدُ[1] القـفـارَ، سـفـينةُ البَـرِّ[2]

والليلُ مـعـتكرٌ يجـيشُ كـمـا
جـاشتْ همـومُ النفس في الصَّـدر

فكأنَّـهُ الآمـالُ واسـعـةً
والبـحـرُ في مَـدٍّ وفي جَـزْرِ

وكـأنَّ أنجـمَـهُ وقـد سطعتْ
دمـعُ الـدَّلالِ ونـاصـعُ الـدُّرِّ

والبـدرُ أسـفـرَ رغمَ شـامـخـةٍ
قـد حـاولتْ تطويه كـالسِّـر

ألقَى أشـعَّـتَـه فكان لهـا
لونُ اللُّجَـيـنِ ولؤلؤِ الثَّـغْـر

فكأنَّـهُ الحـسناءُ طالعـةً
من خِـدْرِهـا أو دُمـيـةُ القَـصْـر

وكـأنما جُـنحُ الظلامِ جَـنَـى
ذنبـاً فـجـاءَ البـدرُ كـالعُـذْر

وضَـحَـتْ مـسَـالكُ للمطيَّـة قـدْ
كـانت شَـبـيـهَ غَـوامضِ البَـحْـر

فـغَـدَتْ تُـحَـاكي السَّـهمَ منطلقـاً
في جَـرْيهـا والطيف إذ يسـري

والقـومُ في لهـوٍ وفي طربٍ
يتناشـدونَ أطايبَ الشِّـعـر

حـتى إذ صـارتْ بمنعَـرجٍ
وقـفَـتْ كـمنْتَـبـهٍ من السُّكْر

---

(١) تشق، (وخد - يخد).

(٢) عادت السيارة إلى السير.

فـتــرجّلتْ «ليـزا» وصـاحـبُـهـا

ومـــشَتْ وأعـــقَـــبَـهـــا على الإثْر

واسـتـــأنفتْ تلك المطيَّـــةُ مـــا

قـــد كـــان من كَـــرٍّ ومن فَـــرِّ

مـــشت المليـــحـــةُ وهي مُطْرِقـــةٌ

مـــا ثمّ من تيـــهٍ ولا كِـــبْـــر

أنَّى تَتِـيـــهُ وقـــد أناخ[1] بهـا

همٌّ وبعضُ الهمِّ كـــالوقْـــر[2]

لم تحـتسِ خـمـراً وتحـسَـبُـهـا

مما بهـــا نشـــوَى من الخـــمـــر

في غـــابةٍ تحكي ذوائبَـــهـــا

فـي لونـهـــا واللّـفِ والنَّشْـــر

ضـاقتْ مـــسالكُهـا فـمـا انفرَجتْ

إلا لِسَـــيْـــرِ الذئبِ والنِّمْـــر

كـــالليلةِ الليـــلاءِ سَـــاجيـــةً

ولـربّ لـيلٍ ســـــاطعٍ غـــرّ

قـــد حـــاول القـــمـــرُ المنيـــرُ بهـــا

مـــاحـــاولَ الإيمانُ في الكُفـــر

تحنو على ظبْيٍ وقَـــسْـــوَرَةٍ[3]

أرأيتـمُ ســـرّيـنِ في صـــدر ؟

صـــقـــرٌ وورقَـــاءُ[4] ومِن عـــجبٍ

أن تحـــتـــمِي الوَرْقـــاءُ بالصـــقـــر

---

(١) ثقل عليها.

(٢) الثقل.

(٣) أسد.

(٤) حمامة.

هذا وأعـــجَـبُ أنهـــا سَلِمتْ
منه على مـــا فـيـــه من غَـدْر
ظلَّتْ تسـيـــرُ وظلَّ يتـبـعُـهَـــا
مـــــا ثَـمَّ مـن إثـمٍ ولا وزر
طال الطريقُ وطال سـيـــرُهُمـــا
لكنّ عُـــمْـــرَ الليلِ في قُـــصْـــر
حـتى إذا سـفَـرَ الصَّـبـاحُ وقـد
رُفِعَ الظلامُ وكـــان كـــالسِّـــتْـــر
والغـــابُ أوشك أن يبـــوحَ بـهـــا
وبه بـلا حَـــذَرٍ إلى النهـــر
نَظرتْ إليـــه بمقلَةٍ طفَـــحتْ
سِـحْـراً ووجـهٍ فـاضَ بالبِـشْـر
قـــالتْ لـه: لم يبقَ مـن خطَـرٍ
جَـمٍّ[1] نُحـــــاذِرُه ولا نَـزْرٍ[2]
انظر فـــإنَّ الصُّـــبحَ أوشك أن
يمحـــو ضـيـــاءَ الأنْـجُمِ الزُّهْر
وأراهُ دَبَّ إلـى الـظـلام فـــهـل
هذا دبيبُ الشَّـيبِ في الشَّـعْـر؟
واسـمعْ فـأصـواتُ الطيـورِ علَتْ
بين النَّقَـــا والضَّـــالِ والسِّـــدْر[3]

(١) كثير.
(٢) قليل.
(٣) أسماء شجر بالبادية.

قـــال الفـــتـى: «أوَ كنتِ في خطرٍ؟»

قـــالت له: عـــجـــبـــاً .. ألم تدْرِ؟

فـــأجـــابهـــا: «مـــا كـــان في خطرٍ

من كـــان صـــاحـــبُـــه الفـــتـى.. هنري»

فـــتـــقـــهـــقـــرتْ فـــزَعـــاً فـــقـــال لهـــا

لا تـــهْـــلَعي واصـــْـــغِـــي إلى حُـــرٍّ

مـــا كـــنـــتُ بـــالشِّـــريـــر قـــطُّ ولا

الـــرجـــلِ الـــذي يـــرتـــاحُ لـــلـــشـــرِّ

لـــكـــنني دهـــرٌ يـــجـــورُ عـــلـــى

دهـــرٍ يـــجـــورُ عـــلـــى بـــنـــي الـــدَّهـــر

بل إنني خَـــطَـــرٌ عـــلـــى فـــئـــةٍ

منـــهـــا على خطَرٍ ذووا الـــضُّـــرِّ

قـــتـــلوا أبي ظُلْـــمـــاً، فـــقـــتـــلـــهُـــمُ

عَـــدْلٌ وحـــســـبـــي العَـــدْلُ أن يـــجـــري

لا ســـلـــمَ مـــا بـــيـــنـــي وبـــيـــنـــهـــمُ

لا ســـلـــمَ بـــين الـــهـــرِّ والـــفـــأر

ســـيَـــرونَ فـــيَّ المـــوتَ منـــتـــقـــمـــاً

لا شـــافـــعُ في الأخـــذِ بـــالـــثَّـــأر

تـــا اللـــهِ مـــا أنـــســـاكَ يـــا أبـــتـي

أبـــداً ولا أُغْـــضِـــي عـــلـــى الـــوِتْـــر

قـــالت لـــه: هـــيَّـــجْـــتَ لي شـــجـــنـــاً

فـــإليـــكَ مـــا قـــد كـــان من أمـــري

بعثَ المـــليـــكُ إلى أبي فـــمـــضَـــى

وأخـــي مـــعـــاً تـــوّاً إلى الـــقَـــصـــر

فــإذا أبـي فـي القــبــرِ مــرتَـهنٌ

وإذا أخـي فـي ربْقَـــةِ الأسْــــر

يا ســاعــديَّ بُتِـــرْتُـمــا ويدُ الدْ

ـدَهْرِ الخَــؤونِ أحقُّ بالبَـــتْـــر

نَابـي وظفـــري بِتُّ بعـــدكُـــمــا

وحـــدي، بلا نـابٍ ولا ظُفْــــر

ويـلاهُ مِـن جَــوْرِ الـزمــــان بنـا

والـويلُ منه لـكلِّ مُـــغْـــتـــرِّ

وكــــأنـنـا والمـوتُ يـرتـعُ فـي

أرواحِنا، مَـــرعًى، ومُـــســتَـمْـري

لـمَّــــا انتـــــهتْ وإذا بـه دَهِشٌ

حَـيـرانٌ كـالمأخُـوذِ بالسِّـحْـر

شـــاء الـكلامَ فـنالَـهُ خَــرَسٌ

كلُّ الـبــلاغــةِ تحت ذا الحُـصْــر[1]

وكـــذلـك الـغـــيـــداءُ أذهلَـهــا

مَــيْلٌ إلـى هـذا الـفــتـى الغِـــرِّ

قـــالـت .. أخـي .. والله..واقـتــربتْ

تـرنو إلـيــه بمقْلَـةِ العُـــفْــر[2]

وإذا بـه ألـقَـى عـــبـــاءتَـه

بَرَحَ الـخـفــاءُ بهــا عن الجـهــر

صـــاحتْ أخـي .. فكتـــورُ.. و اطَرَبي

روحي..شـقـيـقـي..مـهـجـتي.. ذخـري

---

(١) قلة الكلام.

(٢) واحدة الأيائل، وهي نوع من الغزلان جميلة المنظر.

وتعـــانقـَــا فـــبكَى الفـــتى فـــرحـــاً

إن البـــخـــارَ نتـــيجـــةُ الحَـــرِّ

وتســـاقطتْ في الخـــدِّ أدمـــعُـــهَـــا

كـــالقَـطْرِ فـــوق نواضِـــرِ الزَّهْر

قـــل لـــلأُلَـــى يـــشـــكـــون دهـــرَهُـــمُ

لا بـــدَّ مِـــن حـــلـــوٍ ومِـــن مُـــــــــــرِّ

صـــبـــراً إذا جَـلَلٌ أصـــابكمُ

فـــالعُـــسْـــرُ آخِـــرُه إلى اليُـــسْـــر

****

١٣ - ضيف ثقيل

[الطويل]

أقصُّ عليكمْ مـا جـرى ليَ بالأمسِ
فليْ قَـصَصٌ تجلو الهـمومَ عن النَّفسِ
إذا قلتُ، قـال الدهرُ «أحـسنتَ يا فـتًى»
ولو كـان ذا حسٍّ لغـابَ عن الحسِّ
فـدونكُمُ هذا الحـديثُ فـإنه
ألذُّ وأشـهى من مُـعَـاقـرةِ الكأس
جلستُ إلى طِرسي[١] وقد عسعس الدجى
أسطِّرُ مـا تُوحـيـه نفـسيَ في طِرْسي
وليس سِـوى نورٍ ضـئـيلٍ بجـانبي
يلوح ويَخـفى كـالرجـاء لدى اليَـأْس
وكـالنَّقعِ في جـوفِ الدواةِ أوالدُّجى
وكـالهِندُواني[٢] بين أنُمليَ الخَـمْـس
فـصـاحـةُ قُسٍّ[٣] أودِعَتْ في لسـانه
وحكمـةُ لقمـانٍ[٤] ويُحـسَبُ في الخُـرس
ضـعـيفُ الخطى بادي النحـولِ كـأنما
يُشـدُّ إلى قـيـدٍ، يُشَـدُّ إلى حَـبْس
أقـلِّـبُـهُ فـوقَ الطروس وإنما
أُقلَّبُ فـوقَ الطِّرسِ سـعـديَ أو نحـسي

(١) ورقي
(٢) السيف
(٣) خطيب من خطباء الجاهلية اشتهر بالفصاحة (قُسّ بن ساعدة الإيادي).
(٤) حكيم ورد ذكره في القرآن الكريم.

فَنبَّـــهني طَرْقٌ على باب غـــرفـــتي

وصـوتُ ضـعـيفُ وهو أقـربُ للهـمس

نهـضتُ ولكن مـــثلمــا ينهضُ الذي

بـه نشـــوةٌ أو مـن يفـــيقُ مِن المسِّ

ولـمّـا فـتـحتُ البـابَ أبصـرتُ راهبـاً

ولو كنت طفـــلاً قلت: غـــولٌ من الإنس!

فـــأزعـــجَني مَـــراَهُ حـــتى كـــأنما

رسـولُ الردى قـد جـاء ينعَى لي نفـسي

فـــقلتُ: وقـــاني اللهُ شــرَّكَ مـــا الذي

أتى بك يا مـشـؤومُ في سـاعـة الأُنْس؟

أجـابَ: كُـفـيتَ السُّـوءَ جـئـتُكَ طالبـاً

مـــديحَكَ لي بين الأعـــاربِ والفُـــرس

فـــقلتُ: وحقِّ الشّـــعـرِ مـــدحُكَ واجبٌ

ومـــثليَ يقْـضِـيــه على العين والرأس

خـبَـرتُ بني الدنيـا وفـتّـشتُ فـيـهمُ

فلـم ترَ عَـــيْني قَطُّ.. أثقلَ من قَسِّ

****

١٤ ـ قتل نفسه

[المتقارب]

تـأمّلَ فـي أمـــســـهِ الـدابـرِ
فكـاد يُجَـنُّ من الحـــاضــرِ

أهـاجَ التـــذكُّـــرُ أشـجـــانَهُ
وكم للسَّـــعـــادةِ من ذاكِـــر

فـــتًى كـــان أنعمَ من جـاهلٍ
فـــأصـــبحَ أتعسَ من شــاعــر

أضـاع الغِنَى، وأضــاعَ الصِّـحـابَ
ورُبَّ مـــــريـضٍ بـلا زائـر

ويـا طالما أحـــدَقُـــوا بالفـــتى
كـــمـــا تُحْـدِقُ الجندُ بالظَّافــر

فلمَّـــا انقـضَى مـجـدُه أعـرضـوا
ومـــا النـاسُ إلا مـعَ القـــادر

ومـــا النـاسُ إلا عـــبـيـــدُ القـويِّ
فكُنْ ذاكَ أو كُنْ بلا شـــاكـــر

أشـــــدُّ من الـدهـرِ مكراً بَـنـوهُ
فـــويلٌ لمن ليس بـالماكـــر

فكن بينـهـمْ خَـــاتلاً غـــادراً
ولا تشـــتَكِ الغـــدرَ مِن غـــادر

تعـــيسُ تُعـــانقُـــه النائبـــاتُ
عِناقَ الحَـــبـــائلِ للطـائر

كـثـيـرُ الهـمـومِ بلا ناصـرٍ
كـسِـيـرُ الفـؤادِ بلا جَـابر

قـضـى ليلَهُ سـاهـيـاً سـاهراً
إلى كـوكبٍ مـثلِه سـاهر

يُفـتِّشُ عن آفلٍ في الثَّـرَى
ومـا كـان في الأفْقِ بالسَّـافر

وتـاللهِ يُجـدي فـتًى بائسـاً
كـلامُ المنجِّم والسـاحـر

ولـمّـا توارتْ دراري السَّـمـاءِ
وغـاب الهـلالُ عن الناظر

بكى ثم صـاح: أحـتّى النجـومُ
تَصُـدُّ عن الرجلِ العـاثِر ؟

إلامَ أعـاندُ هذا الزمـانَ
عِنادَ السَّـفـينةِ للزاخـر؟

وأدعـو ومـا ثَمّ من سـامعٍ
وأشكو ولكنْ إلى سـاخـر

وأرجـو الوفـاءَ وتأبى النفـوسُ
وأنّى الولادةُ للعـاقِـر

سـئـمتُ الحـيـاةَ فليتَ الحِـمَـامَ
يعـيـدُ إلى أصلِه سَـائري

فـتنطلقُ النفسُ من سـجنِهَـا
ويُسـجَنُ تحت الثَّـرَى ظاهري

وزاد سـوادُ الدُّجى يأسَـهُ
وقـد كـاد يُسـفِـرُ عن بَاهر

فـــشـــاء التَّـــخـلُصَ من دهـرِه الْـــ

ـخَــوُونِ ومن عــيــشِــه الحَــازر[1]

فـــأغـــمـــدَ في صـــدره مُـــدْيةً

أشــدَّ مــضـــاءً من البَـــاتر

وكم مـــثلُه قـــد قـــضَى نحـبَـهُ

شـــهـــيـــدَ التَّـــأملِ في الـغَـــابر

****

(١) الحامض، يعني الكريه.

١٥ـ ذكرى وعبرة

[الكامل]

عـاطيتُـهـا في الكأسِ مـثلَ رُضَـابِهـا

تسـري إلى قلب الجـبـانِ فـيَـشْـجُعُ

يطفـو الحَـبَـابُ على أديمِ كـؤوسِـهـا

فـكأنَّ تِـبـراً بـاللُّجـينِ[١] يُرصَّـع

وكـــأنما تـلـك الـكـؤوسُ نـواظـرٌ

تبكي، وهـاتيكَ الفـــواقعُ أدمع

مـشـمـولةٌ تُغـرِي بصُـفْـرتِهـا البـخِـيْ

ـلَ بهـا، فـيطمعُ بالنُّضـارِ[٢] وتطمع

شـمطاءُ إلا أنهـا مـحـجـوبةٌ

عـذراءُ إلا أنـهـا لا تَـمنَـع

مـا زلتُ أسـقـيـهـا إلى أن أخـضـعتْ

منهـا فـؤاداً للهـوَى لا يَـخـضَـع

فـعَلتْ بهـا مـثلَ الذي فـعلتْ بنا

ألحـاظُهـا، إن اللِّحـاظ لتَـصـرَع

لمَّـا انتـشتْ ومـضَى الخـفـاءُ لشـأنهِ

بـاحـتْ إلـيَّ بمـا تُـكـنُّ الأضـلُـع

بَرَحَ الحـيـاءُ وأعلنتْ أسـرارَهـا

إن الحـيـاءَ لكلِّ خَـوْدٍ[٣] بُرْقُـع

---

(١) الفضة

(٢) الذهب

(٣) الحسناء

فَـعَلمتُ أني قـد خُـدعتُ بحـبِّـهـا
زمـنـاً، وكـنـتُ أظـنـنـي لا أُخـــدَع

مـــا كنتُ أعلمُ قـبل أن أسكرتُهــا
أنَّ الفــؤادَ بحبٍّ غـيـري مـولَع

فـتـركـتُـهـا نشـوَى تغـالبُ أمـرَها،
والأمــرُ، بعــد وقـــوعِـــه، لا يُدفَع

ورجــعتُ عنهــا واثقـاً من أنّ مــا
قــدْ كــان من حــبي لهــا لا يَرجع

وبـكـيتُ لـو أنَّ الـبكـاءَ أفـــادني،
ونـدمـتُ لـو أنّ الـنـدامَـــة تـنـفَـع

****

١٦ ـ مصرع حبيبين

[الكامل]

في ذلك الـروضِ الأغـنِّ بدا فـــتًى
قـد يبلغُ العــشرينَ عــامــاً ذو نُهَى
كــــالبــــدرِ إلا أنه مُـــتكتمٌ
والـغُـــصنِ إلا أنه غـــصنٌ ذَوَى[1]
كـتبَ الضَّنَى في وجـهِـه هذا الذي
كـــاد الـغــرامُ به يَؤولُ إلى الـفَنا
دَنِفٌ تروّعُـــه الـغـــصونُ إذا انثَنتْ
طرباً، ويقلقُـــه النَّسـيمُ إذا جَـرَى
حـيـرانُ، يُقـعِـدُه الهـوَى ويقـيـمُـه،
فكأنه علَـمٌ يداعــبُـــه الـهَـــوا
فـــإذا رنـا للأفْق ظنَّ نجـومَـــهُ
عِـقـدَ التي مَن رامَـهـا، رام السَّـمَـا
وتوهَّـمَ القـــمــرَ المحلِّقَ وجــةَ من
ضنَّتْ وجــادتْ باللقــاءِ وبالنَّوى
حَـجبَ الغـمــامُ البدرَ عند مـسيرِه
فكأنه (أســمــاءُ) تسـري في الدُّجَى
حـسناءُ قــد عَـشِقَ المحبُّ عـفـافَـهـا
وتعــشـقتْ آدابَهُ فـهُـمــا سَـوا
كـالغـصنِ قـامـتُـهـا إذا الغـصنُ انثنَى
وجـبـينُهـا يحكي الصبـاحَ إذا انجلَى

---

(١) ذبل.

وقـــعتْ غــدائرُها على أقــدامِــهــا
فكأنهـــا قـــد عَـضَّـهـــا نابُ الـهـوَى

خَــوْدٌ إذا نطقتْ حـسِـبتَ حـديثَـهــا
دُرّاً ولكن ليس مما يُـشـــتَـــرَى

وقـــفتْ تحـــيطُ بهـــا الزهورَ كـــأنما
قـــمـــرٌ تحـيط به الكواكبُ في الفـضَـا

ومـشتْ تحُفُّ بهـا الـغـصـونُ كـأنهـا
ملِكٌ تحُفُّ بـه الجنودُ إذا مـــــشَـى

لله زورتُـهـــا وقـــد قَـنَطَ[1] الفـــتـى
فكأنهـــا روحُ جـرَى فـيـمَـن ثوَى[2]

هيـــهـــاتَ مـــا ظَفَـــرُ المؤمِّلِ بالغنى
بـألذَّ مِن ظَفَـــرِ المتـــيَّم باللِّـقـــا

فَـدَنا يطارِحُـهـــا تحـيـة عـاشقٍ
ويقـــول: أهلاً بالحـــبـيب اللَّذْ أتـى[3]

بينا تصـافحُ من يصـافـحُـهـــا ، إذا
بدمـوعـهــا سَـحّتْ فـصـافَـحتِ الثَّـرى

مـــا للعـيـون تَـحـدَّرتْ عـبــراتُـهـا
وعــلامَ هذا الحــزنُ يا ذات البَـهــا

قـــالت: حـبـيـبي لو ترى مـا قـــد جـرى
في ربْعِنا[4] شـارِكْـتَني فـيـمــا ترى

جـــارَ القـــضـــاءُ عليَّ في أحكامــه
مـــا حيلةُ الإنسانِ إن جـــارَ القـضـــا

---

(١) يأس.
(٢) دفن.
(٣) [اللذ] بمعنى الذي، وهو من الشواذ.
(٤) بيتنا.

فـــابكِ مـــــعي فلربما نفعَ البُكا

إنّ الليـــالي لا تدومُ على الصَّـــفـــا

قـــال الفـــتى والدمعُ منتـــشـــرٌ على

خـــدّيه: يا «أســمـــاءُ» قـــولي مـــا جـــرى

فَـــتلفَّـــتَتْ في الروضِ خِـــيفَـــةَ ســامعٍ

فكأنهـــــا الظَّبيُ الـغـــريرُ إذا رنا

وتـــردَّدَتْ بـكــلامِـــــهـــــا فـكـأنـما

تبـــغي ولا تبـــغي التـــفـــوّه بالنبـــا

قـــالت ودمعُ العينِ يخنُقُ صـــوتَهـــا:

وشَتِ الحـــواسِـدُ عند مَن نـخـــشَـى بنا

وغـــداً يعـــودُ الشَّـــملُ منفـصِمَ العُـــرا

هذا هو الخـــبـــرُ اليـــقينُ بلا خَـــفَـــا

قـــد أنبـــأتْهُ بالفُـــراقِ ومـــا درت

أنَّ الفـــراقَ حِـــمـــامُ مَن عَـــرفَ الـهـــوى

فكأنما ســـــهمٌ أصـــــابَ فـــؤادَهُ

وكـــأنه لـمَّـــــا ارتمى طوْدٌ[1] هـوى

أمـــا الفـــتـــاةُ فـراعَـــهَـــا مـــا صـــار في

مـــحـــبـــوبِهَـــا وكـــأنهـــا ندمتْ على...[2]

جـــعلتْ تُناديه بصـــوتٍ مُـــحـــزنِ

فـــيجـــيـــبُـــهـــا كندائِهـــا رَجْعُ الصَّـــدى

حـــتـــى إذا قَنَطتْ دنَتْ منه كـــمـــا

يدنو أخـــو الداء العُـــضـــالِ مِن الدوا

وَحنَتْ فـــحـــرّكتِ الفـــتـــى وإذا به

جـــسِمٌ ولكن لا حـــيـــاةَ به ولا...

---

(١) جبل.

(٢) نوع من البديع يقال له: الاكتفاء، وهو الإتيان بكلمة من العبارة، يستدل على باقيها بالسياق.

قـد فـارقَ الدنيـا فـفـارقَـهـا الرَّجَـا

وهَوتْ تعـــانقُــــه فـــفَـــارقتِ الورَى

قـمـرانِ ضَـمَّـهـمَـا الـتـرابُ ومـا عـرفْـ

ـتُ سِـواهمـا قـمـرينِ ضـمَّـهـمـا الثَّـرى

****

١٧ . معركة شمولبو[١] (بين اليابان وروسيا)

[الكامل]

دبَّتْ وقد ألقى الظلامُ ستارا
ولطالما كتمَ الدُّجى الأسرارا

سفنٌ هي الأطوادُ لولا سَيْرُها
أعَهِدْتُمُ جبلاً مشى أو سارا؟

كالطيرِ أسراباً ولكن إن عَدَتْ
نفَتِ الرياحَ، وتَسْبقُ الأطيارا

مثلُ الكواكبِ في النظامِ وإنها
لكما الكواكبُ تَبعثُ الأنوارا

هيَ كالمدائنِ غيرَ أن نزيلَها
أبداً بها يتوقعُ الأخطارا

وأظنُّها فقدتْ حبيباً أو أخاً
ولذلك ارتدَتِ السوادَ شِعارا

تغشَى المياهَ لعلَّ ما في قلبها
يُطفا فتزدادُ الضلوعُ أُوارا[٢]

وتميدُ حتى لا يُشَكُّ بأنها
سكرى ولم تذُقِ السفينُ عُقارا[٣]

وتُسَرُّ إنْ رأتِ الثغورَ كأنها الْـ
ـمقرورُ أبصرَ بعد جهدٍ نارا

---

(١) بين اليابان وروسيا (١٩٠٤ _ ١٩٠٥). انتصرت فيها اليابان فحيًا نصرَها بعض شعراء العرب وجرى أبوماضي على نسقهم.

(٢) اشتعالاً وحرارة.

(٣) الخمر.

وبوارجٌ قـد سُـيِّـرتْ كـالجَـحـفَلِ الْـ
جَـرّارِ تحـمـلُ جـحـفَـلاً[1] جـرّارا
حـملتْ أنـاسـاً كـالقـرودِ، وجـوهُهُمْ
صـفـراءَ يحكي وجـهُـهَـا الدينارا
فُطْسَ الأنوفِ، قـصـيـرةٌ قـامـاتُهمْ،
هيـهـاتَ لا تتـجـاوزُ الأشْـبـارا
قـد قـادَهـا «طوغـو»[2] فـقـادَ ذلولةً
تهـوَى الصِّـعـابَ وتعـشقُ الأسْـفَـارا
في قلبِـه نارٌ وفي أحـشـائهـا
مـثلُ الذي في نفـسـه قـدْ ثارا
مـا زال يدفـعُـهـا البـخـارُ فـتـرتمي
كـالسَّـهم أُطلقَ في الفـضـاء فَـسَـارا
طَوْراً تراهـا فـي السَّـحـاب، وتارةً
في القـاع يُوشكُ جِـرمُـهـا[3] يتـوارى
حـتى دنتْ من ثَغْـرِ «شـولبـو»[4] الذي
جـمع الأُلى لم يعـرفـوا مـا صـارا
نَفَـرٌ من «الروس «الذين سـمـعتُ عن
أفـعـالِهمْ فـيـمـا مـضَى الأخـبـارا
مِن كلِّ مـغـوارٍ إذا زار الوغى
زار الحِـمَـامُ الفـارسَ المغـوارا
مـا كـان غـيـرُ «الفـارياجِ»[5] لديهمْ
وسـفـينةٍ أخـرى أخفُّ دِثَارا

(١) جيشاً.
(٢) قائد ياباني.
(٣) جسدها.
(٤) اسم الميناء.
(٥) اسم بارجة.

قـــال العـــدوُّ لـهم وقـــد داناهُمُ

وكـــــفَى بما وافى بـه إنذارا

إما القتـالُ فَتُلْحقون بمن مضَوا

أوتُحسنونَ فتـؤخـذُونَ أُسَارى

كـان الجـوابُ قـذائفـاً ناريةً

تهـوى الورودَ وتكرهُ الإصـدارا

مـثلَ الرجـوم إذا هوَتْ لكنّهـا

لا تعـرفُ الأخـيـارَ والأشـرارا

وأقلُّهـا خَطْبـاً - فكيف أشـدُّها -

لو نالتِ الجـبلَ الأشمَّ انْهَـارا

حَـفَّتْ بهم سـفنُ العـدوِّ وأحـدقتْ

حـتى لكِدْتُ إخـالُهـا أسـوارا

مـا بين بارجـةٍ وطرّادٍ إلى

نسّـافـةٍ والكلُّ يَقـذفُ نـارا

مـلأ الفـضـاءَ دخـانُهـا، وذُكـاءُ احـ

تَجَـبتْ ومـا برحِ النهـارُ نهـارا

والجـوُّ أظلمَ واكـفَـهـرَّ أديمُهُ

حـتى كـأن على السـمـاء سـتـارا

والبـحـرُ خُضّبَ بالدمـاء وأصـبحتْ

أمـواجُـه، وهيَ اللُّجين، نُضَـارا

ذا والقـنـابلُ لم تـزلْ مُـنـهـلَّةً

منهـا تحـاكي الصَّيب المِـدرارا

والمركـبـانِ «الفـارياجُ» وأخـتُـهـا

في هبـوةٍ[1] لا يعـرفـان قـرارا

(١) الغَبَرة: وهي الغبار، (والهبْو: ما همد من لهيب النار).

إحـداهُمَـا ظَفِـرَت بهـا مـقـذوفـةٌ

فكأن صــاعــقــةً أصــابتْ دارا

فـهـوَتْ بمن فـيـهـا وقـد فَـتـحتْ لـهـا

الأمــواجُ صَــدْراً يكتمُ الأســرارا

هبَطتْ وزاد هبــوطُهــا المتــقــاتلي

ـنَ على مــداومــةِ الوغَـى إصــرارا

لكنمــا الأخــرى أصــيــبتْ بالأذى

حــتى غــدَت لا تملكُ التَّــســيــارا

فــرأى الفــتى رُبَّانُهــا أن يفــتــدي الْـ

ـجندَ الكرامَ من المــاتِ فــرارا

قــدْ فَــرَّ بعــضُــهمُ ولكنْ جلُّهمْ

طلبــوا الفــرارَ من الفِـرارِ خَـيــارا

أوْدَواْ بهــا نسْــفــاً ومــاتوا عندها

غَــرَقــاً ويأبى البــاسلون العــارا

هـذي حـكايتُــــهُـمْ أُسَطِّرُها لـكمْ

لا درهــمــاً أبــغـي ولا ديـنـارا

فلَئنْ أفــادتكُمْ فــخــيـرٌ جــاء مِن

شَــكــرٍ وإلا فـلـتكُنْ تَـذكَــــارا

****

١٨ - رسم سياسي

(في وصف رسم سياسي رآه في «جريدة النيل» الأسبوعية القاهرية)

[البسيط]

رسمٌ تعلّمَ منه ناظرِي الوَلَعَا
كأن طرفيَ قلبي فيه قد وُضعا

يُمثّلُ «البيضَ» حولَ «الصين» قد وقفوا
وذلك «الدب» في «منشوريَا» رتَعَا

مشى به نحوَها في نفسه أملُ
وراحَ يمشي إلى ما بعدَهَا جَشَعا

كالنار تأكل أكلاً ما يصادفُها
والسيلُ يَجْرفُ ما يلقاهُ مُندفِعَا

فقام (بالصُّفْرِ)داعٍ من حليفَتِهِمْ
مليكةِ الهند، أن هبُّوا فقد طَمِعَا

قالت: أحذِّرُكمْ من أن يُخادِعَكُمْ
فطالما خُدِعَ الإنسانُ فانخَدَعا

إني محضْتُكمُ نُصحَ الصديق عسى
خيراً يُفيدكُم فالنصْحُ كم نفَعا

وغيرُ منتفعٍ بالنصحِ غيرُ فتى
إذا تحدَّثَ ذوعقلٍ صَغا[1] ووَعى

سارت إليهمْ فتاةٌ وانثَنتْ رجلاً
وما رأى أحدٌ هذا ولا سمعا

---

(١) مال (صغا - يصغو).

حتى إذا ما رأتْ «منشوريا» اختنقَتْ
بالقوم ضِيقاً وخَرْقَ الشرّ مُتَّسِعا
كادت تطيرُ سروراً بالنجاح وقد
كادت على الهند تقضي قبل ذا جَزَعا
نُبِّئتُ أنَّ الوغَى في الصين دائرةٌ
فمَا لها صادفَتْ في النيلِ مُرتَبَعا؟

****

١٩ ـ الكرنفال

[المنسرح]

أمسـتْ ثيـابي وكلُّهـا خِـرقُ
تُشبـهُ روضـاً ألوانُه فِـرَقُ

من أزرقٍ كـالسمـاء جاورَهُ
أحمـرُ قـانٍ كـأنه الشَّفَق

وأبيضٍ ناصعٍ وأسـودَ فـا
حمٍ فـذاك الضُّحى وذا الغَسَق

كـأنَّ قـوسَ السحـاب بات على
جسـمي رداءً ومـا أنا الأفُق

بُرْدٌ عجيبٌ قـد خـاطَهُ لَبِقٌ
فليس بدعـاً له أن حـازه لبِق

لما تنكرتُ لم يَعُـدْ صُحُبي
يدرون أني الصديقُ إنْ رمَقُوا

لذاك لم يُشـفِقُوا على جسـدي
من الرَّمـايا[1] ولو دَرَوا شـفِقـوا

مـررتُ بالحَـانقينَ فـابتسموا
لمـا رأوني وكلُّـهـم قَـلِـق

لـو علمـوا أنني عـدوّهُمُ
أوشك يقضي عليـهمُ الفَـرَق[2]

---

(١) من البذور والورق، كما يقول بعد. كأنما مفردها: رَمْيَة.

(٢) الخوف.

أرخى الدجى ذيلَه ورُحتُ أَجـــرْ

رُ الذيل عُـجْـبـاً وغـيـريَ النَّزِق

والجمعُ حولي يضجّ مبتـهـجاً

كـأنه السـيـلُ حين يندفق

تألبّـوا كـالغَـمَـام واتصلوا

بعضٌ ببـعضٍ كـأنهم حَلَق

وانتـثـروا والدروبُ واسـعـةٌ

كـالأنجُمِ الزُّهرِ حين تَنْبَـثِق

أطلقتُ نفـسي من القـيـود إلى

أن صـرتُ كـالسَّـهمِ حين ينطلِق

وبتُّ والقومُ كلّما اجـتـمـعـوا

رميـتُـهُم (بالبذور) فـافـتـرَقوا

أسـخـرُ منهمْ لأنهم سَـخِـروا

منّي، اخـتلفْنَا ونحن نتَّـفـق

والحـربُ بيني وبينهم نشِـبَتْ

حـربٌ ولكنْ سِهـامَـهـا الوَرق

فـلا رمـاحٌ هناك مُـشْـرعَـةٌ

ولا سـيـوفٌ هناك تُـمـتَـشَق

لم أخشَ غـيـرَ الحـسَـانِ ناظرةً

أشـدُّ فـعـلاً من الظُّبى الحَـدَق

هذا هو الكرنفـالُ فـاسـتَـبِـقُـوا

إليـه فـهـو السـرورُ يُخـتَلَق

****

٢٠ـ أنا .. وهي

[الطويل]

جلستُ إليـهـا والتّـرَامُ[1] بنا يعـدو
إلـى حـيثُ لا واشٍ هنـاك ولا ضِـدُّ

قـدِ انتظمتْ هذي القطاراتُ في الثّـرَى
كـأن الثـرى جِـيدٌ وتلك له عِـقْـد

بَلى هيَ عِـقْـدٌ، بل عـقـودٌ، ألا ترى
على الأرض أسـلاكـاً تدور فـتـمـتدُّ؟

يسـيـر فـيطوي الأرضَ طيّـاً كـأنما
دواليـبُـه أيدٍ، كـأن الثـرى بُرْد

فَـكـالـطَّـودِ إلا أن ذيّـاكَ ثـابـتٌ
وكـالـريح إلا أن هاتيكَ لا تبـدو

تَوهَّـمْـتُـهُ من سـرعـة السـيـر راكـداً
وأن الدُّنا فـيـمن على ظهـرها تعـدو

تحـوم عليـه المركـبـاتُ كـأنه
مليكٌ، وتلك المركـبـاتُ له جُنْد

تُقَـصِّـرُ عنه الريحُ إمّـا تسـابقـا
فكيف تُجـاريه المطهَّـمَـةُ الجُـرْد[2]

على أنه في كفِّ عـبـدٍ زمـامُـهُ
فـيـا من رأى مَلْكاً يُصَـرِّفُـه عـبـد!

كـأني به، يا صـاحِ، دارُ ضـيـافـةٍ
يغـادرُه وفْـدٌ ويقـصِـدُه وَفْـد

(١) كان الترام حديث العهد في المدينة.

(٢) يريد: الخيل. والمطهّم: المدوّر الوجه، والأجرد: القصير الشعر.

خَلَوتُ بمَن أهوى به رُغْمَ عاذِلي

ولم يكُ غيرَ القُربِ لي ولها قَصْد

فسارَ بنا في الأرضِ وخْداً[1] كأنما

دَرَى أنّ ما نبغِيهِ منه هو الوَخْد

فما راعني واللهِ إلا وقوفُه

فقد كنتُ أخشى أن يفاجِئنا وَعْد

ولما انتهى من سيرِه وإذا بنا

على شاطئ البَحْر الذي ما له حدّ

هناك وقفنا والشِّفاهُ صوامتٌ

كأن بنا عِيّاً[2] وليس بنا وَجْد

سكَتْنا ولكنَّ العيونَ نواطِقُ

أرقُّ حديثٍ ما العيونُ به تشدو

سَكِرنا ولا خمرٌ ولكنه الهوَى

إذا اشتدَّ في قلبِ امرئٍ صفَّق الرُّشد

فقالت، وفي أجفانِها الدمعُ جائلٌ

وقد عاد مصفرّاً على خدِّها الورد:

ألا حبّذا يا صاحبي الموتُ ههنا

إذا لم يكنْ من أنْ نذوقَ الردى بُدّ

فيا لكَ من فكرٍ مُخيفٍ وهائلٍ

ويا لكَ من مرأًى يَرقُّ له الصَّلْد[3]

فقلتُ لها: إني محبٌّ لكل ما

تُحبينَ، إن السمَّ منكِ هوالشُّهْد

---

(١) نوع من السير.

(٢) عدم القدرة على الكلام.

(٣) الحجر.

فــقـــالت: أمِنْ أجلي تحنُّ إلى الردى

دَع الهـــزْلَ، إن المرءَ حِليـــتُـــه الجِـدّ

فــقلت لهـــا: لوكنتُ فِي الخُلْدِ راتعـــاً

ولستِ مــعي، والله مـــا ســرَّني الخُلْد

فـــإن لم يكن مـــهــدٌ إليكِ يضـــمُّني

فـــيـــا حـــبّـــذا يا «هند» لوضـــمَّنا لحـــد!

فــقـــالتْ: لَعَــمْـــرِ الحقِّ إنك صـــادقٌ

فـــــــدُمــتَ علــى ودٍّ ودام لــك الــوُدُّ

فلو لم أكن من قــبلُ أعــشقُ حُــسنَهـــا

لهِـمتُ بهـــا، واللهُ حـــسبيَ مِن بعـــدُ!

****

٢١ - طفلة والقمر

[الرَّمل]

دمــيــــــةٌ حــسناءُ تُغـــري النَّظَرا

أم مـــــلاكٌ طاهرٌ فـــــوق الثَّـــــرَى

طفلـةٌ ســـــاذَجـــــةٌ أطهـــــرُ مِن

زهـرةِ الـرَّوض وأنقـى جَـــــــــوهَـرا

شَــــرُفَتْ أصــــلاً، وطابتْ عُنصُـــــرا

وارتـقتْ نفْــــسَـــــاً، وراقتْ منظرا

حـــــملتْ قلبًـــــا أبَـى أن يحـــملَ الْـ

حِـــقــــدَ أو يكتمَ حـــسّـــاً كَـــدُرا

تجـــــهلُ الشـــــرَّ، ولا تُحــــسنُ أن

تخـــدعَ الغَـــيـــرَ، ولا أن تَغـــدُرا

لا تـبـــــــالي ببـنـات الـدَّهـرِ إن

أقـــبـلَ الدهـرُ بـهـــــا أو أدبرا

يَعظُـمُ الكون لدينا جِـــرمُــــــهُ

وتـراهُ عندها قـــــد صَـــــغُــــــرا

إنمـا الـدنيــــا لديهــــا كلُّهــــا

أبـواهـا وهـمـــــــا كـلُّ الـورَى

جُـــــؤذُرٌ لـكنهــــا آنِـســـــةٌ

لم يَرُعْـــهـــا مـــا يَـروعُ الجُــؤذُرا[1]

---

(١) ولد البقرة الوحشية وعيناه جميلتان.

سُـرِقَ التـفــاحُ مِن وجنتِـهــا

واســتــعــارَ الظبيُ منهــا الحَــوَرا

ذاتُ شَــعْـــــرٍ ذهبيٍّ لونُه

قــد حكى نورَ الضُّـحى مُنتـشِرا

وعـــيـــونٍ بالنُّهى عــابثـــةٍ

جَــذَبَ الغُنجُ إليـهــا الخَـفَــرا

شُـغِـفتْ بالبـدر حـبَّـاً فــهي لا

تَعـرِفُ الغُـمضَ إلى أن يُسـفِـرا

وقـــفتْ ترقـــبـــه في ليلةٍ

مـــثلِ حظِّ الأدباء الشُّــعَــرا

تكتمُ الظلمـــاءُ من لألائـهـــا

أيُّ بدرٍ في الظلام اسْــتَــتــرا

أرسلتْ نحـــو الدَّراري لفــتــةً

أذكَــرتْ تلك الدراري القــمــرا

واذا بالبـــدرِ قـــد مَـــزَّقَ عن

وجــهِــهِ برقُــعَــهُ ثمَّ انبـرَى

فـــأضــاءَ الجـوُّ والأرضَ مــعــاً

نورُه الفــضيُّ لـمّــا ظَهَــرا

فـــرنتْ عن فـــاترٍ، وابتـــسـمتْ

عـن نـظيمٍ قـــــد أكَـنَّ الـدُّررا

ثم قــالت: يا حــبـيـبي مــرحــبــاً

لا رآك الـطَّـرفُ إلا نَــيِّــــــرا

قفْ قليــلاً أوكــثــيــراً فــعـسى

نورُكَ البــاهـرُ يجلو البَــصَــرا

إن تغِبْ فـالصـبحُ عندي كـالدُّجَى

والدجى إن جـئتَ بـالصُّـبحِ ازدرَى

لمْ تُحبَّ السِّـيرَ ليـلاً فـإذا

ذَرَّ قَـرنُ الشـمسِ عـانقتَ الكرى؟

أتخـافُ الشـمسَ أم أنت كـذا

تعـشقُ الليل وتهـوَى السـهـرا؟

ثم ناجتْ نفـسَـهـا قـائلةً

أتُـرى أبـلُـغُ مـنـه وطَـرًا

ليت لي أجنحـةً بل ليـتني

نجـمـةٌ أتبـعُـه أنّى سَـرَى

وَهِمَ البـعضُ فـقـالوا درهمٌ

مـا أرى الدرهمَ إلا حـجـرا

ولقـد أضـحكَني زعـمـهُمُ:

إنه يُشـبـه في الحـجم الثَّـرَى

زعـمـوا مـا زعـمـوا لكنّمـا

هو عندي لعـبـةٌ لا تُشْـتَـرى!

****

٢٢ - فنون الوصف

[الطويل]

كــــأنيَ في روضٍ أرى الماءَ جــــارياً
أمــامي وفــوقي الغيــمُ يَجــهَــدُ بالنَّشْــرِ

توهَّمــــتُــــه همّــــاً فــــقلت له: انْجلِ
فــإنَّ همومي ضاقَ عن وصْفِـهــا صَدري

بربك سِـــرْ حــيثُ الخَلـيّ فـــإنني
فــتًى لا أرى غـيــرَ المصـائبِ في دهري

فــــأقــــشعُ حــــتى لم أشكَّ بأنه
أصــاخَ إلى قــولي، ومــا شكَّ في أمــري

رعى اللهُ ذيَّاكَ الغَــــمــــامَ الذي رعى
عــهــودي، وأولاني الجــمــيلَ، ولم يدرِ

تظلَّلْتُ بالأشـجــار عند اخـتــفـائِهِ
ويا رُبَّ طَلٍّ كــــان أجــمــلَ من قَطْر

جلستُ أبثّ الزهرَ سـرّاً كــتــمــتُــه
عن الناس حــتى صــرتُ أخـفى من السـرّ

ولـمّــا شكوت الوجـدَ، وجْـدي، تمايلَتْ
كــأن الذي أشكوه ضــربٌ من الخَــمــر

وأدهشَــهَــا صــبـري، فــأدهشني الهــوَى،
دُهشتُ لأن الزَّهرَ أدهشَــهَــا صــبــري

ولـمّـــا درَتْ أني مــحــبٌّ مــتــيَّمٌ
بكتْ وبكاني كلُّ ضـــاحك مُــفْــتــرِّ

عـجـبتُ لهـا تبكي لما بي ولم يكن
عـجَـيبًا على مثلي البكاءُ من الصَّخر
كـأنيَ بدرٌ والـزهورُ كـواكبٌ
وذا الروضُ أفقٌ ضـاءَ بالبـدر والزَّهر
كـأني وقـدْ أطلقتُ نفـسي من العَنا
مليكٌ ليَ الأغصانُ كالعسكرِ المَجْر[1]
فمـا أسعدَ الإنسانَ في سـاعةِ المُنى!
ومـا أجـملَ الأحـلامَ في أوَّل العُـمْـر!
وهاتفـةٍ قـد أقلقـتني بنوحِـهَـا
فكنتُ كـمخـمورٍ أفـاقَ من السُّكْر
تُرى رُوِّعتْ مـثلي من الدهر بالفِـرا
قِ أمْ بُدِّلتْ مثلي من اليُسر بالعُسْر؟
بـكـيتُ ولـو لـم أبكِ ممـا بـكيتْ لـه
بكيتُ لما بي من سَـقـامٍ ومن ضُـرّ
ونهـرٍ إذا والى التَّـجـعُّـدَ مـاؤُه
ذَكَـرتُ الأفـاعي إذ تلوّى على الجـمـر
تحـيطُ به الأشـجـارُ من كلِّ جـانبٍ
كمـا دار حـول الجـيدِ عِـقْـدٌ من الدُّرِّ
وقـد رفـعتْ أغـصـانُها في أديمهِ
كـتـاباً من الأوراق سطراً على سطر
كـأن دنانيـراً تسـاقطُ فـوقَـهُ
وليس دنانيـرُ سِـوى الورَقِ النَّضْـر
كـأني به المرآةُ عند صـفـائهـا
تُمـثِّل مـا يدنو إليـهـا ولا تدري

---

(١) الكثيف أو الكثير.

فـمـا كـان أدرَى الغـصنَ بالنظم والنثـرِ

وما كـان أدرى الماءَ «بالطيِّ والنَشْـر»[1]

ذَرِ المدحَ والتـشـبـيبَ بالخـمـر والمهـا

فـاني رأيتُ الوصفَ أليقَ بالشِّــعـر

ومـا كـان نظمُ الشِّـعـر دأْبي وإنَّمـا ..

دعـاني إليـه الحب، والحب ذو أمـر

ولي قلمٌ كـالرمح يهـتـزُّ في يدي

الى الخير يسعى، والرمـاحُ الى الشَّرِّ

وتفـتُك هاتيك الأسنَّةُ في الحـشَـا

ويحـيا الحشَا إن راحَ يفـتُك بالحـبر

إذا مـا شـدا في الطِّرسِ أذهب شـدوُهُ

همـومَ ذوي الشكوى، ووَقـرَ ذوي الوِقْـرِ[2]

تبـخـتـرَ فـوق الطِّرسِ يسـحبُ ذيلَهُ

فـقـالوا: به كِـبْـرٌ، فـقلتُ عن الكِبْـر

لكلٍّ من الدنيـا حـبـيبٌ وذا الذي

أَشُـدُّ به أزري، ويعلو به قـدْري

ويبـقَى به ذكـري إذا غـالَنِي الرَّدَى

وحسبُ الفـتى ذكـرٌ يدوم إلى الحـشـر

****

---

(١) من مصطلح العروض.

(٢) الوِقر: الحِمل والوزن. والوَقر: الثقل في الأذن.

٢٣ ـ قصيدة الطبيعة

[مخلع البسيط]

روضٌ إذا زرتَهُ كـئـيـبـا
نـفَّسَ عـن قـلـبِـكَ الـكُـروبَـا
يُعـيـدُ قلبَ الخليِّ مـغـرَى
ويُنسي العـاشقَ الحـبـيـبـا
إذا بكاهُ الغَـمـامُ شـقَّتْ
من الأسى زهرُه الجُـيـوبا
تلقى لديه الصَّـفـا ضـروباً
ولستَ تلقَى له ضَـريبَـا[1]
وشَّـاهُ قَطرُ الندى فـأضـحى
رداؤه مُـعْلَمـاً قَـشِـيـبـا
فَـمِن غـصـونٍ تميسُ تيـهـاً
ومن زهورٍ تضُـوعُ طِيـبـا
ومـن طيـورٍ إذا تـغـنَّتْ
عـاد المعنَّى بـهـا طَروبا
ونرجسٍ كـالرقـيب يرنو
وليس مـا يقـتـضي رقـيـبـا
وأُقْـحـوانٍ يُـريك دُرّاً
وجلَّنارٍ حكى اللَّهِـيـبـا
وجـدولٍ لايـزال يـجـري
كـأنه يقـتـفي ... مُـرِيبـا

---

(١) مثيل.

تسـمعُ طوراً لـه خَـريرًا

وتـارة فـي الثـرى دبيـبـا

إذا تـرامـى عـلـى جـديبٍ

أمـسى به مَـرْبعًـا خَـصـيـبـا

أو يتـجنَّى على خَـصـيبٍ

أعـادَهُ قـاحـلاً جَـدِيبـا

صَـحَّ فـلـو جـاءه عَـليـلٌ

لم يأتِ بعـدُ منه طبـيـبـا

وكلُّ مَـعنًى به جـمـيلٌ

يُعلِّمُ الشـاعـرَ النَّسِـيـبـا

أرضٌ إذا زارهـا غـريـبٌ

أصـبح عن أرضِـه غـريبـا

****

٢٤ - سقوط بورت آرثور[١]

[الخفيف]

مَنْ أُسُـــودٌ تســـربلتْ بالحـــديدِ ؟
ومَـــنِ الجـــنُّ فـــي رداء الجـــنـــودِ ؟

يَنشـــدونَ الوغـى ومـــا يَنشــدُ الـ
ـحسناءَ غـيـــرُ المتَـيَّمِ المعـــمُــود

كلُّ قَـــرْمٍ[٢] عليـــه درعٌ من الصَّـــبْـ
ـرِ ودرعٌ مـــســـرودةٌ من حـــديد

تحـــتـــه أجـردٌ أشـــد حنيناً
واشـــتـــيـاقـــاً الى الوغى من نَجـيـد

ســـابحٌ عنده العـــســـيـرُ يســـيـرُ
والقـــصـيُّ القـــصـيُّ غـــيـرُ بعـــيـد

لو صَـــبـــا للنجـــوم مِن قـــدْ عَـــلاهُ
أصبح الجـــو تحـــتـــه كـــالصَّـــعـيـد

تحـــسبُ الأرضَ قـــد جـرتْ حين يجـري
وتــراه كـــــأنّـــه فـــي ركـــــود

إنمـا يـركـبُ الجـــــوادَ ... جـــــوادٌ
ويصـــونُ الذِّمـــارَ غـــيـــرُ بليـــد

وخَـــمـيسٍ[٣] يحكي النجـومَ انتظامـاً
عـــجـــبـــاً من كـــواكبٍ في بِيـــد

---

(١) Port Arthur ميناء في شمـالي الصين (منشوريا) احتله الروس ١٨٩٨، خلال الحرب اليابانية الروسية، فحاصر اليابانيون الأسطول الروسي واضطروا الروس إلى الجلاء، في النهاية، عن منشوريا، سنة ١٩٠٥
(٢) شجاع.
(٣) جيش.

أوقعَ الرُّعبَ في قلوب الضَّواري

فاسْتكَانتْ كأنها في قيود

أصبحتْ تهجرُ المياه وكانت

لا ترى الماءَ غيرَ ماءِ الورود

خافقَاتٍ أعلامُهُ، أرأيتمْ

كقلوبِ العشَّاقِ عند الصُّدود؟

قادَهُ ذلك الغضنفرُ «توجي»[1]

ويناطُ الحسامُ بالصِّنديد..

رجلٌ دونَهُ الرجالُ مقاماً

مُشْبِهٌ في الأنام بيتَ القصيد

كلُّ سيفٍ في غيرِ قبضةِ «توجي»

فهْو عند السيوفِ غيرُ حديد

يا يَراعي سَلْ «بورت آرثَرَ» عنه

إنَّ تلك الحصون خيرُ شهود

معقلٌ أصبحتْ جحافلُ «هيتو»[2]

حولَه كالعُقودِ حولَ الجِيد

هجموا هجمةَ الضراغم لمّا

حسِبُوها فريسةً للأُسُود

وتعالى الضَّجيجُ للأفْقِ حتَّى

كاد ذاك الضَّجيجُ بالأفقِ يُودي

وتوالى هجومُهُمْ، والمنايا

ضاحكاتٌ، فيا لها من صيود!

كَمْ جريحٍ مُضرَّجٍ بدماهُ

وقتيلٍ على الثَّرَى ممدود

---

(١) قائد ياباني.

(٢) امبراطور اليابان.

وأســيــرٍ إلى أســيــرٍ يُســاقُــو

نَ تبــاعــاً إلى الشَّــقــاء الـعـتــيــد

أمـطَـرتْـهُـمْ مـــدافـعُ الـروسِ نــاراً

أصــبــحــوا بـعــدهـا بـغــيــرِ جُلود

دامتِ الحــربُ أشــهــراً كلَّمــا قِــيْـ

ـلَ خَــبَــتْ نارُها ذَكتْ من جــديد

والمنايا تحــومُ حــولَ الســّرايا

حَــومــةَ الـعــاشِــقينَ حــولَ الغِــيــد

حــيثُ حظُّ المِــقْــدام مــثلُ ســواهُ

وكَــحَظِّ الكبــيــرِ حظُّ الوليــد

صَــبَــرَ الروسُ صــبْــرَ أيوبَ للبَلْـ

ـوَى على ذلك الـعــدوِّ العنيــد

غــيــرَ أنَّ الأيامَ طالتْ و«ســتــو

سلَ»[1] يُمني أجــفــانه بالهُــجــود

فــتــولاهمُ القنوطُ من النَّصْـ

ـرِ فــردُّوا أســيــافَــهُمْ للغُــمــود

كــان هذا للصُــفْــرِ عــيــداً وعند الرْ

ـروس ضــرباً من الليــالي السُّــود

قلعــةٌ صــانهــا الزمــانُ فلولا

كَــيــدُ «توجي» لبُــشِّــرَتْ بالخُلود

****

---

(١) قائد روسي.

٢٥ . بلا قلب

[الطويل]

وقــــائلةٍ: مـــــاذا لقِــــيتَ من الحبِّ

فـقلتُ:الردى والخـوفُ في البُـعـدِ والقـرُبِ

فــقـــالت: عـــهــدتُ الحبَّ يُكسب ربَّهُ

شـــمـــائلَ غُـــراً لا تُنال بـلا حب

فــقلت لهـا: قــد كــان حــبَّـاً فـزادَهُ

نفـورُ المهـا «راءً» فـأمـسـيتُ في حـرب

وقـــد كـــان لي قلبٌ وكنتُ بـلا هوًى

فلمَّـــا عــرفتُ الحبَّ صِــرتُ بلا قلب

****

٢٦ - لقاء وفراق

[البسيط]

صبراً على هَجْرها إن كان يُرضِيها
غيرُ المليحةِ مملولٌ تَجنّيها

فالوصلُ أجملُه ما كان بعد نوًى
والشمسُ بعد الدُّجى أشهَى لرائيها

أسلمتُ للسُّهد طرْفي والضنى بدَني
إن الصبابةَ لا يُرجَى تلافِيها

إن النساءَ إذا أمرضْنَ نفس فتًى
فليس غيرُ تدانيهنَّ يَشفِيها

فاحذرْ من الحبِّ إن الريحَ ما خَفيتْ
لولا غرامٌ عظيمٌ مُختَفٍ فيها

يمضي الصَّفاءُ ويبقى بعدَهُ أثرٌ
في النفسِ يؤلمها طوراً ويُشجِيها

مرَّتْ ليالٍ بنا ما كان أجملَها!
تمَّتْ، فمَا شَانها إلا تلاشِيها

تلك الليالِيَ لا أرجو تذكُّرَها
خوفَ العناء، ولا أخشى تناسيها

أصبو إليها، وأصبو كلّما ذُكِرَتْ
عنديَ اشتياقاً إلى مصرٍ وأهليها

أرضٌ سماءُ سِواها دونَها شَرَفاً
فلا سماءٌ ولا أرضٌ تحاكيها

رَقَّتْ حَـواشـيُّـهـا واخْـضـرَّ جـانبُـهـا

وأجـملُ الأرضِ مـا رقَّتْ حَـواشِـيـهـا

كــأنَّ أهـرامَــهـا الأطوادُ بـاذخـةً

هذي الى جنبـهـا الأخـرى تُسـامـيـهـا

كــأنهـا كــعـبــةٌ حجَّ الأنامُ لهـا

لولا التُّـقَى قلت فـيـهـا: جلّ بانيـهـا

ونِيلُهَــا العــذْبُ مــا أحلى مناظرَهُ

والشـمسُ تكسـوه تِبـراً في تواريهـا

ومـا أُحَـيلَى الجـواري[1] الماخِـراتِ به

تُقلّ من أرضـه أحلَى جَـواريـهـا

مِن كلِّ رُعْـبُـوبَةٍ[2] عَـبْلٍ[3] روادفُـهـا

تـأبى القـعـودَ فـتـأبى أن تجـاريهـا

ضـحُـوكَـةِ الوجـهِ يُغـرينا تَبَـسُـمُـهـا

إن نجـتـديهـا ويَثنينا تثنّـيـهـا

وناهدٍ حُـجِـبتْ عن كل ذي بصَـرٍ

حُـشـاشَـتي خِـدرُها والقلبُ ناديهـا

في كل جـارحـةٍ مني لهـا أثرٌ

«والدارُ... صـاحبُـهـا أدرى بما فـيـهـا»

وفي الكواكب جـزءٌ من مـحـاسنهـا

وفي الجـآذرِ[4] جـزءٌ من ملـعـانيـهـا

إن عنَّفـوني فـإني لا أعنّفُـهـا

وإنْ أُسَمِّ فـاني لا أسـمِّـيـهـا

---

(١) المراكب.

(٢) البيضاء الناعمة.

(٣) ممتلئة.

(٤) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية، عيناه جميلتان.

يمّمْـتُـهـا ونجـومُ الأفقِ تلحَظُني

في السـيـر شَـزراً كـأني من أعـاديهـا

كـادتْ تَسـاقَطُ غـيظًا عندمـا علِمتْ

أني أؤمُّ التي بـالنفس أَفــديهـا

أسْـرِي إليـهـا وجنحُ الليل مـضطربٌ

كـأنه مـشـفِقٌ ألاّ ألاقــيـهـا

والشـوقُ يدفـعُني، والخـوفُ يدفـعني

هذا إليـهـا، وهذا عن مـغـانيـهـا

أطوي الـدياجي وتَطويني على جـزَعٍ

تخشى افتضاحي وأخشى الصبحَ يطويها

فـمـا بلغتُ مـغاني مَن شُـغـفتُ بهـا

إلا وقـد بلغتْ نفـسي تَراقِـيـهـا[1]

هناك ألقـيتُ رَحْلِي وانتـحـيتُ إلى

خَـوْدٍ[2] يرى الدُّمـيـةَ الحـسناءَ رائيـهـا

بيضٌ ترائِبُـهـا[3] ، سـودٌ ذوائِبُـهـا

زُجٌّ[4] حـواجـبـهـا كُـحلٌ مـآقـيـهـا

نـهـودُهـا من ثنايا الثـوب بـارزةٌ

كـأنهـا تشـتكي مما يواريهـا

والثـوبُ قـد ضـاق عن إخـفـائهـا فنَبَـا

عنهـا، فـيـا ليـتني بُردٌ لأحـمـيـهـا

وتحت ذلك خَـصـرٌ يَسـتـقلُّ به

دِعصٌ[5] ترجْـرَجَ حـتى كـاد يلقـيـهـا

---

(١) الترقوة: العظم الواصل بين ثُغرة النحر والعاتق. وجمعها التراقي.

(٢) الشابة الحسناء.

(٣) الترائب: موضع القلادة من الصدر (المفرد: تريبة).

(٤) زججت المرأة حواجبها: دققتها وطوّلتها.

(٥) الرمل.

قـامت تُصـافـحُني والرِّدفُ يمنَعُـهـا

والوجـدُ يدفـعُـهـا والقـدُّ يَثنيـهـا

دُهشتُ حـتـى كـأني قطُّ لم أرهـا

وكـدتُ واللهِ أنسى أن أُحَـيِّـيـهـا

باتتْ تكلمُني منهـا.. لواحظُهَـا

بما تكنّ وأجـفَـاني تُناجـيـهـا

حـتى بدا الفـجـرُ واعـتلّتْ نسـائمُـه

وكـاد ينشُـرُ أسـراري ويفـشـيـهـا

بكتْ دمـوعـاً وأبكتني الدمـوعُ دمـاً

ورحتُ أكـتُم أشـيـاءً وتبـديهـا

كـأنهـا شـعـرتْ في بُعـدنا أبداً

فـأكـثـرتْ من ودَاعي عند واديهـا

فـمـا تعـزَّتْ بأنّ الدهرَ يجـمـعُنا

يومـاً، ولا فـرحتْ أني أمنّيـهـا

تقـولُ والدمعُ مـثلُ الطلِّ منتـثِـرُ

على خـدودٍ خـشـيتُ الدمع يُدمـيـهـا:

وَا لَهْفَ نفـسي على أُنسٍ بلا كـدَرٍ

تُرى ننال من الدنيـا أمـانيـهـا؟

فـقلت: صـبـراً على كـيـدِ الزمـان لنا

فكلُّ حَـافـرِ بئـرٍ واقـعُ فـيـهـا

****

٢٧ ـ بنت الفرقدين [1]

[الطويل]

أزورُ فَتَقصِينَ[2] وأنأَى فتَعْتِبُ
وأوهَمُ أني مذنبٌ حين تَغضَبُ
وأرجو التَّلاقي كلّما بخِلْتِ به
كذلك يُرجى البرقُ والبرقُ خُلَّب
وأعجبُ من لاحٍ[3] يُطيل مَلامَتي
ويَعجَبُ مني عاذلي حين أَعجَب
هوالبخلُ طبعٌ في الرجال مُذمَّمٌ
ولكنه في الغِيدِ شيءٌ مُحَبَّب
كلِفْتُ بها بيضاءَ سكْرَى من الصِّبا
وما شربتْ خمراً ولا هيَ تَشرب
لها الدُّرُّ ثغرٌ واللجَينُ ترائبٌ[4]
وشمسُ الضحى أمٌّ وبدرُ الدُّجى أب
خليلَيّ أمَّا خدُّها فموردٌّ
حياءً وأمَّا ثَغرُها فهْوَ أشْنَب[5]
لئن فرّقتْ بين الغواني جمالَها
لدام لها ما يَجعلُ الغيدَ تَغضب

---

(١) الليل والنهار.
(٢) قصا يقصو: بعُد.
(٣) لائم.
(٤) موضع القلادة من الصدر (المفرد: تريبة).
(٥) الشنب: بياض الأسنان وبرودتها.

ولو أنَّ رهبـــانَ الصَّــوامعِ أبصـــرُوا

مـــلاحَـــتَـــهـــا، واللهِ، لم يتـــرهَّبُـــوا

تُكَلِّفِني في الحبِّ مـــا لا أطيـــقُـــه

وتضـحكُ إمّـــا جـئـتُـهـــا أُتَعَـــتَّب

أ فَـــاتِنَتي حـــسْبُ المتيَّمِ مـــا به ..

وحـــســـبُكِ أني دون ذنْبٍ أُعـــذَّب

أحـــبُّكِ حبَّ النـازحِ الفـــرْدِ أهلَـهُ

فـــهل منكِ حبُّ الأهلِ مَن يتـــغـــرَّب

وهَبـــتُكِ قلبي واسْـــتَـــعـــضْتُ به الأسى

وهبـــتُكِ شـــيـــئـــاً في الورَى ليس يُوهَب

فـــإن يكُ وصلٌ فـــهْـــوَ مـــا أتطلَّبُ

وإن يكُ بُـــعْـــدٌ فـــالمنيَّـــةُ أقـــرب

****

٢٨ ـ أخت ليلى

[الكامل]

ولقـدْ عَلِقتُ من الحِسَانِ مليحةً
تحكي الهلالَ بحاجبٍ وجَبينِ
كلِفتْ بها نفسي ودونَ وِصالها
وصْلُ المنُونِ، وثَمّ ليثُ عرينِ
حسناءُ أضحى كلُّ حُسنٍ دونَها
ولِذاك عُشّاقُ المَحاسنِ دوني
قد روَّعتْ حتى لَتَخشى بُرْدَها
من أن يبوحَ بسرّها المكْنُونِ
وتُريبُها أنفاسُها، ويُخيفُها
عند اللقاء تنهُّدُ المَحزونِ
هجرتْ فكلُّ دقيقةٍ من هَجْرها
عندي تُعدّ بأشهرٍ وسنينِ
يا هذه! لا تجحدي حقّي فقد
أصْليتِ قلبي بالنّوى فصِلِيني
أطلقتِ دمعاً كان قبلُ مقيَّداً
وسجنتِ قلباً كان غيرَ سجينِ
أشبهتِ «ليلى العامريّةَ» فاكتُمي
خبرَ الذي قد صار كالمجنونِ[1]

****

---

(١) ليلى العامرية معشوقة قيس الذي فتن بها ورفض أهلها زواجها منه، فأصابه الجنون حتى اشتهر به.

٢٩ . طبيبي الخاص

[الرّمل]

بتُّ أرعَى في الظَّلام الأنجُـــمَـــا
ليس للعـــشّـــاقِ حظٌّ في الكَرَى

✡✡✡✡

صـــرعـــتْني نظرةٌ حـــتى لقـــد
كـــدتُ أن أَحـــسُـــدَ من لا يُبْـــصِـــرُ
نظرةٌ قـــد أورثتْ قلبي الكمـــدْ
مـــا بلاءُ القـــلـــبِ إلا الـنظـرُ
لا رعـــاكَ اللـــهُ يا يومَ الأحـــدْ
لا ولا حـــيّـــاك عنّي المَـطَر
أنـتَ مـن أطـلـعْـتَ هـاتيـكَ الدُّمى
ســافِـراتٍ فـــتـنـةً للشُّـــعَـــرا

✡✡✡✡

هِمتُ في مـن حَـــسُـنتْ صـــورتُهـا
مـــثلمـا قـــد حسُنت منهـا الخـصـالْ
أخـجلتْ شـمسَ الضحى طلعـتُـهـا
واســـتـحى من لحظِهـا لحظُ الغـزال
كل مـا فـيـهـا جـمـيلٌ يُشـتـهَى
مـا بهـا عـيبٌ سوى فـرْطِ الجـمـال
لـو رآهـا لائمي فـــيـــهـــا لما
لامني في حـــبّـــهـــا، بل عَـــذَرا

✡✡✡✡

ذاتُ حــسنٍ خــدُّهــا كـــالورد فــي

لونـهِ والـطِّيبِ فــي نـكـهـــتـــــهِ

زهــرةٌ لـكـنّــهــــــا لــم تُـقْـطـفِ

وجــمـــالُ الزّهـرِ في روضــتِــهِ

دُرّةٌ مـــا أُخـــرجتْ من صــدف

تُرخِصُ الدّرَّ على قـــيـــمـــتِــهِ

بَضّـــةُ الخَـــدينِ والنَّـهـــدينِ، مــا

ســـفـــرتْ إلا رأيتَ القــــمــــرا

☆☆☆☆

ذاتُ شَـــعْــرٍ مُــسْـبَلٍ كــالأُفْـعُــوَانْ

يتــهـــادى فـــوقَ رِدفٍ كــالكثــيبْ

وقَـــــوامُ لو رآه الـغـــــصــنُ بـانْ

خـــجــلاً من ذلك الغُـصـنِ الرطيب

كـــــاد لولا مـــــا بـه من عُـنفـــوانْ

يـقـفُ الـوُرقُ بـه والـعـنـدلـيـب[1]

وجـــفــونٍ أشـبـهـتني سَــقَــمــا

كــمَنَ الـسِّـحـرُ بهـــا واســتَـتَـرا

☆☆☆☆

تبــــعَثُ الحبّ إلـى قلب الخَـلِيّ

وهو لا يَدري ولا يَســتـــشـــعــرُ

والـهـــوَى في بَدْئه عـــذبٌ شــهِيّ

كلُّ شيءٍ بعـــدَه مـــحـــتـــقَــرُ

كلُّ مَن لا يعـــرف الحبَّ شَـــقِيّ

لا يـرى فـي دهـرِهِ مـــــا يُشكَرُ

---

(١) الورْق: الحمائم (الورقاء)، والعندليب: الهزار من الطير.

يصْـرِفُ العـمْـرَ ولكنْ سـئِـمـا

عـبـثـاً يَطلبُ ألا يَضْـجَـرا

✡✡✡✡

لم أكنْ أعـرفُ مـا مـعنى الهنا

قبلَ أن أعـرفَ مـا مـعنى الغـرامْ

يضـحـكُ النـاسُ سـروراً وأنا

عـابسُ حـتى كـأني في خِـصـامْ

عَـجِـبـوا مني وقـالـوا علَّنَـا:

قـد رأينا الصَّـخـرَ في زِيِّ الأنام

أوشكوا أنْ يحـسـبـوني صنَمَـا

لو رأوا[1] الأصنامَ تُخـفِي كَـدَرا

✡✡✡✡

لـم أزلْ في رِبْقـةِ اليـأسِ إلـى

أن أعـادَ الحبُّ لي بعضَ الرَّجـا

كنتُ قـبل الحبِّ أسـري في ظَلا

م ولا ألقَـى لنفـسي مَـخْـرجـا

فَـجَـلاهُ الحبُّ عنّي فـانجلَى

مـثلمـا يجلو سَنا الشَّـمسِ الدُّجَى

باتَ قلبي بالأمـاني مُـفْـعَـمَـا

وهوَ قـبـلاً كـان منهـا مُـقْـفِـرا

✡✡✡✡

روّعـتْنِي بالنَّوَى بعـد اللقـاءْ

وكـذا الدُّنيـا دنوٌ وافـتِـراقْ

---

(١) يلزم أن تُقرأ: رؤوا، للضرورة.

غـضِبَ الدهرُ على كـأسِ الصَّـفَـاءْ

مُـنْـذ رآهـا فـــأبى ألاّ تُـراقْ

ولـو أنَّ الـدَّهـرَ يدري بـالـشَّـــقــاءْ

ســاعــدَ الصبُّ على نَيل الـتَّـلاق

لم أجـد لي مُـشـبِـهـاً تحت السـمـا

في شَـقـائي لا ولا فــوق الـثَّـرَى!

☼☼☼☼☼

وأبي! لـو أنَّ مـــا بي بـالجــبـالْ

أصـبـحتْ تهـتـزّ من مَـرِّ النسيمْ

فــاعــذروني إن أكنْ مــثلَ الخـيــالْ

واعــذُلوني إن أكنْ غــيــرَ سَـقــيم

إنّ دائي جــاء من صـــادٍ ودالْ

ودواءُ القلبِ في ضَــادٍ ومِـــيم

بات صــبـري مـثلَ جـسـمي عَـدَمـا

إنّـمـا يصـبِـرُ مَن قـد قَـدرا

☼☼☼☼

رُبَّ ليلٍ عـــادَني فـيــه السُّــهــادْ

ونـأى عن مُـقْـلَتي طِيبُ الكَرى

هاجتِ الذكـرى شُـجـوناً في الفـؤاد

فـبكى طَرْفي عـقـيـقـاً أحـمـرا

نبَّــهَ الأهلَ بكائي والـعـــبـادْ

فــأتَوا يسـتطلعـونَ الخَـبَـرا

قلت: داءٌ في الفــؤاد اسْـتـحكَمـا

كــاد قلبي مـنـه أن يـنـفـطِرَا

☼☼☼☼☼

صـــدّقـــوا مـــا قلتُـــه ثم مـــضَـى
واحـــدٌ منهمُ يَســـتـــدعي الطبـيبْ
ســـار والكلُّ على جـمـــرِ الغَـضَـا
وأنـــا بـين أنـينٍ ونَـحـــيـبْ
لـــم يكـن إلا كـــبـرقٍ ومَـــضَـا
وإذا (الدكـــتـــورُ) مِن مَـــهـدِي قـــريبْ
قـــال للجـمــهـور: مـــاذا الاجـتِـمَـــاع؟
اخـــرجـــوا أوْ زدتمُوه خَـطَـرا

✡✡✡✡✡

خـــرجَ الكلُّ فـــأمـــسَتْ غـــرفـــتي
مـــثلَ قلبِ الطِّفلِ أو جَـيبِ الأديبْ
فَـــدَنَا يســـألني عن علّـتي
وأنا أســـمعُ لكن لا أُجـــيبْ
فنَضَـــا الثـــوبَ فـــأبصـــرتُ التي
كـــاد جـــسـمي في هواها أن يغـيب
خلعتْ عنهـــا لبـــاسَ الحُكَمَـــا
فـــرَأَتْ عـــينايَ بدراً نيّـــرا

✡✡✡✡✡

واعْـــتَـــرتْنِي دهشـــةٌ لكنهـــا
دهشـــةٌ ممزوجـــةٌ بـــالفـــرحِ
كِـــدتُ أن أخـــرجَ عن طَور النُّهَى
رُبَّ سُكـرٍ لـم يـكـن مـن قَـــــدَحِ
يا لـهـــا من ســـاعـــةٍ لو أنهـــا
بقـــيتْ كـــالدهر لم تُســـتـــقـــبح

عـــانقــتْني وأنا أبكي دمًـــا

وهْــيَ تــبــكــي لــبُــكــائــي دُرَرا

☆☆☆☆

وجــــعلنا بعـــد أن طال العناقْ

نتناجَى بأحـــــاديث القلوبْ

بينمــــا نحنُ على هذا الوفـاقْ

قُــرِع البـــابُ فـــأوشكنا نذوبْ

فـــأشــارتْ ليَ: قــد حــانَ الفــراقْ

فـــانقطعنا وارتدتْ ثوبَ الطبــيب

أقــبل القـــومُ فـــقــالت: كلُّ مـــا

كـــان يشكو منه عنه قـــد سَـــرَى

****

٣٠ـ حنّة مشتاق

[الطويل]

ألا أيها الباكي فديتُكَ باكيا
علامَ وفيما تستحثّ المآقيا؟
رويدكَ ما أرضى لك الحزنَ خُلّةً
وهيهاتَ أن أرضاكَ بالحزن راضِيا
يعنّفُنِي من كنتُ أدعوه صاحباً
فما انفكَّ حتى بتُّ أدعوه لاحيا
دعوتُ لربِّي إنْ دعانيَ لائمُ
ولم أعصِ ألا يستجيبَ دُعائيا
لقدْ أرخصَ العُذّالَ عنديَ قولُهم:
إذا هَمَتِ العينانُ أرخصْتَ غاليا
أأمنعُ ماءً ما يُروِّي أخا صَدًى
وقد كنتُ لا أحمي المناهلَ صادِيا[1]
عليَّ البُكا والنوحُ ضربةَ لازبٍ
وإنّي لأبكي أنني لستُ باكيا
وكيفَ ارتياحي بعد هندٍ وبيننا
مَهَامِهُ[2] لا تلقى بها الريحُ هاديا
يظلُّ بها السِّرحانُ[3] يعوي من الطَّوَى
نهاراً ويطوي ليلَهُ الخوفُ طاويا[4]

---

(١) عطشان.(صَدِيَ - يصدى).
(٢) قفار ومفازات واسعة (مَهْمه).
(٣) الذئب.
(٤) جائعاً.

لقــد كنتُ أخـــشى أن يُفَـــرَّقَ بيننا
فــأصـبـحتُ أخـشى اليـومَ ألاّ تلاقِـيا
فــيـــا مَن لِقلبٍ لا تنامُ همـــومُـــه
ويا مَن لعينٍ مـــا تنامُ الليـــاليـــا
رأيتُ الليـــالي مـــا تزالُ تَروعُني
بأحـداثهـــا، مـــا لِليـــالي ومـــا لِيـا!
ولم يبقَ عند الدهر خطْبٌ أخــافُـــهُ
فكيف اعــتـذارُ الدهرِ إنْ رحتُ شـاكـيًا؟
إذا لم تكنْ لي آسِـيـــاً أومــؤاسـيـــاً
فــلا تكُ لوّامـــاً، وذرْني ومـــا بِيَـــا
فـــإنّي رأيتُ اللومَ يُذْكِي صَـبَـابـتي
كـذاك عَـهـدتُ الزَّندَ بالقَـدْحِ واريا[1]
ألا حـبـذا مِن سـالفِ العيش مـا مـضَـى
ويا حـبّـذا لو كــان يَرجعُ ثانيــا
زمـانٌ كـقلب الطفل صـافٍ وكـالمُنى
لذيذٌ ولكن كــان كــالحُلم فــانيــا
أحِنُ إليــه في العَــشِيِّ وفي الضُّــحَى
حنينَ غــريبٍ جــاءه الشـوقُ داعــيــا
وأذكُـرُه ذكـرى العــجـوزِ شـبــابَهــا
وأبكي لدى ذكــراهُ أحـمــرَ قــانيــا
ولولا أمـــورٌ في الفـــؤاد أُسِــرُّهــا
جـعلتُ عليــه الدهرَ وقْـفـاً لِسَـانيـا
خليليَّ أعـــوامُ السُّـرور دقـــائقٌ
وأيامُــــه كــــادت تكونُ ثوانيـــا

(١) الزَّند: العود الذي يُقدَح به. والواري: المشتعل.

وأجـمـلُ أوقـاتِ الفـتـى زمنُ الصِّـبـا

وخـيْـرُ الصِّـبـا مـاكـان في الحبّ ناميا

رعى اللهُ أيامي التي قـد أضـعـتُـهـا

فكنتُ كـأني قـد أضـعتُ فـؤاديا

ليـاليَ لا «هندٌ» تُصـدِّق واشـيـاً

ولا هي تخـشى أن أصـدِّقَ واشِـيـا

ويـا طـالمـا بِـتْـنـا ولا ثـالـثٌ لـنـا

سـوى الراحِ نُدنيـهـا فـتُـدْنَى الأمـانيا

ودارَ حـديثُ الحبِّ بيني وبينهـا

فطَوراً مناجـاةً وطوراً تشَـاكِـيـا

ألم ترَ أني قـد نظمتُ حـديثَـهـا

لآلئَ غنَّاها الرواةُ قـوافِـيـا

تولَّى زمـانُ اللهـوِ كـالطَّيفِ في الكَرَى

فلستَ تراني بعـدَهُ الدهرَ لاهِيـا

سـئمتُ لَذاذاتِ الحيـاةِ جـمـيعَـهـا

ولو رضـيتْ هندُ سـئـمتُ شـبـابيـا

سـلامٌ على «هندٍ» وإن فـات مَـسـمَـعِي

سـلامُ التي أُهدي إليـهـا سـلامـيـا

ترى عندهـا أني على العـهـد ثابتٌ

وإن يكُ هـذا البَـينُ أوْهَى عظامِـيَـا

فَـواللهِ مـا أخـشى الحِـمَـامَ على النَّوى

ولـكنَّـنِي أخـشـى خلوديَ نـائِيَـا

****

٣١ـ الحُسْن لا يُشرى ولا يُسْتجلَب

[الكامل]

سَـفَـرتْ فـقلتُ لهـا: أهذا كـوكـبُ؟

قــالت: أجَلُ وأيـن منِّـي الكوكبُ؟

وتبـسّـمتْ فـرأيتُ رئِمـاً[1] ضـاحكـاً

عــن لـؤلـؤٍ، لـكـنَّـهُ لا يُـوهَـب

وتمايلتْ فـالسّـمْـهَـريُّ[2] مـصـمِّمٌ

ورنَتْ فـأبصـرتُ السِّـهـامَ تُصـوَّب

أنشـبتُ ألحـاظِي بورْدِ خُـدودِهـا

لـمّـا رأيتُ لحِـاظَهــا بي تُنشَب

قــد كلَّـمتْ قلـبي ولم تَـرْفُـقْ بـهِ

واللحظُ، لو درَتِ المليـحَـةُ، مِـخْلَب

بيـضـاءُ ناصـعـةٌ كـأن جـبـينَهـا

صُـبحٌ، وطُرّتهـا عليـه غَـيْـهَب

يا طالما اكْـتَـسبَ الحـريرُ مَـلاحَـةً

منهـا، ويُكسِبُ غـيـرَهـا مـا يُكسِب

ولطالما بعضُ النسـاءِ حَـسَـدنَـهـا

ولطالما حـسـدَ السليمَ الأجـرب

بـيَن الـطِّـلاء وبـيـنـهـنَّ قَـــرَابـةٌ

مـشـهـورةٌ، عنهـا الجـمـيلةُ تَنكُب[3]

---

(١) الظبي الخالص البياض.

(٢) الرمح.

(٣) تعدِل عنها.

إن الملاحَـــةَ عندها عـــربيـــةٌ

وجـمـــالُ هاتيك الدُّمَى مُـسْـتَـعـرِب

قلْ للغـــواني: إنهـــا خُلقتْ كــذا

الحُـسنُ لا يُشْــرَى ولا يُســتَـجلَب

فـــإذا بلغـــتنَّ الجـــمـالَ تَـطَرّياً[1]

فـــاعلمْنَ أن بقـــاءَه مُـســتَـصْـعَب

هيـهـات، مـا يُغنِي الملاحَ الحـسنُ إن

كـــانت خـــلائقُـــهنَّ لا تُســتَـعـذَبُ

إني بَلوتُ الغـــانيـــاتِ فلم أجـدْ

فـــيـــهنَّ قطُّ مليـــحـــةً لا تَكْذب

وصَحِبتهنَّ فـمـا استفدتُ سِوى الأسَى

مـــا يُسْــتـفـادُ من الغــواني يُتْـعِب

وخَـــبِـــرْتُهُنَّ فـــمـــا لبِكرٍ حُـــرمَـــةٌ

تُرعى، وأغـــدَرُ مَن رأيتُ الثَّـــيِّب

لا يخــدعنَّكَ ضَـعْـــفُـــهُنَّ فـــإنما

بالضَّـــعفِ أهلكتِ الـهـــزبرَ[2] الأرنبُ!

****

---

(١) صناعة التجميل.

(٢) الأسد.

٣٢ - أنا إمام الذين هاموا

[مخلع البسيط]

لُمْني إذا حُلتُ عن عُــــهــــودي
ولا تَـلُـمْـنـي عـلـى هُـيَـــــامـي

مـــــا كنتُ أخــــشى من المنايا
فكيف أخــــشى من الـمَــــلام؟

قــــد نزلَ الحبُّ في فــــؤادي
ضَـــيـــفـــاً ولكنْ على الدوام

فــــبـــاتَ قلبي له طعـــامـــاً
وبِتُّ أنـأى عـن الـطـعـــــام

أعــدَى غـــرامي النجــومَ حــتى
أســــهــرَها من الدُّجى غَــرامي

لو تعــرِفُ الشــمسُ مَــا الهَــوَى لم
تبِنْ لطَرْفٍ من الــسَّــــقَـــام

أصــــابَ ســــهمُ الفــراقِ قلبي
وأخطأتْ قلبَــــهُ سِـــهَـــامي

وكـــــان خــــوفي من التنائي
خــوفَ كـــفــيفٍ من التِّـــرام[1]

إنَّ فـــــراقَ الحَـــبــيبِ عندي
أشدُّ وقــــعـــاً مــن الحِــمَـــام

لو يبــعُــدُ البــعــدُ عن حــبـيبٍ
مـــا عَنَّ يومـــاً لِمُـــســتَــهَــام

---

(١) كانت الإسكندرية حديثة العهد بوجود الترام، ومن هنا كان خوف الأعمى شديداً لقرب عهده به.

أنا إمَــــــامُ الـذيــن هَـامُـــــوا

وأيُّ قـــــــومٍ بـلا إمــــــــام؟

فـلـيـس قــــــبـلي ولـيـس بـعـــــدي

ولا ورائـــي ولا أمَـــــــــــــامي

****

٣٣ ـ الرزء الأليم

[البسيط]

في رثاء الشيخ إبراهيم اليازجي

عَـــدِمتُ قلبيَ إذ لم يَعـــدَم الجلَدا
ونالَ نفـسـي الرَّدى إن لم تذُبْ كَـمـدَا

آهاً ولو نفَـعتْ «آهًا» أخَــا شَـجنٍ
لم يبْتغ غـيرَها، عند الأسَى، عَـضُـدا

آهَـاً ولـو لـم يـكـنْ خَـطْـبُ ألـمّ بنـا
مـا سطَّرتْهـا يدي في كـاغُـدٍ[1] أبدا

المرءُ مـجـتـهـدٌ والموتُ مـجـتـهـدٌ
أن ليس يَتـرُك فـوق الأرض مُـجْـتـهـدا

سـاوى الرضـيعُ به مَن شاب مـفـرِقُـه
والعـبـدُ سـيِّـدَه والثـعلبُ الأسـدا

قـد غـادر الفـضلَ بالأحـزان منفـرداً
من كـان بالفـضل دون الناس منفـردا

مـات البـيـانُ بموت «اليـازِجيّ» فـمن
لم يبكِ هذا بكى ذاك الذي فُـقِـدا

واللهِ مـا ولَدتْ «حـواءُ» أطهـرَ من
هذا الفـقـيـدِ فـؤاداً، لا ولن تلِدا!

ابن «الضـيـاء»[2] الذي زانَ البلادَ كـمـا
يُزيِّنُ البـدرُ في جُنح الدُّجى الجِلِدَا[3]

---

(١) الورق.
(٢) اسم المجلة التي كان اليازجي يصدرها.
(٣) جِلْد السماء أديمُها في سفر التكوين !

أين اليــــراعُ الذي قــد كـــان يُطْرِبُنا
صَـــــريرُه في أديمِ الطِّرْسِ مُنتــقِـدا
وأين أينَ ســجــاياهُ التـي حُـسِـدَتْ
من أجلِه، وكـذا من أجلِهـا حُـسِـدا
حقٌّ على العلم أن يَبكي عليـه كـمـا
يبكي الشَّـقـيقُ أخـاً والوالدُ الولَدا
أقـسـمتُ مـا اهتـزَّ فـوق الطِّرْسِ لي قلمُ
إلا جـعلتُ له من مَـدْمَـعي مَـدَدا
ولا اتَّخـذتُ أخـاً في الدهر يؤنسُنِي
بعدَ الخليلِ سِـوى الحـزنِ الذي وُجِـدا

****

٣٤ - الخطبُ الفادح

[الكامل]

رثى بها المغفور له الإمام الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية[١]

هيـهـاتَ بَعـدَكَ مـا يُفـيـدُ تَصـبُّـرُ
ولئن أفـادَ فـأيُّ قلبٍ يَصـبِـرُ؟

إنَّ البكاء من الرجـال مُـذَمَّمٌ
إلا عليكَ فـتَـركُـهُ لا يُشكَر

لو كـان لي قلبٌ لقلتُ له ارْعَـوِ
إنّي بلا قلبٍ فـأنّى أُزجَـر؟

لازَمتُ قـبـركَ والبكاءُ مُـلازمِي
والليلُ داجٍ والكواكبُ سُـهَّـر

أبـكـي عـلـيـك بـأدمـعٍ هـطّـالـةٍ
ولقـد يقِلُّ لك النَّجـيعُ[٢] الأحـمـر

ووددْتُ من شَـجـوي عليكَ وحَـسْـرتي
لو أنَّ لَـحْـدَكَ في فـؤاديَ يُحْـفَـر

إني لأعـجبُ كـيف يعلوك الثَّـرَى
أنّى ثوى تحت الرَّغـامِ[٣] النَّيِّـر

أمـسـيتَ مُـسـتـتِـراً بـه لكنّـما
آثارُ جـودِكَ فـوقـه لا تُسْـتَـر

مـرِضَ الندى لما مـرِضْتَ وكـاد أن
يقـضي من اليـأس المُلمِّ المُـعْـسـر

(١) توفي في الإسكندرية سنة ١٩٠٥.
(٢) الدم.
(٣) التراب.

يرجوكَ أنّك أنت جابرُ كسْرِهِ
فإذا فُقِدْتَ فكَسرُه لا يُجبَر

وعلَتْ على تلك الوجوه سحابةٌ
كدْراءُ لا تصفو ولا تُستَمطَر

كم حاولوا كتْمَ الأسى! لكنه
قد كان يخترقُ الجسومَ فيَظهَر

حَامتْ حواليكَ الجموعُ كأنما
تبغي وِقَاءَ الشَّرقِ مما يَحذَر

الكلُّ يسأل: كيف حالُ إمامِنا؟
ماذا رأى حكماؤُنا؟ ما أخْبَروا؟

والداءُ يقوَى ثم يضعُفُ تارةً
فكأنه يَبلو القلوبَ ويَسبُر[1]

أوردْتَهُ عذْباً فأوْرَدَكَ الرَّدى
تبّتْ يداهُ فذَنْبُه لا يُغفَر

هيهاتَ ما يَثني المنيةَ جحفلُ
عمَّن تؤمُّ[1] ولا يُفيد العسكر

رصَدَ الردى أرواحَنا حتى لقد
كِدنا نُعزِّي المرءَ قبل يُصوَّر

نهوى الحياةَ كأنما هي نِعمةٌ
وسوى الفواجعِ حبُّها لا يُثمر

ونظنُّ ضِحْكَ الدَّهرِ فاتحةَ الرِّضا
والدهرُ يَهزأُ بالأنام ويَسخَر

أفقيدَ أرضِ النيلِ! أُقسمُ لودرَى
بالخطبِ أوشكَ ماؤُه يتَسَعَّر

---

(١) يجسّ.
(٢) تقصد.

وضَـعُـوكَ في بطْنِ التَّـرابِ ومـا عَـهِـدْ

تُ البـحْـرَ قـبلَكَ في الصَّـفـائحِ يُذْخَـر

ورأوْا جـلالَـك في الضَّـريحِ فكلُّهمْ

يـهـوى ويَرجـو لومكانَك يُقـبَـر!

لم تخلُ من أسفٍ عليك حُـشاشـةٌ

أبداً فـيـخلو من دمـوعٍ مِـحـجَـر

آبُوا[1] ومـا آبَ العَـزاء إليـهِـمُ

والحُـزن يُنظَم والمدامعُ تُنثَـر

والكلّ، كـيـف يكون حـالُ بلادهم

من بعـدِ مـا مـات الإمـامُ، يُفكّر

لم يبلُنا هذا الزمـان بفـقـدِهِ

لو كـان ممّن بالرَّزيةِ يَشعُـر!

****

---

(١) رجعوا.

٣٥ - فقيد الوطنية

[الطويل]

(رثى بها فقيد المنابر، الطيب الذكر، المغفور له مصطفى كامل)

بكيتُ ولكن بالدُّمــوعِ السَّــخـينَةِ
وما نفِـدَتْ حـتى بكَيتُ بمُـهـجَـتي

على الكاملِ الأخـلاقِ والنَّدْبِ[1] مـصطفى
فـقـد كـان زَينَ العـقلِ زَينَ الفُـتُـوَّةِ

نَعـــاهُ لنا الناعي فكادت بنا الدُّنا
تَمـيـدَ لهَـولِ الخطْبِ، خطْبِ المروءة

وذابتْ قلوبُ العَــالَـمينَ تلهُــفًــا
وســالتْ دمــوعُ الحــزنِ من كلّ مُـقْلة

أجل قـد قـضى في مـصـرَ أعظمُ كـاتبٍ
فـخلّفَ في الأكـبـادِ أعظمَ حَـسْـرة

فـــتًى، وأبي، لو أنَّ في الناس مِــثلَه
لهـــانَ علينا وَقْعُ هـذي الرزيئَـــة

ولوكـــان يُفـدَى بالنفــوس من الرَّدى
جــعلْنا فِـداهُ كلَّ نفسٍ أبيَّـــة

فـتًى مـات غضَّ العُـمـرِ لم يَعـرفِ الخَنَا
ولم ينطوِ في نفـسِـه حُبُّ رِيبــة

وقـد كـان مـقـدامـاً جـريئـاً، ولم يكن
لِيـبـغي الردى غـيـرُ النفـوس الجـريئـة

---

(١) الذي ينتدب في الشدائد.

وكــان جــواداً لا يَضِنُّ بحــاجــةٍ

لذلك أَعطى روحَــه للمنيّــة

ســلامٌ على مــصــرَ الأسِــيــفَــةِ بعــدَهُ

فــقــد أودعتْ آمــالَهَــا جــوفَ حُــفْــرة

خطيبَ بلادِ النيلِ! مــالَكَ ســاكِــتــاً

وقــد كنتَ تُلقي خُطبــةً إثرَ خُطْبَــة؟

تطاولتِ الأعناقُ حــتــى اشــرأبَّتِ

فــهل أنت مُــسْــديهــا ولو بعضَ لفْظَة؟

نَعمْ كنتَ، لولا الموتُ، فــارِجَ كــرْبَهــا

فــيــا لَلردى من غــاشمٍ مــتــعنِّت!

تَفطَّرتِ الأكــبــادُ حــزناً كــأنما

مماتُك ســهــمٌ حلَّ في كل مُــهــجــة

ومــا حــزنتْ أمٌّ بفــقــدِ وحــيــدِها

بأعظمَ من حـــزني عليكَ ولوعَـــتِي

تناديكَ مــصــرُ الآن: يا خــيــرَ راحلٍ

ويا خــيــرَ مَن يُرجَى لدفع المُلمَّــة

عــهــدتُك تأبى دعــوةً غــيــرَ دعــوتي

فــمــا لك تأبَى (مــصطفى) كلَّ دعــوة؟

فَــقــدْتُكَ ريّاناً فــيــا طول لَهْــفَــتي

لقــد كنتَ ســيــفي في الخُطوب وَجُنَّتي[1]

أجلْ طالما دافــعتَ عن مــصــرَ مــثلمــا

يــدافــعُ عن مــأواهُ نَــحلُ الخليَّــة

فــأيقظتَــهــا من رقــدةٍ بعــد رقْــدةٍ

وأنهــضْــتَــهــا من كَــبْــوة تِلْو كَــبْــوة

---

(١) وقايتي.

وقَـــوَّيتَ في أبنائهـــا الحبَّ نحـــوَها
وكنتَ لهـــا في ذاك أفـــضلَ قُـــدْوة
رفـــعتَ «لواءَ»[1] الحقِّ فـــوق ربوعِـــهـــا
فـــضمَّ إليـــــه كلَّ ذي وطنيَّـــــة
لئن تكُ أترعتَ القلوبَ مـــحـــبّـــةً
فـــإنك لم تُخلَقْ لغَـــيـــرِ المحَـــبَّـــة
فنمْ آمناً وفِّـــيتَ قـــومَكَ قِـــسْطَهم
فـــيـــا طالما نامـــوا وأنت بيـــقْظَة!
سيُـــبـــقِي لك التـــاريخُ ذِكْـــراً مُـــخلَّداً
فـــقـــد كنتَ خـــيـــرَ الناس في خـــيـــرِ أمَّـــة
عليك من الرحـــمن ألفُ تحـــيّـــةٍ
ومن أرض مـــصـــرٍ ألفُ ألفِ تحـــيـــة

****

(١) اسم الجريدة التي كان الحزب الوطني، بزعامته، يصدرها آنذاك.

٣٦ . كلٌّ مَن عليها فان

[الطويل]

بعث بها إلى صديقه السيّد أفندي فهمي يعزيه وقد فُجع بموت والدته وكريمته وشقيقه، في أسبوع واحد.

فـــديناكِ لو أنَّ الرَّدى قَـــبِلَ الفِـــدا
بكلِّ نفـــيس بالنفـــائس يُفـــتَـــدَى

أبَى الموتُ إلا أن ينالَكِ ســـهـــمُـــهُ
وألا يرى شـــمْلَ الـسَّـــخـــاءِ مُـــبـــدَّدا

فـــأقْـــدَمَ لا يبـــغِي سِـــواكِ، وكلَّمـــا
درَى أنه يبـــغي عظيـــمـــاً تشـــدَّدا

دهاكِ الـرَّدى لكن على حيِن فـــجـــأةٍ
فـــتـــبَّت يداهُ غـــادرٌ صَـــرعَ النَّدى

دهاكِ ولم يُشـــفِقْ على الصِّـــبـــيَـــةِ الأُلى
تَركـــتِـــهِمُ يبكونَ مَـــثْنى ومَـــوْحـــدا

فُـــقِـــدْتِ وأوجَـــدتِ الأسَى في قلوبنا
أسًى كـــاد لولا الدمعُ أن يتَـــوقَّـــدا

بكيناكِ حـــتى كـــاد يبكي لنا الصَّـــفـــا[١]
وحـــتى بكتْ مما بكَينا له العِـــدا

ومـــا كـــاد يَرقَـــا[٢] الدمعُ حـــتى جَـــرى به
غـــدٌ عَنْدَمـــاً[٣] يا ليـــتَنا لم نرَ[٤] غـــدا

---

(١) صفائح الحجر.

(٢) يجف.

(٣) نبات أحمر.

(٤) تُشبع حركة الرّاء للضرورة.

قـضَتْ طفلةٌ تحكي الـمَـلاكَ طهـارةً
وألحـقـهـا الموتُ الزؤامُ بمن عَـدا
لقـد ظَعنَتْ تبـغي لقَـاكِ كـأنما
ضَـربتِ لها قـبلَ التـفـرّق مـوعـدا!
كـأنَّ لهـا نـذْراً أرادتْ قـضـاءَه
كـأنكِ أنتِ الصـوتُ جـاوبةُ الصـَّدى
مـشتْ في طريقٍ قـد مـشى فيـه بعـدها
فـتـاكِ الذي أعـددتِ منه المهنَّدا
فـتىً طابَ أخـلاقـاً وطابَ مـحـامِـداً
وطاب فـؤاداً مـثلَمـا طاب مَـحْـتِـدا
فـتًى كـان مـثلَ الغـصنِ في عنفـوانِه
فللهِ ذاك الغـصنُ كـيف تـأوّدا
تعـوّد أن يلقـاكِ في كلِّ بُكرةٍ
فكان قـبيحـاً تركُ مـا قـد تعـوّدا
فُـجِـعْنا بـه كـالبـدرِ عند تَـمامَـه
ولـم نرَ بـدْراً قـبلَـه الأرضَ وُسِّـدَا
فلم يبقَ طرْفٌ لم يَسِلْ دمـعُـه دمـاً
ولم يبقَ قلبٌ في المَـلا، مـا تصـعَّـدا
كـوارثُ لو نابتْ جـبـالاً شـواهِقـاً
لخـرَّتْ لهـا تلك الشـواهقُ سُـجَّـدا
ولو أنهـا في جلْمـدٍ صـار سـائلاً
ولو أنهـا في سـائلٍ صـار جَلْمَـدا
(أفـهـمي)! وإن الصـبـرَ ألْيَقُ بالفـتى
ولا سـيّـمـا مَن كـان مـثلَك (سـيِّدا)
فكن قُـدوةً للصـابرين، فـإنما
بمثلِكَ في دفْعِ المُلمّـات يُقـتَـدى

لعَـمْـرُكَ مـا الأحـزانُ تنفعُ ربَّهـا

فَـيـجْـمُل بالمحـزونِ أن يتَـجلَّدا

فـمـا وُجِـد الإنسـانُ إلا ليُـفْـقَدا

ومـا فُـقِـدَ الإنسـانُ إلا ليُـوجَـدا

ومـا أحـدٌ تنجـو من الموتِ نفسُـه

ولو أنه فـوقَ السِّمَـاكَـيْنِ أصْـعَـدا

فـلا يَحـزنِ البـاكي ولا تَشـمَتِ العِـدا

فكل امـرئٍ يا صـاحِ غـايتُـه الرّدى

****

٣٧ - البدر الآفل

[الوافر]

بكى فيها شقيقه المغفور له طانيوس ظاهر أبي ماضي وقد مات شابّاً[١].

أ بَعْـدَكَ يَعـرِفُ الصَّـبـرَ الحـزينُ
وقـد طاحتْ بمهـجـتِـهِ المَنونُ!

رمـتْكَ يدُ الزَّمـان بشـرِّ سـهمٍ
فلَّمـا أن قـضـيتَ بكى الخَـؤون

رمـاكَ وأنت حـبَّـةُ كلِّ قلبٍ
شـريفٍ، فـالقلوبُ له رنين

ولم يكُ للزمـان عليكَ ثارٌ
ولم يكُ في خِـلالِكَ مـا يَشِين

ولـكـنْ كـنـتَ ذا خُـلُـقٍ رَضِـيٍّ
على خَلْقٍ لغـيـرِكَ لا يكون

✲✲✲✲✲

وكنتَ تُحـيطُ عِلْمـاً بالخَـفـايا
وتمنـعُ أن تُحـيطَ بك الظُّنون

كـأنك قـد قـتلتَ الدهرَ بحـثـاً
فـعندكَ سـرُّه الخـافي مُـبِين

حكَيتَ البـدرَ في عـمُـرٍ ولكنْ
ذكـاؤُكَ لا تـكوِّنُه قُـرون

عـجـيبٌ أن تعـيشَ بنا الأمـاني
وأنّا للأمـاني نَسـتَكِين

---

(١) مات في الإسكندرية (عن عشرين عاماً) سنة ١٩٠٩، وكان أول إخوته الثلاثة الذين فقدَهم إيليا، واحداً إثر واحد.

ومــــا أرواحُـنـا إلاّ أُسَـــــارَى

ومـــا أجـسـادُنا إلاّ سـجـون

ومـــا في الكون مـــثلُ الكون فـانٍ

كـمـــا تَفنَى الديارُ، كـــذا القطِين

لقـــدْ عَلِقَـــتْكَ أسـبـــابُ المنايا

وفِـــيّـــاً لا يُخـــانُ ولا يَخـــون

أيـدري الـنـعشُ أيَّ فـــتًى يُـواري

وهذا القـــبـــرُ أيَّ فـــتًى يَصـــون

فـتًى جُـمِـعتْ ضُـروبُ الحُـسْنِ فـيـه

وكـــانت فـــيـــه للحُـــسْنى فنون

فـــبـــعضُ صـــفـــاتِه ليثٌ وبدْرٌ

وبعضُ خِـــلالـه شَـــمَـمٌ ولِـين

أمَـــاراتُ الشـــبـــابِ عليـــه تبـدو

وفـي أثـوابِـه كـــــهـــلٌ رزيـن

ألا لا يـشْـــــمـتِ الأعـــداءُ منّـا

فكلُّ فـــتًى بمصْـــرَعِـــه رَهـين

✡✡✡✡

أيا نورَ الـعـــيـــونِ بَـعُـــدْتَ عنّـا

ولـــمّـــا تمتلئ منكَ العُـــيـــونُ

وعـــاجَلَكَ الحِـــمَـــامُ فلم تُـوَدِّعْ

وَبِـنْـتَ فلـم يـودِّعْـكَ الـقَـــريـن

ومــــا عِــــفْـتَ الوداعَ قِلـىً ولكنْ

أردتَ ولــم يُــرِدْ دهــرٌ ضَــنـين

فـــيـــا لَـهَـــفِي لأمِّـكَ حينَ يَـدْوي

نَعِـــيُّكَ بعـــدَ مـــا طال السُّكون

ولَهْفَ شـقـيـقِكَ النائي بعـيـداً[1]

إذا مـا جـاءهُ الخـبَـرُ اليـقين

سَـتـبكِيكَ الكواكبُ في الدَّياجي

كـمـا تبكيكَ في الرَّوضِ الغـصـون

ويبكي إخـوةٌ قـد غِـبْتَ عنهُمْ

وأمٌ ثـاكـلُ وأبٌ حـزين

فـمـا تَنْدى لنا أبَداً ضلوعٌ

عليكَ، ومـا تَجِفُّ لنا شـؤون[2]

قـد ازدانتْ بِكَ الفـتـيانُ طفلاً

كـمـا يزدانُ بالتَّـاجِ الجـبين

ذَهَبْتَ بزينةِ الدنيـا جـمـيـعاً

فـمـا في الدَّهرِ بعـدكَ مـا يَزين

وكنتَ لنا الرجـاءَ فـلا رجـاءٌ

وكنتَ لنا المُـعينُ فـلا مُـعين

أبعـدكَ، يا أخي، أبغي عـزاءً

إذا شُلَّتْ يسـاري واليـمينُ؟

يهـونُ الرُّزْءُ إلا عند مِـثْلي

بمثلِكَ، فـهـو رُزْءٌ لا يهـون

عليكَ تُقَطِّعُ الحَسَـرَاتُ نفـسي

وفـيـكَ أطاعني الدَّمعُ الحـرون

فـملءُ جـوانحي حـزنٌ مـذيبٌ

وملءُ مَـحَـاجِـري دَمْعٌ سـخين

ومـا أبقى المصابُ على فـؤادي

فـأزعـمُ أنّـه دامٍ طَـعِـين

(١) يقصد أخاه الأكبر مراد في أمريكة، وقد سبقهم جميعاً إليها.

(٢) العروق التي تدرّ الدمع في العين.

يذودُ الدمعُ عن عـــيْني كَـــرَاهاً
وتأبى أن تقـــارِفــه الجُــفــون
لقـــد طالَ السُّـــهـــادُ وطالَ ليلي
فــلا أدري الرُّقـــادُ مـــتى يكون
كــأنَّ الصُّـــبحَ قـــد لبِسَ الدَّياجي
عليك أسىً لـذلك مــــا يَـبِين
جـــزاكَ اللهُ عنّا كلَّ خـــيْـــرٍ
وجادَ ضـريحَكَ الغيثُ الهَـتُون

****

٣٨ - أنا والنجم

[السريع]

مِـثليَ هذا النجمُ في سُـهـدِهِ
ومـثلُهُ المحـبوبُ في بُعـدِهِ

يختـالُ في عُـرْضِ السَّـما تائهـاً
كـأنما يختـالُ في بُرْدِهِ

إن شئتَ فهـو الملْكُ في عَرْشِهِ
أوشئْتَ فهْوَ الطِّفلُ في مهدِهِ

يَرمُـقُني شـذْراً كـأني بهِ
يَحْسَبُني أطمعُ في مجدِهِ

يسعى ولا يسعى إلى غايةٍ
كَمَن يرى الغايةَ في جِدِّه

كـأنما يبحثُ عن ضائعٍ
لا يستطيعُ الصَّبرَ من بَعْدِهِ

طال سُرَاهُ وهْوَ في حَيْرةٍ
كـأنه المحزونُ في وجْده

في جُنحِ ليلٍ حَالكٍ فَاحِمِ
كـأن حَظْيَ قُدَّ من جِلده

لا يحسِدُ الأعمى به مُبصِراً
كـلاهمـا قد ضلّ عن قَصْدِهِ

سـاورَني الهمُّ وساورتُه
مـا أعجزَ الإنسانَ عن ردِّه!

مـــــا أعـــــجبَ الـدّهـرَ وأطوارَه

في عَـين مَـن يُمْـــعِنُ في نَقْــــدِهِ!

جــرّبتُـــــهُ دهراً فـــمـــا راقني

مِـن هــزْلِـه شـيءٌ ولا جِــــــدّه

أكــــبَــــرَ مـنـي أنـنـي زاهـدٌ

مـــــا زَهِـدَ الـزاهـدُ في زُهـده

أكـــبــــرَ مني ذا وأكـــبــرتُ أن

يَـطـمـعَ، أن أطـمـعَ فـي رِفْــــدِهِ

وعـــدّني أعـــجـــوبةً في الورى

مُـــذْ رحتُ لا أعـــجبُ من حِــقــدِهِ

يـا رُبَّ خِـلٍّ كـــــان دونـي نُـهًـى

عــجــبْتُ من نَـحْـسي ومن سَـعْـدِهِ

وعـــائشٍ يخطُر فـــوق الثَّـــرَى

أفـــضلُ منه المَيْتُ في لحَـــده

أصـبح يَجني الوردَ من شـوكِــهِ

وبِتُّ أجنِـي الـشَّـــوكَ مـن ورده

أكـــذبُ إن صـدّقـتُـــه بعـدمـا

عـــرفتُ منه الكِذْبَ فـي وعْـدِهِ

لا أشـــتكي الضُـــرّ إذا مَــسَّني

مـنـه، ولا أطـربُ مـن رَغْـــده

أعلمُ أنَّ البـــؤسَ مُـــسْـــتَنفَـدٌ

والرَّغْـــدَ، مـــا لابدّ من فـــقْـدِهِ

إذا الليـــالي قَـــرّبتْ نازحـــاً

وكنتُ مـــشـتـــاقًـا إلى شَــهـدِهِ

أملِكُ عنه النفسَ في قُــــــرْبِـهِ

خـوفـاً من الوَحــشَــةِ في صَــدّهْ

وأنْ أرى الحُــــزنَ على فـــائتٍ

أضـــرَّ بِي الحُـــزنُ ولم يُجْـــدِهِ

****

٣٩ - في سبيل الإصلاح

[الكامل]

حَـيَّـا الـصَّـبَـا عني رُبا لبنانِ
حـيثُ الـهـوى ومـراتعُ الغِـزلانِ

ورعَى المهـيـمنُ سـاكنيـه فـإنهمْ
في خَـيْـرِ أرض، خـيـرةُ السّكان

قـومٌ صَـفَتْ أخـلاقُـهُمْ ووجـوهُهُمْ
فـالحُـسنُ مـجـموعٌ إلى الإحسَـان

لهمُ الأيادي البـيضُ والشِّـيَمُ التي
لومُـثِّلتْ كـانت عُـقـودَ جُـمَـان[1]

شِيَمُ الكرامِ قـصـائدٌ في الكون غُـرْ
رُ، وهْي في شـيـم الكرام مَـعـان

قــومٌ إذا زار الـغـريبُ بلادَهُمْ
جـعلوهُ منهـمْ في أجلِّ مكان

إن خِـفتَ شـرَّ طوارقِ الحِـدْثانِ فَـاقْـ
صِـدْهُمْ تَخَـفْكَ طوارقُ الحِـدْثان

لو أنّ في كـيـوانَ[2] دارُ إقـامـتي
لـهـجـرتُ كِـيـواناً إلى لبنان

قـيَّـدتُ قلبي في هـواهُ فلم أعـدْ
أهوى السِّـوى إذ ليس لي قلبـان

والحبُّ يجـمُلُ في الشـبيبـةِ والصِّبا
كـجـمـالِ زهرِ الروضِ في نَيْـسـان

---

(١) الجمان: اللؤلؤ.
(٢) المريخ.

هو جنّةُ الخُلْدِ التي مُنِّي بها

رُسلُ الهدَى قِدْماً بني الإنسان

خلَتِ الدهورُ ولا يزال كأنما

بالأمسِ شادتْهُ يدُ الرحمن

يا ساكنيه تحيّةً من نازحٍ

إنَّ التحيّةَ لَهْيَ جُهدُ العَاني[1]

أصبحتمُ فوق الممالكِ رفعةً

لولا وجودُ معَاشرِ (الغِربان)[2]

قومٌ قَدِ اتخَذوا الدِّيانةَ بينكمْ

شرَكاً لِصَيدِ الأصفَرِ الرَّنان

فتظاهروا بالزهدِ حتى أوشكتْ

تَخفى دخائلُهُمْ على اليقظان

وتفنَّنوا بالمكرِ حتى أصبحوا

وغبيُّهمْ أدهى من الشيطان

ضربوا على الشعب الرسومَ شراهةً

حَسْبُ التعيسِ ضرائبُ السلطان

كفروا بنعمتِه التي أسداهمُ

ورمَوْه بالإلحادِ والكُفْران

ولقد تفانَوا في انتهاكِ حقوقِه

وهو المُحبُّ رضاهُمُ، المُتَفاني

حتى حَسِبنا أنه ينحطُّ عن

كَسَلٍ، ولم يكُ قطُّ بالكَسلان

لكنه يسعى ويذهبُ سعيُهُ

للقَسِّ والشمّاسِ والمَطران

---

(١) المتعب.

(٢) يقصد رجال الدين.

لولا احترامي مذهباً عُرِفوا بهِ
لَكَشَفْتُ مَستُوراتِهِمْ ببَيَان

فتنبهُوا إن كنتمُ في غَفلةٍ
فالدهرُ بالمِرصادِ للغفْلان

إن الأبالسَ حين أعَيا أمرُكُمْ
جاءتكُمُ في صورة الرُهبان

فحَذارِ من أن تُخدَعُوا بلبَاسِهِمْ
فهُمُ الضواري في لباسِ الضَّان

مَن يتْبعِ العِميانَ حُباً بالهُدى
لا يأمنَنَّ تعثُّرَ العمْيَان

فجعل قوماً يلومونه على ذلك فقال :

إنْ كان لي ذنْبُ وَهُمْ غُفرانُهُ
آثرتُ أن أبقى بلا غُفْرانِ

أو كنتُ في النِّيرانِ حيثُ لديهِمُ
منها النجاةُ، رضيتُ بالنِّيران

أشهى إلى نفسي من الذلّ الرَّدى
لا يرتضي بالذلِّ غَيرُ جَبان

****

٤٠ـ الحريّة

[الخفيف]

فَـتَنَتْـهُ مـحـاسنُ الحـريّهْ
لا سُليمى ولا جمالُ سُميّهْ

هي أمنيّةُ الجميع ولكن
قلَّ من نال هذه الأمنيَّهْ

ليس هذا الإنسان عبداً ولكن
أرهقَتْه الطبيعةُ البشريه

وعجيبٌ أن يُخلقَ المرءُ حرّاً
ثم يأبى لنفسِه الحريّه

غادةٌ ما عرَفتُ قلباً خليّاً
مِن هواها، حتى القلوب الخَليَّه

غرسَتْ في فؤاده الحبّ طفلاً
فنما الحبُ والفؤادُ سَويّه

ثمّ لمّا فشَا الغرامُ وذاعتْ
عنهما في الورى أمورٌ خفيّه

حجبُوها عساه يسلو ولكنْ
كان قيساً وكانت العامريّه

بات يشكو النوى الشقيَّ وتشكو
مانعيها من أن تراه الشّقيّه

مُستَهَامٌ قضى زماناً طويلاً
في عناءٍ من القيود القويّه

وعليــــــه مـن الـزمـــــــان رقــــيبُ

عـــــاشقٌ للســــيــــادة الوهْـمــــيَّــــه

ولـكــلٍّ مـطــامِـعٌ وأمـــــــــــانٍ

يبـــــذُل النفسَ دونَهـــــا للمنيّــــه

ويــراهَــا لـديـه أشـــــــرفَ شـيءٍ

وهْـيَ أدنـى مـن الأمـــــور الدنيّــــه

زعـــمـــــوا أنّه الـمَـليكُ المفـدّى

بـالرعــــايا، من شـّـــرٍّ كلّ بليّــــه

إنما تفــــتـــدي الرعـــيّـــــةُ مَلْكاً

باذلاً نفــســـَـــه فِــدىً للرعـــيّـــه

ظَلَمَ القـــومَ من توهـّمَــــهُ القـــو

مُ نصـيــراً للأمّـــــة (الروســـيــه)

وإذا أَحــرجَ الضـعـــافَ قــويٌّ

نَسِـيتْ ضَـعـفَـهــا النفـوسُ الأبيّــه!

****

٤١ ـ تحية الدستور العثماني

[الطويل]

إلى حـيثُ ألقتْ[١] يا زمـانَ المَظالمِ
ولا عُدْتَ يا عـهدَ الشَّقا المتقادمِ

ذهبتَ فـلا باكٍ وأنّى بكى العَمى
كـفـيفٌ رأى الأضـواءَ مِلءَ العـوالِمِ

ومـا عـجبٌ أن ليس في القـوم نادبٌ
ولكنْ عـجـيبٌ أن أرى غـيـرَ باسم

نزلتَ على الشـرقيّ فـانحطّ شـأنُهُ
وقـد كـان غضَّ الفـخـر، غضّ المكارم

فـفـرّقتَ حـتى ليس غـيـرَ مُـفـرَّقٍ
وخـاصـمْتَ حـتى ليس غـيـرَ التـخـاصُم

أقـــمتَ فـــخلّى أهلَـه وبلادَهُ
إلى كلّ فجٍّ من خـصـيبٍ وقـاحم[٢]

نأى كـاظِمـاً للغـيظ خـوفَ شـمـاتةٍ
ولم يطلُبِ الإنصـافَ خِـيـفـةَ لائم

ولوشـاء لم يخـتـرْ سِوى الشرِّ مـركبـاً
فـقـد كـانت الأحـقـادُ ملءَ الحَـيـازم[٣]

صـحـبناك لا خـوفـاً ثلاثينَ حُـجّـةً[٤]
ولكنهـا الدنيـا وضـعـفُ العـزائم

---

(١) أصبح مثلاً بالدعوة إلى الهلاك.

(٢) قاحل.

(٣) الحيزوم: وسط الصدر.

(٤) المدة التي قضاها السلطان عبدالحميد الثاني في الحكم.

وما ذاك عن حبٍّ فما فيك شيمةٌ
تُحَبّ، ولسنا من غُواةِ المآثم
فكنتَ وكان الجهلُ أحسنَ خَلّةٍ
لنا، ونجاةُ الحقّ إحدى الغنائم
وكنتَ وما فينا فتىً غيرُ ناقم
عليك، ولا ذو سلطةٍ غيرُ غاشم
ثلاثون عاماً والنوائبُ فوقَنا
مخيِّمةٌ مثل الغُيومِ القَواتم
فلا العِلْمُ مَرموقٌ، ولا الحقّ نافذٌ
ولا حُرمةٌ تُرعى لغيرِ الدراهم
وما ثَمّ غيرُ البَغي والظلمِ والأذى
فقُبِّحتَ من عصرٍ كثيرِ السَّخائم[1]
فأغرُبْ، شقيتَ الدهرَ غيرَ مودّع
من القوم إلا بالظُّبى والصَّوارم
فَواللهِ ما ترضَى قيودَك أمّةٌ
من الناس إلا أصبحتْ في البَهائم
ويا أيها الدستورُ أهلاً ومرحباً
«على الطائر الميمون يا خيرَ قادم»[2]
طلعتَ علينا كوكباً غيرَ آفلٍ
على حين أنَّ الشَّرقَ مُقلةُ هائم
فقرَّتْ عيونٌ قبلُ كانت حسيرةً
وجادتْ سروراً بالدموعِ السَّواجِمِ
وضجّ الورى في الشرق والغرب ضجّةً
أفاق لها، مُستيقِظاً، كلُّ نائم

---

(١) الأحقاد (المفرد: سخيمة).
(٢) من شعر البهاء زهير.

أهبتَ فــفــرَّ الظلمُ في الأرض هارباً
ونَكّسَ خِــزياً رأسَــــه كلُّ ظالم

وفـاضتْ على ثغرِ الحزين ابتـسامةٌ
تُخـبِّــرُ أن الحــزنَ ليس بدائم

وأُطلقَتِ الأقـلامُ بعـد اعـتـقَـالهـا
فـأسْـمَـعَتِ الأكـوانَ سـجْـعَ الحَـمَـائم

ولم يبقَ عـــانٍ[1] لم يُفَكّ إسـارُهُ
ولم يبقَ جـانٍ لم يَفُــزْ بالمراحم

وكنا نرى الأحــزانَ ضَــربَةَ لازبٍ
فـصِرنا نرى الأفـراحَ ضربَةَ لازم

توهَّمَ قــومٌ أنما الشــرقُ واهمٌ
وأنك يا دسـتـورُ أضـغـاثُ حـالم

ورجَّمَ قــومٌ أنما تلك خُــدعَـةٌ
فَـعُــذنا بربِّ الناس من كلِّ راجم

تجلّيتَ فـاسْـودتْ وجوهٌ وأسـفـرتْ
وجـوهٌ، وأمـسى غـانماً كلُّ غـارِم

ومـا عـدتَ حتى كـاد يَشـتـجـرُ القنا
لأجلكَ والخَطِّيُّ[2] أعــدلُ حــاكم

وأوشك أن يهـتـزَّ في كل سـاعـدٍ
لكلِّ أبيٍّ، كلُّ سـيـفٍ وصـارم

أبى الجـيشُ إلا أن تكونَ مـؤيَّداً
وتأبى سِوى تأييدِ جيشٍ مُسَالم

فَـبوركـتُـمـا من سـاعـدٍ ومُـهنَّدٍ
برغم خَـؤونٍ مـارقٍ مُـتـشـائم

---

(١) الأسير (السجين).

(٢) الرمح.

ولا برِحَ الأحـــرارُ يَشـــدو بذكـــرهمْ
بنو الشرق، فخراً، في القُرى والعواصم

رجـــالٌ لهم ذكـــرُ الرجـــالِ وإنما
جـسـومـهمُ فـيـهـا نفـوسُ ضَـراغم

همُ قَـــيَّـــدُونا بالعـــوارفِ[1] والنَّدَى
وهُمْ أطلقـونا من عِـقَـالِ المغَـارم

فلم يبقَ فـينا حـاكمٌ غـيـرُ عـادلٍ
ولم يبقَ فـينا عـادلٌ غـيـرُ حـاكم

****

(١) العارفة: المكرمة.

٤٢ - عبد الحميد بعد إعلان الدستور

[الطويل]

أبا الشَّعب! اطلعْ من حجابِكَ يلتقِ
بطرْفك مثلُ العارضِ[1] المُتدفِّقِ

جماهيرُ لا يُحْصي اليراعُ عديدَها
هيَ الرَّملُ إلا أنَّه لم يُنسَّق

هو الشعبُ قد وافاكَ كالبحر زاخراً
وكالجيشِ يقفو فيلقٌ إثرَ فيلَق

تَطلَّعْ تجدْه حول قصرِكَ واقفاً
يحدِّقُ تحديقَ المحبِّ الموفَّق

لقد ألبَستْهُ الأرضُ حَلْيَاً كأنّه
أياديكَ فيه لم تزلْ ذاتَ رونَق

وألقتْ عليه الشمسُ نظرةَ عاشقٍ
غيورٍ تلقَّاها بنظْرةِ مُشفق

يهَشُّ لمرآكَ الوسيمِ وإنما
يهشُّ لمرأى الكوكبِ المُتألّق

ويعشقُ منك البأسَ والحِلمَ والنَّدى
كذلك من ينظرْ إلى الحُسْن يَعشَق

يكاد به يرقَى إليك اشتياقُهُ
فيا عجباً: بحرٌ إلى البدر يرتَقِي!

تفرَّقَ عنك المفسدون وطالما
رموا[2] الشعبَ بالتفريق خوفَ التفرّق

---

(١) السحاب الممطر.

(٢) تُقرأ بضم الميم للضرورة.

وكم أقلقوا في الأرض ثم تراجعوا
يقولون: شعبٌ مقلِقٌ أيُّ مقلِقِ
وكم زوّروا عنه الأراجيفَ وادّعَوْا
وأيَّدكم ذيّاكُمُ الزاهدُ التَّقِي
لمن يرفعُ الشَّكوى وقد وقفوا له
على الباب بالمرصَادِ، فاسأله يَنْطِق
وأمّا ولا واشٍ ولا متجسِّسٌ
فقد جاء يسعى سعيَ جذْلانَ شيّق
يطارِحُك الحبَّ الذي أنت أهلُه
وحسبُكَ منه الحبُّ غيرَ مزوّق
فها جيشُكَ الطَّامي يضجّ مكبِّراً
بما نال من عهدٍ لديك ومَوْثِق
يُطأطئُ إجلالاً لشخصِكَ أرْؤُساً
يطأطئ إجلالاً لها كلُّ مفْرِقِ
لُهَامٍ[1] متى تُنذِرْ به الدّهرَ يَصّعقْ
وإن يتعرضْ للحوادثِ تَفْرَق
يفاخرُ بالسَّلم الجيوشَ، وإنّه
لأَضربُها بالسَّيفِ في كلّ مأزق
وأشجعُها قلباً وأكرمُها يداً
إذا قال لم يتركْ مجالاً لأحمق
ألا أيها الجيشُ العظيمُ ترفُّقاً
ملكتَ قلوبَ الناس بالعُرْفِ[2] فارْفُق
ويا أيّها المَلْكُ المقيمُ (بيلدزٍ)[3]
أرى كلَّ قلبٍ سُدّةً[4] لك فارْتَق

(١) كثير العدد.
(٢) بالمعروف.
(٣) قصر يلدز: قصر النجم.
(٤) عرش.

ألا حـــبّـــذا الأجنادُ غَـــوثاً لخـــائفٍ

ويا حـــبّـــذا الأحـــرارُ وِرْداً لِـمُـــسْـــتَق

ويا حـــبّـــذا عـــيـــدُ الجلوس فـــإنه

أجلُّ الذي ولّـى وأجـــمـــلُ مـــا بقي

****

٤٣ - الذئاب الخاطفة

[الكامل]

مـا بالُهمْ نقـضـوا العـهـودَ جِـهَـارا
وتَـعـمّـدوا الإيـذاءَ والإضْـرَارا

واسـتـأسَـدُوا لـمّـا رأوا ليْثَ الشَّـرَى
عـافَ الزئيـرَ وقلَّـمَ الأظفـارا

داروا به والشـرُّ في أحـداقِـهـمْ
ذا يدّعي حـقّـاً، وذلك ثـارا

لُؤمٌ لَعَـمـرُ أبيكَ لم يَرَ مـثلَه التْـ
ـتاريخُ منذُ اسْـتـقرَأَ الأخـبـارا

وخـيـانةٌ مـا جاءها القـوم الأُلَى
تَخِـذوا مـع الوحشِ القِـفـارَ ديارا

أمـسَى يحـرّضُ (عـاهلَ الألمان) مَن
أمـسى يحـرضُ في الخَـفـا (البُلْغـارا)

أَمَـعَـاشـرَ الإفـرنجِ ليس شـهـامـةً
مـا تفـعلون، إذا أمِنْتُمْ عـارا

أمِنَ المروءةِ أن يُسـاءَ جِـوارُنا
في حـينِ أنّا لا نُسـيء جـوارا

أمِنَ المـروءةِ أن يطـأطِئَ تـاجَـهُ
مَلِكٌ ليَـملِكَ في الثَّـرى أشْـبـارا؟

البَـغْيُ مـرتَعُـهُ وخـيمٌ فـاعلمـوا
والظلمُ يُعْـقِبُ للظَّلومِ دمَـارا

إن تُحْرِجوا الرئبالَ في عِرِّيسهِ[1]

يَذرِ السكوتَ ويَركبِ الأخطارا

وكما علِمتمْ ذلكَ الجيش الذي

دكّ العروشَ ودوّخَ الأقطارا

جيشٌ يهزّ الراسياتِ إذا انتحَى

الهَيجَا ، وهزَّ الصَّارمَ البتَّارا

وكمَا علِمتمْ ذلك الشعب الذي

يأبى ويأنَفُ أن يُرى خوّارا

فالويلُ للدنيا إذا نفضَ الكرى،

والويلُ للأيام إمّا ثارا

إني أرى ليلاً يخيّمُ فوقَنا

لا ينجلي حتى نُشِبَّ النَّارا

فحذارِ ثم حذارِ من يوم به

يجري النَّجيعُ على الثَّرى أنهارا

يومٍ تباعُ به النفوسُ رخيصةً

يومٍ يقصّرُ هولُه الأعمارا

يومٍ يكون به الجميعُ عساكراً

والكلّ يدخل في الوغَى مُختارا

****

---

(١) عرينه أو غابته.

٤٤ ـ مريض بالغرور

[الكامل]

وقال ينقد أحدهم:

لـمّـــا سكتُّ حَـــســـبتَ أنّك ناج

هيـــهـــات، إني كَـــالمنون أُفـــاجي

تالله تطمعُ بالســـلامـــةِ بعـــد مـــا

ألقـــاك جـــهلُك في يدِ الأمـــواج

إنْ كـــان داخلَكَ الغـــرورُ فـــإنه

مـــا انفكّ في البُـــسطَاءِ والسُّـــذّاج

إني أنا الأســـدُ الهـــصـــورُ بسالةً

ويلٌ لقـــومٍ حـــاولوا إحْـــراجي

حـــاولتَ أن تهـــتـــاجَني عن مَـــرْبِضي

لتنال ذِكْـــراً، خِـــبتَ يا ذا الراجي

عـــارٌ إذا أنشـــبتُ فـــيك مـــخَـــالبي

إذ ليس من خُلُقي افـــتـــراسُ نِعَـــاج

وظـنـنـتَ أنـكَ بـالـغٌ شـــأْوي إذا

رُمتَ القَـــريضَ فـــمـــا ظَفِـــرتَ بحَـــاج[1]

إنَّ القـــوافيْ كـــالخـــرائدِ[2] مِنْعَـــةً

وتَفـــوقُـــهـــا في نبْـــذِ كل مُـــدَاج

والشِّـــعـــرُ تاجٌ لوعلمتَ ولم تكن

مِـــمَّن يَليقُ بحـــملِ هذا التَّـــاج

---

(١) حاجة أو رغبة.

(٢) الخريدة: اللؤلؤة قبل أن تُثقب.

خــذهـا مــثــقــفــةً إذا وقــعتْ على

جــبلٍ لأُزعـجَ أيَّمَــا إزعــاج

أنا خـيـرُ من قـال القـوافي، مـادحـاً

أنا خـيـرُ من قـال القـوافيَ، هاجي

قــد كنتُ أزهدُ في الـهِـجَـا لـو لم يكنْ

لك يا مـريضَ العُـجْـبِ خـيـرُ عـلاج

****

٤٥ ـ عفو بغير مقدرة

وقال فيه أيضاً :

[البسيط]

سكتَّ خوفاً، وقلتَ: الصفحُ من خُلُقي!
ونمتَ جُبْنًا، وقلتَ الحِلمُ من شِيمي!

وإنما أنت والأقوامُ قد علموا
لولا خُمولُكَ لم تسكتْ ولم تنَم

لم تمتَنعْ أنْفةً[1] لكن قد امتنعتْ
عليك أشباهُ ما قد صاغَهُ قلَمي

حاولتَ وِجدان عيبٍ لي فكنتَ كَمَنْ
يحاول الماءَ في البركان ذي الضَّرَم

فقلتَ للقوم ـ في ما قلت ـ تخدعُهُمْ:
لقد هجاني وبعضُ الهجْو كالوصَم

الذمّ عارٌ ولكنْ ذمُّ ذي كَرَمٍ،
والحمدُ لله لم نذمُمْ أخَا كرَم

سأحبِسَنَّ [2] لساني عنك، عن شَمَمٍ،
وحرمةً لأَهَيل الوُدّ والذِّمم

قومٌ لَعَمرُ أبي، لو كان سفْكُ دمي
– ولا مغالاةَ – يُرضيهمْ، سَفكتُ دمي

إني أجلّهمُ عن أن يُغيِّرَهم
كلام ذي حسَدٍ أوقولُ متَّهم

(١) يريد: أنَفَة، وسكّن للضرورة.
(٢) جاء بها في موضع: (لأحبسنّ).

مـا الـعـجـزُ أقـعـدني لـمـا كـفـفتُ يـدي،

لـكنْ لأجـلـهمُ نـهْـنـهتُ[1] مِن كَـلِـمي

ولـــو أشــاءُ ملأتُ الأرضَ قــاطــبــةً

قـوافـيـاً، والـفـضـاءَ الـرَّحبَ بـالحِـكَم

ولــستُ أعــجبُ إن لم تــشــتكِ ألـــمـاً

إنَّ الجــمــاداتِ لا تــشــكــو من الألم

****

(١) نهنهه: كفّه.

٤٦ ـ فتنة ١٣ أبريل[1]

[المديد]

بورك الصَّمْصَامُ من حكَمِ
بين محكُومٍ ومحتكمِ

إنَّني بِعتُ اليَراعَ به
لا أبيعُ السَّيفَ بالقلم

صاحِ إن العزّ ممتنِعٌ
نيْلُه إلا على الخَذِم[2]

إنما الضِّرغامُ سَوَّدَهُ
نابُهُ المرهوبُ في البَهَم

لو يُسمّى السيفُ ثانيةً
بات يُدعى: مُنقذَ الأمم

فَلَهُ في الغرب مأثَرةٌ
مثلُها في التُّركِ والعَجَم

ضيفَ (سَالونيكَ)[3] ما لكَ في
سجنِهَا ضيْفٌ سوى السَّأم

ذاك ضيفٌ غيرُ مُحتشِمٍ
إنْ تحاولْ طَردَه يُقِم

قد خلتْ (يلديز)[4] منك وما
ذكرُها يُخليك من ألم

---

(١) خلع السلطان عبد الحميد الثاني وتولية السلطان رشاد (باسم محمد الخامس) سنة ١٩٠٩.

(٢) سرعة القطع. يريد السيوف.

(٣) السلطان عبد الحميد وقد نزل سجيناً بسالونيك بعد خلعه.

(٤) قصره في استانبول.

زُلتَ عـــنـــهـــا وهْـيَ بـــاقــيــةٌ
عِـــظـــةً لــلــخَــلْقِ كــلِّــهِم
إن تــكنْ تــبــغِي الــرجــوعَ لــهــا
ذاكَ مــقــضِــيٌّ لـــدى الحُــلُــم
مـــرتـعُ الـــغــيـــد الأوانِس بل
مَــربَـعُ الــواشـــين والــتُّــهم
خـــبِّــريــنــا إن فــيكِ لــنــا
حــكــمــةً تــعــلــو عــلى الحِــكَم
خـــبِّــرِيــنــا كـــيف عــاقــبــةُ الـ
ـــبَــغْــيِ: هل كــانت ســوى نــدم؟
جُــرتَ يــا عــبــد الحــمــيــد بــنــا
غَـــيــــرَ أن الجَـــورَ لـم يـــدُمِ
كـــنتَ كـــالأيـــامِ مـــا قـــصَــدتْ
بـــالــــرزايـــا غـــيــرَ ذي شَـــمَم
ظَــلْتَ تَــقـــري[1] الحــوتَ من جُـــثَثٍ
أوشَـــكَتْ تُـــبــلِــيه بـــالــتُّــخَم[2]
نِـــعمٌ لـــلــبـــحــر.. تــطــرحُــهــا
يـــا لـــهـــا فـي الـــبـــرِّ من نِــقَم
ولَـــكمْ حَـــلَّـــلْتَ من حُـــرَمٍ
ولـــكَمْ أفـــســـدتَ من ذِمَـم
لم تـــراعِ قطُّ ذا صـــلـــةٍ
لا ولم تُـــشـــفق عـــلى رحِم
راعكَ الـــدســتـــور مـــنــتــصـــراً
فـــأثَــرْتَ الجُــنــدَ (بـــالــعِــمَم)[3]

---

(١) تطعم (من: القِرى).
(٢) قيل عن السلطان عبد الحميد: إنه كان يأمر بإلقاء خصومه السياسيين في خليج البسفور المطل عليه قصره طعاماً لحيتانه التي أعدت لهذا الغرض! والمدافعون عنه يقولون: إنه ألقى فيه رجلاً واحداً اغتصب ابنته، فكبُر عليه إثمه.
(٣) أصحاب العمائم.

كاد يَلقَى منك مصرعَهُ
وهْو لم يَبلُغْ إلى الحُلُم
ربَّ ليلٍ بتَّ تَرقُبُهُ
رِقْبَةَ السِّرحانِ[1] للغَنم
ونهارٍ كدْتَ فيه له
غيرَ خاشٍ كيْد منتقم
أحسبتَ القومَ قد غَفَلوا
ونسُوا ما كان في القِدَم
أم ظننتَ الشعبَ حَنَّ إلى
إمْرَةِ الخِصْيانِ والخدَم
أم حسبتَ الجيشَ مبتعِداً
وهو أدنى مِن يدٍ لِفَم
لم يُطِقْ صبراً على مضضٍ
فأتى يسعى على قدَم
عَلَمٌ من خلفه عَلَمٌ
وكَميٌّ[2] يقتفيه كَمي
حاطَ «يلديزا» فكان لها
كَسِوارٍ غيرِ منفصم
ورأتْ عيناكَ غضبتَهُ
فبكتْ خوفَ الرَّدى بدم
ثلَّ منك التاجَ مهتضَماً
مَن يُعادِ الشَّعَب يُهتَضَم[3]

(1) الذئب.
(2) شجاع.
(3) يُخذل وينكسر.

بتَّ لا جيشٌ ولا علَمٌ
يا صريعَ الجيشِ والعلَم

وفَشَا ما كنتَ تُضْمرُهُ
فعَرفنا ناقضَ القَسَم

كنت مسلوبَ الكَرَى حَذِراً
ولقد أُعطيتَه فَنَم!

ودَعِ الدُّنيا وبهجتَها
ما أرى الحسناءَ للهرِم!

لستَ من طِرسِي ولا قلَمي
إنْ كَبَا في حَلْبةٍ قلمي

قل لمن راموا مُسَاجَلَتي
ليس غيري تاجرُ الكَلِم

✲✲✲✲✲

يا رشادَ المُلْك[1] تهنئةً
بالذي أوتيتَ من نِعَم

إن تكن ذاك السَّجينُ فيا
ربَّ عَانٍ[2] غيرَ مُجتَرم

أنت كالصِّدّيق[3] أسكنَهُ
فضلُه في السجن من قِدَم

كن لهذا الشعب «يوسُفَهُ»
ينجُ من عُدْمٍ ومن عَدَم

لستَ ترضى أن يقال: كَبا
دونَ شعبٍ هامَ بالصَّنَم

---

(١) السلطان محمد رشاد الخامس الذي ولي الملك بعد عبد الحميد

(٢) العاني: هو الأسير أو السجين.

(٣) النبي يوسف، ومعروف أنه كان سجيناً قبل أن يلي تموين مصر.

أنت للشُّورَى نُعَوِّذُها

بكَ من عَاتٍ ومِن نَهِمِ

فتقلدْ سيفَ جَدِّك «عُثْ

مانَ»[1] جَدِّ البِيضِ والخُذُم[2]

وتولَّ المُلكَ من أَمَمٍ

وبحبل الله فاعْتَصِمِ

قد شَفَا مرآك مقلتَه

من عمًى ، والأذنَ من صَمَمِ

دمتَ يا خيرَ الملوكِ له

غيرَ ما هَمٍّ ولا سَقَمِ

****

(١) عثمان أرطغرل المؤسس الأول لدولة سميت باسمه في آسيا الصغرى «العثمانيون».

(٢) البيض: السيوف. والخذم: سرعة القطع. يريد السيوف القاطعة.

٤٧ ـ الكبرياء خُلّة الشيطان

[الكامل]

لي صاحبٌ دخل الغرورُ فؤادَهُ
إن الغُرورَ أُخيَّ من أعدائي

أسديتُه نُصحي فزادَ تمادياً
في غَيِّهِ وازدادَ فيه بلائي

أمسى يُسيءُ بيَ الظنونَ ولم تسؤْ،
لولا الغرورُ، ظنونُهُ بولائي

قد كنتُ أرجو أن يُقيمَ على الوَلا
أبداً، ولكنْ خاب فيه رجائي

أهوى اللقاءَ به ويهوَى ضدَّه
فكأنما الموتُ الزُّؤامُ لقائي

إني لأَصحبُهُ على علاّته
والبدرُ من قَدَمٍ أخو الظَّلْماء

يا صاحِ إنَّ الكِبْرَ خُلْقٌ سيءٌ
هيهاتَ يوجد في سِوى الجُهَلاء

والعُجْبُ داءٌ لا يُنالُ دواؤُهْ
حتى يُنالَ الخلُدُ في الدُّنياء[١]

فاخفِضْ جناحَكَ للأنامِ تَفُزْ بهم
إنَّ التواضعَ شيمةُ الحُكماء

لو أُعجِبَ القمرُ المنيرُ بنفسه
لرأيتَه يَهوِي إلى الغَبْراء

****

(١) يريد: الدنيا، ونمدّها للضرورة.

٤٨ـ أيها القلم

[البسيط]

مـاذا جـنـيتَ عـلـيـهمْ أيـهـا الـقـلمُ
والـلـهِ مـا فـيكَ إلا الـنّـصْحُ والحِـكَمُ

إني لـيَـحـزُنُـني أن يَـسـجـنـوك وهم
لـولاكَ في الأرض لم تـثـبُتْ لـهم قَـدَم

خُـلقتَ حُـراً كـمـوج الـبحـرِ مـنـدفعاً
فـمـا الـقـيودُ ومـا الأصـفـادُ والـلُّـجُم

إن يَـحـبِـسوا الـطـائـر المحكيَّ في قفصٍ
فـلـيس يُـحـبَسُ مـنـه الـصـوتُ والـنَّـغَم

الـلـهَ في أمـةٍ جـارَ الـزمـانُ بـهـا
يَـفـنَـى الـزمـانُ ولا يَـفـنـى لـهـا ألَم

كـأنمـا خـصَّـهـا بـالـذلِّ بـارئُـهَـا
أو أقـسمَ الـدَّهـرُ لا يـعـلـو لـهـا عَـلَم

مـهـضـومـةُ الحقِّ لا ذنبٌ جـنـتْه سِـوى
أنَّ الحـقـوق لـديـهـا لـيس تَـنـهـضِم

مـرَّتْ عـلـيـهـا سـنـونٌ كـلـهـا نِـقَمٌ
مـا كـان أسـعـدَهـا لـو أنـهـا نِـعَم

عَـدُّوا شـكـيّـتـهـا ظـلـمـاً، ومـا ظـلَـمتْ،
وإنمـا ظـلـمُـوهـا بـالـذي زعـمـوا

مـا ضـرّهُـمْ أنـهـا بـاتت تـسـائـلُـهُمْ
أين المـواثـيقُ؟ أين الـعـهـدُ والـقَـسَم؟

أمــا كــفى أنّ في آذانــهم صــمــمــاً

حــتى أرادوا بــأن يَــنــتــابــهــا الــصَّــمَم

كــأنمــا ســئــمــوا ألاّ يــزالَ بــهــا

روحٌ عــلى الــدهــر لم يــظــفــر بــهــا الــسَّأم

فــقــيِّــدوهــا لــعل الــقــيــدَ يُــســكــتُــهــا

وعــزَّ أن يَــســكُــتَ المــظــلــومُ لــو عــلــمــوا

وأرْهَــقُــوا الــصَّــحْــفَ والأقلامَ فــي زمنٍ

يــكــاد يُــعــبَــدُ فــيــه الــطِّــرسُ والــقــلــم

إن يمــنــعُــوا الــصُّــحفَ فــيــنــا بثَّ لــوعــتــنــا

فــكــلُّــنــا صــحُــفٌ في مــصــرَ تــرتــسِم

إنــا لــقــومٌ لــنــا مــجــدٌ ســنــذكُــرُه

مــا دامَ فــيــنــا لــســانٌ نــاطقٌ وفمُ

كــيف الــســبــيلُ إلى سُــلْــوانِ رفــعــتِــنــا

وهْيَ الــتي تــتــمــنَّى بــعــضَــهــا الأمم

يــأبَى لــنــا الــعــزّ أن نــرضى المــذلّــةَ في

عــصــرٍ رأيــنــا به الــعِــبْــدانَ تُــحْــتَــرم

لَــلــمَــوتُ أجــملُ من عــيــشٍ عــلى مــضضٍ

إن الحــيــاةَ بلا حــريّــةٍ عَــدمُ

****

٤٩ ـ مصر والشام

[الوافر]

أ طَـالَ الـلـيلُ أم طَـالَ الـمُـقَـامُ؟
أم الـمَـحزونُ خَـامَـرَهُ الـهُـيَـامُ ؟
فـبَـاتَ يُـصَـعِّـدُ الـزفَـرَاتِ وجـداً
وإمَّـا نَـاحَ أسـعـدَهُ[1] الحَـمَـام
تـعَـوَّدَ جِـسـمُه الأسـقَـامَ حـتى
لـيَـحـذَرَ أن يُـزايـلَهُ الـسَّـقَـام
وأغـرَى جَـفـنَه بـالـسُّـهـد حـتى
لَـيُـشـفِقَ أن يُـطـيفَ به المـنَـام
تجَـمَّـعَتِ الـهُـمـومُ عـلـيه تَـتْـرَى
كـمـا اجـتـمعتْ عـلى الماء الـسَّوَام[2]
وأعْـوَزَهُ عـلـى الـبـلـوى مُـعـينٌ
وأعـوزَ لـيـلَهُ الـقـمـرُ الـتَّـمـام
فـضَـاقَ فـؤادُه بـالـهمِّ ذَرْعـاً
وضَـاقَ بـهَـمِّهِ وبه الـظلام
كـأنَّ نجـومَهُ أجـفـانُ بـاكٍ
كـأن الـلـيل صَبٌّ مُـسـتَـهَـام
أبِـالأقـمـارِ مـا بي، فـهْيَ مـثـلي
تحـاولُ أن تـنَـامَ فلا تـنَـام؟
أبتْ إلا الـسـكـوتَ وبتُّ أشـكـو
وأنّى يَـصـحَـبُ الـوجْـدَ اكْـتِـتَـام

(١) أسعفه وأنجده.
(٢) السوام: الماشية التي ترعى.

وليس بنافعي منها سكوتٌ
وليس بنافعِ الشُّهبِ الكلام

كأني قارئٌ والليلُ سِفْرٌ
له بدءٌ وليس له خِتام

كذاك الهمُّ أعسرَ ما تراهُ
إذا سكَنَ الدُّجى وغَفَا الأنام

تحنُّ إلى بلاد الشام نفسي
أقُطْرَ الشَّامِ حَيَّاك الغَمَام

وما غيرَ الشآم وساكنيه
لبَانَتُنا[1] وإنْ بَعُدَ الشَّآم

ولولا أنَّ في مصْرٍ مُقامي
لعَمرُ أبيكَ ما طال المُقَام

مضى عامٌ عليّ بأرض مصرٍ
وذا عامٌ وسوف يجيء عام

وما مِصرُ التي ملكَتْ فؤادي
ولكنْ أهلُها قومٌ كِرام

وِدادُهُمُ على الأيام باقٍ
وجارهمُ عزيزٌ لا يُضام

ومِن أخلاقِهمْ لينُ الحُميّا[2]
إذا انتسبتْ إلى اللِّينِ المُدام

وتُبْصِرُ في صدورهِمُ أناةً
إذا الأحلام[3] طاح بها الخِصَام

---

(١) غرضنا.
(٢) الخمرة.
(٣) العقول (الحلم).

أَبَتْ إلا عــنــادَهُمُ الــلــيــالي
فـمَـا يـئـسـوا الـغـداةَ ولا اسْـتَـنـامـوا

يــودُّ الــطــامــعــونَ بـأرضِ مــصْــرٍ
لــوَاَنــهـمُ بــهــا أبــداً أقــامــوا

فلا عــجبٌ إذا خَــفَــروا ذِمــامــاً[1]
شــديــدُ الــبــطش لــيس له ذِمــام

نُلام عــلى الــكلام وقــد أصــبْــنــا
وقــد ضــلّــوا الــصــوابَ فــلم يُلامـوا

أقــانــونــاً قــيــودُهُمُ تُــســمّى ؟
إذًا قــد أنّثَ الــرجلَ الــلــثــامُ

إلامــا تُــمــنــعُ الــدســتــورَ مــصــرٌ
وقــد كــادتْ تــفــوز به (ســيــام)[2]

بــنـي مــصــرٍ عــلى الأحــداثِ صــبــراً
فــقَــبلَ الــصــبحِ يــجــتــمعُ الــغَــمــاَم

ولا يــلــحقْ بــكم ضــجــرٌ فــإني
رأيتُ الــظــلــمَ لــيــس له دَوام

فــإن الــلــيلَ يــعــقُــبُه صــبــاحٌ
وإن الحــربَ آخــرُهــا سلام

****

---

(١) العهد.
(٢) من دول الشرق الأقصى. وتمد ميم (إلامَ) في أول البيت للضرورة.

٥٠ - (عام ١٩١٠)

[الكامل]

إني سـكتُّ ومـا عـدِمتُ الـمَـنـطِـقـا
لـولا أخـوكَ سَـبـقتُ فـيك الأسـبَـقـا
وهـززتُ أوتـارَ الـقـلـوبِ بـصـامتٍ
يَـشـتـاقُ كلُّ مـهـذبٍ أن يَـنـطِـقـا
فـبـعـثتُ في أفـواهـهمْ مـثل الـطِّلا
ونـفـثتُ في أسـمـاعـهم شِـبه الـرُّقَى[1]
وألـنْتُ قـاسِي الـشّـعـرِ حـتى يُـبـتـغَى
وشـددتُ مـنـه الـلّـينَ حـتى يُـتَّـقَى
وجَـلَـوْتُ لـلأبـصـار كلَّ خَـريـدةٍ[2]
عـصـمـاءَ تحـسُـدهـا الـنـفوسُ تـألُّـقـا
تـبـدو فَـتـتْـرُكُ كلَّ قـلـبٍ شـيِّقٍ
خِـلْـواً وتـتـركُ كلَّ خـالٍ شـيِّـقـا
ولّـى أخـوكَ فـمـا أمَـضَّـنيَ الـنـوى
ولـقـد قـدمتَ فـمـا هـشَـشتُ إلى الـلـقـا
أقـبـلتَ والـدنـيـا إليَّ بـغـيـضـةٌ
هلاَّ سَـبـقتَ إليَّ أسـبـابَ الـشَّـقـا
حـنِـقتَ بلا سـببٍ عـلـيّ، وإنه
سـببٌ جـديـرٌ عـنـده أن أحـنَـقـا

---

(١) الطلا: الخمر. والرقيّة: العوذة (والجمع: رُقى).
(٢) اللؤلؤة قبل أن تثقب. يريد القصيدة من شعره.

عـلِـقَتْ أخي كفُّ المـنـونِ وكِـدتُ أن
أسـعى عـلـى آثـارِه لـولا الـتُّـقَى
مـا أشْـفـقَتْ نـفـسي عـلـيّ وإنمـا
أشْـفقتُ أن أبكي الـصَّديقَ المـشْـفِقـا
ودّعــتُه كـالـبـدر عـنـد تـمـامه
والـبـدرُ لـيس بـآمنٍ أن يُـمـحَـقـا
ولـقـد رجـوتُ لـه الـبـقـاءَ وإنمـا
يـدنـو الحِـمَـامُ لمن يُـحَبُّ لـه الـبَـقـا
أصـبـحتُ مـثلَ الـنَّـسْـرِ قُصّ جـنـاحُهُ
فـهَـوَى ولـو سَـلِمَ الجـنـاحُ لحَـلَّـقـا
نـائي الـرجـاءِ فلا أسـيـرٌ مـوثَقٌ
أرجـو الـفَكَـاك، ولـستُ حُـرّاً مـطـلـقَـا
ولـقـد لـبستُ من الـسَّـوادِ شـعـائـراً
حـتى خـضَـبتُ من الحِـداد الـمَـفْـرِقـا
وزجـرتُ عـيـني أن تُـسَـرّ بمـنـظـرٍ
ومـنـعتُ قـلـبي بـعـدَهُ أن يَـخْـفِـقـا
لا أظـلِـمُ الأيـامَ في مـا قـد جـنتْ
لا تـأمنِ الأيـامَ أن تـتـفَـرَّقـا
كنْ كـيف شـئتَ فـلستُ أسـكنُ لـلـمُـنى
بـعـدَ الحـبـيبِ ولـستُ أحـذَرُ مَـوْبِـقـا[١]
عـامٌ نـسِـيتُ سُـعـودَه بـنُـحـوسه
قـد يَـحـجُبُ الـلـيلُ الـهلالَ الـمُـشْـرِقـا
لم أنسَ طـاغـيَـةَ المـلـوكِ وقـد هـوَى
عن عـرشِه وأسـيـرَه لـمّـا ارتـقَى

(١) الموبق: المهلك (وبق - يبِق: هلك).

والــشــاهُ مــنــخــلِـعُ الحُــشــاشــةِ واجِفُ
أرأيتَ «شــاهــاً» قطُّ أصــبـح «بَــيْــدقَــا»
مــا زال يــحــتــقِــرُ الــظُّـبــا حــتى غــدا
لا تُــذكَــرُ الأســيــافُ حــتى يُــصْــعَــقــا[1]
بِــتْــنــا إذا الــتــركيُّ ضجّ مُــهــلِّلاً
عــبثَ الــهــوَى بــالــفــارسيّ فــصَــفَّــقــا
ذكْــرَى تُــحــرِكُ كلَّ قــلــبٍ ســاكنٍ
حــتى لــيَــعــشقَ بــعــدَهــا أن يَــعــشَــقــا
فــيــمــا عــلــى الــنِّــيلِ الــنــحــوسُ ولــم يــكن
دونَ الخــلــيــجِ ولا الــفُــراتِ تــدفَّــقــا
إن لــم أذُدْ عن أرض مــصــرَ مــوفَّــقــاً
أوْدَى بــآمــالــي الــزمــانُ مــوفَّــقــا
مــا بــالُــهــا تــشــكــو زوالَ بــهَــائــهــا
وهي الــتي كــانت تَــزين الــمَــشــرقــا
قــد أخــلــفتْ كفُّ الــســيــاســةِ عــهــدَهــا
إن الــســيــاســةَ لا تُــراعي مَــوثِــقــا
كَــذَبــوا عــلــى مــصــرٍ وصُــدِّقَ قــولُــهــم
والــشــرُّ أن تجــدَ الــكَــذوبَ مُــصَــدَّقــا
وأبَــوا عــلــيــنــا أنــنــا لا نــنــتــهي
من مــأزقٍ حــتى نــصــادفَ مــأزِقــا
سَــلــكُــوا بــنــا في كلِّ وادٍ ضــيِّقٍ
حــتى قــنــطــنــا أن يــصــيــبــوا ضــيِّــقــا
مــنــعــوا الــصــحــافــةَ أن تــبثَّ شــكــاتَــنــا
مــنــعــوا الــكــواكبَ أن تَــبــيِن وتُــشْــرقــا

---

(١) الظُبَة: حد السيف والسنان والخنجر (والجمع: ظُبا وظبات وظبون).

لـوأنـصـفـوا رفـعـوا الـقـيـودَ فـإنمـا

يـشـكـو الأسـيـرُ الأسـرَ إمّـا أُرهـقـا

وسـعَـوْا إلى سـلْبِ الـقـنـاةِ فـأخـفَـقُـوا

سـعـيًـاً، وشـاء الـلـهُ أن لا نُـخْـفـقـا

عـرضَ الحـسـابَ المـسـتـشـارُ ولم يـكن

لـولا الـسـيـاسـةُ حـاسـبـاً ومـدقِّـقـا

أيـكـونُ غـاصِـبَـنـا ويـزعُـم أنه

أمـسى عـلـيـنـا مُـحـسِـنـاً مـتـصـدِّقـا

أبَـني الـكـنـانـةِ! لـسـتُمُ أبـنـاءهـا

حتّى تَـقُـوا مـصـرَ الـبلاءَ الـمُـطْـبِـقـا

إن تحـفـظـوهـا تحـفـظـوا في نَـسـلِـكُمْ

ذِكْـراً يُـخـلَّـدُ في الـلـيـالي رَونَـقـا

****

٥١ - دعابة [١]

وقال يداعب صديقاً له يعشق التمثيل:

[الكامل]

نُـبِّـئتُ أنك تـعـشقُ الـتَّـمـثـيلا
عـشـقـاً يمـثِّلُ في حَـشـاكَ فُـصـولا

وتـكـاد من فَـرْط الـصَّـبـابـةِ والجَـوَى [٢]
أن تـهـجُـرَ المـشـروبَ والمـأكـولا!

علّلتَ نـفسك بـالـمُـحـال فـأصـبـحتْ
في غـمـرةٍ، وغـدوتَ أنت عـلـيلا

والـنـفسُ تـقـنعُ بـالـقـلـيل فـحَـبَّذا
لـو أنت صـيَّـرتَ الـقـلـيلَ الـسُّـولا [٣]

تـأبَى «المـراسحُ» [٤] أن تُـنـيـلَـكَ وُدَّهـا
إن «المـراسحَ» لا تحبُّ ثـقـيلا!

****

---

(١) هذا العنوان لا يوجد بالأصل.
(٢) الجوى: الحرقة وشدة الوجد.
(٣) السول هو السُّؤل، أي الشيء الذي يريده الإنسان.
(٤) هكذا كانت تُنطق هذه الكلمة، أحياناً، في ذلك العصر!

٥٢ - أيا نيل

[الطويل]

وقـفتُ ضـحىً في شـاطئ الـنـيل وقـفـةً
يـضِنُّ بـهـا إلا عـلـى الـنـيل شـاعـرُهْ

تـهـلّلَ حـتى كـاد يـبـدو ضـمـيـرُهُ
وعـبَّسَ حـتى كـاد يُـشْـكِلُ ظـاهـرُه

فـطـوراً أُجِـيلُ الـطَّـرْفَ في صـفـحَـاتِه
وطـوراً أجِـيلُ الـطـرف فـيـمـا يُـجَـاوره

فــثَمَّ جلالٌ يملأ الــنـفسَ هــيـبَـةً
وثَمَّ جـمــالٌ يملأ الــعـينَ بـاهِـره

وألحظُ شــمسَ الأفْق وهـي مُـطِـلَّـةٌ
تـسـايـرُ فـيه ظـلَّـهـا إذ تُـسَـايـره

فـأحـسَبُـهـا فـيه تُـسـاهِـمُـني الـهوى
وتُـحـسـبُـني فـيـهـا الـغـرامَ أُشَـاطره

إذا هـي ألـقتْ في حـواشـيـه نـورَهَـا
رأى الـتِّـبـرَ يـجـري في حـواشِـيه نـاظِرُه

أطـالتْ به الـتَّـحـديقَ حـتى كـأنـمـا
تحـاولُ مـنـه أن تَـبـينَ سَـرائـره

فـيَـا لـهـمـا إلـفَـيْنِ بـاتـا بـمـعـزِلٍ
يـخـامـرُهـا من حُـبِّه مـا يـخَـامِـره

يـروحُ الـنـسـيمُ الـرطْبُ في جـنَـبـاته
يـداعـبُه طـوراً، وطـوراً يـحَـاوِره

وتَــقــبضُ من مَــبــســوطِه نــفَــحَــاتُهُ

كــمــا قــبضَ الــثــوبَ الـمــطــرَّزَ نــاشــرُه

فــيَــصــدِفُ عــنــه وهــو داجٍ مــقــطّبٌ

كــأن عــدواً بــالــنــســيــمِ يُــحــاذِره

كـــأني به ســِـفْـــرٌ تـــدانتْ ســـطــورُهُ

أوائـــلُه قـــد شُـــكِّـــلتْ وأواخــِــرُه

إذا مـــا جَلا لـــلـــنـــاظـــرينَ رمـــوزَهُ

تجـلّى لـهم مـاضي الـزمـان وحـاضـره

أيـا نـيلُ! نـبـّئْـني أحـاديثَ من مـضَـوْا

لـعلّ شـفـاءَ الـنـفسِ مـا أنت ذاكِـرُه

حِـيـالكَ صبٌّ بـالخـطـوب مــهـدَّدٌ

جـوانـحُه رهنُ الـهـمـومِ وخـاطِـرُه

أطـاع شـجُـونـاً لـو أطـاع فـؤادَه

عـلـيـهـا لـفـاضتْ بـالـنَّـجـيعِ مـحـاجِرُه

يـحُثُّ إليّ الـدهـرُ كلَّ رَزيـئَـةٍ،

عـلى عـجلٍ، حـتى كـأنيَ واتِـرُه

ومـا أنـا بـالـعـبـد الـذي يَـرهبُ الـعَـصـا

ولـكـنـني حُـرٌّ تَـروعُ بـوادره

أيـا نـيلُ! فَـامـنـحْـنِي عـلى الحقّ قـوةً

فـمـا سـوَّدَ الـضِّـرغـامَ إلا أظـافِـرُه

وهـبْـنِيَ بـأسـاً يَـسـكنُ الـدهـرُ عـنـدَهُ

فـقـد طـالمـا جـاشت عـليّ مـنـاخِـره

إذا لم تـكنْ عَـونَ الـشـجيِّ عـلى الأسَى

فـخـاذِلُه فـيـه سـواءٌ ونـاصِـرُه

قِني اليأسَ، وامنعْ شعبَكَ الضعفَ يتّقي
ويُنصفُه من حُسّادِه من يُناكِره[1]

هو الدهرُ من ضِدّين: ذُلٍّ وعِزّةٍ
فمَن ذلَّ شاكيَهُ، ومن عَزَّ شَاكرُه

وللقادر الماضي العزيمةِ حُلْوُهُ
وللعاجزِ الواهي الشكيمةِ حازِرُه[2]

وما الناسُ إلا القادرون على العُلا
وليست صنوفُ الطَّيرِ إلا كواسِرُه

ألم تَرَهُ مُنذُ استُلِينَتْ قناتُه
تمشَّتْ إليه الحادثاتُ تُسَاوره

فأُرهِقَ حتى ما يَبينُ كلامُه
وقُيِّدَ حتى ليس تَسْري خواطِره

ولو ملكوا الأقدارَ، أستغفرُ الذي
له المُلْك يؤتيه الذي هو آثِره

لما تركوا شمسَ النهار يَزورُه
سَناها، ولا زُهرَ النجوم تُسَامِره

يريدون أن يبقى ويذهبَ مجدُه
وكيف بقاءُ الشعب بادتْ مآثره

فـ«غورستُ»[3] في مصرٍ يسدِّدُ سهمَهُ
إليه، وقنّاصُ الوحوشِ يُضَافِره

يَلِجّون في إعْناته، فإذا شكا
يصيحون أن الشعبَ قد ثار ثائره

---

(١) ينكر حقه في الحياة.
(٢) الحزر من اللبن: أشد من الحامض.
(٣) غورست هو المعتمد البريطاني في ذلك العهد.

لقد هَزِئوا لمّا تنبَّه بعضُه
فلِمْ ذُعروا لمّا تنبَّه سائره؟
يقولون: جانٍ لا يحِلُّ فَكاكُه
ولو أنصفوه حُمِّل الإثمَ آسِره
عجبتُ لقومٍ يُنكرون شعورَهُ
وهاتا مجَاليه وتلك مظَاهِرُه
ألم يكُ في يوم القَناةِ ثباتُه
دليلاً على أنْ ليس تُوهَى مرائِره[1]
يعِزّ على المصريِّ أن يحملَ الأسى
وحاضرُه يأبى الهوانَ وغابرُه
لئن تكُ للتاريخ والله زينةٌ
فما زينةُ التاريخ إلا مفَاخِره
رعى اللهُ من أبنائه مَن يَذودُ عن
حِمَاهُ، ومِن أضيافهِ مَن يُظاهره[2]
همُ بعثوا فيه الحياةَ جديدةً
فشُدَّتْ أواخيه[3] وعزّتْ أواصِره
وهمْ أسمعوا الأيام صوتاً كأنما
هو الرعدُ تدوي في السماء زَماجِرُه
وهمْ أطلقوا أقلامَهمْ حين أصبحتْ
مكبَّلةً أقلامُهُ ومَحَابره
كذلك إن يَعدَمْ أخو الظلم ناصراً
فلن يعدمَ المظلومُ حرّاً يناصِرُه

****

(١) المِرّة: القوة وشدة العقل.

(٢) يساندهُ أو يساعده يقصد السوريين الذين وقفوا إلى جانب المصريين في المطالب الوطنية.

(٣) الآخيَة: عروة تُربط إلى وتد وتُشد فيها الدابة.

٥٣ ـ شكاة إلى صديق[١]

[مجزوء الكامل]

وقال وقد أرسلها إلى صديق

يــــا مَن قَـــرُبتَ من الـــــفُـــؤَا
دِ وأنتَ عن عـــيـــني بـــعـــيـــدْ

شَـــــوقـي إلـــــيك أشـــــدُّ من
شـوق الـسَّـلـيم[٢] إلى الـهُـجُـود[٣]

أهـــوَى لـــقـــاءك مـــثـــلَـــمـــا
يـــهـــوَى أخـــو الـــظَّـــمَـــإ الـــوُرود

وتَـــصـــدُّني عـــنك الـــنَّـــوى
وأصـــدُّ عن هـــذا الـــصُّـــدود

وردتْ نَـــمـــيـــقـــتك[٤] الـــتي
جـــمـــعتْ من الـــدُّررِ الـــنَّضِـــيـــد

فـــكـــأنَّ لـــفـــظَك لـــؤلـــؤٌ
وكـــأنمـــا الـــقـــرطـــاسُ جِـــيـــد

أشـــــكـــــو إلـــــيك ولا يُـلا
مُ إذا شـــكـــا الـــعـــاني الـــقـــيـــود

دهـــراً بـــلـــيـــداً مـــا يُـــنِـــيـ
ـلُ ودادَه إلا بَـــــلِـــــيـــــد

ومَـــعَـــاشِـــراً مـــا فـــيـــهمُ

---

(١) هذا العنوان غير موجود بالأصل.
(٢) الملدوغ.
(٣) النوم.
(٤) رسالتك.

إن جـئـتـهمْ، غـيـرُ الـوعـود

مُـتَـفـرنِـجـينَ ومـا الـتَّـفَـرْ

نُجُ عـنـدهمْ غـيـرُ الجُـحـود

لا يـعـرفـونَ من الـشَّـجـا

عـةِ غـيـرَ مـا عَـرف الـقـرود

سـيّـانِ قـالـوا بـالـرضـا

عـني أوالـسُّـخط الـشـديـد

من لـيس يـصـدُق في الـوعـو

د فـلـيس يَـصـدق في الـوعـيـد

نـفـرٌ إذا عُـدّ الـرجـا

لُ عَـددْتَـهم طيّ الـلُّـحـود

تـأبى الـسـمـاحَ طـبـاعُـهم

مـا كلُّ ذي مـالٍ يـجـود

أسـخـاهمُ بـنُـضـارِهِ

أقـسى من الـحـجـر الـصَّـلـود

جَـعْـدُ الـبـنـان بـعِـرضه

يـفـدي الـلُّـجـين من الـوفـود[^1]

ويـخـافُ من أضـيـافِهِ

خـوفَ الـصـغـيـرِ من الـيَـهـود[^2]

تَـعِـسَ امـرؤٌ لا يَـسْـ

ـتَـفـيـدُ من الـرجـال ولا يُـفـيـد

وأرى عـديمَ الـنَّـفـعِ أنّ

وجـودَهُ ضـررُ الـوجـود

[^1]: (١) جعودة البنان: كناية عن خصلة الكرم. والنضار: الذهب. واللجين: الفضة.
[^2]: (٢) الشائعة التي تقول: إن اليهود يقتلون الأطفال ويمزجون دماءهم بالفطير في الفصح.

٥٤ ـ الشعر والشعراء

[الوافر]

بعَيشِكَ هل جُزيتَ عن القوافي
بغيرِ «أَجَدْتَ» أو «لا فُضَّ فُوكا»

جزاؤك من كريمٍ أو بخيلٍ،
رقيقاً كان شِعرُك أو ركيكا

كلامٌ ليس يُغني عنكَ شيئاً
إذا لم يَقتُلِ الآمالَ فيكا

ورُبَّتَما يَمُنّ عليك قومٌ
كأنك قد غدوتَ به مَليكا

إذا أرسلتَ قافيةً شَرُوداً[1]
فقد أيقظتَ في الناس الشُّكُوكا

وقد تُبلَى بأحمقَ يدّعيها
فإن تغضبْ لذلكَ.. يَدّعِيكا

وقال معاتباً : [البسيط]

إن كان ذنبي دفاعي عن حقوقكمُ
فلستُ أدري وربِّي كيف أعتَذِرِ

أُعيذكمْ أن يقولَ الناسُ: قد مُدحوا
فما أثابوا على قولٍ ولا شَكَروا!


ملاحظة:

ختم إيليا أبوماضي ديوانه هذا بهذه العبارة: « تنبيه ـ لا يزال لدينا طائفة من القصائد التي كنا قد أعددناها لهذا الجزء، وموعدنا بها الجزء الثاني، وإنه لقريب ...»

****

---

(١) قافية مشتهرة.







تذكر شركة دير دبوان التجارية

(لصاحبيها)

« حمدان عبد الحميد غنام و حسن محمود ».

اكبر مصادرها في اوروبا ·

وغيرها · فان شركة دير دبوان تستورد كل هذه الاصناف من

اذا كنت تريد الربح· واذا كنت تريد ان تكون بضاعتك هي

البضاعة الرائجة المرغوب فيها · واذا كنت تريد ان تتعامل

مع قوم يحرصون على مصلحتك حرصهم على مصلحتهم

فتعامل مع « شركة دير دبوان »

فهي الشركة التي تستحق ان توليها ثقتك اولا لاستقامة اصحابها

ثانيا لخبرتهم الطويلة في عالم التجارة · ثالثا لما اشتهروا به من

المقدرة في انتقاء السجاد الايطالي والفرنسوي والتابستري

والسكارفات ولاغطية الفرشة والطاولات من كل الانوع والقيامات

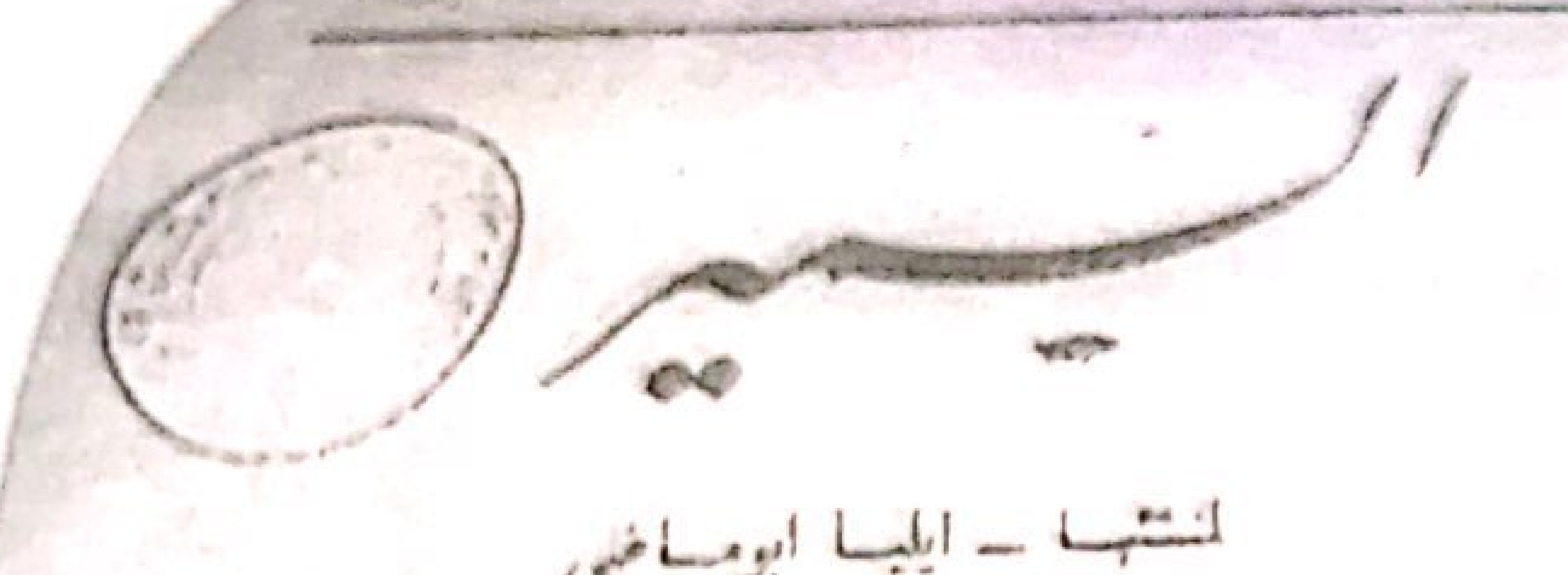
وخصوصاً التي عليها الكتابات العربية والنقوش والصور الشرقية

DARDEBWAN TRADING CO.

10 WEST 33rd ST NEW YORK CITY

(مطبعة السمير التجارية)

ـ اطبع مطبوعاتك في السمير مرة تطبعها كل مرة ـ



لمنشئها ـ ايليا ابو ماضي

(بدل الاشتراك السنوي)

خمسة دولارات في الولايات المتحدة ستة دولارات في سائر البلدان الاجنبية

افندي ـ بيك ـ باشا

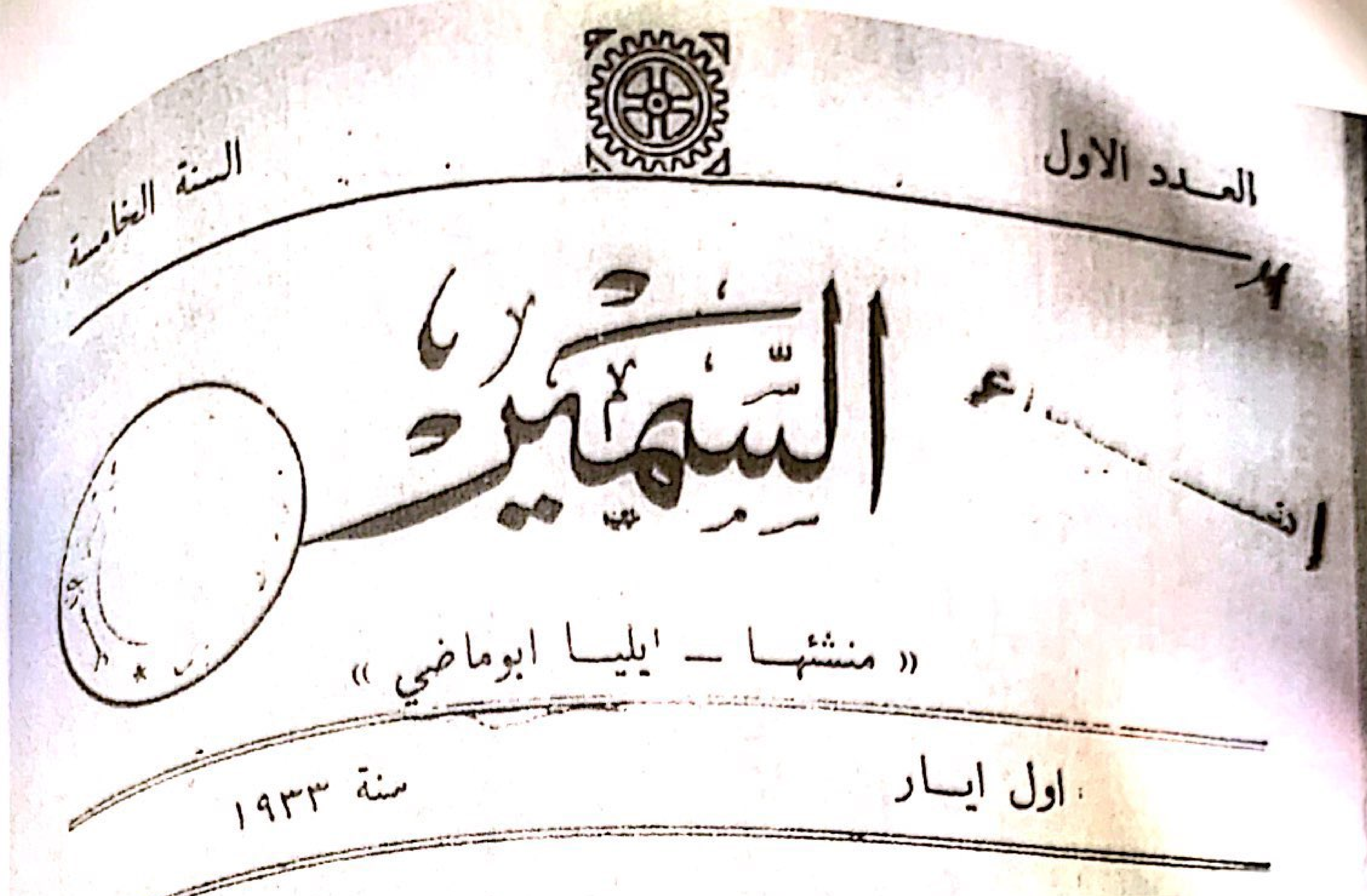
تركيا تلغيها ونحن نستبقيها

من الامور التي تجري عندنا على غير قياس تشبث جمهور كبير من ابناء الاصقاع العربية بالالقاب والنعوت التي جاءتهم من تركيا الارستوقراطية البائدة وهي الحكومة التي ابغضوها حتى حاربوها ، وحاربوها حتى أنلوت اعلامها من سمائهم ·

اليس من الشذوذ في المنطق، والحيف على القومية ان يكره قوم دولة ما وفي الوقت ذاته يتعشقون القابها ويحرصون على ماعندهم منها حرصهم على تذكارات نفيسة من حبيب غال؟

بلى· واغرب ما تقدم ان يلغي الاتراك هذه الالقاب لاستهجانهم اياها وهي القاب في ارضهم نشأت ومنها خرجت · ويصعب علينا نحن ان نفارقها فتبقى عندنا وهي غريبة عنا ودخيلة علينا !

قرأنا منذ عهد قريب ان «حكومة الغازي» في انقرة وجدت ان هذه


العـدد الاول
السنة الخامسة
السمير
« منشئهـا ــ ايليـا ابوماضي »
اول ايـار
سنة ١٩٣٣

فراشة واقحوانة

في يوم من ايام الصيف الذهبية سمعت فراشة تهمس في اذن اقحوانـة:
ــ يامسكينة لو كنت مجنحة مثلي لما امتدت اليك ايدي الصبيان
فاجابتهـا الاقحوانة : يامتكبرة لو كنت مثلي غير مجنحة لما تراكض الصبيان خلفك لامساكك ..

ـــ(())ـــ

وفي ليلة من ليالي الشتاء الكالحة جلست امام الموقـد اصطلي وفتحت كتابـاً اتسلى بالمطالعـة فوجدت في الكتاب عظتين صامتتين ــجناحـا فراشة • واوراق اقحوانـة !

ـــ(())ـــ

وعـادت مواكب الصيف الى الارض مرة اخرى، فخرجت الى الحقل فاذا في الحقل فراشة تقول لاقحوانـة : ليتك مجنحة مثلي • فتقول لها الاقحوانـة : ليتك مثلي غير مجنحة .....!

مجلة علمية — ادبية — روائية — فكاهية

بدل الاشتراك	— الرسائل —
٦ دولارات في مدينة نيويورك	كل الرسائل يجب ان تكون باسم
٥ دولارات في الولايات المتحدة	صاحب السمير ورئيس تحريرها
٦ دولارات في الخارج	ايليا ابو ماضي

اذا ....

اذا كنت تنظر الى السمير بعين الصديق المحب فالصديق هو الذي لايتهاون في قضاء حقوق صديقه .

واذا كنت تنظر اليها بعين الرجل الغيور على الادب . فالغيرة على الادب تعني تعزيزه .

واذا كنت تنظر اليها بعين التاجر فلا ريب انك تعرف كم يقتضي لمجلة كالسمير مرتين في الشهر من النفقات الباهظة .

وعلى كل الاحوال نتوقع ان تسدد حسابك اذا كنت لم تسدد بعد. ولك سلفاً شكرنا الوافر .

السمير

مجلة علمية — ادبية — روائية — فكاهية

بدل الاشتراك	— الرسائل —
٦ دولارات في مدينة نيويورك	كل الرسائل يجب ان تكون باسم
٥ دولارات في الولايات المتحدة	صاحب السمير ورئيس تحريرها
٦ دولارات في الخارج	ايليا ابو ماضي

السنة الثالثة — ١٥ شباط سنة ١٩٣٢ — العدد ٢١

الحرب !...

حديث ذو شجون

لقيت بالامس في طريقي الى الحي السوري رجلا لي به معرفة فما كدت طارحه التحية حتى ابتدرني قائلا — ما رايك ؟ هل تقع الحرب بين الولايات المتحدة واليابان ؟

قلت — يلوح من سير الامور ان الموقف يحرج غير انها لنشب الحرب بين الدولتين واعتقد ان الساسة سيعملون بحكمتهم ودرايتهم للحول دون وقوعها

فبهت محدثي وبدا لي من ملامحه ان جوابي لم يكن عند رضاه ثم قال — ولكن كثيرين من الناس يعتقدون ان الازمة الحاضرة في العالم التي نتاجت عن الحرب الماضية لا يحل عقدتها غير حرب جديدة على حد ما قبل — وداوني بالتي كانت هي الداء !

قلت — وهل انت من اتباع هذا الرأي ؟

قال — بل انا من اشد المؤمنين به فقد كانت تزهق ارواحنا من الكساد



انا مستعدون لخدمة السوريين واللبنانيين الخدمة النصوح ونجرب ان نوفر عليهم كثيرا من مصاريف المآتم • وقد اتفقنا مع السيد داود الحداري والتفاهم بيننا وبينهم فعليكم بمخابرته شخصيا او اطلبوه بالتلفون فيعطيكم اسعارنا التي لا يجارينا بها احد

عندنا اجمل واوسع محلات للمآتم في النقاط والاوساط التي نحن بها واستعدادنا تام لارضاء اي كان ونعطي اسعارا خصوصية للفقراء

ومن احب مخابرة معتمدنا السيد داود الحداري فيكون ذلك الى فرعنا الموجود تحت رقم ٢١٩ اتلانتك افنيو بروكلن ونمرة التلفون — ماين ٤ — ٧٦١١ وماين ٤ — ٧٦١٢

— موسيقى ورقص —

كولونيل لاين — هي الشركة التي يلذ للمرء السفر في بواخرها النظيفة قد خفضت اسعارها مؤخرا فصارت هكذا —

من نيويورك الى بروفيدنس ذهابا او ايابا ثلاثة دولارات ونصف و ٥ دولارات ذهابا وايابا

ومن نيويورك الى بوسطن ٤ دولارات ونصف • وستة دولارات ذهابا وايابا • فاغتنموا هذه الفرصة واكتبوا الينا رأسا او بواسطة مجلة السمير

COLONIAL LINE
Phone: BArclay 7—1800

السنة الخامسة — اول شباط سنة ١٩٣٤ — الجزء ١٩

السمير

(بدل الاشتراك السنوي)

لمنشئه — ايليا ابو ماضي

الديناصور والنملة

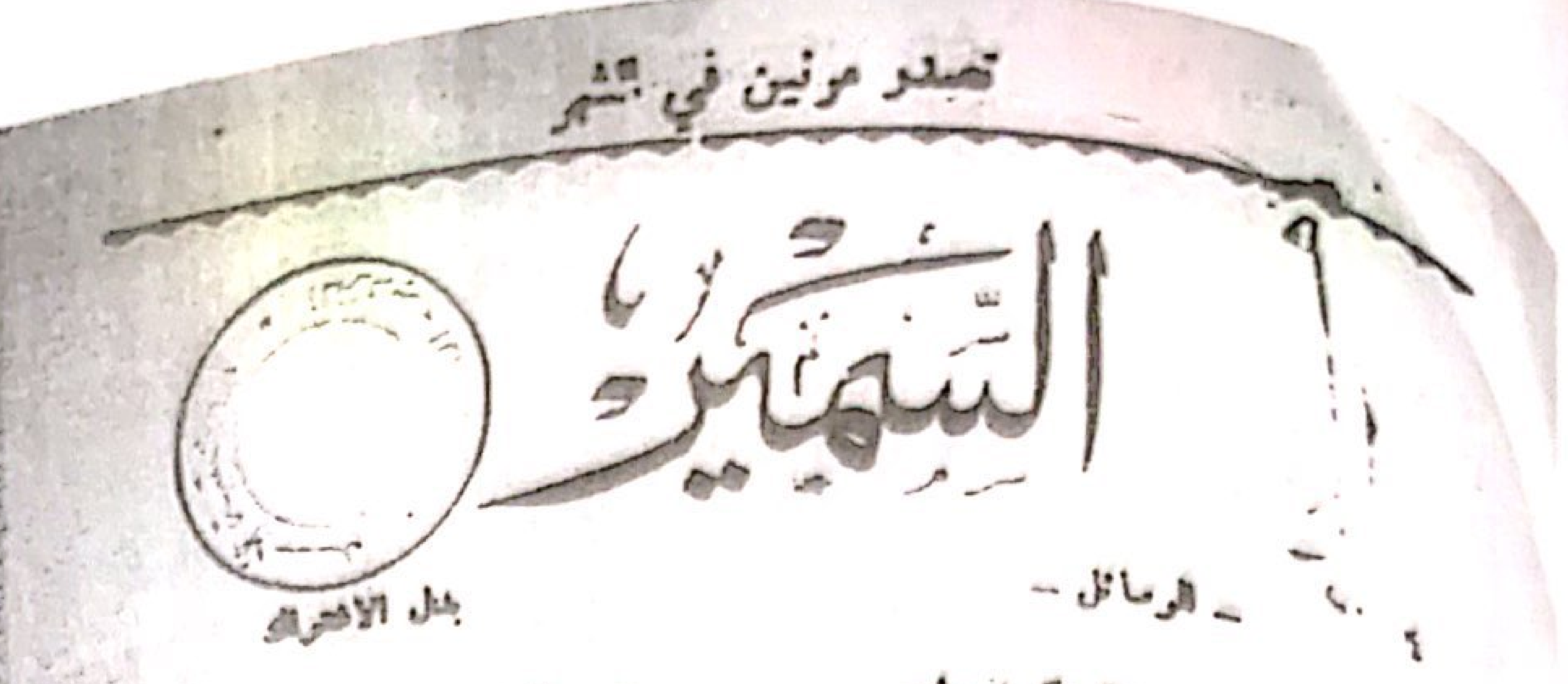
«الديناصور» هو ذلك الحيوان الذي يقول عنه العلماء انه كان موجودا وانقرض • واذا كانوا لا يعرفون متى انقرض فقد اثبتوا دعواهم بالعظام التي وجدوها ثم ركبوها فكان منها ذلك الهيكل الضخم ذو العنق الطويلة، والذنب المديد، والسنام المرتفع الذي يشبه ذروة الجبل، والارجل التي تزيد في المتانة والضخامة على ارجل الفيل، والرأس الذي لاتناسب في الحجم بينه وبين بقية الاعضاء الاخرى • مما نراه في الصور التي تنشرها الصحف والمجلات •

الى هنا وصل العلم في حديثه عن الديناصور ووقف حائرا •

واذا حار العلم انقرض •

لجأ الناس الى الخيال فأسعفهم بقوة من عنده فمضوا يتصورون الزمان الذي عاش فيه الديناصور، وكيف كان يأكل، ويشرب، وينام، ويمشي، ويعامل الوحوش الاخرى • مما قد يصدق بعضه او لا يصدق منه شيء • لان النائم

تصدر مرتين في الشهر



السمير

— الرسائل —

كل الرسائل يجب ان تكون باسم صاحب السمير ورئيس تحريرها ايليا ابو ماضي

بدل الاشتراك

٦ دولارات في مدينة نيويورك
٥ دولارات في الولايات المتحدة
٦ دولارات في الخارج

السنة الثالثة — ١٥ تشرين الاول ١٩٣١ — العدد الثالث عشر

— رجع الصدى —

وقف رجل بابنه مرة عند جبل وقال له ارفع صوتك . فرفع الولد صوته واذا بالصدى يجاوبه . فقال له — ما هذا ؟ قال — الصدى .

فنظر اليه وقال : يا بني لو رفعت صوتك هازئاً ساخراً . لعاد اليك الصدى هازئاً ساخراً . ولو ارسلت صوتك مترنماً لرجع اليك مترنماً .

مثلما تعطي تاخذ . فاعرف اذن كيف تعطي الذي يرضي سواك لكي يعود اليك ما يرضيك . فانت لا سواك الذي يسعد نفسه ويشقيها . واعلم ان لا شيء في هذه الحياة يذهب سدى وان كل ما يفرحك ويغمك . ويريحك ويتعبك هو منك واليك .

واعلم فوق ذلك ان المال وان كثر في يديك معار . وان الشهرة لا تدوم وان الاصحاب يتغيرون ولا يبقى الا انت . فلا تعمل الا حسناً ولا تصنع الا خيراً فانك ملاقٍ غداً كل ما عملت اليوم . وسيعود اليك كما عاد الصدى .

توبـــة جبـــران ؟! ...

ــــ

قرأنا في كثير من الاستغراب والدهش مقالاً في جريدة البشير يدخل الوهم على القارئ الساذج بان جبران خليل جبران كان ضالاً فاهتدى . وكافراً فارتد الى الايمان . وميتاً فتاب . وليس من هذا الذي ذكرته البشير شيء . فجبران الكافر في نظر رجال الدين لم يكن كافراً عند نفسه لكي يتوب ويرتد . وهو في كتاباته الاخيرة مثله في كتاباته الاولى . ذلك الشاعر الرسام المتصوف ذو الايمان الواسع الذي تضمحل لديه الحدود المكانية وتختفي فيه الفوارق المذهبية الموروثة وقد بقي على ايمانه هذا الى آخر لحظة من حياته .

وقد رأينا تنويراً للقارئ ان ننقل من مقال البشير اهم النقاط التي اثارت استغرابنا ويطالع كلمتنا فيها بعد ان ينتهي منها .

كلام البشير

« فنحن ان كنا مع رؤساء الطائفة الاجلاء شكرنا الله على ـ ارتداد ؟ فقيد لبنان الى حظيرة الايمان . واعلانه ـ صراحة او ضمناً . بكتاباته الاخيرة . وما اظهره قبل موته ؟ انه جحد تلك المبادئ والنظريات التي اشرنا اليها .. نرى من واجبنا تنبيه القراء الى ان توبة جبران ؟ ... لا تسوغ مطالعة الكتب التي حارب بها العقائد والشرائع وتحامل فيها على رجال الدين . وان ما حرمت قراءته من مؤلفاته لا يزال محرماً بالشدة التي استقبل بها ..

فليحذر الفتيان . وطلبة المدارس . وكل المطالعين التعرض لمخالفة اوامر الدين ونواهيه . ظناً منهم ان التوبة اصلحت المحفوظ من كتاباته المضللة . وضناً بما جادت به قريحة جبران من الاقوال الصائبة نرى ان يعمد الى تنقية كتاباته من بنود الضلال . وجمع الصالح منها في كتاب يسد الفراغ

على كل محب بمؤلفه لئلا يعثر مع الجوهر الحسن ولا يضيع الفوائد من ثمرات ذلك الفكر الخصب . وعسى ان نجد من يطلق على رغائب الفقيد الاخيرة ورغائب شقيقته الفاضلة التقية » .

كلمتنا

لجريدة البشير التي تنطق بلسان رجال الدين ان تعتبر جبران كافراً او زائغاً او مضللاً فهذا رأي لها لا نجادلها فيه ولا نسخر منها . ولكن العجيب ان نسمع لها عن توبة جبران بجمع بين المضحك والمبكي لانه يجعل من جبران كافراً ومؤمناً في وقت واحد . بل يمسخه فاذا هو عندنا لا من الكافرين ولا من المؤمنين ولما كانت سيرة اديب كبير كجبران يجب ان تكون خالية من شوائب اللبس ... عن لوثات الوهم . سواء عده رجال الدين مؤمناً ام عدوه كافراً . وسواء ... بعض كتاباته ام شجبوها كلها . رأينا نحن الذين عاشرنا جبران زمناً طويلاً نروي ما نعرفه عنه من هذه الناحية حتى اذا ما قام غداً مؤرخ يسرد سيرة حياته استطاع ان يسردها كما هي بلا غشاء وان يأتي بها صريحة لا غموض فيها ولا ...

عاش جبران لا ينتمي الى مذهب من المذاهب الدينية لا في اقواله ولا في اعماله بل كوّن لنفسه عقيدة خاصة مستقلة تختلف في كثير من وجوهها عن العقيدة التي ولد فيها وتربى عليها . وهي مبثوثة في كتبه وقصائده ورسومه . وقد مات دون ان يعدل عنها او يبدل شيئاً منها . وهذا نقوله لفائدة البشير التي راق لها ان ترده الى حظيرة الايمان بعد ان عقل الموت لسانه وحطم صولجانه . فنحن عشراؤه الادنون لم نسمع منه ولم نقرأ له كلمة تدل على انه جحد شيئاً من نظرياته ومبادئه . بل الذي نعرفه انه لم يرجع في حياته الى كنيسة ولا اعترف ... من الاسرار التي تفرضها الكنيسة على ابنائها المؤمنين . وآراؤه في ... تختلف عن آراء البشير كثيراً . وعندما سأله المرسل في السنتين ... عما اذا كان كاثوليكياً اجاب ـ كلا .

ـــــــــــ

اما ما يروى بعد ذلك ...

حديث التوبة مكذوب ومدسوس عليه . فقد غني على مبادئه حتى اطبق الردى اجفانه فاذا كانت التوبة التي اشارت اليها البنين فحدثت بمدوفاته فتلك اعجوبة يصعب تصديقها حتى على البشير !

واخيرا ان جبران لم يعتقد قط انه زائغ بالمعنى المفهوم من رجال الدين لكي يتوب . او كافر ليرتد الى حظيرة الايمان . ولكنه كان يومن بالله على طريقته . فلرجال الدين ان يعتبروها خروجا على الدين او الحادا وانما لا يسوغ لهم ان يقبلوا من جبران بعضه وينبذوا بعضه الاخر فجبران واحد لا اثنان . وبعبارة اخرى لا يفيلهم شيئا ان ياخذوا شهرته كرجل ممتاز ويشجبوا كتاباته ويحظروا مطالعتها فجبران ليس ذلك الرجل الممتاز الا بكتاباته . فاذا شجبوها شجبوه . اما ان يُعمد الى تنقية كتاباته فامر لا ينطبق على رغائب الفقيد الاخيرة ولا سبيل اليه لان هذه الكتابات قد اصبحت ملك الجمهور والتاريخ وليس لاحد مهما احب جبران او ابغضه ان يجيز لنفسه التصرف بشيء ليس له ولا يملك حق التصرف به غير صاحبه وهو الان بين يدي ربه .

ادعياء الادب

ليس احب الى هذه المجلة من تشجيع اي ناشئ تنزع به النفس الى ان يكون كاتبا او مؤلفا او شاعرا . ولكننا لا نقدر ان نخلق من غير الكاتب كاتبا ولا من غير الشاعر شاعرا . ولا ان نجعل من العيي ملسانا فصيحا . فلله وحده هذه الامور .

في بلدة ولنس من ولاية وست فرجينيا شاب لا نسميه ولكننا نقص حكايته لعله اذا قرأها ينتبه من غلوائه ويفيق من سكرة الغرور ثم لعل في سردها رادعا لامثاله ممن يزين لهم ان الشهرة امر ميسور لكل من استطاع ان يبرز اسمه مطبوعا في ذيل مقال مسروق او منتحل وان مجرد نشره اي كلام في جريدة يوصله لان

يحشر نفسه في مصاف الكتاب .

حكاية هذا الفتى المخدوع هي انه قرأ قصة بالانكليزية للكاتب الهندي احمد عبدالله فوسوست له النفس الامارة بالسوء ان يترجمها الى العربية على جهله اللغتين . وظن ان القاموس يمهد امامه الصعاب ويذلل العقبات فاشترى قاموسا انكليزيا عربيا وانكب على ترجمه القصة فجاء التعريب ليس فيه شيء من روح العربية ولا الانكليزيه وجاءت القصة كانها حديث الحجم او طنين بطات لانه لم يتوفر على تعريبها غير مترجم واحد لا دماغ وهو حضرة القاموس ...

وكان بعد ذلك ان القصة وصلت الى ادارة جريدة عربية في نيويورك وفي اولها كلمة يهدي فيها المترجم قصته الى محرر تلك الجريدة . ولكن المحرر لم يكن من الذين يقبلون مثل هذه الرشوة فبعد اعمال الرويه اعاد القصة الى معربها معتذرا بكلمه لطيفة ان المقام لا يتسع لنشرها في الجريدة وكان ذلك من المحرر اشفاقا على احساس الفتى . وليس هذا المحرر باول من انخدع فتوهم ان للادعياء احساسا !.

وكانت النتيجه ان ذلك الفتى المغرور المخدوع قطع الجريدة وطفق يشنع على المحرر بانه غبي لا يقيم للانباء الجميلة وزنا . وحجته ان احمد عبدالله كاتب كبير وان المجلات الاميركية نشرت قصته . ولكنه نسي انه هو الذي ترجمها . وان احمد عبدالله لو عرف بجنايته على قصته لزجه في المارستان !.

وما هي غير فترة قصيرة من الزمن حتى رجعت القصة من ولنس فرجينيا الى نيويورك وحلت ضيفا ثقيلا في ادارة مجلة عربية . فما فتحها المحرر حتى اغلقها ثانية واعادها الى صاحبها معتذرا عن نشرها بانها لا تتفق ومنهاج المجلة .

وتوقع المحرر ان يكون ذلك الفتى لبيبا فيفهم بالاشارة . غير انه لم يفهم ! وهو الان يتحدث الى اصحابه واقربائه الذين يحسبونه نبيا . فيقول لهم ان الناس الذين يحررون الجرائد والمجلات العربية لا يفهمون !.

صدق الفتى . فالجماعة لا يفهمون الا لغات البشر !!..

المحتـــوى

الديوان الأول / الجزء الأول (تذكار الماضي)

****

الديوان الثاني

(ديوان إيليا أبي ماضي - الجزء الثاني)

الطبعة الأولى (مطبعة جريدة «مرآة الغرب اليومية» - نيويورك ١٩١٩) وأعيد طبعه[1] في كتاب عنوانه: (إيليا أبو ماضي، شاعر المهجر الأكبر) دار اليقظة العربية - دمشق ١٩٥٤.

أكبر دواوين أبي ماضي، يزيد ما جُمع فيه على ألفي بيت، موزعة على تسعة وسبعين نصاً شعرياً، ضم نتاج السنين الثماني التي أعقبت صدور ديوانه الأول - وعدّه هو الجزء الأول (١٩١١ - ١٩١٩) - إلى ما امتنع عن نشره فيه، وهو في مصر، لدواع مختلفة. وقدّم له - وقد سماه: الجزء الثاني من ديوانه - جبران خليل جبران، بعد ظهور الرابطة القلمية (١٩١٦) وقبل نشْرِها مجموعتِها المعروفة (١٩٢١) بسنتين.

****

---

(١) باستثناء نصين لم أقع عليهما في مكان آخر: إهداء الديوان إلى تاجر السجاد الشرقي، في نيويورك (نعمة تادرس - ١٣ بيتاً)، وقصيدة معرّبة عن الإنجليزية عنوانها (نشيد التباراري - ٢١ بيتاً). ونصين آخرين، وقعتُ عليهما في الديوان الذي نشرته دار العودة، بيروت ٢٠٠٢.

مقدمة

الشعر عاطفة تتشوق إلى القصيّ غير المعروف فتجعله قريباً معروفاً، وفكرة تناجي الخفي غير المدرك فتحوله إلى شيء ظاهر مفهوم.

أما الشاعر فهو مخلوق غريب ذو عين ثالثة معنوية ترى في الطبيعة ما لا تراه العيون، وأذن باطنية تسمع من همس الأيام والليالي ما لا تعيه الآذان.

ينظر الشاعر إلى وردة ذابلة فيرى فيها مأساة الدهور، ويشاهد طفلاً راكضاً وراء الفراشة، فيرى فيه أسرار الكون، ويسير في الحقل فيسمع أغاني البلابل والشحارير وليس هناك شحارير ولا بلابل، ويمشي في العاصفة فيخوض غمار معركة هوجاء بين جيوش الأرض وفيالق السماء.

يقف الشاعر أمام شلال، فيقول:

فـيه من الـسَّـيف الـصَّـقـيلِ بـريـقُهُ
ولـه ضـجـيجُ الجَـحْـفلِ الجَـرّارِ
أبـداً يـرشُّ صـخـورَه بـدمـوعه
أتُـراهُ يـغـسِـلُـهـا من الأوزارِ

ويرفع عينيه ليلاً نحو السماء، فيصرخ :

أبـكـي وتُـصـغي إلى بـكـائي
يـا ربِّ هل تـعـشقُ الـنـجـومُ؟

ويلتقي بحبيبه فيهمس:

ودِدتُ الإفـاضـةَ قـبلَ الـلـقـاءِ
فـلـمّـا لـقـيـتُك لم أنـبِسِ

وبِتُّ وإيّـــــاك فـي مـــــــعـــــــزِلٍ
كـــــأنـي وإيـــــاك فـي مـــــجـــــلس

يرى الشاعر ويسمع كل هذه الأمور من خلال برقع الحياة، وأنت واقف بجانبه لا ترى غير مظاهرها الخارجية، ولا تسمع سوى أصواتها المشوشة، فتقول في ذاتك: يا له من خياليٍّ مجنون، يتمسك بخيوط العنكبوت ويصعد نحو النجوم على سلم مصنوع من أشعة القمر، ويحاول أن يملأ جَرّته من ندى الصباح، بل من السراب! إي، فالشاعر يصعد إلى الملأ الأعلى ولكن على سلم أقوى وأبقى من الجبال – يصعد بعزم الروح، ويتمسك بحبال غير منظورة، ولكنها أمتن من سلاسل الحديد – يتمسك بحبال الفكر، ويملأ كأسه من عصير أرقُّ من ندى الفجر – يملؤها من خمرة الخيال. والخيال هو الحادي الذي يسير أمام مواكب الحياة نحو الحق والروح.

الشاعر يفعل كل ذلك وأنت على الأرض، لا تستطيع المسير إلا على قدميك، ولا الصعود إلا على سلم من خشب، ولا السُّكْر إلا من عصير العنب، ولا المسرّة إلا بالربح، ولا الألم إلا بالخسارة.

الشاعر طائر غريب يُفلت من الحقول العلوية، ولكنه لا يبلغ الأرض حتى يحنّ إلى وطنه الأول، فيغرّد حتى في سكوته، ويسبح في فضاء لا حدّ له ولا مدى، مع أنه في قفص.

وإيليا أبو ماضي شاعر، وفي ديوانه هذا سلالم بين المنظور وغير المنظور، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها، وكؤوس مملوءة بتلك الخمرة التي إن لم تشفّها تظل ظمآناً حتى تمل الآلهة البشر، فتغمرهم ثانية بالطوفان.

جبران خليل جبران

****

١ - إهداء الديوان(*)

(ثلاثة عشر بيتاً) إلى الثريِّ «نعمة تادرس» تاجر السجاد الشرقي في نيويورك، وقد تمّ طبع الديوان على نفقته.

(٢ / ٦ / ١٩١٩ وهو تاريخ صدور الديوان)

****

(*) لم نعثر عليها.

٢ - الشاعر

[مختلط]

قالتْ وصفْتَ لنا الرحيقَ وكوبَها

وصريعَها ومُديرَها والعاصِرَا

والحقلَ والفلاّحَ فيه سائراً

عند المسا يرعى القطيعَ السائرا

ووقفتَ عند البحر يهدُر موجُه

فرجعتَ بالألفاظِ بحراً هادرا

صوَّرتَ في القرطاس حتى الخاطِرا

فَخَلبتَنا وسحَرْتَ حتى السَّاحرا

وأَريتَنا في كلِّ قَفْرٍ روضةً

وأريتَنا في كلِّ روضٍ طائرا

لكنْ إذا سأل امرؤٌ عنك امرَأً

أبصرتَ محتاراً يخاطبُ حائرا

من أنتَ يا هذا؟ فقلتُ لها: أنا

كالكهرباءِ أُرى خفيَّاً ظاهرا

قالت: لعَمرُكَ زدتَ نفسي ضِلَّةً

ما كان ضرّكَ لو وصفتَ الشاعرا؟

✵✵✵✵✵

فأجبتُها: هو من يسائلُ نفسَهُ

عن نفسه، في صُبحِه ومسَائه

والعين سرّ سُهادِها ورُقادِها

والقلب سرّ قُنوطِهِ ورجائه

فـيَـحـارُ بـين مَـجـيـئه وذَهـابِه

ويـحـارُ بـين أمَـامِه وورائه

ويـرى أفُـولَ الـنـجمِ قـبلَ أفـولِه

ويـرى فَـنـاءَ الـشيءِ قـبلَ فَـنَـائه

ويـسـيـرُ في الـروض الأغنِّ فلا تَـرى

عـيـنـاهُ غـيـرَ الـشُّـوكِ في أرجـائه

إنْ نـام لم تـرقُـدْ هـواجسُ روحِه

وإذا اسـتـفـاقَ رأيـتَه كـالـتَّـائه

مـا إنْ يُـبـالي ضِـحْـكَـنـا وبُـكـاءَنـا

ويُـخِـيـفُـنـا في ضِـحْـكِه وبـكـائه

كـالـنـار يـلـتـهمُ الـعـواطفَ عـقـلُه

فـيُـمـيـتُـهـا ويمـوتُ في صـحـرائه!

☆☆☆☆☆

قـالتْ: أتـعـرفُ مَن وصَـفْتَ؟ فـقـلتُ: مَن؟

قـالت: وصـفتَ الـفـيـلسـوفَ الـكـافـرا

يـا شـاعـرَ الـدنـيـا وفـيك حَـصَـافـةٌ

مـا كـان ضـرّكَ لـو وصـفتَ الـشـاعـرا؟

☆☆☆☆☆

فـقـلتُ: هـو امـرؤ يـهـوَى الـعُـقَـارا[1]

كـمـا يـهـوَى مُـغـازلَـةَ الـعَـذارى

إذا فـرَغـتْ من الـرّاحِ الـدِّنـانُ

تـوَّهـمَ أنّ مـا فـرَغَ الـزمـانُ

يُـعَـاقِـرُهـا عـلى ضـوءِ الـدّراري[2]

فـإنْ غَـرَبتْ، عـلى ضـوءِ الـنـهـار

---

(١) العُقار: الخمر. والعُقّار (بالتشديد) أصل الدواء، والعقَار (بالفتح والتخفيف): الأرض والضياع والنخل.

ويحسبُ مهرجانَ الناسِ مأتمْ
بلا خمرٍ، وجنَّتهُمْ جهنّمْ
مَلولٌ لا يدومُ على ولاءِ
ولكنْ لا يدومُ على عِداءِ
أخو لُبٍّ ولكن لا إرادهْ
وذو زهدٍ ولكن بالزَّهادهْ
يميل إلى الدُّعابةِ والمُزاحِ
ولو بين الأسنَّةِ والصِّفاحِ
ويوشكُ أنْ يُقَهقِهَ في الجنازهْ
ويَرقُصَ كالعواصف في المَفَازهْ
إذا بَصُرتْ به عينُ الأديبِ
فقد وقعتْ على رجلٍ مُريبِ
يُعنِّفهُ الصِّحابُ فلا يُنيبُ
ويَزْجُرُه المشيبُ فلا يَتوبُ
فقالت: جئتَ بالكلمِ البديعِ
ولكن ما وصفتَ سِوى «الخليعِ»!

✲✲✲✲✲

وخِفْتُ إعراضَها عني فقلتُ: إذن
هو الذي أبداً يبكي من الزمنِ
كأنّما ليس في الدنيا سِواه فتًى
معرَّضٌ لخطوبِ الدهرِ والمحنِ
يشكو السَّقام وما في جسمه مرضٌ
والسُّهدَ وهْو قريبُ العهد بالوسَنِ
والهجرَ، وهو بمرأىً من أحبّته
والأَسْرَ، وهو طليقُ الروح والبَدنِ

ولا يـرى حَـسَـنـاً في الأرض يـألَـفُهُ

أو يـشـتـهـيه، وكم في الأرض من حَسَنِ!

يـنـوحُ في الـرَّوضِ والأشـجـارُ مـورقـةٌ

كـمـا يـنـوحُ عـلى الأطلال والـدِّمَنِ

فـقـاطـعَـتْـنِي وقـالتْ: قـد بَـعُـدْتَ بـنـا

ما ذي الـصـفاتُ صـفاتُ الـشـاعرِ الـفَطِنِ

✲✲✲✲✲

قـلتُ: مـهلاً إذا ضَـلـلـتُ وعـذراً

ربمـا أخـطـأ الحـكـيمُ وضَلاَّ

هـو مَن تَـرْسُمُ الجـمـالَ يـداهُ

فـنـراه في الـطِّـرْسِ أشـهَى وأحـلَى

لـوْذَعِيٌّ[1] الـفـؤادِ يـلـعب بـالألْـ

ـبَـاب لِـعْـبـاً إن شـاء أن يـتـسلَّى

ويُـريـنـا مـا لـيس يـبـقَى سـيـبـقَى

ويُـريـنـا مـا لـيس يَـبْـلَى سـيَـبلى

يـطـبَعُ الـشُّـهبَ لـلأنـامِ نـقـوداً

وهـو يـشـكـو الإملاقَ كـيف تـولَّى

أفـهـذا مَن تـبـتـغـينَ وأبـغِي

وصْـفَهُ؟ قـالت المـلـيـحَـةُ: كلاَّ!..

✲✲✲✲✲

يـا هـذه إني عَـيِـيتُ بـوصْـفِهِ

وعـجَـزتُ عن إدراكِ مـكـنـونـاتِهِ

لا تـسـتـطـيع الخـمـرُ سَـرْدَ صـفـاته

والـروضُ وصْفَ زهـورِهِ ونَـبـاتِهِ

---

(١) اللوذعيّ: الحديدُ الفؤادِ واللسان، الظريفُ السريُع الإدراك (من اللذْع: حدّة النار).

هــو من نــراهُ ســائــراً فــوق الــثَّــرَى
وكـــأنّ فـــوق فـــؤاده خـــطـــواتِهِ
إنْ نـــاح فـــالأرواحُ في عَـــبَـــرَاته
وإذا شَـــدا فـــالحبّ في نـــغَـــمـــاتهِ
يـــبـــكي مع الـــنـــائي عـــلى أوطـــانه
ويـــشـــاركُ المحـــزونَ في عَـــبـــرَاته
وتُـــغـــيِّـــرُ الأيـــامُ قـــلبَ فـــتـــاته
ويـــظلّ ذا كَـــلَف بـــقـــلب فـــتَـــاتهِ
هـــو من يـــعـــيشُ لـــغـــيـــرهِ ويـــظـــنُّهُ
مَن لـــيس يـــفـــهـــمُهُ، يـــعـــيشُ لـــذاتهِ!!!

****

٣ - فلسفة الحياة

[الخفيف]

أيــــهــــذا الــــشَّـــاكي ومـــا بك داءٌ
كــيف تــغــدو إذا غــدوتَ عَــلــيلا؟
إنَّ شــرَّ الجُــنــاةِ في الأرض نــفسٌ
تــتــوقّى، قــبلَ الــرحــيلِ، الــرَّحــيلا
وتــرى الــشَّــوكَ في الــورود، وتَــعــمَى
أن تــرى فــوقَــهــا الــنَّــدى إكــلــيلا
هـــو عبءٌ عــلى الحــيــاةِ ثــقــيلٌ
مَن يــظنّ الحــيــاةَ عِــبْــئــاً ثــقــيلا
والــذي نــفــسُهُ بــغــيــرِ جــمــالٍ
لا يــرى في الــوجــود شــيــئــاً جــمــيلا
لــيس أشــقَى مِــمّن يــرى الــعــيشَ مُــرّاً
ويــظنُّ الــلَّــذاتِ فــيه فُــضُــولا
أحْــكَمُ الــنــاس في الحــيــاةِ أنــاسٌ
علَّــلوهــا فــأحــسَــنوا الــتَّــعــلــيلا
فــتــمــتعْ بــالــصُّــبحِ مــا دُمتَ فــيه
لا تــخفْ أن يــزولَ حــتى يــزولا
وإذا مـــــا أظـلَّ رأسَــك هــمٌّ
قــصِّــرِ الــبحثَ فــيه كَــيلا يــطــولا
أدركتْ كُــنْــهَــهَــا طــيــورُ الــرّوابي
فَــمِنَ الــعــارِ أن تــظلّ جَــهُــولا

مـا تـراهـا، والحـقلُ مِـلْكُ سِـواهـا
تـخِـذتْ فـيه مـسـرَحـاً ومَـقِـيلا
تَـتـغـنَّى، والـصـقـرُ قـد مَـلَكَ الجـوَّ
عـلـيـهـا، والـصـائـدونَ الـسَّـبـيلا
تـتـغـنَّى، وقـد رأتْ بـعـضَـهـا يُـؤْ
خَـذُ حـيّـاً والـبـعضَ يَـقـضي قـتـيلا
تـتـغـنَّى، وعـمـرُهَـا بـعضُ عـامٍ
أفَـتـبـكِي وقـد تـعـيشُ طـويلا؟
فـهْيَ فـوقَ الـغـصـون في الـفـجـرِ تـتـلـو
سُـوَرَ الـوجْـدِ والـهـوَى تـرتـيلا
وهْـيَ طـوراً عـلـى الـثَّـرى واقـعـاتٌ
تـلـقُـطُ الحبَّ أو تجـرُّ الـذيـولا
كـلَّـمـا أمـسكَ الـغـصـونَ سـكـونٌ
صـفَّـقَتْ لـلـغـصُـونِ حـتى تَـمـيلا
فـإذا ذهَّبَ الأصـيـلُ الـرّوابي
وقـفتْ فـوقـهـا تُـنـاجي الأصـيلا
فـاطـلُبِ الـلَّـهـوَ مـثـلـمـا تـطـلبُ الأطْـ
ـيَـارُ عـنـد الـهَـجـيـرِ ظلاًّ ظَـلِـيلا
وتـعـلَّمْ حبَّ الـطَّـبـيـعـةِ مـنـهـا
واتـركِ الـقـالَ لـلـورى والـقِـيلا
فـالـذي يـتّـقي الـعـواذلَ يـلـقى
كلَّ حـينٍ، في كلِّ شـخـصٍ، عَـذُولا

✲✲✲✲✲

أنـتَ لـلأرضِ أولاً وأخـيـراً
كـنتَ مَـلْـكـاً أو كـنتَ عـبـداً ذلـيلا

لا خــلــودٌ تحت الــسَّــمــاء لحيٍّ
فــلــمــاذا تُــراودُ المــسْــتَــحِــيلا؟..
كلُّ نجـمٍ إلـى الأفُــــول ولــــكنْ
آفــةُ الــنــجم أن يَــخــافَ الأفُــولا
غــايــةُ الــوَرْدِ في الــريــاضِ ذُبــولٌ
كنْ حــكــيــمــاً واسـبِقْ إلـيه الــذُّبـولا
وإذا مـــــا وجَـــــدتَ فـي الأرض ظلاًّ
فــتــفــيّــأْ به إلى أن يَــحُــولا
وتــوقّعْ، إذا الــســمــاءُ اكــفــهــرّتْ
مـطَـراً في الـسُّـهولِ يُـحيي الـسُّهُولا
قلْ لــقــومٍ يــســتــنــزفــونَ المــآقي
هل شَــفــيْــتُمْ مع الــبــكــاء غَــلِــيلا؟
مــا أتــيــنــا إلى الحــيــاة لــنَــشــقَى
فــأريــحــوا، أهلَ الــعــقــولِ، الــعُــقُــولا
كلُّ مَن يَــجــمعُ الــهــمــومَ عــلــيه
أخَــذَتْهُ الــهــمــومُ أخــذاً وَبِــيــلا

✡✡✡✡✡

كنْ هَــزَاراً فـي عُــشّه يــتــغــنَّى
ومعَ الــكَــبْلِ لا يــبــالـي الــكُــبُــولا
لا غُــرابــاً يــطــاردُ الــدُّودَ في الأرْ
ضِ، وبــومــاً في الــليل يــبكي الـطُّـلولا

✡✡✡✡✡

كنْ غـديـراً يــســيـر فـي الأرض رَقْــرا
قــاً فــيــســقي مِن جــانــبــيه الحُــقــولا
تــســتــحمُّ الــنــجــومُ فــيه ويَــلــقَى
كــلَّ شــخــصٍ وكلَّ شيء مَــثــيــلا

لا وعـــاءً يـــقـــيِّـــدُ المـــاءَ حـــتى

تـــســـتـــحـــيلَ المـــيـــاهُ فـــيه وحُـــولا

✲✲✲✲✲

كنْ مع الـــفـــجـــر نَـــســـمَـــةً تُـــوسِعُ الأزْ

هـــارَ شـــمَّـــاً، وتـــارةً تَـــقْـــبـــيلا

لا سَـــمُـــومـــاً من الـــسَّـــوافي(١) الـــلـــواتي

تـــمـــلأُ الأرضَ في الـــظـــلام عَـــويلا

ومعَ الـــلـــيلِ كـــوكـــبـــاً يـــونِسُ الـــغَـــا

بـــاتِ والـــنَّـــهـــرَ والـــرُّبـــا والـــسُّـــهـــولا

لا دجًى يـــكـــرهُ الـــعـــوالمَ والـــنّـــا

سَ فـــيُـــلـــقي عـــلى الجـــمـــيع سُـــدُولا

✲✲✲✲✲

أيـــهـــذا الـــشَّـــاكي ومـــا بكَ داءٌ

كنْ جـــمـــيلاً تـــرَ الـــوجـــودَ جـــمـــيلا

✱✱✱✱

(١) السافية: الريح التي تسفي التراب (تذروه).

٤ - أم القرى

[الكامل]

أبصرتُها، والشمسُ عند شُروقِها

فرأيتُها مغمورةً بالنّار

ورأيتُها عند الغروب غَريقةً

في لُجَّةٍ من سُنْدُسٍ ونُضَارِ[١]

ورأيتُها تحت الدُّجى، فرأيتُها

في بُردَتَيْنِ: سَكينةٍ ووقارِ

فتنبَّهتْ في النفس أحلامُ الصِّبا

وغرقتُ في بحرٍ من التَّذْكار

✡✡✡✡✡

نفسي لها من جَنّةٍ خَلاّبةٍ

نسجتْ غلائلَها يدُ الأمطار

أنّى مشيتُ نشَقْتُ مِسْكاً أذفَراً[٢]

في أرضها وسمعتُ صوت هَزار[٣]

✡✡✡✡✡

ذاتَ الجبالِ الشّامخَاتِ إلى العُلا

يا ليتَ في أعلى جبالِكِ داري

لأرى الغزالةَ قبل سُكّان الحمى

وأُعانقَ النَّسَمَاتِ في الأسْحار

---

(١) السُندس: رقيق الديباج ورفيعه. والنضار: الذهب الخالص.

(٢) الذفَر: شدة ذكاء الريح من الطيب.

(٣) الهزار: طائر العندليب.

لأرى رُعَاتَكِ في المُروج وفي الرُّبا
والشَّاءَ سارحةً مع الأبقار
لأرى الطيورَ الواقعاتِ على الثَّرى
والنحلَ حائمةً على الأزهار
لأساجلَ الورْقَاءَ في تَغريدها[1]
وتهزَّ روحي نفحةُ المزمار
لأسامرَ الأقمارَ في أفلاكها
تحت الظلام إذا غَفا سُمّاري
لأراقبَ «الدلّوار» في جَرَيانه[2]
وأرى خيالَ البَدْرِ في «الدلّوار»

✡✡✡✡✡

بئس المدينةُ إنها سِجن النُّهى
وذوي النُّهى، وجهنَّمُ الأحرار
لا يملِكُ الإنسانُ فيها نفسَه
حتى يروِّعَهُ ضَجيجُ قِطار
وجَدتْ بها نفسي المفاسدَ والأذى
في كلِّ زاويةٍ وكلِّ جِدار
لا يخدعنَّ الناظرينَ بُروجُها
تلك البروجُ مخابئٌ للعَار
لو أنّ حاسدَ أهلها لاقى الذي
لاقَيتُ لم يَحسُدْ سِوى «بشّارِ»[3]
غفرانَكَ اللهمَّ ما أنا كافرٌ
فَلِما تُعذّبُ مُهجتي بالنار؟

✡✡✡✡✡

(١) الورقاء: الحمامة.
(٢) الدلوار: نهر جارٍ في المنطقة.

لــلـهِ مــا أشـــهى الــقُــرى وأحــبَّــهــا
لِـفَـتًى بـعــيـدِ مــطـارحَ الأفــكــار
إن شــئتَ تَــعْـرَى من قــيـودِكَ كـلِّــهـا
فــانـظــرْ إلى صــدْرِ الــسـمـاء الـعـاري
وامشِ عـلـى ضـوءِ الـصَّـبـاح، فـإنْ خَـبَـا
فــامشِ عــلـى ضــوءِ الــهلال الــسَّــاري
عِشْ في الخَلاء تـعِش خَـلـيًّـاً هــانـئـاً
كـالـطَّـيـر.. حُـرّاً، كـالـغـديـر الجـاري
عِشْ في الخَلاء كـمـا تَـعـيشُ طـيـورُه
الحُــرُّ يــأبى الــعــيشَ تحت سِــتــار!

✡✡✡✡✡

شلاّلُ «مــلــفــرد» لا يَــقــرُّ قَــرارُه[1]
وأنــا لــشــوقي لا يَــقِــرُّ قــراري
فــيه من الــسَّـيف الـصَّـقـيلِ بَـريـقُه
ولـه ضــجــيجُ الجــحــفلِ الجَــرّار
أبـــداً يَــرُشّ صــخــورَه بــدمــوعه
أتُــراه يــغــســلُــهـــا من الأوزار؟
فــإذا تــطــايــر مــاؤهُ مــتــنــاثـراً
أبـصـرتَ حـول الـسَّـفح شِـبْهَ غُـبـار
كــالــبحــر ذي الـتـيـار يَـدفع بـعـضَـه
ويـصـولُ كـالـضِّـرغـام ذي الأظـفـار
من قِــمّــةٍ كــالــنَّــهـدِ، أيُّ فــتًى رأى
نــهــداً يــفــيض بــعــارضٍ مــدرار؟

(١) هي التي يُسميها (أم القرى) في أمريكة.

فكأنما هي منْبَرٌ وكأنه
«ميرابُ» بين عصَائبِ الثوّار[1]
مَن لم يُشاهد ساعةً وَثَباته
لم يدْرِ كيف تَغطْرُس الجَبَّار
ما زلتُ أحسَب كل صمْتٍ حكْمةً
حتى بَصُرتُ بذلك الثَّرثار
أعددتُ، قبل أراه، وقفَة عابرٍ
لاهٍ فكانت وِقفَةَ استِعْبار!..

✡✡✡✡✡

يا أختَ دارِ الخُلْد، يا أمَّ القرى،
يا ربةَ الغاباتِ والأنهار
لله يومٌ فيكِ قد قضّيتُه
معْ عُصْبةٍ من خِيرة الأنْصار
نمشي على تلك الهِضاب ودونَنا
بحرٌ من الأغراس والأشجار
تَنساب فيه العَيْن بين جداولٍ
وخمائلٍ ومسالكٍ وديار
أنا على جبلٍ مَكينٍ راسخٍ
راسٍ، وأنا فوقَ جُرْفٍ هارِ[2]
تهوِي الحِجارةُ تحتَنا من حالقٍ
ونكاد أن نهوِي معَ الأحجار
لو كنتَ شاهدَنا نُهرولُ من علٍ
لضحكتَ منا ضِحْكَةَ استهتَار

---

(١) ميرابو: خطيب الثورة الفرنسية (١٧٨٩).

الـريحُ سـاكـنـةٌ ونـحن نـظـنُّـنـا
لـلـخـوف مـنـدَفـعـين معْ إعـصـار
والأرضُ ثـابـتـةٌ ونـحن نَـخـالُـهـا
تـهـتـزّ معْ دفْعِ الـنَّـسـيمِ الـسّـاري
مـا زال يـسـنُـد بـعـضُـنـا بـعـضـاً كـمـا
يـتـمـاسكُ الـرّوادُ في الأسْـفـار
ويـشـدُّ هـذا ذاكَ من أزراره
فـيـشـدُّني ذيّـاكَ من أزْراري
حـتـى رجَـعـنـا سـالِـمين ولـم نـعُـدْ
لـو لـم يَـمُـدَّ الـلـه في الأعـمـار
ولـقـد وقـفتُ حـيـال نـهـرِكِ بُـكـرةً
والـطَّـيـرُ في الـوُكُـنـاتِ والأوْكـار[1]
مُـتـهـيـبـاً فـكـأنـني في هـيـكلٍ
وكـأنّه سِـفْـرٌ من الأسْـفَـار
مـا كـنتُ من يـهـوَى الـسـكـوتَ وإنمـا
عَـقَـلَتْ لـسـاني رهـبـةُ الأَدْهـار
مـرّ الـنـسـيمُ به فـمـرّت مُـقْـلـتي
مـنه بـأسـطـارٍ عـلـى أسْـطـار
فـالـقـلْبُ مُـشـتـغِلٌ بـتَـذْكـاراتِهِ
والـطَّـرفُ مـنـدفـعٌ مع الـتَّـيّـار
حـتـى تجـلّتْ فـوق هـاتـيكَ الـرُّبـا
شـمسُ الـصـبـاح تـلـوحُ كـالـديـنـار
فـعـلـى جـوانـبِهِ وشـاحُ زَبَـرْجَـدٍ[2]
وعـلـى غـواربِهِ وشـاحُ بَـهـار[3]

---

(١) الوَكن: عش الطائر في جبل أو جدار، وجمعه "وُكُن وأوكُن".
(٢) الزبرجد: الزمرّد.

لـو أبـصـرتْ عـيـنـاكَ فـيه خـيـالَـهـا

لـــرأيتَ مــــرآةً بـــغَــيـــرِ إطـــار

يَـــمَّــمْــتُه سَــحَـــراً وأســـراري مـــعي

ورجـــعتُ فـي أعـــمــاقه أســـراري!...

☆☆☆☆☆

إني حـسـدْتُ عـلـى الـقُـرى أهلَ الـقُـرى

وغـــبــطتُ حـــتى نـــافخَ المِـــزْمـــار

لـــيلٌ وصُـــبْحٌ بـــين إخـــوانِ الــصَّـفَـا

مـــا كـــان أجـــملَ لـــيـلـــتي ونـــهـــاري!

****

٥ - أنا وأخت المهاة والقمر

[المنسرح]

آهٍ مِن الحبّ، كلُّه عِبَرُ
عندي مِنه الدموعُ والسَّهرُ
وويحَ صرعَى الغَرامِ إنهمُ
مَوْتى، وما كُفِّنوا ولا قُبروا

☆☆☆☆☆

يَمْشونَ في الأرض ليس يأخُذُهمْ
زَهْوٌ ولا في خُدودِهم صَعَرُ(١)
لو ولَجَ الناسُ في سرائرهمْ
هانتْ، وربي، عليهمُ سَقَرُ

☆☆☆☆☆

ما خَفَروا ذمّةً، ولا نَكثُوا
عهداً، ولا مالَؤوا ولا غَدروا
قد حملوا الهُونَ غيرَ ما سأمٍ
لولا الهوى للهوان ما صَبروا

☆☆☆☆☆

لم يُبقِ مني الضّنَى سِوى شبحٍ
يكاد، لولا الرجاءُ، يندثرُ
أمسى وِسَادي مشابهاً كَبِدي
كلاهُما النارُ فيه تَستَعِرُ

☆☆☆☆☆

(١) إمالة الخدّ من الكِبْر.

أَ كُلُّ صَبٍّ، يـــا لـــيلُ، مَـــضـــجَـــعُهُ

مِـــثـــلـيَ فـــيه الـــقَـــتَـــادُ والإبَـــر

لـــعلّ طَـــيـــفَـــاً من هـــنـــدَ يَـــطـــرُقُـــنِي

فـــعـــنـــدَ هـــنـــدٍ عن شِـــقْـــوتي خـــبـــر

✡✡✡✡✡

مـــا بـــالُ هـــنـــدٍ عـــلـيَّ غـــاضـــبـــةً

مـــا شـــابَ فَـــودي ولـــيس بي كِـــبَـــرُ

مـــا زلتُ غَضَّ الـــشـــبـــاب لا وَهَنٌ

يـــا هـــنـــدُ في عَـــزْمـــتي ولا خَـــوَر

✡✡✡✡✡

لا دَرَّ دَرُّ الـــوُشـــاةِ قـــد حَـــلـــفُـــوا

أن يُـــفـــســـدوا بـــيـــنـــنـــا وقـــد قَـــدِروا

واهـــاً لأيـــامِـــنـــا.. أراجـــعـــةٌ؟

فـــإنـــهنّ الحُـــجـــولُ والـــغُـــرَر[١]

✡✡✡✡✡

أيـــامَ لا الـــدَّهـــرُ قـــابضٌ يـــدَه

عـــنـي، ولا هـــنـــدُ قـــلـــبُـــهـــا حَـــجَـــرُ

✡✡✡✡✡

لم أنسَ لـــيـــلاً سَـــهْـــرَتُهُ مـــعَـــهـــا

تحـــنـــو عـــلـــيـــنـــا الأفـــنـــانُ والـــشَّـــجـــرُ

غـــفـــرتُ ذنبَ الـــنَّـــوى بـــزَوْرتِـــهَـــا

ذنْبُ الـــنَّـــوى بـــالـــلـــقـــاء يُـــغـــتَـــفـــر

✡✡✡✡✡

---

(١) الحجْل: الخلخال. والغرّة: البياض والشرف. كناية عن جمال الأيام وامتيازها.

بِـتْـنـا عن الـراصِـدينَ يَـكـتُـمُـنـا

الأسْـوَدانِ: الـظلامُ والـشَّـعَـرُ

ثلاثـةٌ لـلـسـرور مـا رقَـدُوا

أنـا وأختُ المـهـاةِ[1] والـقَـمَـر

☆☆☆☆☆

فـمـا لـهـذي الـنـجـومِ سـاهـيـةٌ

تـرنـو إلـيـنـا كـأنـهـا نُـذُرٌ؟...

إنْ كـان صُـبحُ الجـبـين روَّعَـهـا

فـإنَّ لـيلَ الـشُّـعـورِ مُـعْـتَـكـر

☆☆☆☆☆

أو انـتـظـامُ الـعُـقُـود أغـضَـبَـهـا

فـإنَّ دُرَّ الـكلام مُـنـتـثِـر

ومَـا لـتـلـك الـغـصـونِ مُـطـرقَـةٌ

كـأنـهـا لـلـسلام تُـخْـتَـصَـر

☆☆☆☆☆

تـبـكي كـأنَّ الـزمـان أرهـقَـهـا

عُـسْـراً، ولـكنْ دمـوعُـهـا الـثـمَـر

طَـوراً عـلـى الأرض تـنـثـني مَـرَحـاً

وتـارةً في الـفـضـاء تَـشـتَـجِـر

☆☆☆☆☆

وجـفَـلَتْ هـنـدُ عـنـد رؤيـتـهـا

وقـد تَـرُوعُ الجَـآذرَ الـصُّـورُ

هـيـفـاءُ لـو لم تَـلِنْ مَـعـاطـفُـهـا[2]

عـنـد الـتَّـثَـني خَـشِـيتُ تَـنـكَـسر

☆☆☆☆☆

---

(١) البقرة الوحشية، كناية عنها لجمال عينيها.

(٢) العِطف: الجانب، من الرأس إلى الورِك. لأن الانعطاف يكون عنده (المِعطَف).

مِن اللواتي – ولا شَبيهَ لها –

يَزينُهنَّ الدَّلالُ والخَفَرُ

في كلّ عضوٍ وكلِّ جارحةٍ

معنىً جديدٌ للحُسْن مبتكَرُ

✡✡✡✡✡

تبيتُ زُهرُ النُّجوم طامعةً

لو أنها فوق نَحْرها دُرَر

رخيمةُ الصَّوت إن شَدَتْ لَفتَتْ

لها الدَّراريْ وأنصتَ السَّحَر

✡✡✡✡✡

أبثُّها الوجدَ وهْيَ لاهيةٌ

أذهلَها الحبُّ فهْي تَفْتكرُ

يا هندُ كم ذا الأنامُ تَعذِلُنا

وما أثِمْنا ولا بِنا وَزَر[1]

✡✡✡✡✡

فابتدرتْ هندُ وهي ضاحكةٌ :

ماذا علينا وإن هُمُ كثُروا

فدتك نفسي لو أنهم عَقَلوا

واستشعروا الحبَّ مثلَنا عَذروا

✡✡✡✡✡

ما جحد الحبَّ غيرُ جاهلهِ

أيجحدُ الشمسَ من له بصرُ؟

ذرْهمْ وإن أجلَبوا وإن صَخِبوا

ولا تلُمْهُمْ فما همُ بشرُ!

✡✡✡✡✡

---

(١) أراد (الوِزر) بمعنى: الإثم. أما (الوَزَر) فهو الملجأ.

سِرنا الهُوينا وما بنا تَعَبٌ
وقد سكتْنا وما بنا حَصَر[1]
لكنَّ فرْطَ الهُيام أسْكَرنا
وقَبْلَنا العاشقونَ كم سَكِروا!

✲✲✲✲✲

فقلْ لمن يُكْثِرُ الظنونَ بنا
(ما كان إلا الحديثُ والنظَر)
حتى رأيتُ النجومَ آفلةً
وكاد قلبُ الظلام يَنفَطِر

✲✲✲✲✲

ودَّعتُها والفؤادُ مضْطَربٌ
أُكفْكِفُ الدمعَ وهو ينهَمِرُ
وودعتْني ومِن محَاجِرِها
فوق العقيقِ الجُمانُ يَنحدر[2]

✲✲✲✲✲

قد أضحكَ الدهرَ ما بَكَيْتُ له
كأنما البَيْنُ عنده وَطَرُ
كانت ليالِيَّ ما بها كَدرٌ
والآن أمستْ وكلُّها كَدَر

✲✲✲✲✲

إن نفِدَ الدَّمعُ مِن تذكُّرِهَا
فجَادَها بعد أدمعي المَطَرُ
عسى الليالي تَدري جِنايتَها
على قتيلِ الهوى فتَعتذِر

****

(١) الحَصَر: العِيّ (حصِر – يحصَر).

(٢) الجمان: اللؤلؤ (يريد: الدمع). والعقيق: أراد به لون خديها.

٦ - الشاعر والأمة

[الرمل]

خَـيــرُ مــا يــكــتــبُه ذو مِــرْقَمٍ[١]
قــصَّــةٌ فــيــهــا لــقــومٍ تَــذْكِــرَهْ

✡✡✡✡✡

كــان في مــاضي الــلــيــالي أمّــةٌ
خَــلعَ الــعِــزُّ عــلــيــهــا حَــبِــرَه[٢]

يــجــدُ الــنَّــازلُ في أكــنــافِــهــا
أوجُــهــاً ضــاحــكــةً مُــســتَــبــشِــره

ويــســيــرُ الــطَّــرفُ من أرْبــاضِــهــا
في مــغَــانٍ حــالــيــاتٍ نَــضِــره

لم يَــقِــسْ شَــعبٌ إلى أمــجــادهــا
مــجــدَه الــبــاذخَ إلا اســتــصــغَــره

هــمُّــهــا في الــعــلم تُــعــلي شــأنَه
بــيــنــهــا، والجــهلِ تَــمــحــو أثــرَه

مــا تــغــيــبُ الــشــمــسُ إلا أطــلــعتْ
لــلــورى مَــحْــمَــدَةً أو مَــأْثُــره[٣]

فــتــمــنَّى الــصــبحُ تــغــدو شــمــسَهُ
وتــمــنَّى الــلــيلُ تــغــدو قــمَــرَه

---

(١) المِرقَم: القلم. والرَّقْم: الكتابة.
(٢) الحَبَرَة: بُرد يماني (جمعه: حِبَر).

ومشى الدهرُ إليها طائعاً
فمشتْ تائهةً مُفتخِرَه

✡✡✡✡✡

كان فيها مَلِكٌ ذو فِطْنةٍ
حازمٌ يصفحُ عند المَقْدِرهْ
يعشقُ الأمرَ الذي تعشقُهُ
فإذا ما استنكرَتْهُ استنكَرَه
بلغتْ في عهدِهِ مرتَبةً
لم تنلْها أمّةٌ أو جَمْهرَه[1]
فإذا أعطتْ ضعيفاً مَوْثقاً
أشفقتْ أعداؤه أن تَخْفِرَه
وإذا حاربَها طاغيةٌ
كانت الظّافرةَ المنتَصِره
مات عنها، فأقامت مَلِكاً
طائشَ الرأي كثيرَ الثَّرثَره
حولَه عُصْبَةُ سُوْءٍ، كلّما
جاء إدّاً أقبلتْ مُعتَذِره[2]
حسَّنتْ في عينه آثامَهُ
وإليه نَفْسَهُ المستَكْبِره
وتمادى القومُ في غفلتهمْ
فتمادى في الملاهي المُنْكَره
زحزحَ الأمّةَ عن مركزها
وطوى رايتَها المنتشِره

---

(١) الجماعة من الناس.

ورأت فـيـهـا الـلـيـاليْ مـقـتَلاً

فـرمَـتْـهـا فـأصَـابتْ مَـدْبَـره[1]

فـهـوت عن عـرشـهـا مـنـعـفـرَهْ

مـثـلـمـا تُـرمى بـسـهـمٍ قُـبَّـرَه[2]

☆☆☆☆☆

كـان فـيـهـا شـاعـر مُـشْـتَـهَـرُ

ذو قـوافٍ بـيـنـهـا مُـشـتَـهـرهْ

كـلّـمـا هـزّت يـداهُ وتـراً

هـزّ من كلّ فـؤادٍ وتَـره

تَـعِـسُ الحظِّ، وهل أتـعَـسُ مِن

شـاعـرٍ في أمَّـةٍ مُـحْـتَـضَـره؟

يـقـرأ الـنـاظـرُ في مُـقـلـته

ثـورةً طـاهـرةً مـسْـتَـتِـرَه

مـا يـراه الـنـاسُ إلا واقـفـاً

في مـغـاني قـومِه الـمُـنـدثِـرَه

حَـائـراً كـالـريح في أطلالـهـا

بـاكـيـاً والـسُّـحب الـمـنـهـمِـرَه

وهْـيَ في أهـوائـهـا لاهـيـةٌ

وكـذاك الأمـةُ الـمُـسْـتَـهـتِـره

مـا رأتْ مُـهـجـتَهُ الـمُـنـفـطِـرهْ

لا ولا أدمُـعَـهُ الـمـنـحـدِره

فـشـكـاهُ الـشّـعـرُ ممـا سـامَهُ

وشـكـاهُ الـلـيلُ ممّـا سَـهِـره

---

(١) الدَّبْر: الهلاك والموت، ومنها المَدْبَرة.

(٢) طير القبَّرة (وجمعها: قنابر).

ثم لـــــا عَــــبَث الـــــيــــأسُ بِهِ

مــــزّق الــطِّــرسَ وشَجَّ المِــحْــبَــره!!

✡✡✡✡✡

مــــرَّ يــومـــاً فــرأى أشــيــاخَــهــا

جـلـسـوا يـبـكـون عـنـد المـقْـبَـره

قـــال مـــالَـــكُمُ؟... مــا خــطـبُـكُمُ

أيُّ كــنــزٍ في الــثَّــرَى أو جــوهــره؟

ومَنْ الـــثَّــاوي الـــذي تـــبــكــونَه

قـــيــصـــرٌ، أم تُــبَّعٌ، أم عـــنــتَــره؟

قـــال شـــيــخٌ مــــنـــهمُ مُـــحْــدَوْدِبٌ

ودمـــوعُ الــيــأسِ تَــغــشَى بــصَـــرَه

إن من نـــبــكـــيه لـــو أبــصَـــرَهُ

قـــيــصـــرٌ أبــصـــر فـــيه قَـيْـصَـرَه

كــــيف يــــا جـــاهلُ لا تـــعـــرفُهُ

وحُــداةُ الــعِــيسِ[1] تــروي خَــبَـرَه؟

هـــو مَـــلْكٌ كـــان فـــيــنـــا ومـــضَى

فـــمــضَتْ أيـــامُـــنــا المـــزدهِـــره

ولَـــبــثْــنـــا بـــعـــدَه في ظُـــلَمٍ

داجِــيَـاتٍ فــوقَــنـــا مُــعْــتــكِره

والــــذي كـــان بـــنـــا «مـــعـــرفـــةً»

لـــصـــروفِ الــدهـــر أمـــسـى «نَــكِـره»

فَـــانْــتــهَى الــتـــاجُ إلى مُــعــتَــسِفٍ

لم يـــزلْ بـــالـــتـــاج حـــتى نـــثَّـــرَه

---

(١) العيس: الإبل البيض (المفرد: أعيس – عيساء).

كل مـــا تَـــصـــبـــو إلـــيه نـــفـــسُهُ

مُـــعْـــصِـــرٌ أو خـــمـــرةٌ مـــعـــتَـــصَـــره

مُـــســـتـــهـــينٌ بـــالـــلـــيـــالي وبـــنـــا

مـــســـتـــعـــينٌ بـــالـــطَّـــغَـــام الـــفَـــجَـــرَه

كـــلّـــمـــا جـــاء إلـــيه خـــائنٌ

واشِـــيـــاً قـــرَّبَـــهُ واســـتـــوزَرَه

فـــإذا جـــاءَ إلـــيه نـــاصِحٌ

شكَّ في نـــيّـــته فـــانـــتَـــهَـــره

مُـــســـتَـــبِـــدٌ بـــاذلٌ في لحـــظـــةٍ

مـــا ادّخَـــرنـــاهُ لـه وادّخَـــره

يَـــهَـــبُ المـــرءَ ومـــا يمـــلِـــكُهُ

وعـــلى المـــوهـــوبِ أن يَـــســـتـــغـــفِـــرَه

هَـــزَأ الـــشـــاعـــرُ مـــنـــهمْ قـــائلاً:

بَـــلَـــغ الـــسُّـــوسُ أصـــولَ الـــشَّـــجـــره

رحـــمـــةُ الـــلـــهِ عـــلـــى أسلافِـــكُمْ

إنـــهـــم كـــانـــوا تُـــقـــاةً بَـــرَره

رحـــمـــةُ الـــلـــه عـــلـــيـــهم، إنـــهم

لم يـــكـــونـــوا أمّـــةً مـــنـــشَـــطِـــره

إنّ مَن تـــبـــكـــونَـــهُ يـــا ســـادتي

كـــالـــذي تـــشـــكـــون فـــيـــكم بَـــطَـــرَه

إنمـــا بـــأسُ الأُلـى قـــد سَـــلَـــفـــوا

قـــتلَ الـــنـــهـــمـــةَ فـــيه والـــشَّـــرَه

فـــاحـــبِـــسُـــوا الأدمعَ في آمـــاقِـــكمْ

واتـــركـــوا هـــذي الـــعِـــظـــامَ الـــنَّـــخِـــرَه

لــو فَـــعـــلــتُمْ فِـــعْل أجــدادِكُمُ

مــا قــضَى الــظــالمُ مــنــكم وَطَــره

مــا لــكم تــشــكُــونَ من مُــحْــتــكِمٍ

رُضْــتُمُ ألــسُــنَــكُمْ أن تَــشــكُــره؟

وجــعــلــتمْ مــنــكمُ عــســكــرَهُ

وحــلــفــتُمْ أن تُــطــيــعــوا عــسْــكَــره؟

كــيف لا يــبْــغِي ويــطــغَى آمــرٌ

يــتَّــقِي أشــجَــعُــكُمْ أن يــنــظُــره؟

مــا اســتــحَــالَ الــهِــرُّ لَــيــثــاً إنمــا

أسُــدُ الآجَــامِ صــارتْ هِــرَرَه

وإذا الــلــيــثُ وهــتْ أظْــفــارُهُ

أنــشبَ الــسِّــنَّــوْرُ فــيه ظُــفْــرَه!!

****

٧ - وأني...

[الخفيف]

نـــــظَـــــرتْ مـــــرّةً إلـيَّ وقـــــالت:
مـــا يــقـــول الحُـــسّـــادُ عـــنكَ وعـــنّي؟
قـــلتُ: مـــاذا عـــســـاهُمُ أن يـــقـــولـــوا
غـــيـــرَ أنّي جُـــنـــنْتُ فـــيكِ..وأنّي...

****

٨ - أمّا أنا...

[الكامل]

لا تَنـثَني في الروضِ أغصانُ الشجرْ
حتى تدغدغَها النسائم في السَّحَر
وأنا كذلك لا يفارقُني الضَّجر
حتى تداعب لِمَّتِي(1) بيديها

✡✡✡✡✡

الشمسُ تُلقي في الصباح حِبالَها
وتبيتُ تنظرُ في الغدير خَيالَها
أمَّا أنا فإذا وقفتُ حيالَها
أبصرتُ نورَ الشَّمس في خدّيها

✡✡✡✡✡

الطَّودُ يَقرأ في السماء الصَّافيهْ
سِفْراً، جميلٌ(2) مَتْنُهُ والحاشيه
أمَّا أنا فإذا فقَدْتُ كِتَابيَه
أتلو كتابَ الحبِّ في عينيها

✡✡✡✡✡

الطَّيرُ إن عَطِشتْ ولجَّ بها الظَّما
هبطتْ إلى الأنهار من عُلْو السما
أما أنا فإذا ظمِئْتُ فإنما
ظمأي الشديدُ إلى لَمَى(3) شَفتيْها

✡✡✡✡✡

---

(1) الشعر: لأنه يلمّ بالكتف.

(2) الصحيح: جميلاً.

النَّدُّ يطلبُهُ الخلائقُ في الرُّبا
بين الورودِ وفي نُسَيمَاتِ الصَّبا
أما أنا فألذُّ من نشْر الكَبا
عندِي، الذي قد فاحَ من نهديها

✡✡✡✡

الرَّاحُ تَصْرفُ ذا العَنَاءِ عن العَنا
وتطيرُ بالصُّعلوك في جوِّ المُنى
فيرى الكواكبَ تحته، أما أنا
فتظلّ أفكاري تحوم عليها

✡✡✡✡

فيها ومنها ذِلّتي وسَقَامي[1]
وبها غرامي، القاتلي ؛ وهُيَامي
أشتاقُها في يَقْظَتي ومَنَامي
وا طُولَ شوقِ المُستَهام إليها!

****

(١) المرض.

٩ - وداع وشكوى

[الكامل]

أزِفَ الـرحـيلُ وحـانَ أن نـتـفـرّقـا
فـإلى الـلّـقـا يـا صـاحـبيَّ إلى الـلّـقـا

إنْ تـبـكِـيـا فـلـقـدْ بـكـيتُ من الأسى
حـتّى لـكِـدتُ بـأدمـعي أن أغْـرَقـا

وتـسـعَّـرتْ عـنـد الـوَداع أضَـالـعي
نـاراً خـشِـيتُ بـحَـرِّهـا أن أُحـرَقـا

مـا زلتُ أخـشى الـبَـين قـبل وقـوعِهِ
حـتى غـدوتُ ولـيس لي أن أفـرَقـا[1]

يـومَ الـنَّـوى، لـله مـا أقـسى الـنَّـوى
لـولا الـنّوى مـا أبـغضَتْ نفـسي الـبَقـا

رُحـنـا حَـيـارَى صـامـتـينَ كـأنمـا
لـلـهَـولِ نـحْـذَرُ عـنـده أن نـنـطِـقـا

أكـبـادُنـا خـفّـاقَـةٌ وعـيـونـنـا
لا تـسـتـطـيع، من الـبـكـا، أن تَـرمُـقـا

نـتـجـاذبُ الـنـظـراتِ وهي ضـعـيـفـةٌ
ونـغـالبُ الأنـفـاسَ كَـيلا تُـزهَـقـا

لـو لم نـعـلِّلْ بـالـلـقـاء نـفـوسَـنـا
كـادتْ مع الـعَـبَـراتِ أن تـتـدَفَّـقـا

---

(١) الفرَق: الخوف.

يـا صـاحـبيَّ تـصـبَّـرا فـلـربمـا

عُـدْنـا وعـاد الـشَّـملُ أبـهى روْنـقـا

إن كـانتِ الأيـامُ لم تَـرفُقْ بـنـا

فَـمِن الـنُّهى بـنـفـوسـنـا أن نَـرفُـقَـا

إن الـذي قَـدَر الـقـطـيـعـةَ والـنّـوى

في وُسْـعِـه أن يـجـمـعَ الـمُـتـفـرِّقـا!..

✡✡✡✡✡

ولـقـد ركـبتُ الـبـحـرَ يـزأرُ هـائـجـاً

كـالـلـيثِ فـارقَ شِـبـلَـه بل أَحـنَـقَـا

والـنـفسُ جـازعـةٌ ولـستُ ألـومُـهـا

فـالـبـحـرُ أعـظمُ مـا يُـخـافُ ويُـتَّـقى

فـلـقـد شـهـدتُ به حـكـيـمـاً عـاقلاً

ولـقـد رأيتُ به جَـهُـولاً أخْـرَقـا

مُـسْـتَـوفـزٌ مـا شـاء أن يـلـهـو بـنـا

مـتـرفِّقٌ مـا شـاء أن يـتـرفَّـقَـا

تـتـنـازعُ الأمـواجُ فـيه بـعـضَـهـا

بـعـضـاً عـلـى جـهلٍ تُـنـازعُـنـا الـبقَـا

بـيْـنـا يـراهـا الـطَّـرْفُ سُـوراً قـائـمـاً

فـإذا بـهـا حَـالتْ فـصـارتْ خَـنْـدقـا

والـفُـلْكُ جـاريـةٌ تـشُقُّ عُـبـابَه

شَـقّـاً، كـمـا تَـفْـري رداءً أخْـلَـقـا[1]

تـعـلـو فـنـحـسـبُـهـا تَـؤمُّ بـنـا الـسَّـمـا

ونـظن أنّـا راكـبـون مُـحـلِّـقَـا

---

(١) خَلُق وأخلق: بلي.

حتى إذا هَبطَتْ بنا في لُجَّةٍ
أيقنتُ أن الموتَ فينا أحدقا
والأفْقُ قد غطّى الضَّبابُ أديمَه
فكأنما غشيَ المِدادَ المُهْرَقا
لا الشمسُ تسطعُ في الصباح، ولا نرى
إما استطالَ الليلُ ؛ بدراً مُشرِقا
عشرون يوماً أو تَزيد قضيتُها
كيفَ التَفَتُّ رأيتُ ماءً مُغْدِقا
(نيويورك) يا بنتَ البُخارِ، بنا اقصُدِي
فلعلّنا بالغرب ننسى المَشْرِقا
وطنٌ أردناه على حُبِّ العُلا
فأبى سِوى أن يستكينَ إلى الشَّقَا
كالعبدِ يخشَى، بعد ما أفنى الصِّبا
يلهو به ساداتُه، أن يُعتَقَا
أوَ كلَّما جاء الزمانُ بمُصلِحٍ
في أهله قالوا طغى وتزنْدَقا؟
فكأنما لم يكفِهِ ما قد جَنَوْا
وكأنما لم يكفِهمْ أنْ أخفَقا
هذا جزاءُ ذوي النُّهى في أمَّةٍ
أخذَ الجُمودُ على بنيها مَوْثِقا
وطنٌ يَضيقُ الحُرُّ ذَرْعاً عندَهُ
وتراه بالأحرار ذَرْعاً أضْيَقا
ما إن رأيتُ به أديباً مُوسِراً
فيما رأيتُ، ولا جَهولاً مُمْلِقَا
مَشَتِ الجهالةُ فيه تسحبُ ذيلَها
تِيهاً، وراحَ العِلْمُ يمشي مُطْرِقا

أمسى وأمسى أهلُه في حالةٍ
لو أنَّها تعرو الجمادَ لأَشفَقَا

شعبٌ كما شاء التخاذلُ والهوى
مُتفرِّقٌ ويكادُ أن يتمزَّقا

لا يرتضي دينَ الإلهِ مُوفِّقاً
بين القلوب، ويرتضيه مُفرِّقا

كَلِفٌ بأصحاب التعبُّد والتُّقى
والشَّرُّ ما بين التعبُّدِ والتُّقى

مُستضعَفٌ، إن لم يُصبْ متملِّقاً
يوماً تَملَّقَ أن يرى مُتملِقا

لم يعتقدْ بالعلم وهو حقائقٌ
لكنه اعتقدَ التمائمَ والرُّقَى!

ولربما كَرِهَ الجمودَ وإنما
صعبٌ على الإنسان أن يَتَخلَّقا!..

وحكومةٌ ما إنْ تُزَحْزِحْ أحمقاً
عن رأسها حتى تُولِّيَ أحمقا

راحتْ تُناصبُنا العَداء كأنما
جئنا فَرِيَّاً أو ركبنا مَوْبقاً[1]

وأبتْ سِوى إرهاقِنَا فكأنما
كلُّ العدالةِ عندها أن نُرْهَقا

بينا الأجانبُ يعبَثونَ بها كما
عَبِثَ الصَّبا سَحَراً بأغصانِ النَّقا[2]

(بغدادُ) في خطرٍ و(مصرُ) رهينةٌ
وغداً تَنالُ يدُ المطامعِ (جِلَّقَا)

---

(١) الفريّ: المصنوع المختلق (من: الفِرية: الاختلاق). والمَوْبِق: المهلكة. وبَق وبوقاً: هلك.

ضَعُفتْ قوائمُها ولمّا ترعَوي

عن غَيِّها حتى تزولَ وتُمْحَقا

قيل: اعشقوها، قلت: لم يبْقَ لنا

معها قلوبٌ كي نُحبَّ ونَعشَقا

إن لم تكن ذاتُ البنين شفيقةً

هيهاتَ تلقى من بَنيها مُشْفِقا

أصبحتُ حيث النفسُ لا تخشَى أذىً

أبداً، وحيث الفكرُ يغدو مُطلَقا

نفسي اخلُدي، ودعي الحنينَ، فإنما

جهْلٌ، بُعَيدَ اليومِ، أن نتَشوّقا

هذي هي «الدنيا الجديدةُ» فانظري

فيها ضياءَ العلمِ كيف تألّقَا

إني ضمنتُ لكِ الحياةَ شهيةً

في أهلها، والعيشَ أزهرَ مُونِقَا

****

١٠ - عصر الرشيد

[الكامل]

كم بين طيّاتِ العُصور الخاليهْ
عِظةٌ لأبناء الدهور الآتِيَهْ
عِبَرُ الليالي كالليالي جَمَّةٌ
لكنما النَزْرُ القلوبُ الواعيه
الدهرُ يُفْنينَا ونَحسَبُ أنهُ
يُفني بنا أيامَه ولَيالِيَه
فإذا مشى فينا الفناءُ فراعَنا
خَلَقَ الخيالُ لنا الحياةَ الثانيه
إن الحياةَ قصيدةٌ، أبياتُها
أعمارُنا، والموتُ فيها القافيه
كم تعشقُ الدنيا وتُنكر صدَّها
أنسيتَ أن الخُلْفَ طبعُ الغانيه؟
وتودُّ لو يبقَى عليكَ نَعيمُها
أجَهِلْتَ أنَّ عليكَ ردُّ العَاريه؟
خلِّ الغُرورَ بما لديكَ فإنما
دنياكَ زائلةٌ ونفسُك فانيه
إنّ الأُلى وطِئتْ نعالُهُمُ السُّها
وطئتْ جِباهَهُمُ نعالُ الماشيه
لو أن حيّاً خالداً فوق الثّرى
ما مات «هارونٌ» وزال «معاويه»

أوَ كـان عـزٌّ دائـمـاً مـا أصـبـحتْ
«بـغـدادُ» في عَـدَدِ الـطُّـلـولِ الـبَـالـيه
أخـنَتْ عـلـيـهـا الحَـادثـاتُ، فـدُورُهـا
خِـرَبٌ تُـعـاودهـا الـريـاحُ الـسَّـافـيه
يـأوي إلـيـهـا الـبـومُ غـيـرَ مُـروَّعٍ
مـن كلِّ نـعَّـابٍ أحمِّ الخَـافـيه[1]
نـزل الـقـضـاءُ فـمـا حَـمـاهـا سـورُهـا
ولـطـالمـا ردّ الجـيـوشَ الـغـازيه
واجـتـاحَ مُـجـتـاحُ الـعُـروشِ مـلـوكَـهـا
فـكـأنـهـمْ (أعـجـازُ نَـخْـلٍ خـاويه)
أين الـقـصـورُ الـشـاهـقـاتُ وأهـلُـهـا
بـادَ الجـمـيـعُ، فـمـا لـهـمْ من بـاقـيه
دَرَسَتْ مـعـالـمُـهـا وغـيَّـرَهـا الـبِـلَى
ولـقـد تُـرَى حُـلَلُ المحـاسنِ كـاسـيه
أيـامَ لا دَوحُ المـعـارِفِ ذابلٌ
ذاوٍ، ولا دُورُ الـصـنـاعـةِ خَـالـيه
أيـامَ لا لـغـةُ «الـكـتـابِ» غـريـبـةٌ
فـيـهـا، ولا هِـمَمُ الأعـاربِ وانـيَه
أيـامَ كـان الـعِـلْمُ يـغـبِطُ أهـلَهُ
أهلُ الـثَّـراءِ، ذوو الـبُـرُودِ الـضَّـافِـيه
أيـامَ كـان لـكلّ حُـسْنٍ شـاعـرٌ
كَـلِـفٌ بـه ولـكلّ شِـعْـرٍ راويه
أيـامَ «دجِـلـةُ» مُـطـمـئنٌ هـادئٌ
جَـذلانُ يـهـزأ بـالـبُـحـورِ الـطَّـامِـيه

---

(١) الأحمّ: الأسوَد من كل شيء. والخوافي: ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت. مفردها: خافية.

«الـــنِّـــيلُ» خـــادمُه الأمـــينُ، وعـــبْـــدُه

«نـــهـــرُ الـــفـــرات» وكلُّ عـــينٍ «جـــاريه»

تـــهـــوَى الـــكـــواكبُ أنـــهـــا حَـــصْـــبـــاؤُه

أو أنـــهـــا شـــجـــرٌ عـــلـــيه حَـــانـــيه

وتـــــودُّ كلُّ سَـــحـــابـــةٍ مـــرّتْ به

لـــو أنه سُـــحُـــبٌ عـــلـــيـــهـــا هـــامِـــيَه[1]

وترى الـــغـــزالـــةُ طيفَـــهـــا عـــنـــد الـــضُّـــحَى

في سَـــطْـــحـــه فـــتَـــبـــيتُ عـــطـــشَـــى راويه

أيـــامَ كـــان الـــشَّـــرقُ مـــرهـــوبَ الـــحِـــمَى

يـــكـــســـو الجَلالُ ســـهـــولَه وروابـــيَه

أيـــامَ تـــحـــسُـــدُهـــا الـــعـــواصمُ مـــثـــلَـــمـــا

حـــسَـــدَ الـــعـــواطلُ أخـــتَـــهنّ الحَـــالـــيه

ولـــطـــالمـــا كـــانت تَـــعِـــزّ بـــعِـــزّهـــا

«مـــصـــرٌ»، وتـــحـــمي ذكـــرَهـــا «أنـــطـــاكـــيه»

✡✡✡✡✡

أيـــامَ «هـــارونٌ» يُـــديـــر شـــؤونَـــهـــا

يـــا عـــصـــرَ «هـــارونٍ» عـــلـــيكَ سلامِـــيَه

مَـــلِـــكٌ أدالَ من الجَـــهـــالـــة عِـــلْـــمُهُ

وأذلَّ صَـــارِمُه المـــلـــوكَ الـــعَـــاتـــيه

ومَـــشتْ تُـــطـــوِّفُ في الـــبلاد هِـــبـــاتُهُ

تـــغـــشَى حـــواضِـــرَهـــا وتـــغـــشى الـــباديه

ملأ الـــبلادَ عـــوارفـــاً ومـــعـــارفـــاً

والأرضَ عـــدْلاً والـــنـــفـــوسَ رَفـــاهـــيه

---

(١) همى: سال، من مطر وغيره.

فتحضَّرَ البَادونَ في أيامِهِ
واستأنستْ حتى الوحوشُ الضّاريه
وتسربلتْ «بغدادُ» ثوبَ مهابةٍ
ليستْ تَراه أو «تُراه» ثانيه
هاتيكَ أيامٌ تلاشَتْ مثلَما
تمحو من الرَّقِّ الحروفَ الماحِيَه[1]
لم يبقَ إلا ذكْرُها يا حُسنَها
ذكرى تَهَشُّ لها العظامُ الباليه
لو أن هذا الدهرَ سِفرٌ كنتَ يا
عصرَ الحضارةِ مَتْنَهُ والحَاشِيه
عصرٌ لئن جاء البشيرُ بِعَوْدِه
فلأخلعنَّ على البشير شبابيه!..

✡✡✡✡✡

إيه «أبا المأمونِ» ذكرُكَ آبدٌ
في الأرض، مثلُ الشامِخَاتِ الراسِيه
باقٍ على مرِّ العصور بقاءَها
وكذاك ذِكْرُ ذوي النفوس السَّاميه
إن لم يكن لكَ من مِثالٍ بيننا
فلأنَّ روحَك كلَّ حينٍ دانيه
هي في الخمائلِ زهرةٌ فيّاحةٌ
هي في الكواكب شمسُها المُتَلاليه
إني لأعجَبُ كيف مُتَّ وفي الورى
حيٌّ وكيف طَوتْكَ هذي الطَّاويه
ومِن الزّمانِ يَهُدُّ ما شيَّدْتَهُ
ويْحَ الزَّمانِ، أمَا تهَّيبَ بانِيَه!

---

(١) الرَّق: الصحيفة البيضاء. وأراد بالحروف الماحية: الحروف التي تذهب بأثرها.

تشكو إليك اليومَ نفسي شَجوَها

فلأنتَ مَفْزَعُ كلِّ نفسٍ شاكيه

أتُراكَ تعلَمُ أنّ دارَكَ بُدِّلَتْ

مِن صَوتِ «إسحقٍ» بصوتِ الناعِيه؟[1]

أتُراك تعلَمُ أن ما أثّلْتَهُ

قد ضيّعَتْهُ الأنفسُ المُتَلاهِيه؟

يا ويحَ هذا الشَّرقِ بعدَكَ، إنه

للضعف باتَ على شَفِيرِ الهاويه

ما كان يقنَعُ بالنجومِ وسائداً

واليومَ يقنَعُ أهلُه بالعافيه!

مُسْترسِلُونَ إلى الذُّهول كأنما

سُحِروا أو اصطُرِعُوا ببنتِ الخَابيه

مُسْتَسلمونَ إلى القضاء كأنما

أُخِذوا، ولمّا يؤخَذوا، بالغَاشيه

المجدُ إدراكُ النفيسِ، وعندهمْ

ما المجدُ إلا شَادنٌ أو شَاديه

يهوَى الحياةَ الناسُ طوعَ نفوسِهمْ

وهُمُ يريدونَ الحياةَ كما هِيه

صَغُرتْ نفوسُهُمُ، فباتَ عزيزُهُمْ

يَخشى الجبانَ، كما يخافُ الطاغِيه

حَملوا المغَارمَ ساكِتينَ كأنما

كَبِرتْ على أحنَاكِهمْ «لا» النَّاهيه

لم تَسْمَعِ الدنيا بقومٍ قبلَهُمْ

ماتوا وما بَرِحوا الديارَ الفانيه

---

(١) اسحق الموصلي: المغني أيام الرشيد.

اللهَ، لو حرَصُوا على أمجادِهمْ

فَلَتلكَ عُنوانُ الشعوبِ الراقيه

مَلَكَ «العُلُوجُ» أمورَهمْ ومتاعَهُمْ

حتى سَوامَهُمُ وحتى الآنيَه

واخَجْلَةَ العربيِّ مِنْ أجدادِه

صارتْ عبيدُهُمُ الطَّغامُ مَواليَه!..

☆☆☆☆☆

أبني الغَطارِفَةِ الجبابرةِ الأُلى

وطِئوا «اللُّوارَ» ودوّخوا «إسبانِيْه»[1]

مِن حَولِكُمْ وأمامَكُمْ تاريخُهمْ

فاستخْبِروه فذاكَ أصدقُ راويه

قادوا الجيوشَ فكلُّ سهْلٍ ضَيِّقٌ

ورَمُوا المعاقلَ فهْيَ أرضٌ داحِيه[2]

وسَطَوْا فأَسْقطتِ العُروشُ ملوكَها

رُعباً وأَجْفلَتْ الصُّروحُ العاليهْ[3]

ومشَوْا على هامِ النجوم فلم تزلْ

في الليل من وجَلٍ تُحَدِّقُ ساهيه

ورَدَتْ خيولُهمُ المجرّةَ شُزَّباً

والشُّهبُ من حولِ المجرّةِ صاديه[4]

أعطاهُمُ صَرْفُ الزمانِ زِمَامَه

أمِنُوا وما أمِنَ الزَّمانُ دواهيه

---

(١) اللوار: أطول أنهار فرنسة (Loire) وعنده جرت المعارك بين العرب (عبد الرحمن الغافقي) والفرنجة في القرن الثامن الميلادي.

(٢) دحا: بسط يريد هنا المدحوّة. (تحويل المعاقل إلى أرض مبسوطة).

(٣) أجفل: شرد فذهب.

(٤) ضامرة (الشازب: الضامر)، وخيل شزّب: ضامرة البطن. وصديَ يصدى: عطش.

لا أسْــتَــفِــزُّكُمُ لِــمِــثْلِ فُــتــوحِــهِمْ
لــكنْ إلى حــفظِ الــبــقــايــا الــبــاقــيه
أتَـــذِلُّ آنـــافَ المــــلــــوكِ جُـــدودُكُمْ
وتَــســومُــكُمْ خَــســفــاً رُعــاةُ المــاشــيه؟
كم تَــصــبــرونَ عــلى الــهــوان كــأنــكمْ
في غِــبْــطــةٍ والــذّلُّ نــارٌ حــامــيه
يــا لَــلــرجــالِ! أمَــا عــلــمــتمْ أنَّــكمْ
إن لم تــــثــــوروا، أمـــةٌ مُـــتلاشِـــيه؟

✡✡✡✡✡

«دارَ الـــسلامِ» تحـــيـــةً من شـــاعـــرٍ
حَــسَــدتْ مــدامــعُه عــلــيك قــوافــيه
فَـــــأراقَ مــــاءَ شــــؤونه ولــــو انَّه
في الــغَــاديــاتِ أراقَ مــاء الــغــاديه[1]
لــو كــان مــجــدُكِ مُــســتــرَدّاً بــالــبــكــا
قــطَــرتْ مــحَــاجِــرُه الــدِّمــاءَ الــقَــانــيه
فــعــلــيكِ تــذهبُ كلُّ نــفسٍ حَــسْــرةً
ولمــثل خَــطْــبكِ تُــســتــعَــارُ الــبــاكــيه!!

****

(١) الغادية: السحابة تنشأ عند الصباح.

١١ - لم أجد أحدا...

[الكامل]

قــالت: ســكَتَّ ومــا ســكتَّ سُــدًى
أعْــيَــا الــكلامُ عــلــيكَ أم نَــفِــدَا؟

إنّــا عـــرفـــنـــا فـــيكَ ذا كَـــرَمٍ
مــا إن عــرفْــنــا فــيكَ مُــقــتَــصِــدا

فَــاطــلِــقْ يــراعكَ يــنــطــلــقْ خَــبــبَــاً
واحــلُــلْ لــســانَك يَــحــلُــل الــعُــقَــدا

مــا قــيــمــةُ الإنــســانِ مُــعــتَــقِــداً
إن لم يَــقلْ لــلــنــاسِ مــا اعــتَــقَــدا؟

والجــيشِ تحت الــبَــنْــدِ مُــحــتَــشِــداً
إن لــم يــكنْ لــلــحَــرْبِ مُــحــتَــشِــدا؟

والــنــورِ مُــســتــتِــراً؟ فــقــلتُ لــهــا:
كُــفِّي المَلامَــةَ واقــصُــري الــفَــنَــدا[1]

مــاذا يُــفــيــدُ الــصــوتُ مــرتــفــعــاً
إن لم يــكن لــلــصـــوت ثَمّ صَــدى؟

والــنــورُ مُــنــبــثِــقــاً ومــنــتــشــراً
إن لــم يــكنْ لــلــنــاس فــيه هُــدى؟

إن الحـــوادثَ في تـــتـــابُـــعِـــهـــا
أبـــدلْـــنَـــني من ضَـــلَّـــتِي رَشَـــدا

(١) قصُر: ضد طال (يقصُر - قِصَراً) والفنَد هنا: اللوم والعذَل.

ما خانَني فِكْري ولا قلَمي
لكنْ رأيتُ الشِّعرَ قد كَسَدا!

✡✡✡✡✡

كان الشَّبابُ، وكان لي أمَلٌ
كالبحر عُمْقاً، كالزمانِ مَدَى
وصحابةٌ مثلُ الرياضِ شَذاً
وصواحبٌ كوُرودِها عددا
لكنّني لمَّا مَددتُ يدي
وأدرتُ طَرْفي لم أجِدْ أحدا!...

✡✡✡✡✡

ذهب الصِّبَا ومضى الهوى معَهُ
أصَبَابةً والشَّيبُ قد وَفَدا؟
فاليومَ إن أبصرتُ غانيةً
أُغْضِي كأنَّ بمقلتِي رَمَدا
وإذا تُدارُ الكأسُ أصرِفُها
عني، وكنتُ ألومُ مَن زَهِدا
وإذا سمعتُ هُتافَ شاديةٍ
أمسكتُ عنها السَّمْعَ والكَبِدا
كفَّنْتُ أحلامي وقلتُ لها:
نامي! فإنّ الحبَّ قدْ رَقَدا
وقْعُ الخُطوبِ عليّ أخْرَسَني
وكذا العواصفُ تُسكِتُ الغَرِدا
عمرٌو صديقٌ كان يحلفُ لي
إن نُحتُ ناحَ وإن شدَوْتُ شَدا
وإذا مشَيْتُ إلى المَنون مَشى
وإذا قعدتُ لِحاجةٍ قَعَدا

صـــدّقْـــتُه، فـــجـــعـــلـــتُه عَـــضُـــدي
وأقـــمتُ من نـــفْـــسي له عَـــضُـــدا
لـــكـــنَّـــني لـــمّـــا مـــدَدْتُ يـــدي
وأدَرْتُ طَـــرْفي لم أجِـــدْ أحـــدا!..

☆☆☆☆☆

هـــنـــدٌ، وأحـــســـبُـــني إذا ذُكـــرتْ
أطـــأُ الأفـــاعي، أو أَجُـس مُـــدَى[1]
كـــانت إلـــهـــاً، كـــنتُ أعـــبُـــدُه
وأُجِـــلُّه، والحُـــسْنُ كَمْ عُـــبِـــدا
كم زُرتُـــهـــا والحيُّ مـــنـــتـــبِهٌ
وتـــركـــتُـــهـــا والحيُّ قـــد هَـــجَـــدا
ولـــكم وقـــفتُ عـــلى الـــغَـــديـــر بـــهـــا
والـــريحُ تـــنـــســـج فـــوقَه زَرَدا
والأرضُ تـــرقُص تحـــتـــنـــا طَـــرَبـــاً
والـــشُّـــهبُ تـــرقُصُ فـــوقـــنـــا حَـــسَـــدا
ولـــكم جـــلـــسْـــنـــا في الـــريـــاض مـــعـــاً
لا طـــارئـــاً نَـــخْـــشَى ولا رَصَـــدا
والـــلـــيلُ فـــوق الأرض مـــنْـــســـدِلٌ
والـــغـــيْمُ فـــوق الـــبَـــدْر قـــد جَـــمَـــدا
قـــد كـــاشـــفـــتْـــني الحبَّ مُـــقـــتـــرِبـــاً
وشـــكتْ إلـــيّ الـــشَّـــوقَ مـــبْـــتـــعِـــدا
لـــكـــنَّـــني لمـــا مـــددتُ يـــدي
وأدرتُ طَـــرْفي لم أجِـــدْ أحـــدا!..

☆☆☆☆☆

---

(١) المُدية: السكين (والجمع: مُدى).

قـــومي، وقـــد أَطـــربـــتُـــهمْ زمـــنـــاً
ســـاقـــوا إلـيَّ الحُـــزْنَ والـــكَـــمَـــدا
هـم عـــــاهـــــدوني إنْ مَـــددتُ يـــدي
لَـــيَـــمُـــدُّ كلُّ فـــتًى إلـيّ يـــدا
قـــالـــوا غـــداً تـــهـــمي سَـــحـــائـــبُـــنـــا
فـــرجـــعتُ أدراجي أقـــول غـــدا
وظـــنـــنـــتُ أنـي مـــدركٌ أَرَبـي
إن غـــارَ تحت الأرض أو صَـــعِـــدا
فـــذهـــبتُ أمـــشي في الـــثَّـــرى مَـــرِحـــاً
مـــا بـــين جلاّسي، ومُـــنْـــفـــرِدا
تِـــيـــهُ المجـــاهـــدِ نـــال بُـــغْـــيـــتَه
أو تِـــيـــهُ مـــســـكـــينٍ إذا سُـــعِـــدا
لـــكـــنـــني لـــمـــا مـــددتُ يـــدي
وأدرتُ طَـــرْفي لـم أجـــد أحـــدا!..

✡✡✡✡✡

هُمْ هـــدّدوني حـــينَ صِـــحتُ بـــهمْ
صَـــيْـــحـــاتيَ الـــشَّـــعـــواءِ مـــنْـــتـــقِـــدا
ورأيـــتُ فـــي أحـــداقِـــهـــمْ شَـــرَراً
ورأيـــتُ فـــي أشـــداقِـــهـــمْ زَبَـــدا
وسَـــمـــعتُ صـــائـــحَـــهمْ يـــقـــول لـــهمْ:
أَنْ أُقْـــتُـــلـــوهُ حـــيـــثُـــمـــا وُجِـــدا
فـــرجـــعتُ أحـــســـبُـــهمْ بـــرابـــرةً
فـي مَـــهْـــمَـــهٍ وأظـــنُّـــني وَلَـــدا[1]

---

(١) المهمه: المفازة البعيدة (والجمع: مهامه).

مَـــرَّتْ لـــيـــالٍ مـــا لـــهـــا عـــددٌ

وأنـــا حـــزينٌ بـــاهتٌ كَـــمَـــدا[1]

أرتـــاعُ إن أبـــصَـــرتُ واحـــدَهمْ

ذُعــرَ الــشُّــوَيْــهــةِ أبــصــرتْ أَسَــدا

وإذا رقَـــدتُ رقـــدتُ مـــضـــطـــربـــاً

وإذا صَـــحَـــوتُ صـــحـــوتُ مُـــرتَـــعِـــدا

لـــكـــنـــنـــي لـــمّـــا مـــددتُ يـــدي

وأدرتُ طـــرْفـــي لـم أجـــد أحـــدا!..

☼☼☼☼☼

لا تـــذكـــروهم لـي، وإن ســـألـــوا

لا تـــذكـــروني عـــنـــدَهم أبـــدا

لا يملأ الـــســـرِّبـــالَ واحـــدُهـمْ

ولـه وعـــودٌ تـــمـــلأ الـــبَـــلَـــدا[2]

يـــا لـــيـــتَـــنـــي ضـــيَّـــعت مَـــعْـــرفـــتي

من قَـــبلِ أعـــرفَ مـــنـــهـمُ أحـــدا[3]

****

---

(١) الكَمِد والكميد: الحزين الذي يكتم حزنه.

(٢) السربال: القميص.

(٣) التقدير: أن أعرف.

١٢ - السرُّ في الأرواح

[الكامل]

قـال الـغـرابُ وقـد رأى كَـلَفَ الـوَرى
وهُـيَـامَـهُمْ بـالـبـلـبل الـصَّـدّاحِ:
«لِمَ لا تَـهـيمُ بيَ المـسـامعُ مـثـلَهُ
مـا الـفـرقُ بـين جـنـاحه وجـنـاحي؟
إني أشـدّ قُـوىً وأمـضى مِـخْـلـباً
فـعلامَ نـام الـنـاسُ عن تَـمْـدَاحي»؟

✡✡✡✡✡

أمُـفـرِّقَ الأحـبـابِ عن أحـبـابـهم،
ومـكـدّر الـلـذّاتِ والأفـراح!
كم في الـسـوائل من شـبـيهٍ بـالـطِّلا
فـعلامَ لـيس لـهـا مَـقـامُ الـراح؟
لـيس الحُـظُـوظُ من الجـسوم وشـكـلـهـا
الـسِّـرُّ كلُّ الـسِّـرِّ في الأرواح
والـصـوتُ من نِـعَمِ الـسـمـاء، ولم تـكن
تـرضى الـسَّـمـا إلا عن الـصَّـدّاح
حُكْمُ الـقـضـاءِ فإن نَقِمْتَ على الـقَـضـا
فَـاضْـرِبْ بـعـنـقِكَ مُـدْيَـةَ الجَـرَّاح

****

١٣ - بنت سورية

[الرمل]

لـيس يـدري الـهمَّ غـيـرُ الـمُـبْـتَـلـي[١]
طــال جـنـحُ الـلـيـل أو لم يَـطُلِ

مـا لـهـذا الـنـجمِ مـثـلي في الـثرى
طـائـرَ الـنـوم شـديـدَ الـوجَل

أتُـراهُ يـتّـقـي طـارئَـةً
أم بـه أنّي غَـريبُ الـمـنـزل؟

كـلّـمـا طـالـعتُ خَـطْـبـاً جَـلَـلاً
جـاءني الـدهـرُ بـخـطبٍ جَـلَل

أشـتـكي الـلـيلَ ولـو ودّعـتُه
بتُّ من هَـمّي بـلـيـلٍ ألْـيَـل[٢]

يـا بـنـاتِ الأفْقِ مـا لـلـصَّبِّ مِن
مُـسْـعـدٍ في الـنـاس: هلْ فـيـكنّ لي؟

لا عَـرَفـتُنّ الـرزايـا إنـهـا
شـيّـبتْ رأسي ولم أكـتَـهِـل

سَـهِـدتْ سُـهـدي الـدَّراري[٣] إنـمـا
شِـدَّ مـا بـين الـمُـعَـنّى والخَـلي

لـيت شِـعـري مـا الـذي أعـجـبَـهـا
فـهْـيَ لا تـنـفكُّ تَـرنـو من عَلِ

---

(١) يريد: المبتلى.

(٢) شديد الظلمة.

(٣) النجوم لأنها تلمع في السماء كالدُّرَر.

أنـــا لا أغـــبِـــطُـــهـــا خـــالـــدةً
ولـــقـــدْ أحْـــسُـــدُهـــا لـم تَـــعْـــقِل
كـــلّـــمـــا راجـــعتُ أحلام الـــصِّـــبـــا
قـــلـت: يـــا لـــيت الـــصِّـــبـــا لـم يَـــزل!..
أيـــهـــا الـــقـــلـبُ الـــذي في أضـــلُـــعي
إنمـــا الـــلـــذةُ جـــهلاً فـــاجـــهلِ[1]
تَـــجْـــمُلُ «الـــرِّقَّـــةُ» في الـــغَـــضْبِ فـــإنْ
كـــنتَ تـــهـــواهـــا فـــكن كـــالـــمُـــنْـــصُلُ[2]
هـيَ في الـــغِـــيـــد الـــغَـــواني قـــوَّةٌ
وهـــيَ ضـــعـــفٌ في فـــؤادِ الـــرَّجل
لا يـــغُـــرَّ الـحـــسنُ ذا الـحُـــسْنِ فـــقـــد
يَـــصـــرعُ الـــبـــلـــبلَ صـــوتُ الـــبـــلـــبل
تُـــقـــتَلُ الـــشـــاةُ ولا ذنْبَ لـــهـــا
هـيَ، لـــولا ضـــعـــفُـــهـــا، لم تُـــقـــتل
إن تـــكنْ في الـــوحش كنْ لـــيثَ الـــشّـــرَى[3]
أو تـــكنْ في الـــطـــيـــر كنْ كـــالأَجْـــدَل[4]
أو تـــكنْ في الـــنـــاس كن أقـــواهُـــمُ
لـــيـــستِ الـــعـــلـــيـــاءُ حظَّ الـــوُكَّل![5]

✡✡✡✡✡

مـــا لِـــقـــومِي - لا وهَـى حَـــبْـــلُـــهـمُ -
قـــنِـــعـــوا من دهْـــرهـمْ بـــالـــوَشَل[6]

---

(١) الصحيح: إنما اللذة جهل... إلا إذا لجأنا إلى التقدير!
(٢) النصل: حديد السيف، والمنصل: السيف.
(٣) موضع تُنسب إليه الأسود.
(٤) الصقر.
(٥) أرادها جمعاً للوَكِل: البليد الجبان، المتكل على غيره.

أنـــــا مِن أمـــــرهِمُ فـي شُــــغُلٍ
وهُمُ عن أمــــرِهِمْ فـي شُـــــغُل
كــلّــمــا فــكَّــرتُ في حــاضــرِنــا
عــاقَـنـي الـيـأسُ عن المـسـتـقـبَل
نــحن في الجـهل عـبـيـدٌ لـلـهـوى
ومـعَ الـعِـلْم عَـبـيـدُ الـدُّوَل
نـعـشقُ الـشَّـمسَ ونَـخـشى حَـرَّهـا
مـا صَـعِـدْنـا وهَـيَ لـمّـا تَـنْـزِل
قـد مَـشَى الـغـربُ عـلى هـامِ الـسُّـهـا
ومـشـيـنـا في الحَـضـيضِ الأسْـفل
سـجَّلَ الـعـارَ عـلـيـنـا مَـعـشَـرٌ
سـجّـلـوا المـرأةَ بـين الـهَـمَل
فـهيَ إمّـا سِـلـعـةٌ حـامـلـةٌ
سِـلَـعـاً أو آلـةٌ في مَـعْـمَل
أرسَـلُـوهـا تـزرعُ الأرضَ خُـطَـىً
وتُـبـاري كلَّ بـيـتٍ مـثـل[1]
تـتَـهـادَاهـا الـمَـوامي والـرُّبـا[2]
فـهيَ كـالـديـنـار بـين الأنْـمُل
لا تُـبـالي الـقـيـظَ يـشـوي حَـرُّه
لا ولا تحـذرُ بـرْدَ الـشَّـمْـألِ
ولـهـا فـي كل بـابٍ وقْـفَـةٌ
كـامـرئ الـقـيس حِـيـالَ الـطَّـلَل[3]

---

(١) في عجز البيت ركاكة وغموض. لم أجد له في النسخ بين يديّ، صورة أخرى!
(٢) المُوماة: المفازة الواسعة، والفلاة التي لا ماء فيها (وجمعها: الموامي).
(٣) إشارة إلى مطلع معلقته التي طلب فيها من صاحبيه الوقوف على الحبيب ومنزله، بسِقط اللوى...

تـتَّـقي قـولَ «اغـرُبي» خَـشـيـتَـهـا

قــولــةَ الــقــائلِ «يــا هــذي ادخُــلي»

فـهيَ كـالـعـصـفـور وافى صَـاديـاً[1]

فــرأى الــصَّـيّـادَ عـنـد المَـنْـهل

كـامـنـاً، فـانـصـاعَ يُـدنـيه الـظَّـمـا

ثم يُــقــصِــيه اتّــقــاءُ الأجَل

ولــكَمْ طــافتْ به آمِــلَــةً

وانــثــنتْ تــقــطعُ خــيطَ الأمل

ولــكَمْ مــدَّتْ إلى الــرِّفْــد[2] يــداً

خُــلقتْ في مِــثــلِــهــا لــلــقُــبَل

مــا بــهــا؟ لا كــان شــراً مــا بــهــا

مــا لــهــا من أمــرِهــا في خَــبَل؟

سـائـلـوهـا أو سَـلـوا عن حـالـهـا،

إنْ جـهـلـتمْ، كلَّ طـفلٍ مُـحْـولِ[3]

في سـبـيـل المــال أو عُـشّـاقِه

تــكــدحُ المــرأةُ كــدْحَ الإبِل

مــا تَــراهــا وهي لا حَــوْلَ لــهــا

تحت عِبْءٍ فــادحٍ كــالجَــبَل

شَــدَّتِ الأمــراسَ في ســاعــدهــا

من رأى الأمــراسَ حــول الجَــدْول؟

جـشَّـمُـوهـا كلَّ أمــرٍ مُـعْـضِلٍ

وهي لم تُــخْــلَقْ لــغــيــرِ المــنــزل

---

(١) صدِيَ - يصدى: عطش. والصادي: العطشان.

(٢) الرِفد: العطاء.

فــــإذا فــــارقتِ الـــــدارَ ضُـــحًى
لم تـــعُـــدْ إلا قُـــبَـــيلَ الـــطَّـــفَلِ[1]

ألِـــفَتْ مـــا عـــوّدوهـــا مـــثـــلَـــمـــا
تـــألَفُ الـــظَّـــبْـــيَـــةُ طـــعْمَ الحَـــنْـــظلِ!

بـــنتَ سُـــوريّـــا الـــتي أبـــكي بـــهـــا
هِـــمَّـــةَ الـــلـــيثِ ورُوحَ الحَـــمَلِ

مـــا أطـــاعـــوا فـــيكِ أحـــكـــامَ الـــنُّـــهى
لا ولا قـــولَ الـــكـــتـــاب الـــمُـــنْـــزَلِ

قـــد أضـــاعُـــوكِ ومـــا ضـــيَّـــعـــتِـــهمْ
فـــأضـــاعـــوا كلَّ أمٍّ مُـــشْـــبِلِ[2]

****

(١) الدخول في المساء.

(٢) قامت على أولادها بعد زوجها، ولبؤة مشبل: معها أولادها.

١٤ - الفقير

[الفقير]

هَمٌّ أَلَمَّ بِهِ مع الظَّلْمَاءِ
فَنَأَى بِمُقْلَتِهِ عن الإِغْفَاءِ

تَعِسٌ أقام الحزنُ بين ضلوعِه،
والحزنُ نارٌ غيرُ ذاتِ ضياءِ

يرعى نجومَ الليلِ ليس به هوًى
ويَخَالُه كَلِفاً بهنَّ الرائي

في قلبه نارُ (الخليل) وإنما
في وجنتيهِ أدمعُ (الخنساء)[1]

قد عضَّهُ اليأسُ الشديدُ بنابِهِ
في نفسه، والجوعُ في الأحشاء

يبكي بكاءَ الطفلِ فارقَ أمَّهُ
ما حيلةُ المحزونِ غيرُ بكاء!

فأقامَ حِلْسَ الدار وهوَ كأنَّهُ
- لخلوِّ تلك الدارِ - في بيداء

حَيرانَ لا يدري أيقتلُ نفسَهُ
عمْداً فيخلصَ من أذى الدُّنياء[2]

أم يستمرُّ على الغضاضةِ والقَذَى
والعيشُ لا يحلو مع الضرّاء

---

(١) النبي إبراهيم الخليل عليه السلام. انظر سورة الأنبياء في القرآن الكريم الآية ٦٩. والخنساء الشاعرة المخضرمة التي بكت أخاها (صخراً) بكاءً مراً.

(٢) أرادها جمعاً (لدنيء).

طــردَ الــكــرَى وأقــام يــشــكــو لــيــلَهُ
يــا لــيلُ طُـلْتَ، وطــالَ فــيك عَــنــائي!
يا لـيلُ قـد أغـريتَ جـسـميَ بـالـضَّـنـا
حــتى لَــيــؤلِمُ فــقــدُه أعــضــائي
ورمــيــتَــنـي يــا لــيلُ بــالــهمّ الــذي
يَــفــري الحــشَــا، والــهمُّ أعــســرُ داء
يــا لــيلُ! مــالكَ لا تَــرِقُّ لحــالــتي
أتُــــراك والأيــــامَ من أعــــدائي؟
يـا لـيلُ! حـسـبي مـا لـقيتُ من الـشَّـقَـا
رحــمــاكَ لــستُ بــصــخــرةٍ صــمَّــاء
بِنْ[(١)] يــا ظلامُ عن الــعــيــون فــربمّــا
طــلع الــصــبــاحُ وكــان فــيه عــزائي
وارحــمــتــا لــلــبــائــســينَ فــإنــهمْ
مــوتى وتحــسَــبُــهمْ من الأحــيــاء
إني وجــدتُ حــظــوظَــهمْ مُــســودّةً
فــكــأنمــا قُــدّت من الــظَّــلْــمــاء
أبــداً يُــسَــرُّ بــنــو الــزمــان ومــا لــهم
حظٌ كــغــيــرهمُ من الــسَّــراء
مــا في أكــفِّــهِمُ من الــدنــيــا سِــوى
أن يُــكــثــروا الأحلامَ بــالــنَّــعــمــاء
تــدنــو بــهم آمــالُــهمْ نــحــو الــهــنــا
هــيــهــاتَ يــدنــو بــالخــيــال الــنــائي
بَــطِــرَ الأنــامُ من الــسُّــرور وعــنــدهم
أنّ الــسُّــرورَ مــرادفُ «الــعــنــقــاء»

---

(١) بانَ، يبين: بَعُد.

إنِّي لأحزنُ أن تكونَ نفوسُهم
غرضَ الخطوب وعُرضةَ الأرزاء
أنا ما وقفتُ لكي أشبِّبَ بالطِّلا
ما لي وللتشبيب بالصَّهبَاء؟
لا تسألوني المدْحَ أو وصْفَ الدُّمَى
إني نبذتُ سفاسفَ الشُّعراء
باعوا لأجلِ المالِ ماءَ حيائهمْ
مدْحاً وبِتُّ أصونُ ماءَ حيائي
لم يفهموا ما الشِّعرُ، إلا أنه
قد باتَ واسطةً إلى الإثراء
فلذاك ما لاقيتُ غيرَ مشبِّبٍ
بالغَانياتِ وطالبٍ لعطاء
ضاقتْ به الدنيا الرحيبةُ فانثَنَى
بالشِّعر يستجدي بني حواء
شقي القريضُ بهم وما سَعِدوا به
لولاهمُ أضحى من السُّعداء
نالوْا علينا بالمحبةِ والهوَى
وصُدورُهمْ طُبِعت على البغضاء
ألِفُوا الرياءَ فصار من عاداتهمْ
لعنَ المهيمنُ شخصَ كلِّ مُراءِ!
إن يغضبوا مما أقول فطالما
كرِهَ الأديبَ جماعةُ الغَوغاء
أو ينكروا أدبي فلا تتعجَبُوا
فالرُّمْدُ يُؤلِمهمْ طلوعُ ذُكَاء[1]

---

(١) ذكاء: الشمس. والرُّمْد: من الرَّمد (أرمد ورمداء).

أوَ كلما نصرَ الحقيقةَ فاضلٌ
قامت عليه قيامةُ السُّفهاءِ!
أنا ما وقفتُ اليومَ فيكمْ موقفي
إلا لأندُبَ حالةَ التُّعَساء
عَلِّي أُحرِّكُ بالقريضِ قلوبَكمْ
إن القلوبَ مَواطِنُ الأهواء
لهفي على المحتاج بين ربوعِكُم
يُمسي ويُصبحُ وهْو قَيْدُ شقاء
أمسى سَواءً ليلُه وصباحُه
شتانَ بين الصُّبحِ والإمْساء
قطعَ القنوطُ عليه خيطَ رجائه
والمرءُ لا يَحيا بغيرِ رجاء
لهَفي! ولو أجدى التعيسَ تلهّفي
لسفكتُ دمعي عنده ودمائي
قل للغنيِّ المُستَعِزِّ بماله:
مهلاً لقد أسرفْتَ في الخُيَلاء
جُبل الفقيرُ أخوك من طينٍ ومن
ماءٍ، ومن طينٍ جُبلتَ وماء
فَمِنَ القساوةِ أن تكونَ مُنعّماً
ويكونَ رهنَ مصائبٍ وبلاء
وتظلَّ ترفُل بالحرير أمامَه
في حين قد أمسى بغيرِ كساء
أتضِنُّ بالدينار في إسعافِه
وتجودُ بالآلاف في الفحشاء
انصرْ أخاكَ فإن فعلتَ كفَيتَه
ذُلَّ السؤال ومِنَّةَ البُخلاء

أذَوي الـيَـسَـارِ! ومـا الـيَـسـارُ بـنـافعٍ

إن لم يــكن أهـــلُـــوه أهلَ سَـــخـــاء

كم ذا الجَـحُـودُ ومـا لُـكم رهنُ الـبِـلى

وبمَ الـــغُـــرورُ وكـــلـــكم لـــفَـــنـــاء؟

إن الـضَّـعـيفَ بـحـاجـةٍ لـنُـضَـاركمْ

لا تـقـعُـدوا عن نُـصـرةِ الـضَّـعـفـاء

أنـــا لا أذكِّـــرُ مـــنـــكمُ أهلَ الـــنَّـــدَى

لـــيس الـــصـــحـــيحُ بـــحـــاجـــةِ لـــدواء

إن كـــانت الـــفـــقـــراءُ لا تَـــجـــزيـــكمُ

فـــالـــلهُ يَـــجـــزيـــكمْ عن الـــفـــقـــراء

****

١٥ - بين الكاس والطاس

[الرمل]

حَـملَ الـشَّـمسَ إلـينـا قـمـرٌ
في سـمـاءٍ نـحن فـيـهـا أنجُمُ

شـادِنٌ حَـكَّـمَهُ الحُـسنُ بـنـا
وسِـوى الحُـسْنِ بـنـا لا يَـحـكُمُ

أسْـبلَ الـشّـعرَ فـيا عـيني اسْـهري
إنه لـيـلٌ طـويلٌ مـظـلـمُ

واحـذري يـا مُـهـجـتي مـنه فـما
ذلـك الأسْـودُ إلا أرقـمُ[١]

كـاد أن يُـشـبِهَ جـسـمي خَـصـرُه
إنّـمـا رقّـتُه بي سَـقَـمُ

يـتـلـظّى الخـالُ في وَجـنـته
أرأيـتمْ كـيف يـصـلَى الـمُـغْـرَمُ؟

صـنمٌ في خـدّه الـنـارُ وفي
كـفِّهِ ضَـرّتُـهـا تَـضْـطَـرِمُ[٢]

بـنتُ كَـرْمٍ لم يَـهِمْ فـيـهـا سِوى
كلُّ صبٍّ هـامَ فـيه الـكَـرَمُ

حُـبِـستْ في دَنِّـهـا من قِـدَمٍ
مـا لـهـا ذنبٌ ولـكنْ ظَـلَـمُوا

---

(١) الحيّة فيها سواد وبياض.

(٢) يقصد الخمرة وما تفعل حرارتها في النفس.

حَـرَّمُـوهـا حـيـنـمـا خـافـوا عـلـيْـ
ـهَـا سِـواهُمْ فـاسـقِـنـي مـا حـرَّمـوا
إنـــهـــا سِـــرٌّ فَـــشَـــا بـــين الـــورى
وإذا الـــســـرُّ فَـــشَـــا لا يُـــكْـــتَـم

****

١٦ - في السفينة

[مجزوء الوافر]

تَسيرُ بنا على عجَلِ
وإنْ شاءتْ على مَهْلِ

وتسعى سَعْيَ مُشتاقٍ
بلا قلْبٍ ولا عقْلِ

وتمشي في عُباب الما
ءِ مشْيَ الصلِّ في الرمْل[1]

فما تعبِسُ للحَزْنِ
ولا تضحكُ للسَّهل[2]

أبَتْ أن تَعْرفَ الشَّكْوى
من التَّرحال والحِلّ

فطوراً في قَرارِ اليَمِّ
للغامض تَستَجلي

وآونةً تُناجِيهَا
دَرارِي الأفْق بالوصل[3]

وأحياناً تُوالي سَيْ
رَها ساكنةَ الظّلّ

وللمَوجِ حوالَيْها
زئيرُ الليثِ ذي الشِّبْل

---

(١) الصلّ: الحية التي تقتل، من ساعتها، إذا نهشت.

(٢) الحَزن: غلظة الطريق.

(٣) الدراري: النجوم لأنها تضيء في السماء، مثل الدرر.

رَكِــبــنَـــاهـــا ونــــارُ الـــشَّـــوْ

قِ في أحـــشـــائـــهـــا تَـــغـــلـي

فَـــيـــا لِـــلـه حـــتى الـــسُّـــفْ

ـنُ مـــثـــلـي مـــا لـــهـــا مُـــسْلِ[1]

فلا تـــــعـــــجـبْ إذا أُعْـــجِـ

ـبَ من أطـــوارهـــا مِـــثْـــلـي

فــــمـــــا أعـــرفُ مـــركـــوبـــاً

سِـــــوى الأفـــــراسِ والإبـل

ومـــــا أعـــــلـمُ قـــــبْـلَ الآ

نَ أنّ الـــطَّـــــوْد نـــــاقٌ لـي[2]

تـــركـــنـــا «غـــادةَ الـــشَّـــرقِ»

إلى «لـــبـــنـــانَ» ذي الـــفـــضْل

فـــــــمـن وطـنٍ إلـى وطـنٍ

ومـــن أهـــلٍ إلـــى أهـــلِ

****

(١) أسلاه عن همّه فتسلى (من السلوان).

(٢) يريد: ناقة لي، وقد شبه السفينة بالجبل.

١٧ - يا صاح !...

[السريع]

يـــا صـــاحِ كم تــفَّــاحــةٍ غــضّــةٍ
يـحـمـلـهـا فـي الـرّوض غُـصنٌ رطـيـبْ

نـــاضـــجـــةٍ تـــرتجّ فـي جـــوّهـــا
مــثلَ ارتجـاجِ الـشَّـمسِ عـنـد المَـغـيبْ

حــرَّضَكَ الــوجَـدُ عــلـى قـطْـفــهـا
لــمّــا غــفــا الــواشـي ونــامَ الــرقــيب

لـــــــكنْ لأمـــــــرٍ أنـت أدرى بـه
رجـعتَ عـنـهـا رَجْـعَـةَ الـمُـسْـتـريب

تــقـول لـلـنـفسِ الـطَّـمـوحِ: اقـصِـري
مـــا سِـرْقــةَ الـتـفــاح شـــأنُ الأريْب

☆☆☆☆☆

وربَّ صـــفـــراءَ كـــلـــون الـــضُّـــحى
يــنـفـي بــهــا أهلُ الـكـروبِ الـكـروبُ

دارتْ عـــلـى الـــشَّـــرْب بـــهـــا غـــادةٌ
كـــأنّـــهـا ظـبيُ الـكِـنـاسِ الـرّبـيب(١)

في طــرفك الـــسـاجي هُــيــامٌ بـــهـا
وبـــين أحـــشـــائكَ شـــوقٌ مُـــذيـب

لـــــــكنْ لأمـــــــرٍ أنـتَ أدرى بـه

---

(١) الكِناس: موضع الظبي في الشجر، يكتنّ فيه ويستتر. والربيب: المربوب (من:ربّه: أنشأه).

رجـعتَ عـنـهـا رَجـعَـةَ الـمـسـتـريب

تـقـولُ لـلـنـفسِ الـطَّـمـوحِ اقـصِـري

مـا غُـرَّ بـالـصـهـبـاءِ يـومـاً لَـبـيـب

إيّـــاكِ إيّـــاكِ وأكـــوابَـــهـــا

أختُ الخَـنَـا هـذي وأمُّ الـذّنـوب

وكم شِـفَـاهٍ أرجُـوانـيّـةٍ

كـأنـهـا مـخـضـوبـةٌ بـالـلـهـيـب

سـاعـدكَ الـدّهـرُ عـلى لَـثْـمِـهـا

ورشفِ مـا خـلْفَ الـلـهـيبِ الـعـجـيب

لـكنْ لأمـرٍ أنـتَ أدرى بـه

رجـعتَ عـنـهـا رجـعَـةَ الـمُـسـتَـريب

تُـعـنِّفُ الـقـلبَ عـلى غَـيِّه

وتَـعـذِلُ الـعـينَ الـتي لا تُـنِـيب

قَـتـلْتَ نـزْعـاتِكَ في مـهْـدهـا

ولم تُـطعْ في الحبّ حـتى الحـبـيب

✡✡✡✡✡

والآن لـمّـا انجـابَ عـنكَ الـصِّـبَـا

ولاحَ في الـمَـفْـرِق ثـلْجُ الـمَـشـيـب

واسـتـسـلمَ الـقـلبُ كـمـا اسـتـسـلمتْ

نـفـسُكَ لـلـيـأس الـمَـخـوفِ الـرّهـيب

أراكَ لـلـحـسـرةِ تـبـكي كـمـا

يـبـكي عـلى الـنـائي الـغـريبِ الـغـريب

تـودُّ لـو أنّ الـصِّـبَـا عـائـدٌ

هـيـهـاتَ قـد مـرّ الـزمـانُ الـقَـشـيـب

✡✡✡✡

خَلِّ البُكا يا صاحبي والأسى
الليلُ لا يُقصيه عنكَ النَّحيب
لا خيرَ في الشيء انقضى وقتُه
ما لقتيلٍ حاجةٌ بالطبيب!

✸✸✸✸

١٨ - بلاء أم نعمة

[المتقارب]

أحِبُّ معانقةَ النرجسِ
لعينيكِ يا ابنةَ كُولَمبُسِ[١]

وأهوى الشَّقيقَ ولثْمَ العقيقِ
لخدِّكِ والثَّغَرِ الألعَسِ[٢]

أعِندكِ إن غِبْتِ عن ناظري
مشيتُ من الصبحِ في حِنْدسِ

وأنّ الظلامَ على هَوْلِه
إذا جئتِ حالَ إلى مُشْمِسِ

وفي الصَّدرِ قلبٌ ولا كالقلوبِ
متى شئتِ يَسعدُ أو يَتْعَسِ

ودِدْتُ الإفاضةَ قبل اللقاءِ
فلمّا لقيتُكِ لم أنْبِسِ

وبتُّ وإيّاكِ في مَعْزِلٍ
كأني وإيّاكِ في مجلسِ

ولو أنّ ما بيَ بالطّودِ دُكَّ
وبالأسَدِ الوَرْدِ لم يَفْرِسِ[٣]

همَمْتُ فأنكَرَني مِقْولي
وشاءَ الغرامَ فلم أهجِسِ[٤]

---

(١) وجّهها إلى زوجته دوروثي، بصفتها مقيمة في أمريكة مع والدها نجيب موسى دياب صاحب (مرآة الغرب)

(٢) اللعَس: لون الشفة إذا مال إلى السواد.

(٣) الفَرْس: الكسر ودق العنق.

كـــأنـيَ لـــستُ أمــيـــرَ الـــكلامِ
ولا صـــاحبَ المـــنـــطقِ الأنْـــفَسِ
جلالُـكِ، والــــلــــيلُ في صـــمْـــتِه
فلا غَـــرْوَ أن رُحتُ كـــالأخـــرس
ومَـــرّتْ بـــنـــا ســـاعـــةٌ خـلْـــتُـــنـــا
خَـــلَـــعْـــنَـــا الجـــســـومَ عن الأنـــفُس
وأنّــــا من الــــروض في جـــنّــــةٍ
وأنّـــا من الـــعُـــشْب في سُـــنـــدُس
كـذاكَ الــهـوَى فِـعْــلُه في الـنـفـوس
كـــفـــعل الـــمُـــدامـــةِ في الأرْؤُس
تـــنـــبّهَ فـــيـــهـــا وفيَّ الـــهـــوى
فَـــلَـــو نَـــعِسَ الـــنـجمُ لم نَـــنْـــعَس
وكلُّ فـــؤادٍ شـــديـــد الـــعُـــرامِ
إذا رُضْـــتَه بـــالـــهـــوى يُـــسْـــلِس
فـــمـــالت فـــطـــوّقَـــهـــا ســـاعـــدي
مُـــنـــعَّـــمَـــةً بَـــضَّـــةَ الـــمَـــلـــمَس
وإنّ الـــعـــفـــافَ لَـــفي بُـــرْدِهـــا
وإن الإبـــاءَ لَـــفي مِـــعـــطـــسي
وقـــلـــتُ وكـــفّيَ في كـــفّـــهـــا:
ألا صـــرّحي لـي أو فـــاهْـــمِـــسي
بـلاءٌ هـــو الحبُّ أم نـــعـــمـــةٌ؟
أجـــابتْ: تجـــلّـــدْ ولا تـــيْـــأسِ!

****

١٩ - الخلود

[الرمل]

غلطَ القائلُ: إنّا خالدونْ
كلّنا، بعد الرّدى، هَيُّ بن بَيْ[١]

✡✡✡✡✡

لو عَرفنا ما الذي قبلَ الوجودْ
لعَرَفْنا ما الذي بعد الفناءْ
نحن لو كنّا «كما قالوا» نعودْ
لم تَخفْ أنفُسُنا رَيْبَ القضاءْ
إنّما القولُ بأنّا للخلودْ
فكرةٌ أوجدَها حبُّ البقاءْ
نعشقُ البُقْيَا لأنّا زائلونْ
والأماني حيّةٌ في كلّ حَيْ

✡✡✡✡✡

زَعموا الأرواحَ تبقَى سَرْمدا
خَدعُونا... نحن والشمْعُ سَواءْ
يَلبَثُ النورُ بها مُتَّقدا
فإذا ما احْترقَتْ باد الضِّياءْ
أين كان النورُ؟ أنّى وُجِدا؟
كيف ولّى عندما زال البناءْ؟
شمعتي فيها لطّلابِ اليقينْ
آيةٌ تَدفعُ عنهمْ كلَّ غَيْ[٢]

✡✡✡✡✡

---

(١) هَيُّ بن بي: كناية عمّن لا يُعرف ولا يُعرف أبوه.
(٢) الضلال (غوَى - يَغوي فهو غوِيّ).

لـيست الـرُّوحُ سِوى هـذا الجـسـدْ
مــعَهُ جـاءت ومَـعْه تَـرجِـعُ
لم تـكن مـوجـودةً قـبلَ وُجِـدْ
ولـهـذا حـينَ يمـضي تَـتْـبَعُ
فـمن الـزُّورِ المـوشَّى والـفَـنَـدْ[1]
قـولـنـا: الأرواحُ لـيست تُـصْـرَعُ
تـلـبَثُ الأفـيـاءُ مـا دام الـغُـصـونْ
فـإذا مـا ذهـبتْ لم يـبقَ فَـيْ

✲✲✲✲

لـو تـكـونُ الـروحُ مـا لا يـضْـمَـحِلْ
مـا جَـزِعـنـا كـلّـمـا جـسمٌ هَـمَـدْ
لـو تـكـون الـروح جـسـمـاً مـسـتـقلْ
لـرآهـا من يـرى هـذا الجـسـدْ
كلُّ مـا في الأرض من عـينٍ وظلْ
سـوف يـنـحلُّ كـمـا انـحلَّ الـزَّبـدْ
ولـئن صحّ بـأنّـا مُـنـشَـرُونْ
جـاز أن يَـعْـقُبَ ذاك الـنـشـرَ طيْ

✲✲✲✲

لـيت مَن قـالـوا بـأنّـا كـالـزُّهـورْ
خـبِّـرونـا أين تـمـضي الـرائـحهْ؟
أتُـرى تـبـقى كـألحـان الـدُّهـورْ؟
أم تَلاشَى مـثلَ صـوت الـنـائـحهْ؟
لـيت شِـعـري أيُّ خُـلْـدٍ لـلـبُـذورْ
بـعـد أن تُـلـقى بـنـارٍ لافِـحهْ؟

(١) الفند: الكذب (أفند: كذب).

قل لمن يَــخــبِطُ في لَــيلِ الــظُّــنــونْ

لــيس بــعــدَ المــوتِ لــلــظــامِئ رِيْ

✲✲✲✲✲

مــثــلــمــا يــذهبُ لــونُ الــورقهْ

عــنــدمــا تَــيْــبَس في الأرض الأصــولْ

مــثــلــمــا يُــفــقَــدُ نــورُ الحــدَقَهْ

حــين أَقــضـي.. هــكــذا نــفْــسي تَــزولْ

كــتلاشي الــشــمــعــةِ المحــتــرقَهْ

تــتلاشى بــين ضِــحْك وعَــويلْ

أنــا بــعــد المــوت شــيــئــاً لا أكــونْ

حــيثُ إني لم أكن من قــبــلُ شَــيْ!

✲✲✲✲✲

إيه أبــنــاءَ الــثَّــرَى نَــسْلَ الــقُــرودْ[١]

عــلّــلــوا أنــفــسَــكُمْ بــالــتُّــرّهــاتْ

إلــبَــسُــوا في صَــحــوكِمْ ثــوبَ الجــمــودْ

واحــلَــمُــوا في نــومــكُم بــالمُــعْــجِــزاتْ

فــســيــأتي زمنٌ غــيــرُ بــعــيــدْ

تــتــهــادى بــيــنــكم فــيه أيــاتْ[٢]!

ويــحُلُّ الــلــه في مــاءٍ وطــينْ

فــيــراه الــشــيــخُ والــشــابُ الأَحَــيْ![٣]

✲✲✲✲

---

(١) إشارة إلى نظرية " داروين " في أن أصل الإنسان قرد.

(٢) قرأناها: أيات – آيات!

(٣) الأكثر حياة (صيغة خاصة بالشاعر).

٢٠ - عيناكِ

[السريع]

عيناكِ والسِّحرُ الذي فيهما
صَيَّرتَاني شاعراً ساحرا
علَّمَتانِي الحبَّ عَلّمتُهُ
بدرَ الدُّجى والغصنَ والطائرا

✡✡✡✡✡

إنْ غِبتِ عن عيني وجَنَّ الدُّجى
سألتُ عنكِ القمرَ الزّاهرا
وأطرُقُ الروضةَ عند الضّحى
كيما أناجي البلبلَ الشاعرا

✡✡✡✡✡

وأنشَقُ الوردةَ في كُمِّها
لأنّ فيها أَرَجاً عَاطِرا
يُذكِّرُ الصَّبَّ بذاك الشَّذا
هل تذكرينَ العاشقَ الذاكِرا؟

✡✡✡✡✡

كم نائمٍ في وَكرِهِ هانئٍ
نَبَّهتِه من وَكْرِهِ باكرا
أصبح مثلي تائهاً حائراً
لمّا رآني في الرُّبا حائرا

✡✡✡✡✡

وراحَ يـــشـــكـــو لي وأشـــكـــو لـه

بـطَّشَ الــهـوى والــهَــجْـرَ والــهــاجِـرا

وكـــوكبٍ أســـمـــعْـــتُـه زفـــرتي

فــبــات مــثـلـي ســاهــيــاً ســاهــرا

✡✡✡✡

زجَــرتُ حــتى الــنــومَ عن مُــقــلــتي

ولـم أُبـــالِ الـلائـمَ الـــزّاجـــرا

يـــا لـــيتَ أني مَـــثَـلٌ ســـائـــرٌ

كــيــمــا تــقــولي المــثلَ الــسَّــائــرا

****

٢١ - ١٩٣١

[المتقارب]

لِــيَــطْــرَبَ من شــاء أن يَــطْــرَبــا
فــلــستُ بمــســتــمــطِــرٍ خُــلَّــبــا[١]

عــــرفتُ الـــزمـــانَ قـــريبَ الأذى
فــصِــرتُ إلى خــوفه أَقْــربــا

وهـــذا الجــديــدُ أبــوه الــقــديمُ
ولا تــلــدُ الحــيَّــةُ الأرنَــبَــا

أرى الــكــونَ يــرمُــقُه ضــاحــكــاً
كــمن راءَ في تِــيــهِه كــوكــبــا[٢]

ولــو عَــلِمَ الخَــلْقُ مــا عــنــده
أهَــلّــوا إلى الــله كي يَــغــرُبــا[٣]

ولــو عَــلِم الــعــيــدُ مــا عــنــدهمْ
أبى أن يمـــزِّقَ عــنــه الخِــبَــا

ألا لا يَــغُــرَّك تَــهــلــيــلُــهمْ
وقــولــتُــهُمْ لكَ: يــا مــرحــبَــا!

فــقــدْ لَــبِــسوكَ لــكي يــخــلــعوكَ
كــمــا تَــخــلَعُ الــقَــدَمُ الجَــوْربــا

ولُــوعُــونَ بــالــغــدر من طــبْــعــهمْ

---

(١) ليطربْ: تُحرَك الباء بالفتح ليستقر الوزن.

(٢) راءَ: رأى.

(٣) أهلّوا إلى الله: أرادها هنا بمعنى: رفع الصوت بالدعاء.

فمنْ لم يكنْ غادراً جَرَّبا

وكائنْ فتًى هزَّني قولُه

أنا خِدْنُك الصَّادقُ المُجْتَبى

أُرافِقُ من شكله ضَيْغَمًا

يُرافق من نفسه ثَعلبا

هُمُ القومُ أَصحَبُهم مُكرَهاً

كما يصحَبُ القمَرُ الغَيْهبَا[1]

أرانيَ أوحدَ مِن ناسكٍ

على أنني في عِداد الدَّبى[2]

وأمرحُ في بلدٍ عامرٍ

وأحسبُني قاطناً سَبْسَبا[3]

وقال خليلي: الهناءُ القصورُ

وكيف وقد مُلِئتْ أذوُّبا

ألفتُ الهمومَ فلو أنني

قَدرتُ تمنَّعتُ أن أطْرَبا

كأن الجبالَ على كاهلي

كأنَّ سروري أن أغضبا

وكيف ارتياحُ أخي غُربةٍ

يُصَاحِبُ من همّه عَقْربا

عتَبْتُ على الدهر لو أنني

أمِنْتُ فؤاديَ أن يَعتَبا

✡✡✡✡✡

---

(١) الغيهب: شدة سواد الليل. أو الظلمة إطلاقاً.

(٢) الدّبى: الجراد قبل أن يطير.

وجـــدتُكِ والـــشَّــيبُ في مَـــفْـــرِقي
ووِدَّعـــنـي وأخـــوكِ الـــصِّــــبــا

فــلـــيس بُـــكـــائي عـــامـــاً خَلا
ولـــكنْ شَـــبـــابِي الـــذي غُـــيِّـــبـــا

فــيَـــا فـــرِحـــاً بمـــجيء الـــسِّـــنـــينِ
تجيءُ الـــسِّـــنـــونَ لـــكي تـــذهـــبـــا

عـــجـــيبٌ مَـــشِـــيـــبيَ قـــبْل الأوانِ
وأعـــجَـــبُ ألاّ أُرى أشْـــيـــبَـــا

فـــإنّ نـــوائـبَ عـــاركْـــتُـــهـــا
تَـــرُدُّ فـــتى الـــعَـــشْـــرِ مُـــحْـــدَودبـــا

ويـــا بـــنتَ «كـــولمب» كم تـــضـــحـــكـــينَ
كـــأنكِ أبـــصـــرتِ مُـــســـتـــغـــرَبـــا[1]

ألـــيس الـــبـــيـــاضُ الـــذي تـــكـــرهـــينَ
يُـــحـــبِّـــبُـــني ثَـــغـــرَكِ الأشْـــنَـــبـــا[2]

فـــمن كـــان يـــكـــرهُ إشـــراقَهُ
فـــإنـيَ أكـــرَهُ أن يُـــخْـــضَـــبـــا

أحـــبُّكَ يـــا أيـــهـــا الـــمُـــسْـــتـــنـــيـــرُ
وإن تَـكُ أشْـــمَـتَّ بي الـــرَّبْـــرَبـــا[3]

وأهـــوى لأجـــلـكَ لَـــمْـعَ الـــبُـــروقِ
وأعـــشـقُ فـــيكَ أقـــاحَ الـــرُّبـــا

✡✡✡✡

ويـــا عـــامُ هل جـــئـــتَـــنـــا مُـــحْـــرِمـــاً
فـــنـــرجـــوكَ أم جـــئـــتَـــنـــا مُـــحْـــرِبـــا

---

(١) إشارة إلى أنها تسكن أمريكة (كريستوف كولمب).
(٢) الشنب: برودة تُحمد في الأسنان.
(٣) الربرب: القطيع من بقر الوحش (في الأصل).

تـــولّى أخـــوكَ وقـــد هـــاجـــهـــا

أقلُّ سلاحِ بـــنـــيـــهـــا الـــظُّـــبى

يُـجَـنـدلُ فـيـهـا الـخـمـيسُ الخـمـيسَ

ويَـصْـطـرِعُ الـمـقْـنَبُ الـمِـقْـنَبا[1]

إذا ارتـــفـعَ الـــطّـــرْفُ في جـــوّهـــا

رأى من عَـجَـاجـتِـهـا هَـيْـدَبا[2]

وجَـــيِّـــاشَـــةٍ بَـــرْقُـــهـــا رَعْـــدُهـــا

تـــدُكُّ من الـــشـــاهق الـــمَـــنْـــكِـــبـــا

يـــســـيـــر بـــهـــا الجُـــنـــدُ مـحـمـولـةً

قـــضـــاءٌ عـــلـــى عَـــجَـل رُكّـــبـــا

يَـــــودُّ الـــــفـــــتـى أنه هـــــاربٌ

ويمـــنـــعُه الخـــوفُ أن يَـــهـــرُبـــا

وكـــيـف الـــنـــجـــاةُ ومَـــقْـــذوفُـــهـــا

يَـــطـــولُ منِ الـــشَّـــرْق مَن غَـــرَّبـــا؟

ولـــو أنّه في ثـــنـــايـــا الـــغُـــيـــومِ

لَـــمَـــا أمِنَ الـــغـــيْـمُ أن يُـــطـــلـــبـــا

تَـــسُـحُّ فـــلَـــوْ أنَّ تَـــهْـــتـــانَـــهَـــا

حَـــيَـــاً أنـبتَ الـــقـــاحِلَ الـــمُـــجْـــدبـــا[3]

فـــمـــا المـــنـــجَـــنـــيقُ وأحـــجـــارُه

ومـــا المـــاضِـــيَـــاتُ الـــرِّقـــاقُ الـــشَّـــبـــا؟[4]

✡✡✡✡✡

(١) أقنَبت الخيل نحو العدو: تجمّعت وصارت مقنباً.

(٢) العجاجة: الغبار (وجمعها: عجاج). والهَيْدَبَ: السحاب القريب من الأرض.

(٣) التهتان والحيا: المطر الخفيف.

(٤) الماضيات: السيوف. وشباها: حدّها.

أإن شــكَتِ الأرضُ حَــرَّ الــصَّــدَى
سـقـاهـا الـنَّـجـيـعَ الـورى صَـيِّـبَـا[5]

فَـيـا لَـلـحـروب وأهـوالـهـا
أمـا حـانَ يـا قـومُ أن تُـشْـجَـبَـا

هـو المـوتُ آتٍ عـلـى رَغْـمِـكُـمْ
فـألْـقُـوا المـسـدَّسَ والأشْـطَـبـا[1]

ولـلـخـالقِ الـمُـلْكُ والمـالـكـون
فلا تَـتْـبَـعـوا فـيـكمُ أشْـعَـبـا[2]

ولم أنسَ مـصـرَعَ «تـيـتَـانك»
ومَـصْـرَعَـنَـا يـومَ طـارَ الـنَّـبـا[3]

فَـمِنْ شِـدَّةِ الـهـولِ في صِـدْقِه
رغـبـنـا إلى «الـبَـرْق» أن يَـكـذِبـا

لـيـاليَ لا نَـسـتـطـيبُ الـكَـرى
ولا نَـجِـدُ المـاءَ مُـسـتـعـذَبـا

وبـاتَ فـؤادي، بِهِ صَـدْعُـهَـا
وبِتُّ أحـاذِرُ أن يُـرأبـا

وليْ نـاظـرٌ غَـرِقٌ مِـثْـلُـهـا
من الـدَّمع، بـالـبَـحـر مُـسْـتَـوثِـبـا

إذا مـا تـذكَّـرْتُـهـا هِـجْتُ بي
أسىً تَـتَّـقـيه الحَـشـا مِـخْـلـبـا

فـأُمـسِي عـلـى كـبِـدي راحـتي
أخـافُ مع الـدَّمع أن تَـسْـرَبـا[4]

(١) السيف يترك خطوطاً في الجسم (وهي الشُطَب، الواحدة: شُطبة).
(٢) رمز الطمع في تراث العرب (ت ١٥٤ هـ).
(٣) تيتانك: الباخرة المعروفة التي غرقت في رحلتها الأولى.
(٤) سَرَب: ذهب على وجهه في الأرض.

خُـطُـوبٌ يَـراهــا الــورى مــثـلَــهــا

لـــذلك أُشــفـقُ أنْ تُـــكــتــبــا

✡✡✡✡✡

لــقــد نَــكبَ الــشَّــرقَ نــكْــبَــاته

وحـــاول أن يَـــنــكُبَ الـــمَــغْــربــا

وأشـــقى نـــفـــوسَ بـــني آدمٍ

لــيُــرضي الــسَّــراحــينَ والأعْــقُــبــا[1]

ولــو جــازَ بــين الــضُّــحى والــدُّجى

لــقــاتلَ فــيه الــضُّــحى الــغَــيْــهَــبــا

لـــعــلّك تــمــحــو جِــنَــايــاته

فــنــنْــسى بك الــذَّنبَ والــمُــذنِــبــا

إذا كــنتَ لا تــســتــطــيعُ الخُــلــودَ

فــعِشْ بــيــنــنــا أثــراً طــيــبــاً

فـــــإنك فــي إثْـــــره راحــلٌ

مــشَــيتَ الــسِّــواكَ أو الــهَــيْــدَبى![2]

****

(١) السرحان: الذئب. والأعقُب: العُقبان (جمع عُقاب).

(٢) السواك: السير الضعيف. والهيدَبى: ضرب من مشي الخيل.

٢٢ - بلادي

[الوافر]

تــركتَ الــنجمَ مِــثْــلَكَ مُــســتَــهــامــا
فــإنْ تــســْهُ سَــهــا أو نِــمْتَ نــامــا
بــنــفــسِكَ لــوعــةٌ لــو فـي الــغَــوادي
لــصــارتْ كلُّ مــاطــرةٍ جَــهَــامــا[1]
وفـــيك صـــبــابـــةٌ لـــو في جَــمــادٍ
لأشْــبَهَ دمــعَكَ الجــاري انْــســِجــامــا
هـــوىً بكَ في الـــعــظــامِ له دبــيــبٌ
أشَــابَكَ[2] وهْـــوَ لم يَــبــرحْ غُلامــا
يــظنّ الــلــيلُ يَــحــوي فــيك شــخــصــاً
ومــا يَــحــوي الــدُّجى إلا عِــظــامــا
نــفــيْتَ الــغــمضَ عن جــفــنــيكَ يــأتي
كـــأنك واصلٌ فـــيه الــــمَلامـــا
أتـــأرَقُ ثم تـــرجـــو الـــطّـــيفَ يـــأتي
شــكــاكَ الــطــيفُ لــو مــلَكَ الــكلامــا
شَــجَــتْك الــنــائــحــاتُ بــجُــنحِ لــيلٍ
فــبتَّ تُــســاجِلُ الــنَّــوحَ الحَــمَــامــا
لَــكِــدتَ تُــعــلِّمُ الــطــيــرَ الــقــوافي
وكــدتَ تُــعــلِّمُ الــلــيلَ الــغَــرامــا

---

(١) السحاب الذي لا ماء فيه.

(٢) جعل الشيب يلحق بك.

إذا ذُكــرَ الــشَّــامُ بــكــيتَ وجْــداً
وما تــنــفكُّ تَــذكّــرُ الــشــآمــا
وكـــنتَ ســـلـــوتَهُ إلا قـــلـــيلاً
وكـــنتَ هـــجـــرتَه إلا لِـــمَـــامـــا

٭٭٭٭٭

رُويــــدَك أيـــهـــا اللاحي رويــــداً
لك الــــويلاتُ لـــيت ســـواكَ لامـــا
أأرقُــدُ والخــطــوبُ تــطــوفُ حَــوْلِي
وأقــعُــد بــعــدمــا الــثَّــقَلانِ قــامــا
ويَــشــقَى مــوطــني وأنــامُ عــنه
إذاً مَن يــدفعُ الخــطــرَ الجُــســامــا؟
بلادي! لا عَـــــرَا شَـــــرٌّ بلادي
ولا بــلــغَ الــعِــدَا مــنــهــا مَــرامــا
لــبِستُ الــليل إشــفــاقــاً عــلــيــهــا
وإن شــاءت لــبــستُ لــهــا الــقَــتَامــا
وقــفتُ لــهــا الــيــراعَ أذبُّ عــنــهــا
فــإن يــكْــهَمْ[1] وقــفتُ لــهــا الحُــســامــا
سَــقَى قُــطْــرَ الــشــآمِ الــقَــطْــرُ عــني
وحَــيَّــا أهــلَه الــصِّــيــدَ الــكِــرامــا
دوَتْ صــيــحــاتُــهم في كل صُــقْــعٍ
فــكــادتْ تــنــشــرُ المــوتى الــرِّمَــامــا
وتَــطــبعُ في الــمُــحــيَّــا الجَــهْمِ بِــشْــراً
وتُــغــلق في فمِ الــثَّــكــلَى ابــتــســامــا
فـــحَـــوَّلتِ الـــقـــنـــوطَ إلى رَجــاءٍ
وصــيَّــرتِ الــوَنى فــيــنــا اعــتــزامــا

(١) يعني: البطء والتراخي في النجدة (كهُمَ - يكهَم).

غَدَونا كلّما ذُكروا طَرِبنا
كأن بنا المعتَّقَةَ المُداما
ولم أرَ كالضمير الحرِّ فخراً
ولم أرَ كالضميرِ العَبدِ ذَاما
إذا غاب الذّليلُ النفسِ عني
نظرتُ إلى الذي حَملَ الوِساما
إذا جلَبَ الكلامُ عليَّ عاراً
هجرتُ النُّطقَ أحسَبُهُ حَراما
وأجفو القصرَ يُلزِمني هواناً
وأهوى العِزَّ يُلزمُني الحِمَاما

✡✡✡✡✡

رجالَ التُّركِ ما نبغي انتقاضاً
لَعمرُكمُ ولا نبغي انتقاما
ولكِنّا نُطالبُكُمْ بحقٍّ
ونكرَهُ من يريد لنا اهْتِضاما
حَمَلنا نِيرَ ظُلمكُمُ قروناً
فَأبلاها وأبلانا وداما
رعَيتُمْ أرضَنا فتركتُموها
إذا وقع الجَرادُ رعى الرَّغَاما[1]
فباتَ الذئبُ يشكوكم عُواءً
وبات الظبيُ يشكوكم بُغَاما[2]
جَريتُمْ (بالهلال) إلى مِحاقٍ
ولولا جهلُكُمْ بلغ التَّماما

---

(١) الرغام: التراب.
(٢) البغام: صوت الظبية.

وكنتمْ كلَّما زِدْنا لِياناً
لِنَسْبُرَ غَورَكُمْ زِدْتُمْ عُراما

فما راقبتُمُ فينا جِواراً
ولا حفظتْ لنا يدُكم ذِماما

أثرتُمْ بيننا الأحقادَ حتى
لَيقتُلُ بعضُنا بعضاً خِصاما

وشاءَ الله كيدَكُمُ فبِتْنا
كمثل الماءِ والخمرِ التِئاما

فجهلاً تبعثون الرُّسْلَ فينا
تَديفُ لنا مع الأَرْيِ السِّمَاما[1]

سنرمُقُهمْ إذا طلعوا علينا
كأنّا نرمُقُ الداءَ العُقاما[2]

فإن عُرىً شَددناها وَثاقاً
نموتُ ولا نُطيق لها انفصَاما

خَفِ التُّركيَّ يَحلِفُ بالمَثاني
وخَفْهُ كلّما صلّى وصاما

ومَنْ يستنزلِ الأتراكَ خيراً
كمَنْ يستقْبِسُ الماءَ الضّرَاما

هُمُ نزعوا لواء المُلْك منّا
ونازَعَنا طَغامُهُمُ[3] الطَّعاما

وقالوا: نحن للإسلام سُورٌ
وإنّ بنا الخلافةَ (والإماما)

---

(١) داف: خلط. والأرْي: العسل. والسّم: القاتل، وجمعه: سِمام.

(٢) الداء الذي لا برء منه.

(٣) الطغام: الغوغاء.

فـــهل فـي دِين أحـــمـــدَ أن يَـــجـــوروا

وهل فـي دِين أحـــمـــدَ أن نُـــضَـــامـــا؟

إلـى كم يَـــحـــصُـــرون الحـــكمَ فـــيـــهمْ

وكم ذا يـــبـــتـــغـــون بـــنـــا احـــتِـــكـــامـــا

ألـــســْـــنـــا نـــحن أكـــثـــرَهمْ رجـــالاً

إذا عُـــدّوا وأرفـــعَـــهُـمْ مَـــقـــامـــا

إذا طـــلـــعتْ ذُكـــاءُ فـــلـــيس تـــخـــفَى

ولـــو حـــاكُـــوا الـــظلامَ لـــهـــا لِـــثـــامـــا

✡✡✡✡

مـــخـــوِّفَـــنـــا المـــثـــقَّـــفَـــةَ الـــعَـــوالي

لـــقـــد هـــدَّدتْ بـــالجَـــمْـــر الـــنَّـــعـــامـــا[1]

ســـنـــوقـــدُهـــا تُـــعـــيـــر الـــشـــمسَ نـــاراً

ويُـــعْـــيـي أمـــرُهـــا الجـــيشَ الـــلُّـــهـــامـــا[2]

وعِـــــــلْـمُ المـــــــرءِ أنّ المـــــــوت آتٍ

يُـــــهـــــوِّنُ عـــــنـــــده المـــــوتَ الـــــزُّؤامـــــا

****

(١) المعروف أن النعامة تدفن رأسها في الرمال الحارّة.

(٢) اللُّهام: الجيش الكثيف الذي يلتهم كل شيء.

٢٣ - البلبل السجين

[مخلع البسيط]

يــــا رُبَّ لــــيلٍ بلا سَـــنـــاءِ[١]
كـــأنَّـــمـــا بَـــدرُهُ يـــتـــيمُ
مـــشى به الـــيـــأس في الـــرِّجـــاءِ
كـــأنَّه الـــنـــارُ والـــهَـــشـــيم

✡✡✡✡✡

لـــيت الـــدُّجى رقّ لـــلـــمـــحبِّ
أو لـــيت لي مـــهـــجـــةً حَـــجَـــرُ
أقَضَّ هـــذا الـــفـــراشُ جَـــنْـــبي
كـــأنّ في مَـــضْـــجَـــعي الإبـــرُ[٢]
هـل بك يـــا نجمُ مـــثلُ كَـــرْبي؟
أم أنت من طَـــبـــعكَ الـــسَّـــهَـــرُ؟
ســـهـــرتَ شـــوقـــاً إلى ذُكـــاءِ؟
أم عـــنـــدك الـــمُـــقْـــعِـــدُ الـــمـقـــيمُ؟
أبـــكي وتُـــصـــغي إلى بـــكـــائـــي
يـــا ربِّ! هل تـــعـــشقُ الـــنـــجـــومُ؟

✡✡✡✡✡

قـــد نـــال فَـــرْط الـــسُّـــهـــادِ مـــني
واشـــتـــاق طَـــرْفي إلى الـــهُـــجـــوعِ

---

(١) يريد: السنا، وهو النور.
(٢) أقض المضجعُ، وأقضّ عليه المضجعَ: خشُن، أو جعله خشناً.

وقـــرَّحَ الجـــفنَ مـــاءُ جَـــفْـــني

في الحبِّ، مـــا فـــاض من دمـــوعي

وشـــابَ رأسـي من الـــتـــجـــنِّي

يـــا لـيت ذا الـشَّـيبَ في الـولُـوع[1]

لـــعلَّ في سَـــلـــوتي شِـــفـــائـــي

هـــيـــهـــات داءُ الـــهـــوى قـــديـــمُ

مـــا يـــحـــسَب الـــنـــاسُ في ردائـــي؟

في بُـــردتـــي هـــيـــكلٌ رَمـــيـــم!

✡✡✡✡

قـــد طـــال يـــا لـــيلُ فـــيكَ صـــبـــري

وأشـــبـــهتْ سَـــاعُكَ الـــقُـــرونـــا

فـــقلْ لـــهـــذي الـــنـــجـــومِ تَـــســـري

أو فـــاســـأل الـــصُّـــبحَ أن يَـــبـــيـــنـــا

وإن تـــشـــأ أن تـــكـــون قَـــبْـــري

فـــكنْ كـــمـــا شـــئـتَ أن تـــكـــونـــا

فَـــبي ســـكـــونٌ إلـــى الـــبـــلاءِ

قـــد يـــألف الـــعـــلَّـــةَ الـــسَّـــقـــيـــمُ

مَن كـــان في قـــبـــضـــة الـــهـــواءِ

هـــانَ عـــلـــى نـــفـــسه الـــنَّـــســـيـــمُ!

✡✡✡✡

قـــرَّبَ بـــين الـــضَّـــنى وجِـــســـمي

مـــا أبـــعـــدَ الـــنـــومَ عن جُـــفُـــوني

يـــا لـــيلُ فـــيك الـــرّقـــادُ خَـــصْـــمي

يـــا لـــيلُ مـــا فـــيك من مُـــعـــينِ

---

(١) الوَلوع: مثل الولع (ولِع – يولَع – ولَعاً).

سوى شَجٍ همُّه كَهَمّي
يُنشِدُ والليلُ في سُكونِ
أيمرحُ البومُ في الخَلاء
وتُمسك البلبلَ الهُمومُ ؟
هذا ضلالٌ من القضاء
فلا تلُمْني إذا ألومُ

✡✡✡✡✡

يا سيدَ المُنشدينَ طُرّا
وصاحبَ المنطقِ المُبينِ
لو كنتَ بوماً أو كنتَ نَسْرًا
ما بِتَّ في أسْرِكَ المَهينِ
خُلِقتَ، لمَّا خُلِقْتَ، حُرّاً
فَزَجَّك الحُسْنُ في السُّجونِ
وأطلقَ البومَ في الفضاء
زعْمُ الورى أنه دَميمُ
وأنّه غيرُ ذي رُواءِ
ولا له صوتُك الرَّخيمُ!

✡✡✡✡✡

تيَّمكَ الروضُ فيه حتى
تَخِذتَ باحاتِه مُقَاما
رأيتَ فيه النعيمَ بَحْتَا
ولم ترَ عندَه الأنامَا
مُدّوا الأحابيلَ فيه شتّى
أقلّها يجلِبُ الحِمَاما

لـــو كـــنـتَ كـــالـــبُـــوم في الجَـــفـــاءِ
مـــا صـــادكَ الـمــنـظــرُ الــوَســيـمُ
أصــبــحتَ تــبـكـي من الــشَّــقــاءِ
لـــيـضـحــك الأســرُ الــمُــضــيــمُ!

✡✡✡✡

والمـــــرءِ وحشٌ فـــإن تَـــرَقّى
أصـــبح شَـــرّاً من الـــوحـــوشِ
فَـــخَـــفْـهُ حُـــرّاً وخَـــفْـهُ رِقّـــا
وخَـــفْـه مَـــلْـــكـــاً عـــلـى الـــعُـــروشِ[1]
فـــالـــشـــرُّ في الـــنـــاس كـــان خَـــلْـــقًـــا
وأيُّ طـــيـــرٍ بـــغـــيـــر ريشِ؟
مـــا قـــامَ فـــيـــهم أخـــو وفـــاءِ
يـــحـــفظُ عـــهـــداً ولا رَحـــيـــمُ
فـــكـلُّ مُـــســـتـــضـــعَفٍ مُـــراءِ
وكـلُّ ذي قـــوةٍ غَـــشُـــومُ!

✡✡✡✡

إن كـــان لـــلـــوحشِ من نُـــيُـــوبِ
فـــالـــنـــاسُ أنـــيـــابُـــهمْ حـــديـــدُ
مـــا كـــان، والـــلـــه، لـــلـــحُـــروبِ
لـــولا بـــنـــو آدمٍ وجـــودُ
لـــو امّـــحَى عـــالـمُ الخُـــطـــوبِ
لـــقـــام مـــنـــهمْ لـــهـــا مُـــعِـــيـــدُ
قـــد نـــســبـوا الـظـلـمَ لـلـســمــاءِ
وكـــلّـــهمْ جـــائـــرٌ ظَـــلـــومُ

---

(١) يريد بالرِّق: الرقيق.

لم يَخْلُ منه أخو الثَّراء
ولا الفتى البائسُ العديمُ

☆☆☆☆☆

أعجَبُ ما في بني التُّرابِ
قِتالُهمْ فوقَه علَيهِ
قد صيّروا الأرضَ كالكتابِ
وانحشروا بينَ دَفَّتيهِ
واستعجلوا الموتَ بالعذابِ
وكلُّهُمْ صَائرٌ إليهِ
ما خابَ داعٍ إلى العِداءِ
ولم يفُزْ ناصحٌ حكيمُ
ما رغبَ الناسُ في الفناءِ
لكنّما ضاعتِ الحُلُومُ![1]

☆☆☆☆☆

لو لم يكُ الظُّلمُ في الطبائعْ
ما استنصرَ العاجزُ العدالَهْ
لو عَدلَتْ فيهِمُ الشرائعْ
ما استحدَثوا للقتال آلَهْ
عجبتُ للقاتل المُدافعْ
جزاؤه الموتُ لا مَحَالَهْ
لكنّما سَافِكُو الدّماءِ
يومَ الوغى قادةٌ قُرومُ[2]

---

(١) الحُلوم: العقول، مفردها: حِلْم.
(٢) القَرْم: السيد المكرم.

وهـكـذا الـمُـجـرمُ الـفِـدائـي

في عُـرفـهـمْ فـاتـحٌ عـظـيـمُ!

☆☆☆☆☆

أقـبـحُ من هـذه الـضـلالـهْ

أن يـحـكـمَ الـواحـدُ الأُلـوفـا

ويـدّعي الـفـضـلَ والـنَّـبـالـهْ

من يـسـلُبُ الـعـاملَ الـرغـيـفـا

يـا قـومُ مـا هـذه الجَـهـالـهْ

قـد حـانَ أن تُـنـصِـفـوا الـضـعـيـفـا

فـراقـبـوا ذمّـة الإخـاءِ

ولْـتـنْسَ أحـقـادَهـا الخُـصـومُ![1]

لا تـتـبـعـوا سـنّـةَ الـبـقـاءِ

فـإنّـهـا سـنّـةٌ ظَـلـومُ !

****

(١) جعل الخصوم في مقام الجماعة.

٢٤ - أنتِ....

[الخفيف]

مَــهــبِطَ الــوَحْيِ مَــطْــلعَ الأنــبــيــاءِ

كــيف أمــســيــتِ مَــهــبِطَ الأرْزاءِ؟

في عُــيــونِ الأنــام عــنكِ نُــبُــوٌّ

لم يــكن في الــعــيــون لــو لم تُــسَــائي

أنتِ كــالحُــرَّة الــتي انــقــلب الــدّهْـ

ــرُ عــلــيــهــا فــأصــبــحتْ في الإمــاء

أنتِ كــالــبُــردةِ الــمُــوشّــاة أبــلى الــطْـ

ــطَيُّ والــنــشــرُ مــا بــهــا من رُواء

أنتِ مــثلُ الخــمــيــلــة الــغــنّــاء

عُــرّيتْ من أوراقــهــا الخــضــراء

أنتِ كــالــلــيثِ قــلَّمَ الــدهــرُ ظــفــريْـ

ـهِ وأخــنَى عــلــيه طــولُ الــثّــواءِ

أنتِ كــالــشّــاعــرِ الــذي ألِفَ الــوحْـ

ــدةَ.. في مَــحــفلٍ من الــغَــوغــاء

أنتِ مــثل الجــبّــار يــرسُفُ في الأغْـ

ـلال، في مــشــهــدٍ من الأعــداء

لــو تــشــائــين كــنتِ أرفَهَ حــالاً

أوَ لــستِ قــديــرةً أن تَــشــائي

أنــا مــا زلتُ ذا رجــاءٍ كــثــيــرٍ

ولــئن كــنتُ لا أُرى ذا رجــاءِ

قــد بــكـى الــتَّــارِكُــوكِ مــنكِ قُــنــوطــاً
فــبـكـى الــسَّــاكــنـوكِ خــوفَ الــتــنــائي

كـــثُـــرَ الـــنـــائـــحـــون حـــولَكِ حـــتى
خِـــلـتُ أني فـي حـــاجـــةٍ لـــلـــعـــزاء

بـــذلـــوا دمـــعَـــهُـمْ وصُــنْـتُ دمـــوعي
إنَّـــمـــا الـــيـــائـــســـون أهلُ الـــبـكـــاء

لــو تُــفـيــد الــدمــوعُ شـيـئـاً لأَحـيتْ
كلَّ عـــافٍ[1] مـــدامعُ الـــشـــعـــراء

أنتِ فـي حـــاجـــة إلـى مـــثـل (مـــوسى)
لـــستِ في حـــاجـــةٍ إلـى (إرْمِـــيَـــاء)[2]

✡✡✡✡✡

مُــقــلــةَ الــشَّــرقِ! كم عــزيــزٌ عــلــيــنــا
أن تـــكـــوني رمـــيَّـــة الأقـــذاءِ[3]

شـــرَّدتْ أهـــلَكِ الـــنـــوائبُ فـي الأرْ
ضِ وكـــانـــوا كـــأنجُمِ الجَـــوْزاءِ

وإذا المـــرءُ ضـــاقَ بـــالـــعـــيش ذَرْعـــاً
ركب المـــوتَ في ســـبـــيل الـــبَـــقـــاء

لا يُـــبـــالـي مُـــغـــرَّبٌ فـي نَوِيـهِ
أن يـــراه نووه فـي الـــغُـــربـــاءِ

✡✡✡✡✡

أرضَ آبـــائِـــنـــا عـــلـــيكِ سلامٌ
وســـقـى الـــلـــهُ أنـــفُسَ الآبـــاءِ

---

(١) العافي: طالب المعروف، والجمع عُفاة.

(٢) النبي موسى سعى في خلاص شعبه، أما إرمياء (وهو من كبار أنبياء بني إسرائيل - القرن السابع ق.م) فعكف يبكي ما هم فيه بعد أن تنبأ بسقوط (أورشليم) في يد البابليين. نسب إليه كتاب يجمع مراثيه!

مــا هــجَــرنــاكِ إذ هــجــرْنــاكِ طَــوعــاً
لا تـــظـــنّـي الـــعـــقـــوقَ في الأبـــنـــاء

يُـــســْـــأمُ الخُـــلْـــدُ والحـــيـــاةُ نـــعـــيمٌ
أفَـــتَـــرضَى الخـــلـــودَ في الـــبـــأســـاء؟

هـــذه أرضُـــنَـــا بَلاقعُ، تـــمـــشي
فـــوقَـــهـــا كلُّ عـــاصفٍ هَـــوجـــاء[1]

هـــذه دُورنـــا مـــنـــازلُ لـــلـــبُـــو
مِ وكـــانـت مـــنـــازلَ الـــوَرْقـــاء[2]

بـدّلـتـهـا الـسِّـنـونَ شـوكـاً من الـزّهْـ
ـــرِ، وبـــالـــوَحش من بـــنـي حَـــوّاء

مـــا طَـــوتْ كـــارثـــاً يـــدُ الـــصُّـــبح إلا
نَـــشَـــرَتْهُ لـــنـــا يـــد الإمِـــسَـــاء

نـــحن في الأرض تـــائـــهـــون كـــأنّـــا
قـــومُ مـــوسى[3] في الـــلـــيـــلـــة الـــلّـــيْلاء

تـــتـــرامَى بـــنـــا الـــركـــائبُ في الـــبَـــيْـ
ـــداءِ طَـــوراً؛ وتـــارةً في المـــاء

ضُـــعـــفـــاءُ مُـــحـــقَّـــرونَ كـــأنّـــا
مـن ظـلامٍ والـــنـــاسُ مـن لألاء

واغـــتـــرابُ الـــقـــويِّ عِـــزٌّ وفـــخـــرٌ
واغـــتـــرابُ الـــضّـــعـــيفِ بَـــدْءُ الـــفَـــنـــاء

عَـــابَـــنـــا الـــبِـــيضُ أنّـــنـــا غـــيـــرُ عُـــجْمٍ
والـــعِـــبِـــدَّى[4] بـــالـــسِّـــحـــنَـــةِ الـــبـــيـــضـــاء

---

(١) البلقع والبلقعة: الأرض القفر التي لاشيء فيها. وأراد بالعاصف: العاصفة.

(٢) الورقاء: الحمامة.

(٣) يشير إلى تيه موسى وقومه، في صحراء سيناء، بعد خروجهم من مصر.

(٤) العِبِدّى: أحد جموع العبد، وهي كثيرة.

ويحَ قـومـي قـد أطـمـعَ الـدهـرُ فـيـهـمْ
كلَّ قـوم حـتـى بـنـي الـسَّـوداء
فـإذا فـاتـنـا عـدوٌّ تجـنّـى
فـأرانـا الأحـبـابَ في الأعـداء
أطـربـتْـنـا الأقلامُ لـمّـا تـغـنّتْ
بـالمـسـاواة بـيـنَـنـا والإخـاءِ
فـسـكِـرْنـا بـهـا فـلـمّـا صَـحَـوْنـا
مـا وجـدنـا مـنـهـا سـوى أسـمـاءِ!

✡✡✡✡✡

نـحن في دولـةٍ تلاشت قُـواهـا
كـالـنُّـضَـار[1] الـمدفـونِ في الـغَـبْـراء
أو كَـمـثـلِ الجَـنـيـنِ مـاتتْ بـه الحَـا
ملُ حـيّـاً يَـجـول في الأحـشـاء
عـجـبـاً كـيـف أصـبحَ الأصلُ فـرعـاً
والـضُّـحـى كـيف حلَّ في الـظَّـلْـمـاء
مـا كَـفَـتْـنـا مـظـالمُ الـتُّـركِ حـتى
زحـفـوا كـالجـراد أو كـالـوبـاء
طُـرِدوا من رُبـوعِـهـمْ فـأرادوا
طَـرْدَنـا من رُبـوعـنـا الحـسـناء[2]
مـا لـنـا، والخـطـوبُ تـأخـذُ مـنّـا
نَـتـلَـهّـى كـأنـنـا في رَخـاء
ضِـيـمَ أحـرارُنـا وريـعَ حِـمَـانـا
وسـكـتْـنـا، والـصَّـمتُ لـلـجُـبـنـاء

---

(١) الذهب الخالص.

(٢) يعني: اليهود.

نـهـضـــةً تــكــشفُ المــذلّـــةَ عـــنّـــا
فــلــقــد طـــال نـــومُـــنـــا في الـــشـــقـــاء
نـــهـــضـــةً تـــلـــفِـتِ الـــعـــيـــونَ إلـــيــنـــا
إنّ خـــــوفَ الـــــبَلاءِ شَـــــرٌّ بلاء
نـــهـــضـــةً يـــحـــمل الأثـــيـــرُ صَـــداهـــا
لـــلـــبـــرايـــا في أوّلِ الأنـــبـــاء
نـــهـــضـــةً تُـــبْـــلـــغُ الـــنـــفـــوسَ مُـــنـــاهـــا
فـــهْـــيَ مـــشـــتـــاقـــةٌ إلى الـــهـــيـــجـــاء
إنّ ذا المُـــلـــكَ هـــيـــكـــلٌ نـــحـــن فـــيـــه الْـ
ـــقـــلـــبُ، والـــقـــلـــبُ ســـيّـــدُ الأعـــضـــاء
زعـم الخـــائـــنـــون أنّـــا بمـــا نـــبْـــغِـ
ـــيهِ نـــبـــغـــي الـــوصـــولَ لـــلـــعَـــنْـــقـــاء[1]
ســـوف يـــدرون أنمـــا الـــعُـــربُ قـــومٌ
لا يُـــبـــالـــون غـــيـــرَ ربِّ الـــســـمـــاء
يـــومَ لا تُـــنـــبتُ الـــســـهـــولُ ســـوى الـــنّـــا
سِ، وغـــيـــرَ الأســـنّـــةِ الـــسّـــمـــراءِ
يـــوم تـــمـــشـــي عـــلـــى جـــبـــالٍ من الأشْـ
ـــلاءِ، تـــمـــشـــي في أبـــحُـــرٍ من دمـــاء
يـــومَ يَـــســـتـــشـــعـــرُ المـــراؤون مـــنّـــا
إنّـــمـــا الخـــاســـرون أهلُ الـــرِّيـــاء

****

(١) أصل العنقاء طائر عظيم، معروف الاسم، مجهول الجسم، خلقَته المخيِّلة، وأصبح يعني: الداهية.

٢٥ - معركة بورغاس[١]

[الكامل]

هــذي الــوغَى مَــشـبــوبــةُ الــنــيــرانِ
مــشــدودةُ الأســبــابِ والأقــرانِ[٢]

شَــابتْ مــفــارقُــهــا وكــانت طِــفــلــةً
عــذراءَ مــنــذُ دقــائقٍ وثــوان

طُوِيَ الــسلامُ فــلــيس يُــنــشــرُ بــعــدَهــا
أو يُــبــعــثَ المَــلــحــودُ في الأكــفــان

شُــقُّــوا الــطُّــروسَ وحــطِّــمــوا أقلامــكُمْ
الــيــومَ يــومُ شــواجــرِ المُــرَّان[٣]

هــانتْ عــلــى الــصَّــمــصَــام كلُّ يَــراعــةٍ
مــا لــلــيــراعــةِ في الحــروب يَــدان[٤]

يــا صــاحــبي! لــيس الــوغى من مــذهــبي
هــاتــيكَ وسْــوسَــةٌ من الــشــيــطــان

فــالــنــاسُ إخــوانٌ ولــيس من الــنُّــهى
أن يــفــتِكَ الإخــوانُ بــالإخــوان

لــو تَــعــقِلُ الأجــنــادُ أنّ مــلــوكَــهــا
أعــداؤهــا انــقــلــبتْ عــلــى الــتِّــيــجــان

---

(١) Burgos مدينة في شمال إسبانية كانت فيها وقعة بين الجيش العثماني وقوى أوروبا الشرقية، بعد سقوط مقدونيا (في شبه جزيرة البلقان) في القرن الرابع عشر.

(٢) يريد: مشدودة حبالها: السبب والقَرْن، كلاهما يعني: الحبل.

(٣) المُرّان: الرماح الصلبة اللدْنة. واشتجرت: دخل بعضها في بعض، كأغصان الشجر: كناية عن المواجهة.

(٤) اليراعة: القصبة، والجمع: يَراع.

قـومٌ إذا شـاؤوا الـصـعـودَ لمـطـلَبٍ
تَـخِـذوا مـراقِـيَـهمْ من الأديـان
أوَ إن كـرهتَ الحـربَ كـنتَ يَـراعـةً
وإذا قـتـلتَ أخـاك غـيـرَ جـبـان؟
إن كـان قـتْـلِي الـنفسَ غـيـرَ مُـحـرَّمٍ
مـا الـفـرقُ بـين المـرءِ والحـيـوان؟
الحـربُ مـجـلـبـةُ الـشَّـقـاوة لـلـورَى
والحـربُ يَـعْـشـقُـهـا بـنـو الإنـسـان
لمن الخَـمـيسُ خـوافـقٌ رايـاتُه
مُـتـمـاسكُ الأجـزاء كـالـبُـنـيـان
مـتـألبٌ كـالـلـيل جَنَّ سـوادُه
مُـسـتـوفِـزٌ كـالـقِـدْرِ في الـغَـلَـيـان
مُـتـدفِّقٌ كـالـسَّـيل في الـغُـدْرانِ
مـتـدفِّعٌ كـالـعـاصفِ المِـرْنـان[1]
تـتـزلـزلُ الأطـوادُ من صَـدَمـاته
وتـظلّ مـنه الأرضُ في رَجَـفَـان
عـجلانُ يـكـتـسحُ الـبلادَ وأهـلَـهـا
إن الـشَّـقيَّ الـعـاجـزُ المـتَـواني
في كلِّ سَـرْجٍ ضـيـغمٌ مـتـحـفِّـزٌ
في كـفِّه مـاضـي الـشَّـبَـاةِ يَـمـانِ[2]
سَـمْحٌ إذا ضنَّ الجـبـانُ بـروحِه
فـكـأنَّـمـا في جـسـمِه رُوحَـان
مـا صـانَ مُـهـجـتَهُ الـتي في صـدرِه
إلا لـيـبـذُلـهـا بـيـومِ طِـعَـان

(١) ذو الرنين، لخفق رياح العاصفة.
(٢) الشباة: الحدّ. يريد: الحدّ الماضي.

لا شيءَ، يــومَ الــروعِ، أجــملُ عــنــدَه
من أن يُــرى والــقِــرْنَ يَــصْــطَــرعــانِ[1]

✡✡✡✡✡

يــا رُبَّ مــعــركــةٍ تَــراكمَ نَــقْــعُــهــا
حــتى اخــتــفى في ظلِّــهــا الجــيــشــان[2]
بــاتتْ صِــقــالُ الــهــنــدِ في أفْــيــائــهــا
كــالــبــرقِ يَــســطَعُ من خلال دُخــان
والخــيلُ طــائــرةً عــلى أرسَــانــهــا
تــهــوى لــو انــعــتــقَتْ من الأرسَــان
دوَتِ المــدافعُ كــالــرعــود قــواصِــفًــا
نَــطقَ الحــديــدُ فــعَيَّ كلُّ لــســان[3]
تــرمي بــأشــبــاهِ الــرُّجــوم تَــخــالُــهَــا
حــمــراءَ قــد صِــيــغَتْ من المَــرْجــان
مــا إن تَــطــيشُ وإن نَــأتْ أغــراضُــهــا
ولــكَمْ تَــطــيشُ قــذائفُ الــبُــركــان
صَــخَّــابــةً تــذرُ الحــصــونَ بلاقِــعَــاً
وتــدكُّــهــا دَكّــاً إلى الأركــان
تــنــقضُّ والــفــرســانُ في آثــارهــا
تــنــقضُّ مــثلَ كــواســرِ الــعُــقْــبــان[4]
هي وقــعــةٌ ضــجّتْ لــهــا الــدنــيــا كــمــا
ضــجّتْ وضجّ الــنــاسُ في «سِــيــدان»

(١) القِرن: هو القرين المساوي.
(٢) النقع: غبار المعركة. والجيشان هما: الجيش العثماني وقوى أوروبة الشرقية.
(٣) عيٌّ وعييَ - يعيا: من الإعياء والتعب.

مشت المنايا حاسراتٍ عندها
تتطلَّبُ الأرواحَ في الأبدان

فعلَى أديمِ الجوِّ ثوبٌ أسودٌ
وعلى أديم الأرض ثوبٌ قانِ

وإذا نظرتَ إلى الجُسوم على الثَّرى
أبصرتَ كُثْباناً على كُثْبان

لمّا رأوا (بورغاس) ضَرّةَ (مَكْدنٍ)
حملوا عليها حَملَةَ اليابان[1]

وقد انجلتْ فإذا الهلالُ منكَّسٌ
علَمٌ طَوتْهُ رايةُ الصُّلبان

رجحتْ قُواهمْ أيّما رُجْحانٍ
فيها، وشالَ التُّرْكُ في المِيزان

نفروا لَكالحُمُرِ[2] التي روَّعتَها
بابن الشَّرى المتجهِّمِ الغَضْبان

وقلوبهمْ قد أسرعتْ ضَرَباتُها
وتظنُّها وقفتْ عن الخفقان

مُتلفِّتين إلى الوراءِ بأعينٍ
تَتخيَّلُ الأعداءَ في الأجفان

يتلمَّسون من المنيّة مَهْرَباً
هيهاتَ إنَّ الموتَ كلُّ مَكان

واللهِ ما يَنجُونَ من أشراكِه
ولو استعاروا أرْجُلَ الغِزلان

(١) يريد: مكدونيا (مقدونية) Macédoine التي سقطت في يد العثمانيين في القرن الرابع عشر.
(٢) يُجمع (الحمار) على حُمْر وحُمُر وأحْمِرة.

أسلابُهمْ للظافرينَ غنيمةٌ
وجُسومهمْ للحاجلِ الغَرْثان[1]
إنْ يأمنوا وقْعَ الأسنّةِ والظُّبَى
فالذُّعرُ طاعِنُهمْ بشرِّ سِنان

✡✡✡✡✡

ما أنسَ لا أنسى عصابةَ خُرَّدٍ
في الله مَسعَاهنَّ والإحسانِ[2]
عِفْنَ الوثيرَ إلى وسائدَ قَضّةٍ
ونزحْنَ عن أهلٍ وعن أوطان[3]
ووقفنَ أنفسَهُنّ في الدنيا على
تأمين مُلْتاعٍ ونُصرةِ عَانِ
يحملْنَ ألويةَ السلام إلى الأُلى
حَمَلوا لواء الشَّرِّ والعُدوان
كم من جريحٍ بالنَّجيعِ مُخَضّبٍ
في الأرض لا يحنو عليه حانِ
ما راعَهُ طيفُ المنيَّةِ مثلَما
راعتْ حَشَاهُ فُرقةُ الخُلاّن
فلَهُ، إذا ذَكَر الديارَ وأهلَهُ،
آهُ الغريبِ وأنةُ الثُّكْلان
نفَّسْنَ من بُرَحائِه، وأَسَوْنَهُ
وأعَضْنَهُ من خوفِه بأمان[4]

(١) حجَل - يحجِل: مشى مشية المقيّد. والغرثان: الجائع (غرَث - يغرِث: جاع).
(٢) الخريدة: البكر من النساء.
(٣) القضّة: من قضّ المضجع وأقضّ: نبا وخشن.
(٤) البُرَحاء: الشر والعذاب الشديد. أسَوْنه: من أساه (داوينه). أعَضْنه: عوّضنه.

مــا حــبَّبَ الجــنّــاتِ عــنــدي أنــهــا
مَــثــوى سلامٍ، مُــســتــقَــرُّ حِــسَــان
لــولا حــنــانُ الــغــانــيــاتِ وعــطــفُــهــا
مــا كــانت الــدنــيــا سِــوى أحــزان

✵✵✵✵✵

مَن مُــســمِــعُ الأيــامَ عــنّي نَــبْــأةً
يــرتــاعُ مــنــهــا كلُّ ذي وُجْــدان
إنّ الأُلى جَــبُــنُــوا أمــامَ عُــداتــهِمْ
شَجُــعــوا عــلى الأطــفــال والــنِّــسوان
وصَــوارِمــاً قــد أُغــمــدتْ يــوم الــوغى
شُــهِــرَتْ عــلى الأضــيــافِ والــقُــطّــان
أكــذا يُــجَــازَى الآمــنــون بــدُورِهمْ
أوْ هــكــذا قــد جــاءَ في الــقــرآنِ؟

✵✵✵✵✵

أخــنَى عــلى الأتــراكِ دهْــرٌ حُــوَّلٌ
أخــنَى عــلى الــيــونــان والــرومــان
وطــوى مــحــاسنَ «يــلْــدِزٍ» قَــدَرٌ طــوَى
رَبَّ الــسَّــديــرِ وصــاحبَ الإيــوان[1]
فــالــيــومَ لا أسَــتَــانــةٌ أســتَــانــةٌ
تــزهــو ولا الــسلــطــانُ بــالــسُّــلــطــان[2]
دارتْ دوائــرُه عــلــيــهــا مِــثــلَــمــا
دارتْ دوائــرُه عــلــى «طَــهْــران»

---

(١) (يلدز): قصر السلطان عبد الحميد الثاني. و(السدير) أخو (الخورنق) في الحيرة عاصمة المناذرة. و(الإيوان) إيوان كسرى وهو قائم إلى اليوم.

أمُـنـبِّـهي الأضـغـانِ كـيف هَـجَـعْـتُمُ
لـمّـا تـنـبَّهَ نـائمُ الأضْـغـان
وحـكـومـةَ الأشْـيـاخِ ويـحكِ مـا الـذي
خـالـفتِ فـيه عُـصْـبـةَ الـفـتـيـان
قـالـوا: لـنـا الـمُـلْكُ الـعـريضُ وَجـاهُهُ
كَـذَبـوا، فـإنّ الـمُـلْكَ لـلـرحـمن
مـا بـالُ قـومـي كـلـمـا اسـتـصـرَخْتُهُمْ
وضَـعـوا أصـابـعَـهم عـلى الآذان
أبـنـاءَ سـوريّـا الـفـتـاةِ تـضَـافـروا
وخُـذوا مَـثَـالَـتـكُمْ عن الـبَـلْـقـان[1]
مـا الـتـركُ أهلٌ أن يُـسـودوا فـيـكمُ
أو تُـحْـكَمَ الآسـادُ بـالـظِّـلْـمـان[2]
هم ألـبَـسُـوا الـشـرقيَّ ثـوبَ غَـضَـاضـةٍ
وسـقَـوهُ كـأسـيْ ذِلّـةٍ وهَـوان
فـإذا جـرى ذكـرُ الـشُّـعـوبِ بمـوضـعٍ
شـمَـخـتْ، وطـأطـأَ رأسَـه الـعـثـمـاني!..

****

(١) أراد بالمثالة: المثال (في المعاجم: حسن الحال).
(٢) الظليم: ذكر النعام (وجمعه: ظِلمان).

٢٦ - خير شيء

[الوافر]

ذهبتُ مُسَائلاً عن خَير شيءٍ
لأعرفَ كُنهَ أخلاقِ البريّهْ

فقالت لي الكنيسةُ: خيرُ شيءٍ
هو الزُّهدُ الذي يمحو الخطيَّهْ

وقالت لي الشَّريعةُ: خيرُ شيءٍ
شُمولُ العدلِ أبناءَ الرّعيّهْ

وقال: الشُّهرةُ، الجنديُّ، خيرٌ
وإن كانت تقودُ إلى المنيّهْ[1]

وقال أخو الحَصافةِ: خيرُ شيءٍ
هو الحقّ المبينُ بلا مَريّه

وقال أخو الجهالةِ: خيرُ شيءٍ
سرورُ النفس في الدُّنيا الدّنيَّه

وقال لي الفتى: وصْلُ الصَّبايا
وقالت لي: الهوى، البنتُ الصَّبيّهْ[2]

ولمّا أنْ خلَوتُ سألتُ نفسي
لأعرفَ رأيَّها في ذي القضيّه

فقالت: لا أرى خيراً وأبقى
من الإحسان للنفس الشّقيّه

****

---

(١) فاعل الفعل في البيت، هو الجندي.

(٢) فاعل الفعل هي البنت الصبية.

٢٧ - حكاية حال

[مجزوء الكامل]

الحشدُ ملءُ الدارِ لـ
ـكنْ لم يَرَ أحداً سِواها

فَتّانَةٌ خَلاّبَةٌ
كالياسَمينةِ في شَذاها

أوفَى عليها وهي تَخْـ
ـطِرُ كالفراشةِ فاشتهاها

شَكَتِ الصَّبابَةَ مُقلتا
هُ فجاوبتْه مُقلَتاها

حتى إذا ما اختار كُلْـ
ـلُ فتىً رفيقتَه اصطفاها

ورأتْ به من تبتغي
وكما رأته كذا رآها

وتقدّما للرقص يقـ
ـرأُ ناظِرَيْهِ ناظِراها

متلاصِقِي[1] الجسمين يَسْـ
ـنُدُ سَاعِدَيْهِ ساعداها

وتكاد لولا الخوفُ تَلْـ
ـمسُ وَجنتيه وَجنتاها

متدافعَيْن كموجتَيْـ
ـنِ، خُطاه تتبعُها خُطاها

---

(١) يريد: «متلاصِقَي».

يمـــــشي فـــتَـــمـــــشي وهـي تحْـ

ــسَـبُهُ يـسـيـر عــلـى حَـشــاهـــا

هـي فـي لـــــثـــام كـــالـــدُّجـى

مُـحْـلَـولكٍ وكـــذا فَـــتَــاهـــا

لـــكـــنّـــمـــا الألـحـــاظُ تَـــخْـ

ــتَـرِقُ الــسُّــتـورَ ومـــا وَراهـــا

فـــاض الـــغـــرامُ فـــقـــال آ

هِ وقـــالـتِ الحَـــســنـــاءُ آهـــا

فـــانـــسـلّ مـن أصــحـــابــه

سِـــرّاً، وأغْـــضَـتْ جـــارتـــاهـــا

ومـــشـى بـــهـــا فـي روضـــةٍ

قــد نــام عــنـهـــا حــارِسَــاهـــا

حـــتى إذا أمِـــنّـــا الــــورَى

وشــكـــا الــهـوى وشـكَـتْ هَـواهـــا

طـــارتْ بـــبُـــرقُـــعِـــهـــا وبُـــرْ

قُـــعـه عـــلـى عَـــجَلٍ يـــداهـــا

كَـــيـــمـــا تُـــقَـــبِّلَ ثَـــغْـــرَهُ

ويُـــقَـــبِّلُ المـــعـــشـــوقُ فَـــاهـــا

فـــرأى المــــتـــيَّمُ بـــنـــتَـه

ورأتْ مَـــلـــيـحـــتُـــنـــا أبـــاهـــا!

****

٢٨ - شكوى

[الرمل]

نَسِيتْ عهدي، فلمّا جئتُها
زعَمتْ أني تناسَيتُ العهودْ
وادّعتْ أني خليٌّ زاهدٌ،
أنا لو كنت كذا كنتُ سعيدْ

✡✡✡✡✡

رغبتْ في الصَّدِّ عني بعدما
بتّ لا يحزُنني مثلُ الصُّدود
مثلما أنكرَ ثَغريْ خدُّها
أنكرتْ فاتِنَتِي تلك الوعودْ

✡✡✡✡✡

يا شهودي عندما كنّا معاً
ذكّروها.. أين أنتم يا شُهودْ؟
سكتَ البدرُ الذي راقبَنا
وذوتْ في الرّوض هاتيكَ الورودْ

✡✡✡✡✡

ومشَتْ ريحُ الصَّبا حائرةً
في المغاني حَيْرةَ الصّبِّ العميدْ

يــا هــواهــا قلْ مــتى تــتــركُــني

قــال: أو تَــصــْـفــرُّ[1] هــاتــيكَ الخــدودْ

✡✡✡✡

أنــا لا أدعــو عــلــيــهــا بــالــضَّــنَى

أتّــقي أن يَــشــمَتَ الــقــالِي[2] الَــحــسود...

****

(١) التقدير: لن أتركك أو تصفرّ.

(٢) المبغض (قلاه - يقليه).

٢٩ - بائعة الورود

[البسيط]

مِن الـفِـرَنْـسـيس قَـيْدَ الـعـينِ صـورتُـها
عـذراءُ قـد مُـلـئتْ أجـفـانُـهـا حَـوَرا

كـأنمـا وهَـبتْهَـا الـشـمسُ صـفـحـتَـها
وجـهـاً، وحـاكَتْ لـهـا أسلاكُـهـا شَـعَـرا

يـدُ الـمـنـيّـةِ طـاحتْ غِبَّ مَـوْلِـدِهـا
بـأمِّـهـا، وأبـوهـا مـاتَ مـنـتـحِـرا

في قـريـةٍ من قُـرى بـاريسَ مـا صـغُـرت
عن الـفـتـاة، ولـكنْ هـمُّـهـا كَـبُـرا

والـنفسُ تَـعـشقُ في الأهـلـينَ مـوطنَـها
ولـيس تـعـشـقُه يَـحـويـهِمُ حُـفَـرا

وتـعـظُمُ الأرضُ في عـيـنـيكَ مـحـتـرَماً
ولـيس تـعـظُمُ في عـيـنـيكَ مُـحـتـقَـرا

فَـغـادرَتْـهـا ومـا في نـفـسِـهـا أثَـرٌ
مـنـهـا، ولا تـركتْ في أهـلِـهـا أثـرا

إلى الـتي تَـفـتِنُ الـدنـيـا مَـحـاسـنُـها
وحُـسْنُ مَن سكَـنوهـا يَـفـتِنُ الـبَـشـرا

إلى الـتي تَـجـمعُ الأضْـدادَ دارَتُـهـا
ويـحـرُسُ الأمْنُ في أرجـائـهـا الخَـطَرا[١]

إذا رآهـا تـقـيٌّ ظـنَّـهـا «عَـدَنـاً»

---

(١) الدارة أخصّ من الدار. وهي الهالة من حول القمر أيضاً.

وإن رآهـا شـقيٌّ ظنّـهـا «سـقَـرا»

تـودّ شـمسُ الـضُّحى لـو أنـهـا فـلَكٌ

والأفْقُ لـو طـلَـعتْ في أوْجِهِ قَـمَـرا

والـغـربُ لـو كـان عُـوداً في مَـنـابـرهـا

والـشـرقُ لـو كـان في جُـدرانـهـا حـجـرا

في كلّ قـلـبٍ هـوًى مـنـهـا كـأن له

في أهـلـهـا صـاحـبـاً، في أرضـهـا وطَـرا

(بـاريس) أعـجـوبـةُ الـدنـيـا وجـنّـتُـهـا

وربّـةُ الحُـسْن مـطـروقـاً ومـبـتَـكَـرا

✡✡✡✡

حـلَّتْ عـلـيـهـا فـلم تُـنـكـرْ زخـارفَـهـا

فـطـالمـا أبـصـرتْ أشـبـاهَـهـا صُـوَرا

ولا خلائقَ أهـلـيـهـا وزِيَّـهُـمُ

فـطـالمـا قَـرأتْ أخلاقَـهمْ سِـيَـرا

وإنمـا أنـكَـرتْ في الأرض وَحـدَتَـهـا

كـذلك الـطـيـرُ إمَّـا فـارقَ الـوَكَـرا

يـتـيـمـةٌ مـا لـهـا أمٌّ تـلـوذُ بـهـا

ولا أبٌ إن دعـتْه نـحـوَهـا حَـضَـرا

غـريـبـةٌ يَـقـتـفـيـهـا الـبـؤسُ كـيف مشتْ

مـا عـزّ في أرض «بـاريسٍ» من افـتَـقَـرا

مـرّتْ عـلـيـهـا لـيـالٍ وهيَ في شُـغُلٍ

عن سـالفِ الـهمِّ بـالـهمِّ الـذي ظـهـرا

حـتى إذا عـضَّـهـا نـابُ الـطَّوى نـفـرتْ

تـسـتـنـزلُ الـرزقَ فـيـهـا الـفـرْدَ والـنَّـفَـرا

تجـني الـلُّـجـينَ ويـجـني الـبـاذلـوه لـهـا

من كفّها الوردَ منظوماً ومنتثِرا

لا تتّقي اللهَ فيه وهوَ في يدها

وتتّقي فيه فوقَ الوجنةِ النظَرا

تغارُ حتّى من الأرواح ساريةً

فلو تمُرّ قَبولٌ[1] أطرقتْ خَفَرا

أذالتِ الوردَ قانيه وأصفرَهُ

كيما تصونَ الذي في خدّها نَضَرا[2]

حَمتْه عن كل طرْفٍ فاسقٍ غَزِلٍ

لو استطاعتْ حَمتْهُ الوهْمَ والفِكَرا

تُضاحِكُ الخَلْقَ لا زَهْواً ولا لَعِباً

وتجحَدُ الفقرَ لا كِبْراً ولا أَشَرا[3]

فإن خَلَتْ هاجتِ الذكرى لواعجَها

فاسْتنفدَتْ طَرْفَها الدّمعَ الذي ادّخَرا

✲✲✲✲✲

تعلَّقَتْهُ فتًى كالغصن قامتُهُ

حلوَ اللسان أغرَّ الوجه مُزدَهِرا

وهامَ فيها تُريه الشمسَ غُرّتُها

والفجرَ مرتصِفاً في ثغرها دُرَرا

إذا دنا رغبتْ ألاّ يُفارقَها

وإن نأى أصبحتْ تشتاقُ لو ذُكِرا

تُغالبُ الوجْدَ فيه وهو مقتربٌ

وتهجرُ الغَمضَ فيه كلّما هَجَرا

كانت توقّى الهوى إذ لا يُخامرُها

---

(١) القَبول: ريح الصَّبا (ضد: الدَّبور).

(٢) أذال: أهان وامتهن. نَضَرَ: حسُن ونَعُم.

(٣) البَطر (أشِر – يأشَر).

فـأصـبـحـت تَـتـوقَّى في الـهـوى الحَـذَرا

قـد عـرَّضَتْ نـفـسَـهـا لـلـحب واهـيـةً

فـنـال مـنـهـا الـهـوى الجـبَّـارُ مُـقـتـدِرا

والحبُّ كـالـلِّصِّ لا يُـدريكَ مـوعِـدَهُ

لـكـنَّه قـلَّـمـا، كـالـسَّـارقِ، اسـتَـتَـرا

✡✡✡✡✡

ولـيـلـةٍ من لـيـالي الـصـيف مُـقْـمِـرةٍ

لا تـسـأمُ الـعـينُ فـيـهـا الأنجُمَ الـزُّهُـرا

تَلاقَـيـا فـشـكـاهـا الـوجَـدَ فـاضـطـربتْ

ثم اسـتـمـرَّ فـبـاتتْ كـالـذي سُـحِـرا

شـكـا فـحـرَّكَ بـالـشـكـوى عـواطـفَـهـا

كـمـا تُـحَـرِّكُ كفٌّ الـعـازفِ الـوَتَـرا

وزاد حـتـى تـمـنَّتْ كلُّ جـارحـةٍ

لو أصـبحتْ مَـسْمَـعاً أو أصـبـحت بَـصَـرا

ران الـهُـيـامُ عـلى الـصَّـبَّيْن فـاعـتـنـقـا

لا يمـلِـكـان الـنُّـهى وِرْداً ولا صَـدَرا[1]

«وكـان مـا كـان ممـا لـستُ أذكـرُه»

تـكـفي الإشـارةُ أهلَ الـفِـطْـنـةِ الخَـبَـرا

✡✡✡✡✡

هـامتْ به وهْي لا تـدري لِـشَـقْـوتِـهـا

بـأنـهـا قـد أحـبَّتْ أرقـمـاً ذَكَـرا[2]

رأته خَـشْـفـاً فـأدنَـتْهُ، فـراءَ بـهـا

(١) يعني: لا أخذاً ولا رداً.

(٢) الحية فيها بياض وسواد. ويريدها هنا أن تكون: الثعبان.

(٣) راءَ من (رأى – راءةً) – راءَ – يَرْءَ.

شـاةً، فـأنـشبَ فـيـهـا نـابَهُ نَـمِـرا[٣]

مـا زال يـؤمنُ فـيـهـا غـيـرَ مـكـتـرثٍ
بـالـعـاذلـينَ، فـلـمّـا آمـنتْ كَـفَـرا

جنى عليها الذي تَخْشى، وقاطَعَها
كـأنّـمـا قـد جـنَتْ مـا لـيس مُـغْـتـفَـرا

كـانتْ وكـان يـرى في خـدّهـا صَـعَـراً
عـنه، فـبـاتت تَـرى في خـدّه صَـعَـرا[١]

فـكـلّـمـا اسـتـعـطـفـتْه ازورّ مُـحْـتَـدِمـاً
وكـلـمـا ابـتـسـمتْ في وجـهه كَـشَـرا

طـال الـنِّـفـارُ و«فـرجيـنـي» عـلى مَـضَضٍ
تجـرّعَ الأنـقَـعَـيْنِ: الـصّـابَ والـصّـبِرا[٢]

قـالت، وقـد زارهـا يـومـاً، مُـعـرِّضَـةً:
مـتى، لـعَـمرُك، يَـجـني الـغـارسُ الـثـمـرا؟

كم ذا الـصُّـدودُ ولا ذنبٌ جـنـتْه يـدي
أرجـو بك الـصَّـفْـوَ لا أرجـو بك الـكَـدَرا

تَـركـتَـني لا أذوقُ المـاءَ من وَلَـهي
كـمـا تـركتَ جـفـوني لا تَـذوقُ كَـرى

أشْـفِقْ عـليَّ ولا تَـنْسَ وعـودَك لي
فـإنّ مـا بيَ لـو بـالـصّـخـرِ لا نـفَـطَـرا

أطـالتِ الـعَـتْبَ تـرجـو أن يَـرقَّ لـهـا
فـؤادُه فـأطـالَ الـصّـمتَ مُـخـتـصِـرا

وأحْـرجـتْهُ لأنّ الـهمَّ أحْـرجَـهـا
وكـلّـمـا أحـرجـتْه راغَ مـعـتـذِرا

وضـاق ذَرْعـاً بمـا يُـخـفي فـقـال لـهـا:

---

(١) صَعَر خده: أماله من الكِبْر.

(٢) يريد: النقيعين، لأنهما يُنقَعان في الماء. الصاب: عصارة شجر مرّ (واحدته: صابة). والصبِر: مثله.

إلامَ ألــزمُ فــيكِ الــعِيَّ والحَــصَــرا

أهــواكِ صــاحــبــةً.. أمّــا اقــتــرانُك بي

فــلــيس يــخــطُــرُ في بــالي ولا خَــطَــرا

أهــوى رضــاكِ ولــكنْ إن ســعــيتُ له

أغــضــبتُ نــفــسيَ والــدَّيّــانَ والــبَــشَــرا

عــنَــيْتُ مــا ليَ من قــلــبــين في جَــسَدي

ولــيس قــلــبي إلى قِــســمــين مُــنــشــطِــرا

تُــطــالــبِــيــنــي فــؤادي وهْــوَ مــرتَــهَنٌ

في كفِّ غــيــرِكِ، رُمْتِ المَــطْــلبَ الــعَــسِــرا

يــكــفــيكِ أنــي فــيكِ خُــنــتُ إمــرأتي!

ولــم يــخُنْ قــلــبُــهــا عــهــدي ولا خَــفَــرا

قــد كــان طــيــشــاً هُــيــامِي فــيك بل نَــزَقــاً

وكــان حــبُّكِ ضَــعــفــاً مــنكِ بل خَــوَرا

قــالت: مــتــى صِــرتَ بَــعْلاً؟ قــال: من أَمَــدٍ

لا أحــسَبُ الــعــمــرَ إلاه وإن قَــصُــرا

يــا هــولَ مــا أبــصــرتْ! يــا هــولَ مــا ســمــعتْ!

كــادت تُــكَــذِّبُ فــيه الــسَّــمعَ والــبَــصَــرا

لــولا بــقــيّــةُ صــبــرٍ في جــوانــبِــهــا

طــارتْ له نــفــسُــهــا من وقْــعِه شَــذَرا

يــا لَــلــخــيــانــةِ! صــاحتْ وهي هــائــجــةٌ

كــمــا تــهــيَّجَ لــيثٌ بــابــنــه وُتِــرا

الآن أيــقــنــتُ أني كــنــتُ واهــمــةً

وأنّ مــا كلُّ بــرْقٍ يَــصــحَبُ المــطــرا

وهــبتَ قــلــبك غــيــري وهــو مِــلْكُ يــدي

مــا خِــفْتَ شَــرْعــاً ولا بــالــيتَ مُــزْدَجَــرا

لــيــستْ شــرائعُ هــذي الأرضِ عــادلــةً

كـان الـضـعـيفُ ولا يـنـفكُّ مُـحـتـقَـرا

قـد كـنـتُ أخـشى يـدَ الأقـدارِ تَـصـدَعُـنـا

وكـان أجـدرَ أن أخـشـاكَ لا الـقَـدَرا

وصَـلْـتَـنِـي مـثـلَ شـمـسِ الأفْقِ نـاصـعَـةً

وعِـفْـتَـنِـي مـثـلَ جُـنـحِ الـلـيل مُـعـتـكِـرا

كـمـا تـعـافُ الـسَّـراةُ الـثّـوبَ قـد بَـلِـيتْ

خـيـوطُه والـرُّواةُ المَـوردَ الـقَـذِرا

خِـفـتَ الأقـاويلَ بي قـد نـام قـائـلُـهـا

هـلاَّ خـشـيتَ انـتـقـامي وهْـو قـد سـهـرا

يـا سَـالـبي عِـفَّـتِي من قَـبلِ تـهـجـرَني

أرْدِدْ عـلـيَّ عَـفـافي واردُدِ الـطُّـهُـرا[1]

هـيـهـاتَ هـيـهـاتَ مـا مِن عـفّـتي عِوَضٌ

لاح الـرّشـادُ وبـانَ الـغَـيُّ وانـحـسـرا...

✵✵✵✵✵

وأقـبـلتْ نـحـوَه تَـغْـلِـي مَـراجـلُـهـا

كـأنـهـا بـركـانٌ ثـار وانـفَـجـرا

في صـدرهـا الـنـارُ، نـارُ الحـقـد، مُـضْـرَمـةٌ

لـكـنَّـمـا مُـقـلـتـاهـا تـقـذفُ الـشَّـرَرا

وأبـصـرَ الـنـصلَ تُـخـفـيه أنـامـلُـهـا

فـراح يـركضُ نـحـو الـبـاب مُـنـذعِـرا

لـكـنـهـا عـاجـلـتْه غـيـرَ وانـيـةٍ

بـطـعـنـةٍ فَـجّـرتْ في صـدره نَـهَـرا

فـخَـرّ في الأرض جـسـمـاً لا حَـراكَ بـه

---

(١) أراد: من قبل أن تهجرني.

لـكنَّ «فـرْجـينَ» مـاتتْ قـبلـمـا احـتُضِـرا

جُـنَّتْ مِن الـرُّعبِ والأحـزان فـانـتـحـرتْ

مـا حـبَّتِ المـوتَ لـكن خـافتِ الـوَضَـرا

✡✡✡✡

كـانت قُـبـيلَ الـرّدى مـنـسـيـةً فـغـدتْ

بـعـد الحِـمَـامِ حـديثَ الـقـوم والـسَّـمَـرا

تـتـلـو الـفـتـاةُ عِـظـاتٍ في حـكـايـتـهـا

كـمـا يـطـالـعُ فـيـهـا الـنـاشئُ الـعِـبَـرا

****

٣٠ - ١٩١٤

[الرّمل]

طُويَ العامُ كما يُطوى الرَّقيمْ[١]

وهوَى في لُجَّة الماضي البعيدْ

☆☆☆☆☆

لم يكنْ.. بل كان لكنْ ذَهَبا

وانقضَى حتّى كأنْ لم يكُنِ

لو درى حين أتى المُنْقَلَبا[٢]

لَتمنَّى أنه لم يَبِنِ[٣]

أيُّ نجمٍ شارقٍ ما غرَبا

أيُّ قلبٍ خافقٍ لم يَسْكُنِ

جاهلٌ من حَسِبَ الآتي يدومْ

أحمقٌ من حسِبَ الماضي يعودْ

☆☆☆☆☆

ما لنا يأخذُ منّا الطّربُ

كلّما عامٌ تلاشى واضْمَحلْ

أفَرِحنَا أننا نقتربُ

من غدٍ؟ إنّ غداً فيه الأجلْ

عجبٌ هذا ومنه أعجَبُ

إنّنا نَفنَى ولا يَفنى الأملْ

---

(١) الرقيم: الكتاب.

(٢) حيث ينقلب مبتعداً.

فكأنّا ما سمعنا بالحُتومْ

أو كأنّا قد نعِمْنا بالوجودْ

✡✡✡✡✡

يا رعَاهُ اللهُ من عامٍ خَلا

فلقد كان سَلاماً وأمانْ

صافحَ الجَحْفَلُ فيه الجَحْفَلا

واستراحَ السيفُ فيه والسِّنانْ

ما انجلَى حتى رأى النَّقْعَ[1] انجلى

وخبتْ نارُ الوغَى في «البلقَانْ»[2]

لستُ أنسى نهضةَ الشعبِ النَّؤومْ

إنّ فيها عِبرةً للمستفيدْ

✡✡✡✡✡

والتقَى البحران فيه بعدَما

مرَّتِ الأجيالُ لا يلتقيانْ

أصبح السّدُّ الذي بينهما

تُرعَةً يزخرُ فيها الأزرَقانْ

فلتدُمْ (آميركا) ما التطَما

ما لهذا الفتْحِ في التاريخ ثانْ

ولتعش رايتُها ذاتُ النجومْ

أجملُ الرّايات، أولى بالخلودْ.!

✡✡✡✡✡

واعتلى الناسُ به متْن الهواءْ

فهُمُ حول الدّراريْ[3] يَمرحونْ

---

(١) الغبار (غبار المعارك).

(٢) هي المنطقة الجبلية في جنوب أوروبا وتضم رومانيا وألبانيا وبلغاريا واليونان ويوغوسلافيا وصربيا والجانب الأوروبي من تركية.

(٣) النجوم المضيئة بلون الدر.

يمخُرُ المنطادُ فيهمْ في الفضاءْ
مثلما يمخُرُ في البحر السَّفينْ
معجزاتٌ ما أتاها الأنبياءْ
لا ولم يطمحْ إليها الأقدَمون
سَخَّرَ العلمُ لهم حتّى الغيومْ
فهُمُ، مثلُهُمُ، فوق الصَّعيدْ[1]

☼☼☼

حلَّقَ الغربيّ فوق السَّمواتْ
ولبثنا ندبُ الرّسمَ المَحيل[2]
فإذا ما قال أهلُ المكرُمَاتْ
ما وجدْنا، وأبيكُمْ، ما نقولْ
لو فَقِهنا مثلَهمْ معنى الحياةْ
ما أضعناها بكاءً في الطُّلولْ
ألفتْ أنفسُنا الضَّيْمَ المُقيمْ
مثلما يستعذِبُ الظّبيُ الهَبيدْ![3]

☼☼☼

أدركتْ غاياتِها كلُّ الشّعوبْ
نهضَ الصّيني وما زلْنا نِيامْ
عبَثَتْ فينا الرَّزايا والخطوبْ
مثلما يَعبَثُ بالحُرّ اللِّئامْ
صودِرَ الكاتبُ منّا والخَطيبْ
مُنعتْ ألسُنُنَا حتّى الكلامْ

---

(١) الصعيد: التراب، يريد: سطح الأرض.
(٢) المَحيل: حال عليه الحول، يريد الزمان على الإطلاق. يشير إلى بكاء الديار وأطلالها عند الشعراء العرب في القديم.
(٣) الهبيد: الحنظل، أو حَبّه (يُطبخ بعد أن ينقع في الماء لتذهب مرارته)!

نحن في الغفلة أصحابُ الرّقيمْ[1]
نحن في الذِّلّةِ إخوانُ اليهودْ[2]

✡✡✡✡✡

ليتَ أنَّا حينَ ماتَ الشَّمَمُ
لحِقتْ أرواحُنا بالغابرينْ
ما تمرّدنا على من ظَلموا
لا ولم نفكُكْ وثاقاً عن سجينْ
ليس يمحو عارَنا إلا الدّمُ
فإلى كم نذرِفُ الدّمعَ السَّخِين؟
قام فينا ألفُ جبّارٍ غَشومْ
غير أنّا لم يمتْ منّا شهيدْ

✡✡✡✡✡

يا لَقومي بلغ السّيل الزُّبَى[3]
واستطالَ البَغْيُ واستشرَى الفسادْ
فاجعلوا أقلامَكُمْ بِيضَ الظُّبا[4]
واستعيروا من دم الباغي المِداد
كتَبَ السيفُ.. اقرؤوا ما كتَبا:
«لا يُنالُ المجدُ إلاّ بالجهادْ»
أيْ رجالَ الشّرقِ أبناءَ القُرومْ![5]
لا تناموا. آفةُ الماءِ الرُّكودْ!!

✱✱✱✱

---

(١) يشير إلى قصة «أهل الكهف» الذين « لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً» انظر سورة الكهف، في القرآن الكريم (الآية ٩).
(٢) إشارة إلى الآية الكريمة «وضُرِبت عليهم الذلة والمسكنة » سورة البقرة، الآية ٦١
(٣) الزُّبية: الرابية لا يعلوها الماء.
(٤) الظبة: حد السيف. والجمع: الظبا.

٣١ - بنت الدوالي

[الرجز]

هـاتِ اسـقِـنـي بـالـقَـدَحِ الـكـبـيـرِ
صـفـراءَ لـونَ الـذّهب المـصْـهـورِ
كـأنـهـا في أكـؤس الـبَـلُّـورِ
شُـعـلـةُ نـارٍ في بـقـايـا نـورِ

✡✡✡✡✡

عـجـبتُ لـلـكـأس الـتي تَـحـويـهـا
كـيف اسـتـقـرّتْ والحـيـاةُ فـيـهـا
لـو لم يُـدِرْهـا بـيـنـنـا سـاقِـيـهـا
دارتْ عـلـى الـقـوم بلا مُـديـرِ

✡✡✡✡✡

هـاتِ اسْـقِـنـيـهـا مـثلَ عـينِ الـديكِ
صـافـيـةً تـنـهضُ بـالـصُّـعـلـوكِ
حـتّى يـرى الـتِّـيهَ عـلـى المـلـوكِ
ولا يُـبـالـي سـطـوةَ الأمـيـرِ

✡✡✡✡✡

بـنتَ الـدّوالي ضَـرّةَ الـرُّضـابِ[١]
أختَ الـتّـصـافي زوجـةَ الـسَّـحـابِ
أنـتِ، وإن لام الـورى شَـرابي
في الخـالـدَيْنَ: الـقَـرِّ والـهَـجـيـرِ[٢]

✡✡✡✡✡

---

(١) الرّيق. يريد: طيبه حين يرشفه.

أشــرَبُــهَــا بل أشــربُ الإكــســيــرا[1]
تَــخْــلُقُ في شــاربــهــا الــسُّــرورا
فــقل لمن يــحــسَــبُــهــا غُــرورا
مــا الــعــيشُ إلاّ ســاعــةُ الــغُــرور

****

(١) الشراب.

٣٢ - الطيران

[الخفيف]

لــــو رأى «آدمٌ» فـــتـــاهُ لـــزال الْـ
ــحِــقْــدُ من قــلــبه عــلى حــوّاءِ

صــيّــر الأرض جــنــةً دونــهــا الجَــنْـ
ــنَــةُ في الحُــسْن والــبَــهــا والــرُّواء

مــا أظنّ الــنــعــيمَ فــيه الــذي في الْـ
أرضِ مــن بـــــهـــــجـــــةٍ ومن لألاء

كلّ مــا في الــوجــودِ لــلــمــرء عَــبْــدٌ
وهــوَ عــبــدُ الــشَّــهْــواتِ والأَهْــواء

كـــائنٌ كلٌّ كـــائنٍ حـــارَ فـــيه
فــهـــوَ حُــلْــوٌ مُــرٌّ ودانٍ نــاء

وهـــوَ طــوراً يــكــون نــصفَ إلهٍ
وهـــو طــوراً أدنى من الــعَــجْــمــاء

عــجــبــاً كــيف طــاعَهُ الــطّــينُ والمــا
ءُ ومـــا كـــان غــيــرَ طــينٍ ومـــاءِ؟

ســادَ في الــكــون مــثــلــمــا ســادَ فــيه
خـــالقُ الـــكــون مُــبــدعُ الأشــيــاء

فــهــوَ في المــاء ســابحٌ وعــلى الــغَــبْـ
ــراءِ مــاشٍ وطــائــرٌ في الــفــضــاء

تَــخِــذَ الجــوَّ مــلــعــبــاً ثمّ أمــسى
راكــضـــاً في الــهــواء ركْضَ الــهــواء

فهوَ فوق السّحاب يحكيه في مَسْـ
ـراهُ لكنّه أخو خُيَلاء
وهوَ بين الطيور تَحسَبُه العَنْـ
ـقاءَ لولا استحالةُ العنقاء
أبصَرَتْهُ فأكْبَرتْ أن ترى في الـ
ـجوِّ صيّادَها على الغَبراء
فاسْتوَى في قلوبها الذّعرُ حتى
كاد يَحكي البلاءَ خوفُ البلاء
وتناجتْ تَبغي النجاةَ فِراراً
أين أين المفَرُّ مِنْ ذا القضاء
ويحَ هذي الطُّيورِ تجني على المو
تَى وترجو سِلْمَاً من الأحياء
اهْبِطي أو فحلِّقي أو فسيري
إنّما المنتهى إلى الأرزاء!

✲✲✲✲✲

وهوَ بين النجوم يسترقُ السّمْـ
ـعَ ولا يتّقي رجومَ السماء
مشهدٌ روّعَ الدّراري فباتتْ
حائراتٍ في القُبّة الزّرقاء
نافِراتٍ كأنّها ظَبَياتٌ
رأتِ القانصينَ في البيداء
سائلاتٍ أ ذا رسولٌ سلامٍ
من بني الأرض أم نذيرُ فناء؟
هالَها أن ترى من الإنس قوماً
يتهادونَ مثلَها في الفضاء
فرأيتَ الجَوزاءَ تشكو الثُّريّا
والثُّريّا تشكو إلى الجَوزاء

لا تُــراعي يــا شـــهبُ مـــنّـــا فـــإنّـــا
مـــا حـــمــلْـــنـــا إلـــيكِ غـــيـــرَ الـــولاء
قــد كــرِهْــنــا الــمُــقــامَ في الأرض لــمَّــا
قـــيلَ إنّ الـــسّـــمـــا مـــقـــرٌّ الـــهـــنـــاء
إنّـــمـــا شـــوقُـــنـــا إلـــيكِ الـــذي أسْـ
ـــرَى بـــنـــا لا الـــهُـــيـــامُ في الإســـراء
فَـــصِـــلِـــيـــنَـــا نـــزددْ غَـــرامـــاً ووَجْـــداً
غـــيـــرُ مُـــسْـــتـــحـــسَنٍ كـــثـــيـــرُ الإبـــاء
نـــحن يـــا شـــهبُ في حِـــمـــاكِ ضـــيـــوفٌ
وجـــمـــيلٌ رعـــايـــةُ الـــغُـــرَبـــاء
أكـــرمي ذلـــكَ المحـــلّـقَ فـــوق الـــسْـ
ـــسُحْبِ يُـــثـــني عـــلـــيكِ خـــيـــرَ ثـــنـــاء
وأنـــيـــري طـــريـــقَه إن دَجـــا الـــلّـــيـ
ـــلُ ودبّتْ عـــقـــاربُ الـــظـــلـــمـــاء
صـــاغَكِ الـــله شـــعـــلـــةً من ضـــيـــاءٍ
وبَـــرَا الـــمـــرءَ شُـــعـــلـــةً من ذكـــاء
تَـــخـــذِيه أخـــاً يـــكنْ لك عَـــوْنـــاً
كلُّ نـــفسٍ مـــحـــتـــاجـــةٌ للإخـــاء
لا تـــفـــاخـــرْ بـــالـــواخِـــداتِ ولا بـــالخَـــيْـ
ـــلِ من أدهمٍ ومن شَـــهْـــبـــاء[1]
هـــانَ عـــصـــرُ الـــنِّـــيـــاقِ والـــرّاكـــبـــيـــهَـــا
عـــنـــد عـــصـــرِ الـــبُـــخـــار والـــكَـــهْـــربـــاء!

****

(١) الوخْد: سعة المشي والإسراع فيه.

٣٣ - العاشق المخدوع

[الكامل]

أبصَرتُها في الخمسِ والعشْرِ
فرأيتُ أُختَ الرِّئمِ والبدرِ
عذراءُ ليس الفجرُ والدَهَا
وكأنّها مولودةُ الفَجْرِ
بسّامةٌ في ثغرها دُرَرٌ
يهفو إليها الشاعرُ العصري
ولها قَوَامٌ لو أُشبِّهُهُ
بالغصنِ باءَ الغصنُ بالفَخْرِ
مِثلُ الحَمامةِ في وَداعتِها
وكزهرةِ النِّسْرينِ في الطُّهرِ
مثلُ الحَمامةِ غيرَ أنّ لها
صوتَ الهَزارِ ولفْتةَ الصَّقْرِ

✡✡✡✡✡

شاهدتُها يوماً وقد جلستْ
في الرّوض بين الماءِ والزَّهرِ
ويدُ الفتى «هنري» تطوّقُها
فحسدتُ ذاك الطّوقَ في الخَصْرِ
وحسَدتُ مقلتَهُ ومَسْمَعَهُ
لجمالها وكلامِها الدُّرِّي
أغمَضْتُ أجفاني على مضضٍ
وطويتُ أحشائي على الجَمْرِ

وخَشِيتُ أنّ الوجْدَ يسلُبني

حِلْمي[1]، ويَغلِبُني على أمْري

فرجعتُ أدراجي أُغَالِبُهُ

باليأس آونةً وبالصَّبْر

ثم انقضَى عامٌ وأعقَبَهُ

ثانٍ وذاكَ السرُّ في صدري

فعجبتُ، مني كيف أذكُرُها

وقد انقضى حولانِ من عُمري

خِلْتُ الليالي في تتابُعِها

تُزري بها عندي فلم تُزْر

زادتْ ملاحَتُها فزِدْتُ بها

كَلَفاً، ومَوجِدةً على «هَنْري»

✡✡✡✡

وسَئِمتُ داري وهي واسعةٌ

فتركتُها وخرجتُ في أمر

فرأيتُ فتيانَ الحِمى انتظَمُوا

كالعِقْد، أو كالعَسْكرِ المَجْر[2]

يتَفكَّهُونَ بكلّ نادرةٍ

وعلى الوجوه علائمُ البِشْر

ساروا فأعْجَبني تدفُّقُهُمْ

فتَبعتُهمْ أدري ولا أدري

ما بالُهم؟ ولأيةٍ وقفوا؟

لمن البناءُ يلوحُ كالقَصْر

---

(١) الحِلم: العقل.

(٢) الجيش العظيم.

أوَّاهُ! هـــــذي دارُ فَــــاتِـــــنَـــــتِي
من قــال: مـــا لـــلــشــمس من خِــدْرٍ؟
وعـــرفتُ من «فِــرْجِــينَ» جــارتِـــهـــا
مــــا زادني ضُـــــرّاً عـــــلى ضُـــــرِّ
قــد كــان هــذا يــومَ خُــطــبــتِــهــا
يــا أرضُ مِــيــدي! يــا سَــمــا خُــرِّي
ورأيتُ سَـــاعِـــدَهــا بــســاعـــده
فَــوددتُ لـــو غُــيِّــبْتُ في قَــبْــر
وشَـــعــــرْتُ أن الأرضَ واجـــفـــةٌ
تحـــتي، وأنّ الـــنـــارَ في صـــدري
وخَـــشِـــيتُ أن الـــوجْــدَ يــســلُــبــني
حِـــلـمي ويــغــلِــبُــني عــلى أمــري
فـــرجـــعــتُ أدراجـي أغــالِـــبُهُ
بــالــيــأسِ آونـــةً وبـــالــصّـــبــر

✡✡✡✡✡

قــالــوا: الــكــنــيــســةُ خــيــرُ تــعــزيــةٍ
لمن ابــتُــلي في الحبّ بــالـــهَــجْــر
فـــنــذرتُ أن أقــضي الحــيــاةَ بــهــا
وقَــصــدتُــهَـــا كَــيــمَــا أَفِي نَــذْري
لازمــتُــهـــا بَــدْرين مــا الــتــفــتتْ
عـــيـــني إلى شـــمسٍ، ولا بَـــدْرِ
أتـــلـــو أنــاشــيــدَ الــنــبيّ ضُــحًى
وأطـــالـعُ الإنجـيلَ في الـــعَـــصْـــر
حـــيـــنـــاً مع الـــرُّهـــبـــانِ، آونـــةً
وحـــدي، وأحـــيـــانـــاً مع الحَـــبْـــر[1]

---

(١) الحَبْر: واحد الأحبار من رجال الكنيسة.

في الغابِ فوقَ العشب مضطجعاً

في السّفحِ، مُستنداً إلى الصَّخر

في غرفتي، والريحُ راكدةٌ

بين المَغارسِ، والصَّبَا تَسري

حتى إذا ما القلبُ زايلَهُ

تبريحُهُ، وصحوتُ من سُكري

وسلوتُها وسلَوتُ خاطبَها

وألِفْتُ عيشَ الضَّنْك والعُسْر

عاد القضاءُ إلى مُحَارَبَتي

ورجعتُ للشكوى من الدّهر

✡✡✡✡✡

في ضحوةٍ وقفَ النسيمُ بها

متردّداً في صفحَةِ النَّهر

كالشاعر الباكي على طَلَلٍ

أو قارئٍ حَيرانَ في سِفْر

والشمسُ ساطعةٌ ولامعَةٌ

تكسو حواشِي النَّهرِ بالتِّبْر

والأرضُ حالِيَةٌ جوانبُها

بالزّهر من قانٍ ومُصْفَرِّ

فكأنّها بالعشب كاسيةٌ

حسناءُ في أثوابها الخُضْر

وعلا هُتافُ الطيرِ إذ أَمِنتْ

بأسَ العُقَابِ وصولةَ النَّسْر

تتلو على أهل الهوى سُوَراً

ليست بمنظومٍ ولا نَثْر

يـحـنـو الـهَـزارُ عـلـى أَلـيـفَـتِهِ
ويـداعبُ الـقُـمـريّـةَ الـقُـمْـري[1]

وانْـسَـابَ كلُّ مـصـفّقٍ عَـذِبٍ
واهـتـزّ كلّ مُـهَـفْـهَفٍ نَـضْـر

فـتـذكّـرتْ نـفـسي صبـابَـتَـهـا
مـا أولَعَ المَـهْـجـورَ بـالـذِّكـر

أرسـلـتُ طـرفي رائـداً فـجـرى
وجـرى عـلـى آثـارِه فِـكْـري

حـتى دوَى صـوتُ الـرئـيس بـنـا
فـهُـرِعتُ والـرهـبـانُ في إثْـري

وإذا بـنـا نـلـقى كـنـيـسَـتَـنـا
بـالـوافـدينَ تَـمـوجُ كـالـبـحـر

وإذا «بـهـا» وإذا الـفـتـى «هـنـري»
في حُـلّـةٍ بـيـضـاءَ كـالـفـجـر

تـمـشي ويمـشي بـين ذي أدبٍ
حُـلْـوٍ، وبـين مـلـيـحـةٍ بِـكْـر

رفع الـرئـيسُ عـلـيـهـمـا يـدَه
وأنـا أرى ويـدي عـلـى صَـدري

يـا قـلبُ ذُبْ! يـا مُـهـجَـتي انـفَـطِري
يـا طَـرْفُ فِضْ بـالأدمُعِ الحُـمْـر

أغـمـضتُ أجـفـاني عـلى مَـضَضٍ
وطـويتُ أحـشـائي عـلى الجَـمْـر

وخـشِـيتُ أنَّ الـوجْـدَ يـسـلُـبـني
حِـلْـمي، ويـغـلِـبُـني عـلى أمـري

---
(١) القُمري: طير أبيض. ومؤنثه قُمرية.

فرجعتُ أدراجي أغالبُهُ
بالياسِ آونةً وبالصَّبْرِ
وخرجتُ لا ألوي على أحدٍ
ورضيتُ بعد الزُّهد بالكُفْرِ

✡✡✡✡✡

أشفقتُ من همِّي على كَبِدي
وخشيتُ من دمعي على نَحْري
فكلِفْتُ بالصَّهباءِ أشربُها
في منزلي، في الحان، في القَفْرِ
أبغي الشفاءَ من الهموم بها
فتَزيدُني وقْراً على وقْرِ[1]
وتَزيدُني ولَعَاً بها وهوًى
وتزيدُني حقداً على «هَنري»
قال الطبيبُ وقد رأى سَقَمي :
لله من فِعْل الهوى العُذْري
ما لي بدائكَ يا فتى قِبَلٌ
السِّحرُ محتاجٌ إلى سِحْرِ[2]
ومضى يقلِّبُ كفَّهُ أسِفَاً
ولبثتُ كالمقتولِ في الوكْرِ
ما أبصرتْ عيناي غانيةً
إلا ذكرتُ إلى الدُّمى فَقْري

✡✡✡✡✡

وسئمتُ داري وهي واسعةٌ
فتركتُها وخرجتُ في أمْرِ

---

(١) الثقل.

فــرأيــتُــهــا فـي الــســوق واقــفــةً
ودمــوعُــهــا تــنــهلُّ كــالــقَــطْــر

فـي بُــردةٍ كــالــلــيل حــالــكــةٍ
لَــهَــفي عــلـى أثــوابــهــا الحُــمْــر

فَــدنــوتُ أســأَلُــهــا وقــد جَــزِعتْ
نــفــسي، وزلــزلَ حــزنُــهــا ظــهــري

قــالت:قــضى «هــنـري»! فـقـلـت: قـضى
مـن كــادَ لـي كــيْــداً ولـم يَــدْر

لا تــكــرهــوا شــرّاً يُــصــيــبُــكُمُ
فــلَــربّ خــيــرٍ جــاء من شــرٍّ

وهــفــا هــواهــا بي فــقــلــتُ لــهــا:
قــد حلّ هــذا المــوتُ من أســري

قــالت: ومـن أســري! فــقــلــتُ: إذن
لـي أنتِ؟ قــالــتْ: أنـت ذو الأمْــر

فــأدرتُ زَنــدي حــول مَــنــكِــبــهــا
ولــثــمــتُــهــا فـي الــنــحْــر والــثَّــغْــر

وشــفَــيتُ نــفــسي من لــواعِــجِــهــا
وثــأرتُ بــالــتــصــريح من سِــرّي

ثمّ انــثــنــيتُ بــهــا عــلـى عَــجَلٍ
بــابَ الــكــنــيــســةِ جــاعلاً شَــطْــري[1]

وهــنــاك بــارَكَــنـي وهــنّــأني
مَن هــنَّــؤوا قــبــلِي الــفــتى «هَــنـري»

✲✲✲✲✲

(١) جعله شطره: اتجه نحوه.

من بعد شهرٍ مَرَّ لي معها

أبصرتُ وضْحَ الشَّيبِ في شَعَري

ما كنتُ أدري قَبلَ صُحْبَتِها

أنَّ المَشيبَ يكونُ في شهْر

فكّرتُ في «هنري» وكيف قَضى

فوجدتُ «هنري» واضحَ العُذْر

يا طالما قد كنتُ أحسُدُه

واليومَ أحسُدُه على القبر!

****

٣٤ - أهلها عرب

[مجزوء الوافر]

أقـــــــاحٍ ذاكَ أم شَـــــــــنَبُ
وريـــقٌ ذاكَ أم ضَـــــــــــــرَبُ[1]

ووجْــهٌ ذاك أم قـــــــمـــــــرُ
وخَـــــــــــــدٌ ذاك أم ذهـــبُ

جـــمـــالٌ غـــيـــرُ مــكـــتـــسَبٍ
وبـــعضُ الحُـــسْنِ يُـــكْـــتَـــسَب

ثَـــكـــلْتِ الـــظَّـــرفَ، عـــاذِلـــتي
أهـــذا الحـــسْنُ يُـــجـــتَـــنَب؟

عَـــددْتُ لـــهـــا الـــعـــيـــوبَ ولـــيـ
ـــسَ إلاّ الـــظَّـــرْفُ والأدبُ

فـــتـــاةٌ بـــين مَـــبْـــسَـــمِـــهـــا
وبـــين عُـــقُـــودهـــا نَـــسَب

لـــواحـــظُـــهـــا نمـــتْـــهـــا الـــهِـــنْـ
ـــدُ لـــكنْ أهـــلُـــهـــا عَـــرَب

مـــرنَّـــحـــةٌ إذا خـــطـــرتْ
رأيـــتَ الـــغـــصنَ يَـــضـــطَـــرب

مـــشـــتْ ووَنَـــتْ روادِفُـــهـــا
فـــكـــاد الخَـــصْـــر يَـــنْـــقَـــضِب[1]

---

(١) الضرَب: العسل الأبيض. والشنب: صفة في الأسنان: برودتها.

يُــــسَـــرُّ الــــعَــــاذِلـــون إذا

نـــأتْ ويَـــعـــودُني الــــوَصَب[1]

ويـــصـــطَـــخـــبـــون إن قَـــرُبتْ

وعـــنـــدي يَـــحُـــسن الـــطَّـــرَب

فـــأبـــكي كـــلَّـــمـــا ضَـــحـــكـــوا

وأضـــحكُ كـــلَّـــمـــا غَـــضِـــبـــوا!

****

(١) الوجع.

٣٥ - صاحب القلم

[البسيط]

أشقى البريّةِ نفْساً صاحبُ الهِمَمِ
وأتعَسُ الخَلْقِ حظّاً صاحبُ القلمِ

عافَ الزّمانُ بني الدّنيا وقيّدَهُ
والطّيرُ يُحبَسُ منها جيّدُ النّغم

وحكّمتْ يدُه الأقلامَ في دَمِه
فلم تَصُنْه ولم يَعدِلْ إلى حَكَم

فيا له عاشقاً طابَ الحِمام له
إن المحبَّ لَمَجنونٌ فلا تَلُم

لكلّ ذي همّةٍ في دهره أمَلٌ
وكلُّ ذي أمَلٍ في الدّهر ذو ألَم

ويلَ الليالي لقد قلّدْنَني ذَرِباً
أدنى إلى مُهجتي من مهجة الخَصمِ(١)

ما حدّثتنيَ نفسي أن أحطّمَهُ
إلاّ خشيتُ على نفسي من النّدم

فكلّما قلتُ: زُهدي طاردٌ كَلَفي
رجعتُ والوجْدُ فيه طاردٌ سَأمِي

يأبى الشّقاءُ الذي يَدعونه أدباً
أن يَضحكَ الطِّرسُ إلاّ إنْ سفكتُ دَمي

لقد صحِبتُ شبابي واليَراعَ معاً

---

(١) اللسان الذرب: الحادّ (ذرِب لسانه - يذرَب: فصُح).

أودى شبابي.. فهل أُبقي على قلمي
كأنّما الشّعَراتُ البيضُ طالعةً
في مَفْرِقي، أنجُمٌ أشرقْن في الظُّلَم
تَضاحكَ الشّيبُ في رأسي فعرَّضَ بي
ذو الشّيبِ عند الغواني موضعُ التُّهَم
فكلٌّ بيضاءَ عند الغيد فاجعةٌ
وكلُّ بيضاءَ عندي ثَغْرُ مُبتَسِمِ
قل للّتي ضحكتْ من لِمَّتي: عجباً
هل كان ثَمَّ شبابٌ غيرُ منصرِمِ؟
أصبحتُ أنْحَلَ من طيفٍ، وأحْيَرَ من
ضَيفٍ، وأسْهَرَ من راعٍ على غَنَم
ولَيلةٍ بِتٌّ أَجني من كواكبها
عِقداً كأنّي أنالُ الشُّهْبَ من أَمَم[1]
لا ذاقَ جَفْنِي الكَرى حتى تنالَ يدي
ما لا يفوزُ به غيري من الحُلُم
ليس الوقوفُ على الأطلال من خُلُقي
ولا البكاءُ على ما فاتَ من شِيَمي
لكنّ (مصراً)، وما نفسي بناسيةٍ
مليكةَ الشّرقِ ذاتَ النِّيل والهَرَم
صَرَفتُ شطرَ الصِّبا فيها فما خَشيتْ
نفسي العِثارَ، ولا نفسي من الوَصَم
في فتيةٍ كالنجوم الزُّهرِ أوجهُهُمْ
ما فيهمُ غيرُ مطبوعٍ على الكرم
لا يقبِضون مع اللأواءِ أيديَهمْ

(١) يعني: طوع يده (من أمامه).

وقــلّـــمـــا جـــاد ذو وَفْـــرٍ مع الأَزَم[٢]

حــسـبي من الـوَجْـدِ همٌّ مـا يُـخـامِـرُني

إلاّ وأشْـــرقَـــني بـــالـــبـــارد الـــشَـــبِم[١]

في ذمّـــةِ الـــغـــرب مـــشـــتـــاقٌ يُـنـــازعه

شـــوقٌ إلى مَـــهـــبِطِ الآيـــات والحِـــكَم

مـــا تـــغـــرُب الـــشـــمسُ إلاّ أدمـــعي شَـــفَقٌ

تَـنـسَى الـعـيـونُ لـديه حُـمـرةَ الـعَـنَم[٢]

ومـــا سَـرتْ نـسَـمَـاتٌ نـحـوَهـا سَـحَـراً

إلاّ وددتُ لـــو انـي كـــنـتُ في الـــنَّـــسَم

مـا حـالُ تـلك الـمَـغاني بـعد عـاشِـقِـها

فـــإنّـــني بـــعـــدَهـــا لـــلـــهمِّ والـــسَّـــقَم

جـــادَ الـــكـــنـــانـــةَ عـــنّي وابلٌ غَـــدَقٌ

وإن يكُ الـــنّـــيل يُـــغـــنـــيـــهـــا عن الـــدِّيَم

الـــشَّـــرقُ تـــاجٌ، ومـــصـــرُ مـــنـه دُرّتُهُ

والـشَّـرقُ جـيشٌ، ومـصـرُ حـاملُ الـعَـلَم

هـيـهـاتَ تَـطـرُفُ فـيـهـا عـينُ زائـرِهـا

بـــغـــيـــرِ ذي أدبٍ أو غـــيـــرِ ذي شَـــمَم

أحـــنَى عـــلـى الحُـــرِّ من أمٍّ عـــلى ولـــدٍ

فـالحُـرُّ في مـصـرَ كـالـورْقَـاءِ في الحَـرَم[٣]

مـــا زلتُ والـدّهــرُ تـنـبـو عن يـدي يـدُه

حـتى نـبتْ ضِـلّـةً عن أرضـهـا قَـدَمي[٤]

أصـبـحتُ في مـعشـرٍ تَـقْذى الـعيونُ بـهم

(١) الشَبِم: البارد (تأكيد للماء البارد).

(٢) العنم: أطراف الخرنوب الحُمر، أو هو الزُّعرور.

(٣) الورقاء: الحمامة.

(٤) الضلّة: الغيبوبة في خير أو شر.

شــرٌ من الـدّاء في الأحـشـاء والـتُّـخَم

مـا عــزَّ قــدْرُ الأديب الحُــرِّ بـيـنـهمُ

إلاّ كـمـا عــزَّ قــدْرُ الحيِّ في الـرِّمَم

من كلّ فَظٍّ يُـريك الـقِـرْدَ مـحـتـشـماً

ويـضـحكُ الـقـردُ مـنه غـيـرَ مُـحـتَـشِمِ

إذا بَـصُـرْتَ به لا فـاتَـهُ كَـدَرٌ

رأيتَ أسـمجَ خَـلْقِ الـله كـلِّـهِمِ

من الأعـارِبِ لـكنْ حـين أُنـشـدُه

جـواهـرَ الـشّـعـرِ ألـقـاهُ من الـعَـجَم

مـا إنْ تُـحـرّكُهُ هـمّـاً ولا طَـرَبـاً

كـأنّـمـا أنـا أتـلـوهـا عـلى صَـنَم

لا عـيبَ في مـنـطـقي لـكنْ به صـمَمٌ

إنّ الـصَّـوادحَ خُـرْسٌ عـنـدَ ذي الـصّـمم

حَـجَـبتُ عن كلّ مـعـدومِ الـنُّـهى دُرَري

إني أضِنُّ عـلى الأنْـعَـام بـالـنِّـعَم

قـومٌ أرى الجـهلَ فـيـهمْ لا يـزال فـتًى

في عُـنفـوانِ الـصِّبا، والـعِلْمَ كـالـهَرَم

****

٣٦ - إلى الله راجعون

[مخلع البسيط]

بـــيـــنـي وبـــين الـــعـــيـــون سِـــرٌّ
الـــلـهَ فـي الـــسِّـــرّ والـــعـــيـــونْ

إذا عـــصَتْ فِـــكــرتي الـــقـــوافي
أوحتْ لـــنـــفـــسـي بـــهـــا الجُـــفـــونْ

هـــات اســقِـــنـي الخـــمـــرَ جَـــهْـــرا
ولا تـــبـــالِ بمـــا يـــكـــونْ

إن كـــان خـــيـــرٌ أو كـــان شـــرٌّ
إنّـــا إلى الـــلـه راجـــعـــونْ!!

****

٣٧ - نزوة ألم

[الوافر]

دَعِي لَــومِي وقَــاكِ الــلهُ مــا بي
فــغــيــرُ الحُــرّ أولى بــالــعِــتــابِ

إلى كم تَــعــجَــبــينَ من انــفــرادي
وكم ذا تَــعــذُلــينَ عــلى اكْــتِــئــابي

وإنكِ لــو خَــبَــرْتِ الخَــلْقَ خُــبْــري
زهــدتِ الخَــلْقَ زُهْــدَ أبي تُــراب[1]

هُمُ إمّــا غَــبيٌّ لــيس يَــدري
وذو عِــلمٍ ولَــوعٌ بــالــتَّــغَــابي

لــهــمْ صُــوَر الملائكِ والأنــاسي
وأخلاقُ الأبــالسِ والــذِّئــاب

أعــاذلَ، ربمــا مــرَّت بــرأسي
خــطــوبٌ لا يَــمُــرُّ بــهــا حِــسابي

أبتْ نــفــسي الــنــزولَ إلى الــدَّنــايــا
وقــلــبي أن يمــيلَ إلى الــتَّــصَــابي

فــمــا دانــيتُ أقــداحَ الحُــمَــيَّــا
ولم أهْــمِمْ بــغــانــيــةٍ كَــعَــاب[2]

ومــا مــنَــعَ الــزَّهــادةَ فيَّ أنّي
حــديــدٌ نــاظــري، غضٌ إهــابي

---

(١) كنية للإمام علي بن أبي طالب

(٢) الحميَّا: الخمرة. والكعاب: التي كَعَب ثديها (بدا للنهود).

ومــا كــان الــشـبــابُ لــيَــزْدَهــيــنـي

لأنـي مـــا أمِـــنتُ عـــلى شـــبـــابي

أضِنُّ به عــلى الــشَّــهَـواتِ ضِــنِّي

عــلى «هِــنْــدٍ» بــشـعْــري «والــرَّبــاب»

ربــيعُ الــعُــمْــر إن يــذهبْ جُــزافــاً

أكُنْ من بــعــده صِــفْــرَ الــوِطــاب[1]

ذَريــــنِي أضـــطــــربْ في الأرض، إنـي

رأيتُ الــسَّـيفَ يــصــدأُ في الــقِـراب[2]

ومــا أنــا بــالــغَـريبِ الــدَّارِ وحْــدي

فــكلُّ الــنــاس عــنــدي في اغْــتِـراب

أفــكِّـــرُ كــيف جـئـتُ، وكــيف أمــضي

عـــلى رغــمي، فــأَعْــيــا بــالجــواب

أتـــيتُ ولم أكن أدري مَـــجــيـــئي

وأذهبُ غـــيـــرَ دارٍ بــــالإيـــاب

إذا كــان الــمَــصــيــرُ إلى الــتلاشي

فــلِمْ جــئــنــا وكــنَّــا في حِــجَــاب؟

وإن كـــان المــصــيــرُ إلى خُــلــودٍ

فــمــا مــعــنى المــنــيــةِ والــتَّــبــاب؟[3]

أمـــورٌ لا يُـــحـــيطُ بـــهنّ فِـــكْـــرٌ

ولـــو أمـــسى يُـــحـــيط بــكلِّ بــاب

أرِقْتُ لـــهـــا وأصـــحـــابي هُـجــودٌ

بــلــيلٍ مــثلِ خــافــيــةِ الــغُــراب[4]

---

(١) الوِطاب: سقاء اللبن - آنية الزاد (ومثله: الوَطَب).

(٢) القِراب: غمد السيف والسكين (الجمع: قُرُب).

(٣) التباب: الهلاك.

(٤) خافية الغراب: ريشة تختفي تحت جنح كل طائر.

سَجا فازْوَرَّتِ الأقمارُ ذُعراً
كما رُعتَ الحَمائمُ بالعُقابِ[1]

فبتُّ أبثُّها همّي وباتتْ
مُسهَّدةً كأن بها مُصابي

وألحظُها زهوراً في رياضٍ
وأقرؤها حُروفاً في كتاب

وما همّي سِوى شعبٍ تعيسٍ
شتيتِ الشَّملِ جمٍّ الإضْطِراب

يحاول رِزْقه في المُدْن آناً
وآناً في السَّباسبِ والهضاب[2]

ولو عرفَ السَّحابَ يُدرُّ مالاً
لأصبح راكباً مَتْن السَّحاب

رمتْه الحَادثاتُ بكل سهْمٍ
وخدَّشه الزمانُ بكلِّ ناب

فراحَ كأنما هو شَعْب موسى
غداةَ التّيه في القَفْر اليَباب[3]

نأى عن أرض مصرَ حِذارَ ضيمٍ
ففرَّ من العذاب إلى العذاب

✡✡✡✡✡

بَليَّتُنا صَحافيٌّ مُراءٍ
يُداجينا ومَاليٌّ مُرابِ

وصحفٌ لستُ أدعوها بصحفٍ
فما هيَ بالقشور ولا اللُّبَاب

---

(١) سجا الليل: سكن وامتدّ.

(٢) السبسب: المفازة الواسعة، لا شيء فيها.

أرى أنــــهـــــارَهـــــا فــــأظنُّ مــــاءً
كــذاك الــعَــينُ تُــخـدَعُ بـــالــسَّــراب
فـــلـم أعـــثُــرْ عـــلى لـــفظٍ ســـلـــيمٍ
ولم أظــفَــرْ بمـــعـــنىً مُـــسْـــتَـــطـــاب
ولا حُـــــسْنٌ هـــــنــــــاك ولا رُواءٌ
وأنّى الحُــسنُ لـــلـــطـــلَلِ الخَـــراب[1]
فــــإنْ تَـــشْكُ من الــــقُـــرّاء عــــابـــاً
شــكـــا الـــقـــراءُ مـــنـــهـــا ألفَ عـــابِ[2]

✡✡✡✡✡

ذوي الأقلامِ إنّـــــا في احـــــتـــــيـــــاجٍ
إلى غـــيـــرِ الـــشَّـــتـــائمِ والـــسِّـــبَـــاب
فــــهل من قـــائـــدٍ فـــيـــكمْ حـــكـــيمٍ
يَـــســـيـــرُ بـــنـــا إلى الـــقَـــصْـــد الـــصَّـــواب
فـــنـــظـــفـــرَ بـــالـــرجـــاء عـــلى يـــديْه
ويـــظـــفـــرَ بـــالأمـــاني والـــثَّـــواب!

✱✱✱✱

(١) الرُّواء: المنظر.
(٢) العاب: العيب.

٣٨ - الكأسان

[الرجز]

كانَ على خِوانِ ربِّ المالِ
كأسان: من خمرٍ ومن زُلال[1]
هَاتيكَ في الحُمرةِ مثلُ العَنْدم[2]
وتلك في بياضِها كالدِّرهمِ
فقالتِ السُّلافةُ الثَّرثارهْ
عندي حديثٌ فاسْمَعي يا جارهْ
أنا التي تَخضَعُ لي الرؤوسُ
أنا التي يعبُدني المَجوسُ
كم قائدٍ أضحكتُ منه جُنْدَهُ
وسيِّدٍ حكَّمتُ فيه عبدَهُ!
ومَلِكٍ أسقطتُ عنه التَّاجا
وساكنٍ هَيَّجتُهُ فهاجا
وزوجةٍ علَّمتُها الخيانهْ
ووالدٍ أنسيتُه الأمانهْ
وحدَثٍ خدَعتُه فانْخَدَعا
حتّى إذا ما شبَّ عضَّ الإصبَعَا
إنَّ الغِنَى والصِّيتَ والذّكاءَ
متى أُرِدْ صيِّرتُها هَباءَ

(١) الماء الزلال: الصافي.
(٢) العندم: نبات يُستخرج منه صباغ أصفر.

فـــسَـــمِـعَ المـــاءُ فـــهـــاجَ غَـــضَـــبـــا
وقـــال: مـــهـلاً، بـــلـغ الـــسّـــيلُ الـــزُّبَى[1]
إنْ تـــفـــخـــري، يـــا جـــارتـي، بـــالـــشّـــرِّ
فـــإنّ بـــالـــفـــعل الجـــمـــيلِ فـــخْـــري
أنـــا الـــذي تُـــغْـــسَـلُ بي الـــكُـــلـــومُ[2]
ويَـــرتـــوي الـــظّـــامئُ والمَـــحْـــمـــومُ
يُـــحـــبُّـــني المـــالكِ والمـــمـــلـــوكُ
والـــسّـــيـــدُ المُـــطـــاعُ والـــصُّـــعـــلـوكُ
حـــيث أكـــونُ جـــاريـــاً يـــكـــونُ
اَلـــوَرْدُ والأَقـــاحُ والـــنِّـــسْـــرينُ
إنّ المـــروجَ الخـــضـــرَ لا يُـــحـــيـــيـــهـــا
غـــيـــرُ وجـــودي حـــولَـــهـــا وفـــيـــهـــا
كم سِـــرتُ في الـــوادي وفي الـــغَـــديـــر
عـــلى شـــبـــيـــه الـــدُّرّ والـــكـــافـــورِ[3]
وجـــلس الـــعـــشـــاقُ حـــولي في الـــسَّـــحَـــرْ
عـــلى بـــســـاطِ الـــعُـــشْبِ في ضـــوءِ الـــقـــمـــرْ
كم اشـــتـــهَـــوا، إذ ســـمـــعـــوا خَـــريـــري،
لـــو أنـــنـي أســـيـــرُ في الـــصُّـــدورِ
أنـــا الـــذي لـــولاهُ مـــات الـــنـــاسُ
والـــطـــيـــرُ والأســـمـــاكُ والأغْـــراسُ
يـــا خـــمـــرُ كَمْ ذا تـــدّعـــينَ الـــفَـــضْلا

---

(١) يقال: بلغ السيل الزبى: أي اشتد الأمر، والزُّبية: الهضبة التي لا يصل إليها الماء.
(٢) الجراح (مفردها: كَلْم).
(٣) نبات له زهر أبيض.

وبـــالمـــيـــاهِ تُـــقْـــتَـــلـــينَ قَـــتْلا

وأمُّك الـــكَـــرْمَـــةُ يـــا صَـــهْـــبـــاءُ[1]

مـــا وُجِـــدتْ فـي الأرض لـــولا المـــاءُ!

****

(١) الخمرة للونها الأصهب.

٣٩ - أقوى من الشيب والهرم

[البسيط]

مــا زلتُ أحــسَبُ أنَّ الحبَّ زايــلَــني

حــتى نــظــرتُ إلــيــهــا وهْي تَــبْــتــسمُ

✡✡✡✡✡

فــاهــتــزَّ قــلــبي كــمــا تَــهــتــزُّ نــابــتَــةٌ

في الــقــفــر مــرَّ عــلــيــهــا الــنُّورُ والــنَّسَمُ[1]

✡✡✡✡✡

يــا حُــبَّــهــا لا تَــخفْ شــيــبــاً ولا هَــرَمــاً

فــلــيس يــقــوى عــلــيكَ الــشَّــيبُ والــهَــرَمُ

****

(١) النَسَم والنسَمة: نَفَس الروح.

٤٠ - لأرفعنَّ للسَّما احتجاجي

[الرجز]

جاءَ الشتاءُ جِيْئةَ المُفاجِي

كأنّما قد كان في الرِّتاجِ

فجَمَدَ السائلُ في الزُّجاج

واكتَستِ الأرضُ بمثل العاج

فامتنعَ المَرْعى على النِّعاج

وامتنع الحَبُّ على الدَّجاج

وامتنَع السّيرُ على النّواجي[1]

رُبَّ جوادٍ لاحقٍ هِمْلاج[2]

مُعوَّدِ الإلجام والإسراج

والوخَدِ والذّميلِ والإهمَاج[3]

أصبح مثلَ العِرْقِ في اختلاج

مُنعرِجاً في غيرِ ذي انعراج

لو هاجَه الرّاكبُ بالكُرباج

لما مشى به سوى اعوِجاج

لولا الجليدُ طار بالمهْتَاج

مثلَ البُراقِ بفتى المِعْراج

(١) الناجية: الناقة السريعة التي تنجو بمن يركبها (وجمعها: النواجي).

(٢) حسن السير في سرعة وبخترة.

(٣) الوخد والذميل والإهماج: ضروب من عدو الإبل.

وحَطّهُ والشمسُ في الأبراج

لكنه منه على الزّجاج[1]

✡✡✡✡✡

وأمسكَ الناسُ عن اللّجَاج

أما ترى نداءَهُمْ تَناج

كأنّما الجموعُ في المَلاجي

على « مِنى » مواكبُ الحُجّاج

ورغِبَ المُثْري عن الدِّيباج

إلى اللّباس الخَشنِ النَّسّاج

وكان أنْ جيء له بالتّاج

أعرضَ عنه وارِمَ الأوداج[2]

✡✡✡✡✡

وانقَبضَ النهرُ عن الهِيَاج

وكان مثلَ الزّاخرِ العَجّاج

يصارعُ الأمواجَ بالأمواج

يا مسبحَ الإوزّ والدُّرّاج

كيف غدوتَ موطئَ الأحداج[3]

ومَعْبَرَ الخَلْقِ إلى الخَراج؟

✡✡✡✡✡

ما ليَ والصّبحُ على انْبِلاج

أخبِطُ كالعشواءِ في الدَّياجي

إذا أردتُ السّيرَ في مِنْهاجي

---

(١) بسبب الجليد.

(٢) الوَدَج: عِرْق في العنق (وهما ودَجان).

(٣) الحِدْج: المحفّة، من مراكب النساء.

طـــــالَ عِـــــثـــــاري فـــيه وانـــــزلاجي

كـــــأنــــني أمـــــشي عـــــلى زِجـــــاج

مـــحــــتـــذيــــاً بـــــالـــــزّئــــبق الـــرَّجْـــرَاج

خُـــــيّل لـي، لـــــشـــــدّة ارتجــــاجي

أنّ دمـي يـــــــرتجّ فـي أوشَـــــــــاجِـي[1]

أرى الـــــدُّنـــا ضـــيِّـــقـــةَ الـــفِـــجَـــاج

ولم تــــضِقْ، لـــكـــنّــمـــا احــــتــيــاجي

إلـى طـــــريقٍ واضـحِ الــــشِّـــجـــاج[2]

أســـلُـكُ فـــيه غـــيـــرَ مـــا انــــزعـــاج

وحــــاجــــتي بــــالــــكـــوكب الـــوهّــــاج

كـــــحـــــاجــــةِ الأعــــمى إلى سِـــــراج!

إن لـجّ هــــــذا الـــــقُـــــرُّ في إحـــــراجي

لأرفـــعنّ لــــلـــسّــمـــا احــــتـــجـــاجي!

****

(١) وشج وشْجاً ووشيجاً: تداخل وتشابك. والوشائج: عروق الأذنين.

(٢) أصل الشجّة: الجرح في الوجه والرأس، وجمعه شِجاج. يريد هنا: المسالك.

٤١ - أنتم معي

[الكامل]

في المــــنـــزلِ المـــهـــجـــورِ أذكـــركُمْ
فـــإخَـــالَـــنِي في جـــنَّـــةِ الخُـــلْـــدِ

✡✡✡✡

أنـــــتم مــــعي فـي كلّ آونـــــةٍ
والـــنّـــاسُ تَـــحـــسَبُ أنّـــني وحْـــدي!

****

٤٢ - الحرب العظمى

[الكامل]

لــو أســتــطــيعُ كــتــبتُ بــالــنــيــرانِ
فــلــقــد عَــيــيتُ بــكُمْ وَعَيَّ بــيــاني

ولــكِــدتُ أســتــحْــيي الــقــريضَ وأتّــقي
أن يــســتــريبَ يَــراعَــتي وجَــنــاني

أمــسَى يُــعــاصِــيــني لِــمــا جَــشّــمــتُه
فــيــكمْ، وكــنــتُ وكــان طــوعَ بــنــاني

يــشــكــو إليَّ وأشــتــكي إعــراضَــكُمْ
الــلــهَ في عــانٍ يــلــوذُ بــعَــانِ

عــاهــدتُهُ ألا أُثــيــرَ شُــجــونَه
أو يــســتــثــيــرَ كــوامِنَ الأشــجــان

يــا طــالــمــا اسْــتَــبكــيــتُه فــبكَى لــكُمْ
لــولا الــرّجــاءُ بــكــيــتُه وبــكــاني

كم لــيــلــةٍ أحــيــيــتُــهــا مُــتــمــلــملاً
طــرْفي وطَــرْفُ الــنّــجم مُــلــتــقــيــان

تحــنــو عــلــى قــلــمي يمــيــني، والــدُّجى
حــانٍ عــلــى الــفَــتَــيــاتِ والــفــتــيــان

أجــلــو عــرائــسَه لــكم وأزُفُّــهــا
مــا بــين بِــكــرٍ كــاعبٍ وعَــوَانِ[1]

مــتــألــمــاً فــيــكمْ وفي أبــنــائــكمْ
وهــمُ وأنــتم نــائــمــو الأحــزان

---

(١) العَوان: النّصَف (الجمع: عُون).

ما غالَ نومي حُبُّ معسولِ اللّمى

ممنوعِه، لكنْ هوى الأوطانِ

أنفقتُ أيّامَ الشباب عليكُمُ

في ذمّة الماضي الشبابُ الفاني

✲✲✲✲✲

كم تسألوني أن أُعيدَ زمانَه

يا قومُ، مَرّ زمانُه وزماني

هانَ اليراعُ على البواتر والقَنا

ما تصنعُ الأقلامُ بالمُرّان[1]

ليس الكلامُ بنافعٍ أو تغتدي

حُمْرُ المَضاربِ خلْفَ كلِّ لسان[2]

والشعبُ ليس بمدركٍ آمالَهُ

حتى يسيرَ على النّجيع القاني!.

✲✲✲✲✲

صَلَّ الحديدُ وشَمّرتْ عن ساقها

وتنكَّرَ الإخوانُ للإخوان[3]

فالخيلُ غاضبةٌ على أرسَانها

والبِيضُ غاضبةٌ على الأجفان[4]

والموتُ من قُدّامِهمْ وورائهمْ

والهَوْلُ كلَّ ثنيّةٍ ومَكان

بسَطَتْ جناحيها ومدّتْ ظلَّها

فإذا جناحا السَّلمِ مَقصُوصان

---

(١) المُرّان: الرماح (واحدها: مرّانة).

(٢) المَضرَب: ما ضُرب به، والجمع: مضارب.

(٣) صَلّ وصلصل: صوّت.

تَـــغــشَــى مـــواكــبَــهــا ثلاثُ غــيـــاهبٍ
من قَـــسْـــطَلٍ ودُجُــنَّـــةٍ ودُخَـــان[1]
ويــــردّ عـــنــــهـــا كلّ خَــائضِ لُـــجَّـــةٍ
سَـــيْلانِ: مـن مـــاءٍ ومن نــــيـــران
أنّى الـــتَـــفَتَّ رأيتَ رأســـاً طـــائـــراً
أو مـــهــجــةً مــطــعــونــةً بــسِــنــان
يمـــشي الـــرّدى في إثــر كلّ قــذيــفــةٍ
فـــكـــأنّـــمــــا تَـــقْـــتــادُه بــعِــنــان
فـــالجـــوُّ ممّـــا فـــاضَ من أرواحـــهمْ
لا تـــســتــبــينُ نُــجــومَه عَــيــنــان
والـــنــهــرُ ممّـا ســالَ من مُــهَــجــاتــهمْ
يـــجـــري عــــلى أرضٍ من المَــرْجـــان
والأرضُ حـــمـــراءُ الأديمِ كـــأنّـــهـــا
خَــدُّ الحــيــيّــةِ أو خَــضــيبُ بَــنــان
كم من مُــبــيحٍ لـــلــضــيــوفِ طــعــامَه
أمـــسى طــعــامَ الأجْــدَلِ الــغَــرْثــان[2]
ومــقـــاتلٍ نـــاشَ الــكــتــيــبــةَ، نــاشَهُ
ظُــفْــرُ الــعُــقــابِ ومِــخْــلَبُ الــسِّــرحــان
ومُــحــلّقٍ بــينَ المَــجَــرّةِ والــسُّــهــا
صــعَــدَ الحِــمــامُ إلــيه في الــطَّــيَــران
ومُــشَــيَّــدٍ وقف الـــزمـــانُ حِــيـــالَه
مُـــتـــحـــيّـــراً بــجَــمــالــه الــفــتّــان

---

(١) القسطل: الدخان.

(٢) الأجدل: الصقر، والغرثان: الجائع.

أخـنَى عـلى ذِكْـر «الخَـوَرْنَقِ» ذِكْـرُهُ

وسـمـا عـلى «الحـمـراء» و«الإيـوان»[1]

وقضى العصورَ الناسُ في تشييده

أودتْ به مـقـذوفـةٌ وثَـوان

ومـديـنـةٌ زهـراءُ آمـنـةُ الحـمى

هُـدمَتْ منـازلُـها عـلى السكّان

خَرِستْ بلابلُـها الشوادي في الضُّحى

وعَلا صـيـاحُ البُـومِ والـغِـرْبـان

وتعطّلَتْ جنّاتُـها وقُصـورُها

ولـقـد تـكـون بـغـبـطـةٍ وأمـان

حـربٌ أذلَّ بـهـا الـتّـمـدُّنُ أهـلَهُ

وجنَى الشيوخُ بها على الشُّبان

سحقَ القويّ بها الضعيفَ وداسَه

ومـشـى عـلى أرضٍ من الأبـدان

بئسَ الوغى، يجني الجنودُ حُتوفَهمْ

في ساحِها، والفخرُ للتيجان

مـا أقبحَ الإنسـانَ يقتلُ جارَه

ويـقـول هـذي سُـنّـةُ الـعِـمـران

بَـليَ الـزمـانُ وأنت مـثـلُك قبلَه

يـا شِـرْعـةً قـد سَـنّـهـا الجَـدّان

فـالـقـاتلُ الآلافِ غـازٍ فـاتحٌ

والـقـاتلُ الجـاني أثـيمٌ جَـان

لا حقَّ إلا مـا تـؤيّـدُه الـظُّـبـا

مـا دام حبُّ الـظُّـلْمِ في الإنـسـان

---

(١) (الخورنق والسدير): قصرا المنذر في الحيرة، و(الحمراء) في غرناطة. والإيوان (إيوان كسرى) في العراق.

لـو خُـيِّـر الـضـعـفـاءُ لاخـتـاروا الـرَّدى

لـــكنّ عـــيشَ الأكـــثـــرينَ أَمَـــاني

☆☆☆☆☆

مـــا بـــالُ قـــومـي نـــائـــمـــين عن الـــعُلا

ولـــقـــد تـــنـــبّه لـــلـــعُلا الـــثَّـــقَلان

تُـــبَّـــاعُ أحـــمـــدَ والمـــســيحِ، هـــوادةً

مـــا الـــعـــهـــدُ أن يـــتـــنـــكّـــر الأخَـــوان

الـــلـــهُ ربُّ الـــشِّـــرعـــتَـــين وربُّـــكُمْ

فـإلى مـتى في الـدِّين تَـخـتـصِـمـان؟

مـــهـــمـــا يـــكن من فـــارقٍ، فـــكلاكـــمـــا

يُـــنْـــمَى إلى قـــحـــطـــانَ أو غـــسّـــانِ[1]

فـخـذوا بـأسـبـاب الـوِفـاقِ وطـهّـروا

أكـــبـــادَكمْ من لُـــوثـــةِ الأضْـــغَـــان

في مـــا يَـــحـــيقُ بـــأرضـــكُم ونـــفـــوسِـــكُمْ

شُـــغْلٌ لمـــشـــتَـــغِلٍ عن الأديـــان

نِـــمـــتُمْ وقـــد ســـهـــرَ الأعـــادي حـــولَـــكُمْ

وســـكـــنـــتمُ والأرضُ فـي جَـــيَـــشَـــان

لا رأيَ يَـــجـــمـــعُـــكم إذا اخـــتـــلف الـــقَـــنـــا

وتـلاقتِ الـــفـــرســـانُ بـــالـــفـــرســـان

لا رايـــةٌ لـــكمُ يـــدافـــعُ دونَـــهـــا

مُـــرْدُ الـــعـــوارضِ، والـحُـــتـــوفُ دواني[2]

لا ذنـبَ لـلأقـــــدار فـي إذلالـــــكـم

هـــذا جـــزاءُ الـــغـــافلِ الـــمُـــتَـــواني

---

(١) نماه وأنماه: نسبه.

لـو لم يَـعِـزَّ الجـهلُ بـين ربـوعِـكُم
مـا هـان جـمـعُـكُمُ عـلـى الحِـدْثـان

المـرءُ، قـيـمـتُه المـعـارفُ والـنُّـهَى
مـا نـفعُ بـاصـرةٍ بلا إنـسـان

مـا بـالُـكمْ لا تـغـضَـبـونَ لمجدكمْ
غَـضْـبَـاتِ مَـلْـطومِ الجَـبـين مُـهـان

أوَ لـسـتمُ كـالـنَّـاس أهلَ حـفـائظ
أم أنـتمُ لـسـتمْ من الحـيـوان؟

أبـنـاؤكُم، لَـهَـفي عـلـى أبـنـائـكم
يـلـهـو بـهم أبـنـاءُ جـنـكـيـز خـان

الـنّـازعـون الـمُـلْكَ من أيـديـكُمُ
الـعـابـثـونَ بـكمْ وبـالـقـرآن

أوَ كـلّـمـا طـلـعتْ عـلـيـهم أزْمـةٌ
هـاجـوا ضـغـائـنَـكم عـلى الـصُّـلْـبـان

لا تـخـدعـنّـكُم الـسـيـاسـةُ إنّـهـا
شـتّى الـوجـوه كـثـيـرةُ الألـوان

لـو تـعـقِـلـونَ عـمِـلْـتُمُ لخلاصِـكُم
من دولـة الـقَـيْـنَـاتِ والخِـصْـيـان

عـارٌ عـلـى نـسلِ المـلـوكِ بـني الـعُلا
أن يـسـتـذلَّـهـمُ بـنـو الـرُّعْـيـان

ثـوروا عـلـيـهم واطـلـبـوا اسـتـقلالَـكم
وتـشـبّـهـوا بـالـصِّـرْب والـيـونـان

مـاذا يَـروعُ نـفـوسَـكُمْ، مـا فـيـكمُ

---

(١) الوكِل: البليد والجبان.

وَكِلٌ ولا في الـــتُّــرك غـــيــرُ جـــبــان[1]

وهَـــبَـــوهُـمُ الـــرُّومَـــانَ في غُـــلَــوائــهمْ
أفـــمـــا غـــلَـــبْـــتُمْ أمَّـــةَ الـــرّومـــان[1]

مـــا المـــوتُ مـــا أعَـــيـــا الـــنِّـطـــاسي ردُّه
مـــوتُ الـــذلـــيل وعَـــيْـــشُهُ سِـــيّـــان[2]

****

(١) الغُلَواء: الغلوّ، وحدة الشباب.

(٢) النُطاسيّ: العالم الماهر، والطبيب الحاذق.

٤٣ - دموع وتنهدات

[الطويل]

ألا لـيتَ قـلـبـاً بـين جـنـبيَّ دامـيَـا
أصـابَ سُـلُـوّاً أو أصـابَ الأمـانـيـا

أجَنَّ الأسى حـتى إذا ضـاقَ بـالأسى
تـدفَّقَ من عـيـنيَّ أحـمـرَ قـانـيـا[١]

تَـهـيجُ بيَ الـذكرى الـبروقُ ضـواحكـاً
وتُـغـري بيَ الـوجـدَ الـطـيـورُ شَـواديا

فـأبـكي لمـا بي من جَـوًى وصَـبـابـةٍ
وأبـكي إذا أبـصـرتُ في الأرض بـاكـيا[٢]

فلا تحـسَـبـاني أذرِفُ الـدمعَ عـادةً
ولا تحـسَـبـاني أُنـشِـدُ الـشِّـعرَ لاهـيـا

ولـكـنـهـا نـفـسي إذا جـاشَ جـأشُـهـا
وفـاضَ عـلـيـهـا الـهمُّ فـاضتْ قـوافـيـا

يَـشُقُّ عـلـى الإنـسـان خـدْعُ فـؤادِه
وإن خـادَعَ الـدنـيـا وداجَى الـمُـداجِـيـا[٣]

طـلـبتُ على الـبـلـوى مُـعـيـنـاً فـفـاتَـني
يُـؤاسـيكَ من يَـحـتـاج فـيكَ مـؤاسِـيـا

ومَن لم تُـضَـرِّسْهُ الخـطـوبُ بـنَـابِـهـا
يـظنُّ شـكـايـاتِ الـنـفـوسِ تَـشَـاكِـيـا

---

(١) أجنَّ: ستر وأخفى.
(٢) الجوى: الحرقة وشدة الوجد من الهوى أو الحزن.

رُمِيْتُ من الدنيا بما لو قَليلُهُ

رَمَيْتُ به الأيامَ صارتْ لياليَا

فلا يَشتكِ غيري البُؤوسَ فإنني

ضمنتُ الرزايا، واحتكرتُ العَواديا[1]

تمرُّ الليالي ليلةً إثْرَ ليلةٍ

وأحزانُ قلبي باقياتٌ كما هِيا

ولو أنَّ ما بي الخمرُ أو باردُ اللَّمى

سلوتُ، ولكنْ أمَّتي وبِلاديا[2]

إذا خطرتْ من جانبِ الشرْقِ نفحةٌ

طربتُ فألقَى مَنكِباي رِدائيا

أَحِنُّ إلى تلك المَغاني وأهلها

وأشتاقُ من يَشتاقُ تلك المَغانيا

وما سرّني أن المَلاهيَ كثيرةٌ

وفي الشَّرق قومٌ يجهلون المَلاهيا

إذا مَثُلوا والنومُ يأخذ مُقلتي

بأهدابها، أمسيتُ وَسْنانَ صَاحِيا

وكيف اغتباطُ المرءِ لا أهلَ حولَه

ولا هو مَن يَستعذِبُ الصَّفْوَ نائيا

✡✡✡✡✡

تبدّلتِ الدنيا من السِّلْم بالوَغى

وصار بَنوها العاقلون ضَواريا

فما تُنبتُ الغَبراءُ غيرَ مَصائبٍ

وما تُمطرُ الأفلاكُ إلا دَواهيا

---

(١) العوادي: ما يشغل الإنسان عن أموره (المفرد: عادية).

(٢) اللَّمى: سواد مرغوب في الشفة، لامتلائها بالدم.

وناكرَ حتى الليلُ زُهْرَ نُجومه
وماءُ الخِضَمِّ المُنشآتِ الجَواريا
وبات سبيلٌ كان يَسري به الفتى
بلا حارسٍ، يَمشي به الجَيشُ خاشيا
تَقطَّعتِ الأسبابُ بيني وبينهمْ
فليس لهم نَحوي وصولٌ ولا لِيا
وكان لنا في الكُتْب عونٌ على الأسى
وفي (البَرْق) ما يُدني المَدى المُتَراميا
فلم تأمنِ الأسرارُ في (السِّلْك) سارقاً
ولم تأمنِ الأخبارُ في الطِّرسِ ماحِيا[1]
إذا قيلَ هذا مُخْبِرٌ مِلْتُ نحوَه
بسَمعي ولو كان المُحدِّثُ واشِيا
وتَعلمُ نفسي أنه غيرُ عالِمٍ
ولكنني أستدفعُ اليأسَ راجيا
سرَى الشكُّ حتى ما نُصدِّقُ راوياً
وطالَ فبتنا ما نُكذِّبُ راويا
أُقَضّي نهاري طائرَ النَّفس حائراً
وأقطَعُ ليلي كاسِفَ البالِ ساهيا
فما هُمْ بأمواتٍ فنبكي عليهِمُ
ولا هُمْ بأحياءٍ فنرجو التَّلاقيا

✡✡✡✡✡

كأني بهمْ قد أُخْرِجوا من بُيوتهمْ
حُفاةً عراةً جائعين صَواديا[2]
كأنيَ بالغَوغاء ثارتْ عليهِمُ
وبالجُندِ تعطي الثائرينَ المَواضِيا

---

(١) يعني: أسلاك البرق.
(٢) الصوادي: العطاش (صديَ – يصدى).

كـأني بـهم قـد أُعـملَ الـسَّيفُ فـيـهِمُ
كـأن الـدَّمَ الـقـاني يـسـيل سَـواقِـيـا
كـأنيَ بـالـدُّورِ الحِـسَـان خـرائبٌ
كـأنيَ بـالجـنّـاتِ صـارتْ فَـيـافِـيـا[1]
مـشـاهـدُ لاحتْ لي فـهـزّتْ فَـرائـصِي
كـمـا ذُعِـرَ الـمَـلْـسـوعُ راءَ الأفـاعـيـا[2]
فـبِتُّ كـأنّ الـسَّـهمَ بـين أضـالـعي
كـأني أُقِلُّ الـشَّـاهـقـاتِ الـرَّواسـيـا
ولـو أجـنـبيٌّ لاتّـقـيـنـا سِـهـامَهُ
ولـكـنـمـا الإخـوانُ صـاروا أعـاديـا
أطـاعـوا طُـغـاةَ الـتُّـرك فـيـنـا وطـالمـا
عـصى فـيـهِمُ الـتُّركي وفـيـنـا الـنَّواهـيـا
وكم راغَ مـا بـين الـمَـسـيحِ وأحـمـدٍ
وحـاربَ «بـالـسُّوري» أخـاهُ «الـيَـمـانـيـا»[3]
فـإن يـنْـسَ «حَـوْرانـاً» فـتـاهُ وجـارُه
فـإنّ رُبـا حَـوْران لم تـنْـس (سـامـيـا)[4]
ألا لـيت من بـاعـوا عـلى الـغَـبْن وُدَّنـا
من الـتُّـرْك بـاعـوا ذلك الـوُدَّ غـالـيـا
ويـا لـيتَ من بـاع الـبلادَ وأهـلَـهـا
«بـفِلـكَين» لم يـختَـرْ لـهـا الـبُؤسَ شـاريـا[5]

✲✲✲✲✲

---

(١) الفيفاء (الفيافي) البراري الواسعة البعيدة من الماء.
(٢) الفريصة: لحمة عند منبض القلب. وراء: رأى.
(٣) راغ: حاد ومال إليه سراً (والاسم الروغان).
(٤) يبدو أنه اسم علم لرجل كانت له صلة معروفة بحوران.
(٥) (الفلك) من العملة العثمانية.

فيا أمةً قد طالَ عهدُ سُباتها
متى يكشفُ الإصباحُ عنكِ الدَّياجِيا
إلى كم تَودّين البقاءَ لمعشرٍ
بقاؤهُمُ يُدني إليكِ التَّلاشِيا
ثلاثةُ أجيالٍ تقضّت وأنتمُ
تُسامونَ منهم ما تُسامُ المواشيا
أما آن أن يَسترجعَ التَّاجَ أهلُه
ويسترجعَ التاجُ المهابةَ ثانيا
متى كان (جنكيزٌ) «لقطحانَ» سيّداً
فيُمسي بنو هذا لِذاكَ مَواليا؟

✡✡✡✡✡

ويا عقلاءَ العُرْب هذا زمانُكُمْ
فكونوا لِمَن ضَلَّ المَحجّة، هاديا[1]
إذا عذَر الأعمى الورَى في ضَلاله
فلا يَعذُرون الناظرَ المُتَعَاميا
أرى ظُلُمَاتٍ مُطْبِقاتٍ حَوالِكاً
فإن تطلُعوا فيها رأيتُ الدَّراريا[2]
غداً يَنشرُ التاريخُ عنكمْ حديثَهُ
ويتلو الذي يَتلوه ما كان خافيا
فإن شئتُمُ أمسى عليكمْ مَحامِداً
وإنْ شئتمُ أمسى عليكمْ مَساوِيا

✡✡✡✡✡

ويا أيُّها الجالونَ إنّ بلادَكمْ
تُناديكُمُ لو تَسمعونَ مُنادِيا

---

(١) المحجة: الطريق المقصودة.

لقد عقَّدتْ فيها الخطوبُ عَجَاجةً
وساق عليها جيشَهُ الجوعُ غازيا[1]

وبات ذَووكُمْ يَجهلون مَصيرَهُمْ
كأنهمُ ماءٌ أضاع المَجاريا

مِن العار أن يَغشى الرُّقادُ جُفونَكمْ
على حينِ يَغشى الدمعُ تلك المَآقيا

من العار أن يَكْسو الحريرُ جسومَكُمْ
ولم تُبْقِ منهمْ شِدَّةُ الضَّنكِ كاسِيا

من العار أن يَبقى عليكمْ جُمودُكمْ
وقد بلغتْ تلك النفوسُ التَّراقيا[2]

إذا المالُ لم يُنفِقْهُ في الخيْر ربُّهُ
رآهُ عليه العَالَمون مَخازِيا

إن المرءُ لم يسعَ لخيرِ بلادهِ
يكنْ كالذي في ضُرِّها باتَ ساعيا

****

(١) العَجاجة: الغبار والدخان.

(٢) التراقي: جمع (الترقوة): العظم الواصل بين ثغرة النحر والكتف.

٤٤ - أخت البلجيك

[الكامل]

يـا لـوعـةً حـار الـنِّـطـاسـي فـيكِ
كم يَـشـتـكي غـيـري وكم أُخـفـيكِ

إن بُـحْـتُ بـالـشـكوى فـغـايـةُ مُـجـهَـدٍ
لم تُـبْقِ لي كَـبِـداً فـأسـتَـبْـقـيكِ

أجـنـايـةَ الـطَّرْفِ الـكـحيلِ على الحشا
الـلـه حـسـبي في الـدَّم الـمَـسْـفـوك

مـا في الـشـرائعِ لا ولا في أهـلِـهـا
مَن يَـسـتـحلّ الأَخْـذَ مِن جـانـيكِ

يـا هـذه كم تَـشْـحـذينَ غِـرارَه
أوَ مـا خَـشِـيتِ حـدَّهُ يُـؤذيك[1]

يـا أختَ ظـبيِ الـقَـاعِ لـو أَعـطـيـته
لَـحـظَـيكِ صـادَ الـصَّـائـديه أخـوكِ

روحي فِـدى عـيـنـيكِ مـهـمـا جـارتـا
في مـهـجـتي وأبي فـداءُ أبـيكِ

رمـتـا فـكلُّ مُـصـمِّمٍ ومـقـوِّمٍ
نـابٍ، وكلّ مُـسـرَّدٍ وحَـبـيكِ[2]

الـلـهَ في قـتـلى جُـفـونكِ إنـهم
ظـلـموا نـفـوسَـهُمُ ومـا ظـلَـموك

---

(١) الغرار: حدّ الرمح.

(٢) مسرّد: مثل تسريد الدرع (تداخل الحلَق بعضها في بعض).

إن تُبْصِريني أتّقي فَتَكاتِها
فلقد أَصولُ على القَنا المَشبوك[1]

كم تجحَدينَ دمي وقد أبصرْتِه
ورْداً على خدّيكِ غيرَ مَشُوك[2]

رُدّي حياتي إنها في نظرةٍ
أو زَوْرةٍ أو رَشْفةٍ من فِيك

لو تنظرين إلى قتيلِكِ في الدُّجى
يرعى كواكبَهُ ويَسترعِيك

والليلُ من همّ الصباح وضوئه
حيرانُ حَيْرةَ عاشقٍ مهتوك

لَعجِبتِ من زُور الوشاة وإفكِهمْ
ومن الذي قاسيتُ في حُبّيكِ

حَولِي إذا أرخى الظلامُ سجوفَه
ليلان: ليلُ دُجىً وليلُ شُكُوك

تمتد فيهِ بيَ الكآبةُ والأسى
مثلَ امتدادِ الحرْفِ بالتَّحْريك

ما لي إذا شئتُ السلوَّ عن الهوى
وقدِرْتُ أن أَسْلُوكِ لا أَسْلوك

فُكّي إساري إنّ خلفي أمّةً
مضنوكةً في عالَمٍ مَضنوك

وأحبةً سدّ القُنوطُ عليهمُ
والخوفُ كلَّ معبَّدٍ مَسْلوك

لا تسألِيني كيف أصبح حالُهمْ
إني أخافُ حديثَهم يشجِيك

(١) أراد (التبصير) بمعنى التعريف والإيضاح.

باتوا برغمهمُ كما شاء العدا
لا حُزنُهم واهٍ ولا بِركيك
لا يَملِكون سوى التحسُّرِ، إنه
جُهدُ الضَّعيفِ الواجدِ المَفْلوك[1]
تترقرقُ العَبْراتُ فوق خدودهمْ
يا مَن رأى دُرَراً بغيرِ سُلوك[2]
أخذَ العزيزَ الذُّلُّ من أَطْواقه
والجوعُ يأخذ مُهجةَ الصُّعْلوك
قل للمبذِّر في المَلاهي مالَهُ
ماذا تركتَ لذي الأسى المتْروك
أيبيتُ يَشربُ من مَعينِ دُموعِه
وتبيتُ تَحسوها كعَينِ الدِّيك؟[3]
ويَروحُ في أَطْماره، وتَميسُ في
ثوبٍ لأيامِ الهناءِ مَحوكِ
إن كنتَ تأبى أن تُشارِكَه سِوى
نُعْمَى الحياةِ فأنت غيرُ شَريك
يا ضَرّةَ البلجيكِ في أحزانها
تبكيكِ حتى أُمَّةُ البَلْجيك
حُمِّلْتِ ما يُعيي الشواهقَ حَملُه
يا ليت ما حُمِّلتِ في شَانيك
سلّ البُغاةَ عليكِ حُمْرَ سُيوفهمْ
لا أنتِ جانيةٌ ولا أهلوك

---

(١) المفلوك: الفقير، وجمعه: مفاليك.
(٢) يريد: درراً لا ينتظمها السلك.
(٣) شراب صافٍ كعين الديك: صافٍ شديد الصفاء.

جُنّ القضاءُ فغالَ حسنَكِ قُبحُه
وأذلّ أبناءُ الطَّغامِ بنيك[1]

لا أشتكي الدنيا ولا أحداثَها
هذي مشيئةُ ذي المشيئةِ فيكِ

لو أملِكُ الأقدارَ أو تصريفَها
لأمرتُها فجَرتْ بما يُرضيك

ولو انها تدري وتَعقِل لانثنَتْ
تَرمي بأسهُمِها الذي يَرميك

إن يفتديكِ أخو الغِنى بنُضارِه
فَبِدرهَمي وبمُهجَتي أَفديك[2]

ومنازلُ البؤساء أَوْلى بالنَّدى
ولأنتِ أَولاها بمالِ نويك

☆☆☆☆☆

يا أمةً في الغَرْب ينعُم شَطْرها
رِفقاً بشطرٍ بائسٍ مَنْهوك

جادت عليكُمْ، قبلما كنتُم، بكُمْ
جودوا ببعض العَسْجدِ المَسْبوك!![3]

****

---

(١) الطّغام: الأوغاد.

(٢) النضار: الذهب.

٤٥ - بين الضِحْك واللّعبِ

[السريع]

أعــطَــيتُ من أَعــشـقُــهــا وردةً

من بــعــدِ أن أودعــتُــهــا قــلــبي

فــجــعــلتْ تَــنــثُــر أوراقَــهــا

بــأنمُلٍ كــالــعَــنَم الــرَّطْبِ[1]

لا تــســألــوا الــعــاشقَ عن قــلــبِهِ

قــد ضــاع بــين الــضِّــحْك والــلّــعبِ

✡✡✡✡

لم أقــطِفِ الــوردةَ من غُــصــنــهــا

لــو لم تــكن كــالخــدِّ في الإتــقــادْ

ولم تُــمــزّق هــنــدُ أوراقَــهــا

لــولا اشــتــبــاهُ بــيــنَــهــا والــفــؤادْ!..

****

(١) العَنَم: شجر أغصانه لينة، يُشبه به بنان المرأة.

٤٦ - أمة تفنى وأنتم تلعبون

[الرمل]

أَ عَـلى عـيـني من الـدمع غِـشـاءْ
أم عـلى الـشـمس حـجـابٌ من غَـمَـامْ؟
غـاضَ نـور الـطَّـرْف أم غـارت ذُكَـاء
لـستُ أدري غـيـرَ أني في ظلام

✡✡✡✡✡

مـا لـنـفـسي لا تُـبـالي الـطَّـربـا
أين ذاك الـزَّهْـو، أين الـكـلَفُ؟
عـجـبـاً مـاذا دهـاهـا عـجـبـاً
فـهْي لا تـشـكـو ولا تَـسـتـعـطِف
لـيـتـهـا مـا عـرفتْ ذاك الـنَّـبـا
فـالـسـعـيـدُ الـعـيشِ مَن لا يَـعـرف
لا ابـتـسـامُ الـغِـيـد، لا رقْصُ الـطِلاءْ[1]
يـتَـصـبَّـاهـا ولا شـدْو الحَـمَـامْ
بـالـكـرى عـني وبي عـنه جَـفـاءْ
أنـا وحـدي... أم كـذا كلُّ الأنـامْ؟

✡✡✡✡✡

لا أرى لـي من هـمـومي مـهـربـاً
فـهْي في هـذا وذيّـاك الـطـريقْ
في الـرُّبـا فـوق الـرُّبـا تحت الـربـا
في الـفـضـاء الـرَّحْب، فـي الـروض الأنـيق

(١) يريد: الطلا: الخمرة.

في اهــتــزاز الــغُــصْـن في نَــفْحِ الــصَّــبـا
في انــســجــام الــغـيـثِ في لمح الـبُـروق[1]
كـــلـــمـــا أومضَ بـــرقٌ أو أضـــاءْ
بِتُّ أشــكــو في الــدُّجى وقْعَ الــسَّــهــامْ
في ابــتــســام الــفــجــر لــلـمَـرضى شِــفــاءْ
وابــتــســامِ الــفــجْــر فــيه لي سَــقــامْ

☆☆☆☆☆

تــعــتــريــنــي هِــزَّةٌ كــالــكَــهْــربــا
كــلّــمــا حنّ مَــشــوقٌ لِــمَــشــوقْ
علَّــمتْ عــيــني الــسُّــهــادَ الــكَوكـبـا
وفــؤادي عــلّمَ الــبَــرْقَ الخُــفُــوق
مــا دعــوتُ الــدَّمع إلا انــســكَــبــا
يــا دُمــوعي أنتِ لي أوفى صــديق
لم أرَ كــالــيــأس يــغــري بــالــبــكــاءْ
لا ولا كــالــدمع يــشــفي المــســتَــهــام
فــاســتــعــيــنــوا بــالــبُــكــا يــا تُــعــســاءْ
كــلــمــا اشــتــدّت بــكم نــارُ الــهُــيــام

☆☆☆☆☆

خِــلــتُ قــلــبي بــالأسى مــنــفــردا
وأنــا وحــدي صــريعُ المِــحَــنِ
وتــوهــمــتُ الأسى لن يَــجــدا
ســكــنــاً في غــيــرِ قــلــبي الــمُــثْــخَنِ
وظــنــنتُ الــدهــرَ مــهــمــا حَــقَــدا
ســوف لا يَــفــجَــعُــني في وطــني

---

(١) الصَّبا: الريح الندية (القادمة من نجد، في الأصل).

فــــإذا تــــلــك المَــــغـــــاني فــي شـــــقـــــاءْ

وإذا كـلُّ فـــــــــؤادٍ فـــي ضِــــــــــرامْ

ذهـــــبتْ كلُّ ظـــنـــوني فـي الــــهـــواءْ

وتــــولّت مــــثلَ أضــــغـــاث الــــنـــامْ

✲✲✲✲✲

لا تــلُــمْــني إن أنــا لُــمتُ الــقَــضـا

ولُمِ الـــدهـــرَ الـــذي أخـــنى عـــليّ

لم تـــدع فيّ الـــلـــيـــالي غَـــرَضًــا

والـــضَـــنى لم يُـــبْقَ مـــني غـــيـــرَ فَيّ

لا تـــســـلْـــني: أيَّ خـــطب عَـــرَضـا

في الحَـشـا وجـدٌ وفي المِــقْــوَلِ[1] عِيّ

فلَّ غَــرْبي سـالبُ الـسَّـيفِ المَـضـاءْ[2]

والــشــذا الــزهــرةَ والــعِــقــدِ الــنـظـامْ

وإذا مـــا غـــلـبَ الــيــأسُ الـــرَّجـــاء

هــانت الــشــكـوى ولم يُــجْــدِ الــكلامْ

✲✲✲✲✲

صـــرتُ لــكن مــثــلَــمـا شــاء الــكَــمَـدْ

شـــاعـــراً من مُـــقـــلـــتي أرتجلُ

صـــدَّ مـــا كـــان بــنــفــسي عــنه صـــدْ

وتجـــافـــاني الـــكلامُ المـــرسَل

عَــقَــد الحــزنُ لــســاني فــانــعــقــدْ

أيُّ ســـيفٍ مـــا اعـــتـــراه الـــفَـــلَل؟

---

(١) المِقْوَل: اللسان. والعيّ: انحباس الكلام.

بي هــمــومٌ كــلَّــمــا لاح الــضــيــاءْ
ضـــربتْ فـــوقَ عـــيـــوني بـــلِــثـــامْ
وشـــجـــونٌ كـــلَّـــمـــا جَنّ المـــســـاء
قـــطـــعتْ بـــين جُـــفـــوني والمَـــنـــام

✵✵✵✵✵

لا أرى غـــيـــرَ خـــيـــالاتٍ تَـــســـيـــرْ
مُـــهـــطِـــعـــاتٍ[1] عن يَـــســـاري والـــيـــمـــينْ
فـــوق أرضٍ من دمـــاءٍ وســـعـــيـــرْ
في فـــضـــاءٍ من هـــمـــوم وشـــجـــونْ
عـــجـــبـــاً.. أين ابـــتـــســـامـــاتُ الـــثُّـــغـــورْ
مـــا لِـــقَـــومـي كـــلُّـــهـم بـــاكٍ حـــزين
كلُّ مـــا أســـمع نـــوحٌ وبـــكـــاءْ
كلُّ مـــا أُبـــصـــرُ «صـــرْعى ورِمـــام»
زلـــزلتْ زلـــزالَـــهـــا هـــذي الـــســـمـــاءْ
أم تُـــرى فـــضّتْ عن المـــوتى الـــرِّجـــام[2]

✵✵✵✵✵

وقـــعَ الأمـــــرُ الــــــذي لا يُـــــدفعُ
وجَـــنى الجـــاني عـــلى تـــلك الـــربـــوعْ
واحـــتـــواهـــا نَـــهِـمٌ لا يَـــشـــبعُ
فـــاحـــتـــوى ســـكـــانَـــهـــا خـــوفٌ وجـــوع
فـــهْي إمـــا دِمـــنـــةٌ أو بَـــلْـــقـــعُ
وهـــمُ إمّـــا قَـــتـــيـــلٌ أو صَـــريـــع

---

(١) أهطع في السير. أسرع.

إن شـكتْ قـالت عـلى الـدُّنـيـا الـعـفـاءْ
أو شـكَوا قـالـوا عـلى الـنـاس الـسلامْ
عَـبَثَ الإنـسـان فـيـهـا والـقَـضـاءْ
آه من جَـور الـلـيـالي والـطَّـغَـامْ[1]

✡✡✡✡✡

رُبَّ طـفلٍ طـاهـرٍ مـا أثِـمـا
مـات مـوتَ الآثمِ الـمُـجْـتَـرِمِ[2]
كـان ممن يُـرتجى لـو سَـلِـمـا
لـلـعُلا لـكـنّه لم يَـسْـلَمِ
كـوكبٌ مـا كـاد يَـبـدو في الـسَّـمـا
طـالـعـاً حـتى اخـتـفى كـالحُـلُمِ
غـاضَ مـثْلَ المـاءِ في الأرض الـعَـراءْ
مـا عـهـدتُ الـبـدرَ مَـثـواه الـرُّغـامْ[3]
هـكـذا أودتْ به ريحُ الـشِّـتـاءْ
زهـرةٌ لم تَـنـفـتح عـنـهـا الـكِـمـامْ[4]

✡✡✡✡✡

رُبَّ شـيـخٍ أقـعـدتْه الحـادثـاتْ
ومـشـى «الأبـيضُ» في لِـمَّـتـهِ
وثـنـاه الـضَّـعفُ عن حَـمْل الـقـنـاةْ
وعن الـسـابق في حَـلْـبـتـهِ[5]
كـان من قـبلِ حُـلـولِ الـكـارثـاتْ
آمـنـاً كـالـنَّـسْـر في وُكْـنَـتـهِ[6]

---

(١) الطَّغام: الأوغاد والأوباش.
(٢) المجترم: المرتكب الجرم.
(٣) الرُّغام: التراب.
(٤) الكمام: غطاء نَور الزهرة.
(٥) القَناة: الرمح (والجمع: القنا). ويقصد بالسابق: الحصان.

لاهــيــاً يــذكُــرُ أيــامَ الــصِّــبــاءْ

ولــيــالــيه وفـي الــثَّــغــر ابــتــســامْ

حــكَمَ الــعــاتي عــلــيه بــالــفَــنــاءْ

وأبى المــــقـــدورُ إلا أن يُـــضـــامْ

☼☼☼☼☼

وفــتىً كــالــغــصن ريــانٌ نَــضــيــرْ

تحــــلُم الخَـــوْدُ به إذ تحــــلُمُ[1]

وتــراه لــلــهــوى بــين الــبُــدورْ

فــتــراه فــوقَــهنَّ الأنجُمُ

ألْــمــعيُّ الــذِّهنِ والــقــلبِ الــكــبــيــرْ

مــلَكٌ في بُــردتَــيْه ضَــيْــغمُ[2]

بــات لا يــقــوَى عــلــى حَــملِ الــرِّداءْ

مــنــكَــبــاه وهــو في الــعــشــرين عــامْ

مــا به عــجــزٌ ولا داء عَــيــاءْ[3]

غــيــرَ أن الجــوعَ قــد هــدّ الــعِــظــامْ

☼☼☼☼☼

وصــغــارٍ مــثلِ أفــراخِ الــقَــطــا

يــتــضَــاغَونَ من الجــوع الــشــديــدْ[4]

وهــنَتْ أعــصــابُــهُمْ لــمّــا سَــطــا

والــطَّــوى يُــوهِنُ عــزْمَــاتِ الأُســودْ

أرأيت الــعِــقــدَ إمّــا انــفــرَطــا

هــكــذا دمــعُــهُم فَــوق الخُــدودْ

---

(١) الخوْد: الفتاة البكر.

(٢) الضيغم: الأسد.

(٣) الداء العياء: الصعب الذي يعيي الطبيب.

(٤) القطا (ومفرده: قطاة) الطائر. وضغا: صاح من الألم.

زَهـــقَتْ أرواحُـــهُمْ في شـــكل مـــاءْ

لـلأسى، لـــله مـــا أقـــسى الحِـــمـــامْ

يـــا رعى الـــلـهُ نـــفـــوسَ الـــشـــهـــداءْ

وســقى أجـداثَــهُمْ صَــوْبُ الـغَـمَـام[1]

☆☆☆☆☆

أيـــهـــا الجـــالُـــونَ عن ذاك الحِـــمى

إنّ في ذاك الحِـــمى مـــا تـــعـــلَـــمـــونْ

ضِـــيمَ في أحـــرارِه واهـــتُـــضِـــمـــا

ووقـــفـــتُمْ من بـــعـــيـــدٍ تَـــنـــظـــرونْ

لا، ومن شـــاء لـــنـــا أن نَـــنـــعَـــمَـــا

مـــا كـــذا يَـــجـــزي الأبَ الـبَـرَّ الـبـنـون

كُـــلُّـــكمْ يـــا قـــومُ في الـــبَـــلـــوى ســـواءْ

لا أرى في الـــرُّزء لُـــبـــنـــانـــاً وشـــامْ

في رُبـــا لـــبـــنـــانَ قـــومي الأصـــفـــيـــاءْ

وبـــأرض الـــشـــام أحـــبـــابي الـــكِـــرامْ

☆☆☆☆☆

الـــلـــيـــالي غـــاديـــاتٌ رائـــحـهْ

بـــالـــدَّواهي وأَراكُـمْ تـــضـــحـــكـــونْ

مـــا اتـــعـــظْـــتُم بـــالـــســـنـــينَ الـــبـــارحهْ

لا ولا أنـــتـــمْ غـــداً مُـــتَّـــعِـــظـــونْ

يـــا لَـــهـــول الخـــطـب!... يـــا لَـــلـــفـــادحهْ

أمّـــةٌ تَـــفـــنَـى وأنـــتـم تـــلْـــعـــبـــونْ

---

(١) صوب الغمام: مطره النازل.

فــادفِــنــوا أضــغــانَــكُــمْ يــا زُعَــمــاءْ
يــبــعــثِ الــلــهُ من الــقــبــر الــوئِــامْ
وابــسُــطــوا أيــديــكمْ يــا أغــنــيــاءْ
أبــغضُ الــسُّــحبِ إلى الــصَّــادي الجَــهَــامْ![1]

****

(١) الجَهام: السحاب الذي لا ماء فيه.

٤٧ - (في الليل)

متى يذكرُ الوطنَ النوّمُ

[المتقارب]

جلستُ وقدْ هجعَ الغافلونْ
أفكّرُ في أمسِنا والغَد
وكيف استَبدَّ بِنا الظالمونْ
وجَاروا على الشيخ والأمرَد
فخِلتُ اللواعجَ بين الجفونْ
وأنّ جهنّمَ في مَرقَدي
وضاقَ الفؤادُ بما يكتُمُ
فأرسلتِ العينُ مِدْرَارها

✡✡✡✡✡

ذكرتُ الحروبَ وويلاتها
وما صنعَ السيفُ والمدفعُ
وكيف تجورُ على ذاتها
شعوبٌ لها الرتبةُ الأرفعُ
وتَخضِبُ بالدمّ راياتِها
وكانت تذمُّ الذي تصنَعُ
فباتتْ بما شيَّدَتْ تَهْدِمُ
صروحَ العلومِ وأسرارها

✡✡✡✡✡

نـــســـــاءٌ تجــودُ بـــــأولادهـــا
عـــلـى المــوت، والمــوتُ لا يـــرحمُ
وجُـــنْـــدٌ تجــودُ بـــأكـــبـــادِهـــا
عـــلـى الأرض، والأرضُ لا تَـــعـــلَمُ
وتـــغـــدو الـــطـــيـــورُ بـــأجـــســـادهـــا
فـــإن عـــطـــشتْ فـــالـــشـــرابُ الـــدم
وفـــي كـــلّ مـــنـــزلـــةٍ مـــأتمُ
تـــشُقّ بـــهـــا الـــغِـــيـــدُ أزرارهـــا

✡✡✡✡✡

لـــقـــد شـــبعَ الـــذئبُ والأجَـــدلُ
وأقـــفَـــرتِ الـــدُّورُ والأربُـــعُ
فـــكم يـــقـــتلُ الجـــحـــفلَ الجـــفـــحلُ
ويـــفـــتِكُ بـــالأروَعِ الأروعُ
ولـن يُـــرجِعَ الـــقـــتلُ من قُـــتِّـــلـــوا
ولـن يَـــســـتـــعـــيـــدَ الـــذي ضـــيـــعـــوا
فـــبـــئسَ الألى بـــالـــوغَى عَـــلَّـــمُـــوا
وبـــئس الأُلَـى أجَّـــجُـــوا نـــارهـــا

✡✡✡✡✡

أمِنْ أجلِ أن يـــســـلَمَ الـــواحـــدُ
تُـــطَلُّ الـــدمـــاءُ وتـــفـــنَى الألـــوفْ؟
ويـــــزرعُ أولادَه الـــــوالـــــدُ
لـــتـــحـــصـــدُهم شـــفـــراتُ الـــسّـــيـــوفُ؟
أمـــورٌ يـــحـــارُ بـــهـــا الـــنـــاقـــدُ
وتُـــدمي فـــؤادَ الـــلـــبـــيبِ الحَـــصِـــيفْ
فـــيـــا لـــيتَ شِـــعـــري مـــتى يـــفـــهمُ
مـــعـــانـي الحـــيـــاة وأســـرارَهـــا

✡✡✡✡✡

وحـــولّتُ طــرفي إلى الـــمَـــشـــرقِ
فـــلم أرَ غــيــرَ جــبـــالِ الـــغـــيــومْ
تحـــومُ عـــلى بـــدرِه الــــمُـــشـــرقِ
كـمـا اجـتـمعتْ حـول نـفسي الـغُـمُـوم
فـــأســـنـــدتُ رأسي إلى مِـــرفَـــقـي
وقـــلتُ، وقـد غَـلَـبـتْـنِي الـهُـمُـوم
بــــــربِّكِ، أيـــــتــــهـــــا الأنجمُ
مـــتى تــضعُ الحــربُ أوزارَهـــا؟

✲✲✲✲✲

كـــمــا يُـقـتلُ الـطــيـرُ في الجـنَّـةِ
ويُـقْـتَـنصُ الـظَّـبيُ في الـسَّـبـسَبِ[1]
كـــذلك يُـــجـــنَى عـــلى أمَّـــتي
بـلا ســـــببٍ وبـلا مُـــــوجِـب
فـــحـــتَّـــامَ تُـــؤخَـــذُ بـــالـــقـــوةِ
ويُـــقـــتصُّ مـــنـــهـــا، ولم تُـــذْنبِ؟
وكم تَـــســـتــكـــينُ وتـــســـتـــســـلِمُ
وقـــد بـــلغ الـــسَّـــيلُ زُنَّـــارَهـــا

✲✲✲✲✲

وســـيـــقتْ إلى الـــنِّـطعِ سَـوقَ الـغـنمْ
مـــغــــاويــــرُهـــا ورجـــالُ الأدبْ[2]
وكلُّ امــــرئٍ لم يمت بــــالخَـــــذِمْ
فـقـد قـتـلـوه بـسـيف الـسَّـغَبِ[3]

(١) السبسب: المفازة الواسعة الخالية.
(٢) النطع: بساط من جلد، تقطع فوقه الرؤوس.
(٣) الخذم: سرعة القطع، والمِخذم: السيف القاطع. السغَب: الجوع.

فـمـا حـرّك الـضـيمُ فـيـهـا الـشّـممْ
ولا رؤيــةُ الــدَّمِ فــيــهــا الــغـضبْ
تــــبــــدّلَتِ الــــنــــاسُ والأنجمُ
ولــــمّــــا تُــــبــــدّلْ أطــــوارهــــا

✡✡✡✡

أرى الــلــيثَ يــدفعُ عن غَــيْــضــتِهْ
بــــأنــــيــــابِهِ وبــــأظــــفــــارِهِ
ويــجــتــمعُ الــنــملُ في قــريــتِهْ
إذا خَــشــي الــغــدرَ من جــارِهِ
ويَــخــشى الــهَــزارُ عــلى وَكْــنــتِهْ
فــيــدفع عــنــهــا بمــنــقــارِهِ[1]
فلا الــكــاســراتُ ولا الــضّــيــغمُ
ولا الــشــاةُ تــمــدح جــزّارهــا

✡✡✡✡

عــجــبتُ من الــضّــاحك اللاعبِ
وأهــلُــوه بــين الــقَــنــا والــسُّــيوفْ
يَــبــيــتُــونَ في وجَلٍ نــاصبٍ
فــإن نــصــبــوا أُلجــئــوا لــلــكــهوفْ
ومِــمنْ يُــصــفِّقُ لــلــضّــاربِ
وأحــبــابُه يَــجــرَعــونَ الحُــتُــوفْ
مــتى يــذكــرُ الــوطنَ الــنُّــوَّمُ
كــمــا تَــذكُــرُ الــطّــيــرُ أوكــارَهــا؟

****

---

(١) الوكْن: عش الطائر أو مأواه في جبل أو جدار.

٤٨ - سقوط أرضروم[١]

[البسيط]

أعِدْ حديثَكَ عندي أيها الرَّجلُ
وقلْ كما قالتِ الأنباءُ والرُّسُل

قد هاجَ ما نقل الراوون بي طَرَبًا
ما أجملَ الرُّسْلَ في عيني وما نَقَلوا

فاجمعْ رواياتِهمْ واملأ بها أُذُني
حتى تراني كأني شاربٌ ثَمِل

دعْ زُخْرُفَ القولِ فيما أنت ناقلُه
إنّ المليحةَ لا يُزري بها العَطَل[٢]

فكلُّ سمْعٍ إذا قلتَ «السُّلافَ» فمٌ
وكل قولٍ، إليهم ينتهي، عَسَل

لا تَسقني الراحَ إلا عند ذكرِهمُ
أو ذكرِ قائدِهم أو ذكْرِ ما فَعَلوا

همُ المَساميحُ يُحيي الأرضَ جودُهمُ
إذا تنكّبَ عنها العارضُ الهَطِل[٣]

همُ المَصابيحُ تستهدي العيونُ بها
إذا اكفهرّ الدُّجى واحتارتِ المُقَل

---

(١) «إيالة» شرقي تركية، احتلها الروس لثالث مرة سنة ١٩١٦ خلال الحرب العالمية الأولى، وعنها كتب أبو ماضي نصه الشعري.

(٢) العَطَل: المرأة الخالية من الحليّ.

(٣) العارض: السحاب يعترض في الأفق.

هُمُ الـغـزاةُ بـنـو الـصِّـيـدِ الـغُـزاةِ، بـهـمْ
وبـطْـشِـهـمْ بـالأعـادي، يُـضـربُ الـمَـثَل

قـومٌ يَـبـيتُ الـضـعـيفُ المسـتـجـيـرُ بـهم
من حـوله الجـنـدُ والـعَـسّـالـةُ الـذُّبُل[1]

فـــمـــا يُـــلـمّ بمن صـــافـــاهُـمُ ألَـمٌ
ولا يَـــــــدومُ لـمَـن عـــــــاداهُـمُ أمَـل

✡✡✡✡✡

أيــطـلـبُ الــتُّـركُ أن تَـعـلــو أهـلّـتُـهـم
.... [2]

«ولـــلــغَـــرَنْـــدُقِ» رأيٌ مـــثـلُ صـــارمِـهِ
يـزِلّ عن صَـفْـحـتـيـه الحـادثُ الجَـلَل[3]

الـمُـقْـبِلُ الـصَّـدرِ، والأبـطـالُ نـاكِـصـةٌ
تحت الـعَـجـاجـة لا يَـبـدو لـهـا قُـبُل[4]

والـبـاسـمُ الـثَّـغـرِ، والأشلاءُ طـائـرةٌ
عن جـانـبـيه، وحَـرّ الـطَّـعنِ مـتَّـصِل

سـعْـدُ الـسُّـعـود عـلى الـسـوَّال طـالـعُه
لـــكـــنـه فـي مـــيـــادينِ الـــوغـى زُحَل[5]

في كل ســـيـفٍ سِـوى بَـتّـارِه فَـلَـلٌ
وكـلّ رأيٍ ســــــــــوى آرائـه زَلَـلُ!

✡✡✡✡✡

---

(١) عسَلَ الرمحُ: اهتزّ. والرمح الذابل: الدقيق.

(٢) عجُز البيت محذوف في سائر المصادر بين أيدينا ويبدو أن فيه مواجهة بين الهلال والصليب وهي مواجهة كان عرض لها أبو ماضي في قصيدة أخرى.

(٣) Qrand-DUC، أمير الأسرة الحاكمة في روسية.

(٤) العجاج والعجاجة: الغبار والدّخان أيضاً. والقبُل: عكس الدُّبُر.

(٥) زُحَل: الكوكب المعروف، ويفيد اسمه: الزّلل والتنحي، ومن هذا المعنى يفيد أبو ماضي.

يـا ابنَ المـلـوكِ الأُلى قـد شـادَ واحـدُهُمْ
مـــا لم تُـــشَـــيِّـــدْهُ أملاكٌ ولا دُوَلُ
وقـائـدَ الجـيشِ مـا لـلـريحِ مُـنـفـرَجٌ
فـيه، ولـكن لـهـا من حَـولـهـا زَجَل[١]
تـوهّمَ الـتُّـركُ لـمّـا حـان حَـيْـنُـهُمُ
أنَّ الألـى وَتَـروا آبـاءَهم غَـفَـلـوا
حـتى طلـعتَ من «الـقـوقـاس» في لَـجِبٍ
تـضـيق عـنه فِـجـاجُ الأرض والـسُّـبُلُ
فـأدركـوا أنـهم نـامـوا عـلى غَـرَرٍ
وأنك الـبَـدْرُ في الأفلاك تَـنـتـقِل[٢]
يا يـومَ صبَّحـتَهُمُ والـنقْعُ مـعـتكِرٌ
كـأنه الـلـيلُ فـوق الأرض مُـنْـسـدِل
لـيلٌ يَـسـيـر عـلى ضـوء الـسـيـوفِ به
ويـهـتـدي بـالـصـلـيل الـفـارسُ الـبَطَل
بـكل أروعَ مـا في قـلْـبِه خَـوَرٌ
عـنـد الـصِّدام، ولا في زَنْـده شـلَل
وكلِّ مـنـجـردٍ في سَـرْجه أسـدٌ
في كـفِّه خَـذِم، في حَـدِّه الأجل[٣]
وكلِّ راعـفـةٍ بـالمـوتِ هـادرةٍ
كـأنـهـا الـشـاعـرُ الـمَـطـبـوعُ يَـرتجل
سـوداءُ تـقـذف من فـوهـاتـهـا حِـمَـمًـا
هـي الـصـواعقُ إلا أنـهـا شُـعَل

(١) الزَّجل: الصوت.
(٢) الغرَر: الخطر.
(٣) الخذِم: السيف الحاد (الخُذم: الحدّة).

لا تحفظُ الدِّرعُ منها جسمَ لابسِها

ولا يُنجّي الحصونَ الصخرُ والرَّمَل

فالبِيضُ تأخذُ منهمْ كيفما انفتلت

والذُّعر يمعن فيهم كيفَما انفتَلوا

وكلما وصلُوا ما انبتّ باغَتَهمْ

ليثٌ يُقَطِّع بالفَصّال ما وَصَلوا

فأسلَموا «أرضَروما» لا طواعِيَةً

لو كان في وسْعهمْ إمساكَها بَخِلوا

كم حوّطوها وكم شادوا الحصونَ بها

حتى طلعتَ فلا حِصْنٌ ولا رَجُل

وفرَّ قائدُهمْ لمّا عرضتَ له

كما يَفِرّ أمامَ القشْعَم الحَجَل[1]

ومن يشُكّ بأن الوعْلَ منهزِمٌ

إذا التقى الأسدُ الضِرْغامُ والوَعِل؟

لم يقصُرِ الرُّمحُ عن إدراك مهجته

لكنْ حَمَى صدرَه وقْعَ الظُّبَا، الكَفَل[2]

تعلّم الركضَ حتى ليس تلحقُه

هوجُ الرّياح ولا خيْلٌ ولا إبِل

يَخال من رُعْبه الأطوادَ راكضةً

معْه وما ركضَتْ قدّامَه القُلَل

ويحسبُ الأرضَ قد مادتْ مناكبُها

كذاك يَمسَخ عينَ الخائف الوَجَل

(١) القشعم من النسور: المسنّ.

وبـات «أنـورُ» في «يـلـديـزَ» مـخـتـبـئًـا
لأمّه وأبـيـه الـثُّـكْلُ والـهَـبَل[1]
يَـطـيـرُ، إن صـرّت الأبـواب، طـائـرُهُ
ويَـصْـرُخُ «الـغـوثَ» إمّا وسْوسَ الـقُفُل
في جـفـنـه أرَقٌ، في نـفـسـه فَـرَقٌ
في جـسـمه سَـقَم، في عـقـلـه دَخَل[2]
في وجـهه صُـفـرةٌ حـارَ الـطـبـيبُ بـهـا
مـا يـصـنَع الـطِّبُ فـيـمن داؤه الخَـبَل؟
لم يـبقَ فـيـه دمٌ كـيـمـا يـجـمِّـعَه
في وجـهه، عـنـد ذكـر الخـيـبـةِ، الخَجَل
يـطـوف في الـقـصْـرِ لا يـلـوي عـلـى أحـدٍ
كـأنه نـاسكٌ في الـقـفـر مـعـتـزِل
لا بـهـجـةُ الـمُـلْكِ تُـنـسـيه هـواجِـسَه
ولا تـروّح عـنـه الأعـينُ الـنُّـجُل
يـزيـد وحـشـتَه إعـراضُ عُـوّدِه
ويـنـكـأ الجـرحَ في أحـشـائه الـعَـذَل
إذا تـمـثّل جـيشَ الـتُّـرك مـنـدحـرًا
ضـاقت به، مـثـلـمـا ضـاقت بـذا، الحِـيَل

✡✡✡✡

يـا كـاشفَ الـضُّـرّ عمّن طـالَ صـبـرهمُ
عـلـى الـنـوائب، لا مـرّتْ بك الـعِـلَل
أطـلـقـتَـهمْ من قـيـود الـظـلـم فـانـطـلـقـوا
وكـلُّـهـمْ ألْـسُنٌ تـدعـو وتَـبـتـهل

(١) « أنور باشا»: قائد تركي وزعيم سياسي، كانت سلطته هي العليا. ويلدز: قصر السلطان « عبد الحميد الثاني» في تركية، خلال الحرب العالمية الأولى، وقت سقوط أرضروم في أيدي الروس. والهَبَل: الهلاك.
(٢) الدَخَل: الفساد في العقل أو الجسم.

لـو كـان يَـنـشـرُ مـيْـتًـا غـيـرُ بـارئه

نـشـرت، بـعـد الـرَّدى، أرواحَ مـن قُـتـلـوا

بـغى عـلـيـهمْ عُـلـوجُ الـتُّـرك بَـغـيَـهمُ

لم يـشْـحَـذوا لـلـوغى سـيـفًـا ولا صَـقَـلـوا

خـانـوهمُ وأذاعـوا أنـهـم نـفَـرٌ

خـانـوا الـبلادَ بمـا قـالـوا ومـا عـمِـلـوا

يـا لَـلـطَّـغـام! ويـا بُـهـتـانَ مـا زعَـمـوا

مـتى أسـاء إلى ذي الـمِـخْـلـب الحَـمَل؟

هَـبُـوا الـرجـالَ لأمـرٍ أحـدَثـوا حَـدثًـا

فـمـا الـذي جـنَـت الـعـذراءُ والـطِـفلُ؟

أجَـدُّكمْ، كـلَّـمـا جَـوٌّ خَـلا، «أسَـدٌ»

وجـدُّكمْ، كـلَّـمـا شـبّت وغـىً، «ثُـعَل»؟[1]

قـد جـاء من يَـمـنع الـضَّـعفى ويُـرغِـمُـكُم

أن تحـمـلـوا عـنـهمُ الـنِّـيـرَ الـذي حَـمَـلـوا

أمَّـنتَ «أرمـيـنـيـا» ممـا تُـحـاذرُه

فـلـن تَـعـيثَ بـهـا الأوغـادُ والـسَّـفلُ

✡✡✡✡

ظـنـوكَ فـي شُـغُـلٍ حـتى دهـمـتَـهمُ

فـأصـبـحـوا ولـهمْ عن ظـنّـهم شُـغُـل

مَـزّقتَ جـمـعَـهُـمُ تـمـزيقَ مـقـتـدرٍ

عـلى المـهـنَّـدِ، بـعـدَ الـلـه، يـتّـكِل

فـهم شـرادِمُ حَـيْـرى لا نـظـامَ لـهـا

كـأنـهمْ نَـوَرُ الآفـاقِ أو هَـمَـل[2]

---

(١) ثعالة وثُعل: أنثى الثعالب.

(٢) النوَر: الأوباش والهمج. والهَمَل: المتروكون سُدى.

ألــبــســتَــهــمْ ثــوبَ عــارٍ لا تُــطَــهِّــرُهُ
نــارُ الـجـحـيـم ولـو فـي حَـرِّهـا اغـتَـسَـلـوا
«جَـاويـدُ» فـوق فـراشِ الـذُّلِّ مـضـطـجِـعٌ
و «طـلـعتٌ» بـرداءِ الـخـوفِ مُـشْـتـمِلِ[1]
أتــسـتـقـرُ جـنُـوبٌ فـي مـضـاجـعِـهـا
وفـي مَـضـاجـعِـهـا الأرزاءُ والـغِـيَل؟
وتــعــرفُ الأمـنَ أرواحٌ تــروّعُــهــا
ثـلاثـةٌ: أنـتَ والـنِّـيـرانُ والأَسَل؟
لـو لم تـقـاتـلْـهُمُ بـالجـيش قـاتَـلَـهمْ
جـيشٌ بـغـيـر سلاحٍ إسـمـه الـوَهَل[2]
أجـريتَ خـوف المـنـايـا في عُـروقـهمُ
فـلن يـعـيشَ لـهـم نـسْلٌ إذا نَـسَـلُـوا
قـد مـات كـهـلـهُمُ من قـبلِ مـيـتـته
وشـاخ نـاشـئـهُمْ من قـبلِ يَـكْـتَـهل
وقـد ظـفـرتَ بـهـم والـرأسُ مـشـتـعلٌ
كـمـا ظـفـرتَ بـهم والـعـمـرُ مُـقـتَـبِل
فـتْحٌ تـهـلَّـلتِ الـدنـيـا به فَـرَحًـا
فـكل ربْعٍ، خلا «أسـتـانـةً» جَـذِل[3]
الـشـعبُ مـبـتـهجٌ، والـعـرشُ مـغـتـبطٌ
وروحُ جـدِّك في الـفِـردوس تَـحـتـفل!..

****

(١) (جاويد) و (طلعت) من رجال الترك، ومن رجال حزب تركية الفتاة. رأسَ الثاني الوزارة التركية ١٩١٧ – ١٩١٨.
(٢) الوهَل: الخوف والفزع.
(٣) الأستانة: دار الخلافة (استانبول).

٤٩ - سبيل التوحيد

[البسيط]

مـــا كـــان أحـــوجَ ســـوريّـــا إلى بَـــطَلٍ
يــردُّ بــالــســيف عــنــهــا كلَّ مُــفْــتــرِسِ
ولا يـــزال بـــهـــا والـــسّـــيفُ في يَـــدِهِ
حـــتى يـــطـــهِّـــرَهـــا من كلِّ ذي دَنَس
ويـــجـــعل الحُبَّ دِينَ الـــقـــاطـــنـــينَ بـــهـــا
دينٌ يـــقـــرِّب بـــين «الـــبـــيـــتش» والـــقُـــدُس
حـــتى أرى ضـــاربَ الـــنـــاقـــوس يُـــطـــرِبُهُ
صـــوتُ الأذَينِ[1]، وهـــذا رنَّـــةُ الجَـــرَس

****

(١) الأذين والأذان واحد.

٥٠ - ١٩١٦

[الكامل]

كم، قَــبْلَ هــذا الجــيلِ، ولّى جــيلُ
هــيـهــاتَ، لـيس إلى الـبـقـاء سـبـيلُ

ضـحكَ الـشـبـابُ من الـكُـهول فـأغـرقوا
واسـتـيـقـظـوا، فـإذا الـشـبـابُ كُـهول

نــأتي ونمــضي والــزمــانُ مــخــلَّــدُ
الــصــبحُ صــبحٌ والأصــيلُ أصِــيل

حَــرٌّ وقُــرٌّ يُـبـلِـيـان جُـسـومَـنـا
لـيت الـزمـانَ، كـمـا نَـحـولُ، يَـحـول[1]

إنّ الــتــحــوّلَ في الجــمــاد تــقــلّصٌ
في الحي مــوتٌ؛ في الــنــبــات ذبُــول

قفْ بــالمــقــابِــر صــامــتًــا مُــتــأمّلاً
كم غــابَ فــيــهــا صــامتٌ وسَــؤول

وسلِ الــكــواكبَ كم رأتْ من قَــبْـلِـنـا
أممًــا، وكم شَــهِـدَ الــنــجـومَ قَــبِـيل[2]

تــتــبــدَّلُ الــدنــيــا تــبــدُّلَ أهــلِــهــا
والــلــهُ لــيس لأمْــرِهِ تَــبــديل

✲✲✲✲✲

يــا طــالــعًــا لــفتَ الــعــيــونَ طــلــوعُهُ
بــعــد الــطُّــلــوعِ، وإن جــهــلتَ، أُفــولُ

---

(١) حال - يحول: انقلب عن حاله الأولى.

عــطـفًـا ورِفْـقًـا بـالـقـلـوب، فـإنـمـا
حِـقْـدُ الـقـلـوبِ عـلـى أخـيكَ طَـويل

أُنــظـرْ! فــوجْهُ الأرضِ أَغـبـرُ شـاحبٌ
واسـمـعْ! فـأصـواتُ الـريـاح عَـويل

ومِن الحَـديـد صـواعقٌ، ومن الـعَـجَـا
جِ غـمـائِمٌ، ومن الـدمـاء سُـيـول

مـا كـنتُ أعـلمُ قَـبلَـمـا حَـمِسَ الـوغى
أنّ الـضـواريَ والأنـامَ شُـكـول[1]

يـا أرضَ أوربَّـا ويـا أبـنـاءَهـا
في عُـنْقِ مَن هـذا الـدَّمُ الـمَـطّـلُـول؟

في كل يـومٍ مـنـكـمُ أو عـنـكـمُ
نـبـأ تجيء به الـرُّوَاةُ مَـهُـول

مـزّقـتُم أقـسـامَـكم وعـهـودَكم
ولـقـد تـكـونُ كـأنـهـا الـتـنـزيل

وبـعـثـتمُ الأطـمـاعَ فـهْي جـحـافلٌ
من خـلـفـهنّ جـحـافلٌ وخُـيـول

ونـشـرتُم الأحـقـادَ فـهْي مـدافعٌ
وقـذائفٌ وأسـنَّـةٌ ونُـصـول

لـو لم تـكن أضـغـانُـكمْ أسـيـافَـكم
أمـسى بـهـا، ممـا تُـسـامُ، فُـلـول

عـلَّـمـتُمُ «عِـزْريلَ» في هـذي الـوغَى
مـا كـان يَـجـهل عِـلـمَه «عِـزْريل»

إن كـان هـذا مـا يُـسـمّى عـنـدكمْ
عِـلْـمًـا، فـأين الجَـهْلُ والـتَّـضْـلـيل

---

(١) حَمِسَ الوغى: اشتدّ القتال.

إن كان هذا ما يسمى عندكمْ

دِينًا فأين الكُفْرُ والتَّعطيل

عَودًا إلى عصْر البَداوةِ، إنه

عصرٌ، جميلٌ أن يُقال جَميل

«قابيلُ»، يا جَدَّ الورى، نم هانئًا

كلّ امرئٍ في ثوبِه «قابيل»

لا تفخروا بعقولِكمْ ونِتاجِها

كانت لكمْ، قبلَ القتال، عُقول

لا أنتمُ أنتمْ ولا أرباضُكُمْ

تلك التي فيها الهناء يَقيل[١]

لا تطلبُوا بالمرهَفاتِ ذُحولَكم

في نَيْلها بالمرهفاتِ ذُحول[٢]

إن الأنامَ على اختلاف لُغاتهمْ

وصفاتِهمْ، لو تذكُرون، قَبِيل

يا عالمَنا! هل فيك ثَمّةَ مطْمَعٌ

بالسَّلم أم هذا الشَّقاءُ يَطول

مرّت عليها حِجّتانِ ولم تزلْ

تتلو الفصولَ مَشاهدٌ وفُصول

لم يَعشقِ الناسُ الفناءَ وإنما

فوقَ البصائر والعُقول سُدول

أنا إن بَسَمتُ، وقد رأيتك مقبلاً

فكما يَهَشّ لعائديه عَليل

وإذا سكنتُ إلى الهموم فمثلَما

رضيَ القيودَ الموثَقُ المَكْبول

(١) الرَّبَض: ما يكون من حول المدن. وقال يقيل: من القيلولة.

(٢) الذُحْل: الحقد والعداوة.

لا يستوي الرجُلانِ، هذا قلبُه

خالٍ، وهذا قلبُه (مَجبُول)[1]

لا يخدعنَّ العارفون نفوسَهم

إن المُخادِعَ نفسَه لَجهول

في الشرق قومٌ لم يَسُلُّوا صارِمًا

والسيفُ فوق رؤوسِهم مَسْلول

جهِلوا ولم تجهلْ نفوسُهمُ الأسى

أشقى الأنامِ العارفُ المَجْهول[2]

أكبادُهم مَقروحَةٌ كجُفونِهمْ

وزفيرُهُمْ بأنينِهِمْ مَوْصول

أما الرجاءُ، وطالما عاشوا به

فالدمعُ يشهد أنّه مقتول

واليأسُ موتٌ غيرَ أن صريعَه

يبقى، وأما نفسُه فتَزول

رباه، قد بلغ الشَّقاءُ أشُدَّهُ

رُحْماكَ إن الراحمينَ قليل

✡✡✡✡✡

في الله والوطنِ العزيز عصابةٌ

نُكِبوا، فذا عانٍ وذاك قتيل

لو لم يمتْ شَمَمُ النفوس بموتهمْ

ثار الشآمُ، لموتهم، والنيل

يا نازحينَ عن الشَّآم تذكّروا

مَن في الشَّآم وما يليه نُزول

(١) اضطراب في الأصل، وأقرب الكلمات إلى المعنى الذي يريده الشاعر كلمة (مجبول) بالهموم.

هَمُّ الـمـمـالكِ في الجِـهـادِ، وهـمُّـكم
قـالٌ تـسـيـر بـه الـطُّـروس وقِـيـل

هـبُّـوا ؛ اعـمـلـوا لـبلادكم ولـنَـسْـلـكمْ
بـئس الحـيـاةُ سـكـيـنـةٌ وخُـمُـول

لا تَـقْـبـضـوا الأيـدي فـهـذا يـومُـكم
شَـرُّ الـورَى جَـعْـدُ الـبَـنـانِ بَـخِـيل[1]

وعَـدَ الألـهُ المحـسـنـينَ بـبـرّه
وكـمـا عَـلِـمـتمْ، وعْـدُه تَـنْـوِيل

****

(١) البنان الجعد: كناية عن البخل.

٥١ - ما للكواكب

[الكامل]

شَـوقٌ يَـروحُ مـعَ الـزمـانِ ويـغـتـدي
والــشَّــوقُ، إنْ جـدّدتَهُ يــتــجـدّدِ
دعْ عـنكَ نُـصـحي بـالـتـبلّـد سـاعـةً
يـا صـاحِ، قـد ذهب الأسـى بـتَـبـلّـدي
مــا زادَ في أسَفِ الحــزينِ وشـجْـوِهِ
شيءٌ كـقـولك لـلـحـزين: تَـجـلّـد!
مــا زلتُ أعــصِـيه إلى أن هــاجَـني
ذِكْـرُ الحِـمى فـعـصَـيتُ كلَّ مُـفَـنِّـد[1]
وأطــار عن جـفـني الـكَـرى وأطــارَني
عن مَـرْقَـدي مـشْيُ الـهـمـومِ بمَـرْقَـدي
في جــنح لــيلٍ مــثلِ حــظّي حــالكٍ
كـالـبحـر سـاجٍ... مـقـفـرٍ كـالـفَـدْفَـد[2]
أقـبـلتُ أنـظـرُ في الـنُّجـوم مـصـعِّدًا
عــيـنيَّ بــين مــصــوِّبٍ ومُـصــعِّـد
أو واجفٍ أو راجفٍ مــتــرجــرجٍ
أو نــافــرٍ أو حــائــرٍ مــتــردّد
يمــشــين في هــذا الــفـضــاء وفـوقَه
وكــأنمــا يمــشــين فــوق الأكْــبُـد

---

(١) التفنيد: اللوم وتضعيف الرأي.

(٢) سجا: امتدّ وسكن. والفدفد: المفازة الواسعة الخالية.

والبدرُ منبعثُ الشُّعاعِ لطيفُه
صافٍ كذهنِ الشاعرِ المتوقِّد

ما زال يَنفُذُ في الدُّجى حتى استوى
فيه، فيا لكَ أبيضًا في أسود

والشُّهْب تلمع في الرَّقيعِ كأنها
أحلامُ أرواح الصغارِ الهُجَّد

ينظُرْنَ عن كَثَبٍ إليه خِلْسةً
نظرَ المِلاح إلى الغَرير الأمْرَد(١)

فعجبتُ ممّن نام ملءَ جفونه
والكونُ يشهدُ مثلَ هذا المشْهد

ورأيتُني فوق الغَمام مُحلّقًا
في الأفْق ما بين السُّها والفَرقَد

فسمعتُ صوتًا من بعيد قائلاً
يا أيُّها الساري مكانَكَ تُحمد

ما دمتَ في الدنيا فلا تزهدْ بها
فأخو الزَّهَادةِ ميِّتٌ لم يُلْحَد

لا تَقْنَطَنّ من النجاح لِعَثْرةٍ
ما لا يُنالُ اليومَ يُدركُ في غد

كم آكلٍ ثمرًا سقاهُ غيرُه
دمَه، وكم من زارعٍ لم يَحْصُد

لو كان يَحصُدُ زرعَه كلُّ امرئٍ
لم تُخلْقِ الدنيا ولم تَتَجَدّد

بالذِكْر يحيا المرءُ بعد مَماته
فانهضْ إلى الذِّكْر الجميلِ وخلِّدِ

(١) الغرير والغِرّ: الشاب الذي لا تجربة له.

فـلـــئن ولـــدتَ ومُتّ غـــيـرَ مـــخـــلَّــدٍ
أثـــرًا فـــأنت كـــأنمـــا لم تـــولَـــد
حـــتّـــامَ في لا شيءَ يَـــقـــتـــتل الـــورى
إن الـحِـمَــامَ عـلى الجـمـيع بمَـرْصَـد
طـاشتْ حُـلـوم المـالـكـين، فـذاهلٌ
لا يَـســتـفـيقُ، وحـائـرٌ لا يـهـتـدي
وأفـقتُ، إذ قـطع الـكلامَ مـكـلّـمي
فـنـظـرتُـني فـإذا أنـا لم أصْـعَـد

✡✡✡✡✡

مـا لـلـكـواكبِ لا تـنـام ولا تَـنِي
قـد طـال سُـهدكِ يـا كـواكبُ فـارقُـدي
كم تـنـظـرين إلى الـثَّـرى من حـالقٍ
مـا في الـثرى لأخي الأسى من مُـسْـعِـد
أو مـا تـرَيْـني عـنـدمـا اشـتـدّ الـدُّجى
واشـتـدّ دائي نـام عـني عُـوَّدي
حـتى لـقـد كـاد الـقَـريضُ يَـعُـقُّـنِي
ويـصـونُ عـنّي مـاءَه وأنـا الـصَّـدِي
أمـسي أهُمُّ به ويـظـلَعُ خـاطـري
فـكـأنمـا أنـا مـاتح من جَـلْـمـد[1]
لا تـسـألـيـني لِمْ سـهـدْتُ فـإنـني
لـو كـان في وُسْـعي الـكرى لمْ أسْـهـد
صـرفتْ يـدُ الـبـلـوى يـدي عن أمـرهـا
مـا خِـلتُ أمـري قطُّ يـخـرُج من يـدي
في أضـلـعي نـارٌ أذابت أضـلُـعي
ومـشت إلى كَـبِـدي ولـمّـا تـخـمُـد

(١) ظلع: عرج وغمز في مشيته. ومتحَ الدلو: جذبه إليه ليستقي منه.

أخشى على الأحشاء من كتمانها
وأخافُ أن أشكو فيشمَتَ حُسَّدي

✡✡✡✡✡

ومليحةٍ لا هندُ من أسمائها
كلا، وليست كالحِسان الخُرَّد[1]

نشَزَ الجواري، والإماءُ تمرّدتْ
ووَنَتْ فلم تنشُزْ ولم تتمرّد

في النفس منها ما بها من دهرها
أزكى السلامِ عليكِ أرضَ الموعد

يا ليت شِعري كم أقول لها: انهَضي
وتقول أحداثُ الزَّمانِ لها: اقعُدي

ليس الذي لاقتْه هيْنًا إنما
حَمْلُ الأذى هيْنٌ على المتعوِّدِ!

****

(١) الخريدة: البكر.

٥٢ - الحاجة إلى الخَرَس

[البسيط]

مــا كــان أحْــوَجَــني يــومًــا إلى أُذُنٍ
صــمّــاءَ إلا عن الــمَــحْــبــوب ذي الأُنسِ

كي لا يُــصــدِّعَ رأسي صــوتُ نــائــحــةٍ
ولا تُــقــطِّعَ قــلــبي أنّــةُ الــتَّــعِس

ولا يمــرِّرَ نــفــسي الأدعــيــاءُ ولا
ذمّ الأفــاضلِ من ذي خِــسّــةٍ شَــرِسِ

أقــولُ هــذا عــسى حُــرٌ يــقــول مــعي:
مــا كــان أحْــوجَ بــعضِ الــنــاس لــلــخَــرَس!

****

٥٣ - البغضاء[1]

(معـرّبة)

[البسيط]

لا نُـبـغضُ «الـروسَ» لـكنْ لا نُـحـبُّـهمُ
فـحـربُـنـا حـربُ أقـرانٍ لأقـرانِ

ولا «الـفِرَنـسـيسَ» مـا همْ بـالـعُـداةِ لـنـا
لـكـنّـهمْ غـيـرُ أصـحـابٍ وإخـوان

إنـا نـبـادلُـهمْ والـنـقْعُ مُـنـسـدِلٌ
طـعـنًـا بـطـعنٍ ونـيـرانًـا بـنـيـران[2]

وذي بـيـارقُـنـا في «الـفُـوج» خـافـقـةٌ
وجـيـشُـنـا ظـافـرٌ في كلّ مـيـدان[3]

قـلـوبُـنـا لـيس فـيـهـا غـيـرُ مَـوْجِـدَةٍ
ذو الـشيب فـيـهـا وفَـحْم الـشّـعر سِيَّان

نـهـوَى ونـحن جـمـوعٌ لا عِـداد لـهـا
كـواحـدٍ وكـذا نـقْـلي[4] كـإنـسـان

عـدوّنـا واحـدٌ، الـكلُّ يَـعـرفُه
ذاكَ الحَـسـودُ الـخـبـيثُ المـاكـرُ الـشّـاني

(١) وردت الملاحظة التالية في الديوان الأصل: «هي القصيدة المشهورة التي نظمها الشاعر الألماني «ارنست ليسوار» في غضون الحرب، فكان لها في ألمانيا دوي ورنين. وقد نال ناظمها من إمبراطوره وساماً عالمياً من نوع «الصليب الحديدي» دلالة على الاستحسان والرضا. ولما كانت هذه القصيدة قد نقلت إلى أكثر اللغات فقد اقترحت جريدة «مرآة الغرب» اليومية على صاحب الديوان أن ينقلها إلى عالم الشعر العربي ففعل». أحسبه يُسقطها على (الأتراك العثمانيين)!

(٢) النقع: غبار المعارك.

(٣) الفُوج: Vosges جبال في شرقي فرنسة، تمتدّ إلى ١٢٠ كم، كانت ساحة لمعارك كبيرة في الحرب العالمية الأولى.

(٤) قلاه - يقليه: أبغضه (والاسم: القِلى).

تـــردُّنـــا عـــنه أمـــواجٌ يـــلـــوذُ بـــهـــا
سـمـيـكـةٌ كـالـنَّـجـيـع[1] الـيـابسِ الـقـاني
أرى به، وهـو فـي الـطـوفـان مـخـتـبئٌ،
طـوفـانَ غـيـظٍ تـوارى خـلـفَ طـوفـان
قـد أصـبـح المـاءُ يَـحـمـيه ويَـمـنـعُه
الـويلُ لـلـمـاء مـنّـا، إنه جـانِ
قِـفـوا أمـامَ الـقـضـاء الـعـدْلِ كُـلُّـكُمُ
ولـيـحـلِـفَنّ يَـمـيـنًـا كلُّ ألمـاني
غـلـيـظـةً كـالحـديـد الـصُّـلب، صـارمـةً
كـالمـوت، تـبـقـى لأدهـارٍ وأزمـان
أن نُـبـغضَ الـبُـغْضَ لا تَـبلـى مَـرائـرُه
ولا يُـقـاسُ ولا يُـحـصـى بمـيـزان
وأن نـرددّه فـي كلّ نـاحـيـةٍ
وأن نـكـرّرَهُ تـكـريـرَ ألحـان
وأن نُـعـلّم مـنّـا كلَّ ذي كـبـدِ
أن يُـبـغضَ الـقـومَ في سـرٍّ وإعلان
بـغـضًـا إلى نَـسْـلـنـا بـالإرث مـنـتـقلاً
إلى بَـنـيـهمْ ومِن جِـيـلٍ إلى ثـانِ
عـدوُّنـا واحـدٌ، الـكلّ يـعـرفُه
ذاكَ الحـسـودُ الخـبـيثُ المـاكـرُ الـشّـاني[2]
إنـكـلـتـرا
ألا اسْـمَـعـوا أيـهـا الألمـانُ واعـتـبروا
فـأنـتمُ أهلُ ألـبـابٍ وأذهـانِ
في مَـحْـفِلٍ جـلس الـقُـوّادُ كـلُّـهُمُ
كـمُـحْـكَمِ الـعِـقـدِ أو مَـرْصـوصِ بُـنـيـان

---

(١) النجيع: دم الجوف.

وقام واحدُهمْ والكأسُ في يده
كأنها قبَسٌ أو عَيْنُ غضْبانِ
فقال: يا قومُ «هذا سرُّ يومِكُمُ»
ألا اشْربوا ؛ إن سرَّ اليومِ سِرّانِ
مقالةٌ فعلتْ في الجمْع فِعلتَها
فأصبحوا وكأنّ الواحدَ اثنان
ما ضرْبةُ السَّيفِ من ذي مِرّةٍ بطلٍ
ومستطيرُ اللَّظى من قلبِ صَوّان[1]
ولا السفينةُ في التيّار جاريةً
ولا الشهابُ هوى في إثْر شيطان
أمضِي وأنفذُ منها وهي خارجةٌ
من فيه كالسَّهم من أحشاء مِرْنان[2]
فضاءَ مَن كان، في الكأس التي ارتفعت
ومَن يريد ويَعني القائلُ العاني؟[3]
إنكلترا
بني بريطانيا نادوا جموعَكُمُ
واستصرخوا الخَلْقَ مِن إنسٍ ومن جَان
وابنوا المعاقِلَ والأسوار من ذهبٍ
واستأجِروا الجُندَ مِن بيضٍ وعِبدان
مُرُوا أساطيلَكمْ في البحر تَرصُدُنا
وترصدُ البحرَ من موجٍ وحيتان
تاللهِ لا ذي ولا هذي تردُّ يَداً
إذا رمَتْ دكَّتِ البُنيانَ والباني

✡✡✡✡✡

(١) المِرّة: القوة وشدّة العقل.
(٢) المرنان: القوس الذي ينطلق منه السهم.
(٣) ضاء الشيء: أنار وأشرق.

لا نُبغِضُ الروسَ لكنْ لا نُحبُّهُمُ

فحربُنا حربُ أقرانٍ لأقران

ولا الفِرَنسيسَ، ما هم بالعُداةِ لنا

لكنهمْ غيرُ أصحابٍ وإخوان

إنّا نبادلُهمْ والنقْعُ منسدلٌ

طعنًا بطعنٍ ونيرانًا بنيران

نأتي ويأتونَ والهيجاءُ قائمةٌ

بكلّ ماضٍ وفتّاكٍ وطعّان

لكنما في غدٍ يُرخي السّلامُ على

هذي الوغى وعليهمْ سِتْرُ نِسيان

ويمّحي كلّ بغضٍ غيرَ بغضِكُمُ

فإنه آمنٌ من كلّ نُقصان

حقدُ القلوب عليكمْ لا يزول وإن

زُلْتمْ وزُلْنا وزال العالَم الفاني

في الأرض بُغْضُكُمُ والماءُ مثلُهما

والبغضُ في الحُرّ مثلُ البُغض في العاني(١)

الكوخُ يُبغضكُمْ والقَصْرُ يُبغِضُكمْ

وكلُّ ذي مُهجةٍ منّا ووِجدان

نهوى ونحن جموعٌ لا عِداد لها

كواحدٍ، وكذا نَقلَى كإنسان

عدوُّنا واحدٌ، الكلُّ يعرفُه

ذاك الحسودُ الخبيثُ الماكرُ الشّاني

إنكلترا

****

(١) العاني: الذليل والأسير.

٥٤ - حكاية قديمة

[الطويل]

وربَّتَ أمريكيَّةٍ خِلتُ ودَّها
يدوم، ولكن ما لغانيةٍ ودُّ

صبوتُ إلى هندٍ فلما رأيتُها
سلوتُ بها هندًا وما صنعتْ هند

وأوحتْ لها عيناي أنَّ صبابةً
تلجلجُ في صدري وأَحذَرُ أن تبدو

فألقتْ إلى أترابها وتبسَّمتْ:
أعِيٌ سكوتُ الصَّبِّ أم صمْتُه عَمْد؟

فقلتُ: سلامُ الله، قالت: وبِرُّه،
فقلت: أهزْلٌ ذلك القولُ أم جِدّ؟

وأمسكتُ أنفاسي وأرهفتُ مَسْمعي
ففي نَفَسي جزْر وفي مَسْمعي مَدّ

فقالت: ودِدْنا لو عرفْنا مَنِ الفتى
وما يبْتَغيه؟ قلت: ما يبتغي العبد؟

له كَبِدٌ حَرّى، وقلبٌ مُكَلَّمٌ
غلطتُ، فما للصبّ قلبٌ ولا كِبْد

قتيلٌ ولكنْ ثوبه كَفَنٌ له
وكل مكانٍ يستريحُ به لَحْد

فإن لم يكن من نظرةٍ ترأبُ الحشَا
فرُدّي عليه قلبَه وبه زُهد

فضرّجَ خديّها احمرارٌ كأنما
تصاعدَ من قلبي إلى خدّها الوجْد
وقرَّبها منيّ وقرّبني الهوى
إلى أن ظننّا أنَّنا واحدٌ فرْد
وكهربَ روحينا فلما تنهّدتْ
تنهّدتُ حتى كاد صدريَ يَنهدّ
وكان حديثٌ خِلْتُ أني حفظتُه
فأذهلني عنه الذي كان من بعْدُ

✡✡✡✡✡

أمرتُ فؤادي أن يُطيعَ فؤادَها
فيبكي كما تبكي ويشدو كما تشدو
وقلتُ لنفسي: هذه منتهى المُنى
وهذا مجالُ الشكر إن فاتَكَ الحَمْد
فإن ترغبي عنْها، وفيكِ بقية،
فما أنتِ نفسي إنما أنتِ لي ضِدّ
ومرّت ليالٍ والمُنى تَجذِب المُنى
وقلبي، كما شاءتْ، يَلين ويشتدّ
نروحُ ونغدو والليالي كأنها
وقوفٌ لأمرٍ لا تروحُ ولا تغدو
وما زلتُ تَستَخفِي عليّ عُيوبُها
إلى أن تولَّى الغَيُّ واتّضَحَ الرُّشد
رأى الدهرُ سدًا حول قلبي وقلبِها
فما زال حتى صار بينهما السدّ
خُدِعتُ بها والحُرُّ سهْلٌ خداعُهُ
فلا طالعي يُمْنٍ ولا كوكبي سَعْد

وكنّا تعاهدْنا على الموتِ في الهوى
فما لبثتْ إلا كما يلبَث الوردْ
كأني ما ألصقتُ ثغري بثغْرِها
ولا باتَ زَندي وهو في جِيدها عِقد
ولم نَشتَملْ بالليل والحيُّ نائمٌ
ولم نستترْ بالروض والليلُ مُمتدّ
ولا هزّنا شدْو الحمائم في الضحى
ولا ضمَّنا بيتٌ ولم يَحْونا بُرْد

✡✡✡✡✡

أإنْ لاحَ في فُودي القَتيرُ نَكرْتني
أيُزهدُ في الصَّمصَام إن أخَلُقَ الغمْد[1]
لئن كان لونُ الشَّعرِ ما تعشقينَهُ
فدمْ أبيضًا ما دمتَ يا شعريَ الجَعْد
فلا تشْمَتي مني فلستِ بمأمنٍ
ولا تزهَدي فيه، فليس به زُهْدُ
هو الفاتحُ الغازي الذي لا تردُّه
عن الفاتح الغازي قِلاعٌ ولا جُند
فلو كان غيرَ الشَّيبِ عني صرفتُه
ولكنّ حُكمَ اللهِ ليس له رَدّ
وإن تُعرِضي عن مَفْرِقي وهو أبيضٌ
فيا طالما قبّلتِه وهو مُسْودّ
شفى اللهُ نفْسي لا شفى اللهُ نفْسَها
ولا غاب عن أجفانِها الدمعُ والسُّهد

---

(١) القتير: الشيب أو أوائله. وخلُق – يخلُق: بليَ (وأخلق أيضاً).

فلا ثـــغـــرُهـــا دُرٌّ ولا أُقـــحـــوانـــةٌ
ولا دمـــعُـــهـــا طلٌّ ولا ريـــقُـــهـــا شَـــهـــد
ولا قَـــدُّهـــا غـــصنٌ ولا خـــيـــزرانـــةٌ
ولا خـــصـــرُهـــا غَـــوْرٌ ولا ردفُـــهـــا نَـــجْـــد
ولا وجـــهُـــهَـــا شـــمسٌ ولا شَـــعـــرُهـــا دُجىً
ولا صـــدُّهـــا حَـــرٌّ ولا وصْـــلُـــهـــا بـــرد
أحَبُّ إلى نـــفـــسي الـــرّدى من لـــقـــائـــهـــا
وأجـــمل في عـــيـــنيّ من وجـــهـــهـــا الـــقِـــرْد!
فـــإن تـــلـــمسِ الـــثـــوبَ الـــذي أنـــا لابسٌ
قَـــددتُ بـــكـــفّي الـــثـــوبَ من قَـــبلِ يَـــنـــقَـــدّ[1]
وإنْ تـــقـــرُبِ الـــدارَ الـــتي أنـــا ســـاكنٌ
هـــجـــرتُ مـــغـــانـــيـــهـــا ولـــو أنـــهـــا الـــخُـــلْـــد
فـــإن كـــان غـــيـــري لم يـــزلْ ديـــنُـــه الـــهـــوى
فـــإني، ولا أخـــشى الـــمَلامَـــةَ، مـــرتـــدُّ!!

****

(١) التقدير: من قبل أن ينقدّ (قدّه: شقّه بالطول).

٥٥ - لمن الديار

[الكامل]

لِـمَن الـديـارُ تَـنـوحُ فـيـهـا الـشَّـمْـأَلُ
مـا مـاتَ أهـلُـوهـا ولم يَـتَـرحَّـلـوا

مـاذا عَـراهَـا، مـا دَهـا سـكّـانَـهـا
يـا لـيت شِـعـري كُـبِّـلـوا أم قُـتِّـلـوا؟

مَـثَّـلـتُـهـا فَـتـمـثَّـلتْ في خَـاطـري
دِمَـنًـا لـغَـيـرِ الـفـكـرِ لا تـتـمـثَّل

تَـمـشي الـصَّـبَـا مـنـهـا بـرسمٍ دارسٍ
لا رِكْـزَ فـيـه كـأنمـا هي هَـوْجَلُ[1]

وإذا تـأمَّلَ زائـرٌ آثـارَهـا
شـخـصتْ إلـيه كـأنـهـا تـتـأمّل

أصـبـحتْ أنـدُبُ أُسْـدَهـا وظـبـاءَهـا
ولـطَـالمـا أبـصَـرتُـني أتـغَـزّل

أيـامَ أنـظـرُ في الحِـمـى مُـتـهـلِّلا
وأرى الـديـارَ كـأنـهـا تـتـهـلَّل

وأروحُ في ظلِّ الـشـبـاب وأغْـتَـدي
جَـذلانَ لا أشـكـو ولا أتـعَـلَّل

إذْ كلُّ طـيـرٍ صـادحٍ مُـتـرنِّمٌ
إذ كل غـصنٍ يـانعٍ مُـتَـهـدّل

والأرضُ كـاسـيـةٌ رداءً أخـضـرًا
فـكـأنـهـا ديـبـاجَـةٌ أو مُـخْـمَل

---

(١) الرِكز: الصوت. والهجْل والهوجل: المفازة الواسعة.

يـجـري بـهـا، فـوق الجُـمـانِ من الحـصَى
بـين الـزَبَـرْجَـدِ[١] والـعَـقـيقِ، الجـدولُ
والـزهـرُ في الجـنّـاتِ فـيَّـاحُ الـشَّـذا
بِـنَـدى الـصَّـبـاحِ مـتـوّجٌ ومُـكَـلَّل
والـشـمسُ مـشـرقـةٌ يـلـوحُ شـعـاعُـهـا
خِـلَلَ الـغـصـونِ، كـمـا تـلـوحُ الأَنـصُلُ
والـظلّ ممـدودٌ عـلـى جَـنَـبـاتِـهـا
والمـاءُ مـغـمـورٌ به الـمُـخْـضَـوضِل
لـله كـيف تـبـدّلتْ آيـاتُـهـا
من كـان يـحـسَبُ أنـهـا تـتـبَـدّل؟

✲✲✲✲✲

زحفَ الجـرادُ بـقـضِّهِ وقـضـيـضِـهِ
سَـيـرَ الـغَـمـامِ إذا زَفَـتْه الـشَّـمـأل[٢]
حـجبَ الـسَّـمـاءَ عن الـنـواظـر والـثَّرَى
فـكـأنه الـلـيلُ الـبـهـيمُ الأَلْـيل[٣]
من كلِّ طـيـارٍ أرَقَّ جَـنـاحَهُ
لـفحُ الحَـرور وطـولُ مـا يَـتـنـقَّل
عَـجِلٍ إلى غـايـاته مُـسـتـوفِـزٍ
أبـدًا يـشـدُّ الـعَـجْـزَ مـنه الـكَـلـكَل[٤]
خَـشِنِ الإهـابِ كـأنّه في جَـوشَنٍ
وكـأنمـا في كل عـضـوٍ مِـنْـجَل[٥]

---

(١) الزبرجد: الزمرّد.
(٢) زفته: دفعته ريح الشمال.
(٣) الأليل: الممتد الطويل.
(٤) الكلكل: الصدر.
(٥) الجوشن: الدرع.

وكـــأنمـــا حِـــلَقُ الـــدُّروع عُـــيـــونُه
وكـــأنـــهنّ شـــواخِـــصًـــا تُـــتـــخـــيَّل
مـصـقـولـةٌ صـقْلَ الـزُّجـاجِ يَـخـالُـهـا
في مَـعـزِلٍ عن جـسـمه، المـسـتـقـبِل
ومِنَ الـعـجـائبِ معْ صـفـاء أديمـهـا
مـــا إن تـــرفُّ كـــأنمـــا هي جَـنْـدل(١)
ضـيفٌ أخفُّ عـلى الـهـواءِ من الـهَـوا
لـــكـــنّه في الأرض مـــنـــهـــا أثْـــقل
ملأ المـســارحَ والمـطــارحَ والــرُّبـا
فـإذا خَـطَتْ فَـعَـلَـيه تـخـطـو الأرجُل
حـصَـدَ الـذي زرعَ الـشـيـوخُ لِـنَسْـلهمْ
وقـضـى عـلى الـقُـطّـانِ أن يـتَـحَـوّلـوا
مـــــا ثَـمّ مـن فَـــــنَـنٍ إلـى أوراقـه
يـأوي؛ إذا اشـتـدّ الـهَـجِـيـرُ، الـبـلـبلُ
وإذا الـــقـــضـــاءُ رمى الـــبلادَ بـــبـــؤسه
جَفّ الـسَّـحـابُ بـهـا وجفّ الـمَـنْـهل

✲✲✲✲✲

وقعَ الـــذي كـــنّـــا نـــخـــافُ وقـــوعَه
فـــعـــلى المـــنـــازل وَحـــشَـــةٌ لا تـــرحَل
أشـــتـــاقُ لـــو أدري بـــحـــالـــةِ أهـــلِـــهـــا
فـــإذا عـــرفتُ وددُت أنـي أَجـــهَل
لم تُـــبقِ أرْجـــالُ الـــدَّبَى في أرضـــهم
مـــا يُـــســـتـــظَلُ به ولا مـــا يُـــؤكل(٢)

(١) الجندل: الحجارة.

أمستْ سماؤهُمُ بغير كواكبٍ
ولقد تكون كأنها لا تأفُل
يمشون في نور الضُّحى وكأنهُمْ
في جُنْحِ ليلٍ حالكٍ لا يَنصُلُ[1]
فإذا اضمحَلَّ النورُ واعتكر الدُّجَى
فالخوفُ يعلو بالصُّدورِ ويَسْفُل
يتوسَّلونَ إلى الظَّلُوم وطالما
كان الظَّلومُ إليهمُ يتوسَّل
أمسى الدَّخيل كأنه ربُّ الحِمَى
وابنُ البلاد كأنه مُتَطفِّل
يقضي، فهذا في السجون مُغيَّبٌ
رهْنٌ، وهذا بالحديد مُكبَّل
ويَرى الجمالَ كأنما هو لا يُرى
ويرى العيوبَ كأنما هو أحْول
حالٌ أشدُّ على النفوس من الرَّدى
الصَّابُ شُهدٌ عندها والحنظل[2]

✲✲✲✲✲

ما لي أنوحُ على البلاد كأنما
في كل أرضٍ لي أخٌ أو منزل
يا ليت كفّاً أضْرَمتْ هذي الوغى
يبِسَتْ أناملُها وشُلَّ المِفْصل
تتحوّلُ الأفلاكُ عن دورانها
والشرُّ في الإنسان لا يتحوّل

(١) نصُل: ظهر وخرج.
(٢) الصاب: عصارة شجر مرّ (المفرد: صابة).

مــا زال حــتى هــاجَــهــا مَن هــاجَــهــا

حــربًا يَـشـيـبُ لـهـا الـرضـيـعُ الـمُـحْـوِلِ[1]

فــالــشَّــرقُ مُــرتــعِــدُ الــفــرائصِ جــازِعٌ

والــغــربُ من وقَــعَــاتِــهــا مُــتــزلــزِلِ[2]

والأرضُ بــالجُــرْدِ الــصَّــواهلِ والــقَــنــا

مـلأى تَـجـيـش كـمـا تَـجـيـش الـمِـرْجَـل

والــطَّــودُ آفــاتٌ تــلــوح وتــخــتــفي

والــســَّــهلُ أرْصـــادٌ تجيء وتَـــقْـــفُل

والجَــوُّ بــالــنَّــقْعِ الــمُــثــار مــلــثَّم

والــبــحــرُ بــالــسُّــفُن الــدَّوارعِ مُــثْــقَل[3]

في كلِّ مــنــفــرِجِ الجــوانب جَــحْــفَلٌ

لجَبٌ يُـــنـــازعُه عـــلـــيه جَــحْــفَل

مـــاتَ الحـــنـــانُ فـــكل شـيءٍ قـــاتلٌ

وقَــسَــا الــقــضــاءُ فــكلُّ عــضْــوٍ مــقْــتَل

فَــمُــعَــقَّــرٌ بــثــيــابه مــتــكــفِّنٌ

ومُــجــرَّحٌ بــدمــائه مُــتَــســَـربِل

كم نـــاكصٍ عن مَـــأزقٍ خَـــوفَ الـــرَّدى

طـلعَ الـردى من خـلـفه يَـتَـصَـلْـصَل[4]

شَـــقيَ الجـــمـــيعُ بـــهـــا وعَـــزَّ ثلاثـــةٌ

ذئبُ الــفلاةِ ونَــســْــرُهـــا والأجْــدَل[5]

---

(١) مضى عامه الأول.

(٢) الفريصة: لحمة في وسط الجنب (الجمع: فرائص).

(٣) النقع: غبار المعارك.

(٤) الصلصلة في الأصل: صفاء صوت الرعد، أو صوت الحديد إذا حُرِّك.

(٥) الأجدل: الصقر.

حـامتْ عـلـى الأشْلاء في سَـاحـاتِـهـا
فِـرَقًـا تَـعُـلّ من الـدمـاء وتَـنْـهل[1]

لـهَـفِي عـلـى الآبـاء كـيف تَـطـوّحـوا
لـهَـفي عـلـى الـشُّبـان كـيف تَـجـنـدَلـوا

حـربٌ جـنـاهـا كلُّ عـاتٍ غـاشمٍ
وجـنَـى مـرارتَـهـا الـضـعـيفُ الأعْـزل

مـا لـلـضـعـيفِ مع الـقـويّ مـكـانـةٌ
إنَّ الـقـويَّ هـو الأحَبُّ الأفـضَل

تـتـنـصَّلُ الـسُّوَّاسُ من تَـبِـعـاتِـهـا
إن الـبـريءَ الـذَّيلِ لا يَـتـنـصَّل[2]

قـد كـان قـتْلُ الـنـفس شـرَّ جـريمـة
والـيـومَ يُـقـتَلُ كلُّ مَن لا يَـقْـتُل

والمـالـكـونَ عـلـى الخَلائق، عـدلُـهمْ
جَـورٌ، فـكـيف إذا همُ لم يَـعْـدِلـوا

كـتـبـوا بمـسْـفُـوك الـنَّجيعِ نُـعُـوتَـهمُ
وبـنَـوا عـلـى الجُـثثِ الـعـروشَ وأثَّـلـوا

صـرَفَ الجـنـودَ عن المـلـوك وظُـلـمـهمْ
قَـولُ المُـلـوكِ لـهم: جـنـودٌ بُـسَّل

يـا شـرَّ آفـاتِ الـزمـان المـنـقـضِي
لا جـاءنـا فـيكِ الـزمـانُ المُـقْـبِل

✡✡✡✡✡

إنْ أبكِ سـوريّـا فـقـبْـلي كم بـكـى الـ
«أعـشى» مـنـازلَ قـومِه «والأخـطلُ»[3]

---

(١) النَهلة: الشربة الأولى. والعلّة: الشربة الثانية.
(٢) السُّوَّاس: الساسة.
(٣) «الأعشى» من شعراء الجاهلية، و«الأخطل» من شعراء بني أمية.

مـــا بِي الـــدِّيـــارُ وإنمـــا قُـــطَّـــانُـــهـــا

إن الـــنـــفـــوسَ لـــهـــا الـــمَـــقـــامُ الأول

يـــا قـــومُ إن تَـــنْـــسَـــوا فلا تَـــنْـــسَـــوهُمُ

أو تَـــبْـــخَـــلـــوا فـــعـــلـــيـــهِمُ لا تـــبـــخَـــلـــوا

لـــبّـــوا نـــداءَ ذوي المـــروءةِ والـــنـــدى

لـــيُـــقـــالَ أمٌّ الـــشـــامِ أمٌّ مُـــشْـــبِلٍ[1]

لا تـــبـــتـــغـــوا شُـــكْـــرَ الأنـــام وأجْـــرَهُمْ

عَـــفْـــوُ الإلـــهِ هـــو الـــثـــنـــاءُ الأجـــزلُ

في كل يـــومٍ بـــيـــنـــكُمْ مـــســـتـــرفِـــدٌ

أو طـــالـــبٌ أو راهـــبٌ مُـــتَـــجـــوِّلٌ[2]

يـــأتـــيـــكمُ بـــادي الـــوِفـــاض فَـــيـــنـــثَـــني

وكـــأنمـــا فـــي بُـــردِه «الـــمُـــتـــوكّل»[3]

يـــبـــنـــي بمـــالِـــكُمُ الـــقـــصـــورَ لأهـــلـــه

وقـــصـــورُكُمْ أثْـــوابُـــكمْ «والـــمَـــعْـــمَل»

قـــد حـــانَ أن تـــســـتـــيـــقـــظـــوا فـــاســـتـــيـــقـــظـــوا

كم تَـــخـــجـــلُـــون وكـــلُّـــهُمْ لا يَـــخـــجـــل

يـــا لـــيـــتَ من بـــذلـــوا نُـــضـــارَهُمُ لـــمَـــن

خـــبَـــؤوه فـــي أكـــيـــاسِـــهـــم لـــم يَـــبْـــذُلـــوا

بل لـــيـــتَـــهـــمْ جـــادوا عـــلـــى ذي فـــاقـــةٍ

فـــحـــرٍ بـــعـــطـــفِ المحـــســـنـــيـــنَ الـــمُـــرْمِلُ[5]

✡✡✡✡✡

---

(١) ذات أشبال (ولود).

(٢) المسترفد: طالب الرفد (العون).

(٣) الوفضة: وعاء الزاد (والجمع: أوفاض). و"المتوكل": الخليفة العباسي.

(٤) المُرمِل: من نفد زاده.

يـــا مَن نـــريـــدُ صـلاحَهُ وصـلاحَـــنـــا

إنّ الــــعُــــدولَ عن الـــهَـــوى بكَ أجــــمل

أيـــبـــيتُ قــومُك فــوق أشــواك الـــغَـــضَــا

وتـــبـــيتُ تـــخــــطـــرُ بـــالحــريـــر وتـــرفُّل؟

أين الــهـدى، يـــا من يــبــشّـــرُ بــالـــهــدى

أين الـــتُّـــقَى، يـــا أيـــهـــا المـــزّمِّل[1]

ظــنَّتْ بك الـــنـــاسُ الـــظـــنـــونَ وإنـــني

لأَخَـــافُ بـــعـــد الـــظنِّ أن يـــتـــقـــوّلـــوا

لكَ مّـــقـــلـــةٌ فـــانـــظـــرْ بـــهـــا مـــتـــأمِّلاً

قـــد يـــســـتـــفـــيـــدُ الـــنـــاظـــرُ المـــتـــأمِّل

لا قَـــدْرَ لـــلـــجُـــهَلاء حـــتـى يَـــعـــمـــلـــوا

لا فـــضلَ لـــلـــعـــلـــمـــاء حـــتى يَـــعـــمـــلـــوا

سُـــكّـــانُ لـــبـــنـــانَ الـــعـــزيـــزِ وجـــلَّقٍ

حـــيّـــاكُمُ عـــنّـــا الـــنـــســـيمُ الـــمُـــرسَل

لا نـــابَ غـــيـــرَ عـــدوِّكمْ مـــا نـــابَـــكُمْ

وبـــلـــغـــتمُ مـــا تـــأمُـــلُـــون ونـــأمُل

كم تـــتّـــقـــونَ الـــطـــارئـــاتِ ونـــتّـــقي

كم تحـــمِـــلـــونَ الـــكـــارثـــاتِ ونَـــحْـــمِل

لـــو يـــعـــقلُ الـــقَـــدَرُ الخـــؤونُ عـــذَلـــتُهُ

وعـــــذَلـــــتُه، لـــــكـــــنه لا يَـــــعـــــقِل

أبـــكي وأســـتـــبـــكي الـــعـــيـــونَ عـــلـــيـــكمُ

أيُّ الـــدمـــوعِ عـــلـــيـــكُمُ لا تَـــهـــطُل

إن تـــغـــفُلِ الـــدنـــيـــا ويَـــغـــفُلْ أهـــلُـــهـــا

عـــنـــكمْ، فَـــخَـــالِقُ أهـــلِـــهـــا لا يَـــغْـــفُل

****

(١) المزّمّل: المتلفف بالثوب.

٥٦ - يا بلادي

[الخفيف]

مثلما يَكمُنُ اللَّظى في الرَّمادِ
هكذا الحبُّ كامنٌ في فؤادي

لستُ مُغرىً بشادنٍ أو شادِ
أنا صبٌّ متيَّمٌ ببلادي

يا بلادي عليك ألفُ تحيَّهْ

✡✡✡✡

هو حبٌّ لا ينتهي والمنيَّهْ
لا ولا يضمحلُّ والأمنيَّهْ

كان قبلي وقبلَ نفسي الشجيَّهْ
كان من قبلُ في حشا الأزليَّهْ

وسيبقى ما دامت الأبديَّهْ!

✡✡✡✡

خلِّياني من ذكرِ ليلى وهندِ
واصرفاني عن كلِّ قَدٍّ وخدّ

كلُّ حسناءَ غيرُ حسناءَ عندي
أو أرى وجْدَها بقومي كوجْدِي

لا حياءُ في الحبّ والوطنيَّهْ

✡✡✡✡

كل شيءٍ في هذه الكائناتِ
من جمادٍ وعالَمٍ ونباتِ

وقـــــديمٍ وحــــــاضـــــرٍ أو آتِ
صــــائـــرٌ لــلـــزّوال أو لـــلـــمَـــمــاتِ
غـــيـــرَ شـــوقي إلـــيكِ يـــا ســـوريّهْ
✡✡✡✡✡
أنتِ مـــا دُمتِ في الـحـــيـــاة حـــيـــاتي
فـــإذا مـــا رجـــعتُ لـــلـــظُّـــلُـــمــاتِ
واســــتـــحــــالتْ جَـــوارحي ذرّاتِ
فَـــلـــتـــقلْ كلُّ ذرّةٍ من رُفــــاتي
عـــاش لـــبـــنـــانُ، ولـــتـــعشْ ســـوريّهْ
✡✡✡✡✡
ولـــتـــقُلْ كلُّ نـــفـــحـــةٍ من نَـــدٍّ
ولـــتـــقـلْ كلُّ دمـــعـــةٍ في خَـــدٍّ
ولـــتـــقلْ كلُّ غـــرســـةٍ فـــوق لحـــدي
ولـــيـــقلْ كل شـــاعـــرٍ من بَـــعـــدي
عـــاشُ لـــبـــنـــانُ، ولـــتـــعشْ ســـوريّهْ
✡✡✡✡✡
رُبَّ لـــيلٍ سَـــهـــرْتُه لـــلـــصـــبـــاحِ
حـــائـــرًا بـــين عَـــسْـــكـــر الأشـــبـــاح
لـــيس لي مـــؤنسٌ سِـــوى مِـــصـــبـــاحي
ونــــــداءِ الملاّحِ لـــــلـــــملاّح
وصــــراخِ الـــزّوارقِ الـــلـــيـــلـــيّهْ
✡✡✡✡✡
تـــتـــهـــادى في الـــســـيـــر كـــالـــمَـــلِـــكـــاتِ
أو كـــســـرْبِ الـــنّـــعَـــام في الـــفَـــلـــواتِ

مُــقــبلاتٍ فـي الــنــهــر أو رائــحــاتِ
تحت ضــوءِ الــكــواكب الــزّاهِــراتِ
فــوق مــاءٍ كــالــبُــردة الــيــمــنــيّهْ

✡✡✡✡✡

تــتــمــشّى في صــفــحَــتــيْهِ الــنــســائمْ
فــتــرى الــمَــوجَ فــيه مــثلَ الأراقمْ
يــتــلــوّى، وتــارةً كــالــمَــعــاصِمْ
كَــلِفَ المــاءُ بــالــنــســيم الــهــائمْ
لــيــتــني كــنتُ نــســمــةً شــرقــيّهْ

✡✡✡✡✡

هــجع الــنــاس كــلُّــهمْ في المــديــنَهْ
وتــولّتْ عــلى «نــيــويــوركَ» الــسَّــكــيــنهْ
وجُــفــوني، بــغــمــضــهــا، مــســتــهــيــنَه
لا تــرى غــيــرَ طــيفِ تــلك الحَــزيــنه
لــستُ أعــني بــهــا ســوى ســوريّهْ

✡✡✡✡✡

ذاك لــيــلٌ قــطَــعْــتُه أتــأمّلْ
رسْمَــهــا الــصــامتَ الــذي لــيس يَــعــقِلْ
وبــنَــاني معْ خــاطــري تَــتَــنَــقّلْ
بــين هــذا الحِــمَى وذاك المــنــزِلِ
والــرُّبــا والخــمــائلِ الــسُّــنــدســيّهْ

✡✡✡✡✡

هَــهُــنــا رسمُ مــنــزلٍ أشــتــهــيه
هَــهُــنــا مَــربَعٌ أحِبُّ ذَويهِ

هــهــنــا رسْمُ مــعــهــدٍ كــنتُ فــيه

مــعْ رفــاقــي أجــرُّ ذيلَ الــتِّــيهِ

في الـضُّحى، في الأصيل، بـعد الـعَشيَّةْ

✡✡✡✡✡

كم تــطــلَّــعتُ في الخـطـوط الـدقـيـقةْ

ولــثَّــمتُ الـطـرائقَ الــمَــنْــسُــوقَةْ

قـنِـعتْ بـالخـيـال نـفـسي الـمَـشوقَةْ

لـيت هــذا الخـيــالَ كــان حــقـيــقهْ

فــعــذابي في لَــذَّتي الــوهــمــيَّةْ

✡✡✡✡✡

يــا رُسُــومًــا قــد هــيَّـجتْ أشــواقي

طــالَ، لــو تـعـلـمـينَ، عـهـدُ الـفـراقِ

أين تــلـك الــكـؤوسُ، أين الــسَّــاقي؟

أيـن تــــلـكَ الأيـــامِ، أيـن رفـــاقـي؟

أين أحـلامـيَ الحِـسَـــانُ الــبـهــيهْ؟

✡✡✡✡✡

يـــا رســـومَ الـــرُّبُــوعِ والأصـــحـــابِ

بــحــيــاتي عــلــيكِ بــالأحــبــابِ[1]

أخــبــريــني فــقــد عَــرَفْتِ مُــصَــابي

أتُــرى عــائــدٌ زمــانُ الــتَّــصَــابي

أم طـــوتْهُ عـــنَّـــا يـــد الأبـــديَّهْ؟

✡✡✡✡✡

ســـبــقــتْــني دنــيــا أرادتْ لَــحــاقي

فـــأنـــا الآنَ آخِــرُ في الـــسِّـــبــاقِ

---

(١) الرسوم: الآثار.

نـصفُ عـمـري يَـرثـيـه نـصـفي الـبـاقي
كـــــــــرثـــــــــاء الأوراقِ لـلأوراق
يـــبِسَ الأصـل والـــفـــروعُ نـــديّهْ

✡✡✡✡✡

مـــا تُـــراني إذا تـــغـــنّى الـــشّـــادي
ومـــضـى في الـــغِـــنـــاء والإنـــشَـــادِ
فـــأطـــارَ الأسى عن الأكـــبـــادِ
أحـــسَبُ الـــعُـــودَ في يـــديه يُـــنـــادي
أيـــهـــا الـــقـــومُ أنـــقـــذوا ســـوريّهْ!

✡✡✡✡✡

وإذا مـــا جـــلـــستُ تحت الـــظّلامِ
أرقُبُ الـــبـــدرَ من وراء الـــغَـــمَـــامِ
رنّ في مَـــسْـــمَـــعي فـــهـــزّ عـــظـــامي
شِـــبْه صـــوتٍ يـــقـــول لـــلـــنُّـــوّامِ
أيـــهـــا الـــقـــوم أنـــقـــذوا ســـوريّهْ!

✡✡✡✡✡

وإذا مـــا ذهـــبتُ في الـــبُـــســـتـــانِ
بـــين زهـــرِ الخُـــزام والأُقـــحُـــوانِ
أســـمَـعُ الـــهَـــاتِـــفـــاتِ في الأفْـــنـــانِ
قـــائلاتٍ ولـــلـــكلام مـــعَـــانِ
أيـــهـــا الـــقـــومُ أنـــقـــذوا ســـوريّهْ!

✡✡✡✡✡

وإذا مـــا وقـــفتُ عـــنـــد الـــغـــديـــرِ
حـــيث تـــمـــشي الـــطـــيورُ خـــلْفَ الـــطُّـــيورِ

خِـــلْتُ أن الأمـــواهَ ذاتَ الخَـــريـــرِ
قـــائلاتٌ مـــعي لأهل الـــشُّـــعُـــور
أيـــهـــا الـــقـــومُ أنـــقـــذوا ســـوريّهْ!

✵✵✵✵✵

مـــا لـــقـــومي وقـــد دهـــتْـــهـــا الـــدَّواهي
بـــالـــذي يُـــطـــفئ الـــنـــجـــومَ الـــزَّواهي
ويـــثـــيـــرُ (الحَـــمـــاس) فـي الأمـــواهِ
قَـــــعَـــــدوا بـــــين ذاهلٍ أو لاهِ
أين أينَ الـــحـــفـــيـــظـــةُ الـــعـــربـــيهْ؟

✵✵✵✵✵

هـيَ أمٌّ لـــكمْ وأنـــتم بَـــنُـــوهـــا
حـــفـــظتْ عـــهـــدَكمْ فلا تُـــنـــكِـــروهـــا
أنـــتمُ أهـــلُـــهـــا وأنـــتمْ ذَووهَـــا
لا تُـــعـــيـــنـــوا بـــالـــصـــمت مَن ظَـــلَـــمـــوهـــا
ذاك عـــارٌ عـــلـى الـــنـــفـــوس الأبـــيّهْ

✵✵✵✵✵

كن نـــبـــيّـــاً يَـــسْـــتَـــنـــزِلُ الإلـــهَـــامـــا
كن مَـــلـــيـــكًـــا يُـــصـــدِّرُ الأحـــكـــامـــا
كُن غـــنـــيّـــاً، كُن قـــائـــدًا، كن إمـــامـــا
كُن حـــيـــاةً، كن غِـــبـــطـــةً، كن سلامـــا
لـــستَ مـــني أو تـــعـــشقَ الحُـــريّهْ!

****

٥٧ - الفردوس الضائع[١]

[الكامل]

مــا زال يمــشي في الأمــورِ بــفــكْــرِهِ
حــتى تــمــشَّى الــنــومُ في الأجــفَــانِ

وكــمــا يــرى الــوسْــنــانُ راءَ كــأنه
في الــنَّــعشِ مَــيْتٌ هــامــدُ الجُــثــمــان

وعــلى جــوانبِ نــعــشهِ صَــفَّــانِ
من جُــنــدِ «ألــبــرْتِ» الــرفــيعِ الــشَّــان

يــبــكــونَهُ لا شَــامــتــينَ بمــوته
لــيس الــشَّــمَــاتــةُ عــادةَ الــشُّــجــعــان

ورأى حــوالَــيه جــمــاهــيــرَ الــورى
تــســتــعــرضُ المــلْــحــودَ في الأكــفــان

وكــأنمــا كَــرِهَ اخــتــلاطَ رُفــاته
في الأرض، بــالــضُّــعــفــاء والــعِــبْدان

أو أنَّ مــرأى الحــشْــدِ أقــلــقَ روحَه
في جــســمه فَــهَــفَــا إلى الــطَّــيــران

ومن الــعــجــائبِ في الــكــرى أن الــفــتى
يــغــدو به وكــأنَّه شَــخْــصَــان

✡✡✡✡✡

أمَّ الــســمــاءَ وقــدْ تــوهَّمَ أنه
لا شكَّ وَالِــجُــهَــا بلا اســتــئــذان

---

(١) أو رؤيا القيصر الألماني.

مـــا زالَ يــرقى صــاعِــدًا حــتى انــتــهى
حَــيثُ الــغــنــاءُ مَــثَــالثٌ ومــثَـــاني
فــرمى بــنـــاظــرِه فــأبــصــرَ بـــابَــهـــا
فــمــشى إلــيه مــشْــيــةَ الــعَــجْلان
وأقـــام يَـــقْــرَعُهُ فـــأقــبلَ «بُـــطْــرسٌ»
ذو الأمــر في الــفِــردَوسِ والــسُّــلــطــان
وأدارَ فــــــيه لحـــــظَةً فـــــإذا به
ضــيفٌ، ولــكن لــيس كــالــضِّــيــفَــان
مــا جاءنــا بكَ؟ صَــاحَ «بطرُسٌ» غــاضبًا
يــا شــرَّ إنـــســـانٍ عــلى الإنـــســـان
اذهبْ فــمــا لكَ في الــسَّــمــا من مــوضعٍ
يـــا أيـــهـــا الـــرجلُ الأثــيم الجــاني
ثم انـــثــنَى لـــلــبــاب يُــحْــكِمُ سَــدَّهُ
والــضَّــيفُ لم يــنــبِسْ بــبــنتِ لــســان
مــا ذي الــفــظــاظةُ؟ قــال: «ولــيَمٌ»، وانــثنى
لــلــيــأس كــالــمَــصْــفُــود في الأقْــران[1]
وبمــثْلِ لَــمحِ الــطّــرْفِ أســرعَ هــابــطًــا
نــحــوَ الجــحــيم يــقــول: ذاك مــكـــاني
هَـــيــهـــاتَ يُــحْــرَمُ من جــهــنَّمَ عـــائــدٌ
من جـــانب الـــفــــردوسِ بـــالحِـــرْمـــان
حـــتى إذا مـــا صـــار دون رِتـــاجِـــهــا
ســمعَ «الــزعــيمَ» يــصــيحُ بــالأعــوان
أ بــنـي جَـــهــنَّمَ أوصِــدُوا أبـــوابَــكُمْ
واســتــعــصِــمُوا كــالــطــيــر بــالأوكــان[2]

---

(١) جمع القَرن الذي هو الحبل، قرون.

(٢) الوَكن: عش الطائر في الجبل أو في الجدار.

كونوا على حذَرٍ ففي هذا الضُّحى
يأتي إليـنا قيصرُ الألمان
إن كنتمُ لم تعرفوه فإنّهُ
رجلٌ بلا قلبٍ ولا وِجْدان
أخشى على أخلاقِكُمْ إن زاركمْ
وهيَ الحِسانُ تصيرُ غيرَ حِسَان
إياكُمُ أن تسمَحوا بدخوله
فدخولُه خطَرٌ على السُّكان
أمري لكم أصدرتُه، فَخُذوا به
وحَذارِ ثمَّ حذارِ من عِصْياني
ماذا تراني؟ صاح «ولْيمُ» باكيًا
حتى الأبالسُ لا تُحبُّ تَراني
إبليسُ، يا شيخَ الزَّبانيةِ الأُلى
كانوا لأخدَاني مِن الأخْدان
رُحماكَ بي، فالليلُ قَاسٍ بَردُهُ
والهَولُ يملأُ ناظري وجَناني
بجهنَّمٍ، بالسَّاكني حُجُراتها
بمواقدِ النِّيران، بالنيران
وبكلّ شيطانٍ مَريدٍ ماكرٍ
وبكلّ تابعِ ماردٍ شيطان[1]
مُرْ يَنفتِحْ بابُ الجحيمِ فإنني
قد كادَ يَجمَدُ للصقيعِ لساني

---

(١) التابع في التراث من الجنّ الذي يتبع الشعراء، ويوحي إليهم.

يـا لـيتَ شِـعْـري أين أذهبُ بـعـدمـا
سُـدَّ الـسـبـيلُ وأُوصِـدَ الـبـابـان
مُـرْ لـي بـزاويـةٍ أزجُّ بمُـهـجَـتي
فـيـهـا، وإن تكُ من حـمـيمٍ آن
هلاّ قَـبِـلتَ تـضـرُّعي؟ فـأجـابَهُ
إبـليسُ، وهـو يَـروغُ كـالـسِّـرحـان:[١]
لـو كـنتُ أعـلمُ مـا سـكتُّ فلا تَـزِد
لا رأيَ لـلـحَـيْـرانِ في الحَـيْـران
عـبـثًـا تُـحـاولُ أنْ تُـصـادفَ عـنـدنـا
نُـزُلاً، فـهـذا لـيس بـالإمـكـان
لا تـذكُـرنَّ لـيَ الحـنـانَ ومـا جَـرَى
مَـجـراه، إني قـد قَـتـلتُ حـنـاني
لا يـدخـلنَّ جـهـنـمًـا ذو مـطـمَعٍ
بـالمجْـدِ أو بـالأصـفَـرِ الـرَّنّـان
إنْ كـنتَ تـشـتـاقُ الإقـامـةَ في الـلَّظى
فـالـنـارُ والـكِـبْـريتُ كلَّ مـكـان
فـاجـمـعْـهُـمـا واصـنعْ لـنفسكَ مـنـهـمـا
ولمن تحـبُّـهُـمُ جَـحـيـمًـا ثـان
وهـنـا تـقَـهـقَـهـرَ «ولـيمٌ» ثم اخـتـفى
مـا بـين لـيلٍ حَـالـكٍ ودُخَـان
فـأفـاقَ مـذعـورًا يـقـلّبُ طـرفَهُ
لـلـرعب في الأبـواب والحـيـطـان

(١) السِّرحان: الذئب.

ويــقــول: لا أنــســاكَ يــا حُـلْـمي ولـو
نَــســجَتَ عــلـيّ عــنــاكبُ الــنِّــســيــان
مــا راعـــني أني طُــردتُ من الــسَّــمــا
أنــا قــانطٌ من رحــمــةِ الــشــيــطــان
لـــكنَّ طـــردي من جـــهـــنَّمَ، إنـه
مــا دارَ في خــلَــدي ولا حِــسْــبــاني

****

٥٨ - مسرح العشاق

[مجزوء الكامل]

مِن سِحْرِ طَرفِكِ مَن مُجيري
يا ضَرَّةَ الرَّشَأِ الغَريرِ

جسمٌ كَخَصرِكِ في النُّحُو
لِ، ومِثلُ جِفنكِ في الفُتُور

أصبحتُ أضألَ من هِلا
لِ الشَّكِّ في عينِ البَصير

مَحَقَ الضَّنَى جسدي فبتُّ
تُّ من الهَلاك على شَفير

ومشى الرَّدى في مُهْجتي
اللهَ، في النفَس الأخير

جهِلَ النِّطاسيْ علَّتي
لله من جهل الخَبير[١]

كم سَامَني جَرْعَ الدوا
ءِ، وكم جَرَعْتُ من المَرير[٢]

دعْ، أيها الآسي، يدي
الحبُّ يُدرَكُ بالشُّعور[٣]

يدري الصَّبابةَ والهوى
مَن كان في البلوى نظيري!

✡✡✡✡✡

---

(١) النُّطاسي: العالم الخبير والطبيب الحاذق.

(٢) يريد: المرّ، والمرير: هو الحبل المفتول.

(٣) الآسي: من يعالج الجراحات (والجمع: أساة).

لو تَنظرينَ إليّ كالْـ
ـمَيْتِ المُسجّى في سريري

يتهامسُ العُوّادُ حَو
لي كلّما سمِعوا زفيري

وأظُنُّهُمْ قد أدركوا
لا أدركوا، ما في ضميري

فأبيتُ من قَلَقي عليـ
ـكِ كأنني فوق السَّعير

وأدرتُ طرفي في الحُضُو
رِ لعلّ شخصَكِ في الحُضُور

فارتدَّ يعثُرُ بالدمو
عِ تعثُّرَ الشَّيخِ الضَّرير

قد زارني مَن لا أحبْـ
ـبُ وأنتِ أولى أن تَزوري

صدّقتِ ما قال الحَوا
سِدُ فيَّ من هُجْرٍ وزُور[1]

وأطَعتِ بي حتى العِدا
وضَنَنْتِ حتى باليسير

أمّا خَيالُك، يا بَخيْـ
ـلَةُ، فهوَ مِثلُكِ في النُّفور

روحي فِداؤك، وهيَ لو
تدرينَ تُفدَى بالكثير

تيهي على العاني كما
تاه الغنيُّ على الفقير

---

(١) الهُجر: الباطل والهذيان.

أنــــا لا أبـــالي بـــالـــمَــصـــيـــر
وأنـتِ أدرى بـــالـــمَـــصـــيـــر

أهـــــواكِ رغـمَ مُـــعَـــنِّـــفي
ويــلَـــذّ نـــفـــسي أن تَـــجُـــوري

لـــــيس المحِـبّ بـــصـــادقٍ
حـــتى يـــكـــونَ بلا عَـــذيـــر

✲✲✲✲✲

كم لـــيـــلـــةٍ سَـــاهَـــرتُ فـــيـ
ـــهـا الـنَّـجْـمَ أحـسَـبُهُ سَـمِـيـري

والـــشُّـــهبُ أقـــعـــدَهـــا الـــوَنَى
والـــلـــيلُ يمـــشي كـــالأســـيـــر

أرعى الـــبـــدورَ ولـــيس لـي
مِن حـــاجـــةٍ عـــنـــد الـــبُـــدور

مُـــتـــذكِّـــرًا زمنَ الـــصِّـــبـــا
زمنَ الـــغَـــوايـــةِ والـــغُـــرور

أيـــامَ أخـــطِـــرُ في الـــمَـــجَـــا
مِعِ والمـــعـــاهِـــد كـــالأمـــيـــر

أيـــامَ أمـــري فـي يَـــدي
أيـــامَ نَـــجْـــمي في ظُـــهـــور

لَـــمعَ الـــقَـــتـــيـــرُ بِـــلِـــمَّـــتِي
ويلَ الـــشـــبـــابِ من الـــقَـــتِـــيـــر(١)

✲✲✲✲✲

لا «بـــالـــغُـــوَيْـــر» ولا «الـــنَّـــقَـــا»
كَـــلَـــفي ولا أهلِ «الـــغَـــوَيْـــر»(٢)

---

(١) القتَر، والقتير: الغبار، يريد: الشيب.

(٢) الغوير والنقا: مواضع بعينها. والنقا: من كثبان الرمل.

أرضَ (الجَــــزيــــرةِ) كـــيف حـــا
لُكِ بـــعـــد وقْعِ الـــزَّمْـــهَـــريـــر
نـــزل الـــشـــتـــاءُ فـــأنت مَـــلْـ
ـــعبُ كلِّ سَـــافـــيـــةٍ دَبـــور[1]
وتَـــبـــدَّلت تـــلـــك الـــعـــرا
صُ من الـــنَّـــضـــارةِ بـــالـــدُّثـــور
أمـــســـيتِ كـــالـــطـــلَّل الـــمُـــحـــيـ
ـلِ وكـــنتِ كـــالـــروض الـــنَّـــضـــيـــر
آهـــاً عـــلـــيـــكِ وآه كـــيـ
ـفَ نَـــأتْـك ربّـــاتُ الخُـــدور
المـــائـــســـاتُ عن الـــغُـــصـــو
نِ، الـــسَّـــافـــراتُ عن الـــبُـــدور
الـــذاهِـــبـــاتُ مع الـــنّـــهـــود،
الـــذاهـــبـــاتُ مع الـــصُّـــدور
الحَـــاسِـــراتُ عن الـــسَّـــوا
عِـــد والـــتّـــرائب والـــنُّـــحـــور[2]
الـــقـــاســـيـــاتُ عـــلـى الـــقـــلـــو
بِ، الجـــانـــيـــاتُ عـــلـى الخُـــصُـــور
المـــالـــكـــاتُ عـــلـى الـــلآ
لئ في الـــقـــلائـــدِ والـــثُّـــغُـــور
الـــضَّـــاحـــكـــاتُ من الـــدَّلا
لِ اللاعـــبـــاتُ من الحُـــبـــور
الآخِـــذَات قـــلـــوبَـــنـــا
في زِيِّ طـــاقـــاتِ الـــزهـــور

(١) الدَّبور تقابل القَبول من الرياح. وجعلها للسوافي.

(٢) الترائب: موضع القلادة من الصدر (مفردها تريبة).

بِـيضٌ نَـواعمُ كـالـدُّمَى
يَـرْفُـلْنَ في حُـلَلِ الحـريـر
مِـثلُ الحَـمَـائمِ في الـوَدا
عَـةِ، والـكـواكبِ في الـسُّـفـور
مِن كلِّ ضـاحـكـةٍ كـأنْ
ـنَ بـوجـهـهـا وجهَ الـبـشـيـر
أنـى أدرتَ الـطَّـرْفَ فِـيـ
ـهـا جَـال في قـمَـرٍ مُـنـيـر

✡✡✡✡✡

يـا مَـسْـرحَ الـعُـشّـاقِ، كم
لي فـيكَ من يـومٍ مَـطـيـر
تَـنـسـى الـبـريّـةُ عـنـدَهُ
يـومَ الخَـورْنَقِ والـسَّـديـر[1]
ولـكمْ هـبـطـتُكَ والحـبـيـ
ـبَـةَ فـازعَـيْن من الـهَـجـيـر
فـي زورَقٍ بـيـن الـزّوا
رقِ كـالحَـمَـامـة في الـطُّـيـور
مـتـمـهّلٍ في سَـيْـرِه
والمـاءُ يُـسْـرِعُ في الـمَـسـيـر
والـشـمسُ إبّـانَ الـضُّـحى
والجـوُّ صـافٍ كـالـغـديـر
ولـكَمْ وثَـبـنـا في الـتِّـلا
لِ وكم ركَـضْـنـا في الـوُعـور
ولـكم أصَـخْـنـا لـلـحَـفـيـ

(١) قصرا الحيرة في العراق، أيام المناذرة.

ـفِ وكم شَـجِـيـنـا بـالخَـريـر

ولـكم جَـلـسْـنـا في الـرِّيـا

ض، وكم نَـشَـقَـنـا من عَـبـيـر

ولـكَم تـبَـرّدنـا بمـاءِ نُـهـيْـ

ـرِكِ الـصـافي الـنَّـمـيـر

طَـورًا نـنـامُ عـلى الـنَّـبـا

تِ وتـارةً فـوق الحَـصـيـر

لا نـتّـقِي عـينَ الـرَّقـيـ

ـبِ ولا نُـبـالي بـالـغَـيـور

فـكـأنـهـا وكـأنـني الْـ

أَبـوانِ في مـاضي الـعـصـور

حُـسِـدَتْ عـليّ من الإنـا

ثِ كـمـا حُـسِـدْتُ من الـذكـور

ظنّ الأنـامُ بـنـا الـظـنـو

نَ ومـا اجـتـرحْـنـا من نَـكـيـر

قـد صـانَ بُـردتَـهـا الحـيـا

ءُ، وصَـانـني شرفي وخِـيـري[1]

✡✡✡✡✡

ومـطـيَّـةٍ رجْـراجَـةٍ

لا كـالمـطـيَّـةِ والـبَـعـيـر

مـا تـأتـلي في سَـيـرهـا

صَـخَّـابَـةً لا من ثُـبـور[2]

تجـري عـلى أسلاكـهـا

(١) الخِيرة: التخيّر.

(٢) الأَلْو: التقصير.

جـــــــري الأراقـمِ[٣] فـي الحُـــــــدور

طـــــوراً تُـــــرى فـــوق الجُـــســــو

رِ وتـــــــارةً تحـت الجُـــــــســـــــور

آنًـــــــا عـــــــلى قـــــممٍ وآ

نًـــا في كـــهـــوفٍ كـــالــقـــبـــور

تــــرقَى كـــمـــا تَــرقَى (الـــمَـصـــا

عِــدُ) ثم تـــهـــبط كـــالـــصـــخـــور

فـــــإذا عَــــلَتْ حَــــسِبَ الـــورى

أنَّـــــا نُـــصــعِّـــــدُ في الأثـــيـــر

وإذا هـــــــــوَتْ مـن حَـــــــالـقٍ

هَـــوَتِ الـــقــلـــوبُ من الـــصُّـــدور

والــــــرَّكبُ بــــين مُــــصـــــفِّقٍ

ومُـــــهـــــلِّلٍ جـــذِلٍ قـــــريـــــر

أو خـــــائفٍ مُــــتــــطــــيِّــــرٍ

أو صـــــارخٍ أو مُــــســــتــجــيــر

هِيَ فـي الـــتَّــقَـــلُّبِ كـــالــزَّمـــا

نِ وإنمــــا هـي لـــــلـــســـرور

✵✵✵✵✵

ومُــــــدارةٍ فـي الجـــــوِّ يَـــــحْ

ـــسَـبـــهـــا الجـــهـــولُ بلا مُــديـــر

لـــو شـــئتَ نَــيْل الـــنَّـــجم مِــنْـ

ـــهـــا مـــا صَـبَـوْتَ إلى عَـسِـيـر

مـــشــــدودةٍ لـــكــــنــــهـــا

أجْـــرى من الـــفـــرَس الـــمُـــغـــيـــر

زفّـــــافَـــــةٍ زفّ الـــــرِّئَـــــا

لِ تُـــسِـــفُّ إســـفـــافَ الـــنُّـــســـور[1]

ولـــهـــا حـــفـــيفٌ كـــالـــرِّيـــا

حِ وهَـــــدرةٌ لا كـــــالـــــهَـــــديـــــر

كـــــالأرضِ فـــي دَوَرانــــهـــــا

ولـــكـــالـــمِـــظـــلّـــةِ فـــي الـــنُّـــشـــور

الـــقـــومُ فـــيـــهـــا جـــالـــســـو

نَ عـــلـــى مـــقـــاعـــدَ من وَثـــيـــر

والـــريحُ تـــخـــفُـــق حـــولَـــهـــم

وكـــأنمـــا همْ في قـــصـــور

والجـــمعُ يـــهـــتف كـــلّـــمـــا

مـــرّتْ عـــلـــى الحـــشْـــد الـــغَـــفـــيـــر

✡✡✡✡✡

ولـــكَـــم تـــأمّـــلْـــنـــا الجُـــمـــو

عَ تَـــمـــوجُ كـــالـــبـــحـــر الـــزَّخـــور

يمـــشـــي الخـــطـــيـــرُ مع الحـــقـــيـــ

ـــرِ كـــأنمـــا هـــو معْ خـــطـــيـــر

وتـــرى الـــمَـــهـــاةَ كـــأنـــهـــا

لـــيثٌ مع الـــلـــيث الـــهَـــصُـــور

مُـــتـــوافـــقـــونَ عـــلـــى الـــتَّـــبَـــا

يُن كـــالـــقَـــبـــيل أو الـــعـــشـــيـــر[1]

لا يـــرهـــبـــونَ يـــدَ الخُـــطـــو

---

(١) الرأل: ولد النعام. والزفّ: سرعة المشي.

(٢) القبيل: الجماعة من أمم شتى.

بِ كـــأنمـــا هم خـــلْفَ سُـــور

يمــضي الـــنـــهـــارُ ونـــحن نَـــحْـ

ـــسَبِ مـا بـــرحِـنـــا في الــبُــكـور

أبْـــقـــيتَ يـــا زَمَنَ الحَـــرو

رِ بمـــهـــجـــتي مـــثلَ الحَـــرور

ولّـتْ شـــهـــورٌ كـــنـتُ أر

جـــو أن تُـــخَـــلَّـــدَ كـــالـــدهـــور

وأتـتْ شـــهـــورٌ بَـــعـــدَهـــا

ســـاعـــاتُـــهَـــا مـــثلُ الـــشّـــهـور

لـــيـــست حـــيـــاةُ المـــرءِ في الـــدَّ

دُنـــيـــا ســـوى حُـــلُمٍ قـــصـــيـــر

وأرى الـــشـــبـــابَ من الحَـــيـــا

ةِ لـــكـــالـــلُّـــبـــابِ من الـــقُـــشـور

ذهـبَ الـــربـــيـعُ ذهـــابَهُ

وأتـى الـــشـــتـــاءُ بلا نَـــذيـــر

وتـــبـــدَّدَ الـــعُـــشَـــاقُ مـــثْـ

ـلَ تـــبـــدُّدِ الـــورَقِ الـــنَّـــثِـــيـــر

رضـيَ الـــمُـــهَـــيـــمِنُ عـــنـــهـمُ

والـــلـهُ يـــعـــفـــو عن كـــثـــيـــر

****

٥٩ - حكاية حال

[الطويل]

هـجـرتُ الـقَـوافي مـا بـنـفـسي مَلالـةٌ
سـواي، إذا اشـتـدّ الـزمـانُ، مَـلـولُ

ولـكنْ عَـدتْـني أنْ أقـولَ حَـوادثٌ
إذا نـزلتْ بـالـطَّـود كـاد يَـزول

وبـغّـضَـني الأشـعـارَ أنَّ دعـاتَـهـا
كـثـيـرٌ، وأن الـصَّـادقـينَ قـلـيل

وأن الـفـتى في ذي الـربـوع عَـقـارُه
وأمـوالُه، والـبـاقـيـاتُ فُـضـول

سكتُّ سكوتَ الطيرِ في الروضِ بعدَما
ذوى الـروضُ واجـتـاحَ الـنـبـاتَ ذبـول

فـمـا هـزّني إلا حـديثٌ سـمـعـتُه
عن الـغِـيـد كـالـغِـيـد الحِسَانِ جـمـيل

فـمـا أنـا في هـذي الحـكـايـة شـاعـرٌ
ولـكن كـمـا قـال الـرواة أقـول

✡✡✡✡✡

فـتىً من سَـرَاةِ الـنـاس، كلُّ جـدوده
سـريٌّ، كـريمُ الـنـبْـعـتـينِ، نـبـيل

قـضى في ابـتـنـاء المـكـرُمَـاتِ زمـانَه
يـنـالُ ويـرجـوه الـسِّـوى فَـيُـنِـيل

فَـدَكَّ مـبـاني عـزّه الـدهـرُ بـغـتـةً
وقـلَّمَ مـنه الـظُّـفْـرَ فـهـو كَـلـيل

هـوى مـثـلـمـا يـهـوي إلى الأرض كـوكبٌ

كـــذاك الــلــيــالي بــالأنــام تَــدول

وكـــان له في الــدهــر بـطشٌ وصـــولــةٌ

فــأمــستْ عـلـيه الحــادثــاتُ تَـصــول

وكـــان له آلـــفــا خــلــيلٍ وصـــاحبٍ

فـــأعْـــوزَه، عـــنـــد الـــبلاء، خـــلـــيل

تـــفـــرّق عـــنه صَـــحْـــبُه فـــكـــأنمـــا

به مـــرضٌ، أعـــيـــا الأُســـاةَ، وَبـــيل

وأنـــكـــرَه مَن كـــان يـــحــلفُ بـــاســـمه

كـمـا يُـنـكـر الـدَّين الـقـديمَ عـمـيل

فـأصبح مـثلُ الـفُلْكِ في الـبـحر ضـائـعًـا

يمـــيل مع الأمـــواجِ حـــيـثُ تـــمـــيل

يـــكـــاد يمُـــدُّ الـــكفَّ لـــولا بـــقـــيـــةٌ

من الــصـــبْـــر في ذاك الـــرداءِ تَـــجـــول

✡✡✡✡✡

زوى نـفـسَه كي لا يَـرى الـنـاسُ ضُـرَّه

فـــيـــشـــمتَ قـــالٍ[1] أو يُـــســـرّ عـــذول

بـــدارٍ.. أنـــاخَ الـــبـؤسُ فـــيـــهـــا رِكـــابَه

وجُـــرّتْ عـــلـــيـــهـــا لـــلـــخَـــراب ذُيـــول

مُـــهـــدّمَـــةِ الجُـــدران مـــثلَ ضـــلـــوعه

بـــهـــا الـــيـــأسُ صـــمتٌ والـــسَّـقـامُ مـجـول

تـــمُـــرّ عـــلـــيـــهـــا الـــريحُ ولـــهي حـــزيـــنـــةً

ويـــرنـــو إلـــيـــهـــا الـــنـــجمُ وهـــو ضـــئـيل

إذا مـــا تجـــلّـى الـــبـــدرُ في الأفْق طـــالـــعًـــا

رعـــاهُ، إلـى أن يَـــعـــتـــريه أفُـــول

---

(١) القالي: المبغض (قلى - يقلي).

حِبالُ الأماني عند قومٍ شُعاعةٌ
ولكنه في مُقلتيه نُصول
فيا عجبًا حتى النُّجوم تُضلّه
وفي نورها للمُدْلِجينَ دليل
وهل تهتدي بالبَدْرِ عينٌ قَريحةٌ
عليها من الدمع السَّخينِ سُدول؟

✲✲✲✲✲

غفا الناس، واستولتْ عليهم سَكينةٌ
فما بالُه استولى عليه ذُهول؟
تأملَ في أحزانه وشَقائه
فهان عليه العيشُ وهو جميل
فمدَّ إلى السّكّينِ كفًّا نقيّةً
أبتْ أن يَراها تَستغيثُ بَخيل
وقرّبها من صدره ثم هزَّها
وكاد بها نحوَ الفؤاد يَميل
وإذ شبحٌ يستعجلُ الخَطْو نحوَه
وصوتٌ لطيفٌ في الظلام يقول:
رويدَك، فالضَّنْكُ الذي أنت حاملٌ
متى زال هذا اللَّيل سوف يَزول
نعمْ؛ هيَ إحدى مُحسناتِ نسائنا
ألا إنَّ أجرَ المحسناتِ جزيل
أبتْ نفسُها أن يكحَلَ النومُ جفنَها
وجفنُ المعنّى بالسُّهَادِ كَحيل
وأن تتولّى الابتساماتُ ثغرَها
وفي الحي مكلومُ الفؤادِ عَليل

فـــألـــقتْ إلـــيه صُـــرّةً وتـــراجـــعتْ

وفـي وجـهـهـا نـورُ الـسُّرور يَـجـول

فـلـم تـتـنـاقَلْ صُـنْـعَـهـا ألـسُنُ الـورى

ولا قُـرعتْ فـي الـخـافـقَـينَ طُـبـول

ولا أحسنتْ كي تُعلنَ الصُّحُفُ اسْـمـها

فـتـعـلـمَ جـاراتٌ لـهـا وقَـبِـيل

كـذا فَـلْـيُـواسِ الـبـائـسـينَ ذوو الـغِـنى

وإنـي لـهـمْ بـالـصَّـالـحـاتِ كَـفـيل

فـإن الـقـصـورَ الـشَّـاهـقـات إذا خـلت

من الـبِـرِّ والإحـسـان فـهـيَ طـلـول

وخـيـرُ دمـوعِ الـبـاكـيـاتِ هي الـتي

مـتى سـالَ دمعُ الـبـائـسـين تَـسـيل!

☆☆☆☆☆

ألا إنّ شـعـبًـا لا تَـعِـزُّ نـسـاؤه

وإن طـار فـوق الـفَـرْقَـدَين، ذلـيل

وكلُّ نـهـارٍ لا يَـكُنّ شُـمـوسَه

فـذلـك لـيـل حـالِـكٌ وطـويل

وكلُّ سـرورٍ غـيـرَهنّ كـآبـةٌ

وكلُّ نـشـاطٍ غـيـرَهُنّ خُـمـول

****

٦٠ - يا جارتي

[البسيط]

قالت لجارتها يومًا تُسائلُها
عنّي، وفي طَرْفها الوسنانِ أشجانُ:

ما بالُ هذا الفتى في الدار معتزلاً
كما توحَّدَ نُسّاكٌ ورهبانُ

يأتي المساءُ عليه وهو مكتئبٌ
ويرجع الليلُ عنه وهو حَيْران

يمُرّ بالقُربِ منّا لا يكلِّمُنا
وللحديث مجالٌ، وهو مِلْسان[1]

وإنْ نكلِّمْهُ لا يفقَهْ مقالتَنا
إلا كما يفقَهُ التسبيحَ سكرانُ

إذا تبسَّم، لا تبدو نواجذُه
وإن بكى، فله نَزْعٌ وإرنان[2]

كأنما نِيطَتِ الدنيا بعاتِقِهِ
كأنما كلُّ عضوٍ فيه بُرْكان

فلا ابتسامُ ذواتِ الغُنْجِ يُطربُهُ
ولا ابنةُ الحانِ تُصْبيهِ ولا الحَان

أما له أملٌ حلوٌ يلَذّ به
كما تلَذّ بمرأى النُّور أجفان

---

(١) ملسان: صاحب لسان ذرب.

(٢) النزْع: المجاذبة والحنين والمغالبة. والإرنان: تصعيد الرنّة، والتصويت.

أمـــا له جِـيــرةٌ في الأرض يــألــفُــهمْ؟
يــا جــارتي! كــان لي أهلٌ وجِـيــران
فَـبـتَّتِ الحــربُ مـا بـيـني وبـيـنـهمُ
كـمـا تُـقَـطِّعُ أمــراسٌ وخِـيــطـان
فـالـيــومَ كلُّ الــذي في مُـهْـجـتي ألَمٌ
وكلُّ مـــا حــولَــهمْ بــؤسٌ وأحــزان
وكـــان لي أملٌ إذا كـــان لي وطَنٌ
فـيه لــنـفـسي لِـبـانــاتٌ وخِلاّن
فـجَـرَّدتْهُ الـلَّـيــالي من مَـحــاسـنه
كـمـا يُـعـرّى من الأشـجـار بُـسـتـان
فلا الـمَـغـاني الـتي أشـتـاقُ رؤيـتَـهـا
تـلك الـمَـغـاني، ولا الـسُّـكّـان سُـكّـان
لـو المـروءةُ تَـدري أيَّ فـاجـعـةٍ
بـالـشـام، نـاح عـلـيـهـا الإنسُ والجانُ
ولـو يـبثّ بـنـو لـبـنـانَ لـوعـتَـهمْ
لاهـتـزّتِ الأرضُ لـمّـا اهـتـزّ لـبـنـان
قـالت: شـكـوتَ الـذي بـالخَـلْق كـلِّـهمُ
ومـا كـذَبـتُك إن الحــربَ طـوفـان
تـسـاوتِ الـنـاسُ في الـبـلوى، فـقـلتُ لـها
هـيـهـاتَ، مـا هـانَ قـومٌ مـثـلـمـا هـانـوا
أمَنْ يمـوتُ ولا سِـتْـرٌ يـظـلِّـلُـه
كـمَن عـلـيه أكـالـيلٌ وتـيـجـان؟
قـالت: ويـا ويحَ نـفـسي من مَـقـالـتـهـا
كَـفْـكِفْ دمـوعَك، بـعضُ الحـزن أهـوان[1]

(١) الهُون: الشدة والمضرة.

لـــو كـــان قـــومُك أهـلاً لـــلـــحـــيـــاة لمـــا
مـــاتـــوا وفـي أرضـــهـــمْ تُـــرْكٌ وألمـــان
وكلُّ من لا يـــرى في الـــذلّ مَـــنْـــقـــصـــةً
لا يـــســـتـــحقّ بـــأن يَـــبـــكـــيه إنـــســـان
كُـــفِّي ملامَكِ يـــا حـــســـنـــاءُ واتّـــئـــدِي
فـــإن مـــدْحَ ذوي الـــعُـــدوان عُـــدوان
وأنتِ من أمَّـــةٍ تـــأبى خلائـــقُـــهـــا
أن يَـقـتـلَ الـطَّـيـرَ في الأقـفـاصِ سَجّان
وإن قـــومي طـــيـــورٌ غـــيـــرُ كـــاســـرةٍ
سطتْ عـلـيـهـا شـواهـينٌ وعِـقـبـان[1]
لا تحـسَـبي أنـني أبـكي لمـصـرعـهمْ
فـكـلُّـنـا لـلـرّدى شِـيبٌ وشُـبّـان
لـكن بـكَـيْتُ من الـبـاغي يُـعـذّبُـهم
وهم شـــيـــوخٌ وأطـــفـــالٌ ونِـــســـوان
ورحتُ أشـكـو إلـيـهـا وهـي سـاهـيـةٌ
لـكـنـمـا قـلـبُـهـا الخـفّـاقُ يَـقـظـان
حتى انتـهيتُ فـصـاحتْ وهـي مُـجْـهِـشـةٌ:
يـــا لـــيت مـــا قـــلـــتَه زُورٌ وبُـــهـــتـــان
بل لـيـتَـني لـم أُسـائِلْ عـنكَ جـارتَـنـا
بل لـــيتَ قـــلـــبي إذ ســـاءلتُ صُـــوّان
يـا لـيت شِـعـري وهـذي الحـربُ قـائـمـةٌ
هل تـنـجـلي ولـنـا في الـشّـام إخـوان؟
وهل تَـــعـــودُ إلى لـــبـــنـــانَ بـــهـــجـــتُه
وهل أعـــود وفي لـــبـــنـــانَ نَـــيْـــســـان؟

---

(١) الشاهين والعُقاب: من سباع الطير.

فـأسـمـعُ الـطَّـيـرَ تـشـدو في خـمـائـلِـه

وأُبـصـرُ الـحـقلَ فـيـه الـشِّـيحُ والـبـان؟

بـــنـي بلادي! ولا أدعـــو بَـــخِـيـــلَـــكُمُ

غـيـــرُ الـــبـــخـــيلِ لـه قـــلـبٌ ووِجـــدان

بـــنـي بـلادي! ولا أدعـــو جـــبـــانَـــكُمُ

مـــا لـــلـــجَـــبـــانِ ولا لـي فـــيـه إيمـــان

بـــنـي بلادي! وكم أدعـــو.. ألـــيس لـــكُمْ

كـــســـائـــر الخَـــلْقِ أكـــبـــادٌ وآذانٌ؟

لا تـضـحـكـوا وبـأرض الـشَّـامِ نـائـحـةٌ

ولا تـــنـــامـــوا وفـي لـــبـــنـــانَ سَـــهـــران!

****

٦١ - هَمْلِت

[السريع]

يـــا نـــبـــأً سُـــرَّ بـه مَـــسْـــمَـــعي
حـــتـى تـــمـــنّى أنه الـــنـــاقلُ

أنْــعشَ في نــفــسي الــمُــنى مــثــلـمـا
يُــحــيي الجــديبَ الــواكفُ الــهَــاطل

عـــــرفتُ مـــــنـه أنّ ذاك الحِـــــمَى
بـــالـــصِّـــيـدِ من فـــتـــيـــانـــنـــا آهل

عِــصَـــابــةٌ كـــالـــعِـــقْـــد في «أكـــرنٍ»
يــعــتــزّ فــيــهــا الــفــضلُ والــفــاضل

مِن كل مِـــقـــدامٍ رجـــيـحَ الـــنُّـــهى
كـــالـــسَّـــيف إذ يـــصـــقُـــلُه الـــصَّـــاقل

الـــــبـــــدْرُ من أزراره طـــــالـعٌ
والـــغـــيثُ من راحـــتـــه هـــامِل

وكلُّ طـــلْقِ الـــوجـه مـــوفـــورِه
في بُـــردَتـــيـهِ ســـيّـــدٌ مـــاثِل

✡✡✡✡✡

شَـبـيـهـةَ الـشـرقِ، انـعـمي واسْـلـمي
كـي تـــســـلـمَ الآمـــالُ والآمل

بـــكُمْ وبـــالـــرّاقـــينَ أمـــثـــالـــكمْ
يـــفـــتـــخـــرُ الـــعـــالِم والـــعـــامل

بـــعـــثـــتُمُ «هـــمـــلتَ» من رَمْـــسـه
«فَـــهَـــمْـــلَتٌ» بـــيـــنـــكمُ مـــاثل

يمشي ويمشي الطيفُ في إثره
كلاهما ممّا به ذاهل

لا يضحك السَّامعُ من هزْله
كم عِظةٍ جاء بها الهازل

روايةٌ يظهر فيها لكمْ
كيف يُداجي الصَّادقَ الخاتلُ[1]

وتنكُثُ المرأة ميثاقَها
وكيف يُجزَى المجرمُ القاتل

وإنما الإنسانُ أخلاقُه
لا يستوي الناقصُ والكامل

والنفسُ كالمرآةِ إن أُهمِلتْ
يعلو عليها الصدأُ الآكل

والناسُ أنوارٌ، فَذا صاعدٌ
يراودُ الشُّهبَ وذا نازل

والدهر حالاتٌ، فيومٌ به
نحسٌ، ويومٌ سعدُه كامل

فَمَثِّلوا الجهلَ وأضرارَه
حتى يُعادي جهلَه الجاهل

ومثِّلوا الفضلَ وآياته
كي يستزيدَ الرجلُ الفاضل

وصوِّروا المجدَ بلألائه
عسى يُفيقُ الهاجعُ الغافل

ويرجعُ الشَّرقُ إلى أوْجه

(١) المداجاة: المداراة والمخاتلة.

كـــمـــا يـــعـــودُ الـــقـــمـــرُ الآفل

وابـــنـــوا إلى الآتِـــينَ من بـــعـــدِكمْ

يَـــبْنِ لمن يـــخـــلُـــفه الـــقـــابل

مـــا دمـــتُمُ لـــلـــحقّ أنـــصـــارَه

هـــيـــهـــاتَ أنْ يـــنـــتـــصـــرَ الـــبـــاطل

****

٦٢ - العيون السود

[الكامل]

لـيتَ الـذي خـلَقَ الـعـيـونَ الـسُّـودا
خـلَقَ الـقـلـوبَ الخـافِـقـاتِ حَـديـدا
لـولا نـواعـسُـهـا ولـولا سِـحْـرُهـا
مـا ودَّ مـالك قـلـبِه لـو صِـيـدا
عـوِّذْ فـؤادَكَ من نِـبـال لِـحَـاظِـهـا
أو مُتْ كـمـا شـاء الـغـرامُ شَـهـيـدا
إنْ أنت أبـصـرتَ الجـمـالَ ولم تَـهِمْ
كـنتَ امـرءًا خَـشِنَ الـطِّـبـاع، بـلـيـدا
وإذا طـلـبتَ مع الـصَّـبـابـةِ لـذَّةً
فـلـقـد طـلَبتَ الـضـائعَ المـوجـودا
يـا ويحَ قـلْـبي إنه في جـانـبي
وأظـنُّـه نـائي الـمَـزارِ بـعـيـدا
مُـسـتـوفِـزٌ شـوقًـا إلى أحـبـابه
المـرءُ يـكـره أن يَـعـيشَ وحـيـدا
بـرأَ الإلهُ له الـضـلـوعَ وِقـايـةً
وأرتْهُ شِـقْـوته الـضـلـوعَ قُـيـودا
فـإذا هـفَـا بـرقُ المـنى وهـفـا له
هـاجتْ دَفـائـنُـه عـلـيه رُعـودا
جـشَّـمـتُه صـبـرًا فـلـمّـا لم يُـطِقْ

(١) التصويب: انخفاض التنفس. والتصعيد: تنفس الصُعَداء، وهو تنفّس يمتد.

جشَّمتُه التَّصويبَ والتَصْعيدا[1]

لو أستطيعُ وقَيتُه بطْشَ الهَوى

ولو استطاع سَلا الهوى مَحْمودا

هي نظرةٌ عرَضتْ فصارت في الحَشا

نارًا، وصار لها الفؤادُ وَقودا

والحبُّ صوتٌ، فهو أنّةُ نائحٍ

طَورًا وآونةً يكون نَشيدا

يَهبُ البواغِمَ ألْسُنًا صدّاحةً

فإذا تجنّى أسْكتَ الغرِّيدا[1]

ما لي أكلِّفُ مُهجتي كتْم الأسى

إن طالَ عهدُ الجرحِ صار صَديدا

ويلَذّ نفسي أن تكونَ شقيّةً

ويلَذّ قلبي أن يكون عَميدا[2]

إن كنتَ تدري ما الغرامُ فداوِني

أو لا، فَخَلِّ العذْل والتَّفنيدا

✲✲✲✲✲

يا هندُ قد أفنى المَطالُ تصبُّري

وفنِيتُ حتى ما أخافُ مَزيدا

ما هذه البِيضُ التي أبصرتِها

في لِمَّتي إلا الليالي السُّودا

ما شِبْتُ من كِبَرٍ ولكنّ الذي

حمَّلْتُ نفسي حمَّلَتْهُ الفُودا[3]

هذا الذي أبلى الشَّبابَ وردَّهْ

---

(١) البُغام: عدم الإفصاح في الحديث، وبُغام الظبية: صوتها (بغَمت - تبغُم).

(٢) العميد: الشديد الحزن (مثل المعمود).

خَـلَـقًـا وجـعَّـد جـبْـهـتي تَـجـعـيـدا
عـلَّـمتِ عـيـنـي أن تـسحَّ دمـوعُـهـا
بـالـبـخل عـلَّـمتِ الـبـخـيلَ الجـودا
ومـنـعتِ قـلـبي أن يـقَـرَّ قَـرارُه
ولـقـد يـكـون عـلى الخـطـوب جَـلـيـدا
دلَّـهْـتِـني وحـمَـيْتِ جـفـني غُـمْـضَـةً
لا يـسـتـطـيع مع الـهـمـوم هُـجـودا
لا تـعـجَـبي أنّ الـكـواكبَ سُـهَّـدٌ
فـأنـا الـذي عـلَّـمـتُـهـا الـتَّـسْـهـيـدا
أسـمـعـتُـهـا وصفَ الـصَّـبـابـةِ فـانـثـنَتْ
وكـأنمـا وطئَ الحُـفـاةُ صُـرودا[1]
مـتـعـثـراتٍ بـالـظلام كـأنَّـمـا
حـالَ الـظلامُ أسـاودًا وأُسُـودا[2]
ولـو انَّـهـا عـرفتْ مـكـانَكِ في الـثَّـرى
صـارتْ زواهـرُهـا عـلـيكِ عُـقـودا
أنتِ الـتي تُـنـسي الحـوائجَ أهـلَـهـا
وأخـا الـبـيـانِ بـيـانَه الـمَـعْـهـودا
مـا شِـمْتُ حُـسـنَكِ قطُّ إلا راعَـني
فـوددتُ لـو رُزق الجَـمـالُ خُـلـودا
وإذا ذكـرتكِ هـزَّ ذكـرُكِ أضـلـعي
شـوقًـا كـمـا هـزَّ الـنـسـيمُ بُـنـودا
فـحـسـبتُ سِـقْطَ الـطلّ ذوبَ مَـحـاجـري
لـو كـان دمعُ الـعـاشـقـين نَـضـيـدا
وظـنـنتُ خـافـقـةَ الـغـصـونِ أضـالِـعًـا

---

(١) الصَّرَد: مسمار في سنان الرمح، وجمعه: صُرود.
(٢) الأساود (جمع الأسْد: جمع الجمع).

وثِـمَـارَهنَّ الـفـانـيـاتِ كُـبُـودا

وأرى خـيـالَك كلَّ طَـرْفـة نـاظـرٍ

ومن الـعـجـائب أن أراه جَـديـدا

وإذا سـمـعتُ حـكـايـةً عن عـاشقٍ

عَـرَضًـا حَسِبْتُنيَ الفتى المَقْصودا

مـسـتـيـقظٌ ويُـظَنُّ أني نـائمٌ

يـا هـنـدُ، قـد صـار الـذهـولُ جـمـودا

ولـقـد يـكـون لـي الـسُّـلـوُّ عن الـهـوى

لـكـنـمـا خُـلـقَ الـمُـحِب وَدودا

****

٦٣ - هاتها

[مجزوء المديد]

هـــاتِـــهـــا فـي الــقــدحِ نــســمـــةً في شــبحِ
هـــاتِـهـــا فــالــنـفـسُ في حـــاجـــةٍ لِـــلـــفـــرح
واسـقِـنـيـهـا كَـوْثـرًا وعَـــلَـيَّ اقـــتـــرحِ
إن تــكـنْ قــدْ حُــرِّمتْ فـعـلـى الـمـسـتـقـبِحِ
هـيَ في صُـفـرَتـهـا طـلـعـةُ المـفْـتَـضِحِ[١]
وهـي في حُـمـرَتـهـا كَـخُـدَيْـد[٢] المـسـتـحي
وهـي في شــدّتــهـا ثـــورة المجــتَــرِحِ[٣]
وهـي في رِقَّــتِــهـا خـــاطـــرٌ لم يَــلُـحِ
أتَـــراهـــا شــفــقًـا كُـــلِّـــلتْ بـــالــصُّـبُـحِ
أم هـيَ الـوجْـنـاتُ قـد ذُوِّبـتْ فـي قـــدحِ؟

****

(١) تغير اللون عند الافتضاح.
(٢) تصغير الخدّ.
(٣) المرتكب أو المكتسب.

٦٤ - إلى صديق

[الكامل]

مـــا عَـــزَّ مَن لم يَـــصـــحبِ الخَـــذِمَـــا
فـــاحْـــطِمْ دواتَك؛ واكـــســـرِ الـــقـــلـــمـــا[1]

وارحَـمْ صِـــبـــاكَ الـــغضَّ، إنـــهـــمُ
لا يـــحـــمـــلـــونَ، وتحـــملُ الألمـــا

كم ذا تُـــنـــاديـــهمْ وقـــد هـــجَـــعـــوا
أحـــســـبتَ أنك تُـــســـمِعُ الـــرِّممـــا

مـــا قـــام فـــي آذانـــهـم صَـــمَـــمٌ
وكـــأنَّ فـي آذانـــهـمْ صـــمَـــمـــا

الـــقـــومُ حـــاجـــتُـــهمْ إلى هـــمَـمٍ
أوَ أنتَ ممن يَـــخـــلُقُ الـــهِـــمَـــمـــا؟

تـــالـــلـهِ لـــو كـــنتَ «ابنَ ســـاعـــدةٍ»
أدبًـــا «وحـــاتِمَ طَـــيِّئٍ» كـــرمـــا[2]

وبـــذَذْتَ «جـــالـــيـــنـــوسَ» حـــكـــمـــتَهُ
والـــعِـــلْمَ «رَسْـــطـــالـــيسَ» والـــشَّـــمـــا[3]

وســـبـــقْتَ «كـــولـــبـــوسَ» مـــكـــتـــشـــفًـــا
وشـــأوتَ «آديـــســـونَ» مُـــعْـــتـــزِمـــا

فَـــســـلَـــبْتَ هـــذا الـــبـــحـــرَ لـــؤلـــؤَهُ
وحـــبـــوتَـــهمْ إيّـــاهُ مُـــنـــتـــظِـــمـــا

---

(١) الخَذِم: سرعة القطع. يريد: السيف.

(٢) قسّ بن ساعدة الإيادي: من حكماء العرب، وحاتم من كرمائهم.

(٣) جالينوس Galènes: الطبيب اليوناني الذي اعتمده أطباء العرب.

وكـــشـــفتَ أســـرارَ الـــوجـــودِ لـــهمْ
وجـــعـــلتَ كلَّ مُـــبـــعَّـــدٍ أَمَـــمـــا[1]

مـــا كـــنتَ فـــيـــهمْ غـــيـــرَ مـــتَّـــهَمٍ
إنـي وجـــدتُ الحُـــرَّ مُـــتَّـــهَـــمـــا

هـــانـــوا عـــلـى الـــدُّنـــيـــا فلا نـــعَـــمًـــا
عَـــرَفَـــتْـــهُمُ الـــدنـــيـــا ولا نِـــقَـــمـــا

فـــكـــأنمـــا في غـــيـــرِهـــا خُـــلِـــقُـــوا
وكـــأنمـــا قـــد آثـــروا الـــعَـــدَمـــا

أوَ مـــا تَـــراهُمْ، كـــلَّـــمـــا انـــتـــســـبـــوا
نَـــصَـــلـــوا[2] فلا عُـــرْبًـــا ولا عَـــجَـــمـــا

لـــيـــســـوا ذوي خَـــطـــرٍ وقـــد زَعـــمـــوا
والـــغـــربُ ذو خـــطَـــرٍ ومـــا زَعـــمـــا

مُـــتَـــخـــاذِلـــينَ عـــلـى جـــهـــالـــتـــهمْ
إنّ الـــقـــويَّ يَـــهـــونُ مـــنـــقـــسِـــمـــا

فـــالـــبـــحـــرُ يـــعـــظُمُ وهـــو مـــجـــتـــمِعٌ
وتـــراهُ أهـــونَ مـــا يُـــرى دِيَـــمـــا

والـــسُّـــورُ مـــا يـــنـــفكُّ ممـــتـــنِـــعًـــا
فـــإذا يُـــنـــاكِـــرُ بـــعـــضَه انـــهَـــدمـــا

والـــشـــعبُ لـــيـــس بـــنـــاهضٍ أبـــدًا
مـــا دامَ فـــيـــه الخُـــلْفُ مُـــحـــتـــكِـــمـــا

يـــا لَـلأديبِ ومـــا يُـــكـــابِـــدُهُ
في أمَّـــةٍ لا تـــشـــبـــه الأُمَـــمـــا

إن بـــاحَ لـم تَـــســـلَـمْ كـــرامـــتُه

---

(١) أمامهم، في أنظارهم.

(٢) فصَل ونزَع.

والإثمُ كلُّ الإثمِ إن كَتَما

يبكي فتضحكُ منه لاهيةً

والجهلُ إن يَبْكِ الحِجا ابْتسما

جاءت وما شعرَ الوجودُ بها

ولَسوفَ تمضي وهو ما عَلِما

سار الشُّعوبُ إلى العُلا عَنَقًا

ووَنَتْ فلم تَنقُلْ لها قَدَما(١)

ما أحدثتْ في الدهر طارفةً

تبقى، وليس تَليدُها عَلَما

ضعُفتْ فلا عجبٌ إذا اهتُضِمتْ

الليثُ، لولا بأسُه، اهتُضِما

فلقد رأيتُ الكونَ، سُنَّتُه

كالبحر يأكلُ حوتُه البَلَمَا(٢)

لا يَرحمُ المقدامُ ذا خَوَرٍ

أو يَرحمُ الضِّرغامةُ الغَنَما؟

***

يا صاحبي، وهواك يجذِبُني

حتى لأحسَبُ بيننا رَحِما

ما ضرَّنا، والوُدُّ ملتئمٌ

ألا يكونَ الشَّملُ مُلتَئما

الناسُ تقرأ ما تُسطِّرُه

حِبرًا، ويقرؤه أخوكَ دَما

فاستبقِ نفسًا، غيرُ مُرجِعِها

---

(١) العَنَق: السير الفسيح السريع. والوَنى: البطء والتراخي.

(٢) البلم: السمك الصغير.

عضُّ الأناملِ بعدهَا نَدَما

ما أنتَ مُبْدلُهمْ خلائقَهُمْ

حتى تكونَ الأرضُ وهْي سَمَا

زارتْكَ لم تَهتِكْ معانيَها

غَرّاءُ يهتِكُ نورُها الظُّلَما

سَبقَتْ يدي فيها هواجِسَهُم

ونَطقْتُ لما استصحَبوا البُكُما

فإذا تُقاسُ إلى روائعِهمْ

كانتْ روائعُهمْ لها خَدَما

كالرّاحِ لم أرَ قبلَ سامعِها

سكرانَ، جِدَّ السُّكْر، مُحْتشِما(١)

يَخِدُ القِفَارَ بها أخو لَجَبٍ

يُنسي القِفَارَ الأينُقَ الرُّسُما(٢)

أقْبَسْتُه شوقي فأضْلُعُه

كأضَالِعِي مملوءةٌ ضَرَما

إن الكواكبَ في منازلِها

لو شئتُ لاستنزلتُها كَلِما

****

(١) جِدّ السكر: غايته وقوته.

(٢) الوخْد: الإسراع وتوسيع الخطو. والأنيق الرسم: صفة للنوق.

٦٥ - باخرة الإغاثة

[الكامل]

سـيـري تُـراعـيكِ الـنـجـومُ الـسَّـاهـرهْ
لـيلاً، وعـينُ الـشـمس عـنـد الـهـاجـرَه
فَلأنتِ عـنـد الـشَّـرقِ أجـملُ بـاخـره
تجـري إلـيه بـهـا الـمـيـاهُ الـزَّاخـره
يـا لـيت أني فـيكِ أو إيّـاكِ
سِـيـري تـداعبُ فـوقَكِ الـريحُ الـعَـلَمْ
وتُلاطفُ الـبـحـرَ الخِـضَمَّ إذا احـتـدمْ
بُـوركتِ بـاخـرةً وبـورِكَ مِن عَـلَمْ
فـيكِ الخلاصُ لـسـاكـني تـلك الأَكَم
يـا لـيت أني فـيكِ أو إيّـاكِ
في الـشَّرقِ أحبابٌ على جَمرِ الغَضَا[1]
نَـقَمَ الـزمـانُ عـلـيـهمُ بـعـدَ الـرضـا
هـجروا الـكَرى وتـطلّعوا نـحـو الـفضـا
يـتـوقّـعـونَكِ كـلـمـا بـرْقٌ أضَـا
سـيري فـإن الـحـرب[2] فـي مَـسْراكِ
بـيـروتُ... يـا بـنتَ الـبُـخـارِ الجـاريهْ

---

(١) شجر خشبه صلب، تحرق غصونه، وفحمه صلب. يكثر في نجد.

فـــإذا سُـئـلـتِ مِن الـبـقـايـا الـبـاقَـيه
قـــولي لـــهم: إنّ الحـــيـــاة الـــهَـــانِـــيه
لم تُـــنـــســـِنـــا سُــكّـــان تـــلك الـــنـــاحـــيه
أمّـــا الـــدلـــيل، فـــحـــسْـــبُـــنـــا إيّـــاكِ!.

****

٦٦ - مصرع القمر

[مختلط]

لـوعَــةٌ في الـضُّـلـوعِ مِـثلُ جـهـنَّمْ

تــركتْ هــذه الـضّــلـوعَ رمَــادا

بتُّ مــرمىً لـلـدهـر بي يـتـعـلّمْ

كـيف يُـصـمي الـقـلـوبَ والأكـبـادا

كــيف يـنـجـو فـؤادُه أو يـسـلَمْ

مَن تَـمــادَى به الأسى فَـتَـمــادى

أنــا لــولا الـشُّـعـورُ لم أتــألّمْ

لـيت هـذا الـفـؤادَ كـان جـمـادا

✡✡✡✡✡

كــيف لا أبــكي وفي الــعــين دمــوعْ

كـيف لا أشـكـو وفي الـقـلب صُـدوعْ

قلَّ في الــنــاس من صَــبَــرْ

مختــــارا

✡✡✡✡✡

لحـظـةً، ثم صـار ضِـحْـكي وجِـيـبـا

ونـشـيـجًـا، والـنـومُ صـار سُـهـادا

رَبِّ لَـمّـا خـلـقتَ هـذي الخُـطُـوبـا

لِمَ لمْ تَـخـلُق الحَـشَـا فُـولاذا

كـلَّـمـا قـلتُ قـد وجـدتُ حـبـيـبـا

طـلـعَ المـوتُ بـيـنـنـا يَـتَـهـادى

صِــرتُ في هــذه الحــيــاة غــريــبــا

لــيت سُــهــدي الــطــويلَ كــان رُقــادا

✩✩✩✩✩

فــتــجــلَّــدْ أيــهــا الــقــلبُ الجَــزوعْ

أو تــــدفّقْ كــلــمــا شــاء الــوَلُــوعْ

عَــنْــدَمًــا أو دمًــا هُــدِرْ

أو نــارا[1]

✩✩✩✩✩

كــان بــين الــكــرى وبــيــنــيَ صُــلْحُ

فــأراد الــقــضــاءُ أن نــتــعــادى

لم أكــدْ أخــلــعُ الــسَّــوادَ وأصــحــو

من ذُهــولي، حــتى لَــبِــستُ الــسَّــوادا

في فــؤادي، لــو يــعــلمُ الــنــاسُ، جُــرحُ

لا يُلاشَى حــتى يُلاشِي الــفــؤادا

يــا خَــلــيــلي! هــيــهــاتَ يــنــفعُ نُــصْحُ

بــعــدمــا ضــيّعَ الحــزينُ الــرَّشــاد

✩✩✩✩✩

أنت لا تــســتــطــيعُ إحــيــاءَ الــصَّــريعْ

وأنــا، حَــمْلَ الأسى لا أســتــطــيعْ

ذا الــذي صــيّــرَ الــكَــدَرْ

أكــدارا[2]

✩✩✩✩✩

---

(١) العَنْدم: نبت يستخرج منه صِباغ أحمر.

(٢) الإكدار: جمع الكدر.

يـا ضَـريـحًـا عـلـى ضِـفـافِ الـوادي

جـادَ من أجـلـكَ الـغَـمَـامُ الـبلادا

فـيك أودعتُ، مـنـذُ ستٍّ، فـؤادي

وبـرَغـمي أطـلْتُ عـنكَ الـبُـعـادا

غـيـرَ أني، وإن عَـدَتْـني الـعـوادي

مـا عَـدَتـني بـالـروح أن أرتـادا

أنـبـتَتْ حـولكَ الـزهـورَ الـغـوادي

والـلـيـالي أنـبـتنَ حَـوْلِي الـقَـتَـادا

✡✡✡✡

وذبـولُ الـغـصنِ في فـصلِ الـربـيعْ

لـو رآه شـجـرُ الـروضِ الـمَـريعْ

جـمَـدَ المـاءُ في الـشـجـرْ

مُحتـارا

✡✡✡✡

كـيف لا يـتّـقِي الـكَـرى أجـفـاني

وجُـفـوني قـد اسـتَـحَـلْنَ صـعَـادا

ودمـوعي بـلـونـهـا الأُرجـواني

مَـنـهَلٌ لـيس يُـعـجِب الـورّادا

والـذي في الـضـلـوع من نـيـرانِ

صـار ثـوبًـا ومَـقْـعـدًا ووِسـادا

كـيف يـقـوى عـلى الـشّـدائـد عـانٍ

أكل الـسُّـقْمُ جِـسـمَه أو كـادا

✡✡✡✡

فـإذا مـا غَـشِي الـطـرْفَ الـنـجـيعْ

فـتـذكّـرْ أنه الـقـلبُ الـصَّـديعْ

كَـــظَّهُ الحُـــزنُ فـــانـــفـــجـــرْ

انفِجـــــــارا

✡✡✡✡✡

طـــائـــرٌ كـــان في الـــرُّبـــا يـــتـــغـــنّى

أصـــبحَ الـــيـــومَ يـــحـــملُ الأصْـــفَـــادا

غـــصُنٌ كـــان والـــصِّـــبـــا يـــتـــثـــنّى

هَـــصَـــرتْهُ يـــدُ الـــرَّدى فَـــانْـــآدا

نـــال مـــني الـــزمـــانُ مـــا يـــتـــمـــنّى

وأبـــى أن أنـــالَ مـــنـــه مُـــرادا

وتجـــنّى مـــا شـــاء أن يـــتَـــجـــنّى

واســـتَـــبـــدّتْ صُـــروفُهُ اسْـــتِـــبـــدادا

✡✡✡✡✡

حـــطّمَ الـــسَّـــيفَ ومـــا أبـــقى الـــدروعْ

وتَـــداعـــى دونَـــهُ الـــسُّـــورُ الـمـــنـــيـــعْ

وأرانـــي مـــن الـــعِـــبَـــرْ

أطـــــوارا

✡✡✡✡✡

مـــا لـــهـــذي الـــنـــجـــومِ تـــأبى الـــشُّـــروقـــا

أتـــخـــافُ الـــكـــواكبُ الأرصـــادا

فَـــرَطَ الـــبـــينُ عِـــقـــدَهـــا الـــمَـــنْـــســـوقـــا

أمْ لِـــمَـــا بـــيْ أرى الـــبـــيـــاضَ سَـــوادا

أَمْ فَـــقِـــدْن كـــمـــا فـــقَـــدتُ شـــقـــيـــقـــا

فَـــلَـــبـــسْنَ الـــدُّجـــى عـــلـــيـــه حِـــدادا[1]

---

(١) فقدَ أبو ماضي ثلاثة من إخوته، والأول أصغر منه، ولعله هو الذي يذكره هنا. وكان رثاه في قصيدته (البدر

مــا لــعــيــنـي لا تُــبـصــرُ الــعَــيُّــوقــا
ولـــقـــد كـــان ســـاطــعًـــا وقَّـــادا[١]

✡✡✡✡✡

ســافــرًا يــخــتــالُ في هــذا الــرقــيـعْ
هل أتــاهُ نــبـأُ الخــطـبِ الــفــظـيـعْ[٢]
أم رأى مَــصــرعَ الــقــمــرْ
فتَوارى

✡✡✡✡✡

ســـدّدَ الـــدهـــرُ قـــوسَـه ورمـــانـي
لم تَــحِــدْ مُــهــجـتـي ولا الــسَّــهمُ حــادا
هــكــذا أســكــتـتْ صُــروفُ الــزمــانِ
بُــلــبُــلاً كـــان نَـــوْحُــهُ إنـــشـــادا
فـــهُـــوَ الـــيـــومَ في يــدِ الــسَّــجّــانِ
يــشــتــهي كلَّ ســاعــةٍ أن يُــصــَّادا
فــاحــسَــبـوني أُدرجتُ في الأكــفــانِ
إن أَنِـفْـتُمْ أن تحــسَــبـوا الــقــولَ بــادا

✡✡✡✡✡

لــيس فـي هـــذي ولا تـــلـك الـــربـــوعْ
مــا يــســلّي الــنـفْسَ عن ذاك الــضَّــجـيـعْ
قـــبــــرَهُ، جـــادك المـــطـــرْ
مِـــــدْرارا

****

---

(١) العيّوق: نجم أحمر مضيء، في طرف المجرّة الأيمن.
(٢) الرقيع: الرقعة، ويقصد رقعة السماء.

٦٧ - في فراش المرض

[الطويل]

مـرضتُ فـأرواحُ الـصِّـحـاب كـئـيـبـةٌ
بـهـا مـا بـنفسي، لـيت نـفـسي لـهـا فِـدا

تـرفّ حِـيـالي كـلـمـا أغـمضَ الـكـرى
جـفـوني جـمـاعـاتٍ ومـثْـنَى ومَـوْحـدا

تـراءى فـآنًـا كـالـبـدور سـوافـرًا
وآونـةً مـثلَ الجُـمـان مُـنَـضَّـدا

وطـورًا أراهـا حـائـرات كـأنـهـا
فـراقـدُ قـد ضـيّـعن في الأرض فـرقَـدا

وطـورًا أراهـا جـازعـاتٍ كـأنمـا
تـخـاف مع الـظَّـلـمـاء أن تـتَـبـدّدا

أحِنّ إلـيـهـا رائـحـاتٍ وعـوّدًا
سلامٌ عـلـيـهـا رائـحـاتٍ وعـوّدا

تـهَشُّ إلـيـهـا مـقـبلاتٍ جـوارحي
كما طَرِب السَّاري رأى النور فاهتدى

وأُلـقي إلـيـهـا الـسَّمعَ مـا طـال هـمْـسُـهـا
كـذلك يـسـتـرعي الأذانُ الـمُـوحِّـدا

ويـغـلـبُ نـفـسي الحـزنُ عـنـد رحـيـلـهـا
كـمـا تَـحـزنُ الأزهـارُ زايـلَـهـا الـنـدى

كـرهتُ زوالَ الـلـيل خـوفَ زوالـهـا
وعـوّدتُ طـرفي الـنـومَ حـتى تـعـوّدا

ولو أنها في الصحْوِ تطرُق مَضْجَعي
حمَيْتُ الكرى جفني وعِشتُ مُسَهّدا
ولو لم تكن تعتاد منيَ مثلَها
خيالاتُها همّتْ بأن تتقيّدا
فيا ليتني طيفٌ أروح وأغتدي
ويا ليتَها تسطيعُ أن تتقيّدا
نحَلْتُ إلى أن كِدتُ أُنكرُ صورَتي
وأخشى لفَرطِ السُّقم أن أتنهّدا
مَبيتي على مثلِ الوثيرِ ليانةً
وأحسبني فوق الأسنّة والمُدى
كأن خيوطَ المَهد صارت عقاربًا
كأن وِسادي قد تحوّل جَلْمدا
لقد توشك الحمّى، إذ جَدّ جِدُّها
تُقوّم من أضلاعيَ المتأوّدا[1]
تُصوِّرُ لي طيفَ الخيال حقيقةً
وأحسَب شخصًا واحدًا متعدّدا
لقد ضعضعتْني، وهي سرٌّ، ولم يكن
يُضعضعُني صَرْفُ الزمان إذا عَدا
إذا ما أنا أسندتُ رأسي إلى يدي
رمتْنيَ منها بالذي يوهنُ اليدا
تغلغلَ في جسمي النحيلِ أُوارُها
فلو لم أقُدّ[2] الثوبَ عنه توقّدا
رأيتُ الذي لم يُبصرِ الناسُ نائمًا
وطُفتُ الدُّنا شرقًا وغربًا مُوسَّدا

---

(١) المتأود: المتمايل.

يقول النِّطاسي لو تبلّدتَ ساعةً
تبلّدتُ لو أني أُطيق التَّبلُّدا[1]

تهامسَ حولي العائدونَ ورجَّموا
وعنّفَ بعضُ الجاهلينَ وفنَّدا

فما ساءني إلا شماتةُ معشرٍ
رجوتُ بهم عند الشدائد مُسعِدا[2]

أسأتُ إليهمْ، بل أساؤوا فإنني
ظننتهمُ شرواي خُلْقًا ومَحْتِدا

أحبَّ الضّنى قومٌ لأنيَ ذُقتُه
وأحببته، كيما يُحبَّ ويُحسدا

وودّ أناسٌ لو يعاجلُني الرّدى
كأنيَ أرجو فيهمُ أن أُخلَّدا

وما ضَمِنوا ألا يموتوا، وإنما
يودّ زوالَ الشمس مَن كان أرمَدا[3]

إذا الليلُ أعياه مساجلةُ الضُّحى
تمنّى لو اَن الصُّبحَ أصبحَ أسودا

على أنني والداء يأكل مُهجتي
أرى العارَ، كلَّ العارِ، أن أحسُد العِدا

فإن الذي بالجسم لا بدّ زائلٌ
ولكنّ ما بالطبع ينفكُّ سَرْمدا

لئن أَجْلَبَ الغوغاءُ حَولِي وأفْحَشوا

(١) النِّطاسي: العالم الخبير والطبيب الحاذق.
(٢) الإسعاد: البكاء مع الآخر في مصيبته.
(٣) الرمد: ما يصيب العين (أرمد - رمداء).
(٤) أجلبوا: تجمعوا.

فكم شتموا موسى وعيسى وأحمدا[٤]

ولا عجبٌ أن يُبغضَ الحُرَّ جاهلٌ
متى عشِقَ البومُ الهَزارَ المغرّدا؟[١]

وإني في كَبْتِ العُداةِ وكيدهم
كَمَن يسلك الدرْب القصيرَ المعبّدا

ولكنني أعفو وللغيظ سَوْرة
أعلِّمُ أعدائِي المروءةَ والنَّدى

ألا رُبّ غِرٍّ خامرَ الشكُّ نفسَهَ
فلمّا رآني أبصرَ البحرَ مُزْبدا

فأصبح يخشَاني وقد بِتُّ ساكتًا
كما كان يَخشاني وقد كنتُ مُنشدا

ويرهبُ اسْمي أن يُطيفَ بسمعه
كما تتّقي الدّرداءُ حرفًا مشدّدا[٢]

ومن نال منه السّيفُ وهو مُجرّدٌ
تهيّب أن يرنو إلى السّيف مُغْمَدا

أُحِبُّ الأبيَّ الحُرَّ لا وُدَّ عنده
وأقلي الذليلَ النفسِ مهما تَودّدا

وبين ضُلوعي قُلَّبٌ ما تمرّدتْ
عليه بناتُ الدهر إلا تمرّدا

ولو أن مَن أهوى أطال دَلاله
منعتُ هواه أن يَجوزَ بيَ المَدى

لترْمِ العَوادي بِي العَوادي، فإنني
تركتُ لمن يَهواهما اللَّهو والدَّدا[٣]

(١) الهزار: هو العندليب.
(٢) الدَرَد: خلوّ الفم من الأسنان (أدرد – درداء).
(٣) الدّد: اللهو واللعب.

****

٦٨ - رثـــــاء

المثلث الرحمة المطران رفائيل هواويني

[الكامل]

أودَى فــنــورُ الــفــرقَــدينِ ضــئــيلُ
وعــلــى المــنــازل رهــبَــةٌ وذهــولُ

خَــلَقَ الأسى في قــلبِ من جَــهِلَ الأسى
قــولُ الــمُــخــبِّــرِ: مــاتَ رافــائــيل

فــمِنَ الجَــوى بــين الــضُّــلــوع صــواعقٌ
وعــلــى الخُــدود من الــدُّمــوع سُــيــول

قــال الــذي وَجَــد الأسى فــوقَ الــبُــكــا
وبــكى الــذي لا يَــســتــطــيعُ يَــقــول

يــا مُــؤنسَ الأمــواتِ في أرْمــاســهــا
في الأرض بَــعْــدكَ وَحــشــةٌ وخُــمــول

لا الــشــمسُ ســافــرةٌ ولا وجه الــثَّــرى
حــالٍ، ولا ظلُّ الحــيــاة ظَــلــيــل

مــا زال هــذا الــكــونُ بــعــدَك مــثــلَه
لــكنَّ نــورَ الــبَــاصِــرات كَــلــيــل

نِــبْــراسُــنــا في لــيلِ كلِّ مــلــمَّــة
الــلــيلُ بــعــدَكَ حــالكٌ وطــويل

هَــبــني بَــيــانَك، إنَّ عــقــلــي ذاهِلٌ

ساه وغَرْبُ يَراعتي مَفْلول

قد فتّ في عَضُد القَريضِ وهَدَّه

هولُ المصابِ، فعِقْدُه مَحلول

ما لي أرى الدنيا كأني لا أرى

أحدًا، كأن العالَمين فُضول

أبكي إذا مرّ الغناءُ بمَسْمعي

فكأن شدْوَ الشّاديات عَويل

نفسي التي علّلتِني بلقائه

اليومَ لا أمَلٌ ولا تَعليل

ذوبي فإنّ العِلْم مادَ عِمادُه

والدِّينُ أُغمِدَ سيفُه المَسْلول

هذا مقامٌ لا التفجعُ سُبّةٌ

فيه، ولا الصبْرُ الجميلُ جميل

ما كنتُ أدري قبل طارَ نعيُّه

أن النفوسَ من العيون تَسيل

ما أحمقَ الإنسانَ يَسْكن للمنى

والموتُ يخطر حولَه ويَجول

يَهوى الحياةَ كأنما هو خالدٌ

أبدًا ويعلَمُ أنه سَيَزول

ومِن العجائبِ أن يَحِنّ إلى غدٍ

وغدٌ، وما يأتي به، مَجْهول

لا تركَننَّ إلى الحياة فإنها

دنيا هَلوكٌ للرجال قَتول

سكَتَ الذي راضَ الكلامَ وقادَه

حتى كأن لسانَه مَكْبول

يا قائلَ الخُطَبِ الحِسَانِ كأنها

لجـمــالــهــا، الإلــهــامُ والــتَــنْــزيل

إن كــان ذاك الــوجهُ حــجَّــبَـه الــثَّــرى

لــلــنـجم في كَــبِـد الــســمــاء أُفــول

لــيس الحِــمَــامُ بــنــاقــدٍ لــكــنـمــا

قــدْرُ الــعـظـيم عـلـى الــعـظـيم دَلـيل[1]

نَمْ تَــــحــــرُسُ الأمـلاكُ قــــبــــرَكَ، إنـه

فــيـه الــوقــارُ وحــولَـه الــتــبـجــيـل

فـلــكم قــطـعتَ الــلــيلَ خــاف نجـمُه

مــتـهــجِّـداً، والــســاهــرون قــلــيل

مُــســتــنــزلاً عــفْــو الإلـه عن الــورى

حــتـى كــأنَّك وحــدك الــمَــســئــولُ

تــبـغي الــلـذاذاتِ الــنـفـوسُ وتَـشـتـهي

والــــلـهَ مـــا تَــبــغـــيـه والإنجــيـل

لـــولا مـــدارس شِــدْتَــهـــا وكــنـــائسُ

مـــا كـــان إلا الجــهـلُ والــتَّــعْــطــيل

أنــفـقـتَ عــمــرَكَ في الإله مُــجــاهــداً

أجْــــرُ المجــــاهـــدِ في الإله جـــزيل

****

(١) إشارة إلى قول الشاعر الأيوبي (كمال الدين ابن النبيه ت ٦١٩ هـ):

«والموت نقّاد على كفه جواهرٌ يختار منها الجيادْ»

(١) يريد بالهلال: الأتراك، لأنه مرسوم على علَمهم، ويرمز إليهم. ولكن هل يمكن فصله عن التراث الإسلامي ؟ ودالَ: غُلب ودارت الدائرة عليه، والإدالة: النكبة.

(٢) القَرْم: السيد. والأصْيد من الصيَد، وهو: رفعُ الرأس رفعة وكبراً.

(٣) يريد الجزيرة العربية.

٦٩ - فتح أورشليم

[الكامل]

لــلــه مــا أحــلــى الــبــشــيــرَ وقــولَه:
ســقط الــهلالُ إلـى الحَـضـيـضِ ودَالا[١]

بُـشـرَى نَـسـِيـنـا كلَّ شيءٍ قَـبلَـهـا
الــنــاسَ والــدَّولاتِ والأجــيــالا

ردّت عــلـى الــشــيـخ المـسنِّ شـبـابَه
وعــلـى الحَــزين الـيـائسِ الآمــالا

وعـلـى الـصـديق صـديـقَه، وعـلـيـهـمـا
أبـويْـهـمـا ؛ وعـلـى الأب الأطـفـالا

لــو ســاومَ الخـلـقَ الـذي وافى بـهـا
بــذلــوا لـه الأرواحَ والأمــوالا

✡✡✡✡✡

مَن مُـبْـلـغُ الأبـطـالِ عـنِّي أنــني
أهـوى الـقُـرومَ الـصِّـيـدَ والأبـطـالا[٢]

بـالأمسِ قـطَّـعتِ الجـزيـرةُ قـيـدَهـا
ورمتْ بــوجه الــغــاشم الأغلالا[٣]

والــيــومَ ودَّعتِ المـظـالـمَ أخـتُـهـا

---

(١) أزاحوا: طربوا.

(٢) السَّمَيْدع: السيد الكريم السخيّ. والعجاج: الغبار (ومفرده: عجاجة).

(٣) الغطريف: السيد السخيّ الكثير الخير.

(٤) يصل الأتراك بالمغول لقرب الموطن.

(٥) الباشَق: من الطيور الحادّة. والرئبال: الأسد أو الذئب.

ومـــشَـتْ تَــجــرُّ ذيــولَـــهـــا إدلالا

أَبــنـــاتِ أورشــلـــيمَ ضــمــخْنَ الــثَّــرى

بـــالــطِّــيب وامـلأنَ الــدّروبَ جــمـــالا

حـــتى يمُـــرَّ الـــفــاتحــون، فـــإنـــهم

كَـــشُّـــوا[1] الأذى عـــنـــكنّ والإذلالا

فـــاخــلــعْنَ أثـــوابَ الــكــآبــةِ والأسى

والـــبَـسْن من نُـــور الـــضــحى سِــرْبـالا

وانــفَــحن بــالــبــســمــاتِ كلّ سُــمَــيْـذَعٍ

خـــاض الـــعَــجــاجَ ووجــهُـه يَـــتَلالا[2]

هـــذا مـــجـــالٌ لــلــفـــتى أن يَـــزدهي

فـــيه، ولـــلـــحـــســـنـــاءِ أن تــخْـــتَـــالا

يـــا قـــائـــدَ الــصِّـــيـد الــغَـطـارفَـةِ الألى

تُـــحـــنـى الــرؤوسُ، لـــذكـــرهـم، إجلالا[3]

ظنَّ الـــمَــغــولُ جــنــودَهمْ تحــمــيــهمُ

والـــقـــردُ يـــحـــسَـــبُـه أبـــوه غَـــزالا[4]

فـــتـــألّـــبـــوا وتـــهـــدّدوا وتـــوعَّـــدوا

حـــتى طــلـــعتَ فـــأجــفــلــوا إجــفـــالا

ذُعْــرُ الـــطُّـــيـــورِ سَــطـــا عــلــيــهمْ بــاشقٌ

وبـــنـــاتُ آوى أبـــصـــرتْ رئـــبـــالا[5]

كم جــحــفلٍ بــعـــثــوا إلــيكَ مع الــدُّجى

لاقـــاه جـــيـــشُك، والـــصـــبـــاحُ، فـــزالا

طـــاردْتَـــهمْ فـــوق الجـــبـــال وتحـــتَـــهـــا

كـــالـــلـــيث يـــطـــرُد دونَـه الأَوْعـــالا

فَـــمـلأْتَ هـــاتـــيكَ الأبـــاطحَ والـــرُّبـــا

(١) الوجى: الحفا وشدّته (أن يحفى الحافر من كثرة المشي).

(٢) الكَفَل: العجُز.

بـجـسـومـهـم، وملأتَـهـم أهـوالا

وحـمَـيْتَ إلا الـسُّـهـدَ عن أجـفـانـهـم

ومـنـعـتَ إلا عـنـهـمُ الأوجـالا

سـاقـوا إلـيكَ مـئـيـنَـهـم وألـوفَـهـم

فِـرَقًـا وسُـقتَ إلـيـهـمُ الآجـالا

وصـنـعـتَ من أسـيـافـهـم ودروعِـهـم

لـرقـابـهـم وزنـودِهـم أغلالا

لـو لم تـسـاقِـطْـهـم إلـيك جـبـالُـهـم

عـنـد الـضـحـى زلـزلـتَـهـا زِلـزالا

إن يـامَـنـوا وجـدوا المـنـايـا يَـمـنـةً

أو يـاسَـروا وجـدوا الجـيـوش شِـمـالا

وشـكتْ خـيـولُك فـي المـيـادين الـوَجى

فـجـعـلـتَ أروَسَـهـم لـهنّ نـعـالا[١]

ورأوكَ قـد عـرّضتَ صـدرك لـلـظُّـبـا

عـنـد الحـصـونِ فـعـرّضـوا الأكْـفـالا[٢]

هُـنّـئتَ بـالـنـصـر الـمُـبـين، فـإنه

نـصـرٌ يَـعُـزّ عـلى سِـواكَ مَـنـالا

هـذي الـقـلـوبُ نـسـجْـتُـهـا لك أحـرفًـا

لـو أسـتـطـيع صـنـعـتُـهـا تـمـثـالا

أرْضَـيْتَ مـوسى والمـسـيحَ وأحـمـدًا

والـنـاسَ أجـمـعَ والإلـهَ تـعـالـى

****

(١) (اللنبي) القائد الإنجليزي الذي دخل القدس في الحرب العالمية الأولى بعد هزيمة الجيش العثماني.

٧٠ - إلى الفاتح[١]

«ألانْبي»، لو طبعنا الشمسَ يومًا
وقلّدناكها سيفًا صفيحا
ورصّعناه بالشُّهب الدَّراري
لما زدناكَ فخرًا أو مديحا
لأنك أشجعُ الأبطال طُرّاً
وأعظمُ قادة الدنيا فتوحا
إذا ما مرّ ذكرُك بين قومٍ
رأيتَ أشدَّهم عِيّاً فَصيحا
فكم داويت سوريّاً مريضًا
وكم أسقمتَ تركيّاً صحيحا
وكم قد صُنْت في بيروتَ عِرْضًا
وكم أمّنتَ في الشهباءِ روحا
غضبتَ على «الهلال» فخرّ ذعرًا
ولُحتَ له فحاذَرَ أن يلوحا
عصفتَ بهم فأمسى كلُّ حِصْنٍ
لخيلِ النَّصرِ ميدانًا فسيحا
مشتْ بك همّةٌ فوق الثُّريّا

(١) أحسبه يشير إلى ضريح السيد المسيح الذي نهض منه، في العقيدة المسيحية.
(٢) المدينة المعروفة في فلسطين. دخلها يشوع بن نون فاتحاً، بعد الخروج من مصر، وجرت فيها مقتلة عظيمة من سكانها الكنعانيين.

فـــزلـــزلتِ المـــعـــاقلَ والـــصـُّـــروحـــا

من الـــوادي إلى صـــحـــراء ســـيـــنـــا

إلى أن زُرتَ ذيّـــاك الـــضـَّـــريـــحـــا[1]

إلى بـــحـــر الجَـــلـــيلِ إلى دمـــشقٍ

تُـطـــارد دونَك الـــتـــركي الـــقـــبـــيـــحـــا

فـــكـــان الجـــنـــدُ كـــلُّـــهمُ يَـــشـــوعًـــا

وكـــانت كلُّ ســـوريّـــا «أريـــحـــا»[2]

فـــإنْ يـــكنِ المـــسـيحُ فِـدى الـــبَـــرايـــا

فـــإنّك أنت أنـــقـــذتَ الـــمَـــســـيـــحـــا!

****

(١) ألقاها في الحفلة الشائقة التي أقامتها الطائفة الأرثوذكسية في مونتريال كندا لسيادة الأرشمندريت أفثيموس عفيش، عندما انتخب لأسقفية بروكلن، وكان مع الوفد النيويوركي.

٧١ - في القطار(١)

[الوافر]

سَرَى يطوي بنا الأميالَ طيّاً
كما تَطوي السِّجلَّ أو الإزارا

فلم ندر وجنحُ الليل داجٍ
أ بَرْقًا ما ركبنا أم قطارا

بنا وبه حنينٌ واشتياقٌ
ولولا ذانِ ما سِرنا وسارا

ولكنّا وسعْنا الشّوق ذَرْعًا
وضاق به فَصعَّدَهُ بُخارا

وسمّينا الذي يُخفيه وجْدًا
وسمّينا الذي يُخفيه نارا

غفا صحبي وبعضهمُ تَغافى
ولم أَذُقِ الكرى إلا غِرارا

جلستُ أراقبُ الجوزاءَ وحْدي
كما قد يرقُب السّاري المَنارا

يسير بنا القطارُ ونحن نرجو
لو اختصر الطريقَ بنا اختصارا

وأُقسمُ لو أحدِّثه بما بي
لحلّق في الفضاء بنا وطارا

إلى البلد الأمينِ، إلى كرامٍ

---

(١) السبسب: الأرض القفر البعيدة. والوخْد: سعة الخطو في المشي، والإسراع فيه.

(٢) العُقار: الخمرة.

يُراعون المودّة والجِوارا

إلى المُزدادِ وُدُّهُمُ لدينا

إذا زِدنا صفاتِهمُ اختبارا

إذا سترتْ محبتَها قلوبٌ

فُحبّي لا أُطيقُ له استتارا

فيا إخوانَنا في كلّ أمْرٍ

أصيخوا كي أخاطبَكم جِهارا

طويناها سَباسبَ شاسعاتٍ

تسير الواخداتُ بها حَيارى[1]

ولولا أن تسيَرَ بنا إليكم

ركائبُنا مَشيناها اختيارا

لننقُلَ من «نُيورْك» لكمْ تحايا

تحاكي في لطافتها العُقارا[2]

وننقلَ عنكمُ أخبار صدقٍ

تحاكي النَّدَّ في الروض انتشارا

سمعنا بالهَزارِ ونحن قومٌ

كما نهوى الغِنا نهوى الهَزارا

لديكُم كوكبٌ وبنا ظلامٌ

وأنتم تكرهون لنا العِثارا

جعلنا رسمَه في كلّ نادٍ

وصيّرنا القلوبَ له إطارا

أجل، هذا الذي نبغيه منكم

ونرجو لا اللُّجينَ ولا النُّضارا

---

(١) النَّجر والنجار: الأصل والحسب.

أتـــيـــنـــاكمْ عـــلى ظَـــمـــأٍ لأنّـــا
عــرفــنــا فــيــكمُ الــسُّــحُب الــغِــزارا

وأنـــتم مــعــشــرٌ طــابــوا نــفــوسًــا
وأخلاقًــا كــمــا كَــرُمــوا نِــجــارا[1]

بـــقـــيـــتم في سلامٍ واغـــتـــبـــاطٍ
تــضــيء وجــوهُــكم هــذي الــدّيــارا

****

(١) ألقاها في حفلة أقيمت لتكريمه، بعد سيامته، في نزل سان جورج في بروكلن (نيويورك).
(٢) الكِباء: عود البخور، أو ضرب من البخور (الجمع: كُبأ).
(٣) الأرَج: توهج ريح الطيب (أرِج - يأرَج).

٧٢ - السيد المجتبى[١]

[المتقارب]

سلامٌ على السيِّد المُجْتَبى
كقَطْر الغَمام ونشرِ الكِبَا[٢]

ويا مَرْحبًا بأميرِ السلامِ
وقَلّ له قولُنا: مرحَبا

قُدومُكَ بدّد عنا الأسى
كما يكشِفُ القمرُ الغيْهَبا

وأحيا المُنى في فؤاد الفتى
وردّ إلى الشيخ عهدَ الصِّبا

كأني «بأيارَ» خيرِ الشهورِ
أتاهُ البشيرُ بذاك النَّبا

فوشّى الرياضَ، وحلّى الحُقولَ،
وزان الوِهادَ، وزانَ الرُّبا

وقال لأغصانه: صَفِّقي
وللطيرِ في الأرضِ أن تخطُبا

وللنَّسَماتِ تَجوبُ البلادَ
وتملؤها أرَجًا طيّبا[٣]

ورنّتْ بأذني أغاريدُها
فقلتُ لكفّي: أن تكتُبا

فهذا القريضُ حفيفُ الغصونِ

(١) حبا واحتبى: جلس على إليتيه وضمّ فخذيه وساقيه إلى بطنه، بذراعيه، ليستند. الاسم الحبوة، والجمع: حَبىً.
(٢) الصيّب: السحاب ذو المطر.
(٣) السبسب: المفازة الواسعة لا شيء فيها.

وشدْوُ الطيورِ، ونفحُ الصَّبا

طلعتَ فطال خُفوق الفؤادِ
كأنَّ به هِزَّةَ الكَهْربا

وليسَ به هِزّة الكَهْرباءِ
ولكنْ رأى التائهُ الكَوْكَبا

وألقَتْ إليكَ مقاليدَها
نفوسٌ تَخيّرتِ الأَنْسَبا

فيا صاحبَ الشِّيَمِ الباهراتِ
ويا من تُحَلّ لديه الحُبا(١)

تقوَّلَ عنكَ صغارُ النفوس
لأمرٍ فما أدركوا مأْرَبا

ومن يَسلُب الشمس أنوارَها
ومن ذا الذي يُمسكُ الصَّيِّبا؟(٢)

فأحسنْ إليهم وإن أخطؤوا
وكنْ كالحَيا يُمطر السَبْسَبا(٣)

إذا لم تُسامحْ وأنت الكريمُ
فمن ذا الذي يَرحم المُذْنِبا؟

✡✡✡✡

لقد طرِب التاجُ والصَّولجانُ
وحُقَّ لهذين أن يَطربا

فإنْ هنؤوكَ بما نلْتَه
فإنّي أهنّي بك المَنْصِبا

****

---

(١) الفتاة إذا كعَب ثديها.

(٢) حمَس الوغى: اشتدّ القتال.

٧٣ - مرآة الغرب
في سنتها التاسعةَ عشْرةَ

[الطويل]

سلامٌ عليها طفلةً وفتيّةً
كزهر الرُّبا البسَّامِ باكَرهُ القَطْرُ
كَعابٌ تَلاقى الحُسنُ والفضلُ عندها
كما يلتقي في الصفحة السَّطرُ والسَّطر[1]
لها صولةُ الأبطال إن حَمِسَ الوغى
وفيها حياءُ البِكْرِ عمّا به وِزر[2]
وفيها من الشيخ الحكيم وقارُه
وفيها من الخَوْدِ المَلاحةُ والطُّهر
ألا إن حُسْنًا لا يرافقُه النُّهَى
وإن دام يومًا، لا يدوم له قَدْر

✡✡✡✡✡

هي الروضُ فيه النّبتُ والندُّ والنَّدى
وفيه الشَّوادي المطرباتُك والزّهر
هي الشمسُ تبدو كلَّ يومٍ جديدةً
يروح بها ليلٌ ويأتي بها فجرُ
لكلِّ فتاةٍ خِدْرُها وسِوارُها
ولكنّ هذي كلُّ قلبٍ لها خِدْر

(١) خلُق الثوب - يخلُق: بليَ. وأخلقه: أبلاه.

يَـزيـد سـنـاهـا الـطّيُّ والـنَّـشْـرُ رونـقًـا
ويُخلِقُ، حتى المُصْحَفَ، الطيُّ والنشرُ[1]

أنـيسُ الـفـتـى إن غـابَ عـنه أنـيـسـُه
وأنجـمُه إن غـابتِ الأنجمُ الـزُّهـر

وسِـفـرٌ تـلـذّ المـرءَ مـحـتـويـاتُه
إذا لم يـكن في الـبـيت نـاسٌ ولا سَـفْـر

إذا رضِـيتْ فـالـنّـورُ في كـلـمـاتِـهـا
وإن غـضِـبتْ فـهيَ الأسـنّـة والجَـمـر

وفي كلّ حـربٍ يـعـقِـدُ الحقُّ فـوقـهـا
أكـالـيلَ نـصـرٍ يَشـتـهي مـثـلَـهـا الـبدرُ

ولا غـروَ إن عـزّتْ وهـانَ خـصـومُـهـا
فـللحقّ، مـهـمـا جَـعجعَ الـباطلُ، الـنصر

فـكم مُـرجِفٍ أغـراه فـيـهـا سـكـوتُـهـا
فـلـمّـا أهـابتْ كـاد يـقـتُـلُه الـذُّعـر

وكم كـاشحٍ غـاوٍ أراد بـهـا الأذى
ثـنى طـرفَه عـنـهـا وفي نـفـسه الـضُّـرّ

لـهـا في ربـوعِ الـشـرق جـيشٌ عـرمـرمٌ
وأعوانُـهـا في الـغـرب لـيس لـهم حـصـر

ولـو كـان في المـرّيخ أرضٌ وأمّـةٌ
لـكـان لـهـا في أرضه عـسـكـرٌ مَـجْـر[2]

لـتـسـحبْ ذيـولَ الـفـخـر تـيـهًـا فـوحـدَهـا
يـحقّ لـهـا من بـين أتـرابـهـا الـفـخـرُ

---

(١) الفَيش: الفخر (فاشَ فيْشاً). والهُجر: الهذيان، والقول السيّئ.

ولا غَـرْوَ إنْ أهـدى لـهـا الـشِـعـرُ وحـيَه
فـيـا طـالمـا سـارتْ وسـار بـهـا الـشّـعـر
ولا غـرو إن صُـغْـنـا لـهـا الـنـثـرَ حِـلْـيـةً
«فـفـي عُـنُقِ الحـسـنـاء يُـسـتـحـسن الـدُّرّ»
وإن يــكـن الأحــرارُ من نُــصَــرائــهــا
فـكـم نـصـرَ الأحـرارَ صـاحـبُـهـا الحـرّ
أديبٌ عـــفـــيف قـــلـــبُه ويـــراعُه
بـغـيضٌ إلـيه الـطيشُ والـفَـيْشُ والـهُـجْـر[1]
ثـــمــانٍ وعــشــرٌ وهــو يــخــدُم قــومَه
ألا حـبّـذا تـلـك الـثـمـانيُّ والـعَـشْـر
فـفي الـعُـسْـر لم يـجـهَـر بـشـكـوىً لـسـانُه
وفـي الـيُـسـر لم يـلـعب بـأعـطـافِه الـكِـبْـر
وشـــرُّ المــزايــا أن يــصــيــبَك حــادثٌ
وتـجـهَـرَ بـالـشـكـوى وفي وسْـعك الـصّـبـر
أهـذا كـمن يُـمـسي ويُـضـحي مـعـربِـدًا
وقـــدّامَه طـــبلٌ ومن خـــلـــفه زَمْـــر؟
أهــذا كـــمــغــتــابٍ يــروح ويــغــتــدي
وفـي نُـطْـقه شــرٌّ وفـي صــمْــته شــرُّ؟
أهــذا كــمــفــطــورٍ عــلى الــشــرِّ والأذى
أحــاديــثُه نُــكــرٌ وأعــمــالُه سُــكْــرُ
أهـذا كـأفـعى هـمّـهـا نـفْـث سـمِّـهـا
ونــهشُ الــذي تــلــقى ولــو أنه صــخــر
أهــذا كــمن يمــشي إلى الــوِزْر عــامـدًا

ويـضـحكُ مـخـتـالاً إذا مـسّه الـوِزر؟

أهـذا الـذي قـد حـاذر الـمكـرَ جُـهـدَهُ

كَـمَن شـابَ فُـوداهُ وديـدنُه الـمَـكْـر؟

إذا الـدَّهـرُ لم يـعـرفْ لـكلٍّ مـكـانَه

إذن قُلْ لأهلِ الـدّهـر قـد فـسَـدَ الـدّهـر

****

٧٤ - مَزْح في جِدّ

(معربة)

[المتقارب]

رأيتُ غلاماً مليحَ الرُّواءْ
تلوح النّباهةُ في مقلتهْ
فقلت: تجنّى علينا الشتاءْ
وقد نفِدَ الفحمُ معْ كثرته
فهل من دواءٍ لهذا البلاءْ
لديك؟ أجاب: اقفلوا المدرسهْ!
فقلتُ: صغيرٌ يحبّ الفضاءْ
ويكرهُ ما ليس من فطرتِه!

✡✡✡✡✡

وأبصرتُ لصّاً على الزاويهْ
كثيرَ التّلفّتِ نحو القصورْ
فقلت: منازلنا خاليه
من الفحمِ، والفحمُ نارٌ ونورْ
فقال: لياليكمُ الدّاجيه
تزول، ولكن بهدْم السُّجونْ!
فقلت: شقيٌّ من الأشقياءْ
يجاهد من أجل حريّتهْ!

✡✡✡✡✡

وعُدْتُ إلى رجلٍ مُوسرٍ
له شهرةٌ وله منزلَهْ

فقلت: سَريٌّ كلامُ السَّريْ
إذا وقعَ الناس في مشكله
فما هو رأيك؟ قال: اقصِر
مع البرد لا تَنفع الولوله!
فأدركت أن فتى الأغنياءْ
ضنينٌ يخاف على ثروته!

✲✲✲✲✲

وأبصرتُ شخصًا كثير الحذرْ
فرُحت أبثّ له لوعتي
فحملقَ حتّى رأيتُ الشَّررْ
يطير سِراعًا إلى مُهجتي
وصاح: هي الحرب أصلُ الخطر
فرُدّوا الحسام إلى غِمدِهِ!
فقلت: عدوٌّ قليل الحياء
يحاذرُ شرّاً على دولته!

✲✲✲✲✲

(هيوزُ) وقد كان قبلاً «مُرَشَّحْ»
شكوتُ إليه انقلابَ الأمورْ
ولّما طلبتُ الجوابَ تنحنحْ
وقال: الحِلاقةُ أصلُ الشُّرور!
فقلت: المرشّح لا شكّ يمزحْ
وما زلتُ في حيرةٍ واضطرابْ
كطيّارةٍ في مَهبِّ الهواءْ
إلى أن نظرتُ إلى لحيتهْ!

(*) لم نعثر على هذا النشيد.

****

٧٥ - نشيد التباراري(*)

(معرّبة)(٢١ بيتًا)

****

٧٦ - ذكرى

[الكامل]

ولــقــد ذكــرتُكِ بــعــد يــأسٍ قــاتلٍ
في ضَــحْــوةٍ كــثُــرتْ بــهــا الأنْــواءُ
فــوددْتُ أنّي غَــرْســةٌ أو زهــرةٌ
وودِدتُ أنكِ عــاصــفٌ أو مــاءُ

****

(١) إرنان: الصياح والتصويت (أرنّت القوس: صوّتت).

٧٧ - جرجي زيدان

[مختلط]

ثَكِلَ الشَّرقُ فتاهُ
ليتني كنتُ فداهُ
ليتني كنتُ أصمّاً
عندما النّاعي نَعَاه
قد نعى النّاعون «زَيدا
نًا» إلى البدر سناه
وإلى التاريخ والعِلْ
مِ أباه وأخاه!

☆☆☆☆☆

سرَى نعيُه فالدَّمعُ في كلّ مَحْجِرِ
كأنّ قلوبَ الناسِ خلْفَ المَحاجِرِ
وللطير في الجنّات إرنانُ ثاكلٍ
وللماء أنّاتُ الغريب المسافر(١)
وللنجم، وهو النجمُ، مِشْيةُ ظالعٍ
وللأرض، وهي الأرضُ، وِقْفَةُ حائر
وما كامنٌ فيه الأسى غيرُ كامنٍ
ولا ظاهرٌ فيه الأسى غيرُ ظاهر
فمن لم يرَ الباكين في كلّ منزلٍ
فما أبصرتْ عيناه شَقَّ المَرائر
وهي «البرقُ» مما حمّلوه فلم يُطِق

يـحـدِّثُـنـا عـنه بـغـيـر الأشـائـر

فـيـا خـبَـرًا ألـقى الـفـجـيـعـةَ بـيـنـنـا

لأنت عـلـيـنـا الـيـومَ أشـأمُ طـائـر

ويـا نـاقلَ الأنـبـاءِ يـجـهلُ كُـنـهَـهـا

كـرهـنـاك حـتى قـادمًـا بـالـبَـشـائـر

أقـام الأسـى بـين الـعـزاءِ ومُـهـجَـتي

وبـاعـدَ مـا بـين الـقَـريض وخـاطـري

فـأمـسـيتُ لا أدري أسِـتْـرٌ من الـدُّجى

على الـشـمس أم ضـيَّعتُ أسْود نـاظري؟

وبـات فـؤادي يـتَّـقي نـزَواتِـه

كمـا يـتَّقي الـعـصفورُ بـأسَ الـكواسـر

كـأنَّ بـقـلـبي شـاعـرًا يـنـظمُ الأسى

كـأنّي تـولّى مَـدمـعي كلُّ نـاثـر

ألا لـيت شـعـري بـعـد مـا طـار نـعـيُه

أفي أرض مـصـرٍ نـائمٌ غـيـرُ سـاهـر

وهل فـي سـمـاء الـنـيلِ غـيـرُ ديـاجـرٍ

وهل في مـيـاه الـنـيل غـيـرُ مَـجـامـر

وهل في ضِـفـاف الـنـيل بـين نـخـيـله

مـغـرِّدَة أو آنسٌ غـيـرُ نـافـر

بمَ سَـمِـرَ الإخـوانُ في كلّ لـيـلـةٍ

وصـاحـبُهم في الـلـحدِ غيـرُ مُـسـامر؟

لـيـبكِ عـلـيه المـسـلـمـون فـإنّـهم

أضـاعـوا به مُـحـيي الـعـصـورِ الـدواثـر

وتـبكِ الـنَّـصـارى فـخـرَهـا وعـمـيـدَهـا

---

(١) الـمَعْثر: موضع الزلة والعثرة.

فـمـا بـعـدَه من حُـجَّـةٍ لـمُـفـاخـر

فـمـا جَـادتِ الـدنـيـا عـلـيـهم بمـثـلِه

وغـيـرُ يَـسـيـرٍ أن تجـودَ بـآخَـر

أيـا جـبلَ الـعـلـمِ الـذي مـاد هـاويًـا

عـزيـزٌ عـلـيـنـا أن تُـرى في الحَـفـائـر

عـلـيك يـودّ الـغـربُ لـو كـان مَـشـرِقًـا

وفـيك يُـحبّ الحيُّ أهلَ الـمَـقـابـر

ويـغـبِطُ تـبـرُ الأرض فـيك تـرابَـهـا

ويَـحـسُـدُ مـاءُ الجَـفنِ مـاءَ الـمَـحـابـر

ومـا عـادةٌ خـفضُ الـرجـالِ رؤوسَـهـا

ولـكـنّـمـا في الأرض كـنـزُ الجـواهـر

لِتفخرْ على الشُّهبِ الجنادلُ والحصى

ففيها هلالُ العلم شمسُ المَحاضر

شـأوتَ الأوالي جـامـعًـا ومـؤلِّـفًـا

وزدتَ بـأنْ أحـرزتَ فـضـل الأواخـر

تَـخـيَّـرُ أحـداثُ الـلـيـالي كـبـارَنـا

كـأنّ المـنـايـا صَـبَّـةٌ بـالأكـابـر

ونـضـحـكُ لـلآمـال ضـحـكـةَ وامقٍ

فـيضـحكُ منّا الـدهـرُ ضِحْكةَ سـاخر

رضِـيـنـا بـأن تـغـشى الـغـزاةُ بلادنـا

ونِـمْـنـا ومـا نـامتْ عـيـونُ الـمَـعـاثـر[1]

لـهـا كلَّ يـوم بـيـنـنـا حـكمُ جـائـرٍ

وإقـدامُ مـوتـورٍ وفَـتـكـةُ ثـائـر

عـلى أنـهـا تـقـتصّ من غـيـرِ مُـذنبٍ

---

(١) السيوف: وأمضاها: أشدّها وأحسنها مضاءً.

وتـــأخـــذُ بـــالأوتـــار من غـــيـــرِ واتـــر

فـيـا ويحَ هـذا الـشَّـرقِ كـيف اغـتـبـاطُه

وأمـضَى مَـواضـيه(١) كـلـيلُ الأظـافـر؟

☆☆☆☆☆

جـــللٌ فـي مــــصـــرَ لـــكنْ

فـي الـــعـــراقَـــينِ صـــداهُ

مـــادَ لـــبـــنـــانُ ومـــاد

الـــشـــام لّـمـــا ســمـعـــاهُ

كـــاد أن يـــخـــذُلَ فـــيه

كلُّ طَـــود مَـــنـــكَـــبـــاه

أيـــهـــا الـــراحلُ عـــنّـــا

بـــــلـغ الـحـــــزنُ مَـــــداه

قـــد بـــكـــاك الأفقُ حـــتّى

فـــــرقـــــداه وســـــهـــــاه

يـــا خـــلـــيـــليّ أعَـــيْـــنـــا

مَن عـــصـــاه مُـــســـعِـــداه

خـــانت الـــنـــفسَ قُـــواهـــا

خـــــانت الـــــبـــــينَ قُـــــواه

قـــد مـــضـى مَن تـــتـــمـــنّى

كلُّ عــــــينٍ أن تــــــــراه

فـــتـــمـــنّى كلُّ قـــبـــرٍ

حـــــين أودى لـــــو حَـــــواه

مـــات «زيـــدانُ» أبـــو الـــتّـــا

ريخِ فـــلـــيـــحيَ فـــتـــاه!

---

(١) يبدو أنه يخاطب راعي الكنيسة.

(٢) النقَد: صغار الغنم، الواحدة: نقَدَة، والجمع: نِقاد ونِقادة.

****

٧٨ - أيها الراعي[١]

[الوافر]

شـــهـــورُ الـــعـــام أجـــمـــلُـــهـــا «ربـــيـــعٌ»

وأبـــغـــضُـــهـــا إلـى الـــدنـــيـــا «جُـــمـــادى»

وخـــيـــرُ المـــالِ مـــا أمـــسـى زكـــاةً

وخـــيـــرُ الـــنـــاس من نَـــفَـــعَ الـــعِـــبـــادا

بـــربِّـــكَ قـلْ لـــنـــا وخــلاكَ ذمٌّ

أعـــيـــسـى كـــان يـــدّخـــرُ الـــعَـــتـــادا؟

تـــنـــبَّـهْ أيـــهـــا الـــراعي تـــنـــبَّـهْ

فـــمَـــنْ حَـــفِـــظَ الـــورى حَـــفِـــظَ الـــعِـــبـــادا

خِـــرافُـــكَ بـــيـــن أشْـــداقِ الـــضَّـــواري

ومِـــثْـــلُـــكَ مَـــن حَـــمـى ووقَـى الـــنِّـــقـــادا[٢]

تـــبـــدّل أمـــنُـــهُـــمْ رعـــبًـــا وخـــوفًـــا

وصـــارتْ نـــارُ أكـــثـــرِهـــمْ رمَـــادا

لـــقـــد أكل الجَـــرادُ الأرضَ حـــتّى

تـــمـــنَّـــوا أنـــهـــم صـــاروا جَـــرادا

---

(١) الزعفران.

(٢) القتاد: الشوك، وشجر له شوك.

فــمـــا لَك لا تجــودُ لـــهم بــشيءٍ
وقـــد رقّ الـــعـــدوُّ لـــهم وجـــادا؟
ومـــا لَك لا تُـــجِـــيبُ لـــهم نـــداءً
كـــأنّ سِـــواكَ، لا أنت، الـــمُـــنـــادى؟

☆☆☆☆☆

ورُبَّـــةَ ســـاهـــرٍ في «بـــعـــلـــبكٍ»
يــشــاطــرُ جَــفــنُه الــنـجمَ الــسُّــهـادا
يَــزيــدُ الــلــيلُ كُــربــتَهُ اشْــتـدادًا
وفَــرْطُ الــهـمِّ لـــيــلـــتَهُ ســـوادا
إذا مـــالَ الـــنـــعـــاسُ بـــأخْــدَعــيه
ثَــنـى الــذّعــرُ الــكَــرى عـــنه وذَادا
به الـــــدّاءان مـن سَـــغَبٍ وخـــوفٍ
فـــمـــا ذاقَ الـــطـــعـــامَ ولا الـــرُّقــادا
تـــطـــوفُ به أُصَــيـــبِــيَـــةٌ صـــغـــارٌ
كـــأنّ وجـــوهَـــهُمْ طُـــلــيتْ جِـــســادا[1]
جـــيـــاعٌ كـــلّـــمـــا صـــاحـــوا ونـــاحـــوا
تـــوهّـمَ أنّ بـــعضَ الأرضِ مَـــادا
إذا مـــا اسْـــتــصـــرَخُـــوه وضـــاقَ ذَرْعًـــا
نَـــبـــا عـــنـــهمْ ومـــا جَـــهِل الـــمُـــرادا
ولـــكنْ لم يـــدعْ بـــؤسُ الـــلـــيـــالي
طـــريـــفًـــا في يـــديه ولا تِلادا
ولـــو تـــرك الـــزمـــانُ له فـــؤادًا
لمـــا تـــركَتْ له الـــبـــلـــوى فُـــؤادا

☆☆☆☆☆

أتــفــتــرشُ الحــريــرَ وتــرتـــديه

ويــفــتَــرِشُ الجـنــادلَ والــقَــتَــادا[٢]

ويَـــطـــلبُ من نــبـــاتِ الأرض قُـــوتًـــا

وتـــأبَى غـــيـــرَ لحمِ الـــطِّـــيـــرِ زادا

وتـــهـــجـعَ هـــانـــئًـــا جَـذْلاً قــريــرًا

وقــد هــجـرَ الــكَـرَى وجَـفـا الـوِسـادا

عــجــيبٌ أن تــكــونَ كــذا ضــنــيــنًــا

ولم تُـــبْـــصـــرْ بـــنـــا إلا جَـــوادا

أمــا تــخــشى مــقــالــةَ ذي لــســانٍ:

أمــاتَ الــنــاسَ كي يُــحــيي الجــمــادا؟

✡✡✡✡✡

لِـــداتُكَ هـــمّـــهمْ نــفــعُ الــبَــرايــا

وهـــمُّكَ أن تـــكـــيـــدَ وأن تُـــكـــادا

نــزلتَ بــنــا فــأنــزلــنــاكَ ســـهلاً

وزدنــاك الــنُّــضــارَ الــمُــســتَــفــادا

فــكــان جــزاؤنــا أن قُــمتَ فــيــنــا

تُــعَــلِّــمُــنــا الــقــطــيــعــةَ والــبِــعــادا

فــلـــمّـــا ثـــارَ ثـــائـــرُ كلِّ حُـــرٍّ

رَجــعتَ الــيــومَ تــمــتــدحُ الجِــيــادا

أتـــدفعُ بـــالـــغَـــويِّ إلى الـــتّـــمـــادي

وتـــعـــجَبُ بـــعـــد ذلك إن تَـــمـــادى؟

ســـكـتّ فـــقـــام في الأذهـــان شكٌّ

وقـــلتَ فـــأصـــبحَ الـــشَّكُّ اعـــتـــقـــادا

تجـهّـمتَ الـقـريضَ فـفـاضَ عـتْـبًـا

وإنْ أحـــرجـــتَهُ فـــاضَ انـــتـــقـــادا

ولـــولا أن أثَـــرْتَ الخُـــلْفَ فـــيـــنـــا

وددْنا لو محضناكَ الودادا

****

٧٩ - ابنة الفجر

[الخفيف]

أنا إنْ أغمضَ الحِمامُ جفوني
ودوى صوتُ مصرعي في المدينهْ
وتمشّى في الأرض دارًا فدارًا
فسمعتِ دويّهُ ورنينَهْ
لا تصيحي «وا حسْرتاهُ» لئلا
يدركَ السّامعون ما تُضْمِرينَهْ
وإذا زرتِني وأبصَرْتِ وجهي
قد محا الموتُ شكّهُ ويقينه
ورأيتِ الصّحابَ جاثينَ حَوْلي
يندبونَ الفتى الذي تَعرفينه
يتعالى العويلُ حولَكِ ممّن
مارسُوه وأصبحوا يُحسِنونه
لا تَشُقِّي عليّ ثوبكِ حُزنًا
لا ولا تذرِفي الدموعَ السّخينه

---

(١) الحمأ والحمأة: الطين الأسود. والمسنون: المتغير المُنتن.

غالبي اليأسَ واجلسي عند نعشي
بسكونٍ، إني أحبُّ السَّكِينه

إنَّ للصمتِ في المآتم معنى
تتعزَّى به النفوسُ الحزينه

ولَقولُ العُذّالِ عنكِ: «بخيلٌ»
هو خيرٌ من قولهم: «مسكينه»

وإذا خِفتِ أن يثورَ بك الوجـ
ـدُ فتبدو أسرارُنا المكنونه

فارجِعي واسكُبي دموعَكِ سرّاً
وامسحي باليدين ما تسكُبينه

✿✿✿✿

يا ابنةَ الفجرِ! مَن أحبَّكِ مَيْتٌ
ولأنتِ بمثل هذا رهينه

زايل النورُ مقلتيه وغابتْ
تحت أجفانِه المعاني المبينه

فأصيخِي! هل تسمعينَ خُفوقًا
كنتِ قبلاً في صدره تَسمعينه؟

وانظري ثم فكّري كيف أَمسى
ليس يدري عدوَّه وخَدينَه!

ساكتًا لا يقول شيئًا ولا يسْـ
ـمَعُ شيئًا وليس يبصر دونه

لا يبالي أأودعوه الثُّريا
أم رمَوه في حَمْأةٍ مَسْنونه[1]

وإذا الحارسان ناما عِياءً

ورأيتِ أصحابَهُ يتركُونه

فتعالَي وقبّلي شفتيه

ويديه وشعرَهُ وجَبينه

قبلَ أن يُسدَل الحجابُ عليه

ويُوارَى عنكِ فلا تُبصِرينه

واحذري أن تراكِ عينُ رقيبٍ

ولئن كان جُلَّ ما تحذرينه

فإذا ما أمنْتِ لا تتركيه

قَبلَما يفتحَ الصَّباحُ جفونَه

✡✡✡✡✡

وإذا السَّاعةُ الرهيبةُ حانتْ

ورأيتِ حُرّاسَه يحملونه

وسمعتِ الناقوسَ يُقرعُ حُزنًا

فيردُّ الوادي عليه أنينه

زوّدي الراحلَ الذي ماتَ وجْدًا

بالذي زوّد الغريقُ السفينهْ

نظرةً تَعلمُ السماواتُ منها

أنه مات عن فتاةٍ أمينه

✡✡✡✡✡

طوتِ الأرضُ مَن طوى الأرضَ حيّاً

وعلاهُ مَن كان بالأمس دونه

واختفى في التراب وجهٌ صبيحٌ

وفؤادٌ حُرٌّ ونفسٌ مَصُونه

---

(١) الحَزْن: ما غلظ من الأرض (في الأرض حُزونة).

(٢) النفار: النفور.

وإذا ما وقفتِ عند السَّواقي
وذكرتِ وقوفَهُ وسكونه

حيث أقسمتِ أن تدومي على العَهْـ
ـدِ وآلى بأنه لن يخونه

حيث علّمتِه القريضَ فأمسى
يتغنّى كي تسمعي تلحينَه

فاذكريه مع البروقِ السّواري
واندبيه مع الغُيوثِ الهَتُونه

وإذا ما مشيتِ في الروض يومًا
ووطئْتِ سهوله وحُزونه(1)

وذكرتِ مواقفَ الوجْدِ فيه
عندما كنتِ بالهوى تُغرينه

حيثُ علّمتِه الفُتونَ فأضحى
يحسَبُ الأرضَ كلَّها مفتونه

حيث وسّدْتِه يمينَك حتى
كاد ينسى شِمالَهُ ويمينه

حيث كنتِ وكان يَسقيك طَورًا
من هواه، وتارةً تَسقينه

حتى حاكَ الربيعُ للروض ثوبًا
كان أحلى لديهِ لو ترتدينه

فالثِمي كلَّ زهرةٍ فيه إني
كنت أهوى زهورَه وغُصونه

ثم قولي للطير: مات حبيبي!
فلماذا يا طيرُ لا تَبكينه؟

---

(1) القطين: الساكن. والفعل: (قطنَ).

المحتــوى

ديوان إيليا أبي ماضي (الجزء الثاني)

****

الديوان الثالث

(الجـداول)

الطبعة الأولى (مطبعة جريدة «مرآة الغرب اليومية». نيويورك ١٩٢٧)

يضم، في هذه الطبعة التي أصدرها الشاعر نفسه، ستة وثلاثين نصّاً شعريّاً، وقع، في آخرها، نصّه الطويل المعروف «الطلاسم». وتولى التقديم للديوان: ميخائيل نعيمة، أمين سرّ «الرابطة القلمية».

وما زِيد على «الجداول»، في الطبعات التي ظهرت من بعد، في الشرق، جمعناه كلَّه في شعره الذي لم تجمعه دواوينه الخمسة، في طبعاتها الأولى .

****

المقدمة

بقلم ميخائيل نعيمة

«خـلـتُ أني فـي الـقـفـر أصـبـحت وحـدي
فـــإذا الـــنـــاسُ كـــلـــهمْ فـي ثـــيـــابي»

لقد قرأت لأبي ماضي كثيراً من طيب الشعر وجميله، غير أني لست أذكر أني قرأت له أصدق من هذا البيت، وأدلّ منه على بعد غور شاعريته، ومدى خياله ورحابة آفاق فكره . أو لستَ تسمع، عند قراءته، قلوب الإنسانية بأسرها نابضة في قلبك، وتشهد أمواج أفكارها متلاطمة في بحر فكرك ؟

ألست تحس أنك وكل الذين ولدوا وماتوا، والذين سيولدون ويموتون، واحد؟

ألست تحس كأن مواكب الأجيال كلها تزدحم وتتألب في كيانك ؟

ألست ترى ضعف الضعيف في قوتك، وضعة الوضيع في رفعتك، وحماقة الأحمق في حكمتك، وقبح القبيح في جمالك، وفقر الفقير في مالك؟

أو لست تراك رفيقاً لكل وحيد في وحدته، ولكل غريب في غربته، وشريكاً لكل آثم في إثمه، ولكل عالم في علمه ؟

وأخيراً ألست تدرك أن لا مهرب لك من الناس؟ لعمري ليس يدرك مثل هذه الحقيقة فيقبض عليها ويبرزها إليك في حلة هي غاية في الجمال؛ لأنها غاية في البساطة، غير شاعر ملهم أو نبي مرسل.

إن في هذا البيت وحده مثالاً جلياً للحقائق التي يدركها الخيال بوثبة واحدة. ولا يدركها العلم بأجيال طويلة، فمن ذا يلوم الشرق إن استسلم لوحى أنبيائه، وتعلق بوحي شعرائه، أو أعرض عن منقب آثاره وعلمائه؟

ألا أعطني الشعر ووجدانه، وخذ العلم وبرهانه.

وقد كان يجمل بي وأنا أقدم إليك كتاباً من الشعر؛ أن أتجلبب بجلبات المعرفة البحاثة، فأحدثك عن الشعر وتاريخه وأصنافه وأهديك إلى مصادره ومسالكه؛ وأحلل لك معانيه ومراميه؛ وأفسر لك أسراره، وأنثر عليك جواهره، وأريك نفعه من ضرره.

نعم! لقد كان يجمل بي كل ذلك لو أني وجدت إليه سبيلاً . غير أني أعترف اليوم بما لم أعترف به من قبل. وهو أني لا أعرف عن الشعر ومصدره وكنهه أكثر مما أعرف عن حياتي ومصدرها وكنهها وقد كنت أحسبني أعرف الكثير، فإذا بما أعرفه وأنوء به نقيض المعرفة، وإذا بالذي أعرفه اليوم لا يذعن للساني فأنطق به، ولا ينقاد لقلمي فأسطره. والذي أحاوله الآن هو القول : إني آنس اليوم قرابة روحيه بيني وبين صاحب «الجداول» ما كنت أشعر بمثلها بيني وبين ناظم الجزء الأول والثاني من ديوان إيليا أبي ماضي، «ترى أتغير أبو ماضي إلى هذا الحد، في السنوات الثماني الأخيرة، أم تراني تغيرت ؟

فبين هذه «الجداول» ما تنساب معه روحي مترقرقة، مترنمة، مطمئنة جذلة بنور عينيها، وجمالٍ عن جانبيها، مرحة بحريّة لا أرصاد ولا قيود، ومدى لا آفاق له ولا حدود.

هكذا أقرأ قصيدة «الطين» فأسمع لها أصداء كثيرة في نفسي: ومثال «تعالي» و«ريح الشمال» و«في القفر» و«المساء» و«العميان» و«الزمان» وسواها. أقرؤها غير ناظر إلى قافية مقلقة أو كلمة شاردة، بل إلى جملة ما يتجلى لي فيها من الرسوم، وما تحدثه في نفسي من الرعشة، وتنبهه في وجداني من الشعور والخيالات، وقد أكتفي من القصيدة كلها ببيت واحد، إذا كان لذاك البيت وقع في روحي ولا يندر أن أجد لذة حتى في قصيدة لا تأتلف مع أهوائي ومنازعي كقصيدة «بردّي يا سحب» لأني وإن كنت أنكر على نفسي أن تقول:

«كل نجم لا اهتداء به   لا أبالي لاح أو غربا»

لا أنكره على أبي ماضي. بل أعجب لقوة بيانه لمعتقده ، إذا كان ذلك ما يعتقد.

لاشك عندي قط، في أن فريقاً من الذين (نذروا حياتهم للذب عن حياض اللغة العربية) - يصمون آذانهم عن خرير هذه «الجداول» الشجيّ ويفتحون أبصارهم علهم يجدون في حصبائها ما ينطبق على مقاييسهم، ويوزن بموازينهم، ولعلهم يظفرون ولو ببعض ما يطلبون . أما أنا فأبارك هذه الجداول المنسابة إلى بحر شعرنا الواسع. لأنها ستزيده اتساعاً، وهيبة، وصفاء.

١ ـ الفاتحة

[مجزوء الرمل]

يـا رفـيـقي.. أنـا لـولا أنت مـا وقّـعْتُ لحـنـا

كـنتَ في سـرّيَ لـمّـا كـنتُ وحـدي أتـغـنى

أُلـبسُ الـروضَ حُلاهُ، إنه يـومـاً سـيُـجـنَى

هـذه أصـداءُ روحي فـلـتـكنْ روحُكَ أُذْنـا

إنْ تجدْ حُسناً فخذْهُ، واطّرحْ ما ليس حُسْنا

إن بـعضَ الـقـولِ فنٌ، فـاجـعلِ الإصـغـاءَ فـنـا

تـلك كـالحـقلِ يـردُّ الـكـيلُ لـلـزارعِ طُـنّـا

رُبَّ غـيمٍ صـار لـمّـا لمـسـتْهُ الـريحُ مُـزْنـا

ربمـا كـنـتُ غـنـيّـاً غـيـرَ أني بك أغـنى

مـا لـصـوتٍ أُغـلـقتْ من دونه الأسـمـاعُ مـعـنى

كلُّ نـورٍ غـيـرَ نـورٍ مـرَّ بـالأعـين وسْـنَى

وإذا رحت بـكَـرْمِي زدته خِـصْـبـاً وأمـنـا

قد سكبتُ الخمرَ كي تشربَ، فاشربْ مطمئنا

واسقِ مَن شئتَ كريماً، لا تخفْ أن تَتَجنَّى

كـلـمـا أفـرغتُ كـأسي زدتَ في كـأسي دَنّـا

فـهي بـالإنـفـاقِ تـبقى، وهي بـالإمـسـاك تـفـنى

✡✡✡✡✡

لستَ مني أنْ حَسِبتَ الشِّعر ألفاظًا ووزنا

خَالَفتْ دربُكَ دربي، وانقضَى ما كان منّا

فانطلقْ عني لئلا تَقْتَنِي همّاً وحزنا

واتّخذْ غيري رفيقاً وسِوى دنياي مغنى

****

٢ ـ العنقاء

[الكامل]

أنــا لــستُ بــالحــســنــاء أوّلَ مُــولَعِ
هيَ مـطـمعُ الـدنـيـا كـمـا هي مـطـمـعي

فـاقـصُصْ عـلـيّ إذا عـرفتَ حـديـثَـهـا
واسـكنْ إذا حـدَّثتَ عـنـهـا واخـشَع

أَلمحْـتَـهـا في صـورةٍ؟ أشَـهِـدْتَـهـا
في حـالـةٍ؟ أرأيـتَـهـا في مـوضع ؟

إني لـذو نَـفْسٍ تـهـيمُ، وإنـهـا
لجـمـيـلـةٌ فـوقَ الجـمـالِ الأبـدع

ويـزيـدُ في شـوقي إلـيـهـا أنـهـا
كـالـصَّوتِ لم يُـسْـفِـرْ ولم يـتـقـنَّع

فَـتَّشتُ جـيبَ الـفـجـر عـنـهـا والـدجى
ومَـددتُ حـتى لـلـكـواكبِ إصْـبَـعي

فـإذا هـمـا مُـتـحـيـرانِ كلاهـمـا
في عـاشقٍ مُـتـحـيـرٍ مُـتَـضـعْـضِع

وإذا الـنـجـومُ لـعِـلْـمـهـا أو جَـهـلِـهـا
مُـتَـرجـرجـاتٌ في الـفـضـاء الأوسع

رقـصتْ أشـعـتُـهـا عـلى سطح الـدجى
وعـلى رجـاءٍ فيَّ غـيـرَ مُـشَـعـشِعِ

✡✡✡✡✡

والـبـحـرُ كم سَـاءلـتُهُ فـتـضـاحـكَتْ
أمـواجُه من صـوتي الـمُـتـقَـطِّع
فـرجَـعتُ مُـرتـعشَ الخـواطـرِ والـمُـنى
كـحـمـامـةٍ مـحـمـولـةٍ في زَعـزَعِ[1]
وكـأنَّ أشـبـاحَ الـدهـورِ تـألَّـبَتْ
في الـشطِّ تـضـحكُ كـلُّـهـا من مـرجـعي
ولـكَمْ دخـلـتُ إلى الـقُـصـور مـفـتـشـاً
عـنـهـا، وعـجْتُ بـدارسَـاتِ الأربُع
إنْ لاحَ طـيفٌ قـلـتُ يـا عـينُ انـظـري!
أو رنَّ صـوتٌ قـلـتُ: يـا أذنُ اسْـمَـعي!
فـإذا الـذي في الـقَـصـرِ مـثـلي حـائـرٌ
وإذا الـذي في الـقَـفْـرِ مـثـلي لا يَـعِي

✡✡✡✡✡

قـالـوا: تـورَّعْ ! إنـهـا مـحـجـوبـةٌ
إلا عن الـمُـتَـزهـدِ الـمُـتَـورِّع
فَـوأدتُ أفـراحي وطـلَّـقتُ الـمُـنى
ونـسـختُ آيـات الـهـوى من أضـلـعي
وحَـطَـمتُ أقـداحي ولـمَّـا أرتـوي
وعَـفَـفتُ عن زادي ولـمَّـا أشـبع
وحـسـبـتُـني أدنـو إلـيـهـا مـسـرعـاً
فـوجَـدتُ أني قـد دنـوتُ لمـصـرَعي
مـا كـان أجـهلَ نُـصَّـحِي[2] وأضـلَّـني
لـمَّـا أطـعـتُـهـمُ، ولم أتـمـنَّـع

---

(١) ريح زعزع : تحرك الأشياء .
(٢) جمع لِـ (ناصح) مثل عاجز وعجّز .

إني صَـرفتُ عن الـطَّـمـاعـةِ والـهـوى
قـلـبي، ولا ظَـفَـرٌ لمن لم يَـطْـمع
فـكـأنِّيَ الـبـسـتـانُ جـرَّدَ نـفـسَهُ
من زهـرِه المـتـنـوِّعِ الـمُـتـضَـوِّع
لـيُـحِسَّ نـورَ الـشَّـمسِ في ذرَّاتِه
ويُـقـابلَ الـنَّـسَـمـاتِ غـيـرَ مُـقَـنَّع
فـمـشى عـلـيه من الخـريفِ سُـرادقٌ
كـالـلـيل خـيَّمَ في المـكـان الـبَـلْـقَع
وكـأنـني الـعـصـفـورُ عَـرَّى جـسـمَه
من ريـشِه الـمُـتـنـاسِقِ الـمُـتـلَـمِّع
لـيَـخِفَّ مـحـمـلُه ؛ فـخـرَّ إلى الـثَّـرَى
وسـطـا عـلـيه الـنـملُ غـيـرَ مُـروَّع
وهَـجَـعتُ أحـسَبُ أنـهـا بـنتَ الـرُّؤَى
فـصـحـوتُ أسـخـر بـالـنِّـيام الـهُـجَّع
لـيستْ حُـبـوراً كـلُّـهـا دنـيـا الـكرى
كم مـؤلمٍ فـيـهـا بـجـانبِ مُـفـزِّع
تُـخـفي أمـانيَّ الـفـتى كـهـمـومِه
عـنه، وتحـجـبُ ذاتَهُ في بُـرقِع
ولـربَّـمـا الـتَـبـستْ حـوادثُ يـومِه
بـالـغـابـر المـاضي وبـالمـتـوقَّع
يـا حـبَّـذا شـطـطُ الخـيـالِ وإنمـا
تُـمْـحَى مـشـاهـدُهُ كـأنْ لم تُـطـبَع
لـمّـا حـلـمتُ بـهـا حـلـمتُ بـزهـرةٍ
لا تُـجـتَـنَي، وبـنـجـمـةٍ لم تَـطـلع
ثمَّ انـتـبـهتُ فـلـم أجـدْ في مَـخْـدَعي
إلا ضـلالي والـفِـراشَ ومَـخـدَعي

من كـــان يـــشـــربُ من جـــداول وهـــمِهِ
قـــطعَ الحـــيـــاةَ بـــغـــلّـــةٍ لم تُـــنْـــقَع
ذهب الـربـيـعُ فـلم تـكنْ في الجـدول الـشْـ
ـــشَـادي، ولا الـرّوضِ الأغنّ الـــمُـــمْـرِع
وأتى الـــشـــتـــاءُ فـلم نـكن في غـــيـــمِهِ الـ
ـــبـــاكي، ولا في رعـــدِهِ الـــمُـــتـــفـــجِّع
ولمحتُ وامـــضـــةَ الـــبُـــروقِ فَـــخِـــلـــتُـــهـــا
فـــيـــهـــا، فـــلم تكُ في الـــبـــروقِ الـــلُّـــمَّع
صَـفِـرتْ[1] يـدي مـنـهـا وبي طـيشُ الـفتى
وأضـــلَّـــني عـــنـــهـــا ذكـــاءُ الألـــمعي
حـــتى إذا نـــشـــر الـــقـــنـــوطُ ضـــبـــابَهُ
فـــوقي فـــغـــيَّـــبـــني وغـــيّـــبَ مـــوضـــعي
وتَـــقـــطَّـــعتْ أمـــراسُ آمـــالي بـــهـــا
وهـي الـــتي من قـــبل لم تَـــتـــقـــطَّع
عـــصَـــرَ الأسى روحـي فـــســـالتْ أدمـــعـــاً
فـــلـــمـــحـــتُـــهـــا ولـــســـتُـــهـــا في أدمـــعي
وعـلـمتُ حـين الـعـلْمِ لا يـجـدي الـفـتَى
أنَّ الـــتي ضـــيَّـــعـــتُـــهـــا كـــانت مـــعي!

****

(١) خلت خلوّاً كاملاً .

٣ـ السجينة

[الطويل]

لَعَمْرُكَ ما حُزْني لمالٍ فقدتُه
ولا خانَ عهدي في الحياة حبيبُ

ولكنني أبكِي وأندبُ زهرةً
جناها ولُوعٌ بالزهورِ لَعُوب

رآها يحلُّ الفجرُ عِقْدَ جُفونِهَا
ويُلقي عليها تِبرَهُ فيذوب

وينفضُ عن أعطافِها النورَ لؤلؤاً
مِن الطلِّ ما ضُمَّتْ عليه جُيوب

فعالجَها حتى استوت في يمينه
وعادَ إلى مَغْناه وهو طَروب

وشاء فأمستْ في الإناء سجينةً
لتشْبَعَ منها أعينٌ وقلوب

ثَوَتْ بين جدرانٍ كقلب مُضِيمِها
تلمَّسُ فيها منفذًا فتخيب

فليست تحيِّي الشمسَ عند شروقِها
وليست تحيِّي الشمسَ حين تغيب

ومَن عُصِبتْ عيناه فالوقت كلُّه
لديه - وإن لاحَ الصَّباحُ - غَروب

✲✲✲✲✲

لها الحجرةُ الحسناءُ في القصر إنما
أحَبُّ إليها روضةٌ وكَثِيب

وأجملُ من نورِ المصَابيح عندها
حَباحبُ تمضي في الدجى وتؤوب
ومن فتياتِ القصر يرقصنَ حولها
على نغَمَاتٍ كلهنَّ عجيب
تراقصُ أغصان الحديقةِ بكرةً
وللريح فيها جَيْئَةٌ وذَهُوب
وأجمل منهنَّ الفراشاتُ في الضحى
لها كالأماني سَكْنةٌ ووثُوب
وأبهى من الدِّيبَاج والخزِّ عندها
فَراشٌ من العشب الخَضيلِ رطيب
وأحلى من السَّقف المزخرفِ بالدُّمى
فضاءٌ تشعُّ الشُّهبُ فيه رحيب
تحنُّ إلى مَرأى الغدير وصوتِهِ
وتُحرَمُ منه، والغديرُ قريب
وليس لها للبؤس في نسَم الرُّبا
نصيبٌ، ولم يسكنْ لهنَّ هَبُوب
إذا سُقيتْ زادتْ ذبولاً كأنما
يرشُّ عليها في المياه لهيب
وكانت قليلُ الطّلِّ ينعشُ روحَهَا
وكانت بميسورِ الشُّعاع تَطِيب
بها من أنوف الناشقينَ توَعُّكٌ
ومن نظراتِ الفاسقينَ ندوب
تمشّى الضَّنَى فيها وأيارُ في الحِمى
وجَفَّتْ وسربالُ الربيع قشِيب

ففيها كمقطوعِ الوريدينِ صُفْرةٌ
وفيها كمصباحِ البَخيلِ شُحُوب

☆☆☆☆☆

أيا زهرةَ الوادي الكئيبةِ إنني
حزينٌ لما صرتِ إليه كئيب
وأكثرُ خوفي أن تظنني بني الورى
سواءً، وهُمْ مثلُ النَّباتِ ضُروب
وأعظمُ حزني أن خطبَكِ بعدَهُ
مصائبُ شتّى لم تقعْ وخطوب
سيطْرحُكِ الإنسانُ خارجَ دارِهِ
إذا لم يكن فيك العَشيَّةَ طِيب
فَتُمسينَ للأقذارِ فيك ملاعبٌ
وفي صَفحَتيكِ للنِّعالِ ضُروب
إسارُكِ يا أختَ الرياحينِ مُفجعٌ
وموتُكِ يا بنتَ الربيعِ رَهِيب
ولكنها الدنيا؛ ولكنه القضا
وهذا لعَمري مثلُ تلك غريب
فكمْ شَقِيتْ في ذي الحياة فضائلٌ
وكم نعِمتْ في ذي الحياة عيوب
وكمْ شيمٍ حسناءَ عاشتْ كأنها
مساوئُ يُخشَى شرُّها وذنوب

****

٤ - الضفادع والنجوم

[الرمل]

صـــاحتِ الـضّـفـدعُ لـمّـا شـاهـدتْ
حـولَـهـا في المـاء أظلالَ الـنـجـومْ:

«يـا رفـاقي يـا جـنـودي احـتـشـدوا
عـبَـرَ الأعـداءُ في الـلـيل الـتُّـخـوم

فـاطـردوهمْ واطـردوا الـلـيلَ مـعـاً
إنه مـثـلُـهمُ بـاغٍ أثـيـم»

زعـقـةٌ سـار صـداهـا في الـدجى
فـإذا الـشطُّ شـخـوصٌ وجُـسُـوم

في أديم المـاء من أصـواتِـهـا
رعـدَةُ الحِـمى وفي الـلـيل وجُـوم

مـزَّقَ الـفـجـرُ جلابـيـبَ الـدجى
ومـحـا من صـفـحـةِ الأرض الـرُّسـوم

فـمـشتْ في سِـربِـهـا مـخـتـالـةً
كـمَـلـيكٍ ظـافـرٍ بـين قُـروم[1]

ثم قـالتْ: لـكمُ الـبـشـرَى ولِيْ
قـد نجـونـا الآن من كـيـدٍ عـظـيم

نـحن لـو لم نـقـهـرِ الـشُّـهبَ الـتي
هـاجَـمـتْـنـا لأذاقـتـنـا الحُـتـوم

---

(١) جمع (قَرْم) وهو السيد .

وأقــــامتْ بـــــعـــدَنـــا من أرضــــنـــا

في نـــعـــيمٍ لم تجـــدْه في الـــغـــيــوم

أيـــهـــا الـــتـــاريخُ ســـجِّلْ أنـــنـــا

أمَّـــةً قـــد غـــلَـــبتْ حـــتى الـــنـــجـــوم

****

٥ ـ السماء

[الخفيف]

لا تَسلْني عن السَّماءِ فما عنْـ
ـديَ إلا النعوتُ والأسماءُ
هيَ شيءٌ، وبعضُ شيءٍ، وحيناً
كلُّ شيءٍ، وعند قومٍ هَباء

✡✡✡✡✡

فسماءُ الراعي كما يتَمنَّا
ها مروجٌ فسيحةٌ خضراء
تلبسُ التِّبرَ مئزراً ووشاحاً
كلّما أشرقتْ وغابتْ ذُكَاء
أبداً في نضارةٍ، لا يجفُّ الْـ
ـعشبُ فيها، ولا يغيضُ الماء

✡✡✡✡✡

وهيَ عندَ الأمّ التي اخترمَ المو
تُ بنيها، وضلَّ عنها العزاء
موضعٌ لا ينالُهمْ فيه ضَيْمٌ
لا ولا يُدرِكَ الشَّبابَ الفناء
وكذا يُولدُ الرجاءُ من اليَأْ
سِ إذا مات في القلوب الرجاء

✡✡✡✡✡

وهيَ عند الفقيرِ أرضٌ وراءَ الْـ
أُفقِ؛ فيها ما يشتهي الفقراء

لا يخافُ المُثْرِيْ، ولا كلبُه الضَّا
ري؛ ولا لامرئٍ به استهزاء
وهي عند المظلومِ أرضٌ كهذى الْ
أرضُ لكنْ قد شاعَ فيها الإخاء
يجمعُ العدلُ أهلَها في نظامٍ
مثلما يجمعُ الخيوطَ الرداء
لا ضعيفٌ مستعبَدٌ، لا قويٌّ
مُستبدٌ، بل كلُّهمْ أكفاء
كلُّ شيءٍ للكلّ مُلْكٌ حلالٌ
كلُّ شيءٍ فيها كما الكلُّ شاؤوا

☆☆☆☆☆

وهْيَ عند الخليعِ أرضٌ تميسُ الْ
حورُ فيها، وتَدفُقُ الصَّهباءَ
كلُّ ما النفْسِ تشتيه مُباحٌ
لا صدودٌ، لا جفوةٌ، لا إباء
أكبرُ الإثمِ قولةُ المرءِ هذا الْ
أمرُ إثمٌ، وهذه فحشاء
ليس بين الصَّلاح والشرِّ حدٌّ
كالذي شاء وضعَهُ الأنبياء
وإذا لم يكنْ عفافٌ وفِسْقٌ
لم تكن حِشمَةٌ ولا استحياء

☆☆☆☆☆

كلُّ قلبٍ له السماءُ الذي يَهْـ
ـوَى، وإن شئتَ كلُّ قلبٍ سماء
صُوَرٌ في نفوسِنا كائناتٌ
ترتديها الأفعالُ والأشياء

رُبَّ شيءٍ كـــالجــوهــرِ الـــفَـــرْدِ فـــذٍّ
عـــــــدَّدتـهُ الأغـــــــراضُ والأهـــــــواء
كلُّ مـــا تـــقْـــصُـــرُ المـــدارِكُ عـــنه
كـــائنٌ مـــثـــلـــمـــا الـــظـــنـــونُ تـــشـــاء

****

٦ - بردّي يا سحب!

[المديد]

رَضِيَتْ نفسي بقسمَتِها
فَلْيُراوِدْ غيريَ الشُّهُبا

كلُّ نجمٍ لا اهتداءَ به
لا أُبَالي: لاحَ أو غَرُبَا

كلُّ نهرٍ لا ارتواءَ به
لا أُبَالي: سال أو نَضَبا

ما غدٌ - يا مَن يُصوِّرُه
ليَ شيئاً رائعاً عجَبا

ما له عينٌ ولا أثرٌ
هو كالأمسِ الذي ذهبا

اسقني الصَّهباءَ إنْ حضرتْ
ثمّ صِفْ لِي الكأسَ والحَبَبا

ليس يَرويني مقالُك لي:
«أنها العقيانُ[1] منسكِبَا»

إنَّ صدقًا لا أحسُّ به
هو شيءٌ يشبهُ الكَذِبا

لا يُنجِّي الشَّاةَ من سغَبٍ:
أنّ في أرضِ السُّها[2] عَشَبا

---

(١) الذهب الخالص .

(٢) كوكب خفيّ، يريد: السماء بنجومها .

مـــا عـــلـى مَـن لا يَـــطـــيقُ يـــرى
نـــورَّ الـــوادي أو اكْـــتَـــأَبـــا
مـــا يــفـــيـــدُ الـــطَّــيـــرَ في قـــفصٍ
ضـــاقَ هـــذا الجـــوٌّ أو رَحِـــبَـــا

✡✡✡✡

بـــرِّدي يـــا ســـحبُ مِن ظـــمَـــئي
واهـــطُـــلـي مِن بـــعـــد ذا ذَهَـــبـــا
أو فَـــكُـــوني - غـــيـــرَ راحِـــمَـــةٍ -
حِـــمَـــمـــاً حـــمـــراءَ لا سُـــحُـــبـــا
ولأكنْ وحـــدي لـــهـــا هـــدفـــاً
ولـــتـــكنْ نـــفـــسي لـــهـــا حَـــطَـــبـــا
أنـــا من قـــومٍ إذا حَـــزِنـــوا
وجـــدوا في حُـــزنِـــهمْ طَـــرَبـــا
وإذا مـــا غـــايـــةٌ صَـــعُـــبَتْ
هـــوَّنُـــوا بـــالـــتَّـــركِ مـــا صَـــعُـــبَـــا

✱✱✱✱

٧ ـ العَيْرُ المتنكر

[الكامل]

زَعمَ المــــؤدِّبُ أنَّ عَـــيْـــراً[1] ســـاءَهُ
ألاَّ يُــــســـــارَ به إلى المــــيــــدانِ

فــمــضى فــقــصَّــرتِ الــقــواطعُ ذيـلَهُ
وســطَتْ مَــواضــيــهــا عــلى الآذان

حــتى إذا جــاء المــروِّضُ واعــتــلَى
مَــتْــنَــيْهِ رابَ الــفــارسُ الــكَــشْــحَــانَ[2]

لــكــنه مــا زالَ غــيــرَ مُــصــدِّقٍ
حــتى علا صــوتٌ كــصــوتِ الجــان

فــاســتلَّ صــارمَهُ فــطــاحَ بــرأسهِ
ورمى بــجــثــتــه إلى الــغِــرْبــان

مــادام يــصــحبُ كلَّ حيٍ صــوتُهُ
هــيــهاتَ يُــخــفي الــعَيْــرَ جِلدُ حــصان

✱✱✱✱

(١) الحمار الوحشي والأهلي .
(٢) الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي.

٨. تعالَي

[الهزج]

تعالَيْ نتعاطاها كَلونِ التِّبرِ أو أسْطَعْ
ونسقي النَّرجسَ الواشي بقايا الراحِ في الكاسِ
فلا يعرفُ من نحن ولا يُبصِرُ(*) ما نَصنعْ
ولا ينقلُ عند الصُّبحِ نجوانا إلى الناسِ

✡✡✡✡

تعالَيْ نسرقُ اللذاتِ ما ساعفنا الدهرُ
وما دمنا وما دامتْ لَنا في العيشِ آمالُ
فإنْ مرّ بنا الفجرُ وما أوقظنا الفجرُ
فما يوقظنا عِلمٌ ولا يوقظنا مالُ

✡✡✡✡

تعالَيْ نطلقُ الروحينِ من سجنِ التقاليد
فهذي زهرةُ الوادي تذيعُ العطرَ في الوادي
وهذا الطيرُ تيّاهٌ فخورٌ بالأغاريد
فَمَن ذا عنَّفَ الزهرةَ أو مَن وبّخَ الشَّادي ؟

✡✡✡✡

أرادَ اللهُ أن نعشقَ لمّا أوجدَ الحُسْنا
وألقى الحبَّ في قلبكِ إذ ألقاهُ في قلبي
مشيئتُهُ.. وما كانت مشيئتُهُ بلا معنى
فإنْ أحببتِ ما ذنبُكِ أو أحببتُ ما ذنبي ؟

✡✡✡✡

(*) في النسخة التي أرسلها د. عبدالكريم الأشتر، وردت [ولا يبصُّ] وشرحها في الهامش بقوله: بصّ، لمع، حملها هنا معنى رأى أو كشف (كما هي في دارجة مصر). ولكن بهذه الكلمة ينكسر الوزن. ولعل الصواب ما أثبتناه

دعي اللاحي وما صنَّفَ والقالي[1] وبهتانَهْ
وللجدولِ أن يجري، وللزهرة أن تعبقْ،
وللأطيارِ أن تشتاقَ أياراً وألوانَهْ،
وما للقلبِ، وهو القلب، أن يهوى وأن يعشَقْ؟

✡✡✡✡✡

تعالَيْ إنَّ رَبَّ الحبِّ يدعونا إلى الغابِ
لكي يمزجنا كالماء والخمرةِ في كاسِ
ويغدو النورُ جلبابَكِ في الغابِ وجِلْبابي
فكم نُصغي إلى الناس ونعصي خالقَ الناسِ!

✡✡✡✡✡

يريد الحبُّ أن نضحَكَ، فلنضحكْ مع الفجرِ
وأن نركضَ، فلنركضْ مع الجدولِ والنَّهرِ
وأنْ نهتفَ، فلنتهفْ معَ البلبلِ والقُمْري[2]
فمَن يعلَمُ بعد اليومِ ما يحدثُ أو يجري؟

✡✡✡✡✡

تعالَيْ قَبلَما تسكتُ في الروضِ الشَّحاريرُ
ويذوي الحَورُ والصفصافُ والنّرجسُ والآسُ
تعالى قبلما تطمرُ أحلامي الأعاصيرُ
فنستيقظُ لا فجرٌ، ولا خمرٌ، ولا كاسُ

****

(١) قلاه : أبغضه .
(٢) طير أبيض (أقمر – قمر قمري).

٩ - ريح الشمال

[المتقارب]

سألتُ وقدْ مرَّتِ الشَّمألُ
تنوحُ وآونَةً تُعْوِلُ
إلى أيُّما غايةٍ تركضينَ
أَلا مستقرٌ؟ ألا مَوئلُ؟
وكم تَعْولينَ وكم تصرخينَ
كعصفورةٍ راعها الأجْدَلِ؟[1]
لقد طرحَ الغصنُ أوراقَهُ
مِن الذُّعرِ واضْطَربَ الجدول
وضلَّ الطريقَ إلى عشِه
فهامَ على وجهِه البلبل
وغطى السُّهى وجهَهُ بالغَمامِ
كما ينزوي الخائفُ الأعْزَلَ
وكادتْ تخرُّ لديكِ الهضابُ
وتركضُ قدَّامكِ الأجبُل

✡✡✡✡✡

أبنتَ الفضاءِ أضاقَ الفضاءُ
فأنتِ إلى غيرِه أمْيَلُ؟
أَغاظَكِ أن الدَّجى لا يزولُ
وأن الكواكبَ لا تَأفلُ

---

(١) الصقر.

أتبكينَ آمالَكِ الضّائعات
هل الريحُ مثْلُ الورى تأمل
أيعدو وراءكِ جيشٌ كثيفٌ
أَمثلكِ يرهبُهُ الجَحفَل
وما فيكِ عضوٌ ولا مفصلٌ
فتقطعُ أوصالَكِ الأنصُل
فجَاوَبني هاتفٌ في الظلام :
غلطتَ فما هذه الشَّمْأَل
ولكنها أنفُسُ الغابرينَ
تجوسُ الديارَ ولا تنزل
فقلتُ: أينهضُ مَن في القبورِ
وفوقهمُ التُّربُ والجَندل؟
أجابَ الصّدى ضاحكاً ساخراً:
إلى كم تحارُ وكم تسال ؟
وترفعُ عينيكَ نحوَ السماءِ
وليستْ تُبالي ولا تَحفَل
منَ البحرِ تصعدُ هذي الغيوثُ
وتَهطلُ في البحر إذْ تهطِل
وفي الجوِّ إنْ خفيتْ نسمةٌ
وفي الأرض إن نَضَبَ المنهَل

✲✲✲✲✲

لقد كان في أمسِ ما قَبْله
وفي غَدِه يومُكَ المُقبِل
عجبتُ لباكٍ على أوّلٍ
وفي الآخِرِ النائحُ الأول

✲✲✲✲✲

هــمُ فــي الـــشَّـــرابِ الـــذي نـــحـــتـــسـي
وهُــمْ فـي الـــطـــعـــامِ الـــذي نـــأكـل
وهُـمْ فـي الـــهـــواء الـــذي حـــولـــنـــا
وفــي مـــا نـــقـــولُ ومـــا نـــفـــعَـل
فَـــمَـن حـــسِـبَ الـــعـــيشَ دنـــيـــا وأخـــرى
فـــــذا رجـلٌ عـــــقـــــلـــه أحـــــول

****

١٠ - الحجر الصغير

[الخفيف]

سَـمِعَ الـلـيلُ ذو الـنُّـجـومِ أنـيـنـاً
وهـو يـغـشى المـديـنـةَ الـبـيـضـاءَ

فـانـحـنَى فـوقَـهـا كـمـسـتَـرِقِ الـهَـمْـ
ـسِ يـطـيلُ الـسـكـوتَ والإصـغـاء

فـرأى أهـلَـهـا نـيـامـاً كـأهل الْـ
ـكَـهفِ لا جَـلْـبـةً ولا ضـوضـاء

ورأى الـسـدَّ خـلـفَـهـا مُـحـكَمَ البنْـ
ـيان والمـاءَ يُـشـبـهُ الـصـحـراء

كـانَ ذاكَ الأنـينُ من حَـجَـرٍ في الـسْـ
ـسَـدِّ يـشـكـو المـقـادرَ الـعـمـيـاء

أيُّ شـأنٍ يـقـول في الـكـونِ شـأني
لـستُ شـيـئـاً فـيه ولـستُ هـبـاء

لا رخـامٌ أنـا فـأنـحتَ تِـمـثـا
لاً ولا صـخـرةٌ تـكـونُ بـنـاء

لـست أرضـاً فـأرشفُ المـاءَ أو مَـا
ءً فـأروي الـحـدائقَ الـغـنَّـاء

لـستُ درّاً تُـنـافسُ الـغـادةُ الحَـسْـ
ـنـاءُ فـيه المـلـيـحـةَ الحـسـنـاء

لا أنـا دمـعـةٌ ولا أنـا عـينٌ
لـستُ خـالاً أو وجـنـةً حـمـراء

حَــجَــرٌ أغــيــرُ أنــا وحــقــيــرٌ
لا جـمـالاً لا حـكـمـةً لا مَـضَـاء

فَلأغــادرْ هــذا الــوجــودَ وأمــضِي
بــسلامٍ، إنـي كــرهتُ الــبــقــاء

وهــوَى من مـكــانِه؛ وهــو يــشــكــو الْـ
أرضَ والــشُّــهبَ والــدجى والــسَّــمـاء

فـتحَ الـفـجـرُ جـفـنَهُ... فـإذا الـطّـو
فَـانُ يـغـشى «المـديـنـةَ الـبـيـضـاء»

****

١١ - الطين

[الخفيف]

نسيَ الطينُ - ساعةً - أنه طيـ
ـنٌ حقيرٌ فصَالَ تِيهَاً وعَربَدْ

وكسا الخزُّ جسمَهُ فتباهَى
وحوى المالَ كيسُهُ فتَمرَّد

يا أخي. لا تَمِلْ بوجهكَ عني،
مَا أنا فحمةٌ ولا أنت فَرْقَد

أنتَ لم تَصنعِ الحريرَ الذي تَلْـ
ـبَسُ واللؤلؤَ الذي تتَقلَّد

أنت لا تأكلُ النُّضَارَ إذا جُعْـ
ـتَ ولا تشربُ الجُمانَ المُنضَّد

أنتَ في البردةِ الموشَّاةِ مثلي
في كِسائي الرَّديمِ تشقَى وتسعَد

لكَ في عالَمِ النهارِ أمَانٍ،
ورؤًى، والظلامُ فوقكَ ممتَد

ولقلبي كما لقلبكَ أحْلا
مُ حسانٌ، فإنهُ غيرُ جَلْمَد

✲✲✲✲✲

أأمانيَّ كلُّها من ترابٍ
وأمانيك كلّها من عَسجَد؟

وأمانيَّ كلُّها للتلاشي
وأمانيكَ للخلودِ المؤكَّد !؟

لا. فــهــذي وتــلـك تــأتي وتــمــضِي
كَــذَويــهــا. وأيّ شيءٍ سَــرمَــد ؟
أيُّــهــا الــمُــزدهي.. إذا مَــسَّك الــسُّقْـ
ـمُ ألاّ تــشــتــكي ؟ ألا تــتــنــهَّــد ؟
وإذا راعكَ الحــبــيبُ بــهــجــرٍ
ودعَــتْك الــذكــرى ألا تــتَــوجَّــد؟[1]
أنتَ مــثــلي يــبشُّ وجــهُكَ لــلــنُّــعْـ
ـمَى وفي حــالــةِ المــصــيــبــةِ يَكــمَد
أَدمــوعي خَلٌ ودمــعُكَ شــهــدٌ؟
وبــكــائي ذُلٌّ ونــوحُكَ سُــؤْدد ؟
وابــتــســامي الــسَّرابُ لا ريَّ فــيه ؟
وابــتــســامــاتُكَ الــلآلِئُ خُــرَّد؟[2]
فَــلَكٌ واحــدٌ يُــظلُّ كِــلَــيْــنــا
حــارَ طــرفي به وطــرفُكَ أرمَــد[3]
قــمَــرٌ واحــدٌ يُــطِلُّ عــلــيــنــا
وعــلى الــكوخِ والــبــنــاءِ الــمُــوطَّــد
إن يــكنْ مــشــرقــاً لــعــيــنــيكَ إني
لا أراهُ مِن كُــوَّةِ الــكــوخِ أســود
الــنــجــومُ الــتي تــراهــا أراهــا
حــينَ تــخْــفَى، وعــنــدمــا تَــتَــوقَّــد
لــستَ أدنى عــلى غــنــاك إلــيــهــا
وأنــا مَــعْ خَــصَــاصــتي[4] لــستُ أبــعَــد

✡✡✡✡✡

(١) من الوجد.
(٢) اللؤلؤ قبل أن يثقب (الخريدة).
(٣) من الرمد: أرمد ورمداء.
(٤) الفقر.

أنتَ مــثــلي مِن الــثَّــرى وإلــيهِ

فـلـمـاذا يـا صـاحـبي الـتـيهُ والـصَّد

كـنتَ طـفلاً إذ كـنتُ طـفلاً، وتـغـدو

حـين أغـدو شـيـخـاً كـبـيـراً أدْرَد[١]

لــستُ أدري من أين جـئتُ ولا مـا

كـنتُ، أو مـا أكـونُ يـا صـاحِ في غَـد

أفــتَــدري؟ إذنْ فــخــبِّــرْ، وإلا

فــلــمــاذا تــظُنُّ أنكَ أوحَــد؟

☆☆☆☆☆

ألكَ الـقـصـرُ دونَهُ الحـرسُ الـشَّـا

كِي ومن حـوله الجـدارُ المـشـيَّـد

فـامـنعِ الـلـيلَ أن يَـمُـدَّ رِواقًـا

فـوقَهُ؛ والـضَّـبـابَ أن يـتـلـبَّـد

وانـظـرِ الـنـورَ كـيف يـدخلُ لا يَـطْـ

ـلُبُ إذنـاً، فـمـا له لـيس يُـطـرَد ؟

مَـرقَـدٌ واحـدٌ نـصـيـبُكَ مـنهُ

أفـتـدري كم فـيك لـلـذَّرِّ مَـرقَـد ؟

ذُدتَـني عـنه، والـعـواصفُ تـعـدو

في طِلابـي والجـوُّ أقـتمُ أرْبَـد[٢]

بـيـنـمـا الـكـلبُ واجـدٌ فـيه مـأوًى

وطـعـامـاً، والـهـرُّ كـالـكـلب يُـرفـد

فـسـمـعتُ الحـيـاةَ تـضـحـكُ مـني

أتَـرَجّى، ومـنكَ تـأبى وتَـجـحَـد؟

☆☆☆☆☆

(١) من ليس في فمه سنّ (والأنثى : درداء) .

أَلكَ الـروضـةُ الجـمـيـلـةُ فـيـهـا الْـ
ـمـاءُ والـطـيـرُ والأزاهـرُ والـنَّـدْ؟

فـازجُـرِ الـريحَ أن تـهـزَّ وتـلـوي
شـجـرَ الـروض - إنه يـتـأوَّد

والْـجُمِ المـاءَ في الـغـديـرِ ومُـرْهُ
لا يُـصَـفِّقْ إلا وأنت بِـمَـشـهَـد

إنَّ طـيـرَ الأراكِ[1] لـيس يُـبـالي
أنت أصـغـيتَ أم أنـا إن غَـرَّد

والأزاهـيـرُ لـيس تـسـخـرُ مِن فـقـ
ـري ولا فـيكَ لـلـغِـنَى تـتـودَّد

✡✡✡✡✡

أَلكَ الـنـهـرُ؟ إنه لـلـنـسـيمِ الـرْ
ـرَطْب دربٌ ولـلـعـصـافـيـرِ مَـوْرِد

وهْـوَ لـلـشُّـهبِ تـسـتـحِمُّ به في الـصْ
ـصَـيفِ لـيلاً كـأنـهـا تـتـبَـرَّد

تَـدَّعـيه فـهلْ بـأمـرِكَ يـجـري
في عُـروقِ الأشـجـار أو يـتـجـعَّـد

كـان من قَـبْلِ أن تجيءَ، وتـمـضي
وهْـوَ بـاقٍ في الأرض لـلـجَـزْرِ والـمَـد

✡✡✡✡✡

أَلكَ الحـقلُ؟ هـذه الـنـحلُ تجـني الـشْ
ـشَـهـدَ من زهـرِهِ ولا تـتـردَّد

وأرى لـلـنِّـمـالِ مُـلـكـاً كـبـيـراً
قـد بَـنـتهُ بـالـكَـدْحِ فـيه وبـالـكَـد

(١) شجر طيب الرائحة، تتخذ منه المساويك .

أنتَ في شرعِها دخيلٌ على الحَقْ

لِ ولصٌّ جنى عليها فأفسَد

لو ملكتَ الحقولَ في الأرضِ طُرّاً

لم تكن من فراشةِ الحقلِ أسعَد

أَجَميلٌ؟ ما أنت أبهى من الورْ

دَةِ ذات الشَّذا، ولا أنت أجوَد

أمْ عزيزٌ؟ وللبَعوضةِ من خَدْ

دَيْكَ قُوتٌ وفي يديكَ المُهنّد

أمْ غنيٌّ؟ هيهاتَ تختالُ لولا

دودةُ القَزِّ بالقَباءِ المُبجّد

أمْ قويٌّ؟ إذنْ مُرِ النومَ إذ يَغْ

شَاكَ والليلَ عن جفونِكَ يَرْتَد

وامنعِ الشَّيبَ أن يُلِمَّ بِفَوْدَيْ

كَ ومُرْ تلبَثِ النضارةُ في الخَد

أَعليمٌ؟ فما الخيالُ الذي يَطْ

رُقُ ليلاً؟ في أيِّ دنيا يُولَّد؟

ما الحياةُ التي تَبين وتَخفَى؟

ما الزَّمانُ الذي يُذَمُّ ويُحمَد؟

أيها الطينُ لستَ أنقى وأسمى

مِن ترابٍ تدوسُ أو تتوسَّد

سُدْتَ أو لم تَسُدْ فما أنت إلا

حيوانٌ مُسيَّرٌ مُستعبَد!!

إنَّ قصراً سَمكْتَهُ سوف يندكْ

كُ وثوبًا حَبكْتَهُ سوف يَنقَد[1]

(١) قدّه : قطعه .

لا يــكُنْ لــلــخــصــام قــلــبُكَ مــأوًى

إنّ قــلــبي لــلــحبِّ أصــبح مَــعْــبَــد

أنـــا أولى بـــالحبِّ مـــنكَ وأحـــرى

مِن كِـســاءٍ يَــبْــلَى ومــالٍ يَــنْــفَــد!

****

١٢- التينة الحمقاء

[البسيط]

وتــيــنــةٍ غــضَّــةِ الأفــنــانِ بــاســقــةٍ

قــالت لا تــرابِــهــا، والــصَّــيفُ يُــحــتَــضَــرُ:

«بــئسَ الــقــضــاءُ الــذي في الأرض أوجــدَنــي

عــنــدي الــجــمــالُ وغــيــري عــنــدَه الــنَّــظَــر»

«لأَحْــبِــسَــنَّ عــلــى نــفــســي عــوارفَــهــا

فــلا يــبــيــنُ لــهــا فــي غــيــرِهــا أثــر»

«كم ذا أُكــلِّــفُ نــفــســي فــوقَ طــاقــتِــهــا

ولــيــس لــي بلْ لــغــيــري الــفــيءُ والــثَّــمــر»

«لــذي الــجــنــاحِ وذي الأظــفــارِ بــي وَطَــرٌ

ولــيــس فــي الــعــيــش لــي فــيــمــا أرى وَطَــرُ»

«إنــي مُــفــصَّــلــةٌ ظِــلِّــي عــلــى جــســدي

فــلا يــكــونُ بــه طــولٌ ولا قِــصَــر»

«ولــســتُ مــثــمــرةً إلا عــلــى ثِــقــةٍ

أنْ لــيــس يَــطــرقُــنــي طــيــرٌ ولا بــشَــر»

✡✡✡✡✡

عــاد الــربــيــعُ إلــى الــدنــيــا بــمــوكــبِــهِ

فــازَّيــنــتْ واكــتــســتْ بــالــسُّــنــدُسِ الــشَّــجــرُ

وظلَّتِ التينةُ الحمقاءُ عاريةً

كأنها وتِدٌ في الأرضِ أو حَجر

ولم يُطِقْ صاحبُ البستانِ رؤيتَها

فاجتثَّها فهَوتْ في النارِ تستَعِر

مَن ليس يسخو بما تَسخو الحياةُ به

فإنه أحمقٌ بالحِرْصِ يَنتحِر

****

١٣ . في القفر

[الخفيف]

سَئِمتْ نفسِيَ الحياةَ معَ النَّا
سِ، ومَلّتْ حتى من الأحْبَابِ
وتمشَّتْ فيها الملالةُ حتى
ضجِرتْ من طعامِهِمْ والشَّراب
ومنَ الكِذْبِ لا بِسَاً بُرْدَةَ الصِّدْ
قِ وهذا مُسَرْبَلاً بالكِذاب
ومِن القُبحِ في نقابٍ جميلٍ
ومن الحُسنِ تحت ألف نِقَاب
ومِن العابدينَ كلَّ إلهٍ
ومن الكافرينَ بالأرباب
ومنَ الواقفينَ كالأنصَابِ
ومنَ السَّاجدينَ للأنصَاب
ومن الراكبينَ خيلَ المعالي
ومن الراكبينَ خيلَ التَّصَابي
والألى يصمُتُونَ صَمْتَ الأفاعي
والألَى يَهزِجُونَ هزْجَ الذُّباب
صغُرتْ حكمةُ الشيوخِ لديها
واستخفَّتْ بكل ما للشباب
قالتِ: اخْرُجْ من المدينةِ للقَفْ
رِ ففيه النجاةُ من أوصَابي

✡✡✡✡✡

ولكَ الـلـيلُ راهـبي، وشـمـوعي الـشْـ
ـشُـهْبُ؛ والأرضُ كـلُّـهـا مِـحـرابي
وكـتـابي الـفـضـاءُ اقـرأُ فـيه
سُـوَراً مـا قـرأتُـهـا في كـتـاب
وصلاتي الـذي تـقـول الـسَّـواقي
وغـنـائي صـوتُ الـصَّـبَـا في الـغـاب
وكـؤوسي الأوراقُ ألـقتْ عـلـيـهـا الـشْـ
ـشَمسُ ذَوْبَ الـنُّضَـار عـنـدَ الـغِـيـاب
ورحـيـقي مـا سـال من مُـقـلـةِ الـفـجْـ
ـرِ عـلى الـعـشْبِ كـالـلُّـجـينِ الـمُـذاب
ولْـتُـكَـحِّلْ يـدُ الـمـسـاء جـفـوني
وَلْـتُـعـانقْ أحلامُـه أهـدابي
ولْـيُـقـبِّلْ فمُ الـصَّـبـاحِ جَـبـيـني
وَلْـيُـعـطِّـرْ أريـجُه جِـلـبـابي
وَلأَكُنْ كـالـغُـراب: رزقـيَ في الحـقْـ
ـلِ وفي الـسَّـفحِ مـجْـثَـمي واضـطـرابي
سـاعـةٌ في الخلاء خـيـرٌ من الأعْـ
ـوامِ تُـقـضَـى في الـقـصـرِ، والأحـقـابِ

✡✡✡✡

يـا لَـنَـفْـسي فـإنـهـا فَـتَـنَـتْـني
بـالـحـديثِ الـمـنـمَّقِ الخلاَّب
فـإذا بي أَقـلي[1] الـقـصـورَ وسُـكْـنـا
هـا وأهلَ الـقـصـورِ ذاتِ الـقِـبـاب
فـهـجـرتُ الـعـمـرانَ تـنـفضُ كـفيِّ
عَـن ردائـي غـبـارَهُ وإهـابي

---

(١) قلاه – يقليه قلىً: أبغضه.

وتـــــركتُ الحِـــمَى وسِـــــرتُ وإيّـــا

هـــا وقـــدْ ذهَّبَ الأصـــيلُ الـــرَّوابي

نـهـتـدي بـالـضـحى فـإن عَـسْـعَسَ الـلـيـ

ـلُ جـعـلـنـا الـدلـيلَ ضـوءَ الـشِّـهـاب

وقـضَـيـنـا في الـغـاب وقـتـاً جـمـيلاً

في جـوارِ الــغُـدرانِ والأعــشـــاب

تـــــارةً في مُـلاءةٍ مـن شُـــــعـــــاعٍ

تـــــارةً في مـلاءةٍ من ضَــــبــــاب

تــارةً كــالـنـسـيم نمـرحُ في الــوا

دي، وطـوراً كـالجـدولِ الـمُـنـسَـابِ

في سـفـوحِ الـهـضـابِ والـظلُّ فـيـهـا

ومعَ الـنُّـورِ وهْـو فـوقَ الـهـضـاب

إنمـــا نــفــسيَ الــتي مـلّت الـعُـمْ

ـرَانَ مـلّتْ في الـغـاب صـمْتَ الـغـاب

فـــأنـــا فـيـه مـســتــقلٌّ طـلـيـقٌ

وكــــــأنـي أدِبٌّ فـي سِـــــــرداب

☼☼☼☼

عـلَّـمـتـني الحـيـاةُ في الـقَـفْـرِ أني

أيـنـمـا كـنتُ - سـاكنٌ في الـتُّـراب

وسـأبـقى مـا دمتُ في قـفصِ الـصَّـلْـ

ـصالِ عـبدَ الـمُنى أسـيـرَ الـرِّغَـاب

خِـلْتُ أني في الـقَـفـر أصـبحتُ وحـدي

فـإذا الــنـاسُ كـلُّـهمْ في ثـيـابي

****

١٤ - التمثال

[الطويل]

مِنَ المرمَرِ المسْنونِ صاغوا مِثالَهُ
وطافوا به من كلِّ ناحيَةٍ زُمَرْ

وقالوا: صنعناهُ لتخليدِ رسمِهِ
فقلتُ: ألا يفنى كما فَنيَ الأثَرْ؟

وقالوا: نصَبْناه اعترافاً بفضلِهِ
فقلتُ: إذنْ من يعرفِ الفضلَ للحجَرِ؟

وقالوا: غنيٌّ كان يسخو بماله
فقلت لهم: هل كان أسخى من المطر؟

وقالوا: قويٌّ عاش يحمي ذِمارَنا
فقلتُ لهم: هل كان أقوى من القَدَرِ؟

أكانَ غنياً أم قويّاً فإنه
بمالِكُمُ استغنَى وقوتِكمْ ظفر

فَلَمْ يتَعشقْكمْ ولا همتمْ به
كما خلتمُ، لكنه النفعُ والضَّرَرَ

ولم ترفعوا التمثالَ للبأسِ والنَّدَى
ولكنْ لضَعْفٍ في نفوسكمُ اسْتَتَر

فَلستمْ تحبون الغنيَّ إذا افتقرْ
ولستمْ تحبونَ القويَّ إذا اندحر

رأيتكمُ لا تعرُجونَ بروضةٍ
إذا لم يكنْ في الروضِ فيءٌ ولا ثمر

ولا تَـعْـلِـفـون الـشـاةَ إلا لِـتَـسْـمَـنـوا

ولا تَـقْـتَـنـونَ الخـيلَ إلا عـلى سَـفَـر

إذا كـان حبُّ الـفـضـلِ لـلـفـضـلِ شـأنـكمْ

ولم تُخطِئوا في الحسِّ والسَّمعِ والبَصَر

فـمـا بـالـكُمْ لم تُـكرمـوا الـلـيل والـضُّحَى؟

ولم تَـنصبـوا الـتِّمـثالَ لـلـشمسِ والقـمر؟

****

١٥ - المساء

[مجزوء الكامل]

السُّحبُ تركضُ في الفضاءِ الرَّحبِ ركضَ الخائفينْ
والشمسُ تبدو خلْفَها صفراءَ عاصبَةَ الجبينْ
والبحرُ ساجٍ صامتٌ فيه خشوعُ الزاهدينْ
لكنَّما عيناكِ باهتتانِ في الأفقِ البعيدْ
سلمى!... بماذا تُفَكْرينْ؟
سلمى!... بماذا تَحْلَمينْ؟

✡✡✡✡✡

أرأيتِ أحلامَ الطفولةِ تختفي خلفَ التُّخومْ؟
أم أبصرَتْ عيناكِ أشباحَ الكهولةِ في الغيومْ؟
أم خفْتِ أن يأتي الدّجى الجاني ولا تأتي النجومْ؟
أنا لا أرى ما تَلْمحينَ من المشاهدِ إنّما
أظلالُها في ناظريكِ
تَنِمُّ يا سلمى عليكِ

✡✡✡✡✡

إني أراكِ كسائحٍ في القَفْرِ ضلَّ عن الطريقْ
يرجو صديقاً في الفلاةِ، وأين في القَفْرِ الصَّديقْ
يهوى البروقَ وضوءَها ويخافُ تخدعُه البروقْ
بل أنتِ أعظمُ حيرةً من فارسٍ تحت القَتامْ[1]
لا يستطيعُ الانتصارْ
ولا يطيقُ الانكسارْ

✡✡✡✡✡

---

(١) الغبار.

هــذي الــهــواجِسُ لم تــكن مــرســومــةً في مــقــلَــتــيْكِ
فــلــقــدْ رأيــتُك في الــضّــحى ورأيــتُه في وجــنَــتــيْكِ
لــكنْ وجــدتُك في المــســاء وضَــعتِ رأسكِ في يــديكِ
وجلــستِ في عــيــنــيكِ ألــغــازٌ وفي الــنــفسِ اكــتــئــابْ
مــثلُ اكــتــئــابِ الــعــاشــقــينْ
ســلــمى... بمــاذا تــفْــكــرينْ؟

✲✲✲✲✲

بــالأرضِ كــيف هــوتْ عــروشُ الــنــور عن هــضــبــاتِــهــا؟
أمْ بــالمــروجِ الخُــضْــرِ ســادَ الــصــمتُ في جــنــبــاتِــهــا؟
أم بــالــعــصــافــيــرِ الــتي تــعــدو إلى وُكُــنــاتِــهَــا؟
أم بــالمــســا ؟ إنَّ المــســا يُــخــفي المــدائنَ كــالــقــرى
والــكــوخَ كــالــقَــصــرِ المــكــينْ
والــشَّــوكَ مــثلَ الــيــاســمــينْ

✲✲✲✲✲

لا فــرقَ عــنــد الــلــيل بــين الــنــهــرِ والمــســتــنــقَعِ
يــخــفي ابــتــسَــامــاتِ الــطــروبِ كــأدمُعِ المــتــوجِّعِ
إنَّ الجــمــالَ يــغــيبُ مــثلُ الــقــبحِ تحت الــبُــرقع
لــكنْ لمــاذا تجــزعــينَ عــلى الــنــهــارِ ولــلــدُّجى
أحــلامُــهُ ورغــائــبــهْ
وســمــاؤُهُ وكــواكــبُهْ

✲✲✲✲✲

إن كــان قــد ســتــرَ الــبلادَ ســهــولَــهــا ووعــورَهَــا
لم يــســلُبِ الــزَّهــرَ الأريجَ ولا المــيــاهَ خــريــرَهَــا
كلا. ولا مَــنعَ الــنَّــســائمَ في الــفــضــاء مــســيــرَهَــا
مــا زالَ في الــورقِ الحــفــيفَ وفي الــصَّــبَــا أنــفــاسَــهَــا

والــــعـــــنـــــدلـــــيبِ صُـــــداحَةُ
لا ظــــــفـــــرَةُ وجـــــنـــــاحَـةُ

✡✡✡✡✡

فــاصـــغَيْ إلى صــوتِ الجـداولِ جـاريـاتٍ في الـسـفـوحْ
واسـتـنـشـقي الأزهـارَ في الجـنَّـاتِ مـا دامتْ تـفـوحْ
وتـمـتَّـعي بـالـشُـهْبِ في الأفلاكِ مـا دامتْ تـلـوحْ
مِن قَـبْلِ أن يـأتي زمـانٌ كـالـضَّـبـابِ أو الـدخـانْ
لا تـبـصـرينَ به الـغـديـرْ
ولا يَـلَـذُّ لكِ الخـريـرْ

✡✡✡✡✡

لـتـكُنْ حـيـاتُكِ كـلُّـهـا أملاً جـمـيلاً طـيِّـبَـا
ولْـتـملأِ الأحلامُ نـفـسَكِ في الـكـهـولـةِ والـصِّـبـا
مـثلَ الـكـواكب في الـسـمـاء وكـالأزاهـرِ في الـرُّبـا
لـيـكنْ بـأمـرِ الحبِّ قـلـبُكِ عـالَـمـاً في ذاتهِ
أزهـــــارُه لا تـــــذبُـلُ
ونجـــــومُـهُ لا تـــــأفُـلُ

✡✡✡✡✡

مـات الـنـهـارُ ابنُ الـصـبـاحِ فلا تـقـولي كـيف مـاتْ
إن الـتَّـأملَ في الحـيـاة يـزيـدُ أوجـاعَ الحـيـاةْ
فـدعي الـكـآبـةَ والأسى واسـترجـعي مـرَحَ الـفـتـاةْ
قـد كـان وجـهُكِ في الـضـحى مـثلَ الـضـحى مـتـهـلّلا
فـيه الـبـشـاشـةُ والـبـهـاءْ
لـيـكنْ كـذلكَ في المـسـاءْ

****

١٦ - الكمنجة المحطمة

[الكامل]

شـــاهــدتُــهــا كــالمــيْتِ في أكــفــانه

فَــوجَــمــتُ إلا عَــبْــرةً أُذريــهــا

مــهــجــورةً كــســفــيــنــةٍ مَــنــبــوذةٍ

في الــشَّطِ غــابَ وراءَهُ مــاضــيــهــا

نــسَجتْ علــيــهــا الــعنكبوتُ خيــوطَهَا

وكــســا الــغــبــارُ غُلالــةً تــكــســوهــا

أقــوَتْ وبــانتْ كــالمــســامعِ بــعــدَهــا

لا شيءَ يُــطــربُــهَــا ولا يَــشْــجِــيــهــا

وكــأنــهــا في صَــمــتــهــا مــشــدوهــةٌ

ألاَّ تــرى بــهُــتَــافِــهَــا مَــشْــدوهــا

لا حسَّ في أوتــارهـــا، لا شـــوقَ في

أضلاعِــهــا، لا حُــسْنَ في بــاقــيــهــا

فــارزحْ بــحــزنِكَ يــا حــزينُ فــإنــهــا

لا تــنــشــرُ الــشــكــوى ولا تــطــويــهــا

وإذا انــقــضــى عــهــدُ الــتــعــلُّلِ بــالمنى

فــالــنــفسُ يَــشْــفــيــهــا الــذي يُــرديــهــا

✡✡✡✡✡

لـــلــهِ عـــهْـــدٌ مَـــرَّ لي في ظـــلِّـــهـــا

أبــكــي عـــلـــيــه وتـــارةً أبـــكـــيــهـــا

كانتْ كأن ضلوعَها موصولةٌ
بأضالعي، وسرائري في فِيها
كم مَرَّةً حامتْ غرابيبُ[1] الأسى
لِتُقيتَ من قلبي الجريحِ بَنيهَا
فإذا الأغاريدُ اللطيفةُ دونَها
سُورٌ يصونُ حُشاشَتي ويقيها
كم هزّني الشَّدوُ الرخيمُ فساقطتْ
نفسي هُموماً أوشكتْ تُبليها
فإذا أنا مثلُ البنفسجةِ التي
ذَبُلتْ فباكَرَها الندى يُحييها
ولكمْ سمعتُ خفوقَ أجنحةِ المنى
وحفيفَهَا في نغمةٍ توحيها
فسكرتُ حتى ما أعي، سُكْرَ امرئٍ
بالخمرِ أترعَ كأسَهُ ساقيها
ورأيتُني في جنةٍ سحريّةٍ
لا يرتوي من حُسنِها رائيها
ولمحتُ أحلامَ الشبابِ مواكباً
تَترَى أمامي، والهوى حاديها
سِرُّ السعادةِ في الرؤى إن الرؤى
لا كفَّ تُثبتُها ولا تمحُوها

(١) شديدة السواد .

ولكمْ سمعتُ دبيبَ أشباحِ الأسى
عند المسا في أنّةٍ تُزجِيها
فذكرتُ ثَمّ محاسناً تحت الثرى
غابتْ وشوَّهَها البِلَى تشويها
فإذا أنا كالسِّنديانةِ شوّشتْ
أغصانَها الريحُ التي تَلويها
أو كالسفينةِ في الضَّبابِ طريقَها
ضلّتْ، وغابتْ أنجمٌ تَهديها
شَهِدَ الدُّجى والفجرُ أني جازعٌ
لسكُوتها جزعَ الغَديرِ أخيها
ما إن سمعتُ أنينَهُ ونشيجَهُ
إلا ويعرو النفسَ ما يَعْرُوها
روّى الثَّرى يا ليتَ روحيَ في الثرى
أو في النباتِ لعلَّهُ يُرويها
يا صاحبيَّ وفي حنايا أضلعي
همٌّ يكُظُّ الروحَ بل يُدميها
إن التي نقلتْ حكاياتِ الهوى
لم يبقَ غيرُ حكايةٍ تَرويها
كمدينةٍ دَكَّ القضاءُ صروحَها
دكّاً، وكفّن بالسكوتِ ذويها
نُعِيَتْ فَريعَ الفجرُ وارتعشَ الدُّجى،
ما كان أهونَها على ناعِيها

لا تـعـجـبـا فـي الـغـاب من نَـوْحِ الـصَّـبَـا
وعَـويـلِـهـا إنّ الـصَّـبـا تَـرثـيـهـا
لـو تـسـمـعـانِ نجـيَّـهـا مـتـمـشـيـاً
كـالـسِّـحـرِ فـي الأرواحِ يَـسْـتَـهـويـهـا
لَـعَـلِـمْـتُـمـا أن الـقـضـاءَ اغـتـالـهـا
كَـيلا تـبـوحَ بـكـلِّ سـرٍّ فـيـهـا

****

١٧ - زهرة أقحوان

[مجزوء الرمل]

كـــان في صـــدرِيَ ســـرٌّ كـــامِنٌ كـــالأُفـــعـــوانِ
أتـــــوقّـــــاهُ وأخـــــشى أن يـــــراهُ من يـــــراني
وإذا لاحَ أمـــامـي عَـــقَلَ الـــذُّعـــرُ لـــســـاني
فـــكـــأني عـــنـــدَ بـــحـــرٍ هـــائجٍ أو بُـــرّكـــان[١]
لـم أخَـــفْهُ غـــيـــرَ أني خـــفتُ أبـــنـــاءَ الـــزمـــان
ولـــكَم فَـــانٍ نـــظـــيـــري خـــافَ قـــبـــليَ بـــطشَ فَـــانِ

☆☆☆☆☆

لم يَـسَعْ سـرِّي فـؤادي، لم تـسَعْ نـفـسي المـعـاني
فـقـصـدتُ الـغـابَ وحـدي والـدجى مُـلْـقى الجِـران[٢]
ودفـــنتُ الـــســـرَّ فـــيه مـــثـــلـــمـــا يَـــدفنُ جَـــان
ورأى الـــلـــيلُ قـــتـــيـــلي فـــبـــكـــاهُ وبـــكـــاني
إنَّ لـــلـــيلِ دمـــوعـــاً لا تـــراهـــا مُـــقـــلـــتـــان

☆☆☆☆☆

كـــنتُ حـــتى معْ ضَـــمـــيـــري أمس في حـــربٍ عَـــوانِ
فـــانـــقـــضَى عـــهـــدُ الـــتَّـجـــافي وأتى عـــهـــدُ الـــتَّـداني
خُـــدِّرَتْ روحي فـــأمـــسَى شـــأنُ جُلِّ الخَـــلْقِ شـــاني
لا أرى في الخـــمـــر مـــعـــنًى، ولـــكَمْ فـــيـــهـــا مـــعـــانِ!
فـــكـــأني آلـــة الـــعـــاصـــرِ أو إحـــدى الأواني
لم يَـــعُـــدْ قـــلـــبيَ كـــالـــبـــرقِ شـــديـــدَ الخَـــفـــقَـــان

---

(١) التشديد لضبط الوزن .
(٢) مقدم عنق البعير، يمده على الأرض فيقال : ألقى جرانه بالأرض .

لم تَعُدْ نفسيَ كالنجمة ذاتِ اللمعان
بتُّ لا أبكي لمظلومٍ ولا حُرٍّ مُهَان
لا ولا أحفِلُ بالباكي ولو ذو صَولجَان
صِرتُ كالصَّخرِ، سواءٌ هادمٌ عندي وبانِ !

☆☆☆☆

يَالأَمَانيَّ الغَوالي! يا لأحلامِي الحِسَانِ!
طوَتِ الغابةُ سرِّي فانطوتْ مَعْه الأماني
ضاعَ لمّا ضاعَ شيءٌ من كياني، بل كياني
في صباحٍ مستطيرٍ كصباحِ المِهرجَان
لَبِسَتْ فيه الروابي حُلّةً من أُرجوان
وتَبدّى الغابُ من أوراقه في طيلسان
ساقني روحٌ خفيٌّ نحوَ ذيَّاك المكان
فإذا بالسِّرِّ أضحَى زهرةً من أُقحوان!

****

١٨ - الأسرار

[الكامل]

يــا لــيــتَــنــي لصٌّ لأســرُقَ في الــضُّــحَــى
ســرَّ الــلَّــطــافــةِ في الــنَّــســيــمِ الــسَّــاري

وأجسَّ مــؤتَــلِــقَ الجــمــالِ بــإصــبــعي
فــي زرقــةِ الأُفــق الجــمــيــلِ الــعــاري

ويــبــيــنَ لي كُــنْــهُ الــمــهَــابــةِ في الــرُّبــا
والــســرُّ في جــذَلِ الــغــديــرِ الجــاري

والــسِّــحــرُ في الألــوانِ والأنــغــام والْــ
أنــــداءِ والأشْــــذاءِ والأزهــــار

وبــشَــاشــةُ المــرجِ الخــصــيــبِ ووحــشــةُ الْــ
ــوادي الــكــئــيــبِ وصــولــةُ الــتَّــيــار

وإذا الــــدُّجــى أرخــى عــــلــيَّ سُــــدولَهُ
أدركــتُ مــــا فــي الـــلــيــلِ من أســـرار

فــلــكَمْ نــظــرتُ إلى الجــمــالِ فَــخِــلْــتُهُ
أدنى إلى بـــصــــري من الأشــــفَــــار[١]

فـــطـــلَـــبـــتُهُ فَـــإذِ الـــمَـــغـــالقُ دونَهُ
وإذا هــــنــــالكَ ألفُ ألفِ ســــتــــار

بـــادٍ ويـــعـــجِـــزُ خـــاطـــري إدراكَهُ
وا فِــتْــنَــتي بـــالــظــاهـــرِ المـــتَــواري!

****

---

(١) شُفُر العين : حرف الجفن الذي ينبت عليه الهدب .

١٩ - العميان

[الخفيف]

كَمْ خفَضْنا الجناحَ للجاهلينا
وعَذرناهمُ فمَا عذَرونا
خبِّروهُمْ يا أيها العاقلونا
إنَّما نحنُ معشرَ الشُّعراءِ
يتجلَّى سرُّ النبوَّةِ فينا

✡✡✡✡✡

ذكّروهُمْ فرُبَّ خيرٍ كبيرِ
فعَلَتْهُ الهُداةُ بالتَّذكيرِ
إنما الناسُ من ترابٍ ونورِ
فَبَنو النورِ يعبدونَ النُّورا
وبنو الطينِ يعبدون الطِّينا

✡✡✡✡✡

قيلَ عنَّا قُصُورنا من هباءِ
تتلاشى في صَحوةٍ ومساءِ
أو سطورٌ بالماء فوقَ الماءِ
لو سكَنتمْ قصورَنا بعضَ ساعهْ
لَنسيتمْ شهورَكُمْ والسِّنينا

✡✡✡✡✡

لو دخلتُمْ هياكلَ الإلهامِ
وسرحتُمْ في عالمِ الأحلامِ
واجْتليتُمْ سرَّ الخيالِ السَّامي

وعــرفــتُمْ كـمــا عــرَفــنــا الــلهَ
لخــررتُمْ أمــامــنــا ســاجــديــنــا

✡✡✡✡✡

قـد سَـقـتْـنـا الـحـيـاةُ كـأسـاً دهـاقـا
حــسُــنتْ نــكــهــةً، وطــابت مَــذاقــا
وسَــقَــيْــنَــا مما شــربْــنَــا الــرِّفــاقــا
فــتــركــنــاهُمُ حــيــارى سُــكــارى
يــتــمــنَّــونَ أنــهمْ لا يَــعــونــا

✡✡✡✡✡

هَــمُّــكُمْ في الــكــؤوسِ والأكــوابِ
آه لــو كــان هَــمُّــكُمْ في الــشــرابِ
لــطَــرحــتمْ عــنــكمْ قــيــودَ الــتُّــرابِ
وشــعــرتُمْ بــلــذَّةٍ أو عــذابِ
هــذه الخــمــرُ لــيــتــكُمْ تــشــربــونــا!

✡✡✡✡✡

أتــقــولــونَ: إنه مــجــنــونٌ!
أتــقــولــونَ: إنه مــفــتــونٌ!
أتــقــولــونَ: شــاعــرٌ مــســكــينٌ!
كم مــلــيكٍ، كم قــائــدٍ، كم وزيــرِ
ودَّ لــو كــان شــاعــراً مــســكــيــنــا

✡✡✡✡✡

عــاش «مِــلــتــن» فــلم يــكنْ مــذكــورا
و«هــومــيــروسُ» «كالــشــيخ» كــان ضــريــرا
ولــقــد مــاتَ «ابن بُــرد» فــقــيــرا
أرأيــتمْ كــمــا رأى الــعــمــيــانُ؟
أفــلــســتمْ بــنــورهِمْ تَــهــتَــدونــا ؟

****

٢٠ - الزمان

[الكامل]

يمــشي الــزَّمــانُ بمَنْ تــرقّبَ حــاجــةً
مُــتَــثــاقلاً كــالخــائفِ المــتــردِّدِ

حــتى لــيحــسَبَهُ أسـيـرًا مُـوثَـقـاً
ويــراهُ أبــطــأَ من كــسِــيحٍ مُــقــعَــد

ويــخــالُ حــاجــتَهُ الــتي يــصبــو لــهــا
في دارة الجــوزاءِ أو في الــفَــرْقــد

ويــكــونُ مــا يــرجــوهُ زَوْرَةَ صــاحبٍ
ويــكــونُ أبــعــدَ مــا يُــرجِّي في غــد

✡✡✡✡✡

فــإذا تــولَّى الــنفسَ خــوفٌ في الــضــحى
من واقبٍ[1] تحت الــدجى أو مــعــتَــدِ

طــارتْ بــهــا خَــيْلُ الــزمــانِ ونُــوقُهُ
نــحــو الــزمــانِ المــدلَــهمِّ الأســود

فــكــأنــهــا مــحــمــولــةٌ في بــارقٍ
أو عــارضٍ أو عــاصفٍ في فَــدْفَــد[2]

✡✡✡✡✡

ويــكــونُ أقــصــرَ مــا يــكــونُ، إذا الــفــتى

(١) داخل (وقب : دخل).
(٢) الأرض الواسعة المستوية .

مَــدَّتْ لـه الـــدنــيـــا يــدَ المــتــودَّد

فــتــوسّطَ الــلَّــذاتَ غــيــرَ مُــنــفَّــرٍ

وتـــوسَّـــدَ الأحـلامَ غــيـــرَ مـــنـــكَّـــد

فــإذا لــذيــذُ الـعـيشِ نُـغـبـةَ طـائـرٍ

وإذا طــويلُ الـــدهـــرِ خــطــرةَ مِــرْود

✡✡✡✡✡

وإذا الـــفـــتى لَــبِسَ الأسى ومــشـى به

فــكــأنمـــا قــد قــال لـــلـــزمنِ اقْـعُــدِ

فــإذا الـــثــواني أشــهــرٌ، وإذا الــدَّقــا

ئقُ أعــصُــرٌ، والحــزنُ شيءٌ سَــرمــدي

وإذا صـــبـــاحُ أخي الأسى أو لـــيـــلُهُ

مـــتـــجـــددٌ مع هــمِّـهِ المـــتـــجـــدِّد

قـــهَـــرَ الـــوَرى وأذلَّـــهمْ أنَّ الـــورى

مـــتـــعـــللٌ أو طـــامعٌ أو مُـــجـــتَـــدِ

جـعــلـوا رغــائـبَـهُمْ قــيــاسَ زمـانــهمْ

والــدهــرُ أكـبـرُ أن يــقــاسَ بمـقْـصِـدِ

وقــتــلـتُ في نــفــسي الــرغــائبَ والمــنى

فــقـــهـــرتُه بـــتَـــجَـــرُّدي وتـــزهُّـــدي

يـشـكـو الـذي تـشـكـو الـسُّـهـادَ جـفـونُه

لـــو لم يــكن ذا نـــاظـــرٍ لم يــسْـــهَـــد

إنْ كـــان شـيءٌ لـــلـــنـــفـــادِ أعـــدَّهُ

في مـــا انـقـضَـى ومـضـى، وإن لم يـنـفَـد

مـــا إن رأيتُ الـكُـحلَ في حَـدَقِ الـمَـهـا

إلا لمحتُ الـــسّودَ خـــلــف الإثـــمِـــد

من لـــيس يــضــحكُ والــصــبــاحُ مُـورِّدٌ

سـيّـانِ أحلامٌ أراهـا فـي الـكـرى
لم يـكـتـئبْ والـصـبحُ غـيـرُ مُـورِّدِ

أنـا فـي الـزمـانِ كـمـوجـةٍ فـي زاخـرٍ
عـنـدي، وأشـيـاءٌ بـهـا اشـتـملتْ يـدي

مـهـمـا تلاطمَ فـهـوَ لـيس بمُـغْـرقِي
أنـا فـيه إنْ يُـزبِـدْ وإنْ لم يُـزبـد

هـيـهـاتَ مـا أرجـو ولا أخـشـى غـداً
أو مُـخْـرِجي مـنـه ولا بمُـبَـدِّدي

والأمسُ فيَّ فـكـيفَ أحـسَـبُهُ انـتـهى
هل ارتجي وأخـافُ مـا لم يـوجِـد

قـبْلُ كـبَـعْـدٍ حـالـةٌ وهـمـيّـةٌ
أفـمـا رأيتُ الأصلَ في الـفـرْعِ الـنَّـدِي؟

أمـسـي أنـا، يـومي أنـا، وأنـا غـدي

****

٢١ - اليتيم

[الخفيف]

خـــبِّـــروني مـــاذا رأيـــتمْ ؟ أأطـــفـــا
لاً يـــتـــامـى أمْ مـــوكـــبـــا عَـــلَـــويَّـــا

كـــزهـــورِ الـــربـــيـعِ عَـــرْفـــاً زكـــيَّـــاً
ونجـــومِ الـــربـــيعِ نُـــوراً ســـنـــيّـــا

والـــفـــراشـــاتِ وثـــبـــةً وســـكـــونـــاً
والـــعـــصـــافـــيـــرِ بل ألـــذُّ نجـــيّـــا

إنـــنـي كـــلـــمـــا تـــأمَّـــلتُ طـــفلاً
خـــلتُ أني أرى ملاكـــاً ســـويّـــا

قل لمن يـــبـــصـــرُ الـــضَّـــبـــابَ كـــثـــيـفـاً
إن تحت الـــضَّـــبـــاب فـــجـــراً نـــقـــيّـــا

الـــيـــتـــيـمُ الـــذي يـــلـــوحُ زريّـــاً
لـــيس شـــيـــئـــاً، لـــو تـــعـــلـــمونَ، زريّـــا

إنَّهُ غـــرسَـــةٌ سَـــتُـــطْـــلِـعُ يـــومـــاً
ثـــمـــراً طـــيـــبـــاً وزهـــراً جـــنـــيّـــاً

ربمـــا كـــان أودعَ الـــلـــهُ فـــيـــه
فـــيـــلـــسوفـــاً، أو شـــاعـــراً، أو نـــبـــيّـــا

لم يـــكنْ كلُّ عـــبـــقـــريٍّ يـــتـــيـــمـــاً
إنمـــا كـــان كـــالـــيـــتـــيـمِ صـــبـــيّـــا

لـــيس يـــدري لـــكـــنه ســـوف يـــدري
أن ربَّ الأيـــتـــامِ مـــا زال حـــيّـــا

عـنـدمـا يـصـبـحُ الـصـغـيـرُ فـتـيّـاً
عـنـدمـا يـلـبسُ الـشّـبـابُ حُـلـيّـا
كلُّ نجمٍ يـــكـــونُ، من قَـــبِل أن يَـــبْـ
ــدو سـديمـاً، عن الـعـيـون خـفـيّـا
إنْ يكُ المـــوتُ قـــد مـــضى بـــأبـــيه
مـا مـضى بـالـشـعـور فـيك وفـيّـا
وشـــقـــاءٌ يُـــولِّـــد الـــرفقَ فـــيــنـــا
لَـــهُـوَ الخـيُـر بـالـشـقـاء تَـزيّـا
لا تـــقـــولـــوا مَن أمُّهُ ؟ مَن أبـــوه ؟
فـــأبـــوهُ وأمـّهُ ســـــوريّـــــا
فـــأعـــيـــنـــوه كي يـــعـــيشَ ويـــنـــمـــو
نـاعمَ الـبـالِ في الحـيـاة رضـيّـا
رُبَّ ذهنٍ مـــثلَ الـــنـــهـــارِ مُـــنـــيـــرٍ
صـار بـالـبـؤس كـالـظلامِ دَجِـيّـا
كم أثـــيمٍ في الـــســـجنِ لـــو أدركـــتْهُ
رحـمـةُ الـلـهِ كـان حُـرّاً سَـرِيّـا
حـارِبـوا الـبـؤسَ في الـصِّغـار صـغـاراً
قـبل أن يـسـتـبـد فـيـهـم قـويّـا
كـــلُّـــهمْ ذلك الجـــريحُ المـــلـــقّى
فـلـنكنْ كـلـنـا الـفـتى «الـسّـامِـريّـا»[1]

****

(١) قصته في القرآن الكريم (سورة طه، الآيات : ٨٥ وما بعدها). وهو الذي أخرج لقوم موسى العجل الذهبي بعد خروجهم من مصر.

٢٢ - المجنون

[مختلط]

أطـار عـني الـنـومَ صـوتٌ في الـدَّجى
كـأنـه دمـدمـةُ الـشَّلالِ
يـصـرخُ والـريحُ تـردِّدُ الـصَّدى
في أذْنِ الـفـضـاء والـتِّلال
يـا لـيلُ قفْ هـنـيـهَـةً قُـبَـالي
تـرى الـبَـرايـا وأرى الـلـيـالي
أنـا الـشَّـادي، أنـا الـبـاكي،
أنـا الـعـاري، أنـا الـكـاسي
أنـا الخـمـرة والـدَّنُّ
أنـا الـسَّـاقي، أنـا الحـاسي

✡✡✡✡✡

خـلـعتُ ثـوبـاً لم تـفـصِّـلْهُ يـدي
وهـمـتُ في الـوادي بلا سـربـال
وخـلْـتُـنِي انـطـلـقتُ من سَلاسـلِي
وخَـلُـصتْ ذاتـي من الأوحـال
فـلـم أزلْ أرسـفُ فـي أغـلالـي
ولـم أزل في حـنـدسِ الـمُـحـالِ
فـمـا أبـكي من الـغُـرْبَـ
ـة عن جـارٍ وعن خَـدَن
فـقـد يـرجعُ جـيـراني
وتُـنـفَى غُـرْبَـتي عَـنِّي

✡✡✡✡✡

عــرفتُ في الــنــهــارِ كلَّ مُــقــبلٍ
ومُــدبــرٍ، ومــا عــرفتُ حــالي
واسْـتَـتَـرتْ عـني الـسـهـولُ والـرُّبـا
تحت الـدُّجى، والـبـحـرُ ذو الأهـوالِ
لـكـنَّـمـا لم تـسـتـتـرْ آمـالـي
عـنـي ولا نـقـصي ولا كـمـالـي
ولا ضـعـفي ولا عـزمـي
ولا قُـبـحي ولا حـسـنـي
فـكم أهـربُ من نـفـسـي
ومـا لـي مـهـربٌ مـنـي

✡✡✡✡✡

فـقـلتُ: من هـذا ؟ فـقـال صَـحـبي:
مُـوَسْـوَسٌ يـهـذي من الخـيـال
يـأوي إلـى الأدغـال في نـهـارِه
كـأنه جـزءٌ من الأدغَـال
وفـي الـدُّجى له صـراخٌ عـالِ
كـأنه والـليلَ في نـضـالِ
كـأنَّ الـلـيلَ يـوثِـقُهُ
بـأغـلالٍ وأمـراسِ
ويـضـربُ جـسـمَهُ الـعـاري
بـسَـوطِ الـظـالم الـقـاسي

✡✡✡✡✡

مـا إنْ رآه أحـدٌ إلا رآ
هُ شـاخصَ الـطَّـرفِ إلى الأعـالي

كـأنمـا يـرقبُ ركْـبَـاً صـاعـداً

أو هـابـطـاً ولـيس غـيـرَ الآلِ[1]

كـأنمـا يـخـشى عـلى الـهلالِ

وسـائـرِ الـشُّـهبِ من الـزوال

فـصـاحَ الـصـوتُ : مـا أرجـوه

في نـفـسي ومـا أحـذَرْ

فـمـهـمـا رحُـبَ الأفقُ

فـنـفـسي الأفقُ الأكـبَـرْ

✡✡✡✡✡

لـيس جلالُ الـلـيلِ مـا أدهـشـني

وإنمـا أدهـشـني جَلالي

ولا جـمـالُ الـشُّـهب مـا حَـيّـرني

وإنمـا حـيَّـرني جـمـالي

إن كـان بي شَـوقٌ إلى وِصَـالِ

فـإنمـا شـوقي إلى خـيـالي

تـوشَّـحتُ الـضُّـحى والـلـيـ

ـلَ في أُنْـسِي وفي حـزني

فـمـا زاد الـدّجى خـوفي

ولا زاد الـضّـحى أمـني

✡✡✡✡✡

لم أهـجـرِ الـنـاسَ فـأصـنـافُ الـورى

من الـسَّلاطـينِ إلى المـوالي

إلى ذوي الـعـلـم إلى أهل الـغـنى

من واصلٍ وهـاجـرٍ وسـالِ

---

(١) السراب .

وحـــــاضــــرٍ وســـــابــقٍ وتــــــالِ

في قــبــضــتي «الـــيــمــنى» بلا جـدالِ

تــلاق الأحــــــمــقُ الجَــــــاهِــ

ـلُ والــــــعــــــالِمُ فـي كــــــفّي

ومَـــن كـــــــــــــان لــه إلْــفٌ

ومَــن كـــــــــــــان بــلا إلْــف

✡✡✡✡

وفي يــدي «الــشِّــمَــالُ» أشــكــالُ المــنى

وصـــــوَرُ الــــيــــقــــينِ والـــضَّلالِ

وكلُّ مـــــا لـــــعـــــاقلٍ أو جــــاهلٍ

مَـن لــــــذَّةٍ أو ألـمٍ قَـــــتَّــــــالِ

وســــائـــــرُ الأمــــورِ والأحــــوالِ

وكلُّ شـيء قـــــال شــــخصٌ: ذا لـي

وكـــــان الـــــلـــــيلُ قـــــد أزمـ

ـعَ أن يـــــحــــدو مـــــطــــايـــــاهُ

فـــــســــاد الــــصَّـــمتُ في الـــوادي

كـــــأن المـــــوتَ يـــــغــــشــــاهُ

✡✡✡✡

فــســرتُ، والــفــجــرُ دلـيلٌ، بــاحــثـاً

في الـــغـــابِ والـــسّــفــوحِ والـــتلال

فـــلـم أجــدْ غــيــرَ صــريعٍ هـــامــدٍ

مـــنـــطـــرحٍ في جـــانبِ الـــشَّلال

«لا شيء» في قـــبــضــتـهِ الــشِّـــمـــالِ

ولـيس في الـيُـمـنى سـوى «صَـلْـصَـال»!

****

٢٣ - قطرة الطلّ

[مجزوء الرمل]

إنْ تـــرَ زهـــرةَ وردٍ، فـــوقَـــهـــا لـــلـــطلّ قـــطـــرَهْ

فـــتـــأمَّـــلْـــهـــا كـــلَـــغْـــزٍ غـــامضٍ تَـــجـــهلُ ســـرَّه

ولـــتـــكنْ عـــيـــنُكَ كـــفّـــاً، ولـــيـــكُنْ لَـــمـــسُكَ نـــظـــرَهْ

لـــيـــست الـــحـــمـــراءُ جِـــمـــرَهْ؛ لا ولا الـــبـــيـــضـــاءُ دُرَّه

✡✡✡✡✡

رُبَّ روحٍ مـــثلِ روحي عـــافت الـــدنـــيـــا الـــمُـــضـــيـــرَّه

فـــارتـــقتْ في الجـــوّ تـــبـــغي مـــنـــزلاً فـــوق الـــمَـــجـــرَّه

علّـــهـــا تحـــيـــا قـــلـــيلاً في الـــفـــضـــاء الحـــر حُـــرَّه

ذَرفَـــتْـــهـــا مُـــقـــلـــةُ الـــظـــلـــمـــاءِ عـــنـــد الـــفـــجـــرِ قـــطـــرَه

****

٢٤ - نار القرى[١]

[الكامل]

رُوحي الـــتي بـــالأمس كـــانت تـــرتَعُ
في الــغــاب مِـثلَ الـظـبـيَـةِ الـقَـمـراءِ
تـقـتَـاتُ بـالـثـمـرِ الجـنـيِّ فـتـشـبعُ
ويـــبُلُّ غُـــلَّـــتـــهـــا رشـــاشُ المـــاء
نـــظـــرتْ إلـــيك فـــأصـــبـحت لا تـــقـــنعُ
بـــالمـــاء والأفـــيـــاء في الـــغَـــبـــراء
تُصـــغِي وتُـــنصتُ، والحـــمـــامـــةُ تـــسجَعُ
إصـــغَـــاؤهـــا لك لـــيس لـــلـــورْقَـــاء
نـــاديـــتَـــهـــا فـــلَـــهـــا إلـــيك تَـــطـــلُّعُ
هـــذا الـــتَّـــطـــلـــعُ كـــان أصلَ شـــقـــائي
جَـنَّـحْـتَـني كَـيـمـا أطـيـرَ فـلم أطـرْ
هـــيـــهـــاتَ إنك قـــد طـــويتَ ســـمـــائي

✲✲✲✲✲

قـد كـان يَـسْـبـيـني الجـمـالُ الـرائعُ
حـتى لـمَـحْـتُكِ فـهْـوَ لا يَـسْـبـيـني
عـصَـفتْ بـصـدري لـلـيـقـين زوابعُ
ثـــلَّتْ عُـــروشَ تـــوهـــمـي وظـــنـــوني
فـــأنـــا عـــلى مـــا ضـــاعَ مـــنيَ جـــازعُ
إن الـــذي قـــد ضـــاعَ جِـــدُّ ثـــمـــين

---

(١) رمز، في الشعر القديم، لمواطن الوحي وضوئه، تعشو إليه الأنظار .

لـولاكِ مـا مـات الخـيـالُ الـيـافعُ
أفـتـعْـجَـبـينَ إذا كـرهتُ يـقـيـني

هـذا صَـنـيـعُكِ بي، فـمـا أنـا صـانعُ
قـد شـاء بـحـرُكِ أن تَـضلَّ سَـفـيـني

جَـرَّدْتِ هـذا الـطـينَ من أوهـامِهِ
وكَـبـِـرتِ عن قـارورةٍ من طـين

✡✡✡✡✡

كـيف الـوصـولُ إلـيكِ يـا نـارَ الـقـرى
أنـا في الحـضـيضِ وأنتِ في الجـوزاء

لي ألفُ بـاصـرةٍ تَـحنُّ كـمـا تـرى
لـكنّ دونَكِ ألفُ ألفِ غِـطـاء

لـو مِن ثـرىً، مـزَّقـتُـهـا بـيـدِ الـثَّـرى
لـكـنـهـا سـجْفٌ من الأضـواء

سـاءلتُ قـلـبي إذ رأى فـتـحـيَّـرا
مـاذا شـربتَ فـمِـدْتَ ؟ قـال : دمـائي

يـا لـيـتَهُ قـد ظلَّ أعـمى كـالـورى
فـلـقـدْ نـعـمتُ، وكـان في ظـلـمـاء

قـد شَـوَّشتْ كفُّ الـنـهـارِ سَـكِـيـنـتي
يـا هـذه رُدّي إلـيَّ مـسـائي

✡✡✡✡✡

أمـسـيتُ حـينَ لَـمـسْـتـني بـيـديكِ
لي ألفُ بـاصـرةٍ وألفُ جـنـاحِ

ولمحتُ نـار الـوحي في عـيـنـيكِ
والـوحيُ كـان سُلافـةَ الأرواح

فـنـشَـرْتُ أجـنـحـتي وحَـمتُ عـلـيكِ
مـتـوهِّـمـاً أني وجـدتُ صـبـاحي

قــد كـــان حَــتـفـي في الــدُّنّــو إلــيكِ
حَــتْفَ الــفــراشــةِ في فمِ المــصــبـاح
فــســقــطتُ مــرتــعــشــاً عــلى قــدمــيكِ
الـــنـــارُ مَـــهــدي والـــدخـــانُ وشَـــاحي
يــا لــيتَ نــوركِ حــين أحــرقــني انــطــوى
فــعــلى ضــيــائكِ قــد لــستُ جــراحي

****

٢٥ - ابن الليل

[مجزوء الرمل]

أشرفَ البدرُ على الغابة في إحدى الليالي
فرأى الثعلبَ يمشي خِلْسةً بين الدوالي
كلّما لاحَ خيالٌ خافَ من ذاكَ الخَيالِ
واقْشَعرَّا

ورأى لَيثاً هَصُوراً واقفاً عند الغديرْ
كلما استشعرَ حسّاً ملأَ الوادي زئيرْ
فإذا بالماء يجري خائفاً عند الصخورْ
مُكْفهرَّا

ورأى البدرَ ابنُ آوى يتهادَى في الفضاءْ
كمَليكٍ حولَهُ الشُّهبُ جنودٌ وإمَاء
قالَ: لو كنتُ رفيقَ البدرِ، أو بدرَ السَّماء
أو خيالَهْ

عِشْتُ حُرّاً جيرتي الشُّهْبُ، ولي الظلماءُ مركبْ
آمناً، ألعبُ بالبرقِ وطوراً بيَ يلعبْ
لا أبالي سطوةَ الراعي ولا الكلبَ المجرَّبْ
وصيالَهْ

غيرَ أنَّ الليثَ لما أبصرَ البدرَ الضَّحُوكا
قال: يا ابنَ الليلِ مهما أشتهي لا اشْتَهيكا
أنت وضَّاحٌ ولكنْ قاحلٌ لا صَيدَ فِيكا
أو حيالَكْ

لكَ هـذا، الأُفق لـكنْ هـو أيـضـاً لـلـكـواكبْ
إنمـا لـو كـنتَ لَـيـثـاً ذا نـيـوبٍ ومـخَـالبْ
لم تـعِشْ في وجـهكَ الـوضَّـاحِ ألحـاظُ الـثـعـالبْ
صُن جـمـالكْ

****

٢٦ - أنا

[الكامل]

حُـــرٌ ومـــذهَبُ كلِّ حُـــرٍّ مـــذهـــبي
مـــا كـنتُ بـالـغـاوي ولا المـتـعـصِّبِ
إني لأغـــضبُ لـــلـكـريم يـنـوشُهُ
مَن دونَـهُ وألـــومُ مَن لم يـــغـــضَب
وأُحبُّ كلَّ مـــهـــذبٍ ولـــو أنهُ
خـصـمي، وأرحم كلَّ غـيـرِ مـهـذب
يـــأبَى فـــؤادي أن يمـــيلَ إلى الأذى
حُبُّ الأذيـــةِ من طِـبـاعِ الـعـقـرب
لِيَ أن أردَّ مَـــســـاءةً بمَـــســـاءةٍ
لـــو أنـــني أرضَى بـبـرقٍ خُـلَّب
حـسبُ المـسـيءِ شـعـورُهُ، ومـقـالُهُ
في ســرِّهِ: يـــا لـــيـتَـني لم أذنب

✡✡✡✡✡

أنـا لا تـغـشُّـني الـطَّـيـالسُ والحُـلى
كم في الـطَّـيـالـيسِ من سـقـيمٍ أجْـربِ
عـــيـــنـــاكَ من أثـــوابـهِ في جـنَّـةٍ
ويـــداكَ من أخلاقـه في سَـــبْـــسَب
وإذا بـصُـرتَ بـه بـصـرتَ بـأشـمطٍ
وإذا تُـحَـدِثُه تـكَـشَّفَ عن صـبي

إنـي إذا نــزلَ الــبَلاءُ بــصــاحــبي

دافـعتُ عـنه بـنَـاجِـذِي[1]وبمــخـلـبي

وشـددتُ سـاعِـدَهُ الـضـعـيفَ بـسـاعـدي

وسـتـرتُ مـنـكِـبَهُ الـعُـريَّ بمَـنـكـبي

وأرى مــســاوئَـهُ كــأنـيَ لا أرى

وأرى مــحــاســنَهُ وإنْ لـم تُـكــتَب

وألــومُ نــفــسـي قَـبْـلَهُ إن أخـطَـأتْ

وإذا أســاء إلـيَّ لـم أتــعــتَّب

مُـتـقــرِّب من صــاحـبي، فــإذا مـشَتْ

في عِـطـفِه الـغُـلَـواء[2] لم أتـقَـرَّب

أنــا من ضـمـيـري سـاكنٌ في مـعـقِلٍ

أنـــا من خَلالِي[3] ســائـــرٌ في مَـوكب

فـــإذا رآنـي ذو الـــغــبـــاوةِ دونَهُ

فـكـمــا يـرى في المــاء ظلَّ الـكـوكب

****

(١) السنّ بين الناب والأضراس (الجمع : نواجذ) .

(٢) الغُلَواء : الغلوّ والشطط .

(٣) الخَلّة : الخَصلة، من صفات الناس .

٢٧ - الإله الثرثار

[الخفيف]

زعمَ المـــــرءُ أنَّــــمـــــا هُـــوَ رَبٌّ
كم يـــلـــوك الـــكلامَ هـــذا الإلهُ!
يـلـفظُ الـبـحـرُ، وهـو مـلحٌ أُجـاجٌ
لـؤلـؤاً يـبـهـر الـعـيـونَ سـنـاه
مـــا ادَّعى الـــدرُّ أنه صـــورةُ الـــبَـحْـ
ـــرِ ولا قـــالَ: إنـــني إيَّــــاه
لا ولا قـــــــال كلُّ شيءٍ إلى المحْـ
ـو ومـا خُصَّ بـالخـلـودِ سِواه
إنْ تـكنْ لـلـخـلـودِ ذاتُكَ في الـدّنْـ
ـيـا، فـمـاذا الأمـرُ الـذي تـهـواه؟
وإذا صِـرتَ غـيـرَ شـخـصكَ في الأُخْـ
ـرَى، فـهـذا الـفَـنـا الـذي تـخـشـاه
في الـتّـرابِ الـذي تـدوسُ عـلـيه
ألفُ دنــيـا وعــالَمٌ لا تـــراه
أنت جـــزءٌ من الـــكـيـــان، وفـيه
كَـثَـرَاهُ كـنَـبْـتِهِ كـحَـصـاه
كـالـورودِ الـتي تُـحبُّ شَـذَاهـا
والـبـعـوضِ الـذي تـخـافُ أذاه
مـا لحيٍّ بـالموتِ عـنه انـفـصـالٌ
إنَّ دنـــيـــاهُ هـــذه أُخْـــراه

****

٢٨ - الأشباح الثلاثة

[المتدارك]

رَاوَدَنِي النَّومُ وما بَرِحا
حتى طأطأتُ له راسي
أطبقتُ جفونيَ فانفَتَحَا
باب الرؤيا والوسْوَاس

أبصرتُ كأنيَ في موضعْ
ما فيه غيرُ الأرواح
فوقَفتُ بعيداً أتطلّعْ
فلَمحْتُ ثلاثةَ أشباح

ولدٌ يتَهادى في العَشْرِ
وفتىً في بُرْدِ العِشْرينا
والثالثُ شيخٌ في طِمْرِ[1]
ذو جسمٍ يحكي العُرْجُونا[2]

وإذا بالأوَّلِ يقتربُ
مني كالطائرِ في الوثْبِ
فشعرتُ كأنيَ أضطربُ
وكأنَّ خطاهُ على قلبي

---

(١) الطِّمر: الثوب الخَلَق البالي (وجمعه أطمار).

يا نفسي ما هذا الفَرَقُ ؟
لا رمحٌ معه ولا نَبْلُ
ولماذا الخَشْيةُ والقلَقُ
والخلْقُ أحبهمُ الطِّفْل

وإذا بالطِّفلِ يخاطِبُني
بكلامٍ لا يتكلّفُهُ
ويُمَازِحُني ويُداعِبُنِي
فكأنيَ شخصٌ يعرفُهُ:

«ما بالكَ منكمِشًا كَمِدا؟
قم نلعب في فيءِ الشَّجَرِ
ونهزّ الأغصُن والعُمُدا
ونذود الطير عن الثَّمَر

أو نصنعُ خيلاً من قَصَبِ
أو طيَّاراتٍ من ورَقِ
ومُدىً وسيوفاً من خشبِ
ونَجُولُ ونركضُ في الطُّرُق

أو نأتي بالفحم القاتِمْ
ونصوِّرُ فوق الأبوابِ
تنّيناً في بحرٍ عائمْ
أو ليثاً يخطُر في غاب

أو كلباً يعدو، أو حَمَلاً
يرعى، أو نهراً، أو هضبَهْ
أو ديكاً ينقُدُ[1] أو رَجُلاً
يمشي، أو مُهراً، أو عَربَهْ

أو نجبُل ماءً وترابا
ونَشيدُ بيوتاً وقِبَابا
أو نجعلُ منه أنصَابا
أو نصنعُ حلوىً وكَبَابا»

مَثّلتُ الطفلَ ودنياهُ
فأحَبَّتْ نفسي دنياهُ
ووددْتُ لو أني إيّاهُ
بَلْ خِلتُ كأني إيّاهُ

فضَحكتُ ولجَّ بيَ الضّحكُ
حتى استلقيتُ على ظهري
فاستيقظَ في الولد الشكُّ
فتوقَّفَ يَعجبُ من أمري

ويقول: أيا هذا قَدْكَا[2]
فوحقِّكَ ذا الطيشُ الأكبرْ
ما تضحكُ مني بل مِنْكا
إيّاكَ أنا لو تتذكَّرْ !

(١) نقد الطائر الحب : لقطه واحدةً واحدة .

وتَوارَى عني واحْتَجَبا
كالموجَةِ في عُرضِ النهر
فتضايقَ قلبي واضطربا
وارتجَّتْ روحي في صدري

وإذا الشبحُ الثاني أقبلْ
يترنَّحُ مثلَ المخمورِ
الليلُ على الدنيا مُسدَلْ
وعليه وشِاحٌ من نورِ

مَعصوبُ المُقلةِ، والدّربُ
وَعِرٌ وكثيرُ الآفاتِ
كَسَفِينٍ ليس لها رَبٌّ
تجري في بحرِ الظُّلُماتِ

ماذا في الأفقِ؟ فقد وقَفَا
يتأمَّلُ فيه ويبتَسِمُ
هل لاحَ له وجهٌ عَرَفَا
أم هزَّ جوارحَهُ نغَمُ؟

أم أبصرَ آلهةَ الحبِّ
تَدعوهُ إليها إيماءَ
لا شيءٌ في الأفُقِ الرَّحبِ
وكأنَ هنالكَ أشياءَ

الطَّيرُ تُغني للزَّهْرِ
ويظنُّ الطيرَ تُساجِلُهُ
والزّهرُ ترحّبُ بالفجرِ
ويظنُّ الزهرَ تُغازلُهُ

ونظرتُ إليه في البَرِّ
يتمنّى لو خاضَ البحرا
ونظرتُ إليه في البحرِ
يتمنَّى لو بلغَ البَرَّا

يتَأفَّفُ من بُطءِ الدهرِ
والدهرُ يسيُّر به وَثْبَا
وينامُ ليحلُمَ بالفجرِ
والفجرُ يضيءُ له الدّرْبا

ويُسائلُ عن كأسِ الخمرِ
ويُسائلُه عنها الناسُ
في الليل وفي وضح الفجرِ
والخمرةُ فيه والكاسُ

فصبرتُ ولازمتُ الصَّمْتا
حتى دانى الظلَّ الظلُّ
فأشرتُ إليه : من أنتا ؟
فأجاب: أنا ذاكَ الطفلُ

ومــــضــى كـــالـــظـلّ إذا انـــتـــقلا
وأنــــــا أرجـــــو لـــــو لـم يمـضِ
فـــأعـــدتُ لـــنـــفـــسي مـــا ارتجَلا
فـــتـــعـــجَّبَ بـــعـــضي من بـــعـــضي

الـــــشـــــمسُ تَـــــزِلُّ عن الأفُقِ
كـــالـــروح الـــمُـــحـــتـــضَـــر الـــسّـــاجي
غَـــمَـــرَتْـــهـــا أمـــواجُ الـــغَـــسَقِ
فـــــتـــــوارتْ خـــــلفَ الأمـــــواجِ

والـــغـــيمُ الأسـودُ يـــحـــتـــشـــدُ
طَـــبَـــقَـــاً في الجـــوّ عـــلى طَـــبَقِ
والـــلـــيلُ يـــطـــولُ ويـــطَّـــرِدُ
والأرضُ كـــــســـــارٍ في نـــــفَـق

وإذا شـــــيخٌ في صـــــحـــــراءِ
كـــالـــزورق في عـــرْضِ الـــبـــحـــرِ
أعـــيـــاهُ الـــصـــلـحُ مع المـــاءِ
وأضـــاعَ الـــدَّربَ إلى الـــبـــرّ

يمـــــشي في الأرض عـــلى مَـــهَلٍ
وعـــلى حـــذرٍ، لـــكنْ يمـــشي
كـــالـــشـــاةِ تُـــســـاقُ إلى الـــقَـــتلِ
بـــعـــصـــا جـــبَّـــارٍ ذي بـــطش

يـــــا شـــــيخُ.. لمـــــاذا لا تَـــــقِفُ
دَمِـــــيَتْ رجلاكَ مـن الـــــرّكْضِ
فـــأجـــابَ بـــصـــوتٍ يـــرتجفُ:
الأرضُ تـــســـيـــرُ عـــلى الأرض!

يـــا شـــيخُ.. رويـــداً فـــالـــبـدرُ
ســـيـــضيءُ الـــدربَ فـــتـــسْـتَـــهـدي
فـــأجـــابَ: ويـــتـــلـــوهُ الـــفـــجـــرُ
لـــكن ســـيـــضيءُ لـــمَن بَـــعـــدي

أيـــلَـــذُّ لـــغـــصنٍ مُـــنـــكَـــسِـــرٍ
عَـــرَّتْهُ الـــريحُ من الـــورَقِ
أن يـــبـــصـــرَ في ضـــوءِ الـــقـــمـــرِ
مـــا كـــان عـــلـــيه عـــلى الـــطُّـــرُقِ

مـــا لـــذَّةُ مـــيْتٍ في الـــرَّمْسِ
بـــالـــزهـــرِ الـــفـــوّاح الـــعَـــطِـــرِ
نـــورٌ لا يـــشـــرقُ في الـــنـــفسِ
كـــغـــنـــاءٍ في أُذْنِ الحَـــجَـــرِ

مـــا اسْـــتَـــخْـــفَتْ عـــني الأفلاكُ
والـــشُّـــهبُ بل اســـتـــخـــفى حـــبّي
لـم تـــمـــلأْ دربي الأشـــواكُ
إنَّ الأشـــواكَ لَـــفِي قـــلـــبي !

يــا شــيخُ.. شَــجَــاني مــا قُــلــتــا
وزرعــتَ بـــــنـــــفــــســيَ آلامـكْ
من أنـتَ ؟ أجـــابَ: أنــــا أنــــتـــا
أنــــا ذاتُـكَ تـــمــــشي قـــدَّامَك

كم أبـــــحــثُ بــــين الأجْـــــرَامِ
عــــــني، وأنــــــقِّــبُ فـي الأرض
أحـلامـي تــــطــــمُــــرُ أحـلامي
بــعْـضـي مــدفــونٌ في بــعــضـي

لـم أبـــــصِــــرْ ذاتـيَ بــــالأمـسِ
فـي لَــــوحِ زجــــاجٍ أو مــــاءِ
بل لاحتْ نـــفـــسيَ في نـــفــسي
فَـــهْيَ الـمــرئـــيَّـــةُ والـــرَّائـي

****

٢٩ - العليقة

[مجزوء الرمل]

ذاتُ شوكٍ كالحِرابِ، أو كأظفارِ العُقابِ
رَبَضَتْ في الغابِ كاللصِّ، لِفَتْكٍ واستِلاب
تَقْطَعُ الدَّربَ على الفلاح والمولى المُهاب
صُنْتُ عنها حُرَّ وجهي، فتَصدَّتْ لثيابي
كلّما أَفلَتُّ من نابٍ تَلَقَّتْني بِنَابِ
فلها نهْشُ الأفاعي، ولها لسْعُ الذباب
وأذاها في سكوني، كأذاها في اضطرابي
وهي كالقَيْدِ لساقي، ولِجيدي كالسِّخاب[1]
فكأنّا في عِناقٍ، لا نضالٍ ووثاب
قلتُ يا ساكنةَ الغابِ ويا بنتَ التّراب
لا تَلُجّي في اجتذابي، أو فَلُجّي في اجتِذابي
إنّ عُوداً فيه ماءٌ ليس عُوداً لاحتِطاب
أنا في فجرِ حياتي، أنا في شَرْخ شبابي
الهوى ملءُ فؤادي؛ والصِّبا ملءُ إهابي
والمنى تَنبتُ في دربي، وتمشي في رِكابي
أنا لم أضجرْ مِنَ العيش ولم أَمْلُلْ صِحابي
لم أزلْ ألمحُ طيفَ المجدِ حتى في السَّراب
لم أزلْ أستشعِرُ اللَّذةَ حتى في العذاب
لم أزلْ أستشرفُ الحُسنَ ولو تحت نِقاب

---

(١) القلادة

مـــا بــنـــفـــسي خـــشـــيـــةُ المـــوتِ ولا مـِــنْهُ ارتِـــهـــابي
أنــــــا لـلأرضِ، وإنْ طـــــالَ عن الأرضِ اغـــــتـــــرابي
غــــيــــرَ أني لم يـــزلْ ضِـــرعي لمـــرْيٍ[1] واحـــتِلاب
لـم أهبْ كلَّ الـــذي عـــنـــدي، ولـم يَـــفـــرَغْ وِطـــابي[2]
أنـــا نـــهـــرٌ لم أتـــمِّم بـــعـــدُ في الأرض انـــســـيـــابي
أنــــا روضٌ لـم أُذعْ كلَّ عـــــبـــــيــــــري ومَلابي[3]
أنـــا نجمٌ لم يُـــمـــزِّقْ بـــعـــدُ جِـــلْـــبـــابَ الـــضَّـــبَـــاب

✡✡✡✡✡

أنــــا فـــجـــرٌ لم تـــتـــوِّجْ فـــضَـــتي كلَّ الـــرَّوابي
لي رِغــــابٌ لم تـــلـــدْ بـــعـــدُ فَـــتُـــبْـــلى بـــالـــتَّـــبـــاب[4]
وبـــنـــفـــسي ألفُ مَـــعـــنًى لم يُـــضـــمَّنْ في كـــتـــابِ

✡✡✡✡✡

فـــإذا اســـتـــنـــفـــدتُ مـــا في دَنِّ نـــفـــسي من شـــرابِ
وإذا أنجُـمُ آمــــالـي تـــــوارتْ في الحِـــــجـــــاب
وإذا لـم يـــبقَ في غَـــيـــمـــيَ مـــاءٌ لانـــســـكـــاب
وإذا مـــا صِـــرتُ كـــالـــعُـــلَّـــيقِ[5] تـــمـــثـــالَ اكـــتـــئـــاب
لا يُـــرجّـــيـــنـــيَ مـــحـــتـــاجٌ، ولا يـــطـــمعُ سَـــابِ[6]
فـــاجْـــذِبـــيـــنـي.. إنْ يـــكُـنْ مـــنِّي نـــفـعُ لـــلـــتّـــراب

****

---

(١) مرى الضرع : مسحه ليدرّ .
(٢) الوطب والوطاب : إناء للبن من الجلد .
(٣) المَلاب : ضرب من الطيب
(٤) الهلاك وضعف الشيخوخة .
(٥) نبت يتعلق بالشجر .

٣٠ - هي[١]

[السريع]

أروي لـــكُمْ عن شــاعـــرٍ ســـاحـــرٍ
حــكـــايَـــةً يُــحـــمـــدُ راويـــهـــا

قـــالَ: دعـــا أصـــحـــابَهُ ســـيِّـــدٌ
في لـــيـــلـــةٍ رقّتْ حَـــواشِـــيـــهـــا

فـــانـــتـــظـــمتْ في قـــصـــرهِ عُـــصْـــبـــةٌ
كـــريمـــةٌ لا واغلٌ فـــيـــهـــا

مِن نُـــبَلاء الـــشَّـــعبِ، ســـاداتِـــهـــا
وخِـــيـــرةِ الـــغِـــيـــدِ غَـــوانـــيـــهـــا

حـــتّى إذا جـــلـــســـوا كـــلُّـــهـــمْ
وطـــافَ بـــالأكـــوابِ سَـــاقـــيـــهـــا

قـــام أمـــيـــرُ الـــقـــصـــرِ في كـــفِّهِ
كـــأسٌ أعـــارتْهُ مـــعـــانـــيـــهـــا

وقـــال: يـــا صَـــحبُ عـــلى ذكْـــرِكمْ
امـــلَـــؤُهـــا حُـــبّـــاً وأحْـــسُـــوهـــا

وذِكْـــرُ مَن قـــلـــبيَ عـــبْـــدٌ لـــهـــا
ومُـــهـــجـــتي إحـــدى جـــواريـــهـــا

حـــبـــيـــبـــتي «لـــيـــاءُ»، ســـمـــيـــتُـــهـــا
ولم أكن قَـــبلاً أُسَـــمِّـــيـــهـــا

(١) اتهمه أحمد زكي أبو شادي بنقلها إلى العربية، عن أحد شعراء الإنجليز، ولم ينكر أبو ماضي التهمة .

فَشَربوا كلُّهمُ سِرَّها
وهتَفوا كلُّهمُ تِيها
فأجْزلَ الشكرَ لأصحابِه
الشكرُ للنعمةِ يُبقِها
وصاحَ بالسَّاقي علينا بها
فطافَ بالأكوابِ ساقيها
وقال للأضيافِ: سمعاً فلي
كِلْمةٌ، العدلُ يُملِيها
ما أنا وحَدِي الصَّبُّ فيكمْ ولا
كلُّ العَذارى مَن أناجيها
فكلُّ نفسٍ مثلُ نفسي، لها
في هذه الدنيا أمانيها
وكلُّ قلبٍ مثلُ قلبي، له
حسناءُ ترجوهُ ويرجوها
يا صَحبُ من كانت به صَبْوةٌ
يُعْلِنها الآنَ ويُبدِيها
فنهَضُوا ثانيةً كلُّهمْ
ورفعوا الكاساتِ تنويها
كلهمُ يشربُ سرَّ التي
يهوى من الغِيدِ ويُطريها
✡✡✡✡✡
وكان في الشَّرْبِ فتىً باسلٌ
طَلعتُه تسحرُ رائيها
شاركَ في أوَّل أقداحِهمْ
ولم يشارِكْهُمْ بثَانيها

وأنتَ ؟ قـال الـصَّحبُ، واسْـتَـضْـحـكوا:

هل لكَ حـسـنـاءُ تُـحـيِّـيـهـا ؟

قـــال: أجل! أشـــربُ سَّـــرَّ الـــتي

الـــروح تـــفـــديـــني وأفْـــدِيـــهـــا

صُـورتُـهـا في الـقـلب مـطـبـوعـةٌ

لا شيءَ حـتى المـوتِ يمـحُـوهـا

لا تـــــتـــــرضّـــــاني ريـــــاءً ولا

تَـلـثُّـمـنُي كِـذْبـاً وتـمـويـهـا

يـضـيعُ مـالي ويـزولُ الـصِّـبـا

وحـبُّـهـا بـاقٍ وحـبِّـيـهـا

قـدْ وهَـبَـتْـني روحَـهَـا كـلَّـهـا

ولم تـخفْ أني أضـحِّـيـهـا

سـرَّ الـتي لا غـادةٌ بـيـنـكمْ

مـهـمـا سَمَتْ في الحبِّ تَحكيـهـا

فـأجـفَـلـوا مـنه كـمنْ حـيَّـةٍ

نـهَّـاشَـة قـد عـزَّ راقِـيـهـا

وقـــالتِ الـــغَـــاداتُ: أُفٍّ لـه

قـد شَـوَّه المجـلسَ تـشـويـهـا

لـو ظلَّ في مـا بـيـنـنـا صـامـتـاً

لم تَـسـمـعِ الآذانُ مـكـروهـا

وقـلـقلَ الـفـتـيـانُ أسـيـافَـهَمْ

فـأوشـكتْ تـبـدو حَـواشِـيـهـا

وتَـعـتَعَ الـشَّـادي بـألحـانه

ومـاجتِ الـدارُ بمن فـيـهـا

وقـــالَ قـــومٌ: خـــلَــبَـــتْهُ الـــطِّلا

وقـــال قـــومٌ: صـــار مَـــعـــتُـــوهـــا

فـــصـــاحَ ربٌّ الـــدارِ: يـــا ســـيِّـــدي

وصَـــفْـــتَـــهـــا لِمْ لا تُـــســـمِّـــيـــهـــا

أتـــخـــجلُ بـــاسمِ من تـــهـــوى ؟

أحـــســـنـــاءٌ بـــغـــيـــرِ اسمٍ ؟

فـــأطـــرقَ غـــيـــرَ مـــكـــتـــرثٍ

وتـــمـــتمَ خـــاشـــعـــاً... أُمِّي !

****

٣١ - لا أنت ولا أنا

[الكامل]

قلتُ: السعادةُ في المُنى، فرددْتَني
وزعمتَ أنَّ المرءَ آفتُهُ المُنى
ورأيتَ في ظلِّ الغِنَى تمثالَها
ورأيتَ أنتَ البؤسَ، في ظلّ الغِنَى
ما لي أقولُ بأنها قد تُقتنَى
فتقول أنتَ بأنها لا تُقتَنى!
وأقولُ: إنْ خُلقتْ فقد خُلقتْ لنا
فتقولُ: إن خُلقتْ فلم تُخلقْ لنا
وأقولُ: إني مؤمنٌ بوجودِها
فتقولُ ما أحراكَ ألاّ تُؤمِنا
وأقولُ: سرٌّ سوفَ يُعلنُ في غَد
فتقولُ: لا سرٌّ هناك ولا هنا
يا صاحبي! هذا حوارٌ باطلٌ
لا أنت أدركتَ الصَّوابَ ولا أنا

****

٣٢ - الناسكة

[السريع]

أبـصَـرتُ في الحـقلِ قُـبَـيْلَ المـغـيبْ
سـنـبـلـةً في سـفح ذاكَ الـكـثـيبْ
حـانـيـةً مُـطـرقـةَ الـرأْسِ
كـأنمـا تـسـجـدُ لـلـشـمسِ
أو أنـهـا تـتـلـو صلاةَ المـسـاءْ

✡✡✡✡✡

فـمـلـتُ عن راهـبـةِ الحـقلِ
وسـرتُ لا ألـوي عـلى ظـلّي
ألـتـقـط الحـبَّ وأذريـه
وتـارةً في الـنـار أُلـقِـيه
مُـسـتـخـرِجـاً مـنه لجـسـمي غـذاءْ

✡✡✡✡✡

قـد غـابتِ الـشـمسُ وراءَ الـقـممْ
وسـكتَ الـطـيـرُ الـذي لم يَـنَمْ
لـكنّ نـاري لم تـزلْ تَـرْعُجُ[1]
ولم أزلْ آكلُ مـا تُـنْـضِجُ
يـا حـبـذا الـنـارُ ونـعِمَ الـشّـواءْ

✡✡✡✡✡

وإنـني فـي مَـرَحـي والـدَّدِ
إذ صـاحَ بـي صـوتٌ بلا مُـوعـدِ

---

(١) رعج البرق : اضطرب وتتابع .

مــا الحَبُّ يــا هــذا ولا الــسُّــنــبلُ

مـــا تـــأكلُ الـــنـــارُ ومـــا تـــأكلُ

وإنمـــا أسلافُكَ الأصـــفـــيـــاءْ

✡✡✡✡✡

لا بـــشَـــرٌ لا طـــائـــرٌ مـــاثلُ

يـــا عـــجـــبـــاً ! نُـــطْـقٌ ولا قـــائلُ

مـن أين جـــاء الـــصـــوتُ ؟ لا أدري

لـــكـــنَّـمـــا نـــاســـكـــةُ الـــبُـــرِّ[1]

قـــد رفـــعتْ هـــامـــتَـــهـــا لـــلـــعلاءْ

✱✱✱✱

(١) يريد :طاحونة القمح (النسيكة : الذبيحة) .

٣٣ - عيد النُّهى[١]

في اليوبيل الذهبي لمجلة المقتطف.

[الكامل]

قلْ للحمَائمِ في ضفافِ الوادي:
يا ليتَكنَّ على شَغَافِ فؤادي

لِتَرينَ كيف تبعثرتْ أحلامُهُ
وجَرتْ به الآلامُ خَيْلَ طِرَاد

كانت تَشعُّ على جوانبه المنى
فخَبَتْ وبُدِّلَ جمْرَها برمَاد

أسْعِدْنَهُ فعسى يخفُّ وَلُوعُه
إن الشَّجيَّ أحقُّ بالإسعاد[٢]

ذهب الصِّبا وبقيتُ في حسَراته
ليت الأسى مثلَ الصِّبا لِنَفَاد

إن الشبابَ هو الغِنَى فإذا مضى
وأقمتَ لا ينفكُّ فقْرُكَ بادي

أمسيتُ أنظر في الحياة فلا أرى
إلا سواداً آخذاً بسواد

ألقى الصباحَ فلا يطولُ تأمُّلي
حتى يحولُ شعاعُهُ لصُعَاد[٣]

وإذا تقابلُني النجومُ تخاوصتْ[٤]
فكأنما هي أعينُ الحُسَّاد

(١) جمع نُهية، وهي العقل .
(٢) شارك ووقف إلى جانبه .
(٣) أصعدت السفينة إصعاداً : مدت شراعها فذهبت بها الريح صعَداً .
(٤) ضيق عينه في النظر، ومثله تخاوص .

مــا ثمَّ من ذكــرى إذا خــطــرتْ عــلى
قــلبي اســتــراحَ، ســوى خــيــالِ الـوادي
أفلا تــزالُ الــشــمسُ تــصــبغُ وجــهَهُ
بــالــوَرْسِ آونــةً وبــالــفِــرْصَــاد(١)
أفلا يـــزالُ يـــذوبُ في أمـــواجِه
ذهَبُ الأصــــيلِ وفــــضَّــــةُ الآراد
لـــهــفي إذا وردَ الــرفــاقُ عــشــيَّــةً
وذكـــرتُ أني لـــســت في الـــورّاد
وإذا الحَــمــامُ شَــدا وصــفَّقَ مــوجُهُ
ألاّ أصــفِّقَ لــلــحَــمــامِ الــشَّــادي
وإذا الــنــخــيلُ تــطــاولتْ أظلالُهُ
ألاّ يــكــونَ مِــظَــلَّــتي ووِســادي
وإذا الــكــواكبُ رصَّــعَتْ آفــاقَهُ
ألاّ يــكــونَ لــرعْــيــهنَّ سُــهَــادي
ذقتُ الــهــوى وعــرفــتُهُ في شــطِّهِ
إنَّ الــهــوى لــلــمــرءِ كــالمــيلاد
لا تــدركُ الأكــبــادُ ســرَّ وجــودِهَــا
حــتى يــجــولَ الحبُّ في الأكــبــاد
مــا عِــشتَ لم يمــسسْ جــوانــحَكَ الــهوى
لم تــدرِ مــا في الــعــيشِ من أمــجــاد
لا تُــبــصِــرُ الــعــينُ الــريــاضَ وحَلْــيَــهــا
إلاّ عــلى ضــوءِ الــصــبــاحِ الــهــادي

✡✡✡✡✡

(١) التوت الأحمر.

وَطَنَانِ أشْوَقُ ما أكونُ إليهما
مصرُ التي أحببتُها وبلادي

ومواطنُ الأرواحِ يعظُمُ شأنُهَا
في النفس فوق مواطنِ الأجساد

حِرصِي على حبِّ (الكنانة) دونَهُ
حرصُ السَّجِينِ على بقايا الزاد

بلدُ الجمالِ خَفِيِّهِ وجَلِيِّهِ
والفنُّ من مُستَطرَفٍ وتِلاد

عرضَتْ مواكبَها الشعوبُ فلم أجِدْ
إلا بمصرَ نَضارةَ الآباد

كم من دفينٍ في ثراها لم يزلْ
كالحيِّ ذا مقَةٍ وذا أحقاد

ومشيَّدٍ للناس إذ يغشَونَهُ
من كل أرضٍ خشيةَ العُبّاد

عاش الجدودُ وأثَّلوا ما أثَّلوا
واليومَ ينبعثون في الأحفاد

المُسبغينَ على النوابغِ فضلَهُمْ
كالفجرِ منبسطاً على الأطْواد[1]

أبناءَ مصرَ الناهضينَ تحيةً
كَودادِكمْ إنْ لم أقُلْ كَوِدادي

✡✡✡✡✡

من شاعرٍ كَلِفٍ بكمْ وبأرضِكُمْ
أبداً يُوالي فيكمُ ويُعادي

إنْ تُكرموا شيخَ الصحافةِ تُكْرِمُوا

---

(١) الطود : الجبل .

أسـنى الـكـواكبِ في سـمـاءِ الـضَّـاد

خـلعَ الـشـبـابُ عـلـى الـكـنـانَـةِ مـطْـرفًـا

هــوَ كــالـــربــيـع عــلـى رُبَــاً ووهَــاد

مــا زالَ يــقــحـمُ في الجــهــالــةِ نــورُه

حـتى تـقـاصـرَ لـيـلُـهـا المـتَـمـادي

بـصـحـيـفـةٍ نـورُ الـعـيـونِ سـوادُهَـا

وبــيــاضُــهــا من نــاصعِ الأجــيــاد

يــنــبــوعُ مــعــرفــةٍ وهــيـكلُ حــكـمــةٍ

ووعـــــاءُ آدابٍ وكـــــنـــــزُ رشَـــــاد

أغـلـى المـواهبِ والـعـقـولِ رأيـتُـهـا

سـكـنتْ قـصـورَ مَـهـارقٍ[1] ومِـداد

ذِكـرُ المجـاهـدِ في الحـقـيـقـة خـالـدٌ

ويــزولُ ربُّ الــســيـفِ والأجــنــاد

لـولا جـبـابـرةُ الـقـرائح لم يَـسـرْ

في الأرض ذِكْـرُ جـبـابـرِ الـقُـوَّاد

مــا ذلَّــلتْ ســبُلَ المــعــالـي أمَّــةٌ

إلا بــقــوةِ مُــصْــلــحٍ أو هــادِ

✡✡✡✡

(صَـرُّوفُ)[2] يـسـألُكَ الأنـامُ فـقلْ لـهمْ:

كم في حـيـاتِكَ سـاعـةُ اسـتـشْـهـادِ؟

طـلـع الـقـنـوطُ عـلـيك من أغـواره

فـرددتَ طـائـرهُ وجـأشُكَ هـادِ

ومـضـيتَ تـسـتـقـصي الحـيـاةَ وسـرَّهـا

(١) المُهرق : الصحيفة البيضاء، يكتب فيها (والجمع : المهارق) .

(٢) يعقوب صرّوف : منشئ (المقتطف) وصاحبها .

في كل عاقلةٍ وكلِّ جماد

حتى لكدتَ تُحسُّ هاجسةَ المنى

وتَبينَ كم في النفسِ من أضداد

أنت الذي أسْرَتْ به عزَمَاتُه

والدَّربُ غامضة على الروّاد

والليلُ آفاتٌ على أغوارِهَا

والهولُ أنجادٌ على الأنجاد(١)

إن الحقائقَ أنت ناشرُ بندها

في حينِ كان العلمُ كالإلحاد

والعقلُ في الشرقيِّ من أوهامِه

كالنَّسْر في الأوهاقِ(٢) والأصفاد

تشقى، متى تشقى، الشعوبُ بجهلها

وتعِزُّ حين تعِزّ بالأفراد

الساهرينَ الليل مثلَ، نجومِه

فكأنهمْ للدهر بالمرصاد

الباذلينَ نفوسَهُمْ لم يسألوا

وعلى النفوس مَدارِعُ الفُولاد

خَفَضُوا جناحَهَمُ وتحت برودِهمْ

هِمَمُ الملوكِ وصولةُ المُرّاد

لهمُ الزمانُ قديمُه وحديثُه

ما الناسُ في الدنيا سوى الآحاد

إن الأنامَ على اختلافِ عصورهمْ

جعلوا لأهل العلمِ صدْرَ النادي

ما العيدُ للخمسينِ بل عيدُ النُّهى

---

(١) أنجد : ارتفع . يريد تراكم الأهوال والمصاعب في الطريق .

(٢) الوهق : الحبل الذي تشد به الخيل حتى لا تبتعد .

وفـــنـــونِـه والخـــاطـــرِ الـــوقّـــاد

عـيـدُ الحـصـافَـةِ والـصـحـافـةِ كـلِّـهـا

في مـــصـــرَ، فـي بـــيـــروتَ، في بـــغـــداد

مـا الـعـيشُ بـالأعـوامِ كم من حِـقْـبـةٍ

كـالمَـحْـو في عـمـرِ الـسـوادِ الـعـادي

الـــعـــمـــرُ، إلا بـــالمـــآثــرِ، فـــارغٌ

كـالـقـفـرِ طـالَ به عَـنَـاءُ الحـادي

وسـوى حـيـاةِ الـعـبـقـريِّ نـقِـيـسُـهـا

فَـــتُـــقـــاسُ بـــالآجـــالِ والآمـــاد

****

٣٤ - موت العبقري

في رثاء سليمان البستاني(١)

[الخفيف]

كلُّ مَــيْتٍ مــهــمــا علا في حــيــاتهْ
كلُّ ثــاوٍ تحت الــثَّــرَى من لِــداتهْ
لا حــدودٌ ولا مــقــايــيسُ في المــو
تِ تَــســاوى الجــمــيعُ في ســاحــاته
حــاصــدٌ حــقــلُه الــوجــودُ، ومــا الأحْـ
ـيــاءُ إلا كــشَــوكهِ ونــبــاته
مَن نجــا مــنه وهْــوَ في روحَــاتهِ
إنمــا قــد نجــا إلى غُــدُواته
لــيس زرعُ الــغُــصَّــاتِ مــنه لــثــأرٍ
لــيس حــصــدُ الــلــذاتِ من لــذَّاته
إنه يــســلُبُ الــغــوايــةَ كــالــرشْـ
ـدِ، فــلــيس الــتــمــيــيزُ من عــاداته
لا تــقــل: مــا وراءَهُ؟ ذاكَ ســرٌّ
خَــبَّــأتْهُ الحــيــاةُ في ظــلــمــاته
رُبَّ قــبــرٍ نمــشي عــلــيه وفــيه
شَــهــواتٌ تُــربي عــلى ذرّاته
كلُّ ذي رَغــبــةٍ دنَتْ أو تــســامتْ
ســوف يمــضي يــومــاً بلا رغــبــاته

---

(١) مترجم الإلياذة إلى العربية شعراً .

لــيس عــمــرُ الــفــتى وإن طــالَ إلا
مــا حــوتْهُ الحــيــاةُ من مَــكــرُمــاته
يَـــعِظُ الـــنـــابغُ الخلائقَ حـــيّـــاً
إنمـــا مـــوتُـهُ أجلُّ عِـــظـــاته

✵✵✵✵✵

ظــهــر المــوتُ لــلــعــيــونِ جــديــداً
أمس في بـــطـــشِه وفي فَـــتَـــكَـــاته
وهــو تِـربُ الإنـســانِ مـنذُ اسـتوى في الْـ
أرضِ حــيّــاً مــشى عــلى خــطــواته
مــا الــرّدى بــالحــديثِ في الــنــاس لـكنْ
نــكــبــةُ الــعِــلمِ ضــاعــفتْ روْعــاته
فَـــقَـــدَ الخــلــقُ واحــداً من بـــنـــيه
وأضـــاعَ الـــقَـــريضُ خــيــرَ حُــمــاته
شــاعــرٌ كــان يَـرقصُ الـدهــرُ أحـيــانًــا
ويــبــكي حــيــنــاً عــلى نَــغَــمــاته
ذَهبَ الــســاحــرونَ والــسّــحــرُ بــاقٍ
في عــيــون الــمَــهــا وفي كــلــمــاته
مـــنــشئٌ رقَّ لــفــظُه كــسَــجــايــا
هُ ورفَّ الجـــمـــالُ في جـــنـــبـــاته
تـــوَّجَ «الـــضـــادَ» بـــالملاحـــةِ حـــتى
خــالــهــا الــقــومُ بــعضَ مُــخــتــرعــاته
نــقَلَ الأعْــصُــرَ الخــوالي إلــيــنــا
في كـــتـــابٍ، لـــلـه، من مـــعـــجـــزاته
فــرأيــنــا «هــومــيــرُ» يــنــشــدُ فــيــنــا
شـــعـــرهُ مـــثْلُ واحـــدٍ من رواته

كـــان فـي دولــةِ الـــسُّـــيــوفِ وزيـــراً
ألمـــعـــيِّـــاً، ودولــــــةً فــي ذاتـه
مــا بـكـيـنــا الــرُّفـاتَ لـمَّــا بـكـيـنـا
كم رفـــاتٍ في الأرض مـــثلُ رفـــاتـه؟
بل بـــكـــيـــنـــا لأنـــنـــا قـــد حُـــرمـــنـــا
بـــالمــــنـــونِ المـــزيـــدَ من آيـــاتـه
رَاعَـــنـــا أن يـــزولَ عـــنَّـــا، وأنَّـــا
لم نُـــطِـقْ أن نـــطـــيلَ حـــبلَ حـــيـــاتـه
قـــد أردنـــا حـــملَ الـــبـــشـــائـــرِ لـــلـــعـلـ
ـمِ فـــكـــنَّـــا لأهـــلِـه من نُـــعَـــاتـه
إنَّ فـي «مـــصـــرَ» والـــشـــآم دويّـــاً
مـــا ســـمـــعـــنـــاهُ قـــبل يـــومِ وفـــاتـه
وأحسَّ «الـــعـــراقُ» حـــين أتـــاهُ الـــنْـ
ـــنَـعْي طــعم الـــرَّدَى بمـــاء (فُـــراته)
و «بـــلـــبـــنـــانَ» رجـــفـــةٌ تـــتـــمـــشَّى
في يـــنـــابـــيـــعِه وفـي نـــسَـــمَـــاتـه
فَـــتَّحَ المـــوتُ، حـــين أغـــمضَ عـــيـــنـــيه،
عـــيـــونَ الـــورَى عـــلـى حَـــسَـــنـــاتـه
فـــــهْـــــوَ مـــــاضٍ لـه جـلالـــــةُ آتٍ
مـن فـــــتـــــوحـــــاتِـه ومن غـــــزواته
والـــفـــتى الـــعـــبـــقـــريُّ يـــولـــدُ إذ يـــو
لَـــدُ في مـــــهـــــدِه، ويـــــومَ ممـــــاته

****

٣٥ - الغدير الطموح

[مجزوء الكامل]

قـــال الـــغـــديـــرُ لـــنـــفـــسه:
يـــا لـــيـــتَـــنِي نـــهـــرٌ كـــبـــيـــرْ
مـــثلُ الـــفـــراتِ الـــعـــذْبِ أو
كـــالـــنـــيلِ ذي الـــفـــيْضِ الـــغَـــزيـــر
تجـــري الـــســـفـــائنُ مُـــوقَـــرا
تٍ فـــيـــه بـــالـــرزقِ الـــوفـــيـــر
هـــيـــهـــاتَ يـــرضى بـــالـحـــقـــيـــرِ
من المـــنـى إلا الحـــقـــيـــر
وانـــســـابَ نـــحـــو الـــنـــهـــرِ لا
يـــلـــوي عـــلى المـــرجِ الـــنَّـــضـــيـــر
حـــتى إذا مـــا جـــاءهُ
غَـــلبَ الـــهـــديـــرُ عـــلى الخـــريـــر

****

٣٦ - الطلاسم

[مجزوء الرمل]

جـئتُ، لا أعـلَمُ من أينَ، ولـكـنِّي أتـيْتُ

ولـقـدْ أبـصـرتُ قُدَّامي طريقـاً فـمـشـيْتُ

وسـأبـقـى سـائـراً إن شـئتُ هـذا أم أبَـيْت

كـيف جـئتُ ؟ كـيف أبـصـرتُ طـريقي ؟..

لـستُ أدري!

أجـديـدٌ أم قـديمٌ أنـا فـي هـذا الـوجـودْ

هل أنـا حـرٌّ طـلـيقٌ أم أسـيـرٌ في قـيـود

هل أنـا قـائدُ نفسي في حـياتـي أم مَقُود

أتـمـنَّى أنـني أدري ولـكنْ.

لـستُ أدري!

وطريقـي! ما طـريقي؟ أطويلٌ أم قصـيرْ ؟

هل أنـا أصـعَـدُ أم أهـبِطُ فـيه وأغُـور

أأنـا الـسـائـرُ في الـدَّربِ أم الـدربُ تـسـيـر

أم كِلانـا واقف والـدهـر يـجـري؟....

لـستُ أدري!

لـيتَ شـعري وأنـا فـي عـالَمِ الـغـيبِ الأمـينْ

أتُـراني كـنتُ أدري أنـني فـيه دَفـين

وبـأنـي سـوف أبـدو وبـأنـي سـأكـون

أم تُـراني كـنتُ لا أُدركُ شـيـئـا

لـستُ أدري!

أتُراني قَبلَما أصبحتُ إنساناً سَويّا
كنت محواً أو محالاً أم تُراني كنت شيّا
ألهذا اللّغز حلٌّ ؟ أم سيبقى أبديّا
لستُ أدري ولماذا .. لستُ أدري ؟
لستُ أدري!

✡✡✡✡✡

البحر

قد سألتُ البحرَ يوماً: هل أنا يا بحرُ منكا؟
أصحيحٌ ما رواهُ بعضُهمْ عني وعَنكا؟
أم تُرى ما زعموا زوراً وبهتاناً وإفْكا؟
ضحكتْ أمواجُهُ مني وقالت :
لستُ أدري!

أيها البحرُ أتدري كم مضت ألفٌ عَلَيكا
وهلِ الشاطئُ يدري أنه جاثٍ لديكا
وهل الأنهارُ تدري أنها منكَ إليكا
ما الذي الأمواجُ قالت حين ثارَت ؟
لستُ أدري!

أنت يا بحرُ أسيرٌ آه ما أعظمَ أسرَكْ!
أنت مثلي أيها الجبَّارُ لا تملكُ أمرَك
أشبَهَتْ حالُك حالي وحكى عذريَ عُذرَك
فمتى أنجو من الأسرِ وتنجو؟
لستُ أدري!

تُرسلُ السُّحْبَ فتَسقي أرضَنا والشَّجرَا
قد أكلناك وقلنا قد أكلنا الثَّمَرا
وشربناك وقلنا قد شربنا المطرا
أصَوابٌ ما زعَمْنا أم ضَلالٌ؟
لستُ أدري!

قد سألتُ السُّحْبَ في الآفاقِ هل تذكرُ رملَكْ؟

وسألتُ الشجرَ المُورقَ هل يعرفُ فضلَكْ؟

وسألتُ الدُّرَّ في الأعناقِ : هل تذكرُ أصلَكْ؟

وكأني خلتُها قالتْ جميعاً :

لستُ أدري!

يرقص الموجُ وفي قاعِكَ حربٌ لن تزولا

تخلُقُ الأسماكَ لكن تخلُقُ الحوتَ الأكولا

قد جمعتَ الموتَ في صدركَ والعيشَ الجميلا

ليت شعري أنت مهْدٌ أم ضريحٌ ؟

لستُ أدري!

كم فتاةٍ مثلِ ليلَى وفتىً كابنِ الملوَّحْ!

أنفقا الساعاتِ في الشاطئ تشكو وهو يشرح

كلما حدّثَ أصغَتْ وإذا قالت ترنَّحْ

أحفيفُ الموجِ سرٌّ ضَيَّعَاهُ ؟

لستُ أدري!

كم ملوكٍ ضربوا حولكَ في الليل القِبَابا

طلعَ الصبحُ ولكن لم يجدْ إلا ضبابا

ألَهُمْ يا بحرُ يوماً رجعةٌ أم لا مآبا؟

أَهُمُ في الرَّملِ ؟ قال الرملُ: إني:

لستُ أدري!

فيكَ مثلي أيها الجبَّارُ أصدافٌ ورملٌ

إنما أنت بلا ظلٍّ ولي في الأرض ظلّ

إنما أنت بلا عقْلٍ ولي يا بحرُ عقل

فلماذا يا تُرى أمضي وتبقى ؟

لستُ أدري!

يـا كـتـابَ الـدَّهـرِ قل لي: ألَـهُ قـبلٌ وبـعـدُ؟
أنـا كـالـزورقِ فـيه، وهْـوَ بـحْـرٌ لا يُـحَـدُّ
ليس لي قصدٌ؛ فهل للدهر في سَيْرِيَ قصْدُ؟
حـبَّـذا الـعـلمُ ولـكنْ كـيف أدري؟
لـستُ أدري!

إنَّ في صـدريَ يـا بـحْـرُ لأسـراراً عُـجَـابـا
نـزل الـسِّـترُ عـلـيـهـا وأنـا كنتُ الحِـجـابـا
ولـذا أزدادُ بُـعـداً كـلـمـا ازدَدْتُ اقـتـرابـا
وأَراني كـلَّـمـا أوشـكْتُ أدري...
لـستُ أدري!

إنـنـي يـا بـحـرُ بحْـرٌ شـاطـئـاهُ شـاطِـئـاكـا
الـغـدُ المجـهـولُ والأمسُ الـلـذان اكْـتـنَـفَـاكـا
وكلانـا قـطـرَةٌ يـا بـحـرُ في هـذا وذاكـا
لا تَـسـلـني مـا غـدٌ مـا أمسٌ ؟ إني
لـستُ أدري!

في الدير

قـيلَ لي في الـدَّيرِ قـومٌ أدركُوا سـرَّ الحـيـاةْ
غـيـرَ أني لم أجـدْ غـيْـرَ عُـقـولٍ آسـنـاتْ
وقـلـوبٍ بـلـيَتْ فـيـهـا الـمُـنى فـهيَ رُفـاتْ
مـا أنـا أعـمى فـهل غَـيْـريَ أعـمى؟
لـستُ أدري!

قيلَ أدْرى الناسِ بالأسرار: سكّانُ الصَّوامعْ
قلتُ: إن صحَّ الذي قالوا فإنَّ السرَّ شائع
عجباً كيف ترى الشمسَ عيونٌ في براقع

والـــتي لـم تـــتَـــبـــرقعْ لا تـــراهـــا ؟...

لــــستُ أدري!

إنْ تكُ الـعزلـة نُـسكاً وتُقىً، فـالـذئب راهبْ

وعَـرينُ الـلـيث ديـرٌ حُـبُّهُ فـرضٌ وواجب

ليت شعري أيُميت النُّسكُ أمْ يُحيي المَواهب؟

كـيف يمـحـو الـنُّـسكُ إثـمـاً وهـوَ إثمٌ ؟

لــــستُ أدري!

لــــستُ أدري!

إننـي أبصَـرتُ في الـدَّيـرِ ورودا في سـياجِ

قنِعتْ، بعد الندى الطاهرِ، بالماء الأُجاجِ[1]

حَولَها النورُ الذي يُحيي، وترضَى بالدَّياجي[2]

أمِنَ الحـكـمـةِ قـتلُ الـقـلبِ صـبْـراً ؟...

لــــستُ أدري!

قد دخلتُ الديرَ عند الفجرِ كالفجر الطَّروبْ

وتركتُ الديرَ عند الليل كالليل الغَضُوبْ

كان في نفسيَ كرْبٌ صار في نفسي كُروب

أمِنَ الـدَّيـرِ أم الـلـيلِ اكـتـئـابي؟ ...

لــــستُ أدري!

قد دخلتُ الديرَ أستنطقُ فيه الناسكينا

فـإذا الـقـومُ من الحَـيـرَةِ مِـثـلي بـاهِـتُـونـا

غـلبَ الـيـأسُ عـلـيـهم فـهمُ مُـسـتـسـلِـمـونـا

---

(١) الشديد الملوحة .

(٢) الظلمات (دجية – دجىً).

وإذا بـــالـــبـــاب مـــكــتــوبٌ عــلـــيه:...

لـــستُ أدري!

عجَباً لِلناسِكِ القانِتِ وهْو اللَّوذَعي[1]
هَجَرَ الناسَ وفيهم كلُّ حُسْنِ المُبدِعِ
و مضى يبحثُ عنه في المكانِ البلقَعِ
أَرأى في القفْرِ ماء أم سراباً ؟...

لـــستُ أدري!

كم تُمارِي أيها الناسكُ في الحقِّ الصَّريحْ
لو أراد اللهُ ألا تعشقَ الشيءَ المليحْ
كان إذ سوَّاكَ سوَّاك بلا قلبٍ وروحْ
فالذي تفعلُ إثمٌ.. قال: إني ...

لـــستُ أدري!

أيها الهاربُ! إن العارَ في هذا الفِرارِ
لا صلاحٌ في الذي تصنع حتى للقِفارِ
أنت جَانٍ، أيُّ جانٍ، قاتلٌ في غيرِ ثارِ؟
أَفيرضى اللهُ عن هذا ويعفو ؟...

لـــستُ أدري!

بين المقابر

ولقد قلتُ لنفسي وأنا بينَ المقابرْ
هل رأيتِ الأمنَ والراحةَ إلا في الحفائرْ
فأشارتْ فغدا للدُّودِ عَيْثٌ في المحَاجر
ثم قالت: أيــهــا الــســائلُ إني...

لـــستُ أدري!

---

(١) لذع برأيه : أسرع في الفهم كإسراع النار إلى الإحراق، فهو (لوذعيّ)

أُنظُري كيف تساوى الكلُّ في هذا المكانِ
وتلاشَى في بقايا العبدِ ربُّ الصَّولَجانِ
والتقى العاشقُ والقَالي[1] فما يفترقانِ
أَفَبِذَا مُنتهَى العدلِ ؟ فقالت :
لستُ أدري!

إنْ يكُ الموتُ قِصاصَاً أيُّ ذنب للطهارَهْ
وإذا كان ثواباً، أيُّ فضل للدَّعَارهْ
وإذا كان وما فيه جزاءٌ أو خسارَهْ
فَلِمَ الأسماءُ : إثمٌ وصلاحٌ ؟
لستُ أدري!

أيها القبرُ تكلَّمْ واخْبرِيني يا رِمامْ[2]
هل طوى أحلامَكِ الموتُ وهل ماتَ الغَرام ؟
من هو المائِتُ من عامٍ ومن مليونِ عام ؟
أيصيرُ الوقتُ في الأرماسِ مَحواً ؟
لستُ أدري!

إن يكُ الموتُ رُقاداً بعدَهُ صحوٌ طويلْ
فلماذا ليس يبقى صَحْوُنا هذا الجميلْ ؟
ولماذا المرءُ لا يدري متى وقتُ الرَّحيلْ ؟
ومتى ينكشِفُ السِّرُّ فيدري ؟
لستُ أدري!

---

(١) المبغض (قلاه).
(٢) بقايا .

إن يكُ الموتُ هُجُوعاً يملأ النفس سلاما
وانعتاقاً لا اعتقالاً وابتداءً لا خِتاما
فلماذا أعشَقُ النوم ولا أهوى الحِمَاما
ولماذا تجزَعُ الأرواحُ منه ؟

لستُ أدري!

أوراءَ القبر بعد الموتِ بعثٌ ونُشورُ
فحياةٌ فخلودٌ أم فناءٌ فدُثُورُ
أكلامُ الناسِ صدقٌ أم كلامُ الناس زورُ
أصحيحٌ أنَّ بعضَ الناسِ يَدري ؟

لستُ أدري!

إن أكنْ أُبعَثُ بعدَ الموتِ جُثماناً وعَقْلا
أتُرى أُبعَثُ بعضاً أم تُرى أُبعثُ كُلاّ
أتُرى أُبعَثُ طفلاً أم تُرى أُبعثُ كَهلا
ثُمَّ هل أعرفُ بعدَ البعث ذاتي ؟

لستُ أدري!

يا صديقي لا تُعلِّلْني بتَمْزيقِ السُّتُورِ
بعدما أقضي، فعقلي لا يُبَالي بالقشُور
إن أكُن في حالةِ الإدراكِ لا أدري مَصيري
كيف أدري بعدما أفقِدُ رُشْدي ؟

لستُ أدري!

القصر والكوخ

ولقد أبصَرْتُ قصراً شاهقاً عالي القبابْ
قلتُ ما شادكَ مَن شادكَ إلا للخَرابْ

أنت جزءٌ منه لكنْ لستَ تدري كيف غابْ
وهو لا يعلمُ ما تحوي .. أيدري؟
لستُ أدري!
يا مثالاً كان وهْماً قبلما شاء البُناةُ
أنتَ فكرٌ من دماغٍ غيَّبَتْه الظلماتُ
أنتَ أمنيَّةُ قلبٍ أكلَتْهُ الحشراتُ
أنت بانيكَ الذي شادَكَ.. لا . لا
لستُ أدري!
كم قصورٍ خالها الباني ستبقى وتدومْ
ثابتاتٍ كالرَّواسي، خالداتٍ كالنجوم
سحَبَ الدهرُ عليها ذيلَهُ فهْي رسوم
ما لنا نبني وما نبني لهدمٍ ؟
لستُ أدري!
لم أجد في القصرِ شيئاً ليس في الكوخ المَهينِ
أنا في هذا وهذا عبدُ شَكّي ويقيني
وسجينُ الخالدَيْنِ: الليلِ والصبحِ المبين
هل أنا في القصر أم في الكوخ أرقى؟
لستُ أدري!
ليس لي في الكوخ أو في القصر من نفسي مهربْ
إنني أرجو وأخشى، إنني أرضى وأغضب،
كان ثوبي من حريرٍ مُذْهبٍ أو كان قنَّب
فلماذا يتَمنَّى الثوبَ عارٍ ؟
لستُ أدري!
سَائلِ الفجرَ أعندَ الفجرِ طينٌ ورخامْ ؟
واسألِ القصرَ ألا يُخفيه كالكوخِ الظلام ؟

واسـألِ الأنجمَ والريحَ وسلْ صـوبَ الـغمَام
أتَــرى الــشـيءَ كـمــا نــحن نــراه ؟
لـــستُ أدري!

الفكر

رُبَّ فـكـرٍ بـانَ في لـوحـةِ نـفـسي وتجلّى
خِـلـتُه مـنّي ولـكنْ لم يُـقمْ حـتى تـولّى
مـثلَ طيفٍ لاحَ في بـئرٍ قـليلاً، واضمـحلاّ
كــيف وافـى ولمــاذا فَــرّ مــنى ؟
لـــستُ أدري!

أتَراهُ سائـحاً في الأرض من نَفْسٍ لأخرى
رابَهُ مــنيَ أمــرٌ فــأبى أن يــسـتَـقِـرَّا
أم تـراهُ مَرَّ في نـفسي كما أعبُرُ جـسرا
هل تــراه قــبل نــفـسي غـيــرُ نـفـسي ؟
لـــستُ أدري!

أتُــراه بــارقــاً أومضَ حــيـنــاً وتــوارى
أم تُراه كان مـثلَ الطيـر في سجنٍ فطارا
أم تُراه انحلّ كـالموجـةِ في نفسي وغـاَرا
فــأنــا أبــحثُ عــنه وهــوَ فــيــهــا ؟
لـــستُ أدري!

صراع وعراك

إنني أشـهـدُ في نفسي صـراعـاً وعِـراكـا
وأرى ذاتيَ شـيـطـانـاً وأحـيـانـاً مَلاكـا
هل أنا شخصَان يأبى ذاك مع هذا اشتراكا
أم تُــراني واهِــمــاً فــيــمَــا أراهُ ؟
لـــستُ أدري!

بينما قلبيَ يَحكي في الضحى إحدى الخَمائلْ
فـيه أزهــارٌ، وأطــيــارٌ تُـغـنِّي، وجـداول
أقبلَ العصرُ فأمسى موحشاً كالقفرِ قاحل
كـيف صــار الـقـلبُ روضــاً ثم قَـفـراً ؟

لـــستُ أدري!

أين ضـحـكي وبكائي وأنـا طفلٌ صـغيـرُ
أين جــهـلي ومـرَاحي وأنــا غضٌّ غَـريـرُ
أين أحلامـي وكانت كيفما سِرتُ تسيرُ
كـلُّـهـا ضــاعتْ ولـكن كـيف ضــاعتْ ؟

لـــستُ أدري!

ليَ إيمــانٌ، ولــكنْ لا كــإيمــاني ونُـسْـكي
إنني أبكي، ولـكنْ لا كمـا قـد كـنتُ أبكي
وأنـا أضـحكُ أحـيـانـاً ولـكنْ أيَّ ضِـحْكِ!
لـيت شِـعـري مــا الــذي بـدَّل أمــري ؟

لـــستُ أدري!

كلَّ يـومٍ ليَ شــانٌ، كلَّ حـينٍ لي شــعـورْ
هل أنــا الــيومَ أنــا، مـنـذُ لـيـالٍ وشـهـور
أم أنـا عندَ غروبِ الشمسِ غَيرِي في البُكُور
كـلَّـمــا ســاءلتُ نـفـسـي جـاوبَـتـني:

لـــستُ أدري!

ربَّ أمـرٍ كنتُ، لـمَّـا كـان عـنـدي، أتّـقـيهْ
بِتّ لــمَّـا غـاب عـنـي وتـوارى أشـتَـهـيه
مـا الـذي حـبَّبَهُ عـنـدي ومـا بـغَّـضـنـيه
أأنــا الـــشـــخصُ الـــذي أعــرض عــنهُ ؟

لـــستُ أدري!

رُبَّ شخصٍ عشتُ مَعْهُ زمناً ألهو وأمرحْ
أو مكانٍ مَرَّ دهرٌ وهوَ لي مَسْرًى ومسرح
لاح لي في البُعدِ أجلَى منه في القُربِ وأوضَح
كيف يبقى رسمُ شيءٍ قد توارى ؟

لستُ أدري!

رُبَّ بستانٍ قضَيتُ العمرَ أحمي شجَرَهْ
ومنعتُ الناسَ أن تقطفَ منه زهَرَه
جاءتِ الأطيارُ في الفجرِ فناشَتْ ثمرَه
أَ لأطْيارِ السّما البستانُ أم لي ؟

لستُ أدري!

رُبَّ قُبحٍ عند زيدٍ هوَ حُسْنٌ عند بَكْرِ
فهما ضِدّانِ فيه، وهو وهْمٌ عند عمرِو
فمن الصّادقُ فيما يدّعيه ليت شعري
ولماذا ليس للحُسنِ قياسٌ ؟

لستُ أدري!

قد رأيتُ الحُسنَ يُنسى مثلما تُنسى العيوبْ
وطلوعُ الشمس يُرجى مثلما يُرجى الغروب
ورأيتُ الشرَّ مثلَ الخيرِ يَمضي ويؤوب
فلماذا أحَسبُ الشرَّ دخيلاً ؟

لستُ أدري!

إنَّ هذا الغيثَ يهمي حين يَهمي مُكْرَها
وزهورُ الروض تُفشي مُجبراتٍ عِطرَها
لا تَطيقُ الأرضُ تخفي شوكَها أو زهرَها
لا تسلْ: أيهما أشهى وأبهى ؟

لستُ أدري!

قد يـصـيـرُ الـشّوكُ إكـلـيلاً لمـلْكٍ أو نـبيْ
ويـصـيـرُ الـوردُ في عُـروَة لصٍّ أو بـغيْ
أيـغارُ الشوكُ في الحقلِ من الزهر الجَنيْ
أم تُـرى يَـحـسَـبَه أحـقـرَ مـنهُ ؟

لـستُ أدري!

قد يقيني الخطرَ الشوكُ الذي يجرحُ كفِّي
ويكون السمُّ في العطر الذي يملأ أنفي
إنما الوردُ هو الأفضلُ في شَرْعي وعُرفي
وهـوَ شـرعٌ كـلُّهُ ظـلمٌ ولـكنْ

لـستُ أدري!

قد رأيتُ الشُّهبَ لا تدري لماذا تُشرقُ
ورأيتُ السُّحبَ لا تدري لماذا تُغدِق
ورأيتُ الغابَ لا تدري لماذا تورِق
فلماذا كلها في الجهل مِثلي ؟

لـستُ أدري!

كلما أيقنتُ أني قد أمَطتُ السِّترَ عنّي
وبلغتُ السرَّ سرِّي، ضحكتْ نفسيَ منّي
قد وجدتُ اليأسَ والحَيرةَ لكن لم أجِدْني
فهل الجهلُ نعيمٌ أم جحيمٌ ؟

لـستُ أدري!

لَذَّةٌ عنديَ أن أسمعَ تغريدَ البلابلْ
وحفيفَ الورَقِ الأخضرِ أو همسَ الجداول
وأرى الأنجُمَ في الظلماء تبدو كالمشاعلِ
أتُرى منها أم اللَّذةُ منِّي ؟

لـستُ أدري!

أَتُـراني كـنتُ يـومـاً نـغَـمـاً في وتَـرِ
أم تُـراني كـنت قَـبلاً مـوجـةً في نَـهَـر
أم تـراني كنتُ في إحدى الـنجوم الـزُّهُـر
أم أريـجـاً أم حـفَـيـفـاً أم نـسـيـمـاً ؟

لـستُ أدري!

فِـيَّ، مـثلُ الـبـحـر، أصـداف ورملٌ ولآلْ
فِـيّ كـالأرض مـروجٌ وسـفـوحٌ وجـبـال
فِـيّ كـالجـوِّ نجـومٌ.. وغـيـومٌ وظِلال
هل أنـا أرضٌ وبـحـرٌ وسـمـاءٌ ؟

لـستُ أدري!

من شرابي الـشُّـهدُ والخمرةُ والماءُ الـزُّلالْ
من طعامي البَقلُ والأثمار واللحمُ الحَلالْ
كم كيانٍ قد تلاشَى في كِياني واستحالْ
كم كـيـانٍ فـيه شيءٌ من كِـيـاني ؟

لـستُ أدري!

أأنا أفصَحُ من عصفورةِ الوادي وأعذبْ ؟
ومن الزهرة أشهى ؟ وشذا الزهرةِ أطيب ؟
ومن الحيَّة أدهى ؟ ومن النملة أغرب ؟
أم أنـا أَوضَعُ من هـذي وأدنى ؟

لـستُ أدري!

كلُّها مثليَ تحيا، كلُّها مِثلي تموتُ
ولها مثلي شرابٌ، ولها مثليَ قوتُ
ورقـادٌ وانـتـبـاهٌ وحـديثٌ وسـكـوتُ
فـبـمـا أمـتـازُ عـنـهـا لـيت شِـعـري ؟

لـستُ أدري!

قد رأيتُ النملَ يسعى مثلما أسعى لرزقي
وله في العيش أوطارٌ وحقٌ مثلُ حقِّي
قد تساوى صمتُهُ في نظرِ الدهر ونُطقي
فكِلانا صائرٌ يوماً إلى ما...
لستُ أدري!

أنا كالصَّهباءِ، لكنْ أنا صَهبائي ودَنِّي
أصلُها خافٍ كأصلي، سِجْنها طينٌ وسجني
ويزاحُ الخَتْمُ عنها مثلما ينشَقُّ عني
وهي لا تفقَهُ معناها، وإني...
لستُ أدري!

غَلِطَ القائلُ: إنَّ الخمرَ بنتُ الخابيهْ
فهيَ قبلَ الزِّقِ كانت في عُروق الدَّاليه
وحواها قبلَ رَحْم الكرْمِ رحمُ الغاديَه
إنما من قبلِ هذا أينَ كانت ؟
لستُ أدري!

هيَ في رأسيَ فِكرٌ وهيَ في عَينيَ نورُ
وهيَ في صدريَ آمالٌ وفي قلبي شُعورُ
هيَ في جسمي دمٌ يسرُبُ[1] فيه ويَمور
إنما من قبلِ هذا كيفَ كانت؟
لستُ أدري!

أنا لا أذكرُ شيئاً من حياتي الماضيهْ
أنا لا أعرفُ شيئاً من حياتي الآتيه

---

(١) سرب في الأرض : ذهب على وجهه

لِيَ ذاتٌ غَيرَ أني لستُ أدري ما هيَه
فمتى تعرفُ ذاتي كُنْهَ ذاتي ؟
لستُ أدري!
إنني جئتُ وأمضي، وأنا لا أعلَمُ
أنا لَغْزٌ، وذهابي كمجيئي طِلْسَم
والذي أوجدَ هذا اللّغز لَغزٌ مُبهَم
لا تُجادِلْ ذا الحِجا من قال: إني
لستُ أدري!

****

المحتـــوى

الديـــوان الثـالـث

(الجــداول)

****

الديوان الرابع

(الخمـــائل)

الطبعة الأولى (مطبعة جريدة «السمير» - نيويورك ١٩٤٠).

يضم سبعة وخمسين نصّاً شعريّاً، بين طويل ومعتدل وقصير، يقع ضمنها نصُّه الكبير المعروف «الأسطورة الأزلية». وهو آخر ديوان صدر له في حياته، وتمّ طبعه في مطبعة جريدته «السمير»، قبل وفاته بسبعة عشر عامًا (١٩٥٧).

****

١ - المدخل

[الخفيف]

وقـــعتْ نـــحـــلـــةٌ عـــلـى الأُقـــحُـــوانِ

فـــإذا فـي الـــقَـــفـــيـــرِ شُـــهْـــدُ

ومـــشَتْ بـــعـــدَهـــا عـــلـى الأغـــصـــانِ

دودةٌ فـــالـــغـــصـــونُ جُـــرْدُ

✡✡✡✡✡

وهَـمَى الـغـيثُ في الحـقـول فـفـيـهـا

شـــجـــرٌ وارفٌ وزهـــرُ

وأطـابَ الـرِّمـالَ كي يُـحْـيـيـهـا

فـــهُـــمـــا مـــيِّتٌ وقَـــبْـــر

✡✡✡✡✡

أنـــا غـــيثٌ، فـــإنْ وجـــدتُكَ حـــقلاً

فـــأنـــا الـــعـــشبُ والـــشـــجـــرْ

غـــيـــرَ أني، إذا لـــقِـــيـــتُكَ رملاً،

لـــستُ شـــيـــئـــاً حـــتى المـــطـــرْ

✡✡✡✡✡

وأنـــا الأقـــحـــوانُ سِـيَّـــانُ عـــنـــدي

عـــشتُ يـــومـــاً أو بـــعضَ يـــومِ

لا أُبـــالي الـــفـــنـــاءَ إن كـان مـــجـدي

في فـــنـــائـي أو مـــجـــدُ قـــومي

✡✡✡✡✡

إنْ تَـــغِبْ في فـــراشـــةٍ ألـــواني

فـــأنـــا زهـــرةٌ تـــطـــيـــرُ

وإذا انـــحلَّ في الـــشُّـــعـــاعِ كـــيـــاني

فـــأنـــا في الـــضُّـــحَى عـــبـــيـــرُ

✡✡✡✡✡

جَـــنِّـــبـــوني الـــفـــنـــاءَ في الـــديـــدانِ

إنّهُ الـــمَـــصـــرعُ الـــكَـــريهْ

وانـــعـــدامُ الأريـــجِ والألـــوانِ

وانـــدثـــارٌ لا مـــجـــدَ فـــيهْ

✡✡✡✡✡

كُنْ شُـــعـــاعـــاً يَـــبـــينُ فـــيه كِـــيـــاني

لا ظـــلامـــاً ولا رَغـــامْ[1]

ولأعِشْ في الـــشُّـــعـــاعِ بِـــضعَ ثـــوانِ

فـــهـــيَ خـــيـــرٌ من ألـــفِ عـــامْ

✱✱✱✱

(١) التراب.

٢ - الشاعر والملك الجائر

[مختلط]

أمَرَ السلطانُ بالشاعرِ يوماً فأتاهُ

في كساءٍ حائلِ الصِّبغةِ واهٍ جانباه

وحذاءٍ أوشكت تُفلتُ منه قدماه

قال: صِفْ جاهي، ففي وصفكَ لي للشِّعرِ جاه

إنّ لي القصرَ الذي لا تبلُغُ الطيرُ ذراه

وليَ الروضُ الذي يعبَقُ بالمسكِ ثراه

وليَ الجيشُ الذي ترشحُ بالموتِ ظُباه(١)

وليَ الغاباتُ والشُّمُّ الرواسي والمياه

وليَ الناسُ .. وبؤسُ الناس مني والرَّفاه

إن هذا الكونَ مُلكِي، أنا في الكونِ إلهٌ!

✡✡✡✡✡

ضحكَ الشاعرُ مما سمعَتْهُ أذُناهُ

وتمنَّى أن يُداجي(٢) فعصَتْهُ شفتاهُ

قال: إني لا ارى الأمرَ كما أنت تراهُ

إن مُلكي قد طوَى ملكَكَ عني ومَحَاهُ

✡✡✡✡✡

القصرُ يُنبئُ عن مهارةِ شاعرٍ

لَبِقٍ، ويُخبرُ، بَعدهُ عنكا

(١) الظبة: حد السيف.

(٢) المداجاة: المداراة.

هـــو لـلأُلـى يَــدرونَ كُــنْهَ جـمـــالـهِ
فـــإذا مـــضـــوا فـــكـــأنـه دُكَّـــا
ســــتـــــزولُ أنت ولا يــــزولُ جـلالُـهُ
كـــالـفُــلك تــبـقى، إن خَــلَتْ، فُــلــكـا
والــروضُ؟ إن الــروضَ صَـنـعـةُ شـاعـرٍ
سَــمْحٍ طـــروبٍ رائـقٍ جـــزلِ
وشّــى حـــــواشــــيَـهُ وزيّـن أرضَــهُ
بـــــروائـعِ الألـــوانِ والـــظّلِّ
لــفـراشــةٍ تحـيــا لـه، ولــنـحـلــةٍ
تحــيــا بـه، ولـــشــاعــرٍ مِــثــلـي!
ولـــديَـمـــةٍ تَـذري عــلــيه دمـوعَــهَــا
كــيـمـــا تَـقِـيـه غــوائلَ الــمَـحلِ
ولـــبـلــبلٍ غَــردٍ يــســاجلُ بـلــبلاً
غَـرِداً، ولـــلــنــســمــاتِ والــطلِّ
فــإذا مــضـى زمنُ الــربـيـعِ أضـعــتَهُ
وأقـــام فـي قـــلـــبي وفـي عـــقـــلـي!

✵✵✵✵✵

والجــيشُ مــعـــقــودٌ لــواؤكَ فــوقَهُ
مـــا دمتَ تــكــســـوهُ وتـــطــعِــمُهُ
لـــلـــخـــبـــزِ طـاعـــتُهُ وحُـــسْنُ ولائهِ
هــو « لاتُهُ » « الـــكـــبـــرى و« بَــرْهَــمُهُ »[1]
فــإذا يــجــوعُ بـظلِّ عـرشِكَ لـيـلـةً
فــهــو الــذي بـيــديه يَــحْـطِــمُهُ
لك مـــنـه أســيُــفُهُ[2] ولـــكنْ في غـــدٍ
لـــســـواكَ أســيُـــفُه وأســـهُـــمُهُ

---

(١) يريد: اللات. وبْراهما الإله الذي خلق العالم واتحد به في عقائد الهندوكية، والنسبة إليه: برهمي.
(٢) يجمع السيف، في معاجم اللغة، على: أسياف وسيوف.

أتـــراهُ ســـار إلى الـــوغى مُـــتـــهـــلَّلاً
لـــولا الـــذي الـــشّـــعـــراءُ تَـــنـــظِـــمُه؟
وإذا تـــرنّمَ هلْ بـــغـــيـــرِ قـــصـــيـــدةٍ
من شـــاعـــرٍ مـــثـــلـــي تـــرنُّـــمُه؟
✡✡✡✡✡
والـــبـــحـــرُ، قـــد ظـــفِـــرتْ يـــداكَ بـــدُرِّهِ
وحـــصـــاهُ، لـــكن هل مـــلـــكتَ هـــديـــرَهُ؟
هُـــوَ لـــلـــدجى يُـــلـــقِي عـــلـــيه خـــشـــوعَهُ
والـــصُّـــبحُ يـــسكبُ، وهـــو يـــضـــحكُ، نـــورَهُ
أَمَـــرجْتَ أنت مـــيـــاهَهُ؟ أصَـــبـــغتَ أنـ
ـتَ رمـــالَهُ؟ أجَـــبـــلتَ أنت صـــخـــورَه؟
هـــو لـــلـــريـــاحِ تـــهـــزُّهُ وتـــثـــيـــرُهُ
والـــشـــهبُ تـــســـمعُ في الـــظلامِ زئـــيـــرَهُ
لـــلـــطـــيـــرِ هـــائـــمـــةً به مـــفـــتـــونـــةً
لا لـــلـــذينَ يـــروِّعـــونَ طـــيـــورَه
لـــلـــشـــاعـــرِ الـــمـــفـــتـــون يـــخـــلقُ لاهـــيـــاً
مِن مَـــوجِه حُـــوراً ويـــعـــشقُ حـــورَه
ولمنْ يـــشـــاهـــدُ فـــيه رمـــزَ كـــيـــانِه
ولمن يـــجـــيـــدُ لـــغـــيـــرِه تـــصـــويـــرَه
يـــا مَن يـــصـــيـــدُ الـــدُّرَّ من أعـــمـــاقه
أخـــذتْ يـــداكَ من الجـــلـــيلِ حـــقـــيـــرَه
لا تـــدَّعـــيـــهِ.. فـــلـــيس يُـــمْـــلَكُ، إنه
كـــالـــروضِ جـــهـــدُكَ أن تـــشَمّ عـــبـــيـــرَه
✡✡✡✡✡
ومـــررتُ بـــالجـــبلِ الأشمِّ فـــمـــا زوَى
عـــني مـــحـــاســـنَهُ ولـــستُ أمـــيـــرا

ومـــررتَ أنت فـــمـــا رأيتَ صـــخـــورَهْ

ضـــحـــكتْ ولا رقــصتْ لــديكَ حُــبــورا

ولـــقـــد نـــقَـــلتُ لـــنـــمـــلهِ مـــا تـــدّعي

فـــتـــعـــجـــبتْ، ممـــا حـــكـــيتُ، كـــثـــيـــرا

قـــالت: صـــديـــقُكَ مـــا يـــكـــونُ؟ أقَـشْـعَـمـاً

أم أرْقَـمـاً؟ أم ضَـيـغَـمـاً هَـيـصُـورا؟[1]

أيـــحُـــوكُ مـــثْلَ الـــعـــنـــكـــبـــوتِ بـــيـــوتَهُ

حَـوْكـاً؟ ويـبـنـي كـالـنّـسـورِ وكـورا؟

هل يملأُ الأغـــوارَ تِـــبـــراً كـــالـــضُّـــحى

ويـــردُّ كـــالـــغـــيثِ المَـــواتَ نـــضـــيـــرا؟

أيـــلـــفُّ كـــالـــلـــيل الأبـــاطحَ والـــرُّبَـــا

والمـــنـــزلَ المـــعـــمـــورَ والمـــهـــجُـــورا؟

فـــأجـــبـــتـــهـــا: كلاَّ! فـــقـــالتْ: سَـــمِّهِ

في غـــيـــرِ خـــوفٍ، «كـــائـــنـــاً مـــغـــرورا!»

✡✡✡✡✡

فـــاحـــتـــدمَ الـــســـلـــطـــانُ أيَّ احـــتـــدامْ

ولاحَ حبُّ الـــبـــطشِ في مـــقـــلـــتـــيهْ

وصـــاحَ بـــالجلاّدِ: هـــاتِ الحـــســـامْ!

فـــأســـرعَ الجلاّدُ يـــســـعى إلـــيهْ

فـــقـــال: دحـــرجْ رأسَ هـــذا الـــغلامْ

فـــرأسُهُ عبءٌ عـــلـــى مَـــنْـــكـــبـــيهْ

قـــد طُـــبع الـــســـيفُ لحـــزِّ الـــرقـــابْ

وهـــــذهِ رقْـــــبـــــةُ ثـــــرثـــــارِ

---

(١) القشعم: النسر الذكر العظيم. والأرقم: ذكر الحيات أو أخبثها. والضيغم: الأسد. يريد بالهيصور: الهصور

اقـتـلْهُ.. واطـرحْ جـسـمَهُ لـلـكلابْ
ولـتـذهبِ الـروحُ إلى الـنـار

✡✡✡✡✡

سـمْـعًـا وطَـوعـاً سـيـدي!.. وانـتـضَى
عَـضْـبـاً [1] يمـوجُ المـوتُ في شـفـرتـيهْ
ولـم يـكـنْ إلا كـبـرقٍ أضَـا
حـتى أطـار الـرأسَ عن مَـنـكِـبـيه
فـسـقط الـشـاعـرُ مُـعْـرَوْرَضًـا
يُـخـدِّش الأرضَ بـكـلـتـا يـديه[2]
كـأنمـا يـبـحـثُ عن رأسه
فـاسـتـضْـحكَ الـسلـطـانُ من سـجـدتهْ
ثم اسـتـوى يـهـمسُ في نـفـسه
«ذو جُـنَّـةٍ»[3] أمـسـى بلا جُـنَّـتِهْ

✡✡✡✡✡

أجلْ، هَـكَـذا هـلكَ الـشَّـاعـرُ
كـمـا يـهـلِكُ الآثمُ المـذنبُ
فـمـا غَصَّ في روضـةٍ طـائـرُ
ولم يـنـطـفئْ في الـسَّـمـا كـوكب
ولا جـزِعَ الـشـجـرُ الـنـاضـرُ
ولا اكـتـأبَ الجـدولُ الـمُـطـرَب
وكُـوفِـئَ عن قـتـلـه الـقـاتلُ
بمـالٍ جـزيلٍ وخـدٍّ أسـيلْ
فـقـال له خُـلْـقُهُ الـسَّـافلُ،
ألا لـيت لي كلّ يـومٍ قـتـيلْ!

✡✡✡✡✡

---

(١) السيف القاطع (عضب: قطع).

(٢) الـمَرْمِيّ بما يقتله ويرميه معترضـاًبم على الأرض. (٣) السترة.

في لـــيــلـــةٍ طــامِــسَـــةِ الأنجمِ
تَــســـلّلَ المـــوتُ إلى الـــقــصـــرِ
بـــين حـــرابِ الجـــنـــدِ والأســـهُمِ
والأســيُفِ الـــهــنــديّـــةِ الحُـــمـــر
إلـى سَـــريـــرِ المـــلكِ الأعـــظمِ
إلى أمـــيـــرِ الـــبـــرِّ والـــبــحـــر!!
فـــفــارقَ الـــدنــيـــا ولـــمّـــا تـــزلْ
فـــيـــهـــا خُـــمـــورٌ وأغـــاريـــدُ
فـلـم يَـمـِـدْ حُـزنـاً عــلـيه الجـبَلْ
ولا ذوَى في الـــــروضِ أُمـــــلُـــود

✡✡✡✡✡

في حـــوْمـــةِ المـــوتِ وظلِّ الـــبِـلَى
قــد الـتَـقى الـسـلـطـانُ والـشـاعـرُ
هـــذا بلا مـــجْـــدٍ، وهـــذا بلا
ذلٍّ، فـلا بـــــاغٍ ولاثـــــائــــــرُ
عـــانــقتِ الأســـمَـــالُ تـــلك الحُـــلى
واصـــطـــحبَ المـــقـــهـورُ والـــقـــاهـــر
لا يَـــجـــزعُ الـــشـــاعـــرُ أن يُـــقـــتَلا
لـــيس وراءَ الـــقـــبـــرِ ســـيفٌ ورمحْ
ولا يـــبـــالي ذاك أن يُـــعْـــذلا
ســِيّـــانِ عـــنـــد المـــيْتِ ذمٌ ومـــدح

✡✡✡✡✡

وتـــوالتِ الأجـــيـــالُ تَـــطَّـــردُ
جـــيلٌ يـــغـــيبُ وآخـــرٌ يـــفِـــدُ

أخـنتْ عـلى الـقـصـرِ المـنـيفِ فلا
الجـدرانُ قـائـمـةٌ ولا الـعُـمُـدُ
ومـشتْ عـلى الجـيش الـكـثـيفِ فلا
خـيلُ مُـسـوَّمـةٌ ولا زَرَدُ
ذهـبتْ بمَن صـلُـحُـوا ومن فـسَـدوا
ومـضتْ بمن تـعِـسُـوا ومن سَـعِـدوا
وبمن أذابَ الحبُّ مـهـجـتَهُ
وبمن تـأكَّلَ قـلـبَهُ الحـسـدُ
وطـوتْ مـلـوكـاً مـا لـهمْ عـددٌ
فـكـأنـهمْ في الأرض مـا وجـدوا
والـشـاعـرُ المـقـتـولُ بـاقـيـةٌ
أقـوالُهُ فـكـأنـهـا الأبَـد
الـشـيخُ يـلـمِسُ في جـوانـبـهـا
صُـورَ الـهـوى، والحِـكـمـةَ الـولـد

****

٣ - الدمعة الخرساء

[الكامل]

سَمِعَتْ عويلَ النائحات عشيَّةً
في الحيِّ يَبْتَعثُ الأسى ويُثِيرُ
يَبْكينَ في جُنحِ الظلام صبيَّةً
إنَّ البكاءَ على الشّبابِ مَرِيرُ[1]
فَتَجهَّمتْ وتلفَّتَت مُرتاعةً
كالظبي أيقنَ أنه مأسُور
وتحيَّرتْ في مقلتيها دمعةٌ
خرساءُ لا تَهْمي وليس تغور
فكأنها بَطلٌ تكنَّفَهُ العدا
بسيوفهمْ وحُسَامهُ مكسور
وجمتْ فأمسى كلُّ شيءٍ واجماً
النورُ والأظلالُ والدَّيجور
الكونُ أجمعُ ذاهلٌ لذهولها
حتى كأن الأرضَ ليس تدور
لا شيءَ مما حولَنا وأمامنا
حسَنٌ لديها والجمالُ كثير
سَكتَ الغديرُ كأنما الْتَحَفَ الثَّرَى
وسَها النَّسيمُ كأنه مذعور
وكأنما الفَلَكُ المُنوَّرُ بُلقعٌ

---

(١) يريد: مرٌّ، على الشائع في الاستعمال.

والأنجمُ الزهراءُ فيه قبور

كانت تمازِحُني وتضحكُ، فانتهى

دَوْرُ المُزاحِ، فَضِحْكها تفكير

قالت، وقد سَلَخَ ابتسامتَها الأسى،

«صَدقَ الذي قال: الحياةُ غرور»

أكذا نموتُ وتنقضي أحلامُنا

في لحظةٍ، وإلى التُّرابِ نصير»

وتموجُ ديدانُ الثَّرى في أكْبُدٍ

كانت تموجُ بها المُنى وتمورُ

«خيرٌ إذن منا الأُلى لم يولدوا

ومِن الأنام جَلامدٌ وصخور»

«ومن العيونِ مكاحِلٌ ومَراودٌ

ومنَ الشِّفاه مساحِقٌ وذُرور»

«ومن القلوبِ الخافقاتِ صبابةً

قصَبٌ لوقْعِ الريحِ فيه صفير»

وتوقفتْ، فشَعرتُ، بعد حديثها،

أن الوجودَ مُشوَّشٌ مبتورُ

الصيفُ ينفُثُ حَرَّهُ من حولنا

وأنا أحِسُّ كأنني مَقْرور

صارت إلى قلبي الشكوكَ فنغَّصتْ

لَيلِيْ، وليس مع الشكوكِ سُرور

وخشيتُ أن يغدو، مع الرِّيبِ، الهوى

كالرسمِ، لا عِطرٌ، وفيه زهور

وكدُميةِ المَثَّالِ حُسْنٌ رائعٌ

ملأ العيون وليس ثَمّ شعور

فأجبتُها: «لتكُنْ لديدانِ الثَّرى

أجسامُنا! إن الجسومَ قُشور»
«لا تجزعي فالموتُ ليس يَضيرُنا
فلَنا إيابٌ بعدَهُ ونُشور»
«إنّا سنبقى بعد أن يمضي الورَى
ويزولَ هذا العالَمُ المنظور»
«فالحُبُّ نورٌ خالدٌ مُتَجَرِدٌ
لا ينطوي إلا ليسطعَ نور»
«وبنو الهوى أحلامُهم ورُوٌاؤهم
لا أعينٌ ومراشفٌ ونحور»
«فإذا طَوتْنا الأرضُ عن أزهارها
وخلا الدجى منا وفيهِ بدور»
«فسترجعينَ خميلةً معطارةً
أنا في ذُراها بلبلٌ مسحور»
«يشدو لها ويطيرُ في جنباتها
فتَهِشُّ إذ يشدو، وحين يطير»
«أو جدولاً مُترقرقاً مترنِّماً
أنا فيه موجٌ ضاحكٌ وخرير»
«أو تَرجِعينَ فراشةً خطّارةً
أنا في جناحيها الضُّحى الموشُور»[1]
«أو نسمةً أنا همسُها وحفيفُها
أبداً تُطوّفُ في الرُّبا وتدور»
«تغشى الخمائلَ في الصباح بليلةٍ
وتؤوبُ، حين تؤوبُ، وهي عبيرُ»
«أو تلتقي عندَ الكثيبِ، على رِضاً

(١) الوشْر: تحديد الأسنان وترقيقها. لعله يريد: شفافية النور في الضحى.

وقـنــاعــةٍ، صــفـصــافــةٌ وغــديــر»
«تــمــتــدُّ فــيه وفـي ثــراهُ عــروقُــهــا
ويـســيـلُ تحت فــروعِــهــا ويــســيــر»
«ويــغــوصُ فــيه خــيــولُــهــا فــيــلــقُّهُ
ويَـشِـفُّ فــهــو الــمُـنـطـوي المـنـشـور»
«يـأوي إذا اشــتــدَّ الــهــجــيــرُ إلــيــهــمــا
الــنــاســكــان: الــظــبـيُ والــعــصــفــورُ»
«لــهــمــا ســكــيــنــتُــهــا ووارفُ ظِـلِّــهــا،
والمــاءُ إن عــطِــشــا لــديه وفــيــر»
«أعــجُــوبــتــانِ: زَبَــرجَــدٌ مــتــهــدِّلٌ
نــامٍ، تــدفَّقَ تحــتَهُ الــبــلُّــور»[1]
«لا الــصــبحُ بــيـنـهـمـا يــحـولُ ولا الــدُّجى
فــكلاهــمــا بــكــلــيــهــمــا مــغــمــور»
«تــتــعــاقــبُ الأيــامُ وهـيَ نــضــيــرةٌ
مــخــضــرَّةُ الأوراق وهــو نَــمــيــر»
«فــالــدهــرُ أجــمــعُه لــديــهــا غــبــطــةٌ
والــدهــرُ أجــمــعهُ لــديه حُــبــور»
فـتَـبـسـمتْ، وبـدا الـرضـا في وجـهـهـا،
إذ راقــهــا الــتــمــثــيلُ والــتَّــصــويــر
عــالجــتُــهــا بــالــوهمِ، وهـي قَــريــرةٌ،
ولَــكَم أفــادَ الــمُــوجَعَ الــتَــخــديــرُ
ثم افــتَــرقــنــا ضــاحــكَــيْنِ إلى غــد
والــشُّــهبُ تــهــمُسُ فــوقــنــا وتــشــيــر
هـيَ كــالمــســافــرِ آبَ بــعــد مــشــقَّــةٍ
وأنــا كــأني قــائــدٌ مــنــصــور

(١) الزبرجد: جوهر يقال إنه الزمرّد.

✡✡✡✡

لــكـــنـــنـي لـــمّـــا أويْتُ لـمـضْـــجَـــعي

خَــشُنَ الــفــراشُ عــلـيَّ وهـــو وثـــيــر

وإذا سِــراجي قــد وَهَتْ وتــلــجْــلَــجتْ

أنـــفـــاسُهُ، لـــكـــأنه الـــمَـــصـــدور

وأجَــلْتُ طــرفي في الـكِـتـاب فلاحَ لي

كـالـرسم مـطـمـوسـاً وفـيـه سـطـور

وشـربتُ بـنتَ الـكـرمِ أحـسبُ راحـتي

فـيـهـا، فـطـاشَ الـظنُّ والـتـقـديـرُ

فـكـأنـني فُـلْكٌ وهتْ أمـراسُـهـا

والـبـحـرُ يـطـغى حـولـهـا ويـثـور

سـلَبَ الـفـؤادَ رُؤاه والجـفنَ الـكرى

همٌّ عَـــرَا فـــكلاهـــمـــا مَـــوتـــور

حــامتْ عـلى روحي الـشـكوكُ كـأنـهـا

وكـــأنـــهنَّ فـــريـــســـةٌ وصـــقـــور

ولـقـد لجـأتُ إلى الـرجـاء فـعـقَّـني

أمـــا الـــرجـــاء فـــخَـــائبٌ مـــدحـــور

يـــا لـــيلُ! أينَ الـــنـــور؟ إنـي تـــائهٌ،

مُــرْ يَـنـبَـثِقْ، أمْ لـيس عـنـدكَ نـور

أكـذا نمـوتُ وتـنـقـضـي أحلامُـنـا

في لحـظـةٍ، وإلى الـترابِ نـصـيـر

✱✱✱✱

٤ - الفيلسوف المجنّح

[الكامل]

يا أيها الشّادي المغرّدُ في الضحى
أهواكَ إنْ تُنْشدْ وإن لم تنشدِ

الفنُّ فيكَ سَجيّةٌ لا صَنعةٌ
والحبُّ عندكَ كالطبيعةِ سَرمدي

فإذا سكتَّ فأنتَ لحنٌ طائرٌ
وإذا نطقتَ فأنت غيرُ مقلِّد

للهِ دَرُّكَ شاعراً لا ينتهي
من جيّدٍ إلا صَبَا للأجود

مرَحُ الأزاهرِ في غِنائكَ، والشَّذا،
وطلاقةُ الغُدْرانِ والفجرِ النَّدي

وكأن زَوْرَكَ فيه ألفُ كمنجة
وكأنَّ صدرَكَ فيه ألفُ مُرَدِّد

كم زهرةٍ في السّفحِ خَادرةِ[1] المُنى
سكنتْ على يأسٍ سكونَ الجَلْمد

غنَّيتَها فاستيقظتْ وترنَّحتْ
وتألّقتْ كالكوكبِ المتوقِّد

وجرى الهوى فيها، وشاعَ بَشاشةً
مَن لم يُحبَّ فإنه لم يولدِ

وكأنني بكَ، حينَ تهتفُ، قائلٌ
للزهرِ: إنَّ الحسنَ غيرُ مُخَلّد

---

(١) الخادر: الفاتر الكسلان.

فاستنفدي في الحبِّ أيامَ الصِّبا
واسْترشديه فهْوَ أصدقُ مُرشِدِ
واستشهدِي فيه، فَمِنْ سُخْرِ القَضا
أن لا تنوقيه وأن تُستَشهَدي

✲✲✲✲✲

يا فيلسوفاً قد تلاقى عندَهُ
طَرَبُ الخَليِّ وحُرْقةُ المتوجِّد[1]
رفعَ الربيعُ لك الأرائِكَ في الرُّبا
وكَسا حواشِيَها بُرودَ زَبَرجد
أنت المليكُ له الضياءُ مقَاصِرٌ
وتعيشُ عَيشَ الناسكِ المتزهِّد
مستوفزاً فوق الثرى، متنقِّلاً
في الدَّوحِ، من غصنٍ لغصنٍ أمْلد[2]
متزوِّداً من كلّ حُسْنٍ لمحةً
شأنُ المحبِّ الثائرِ المُتَمرِّد
وإذا ظفِرتَ بنفحةٍ وبقطرةٍ
فلقد ظفِرْتَ بروضةٍ وبمَوْردِ
تشدو وتَبهَتُ حائراً متردداً
حتى كأنك حين تُعطي تَجْتدي
وتمدُّ صوتَكَ في الفضا متلهّفاً
في ذلَّةِ المسترحمِ المستنجِد
فكأنما لك موطنٌ ضيَّعتَهُ
خلفَ الكواكبِ في الزمانِ الأبعد

---

(١) من الوجد الذي هو الحزن.
(٢) الأملد والأملود: الناعم.

وطنٌ جميلٌ كنتَ فيه سيِّداً
فمضى، ودامَ عليكَ همُّ السَّيِّدِ

طوردْتَ عنه إلى الحضيضِ فلم تزلْ
متلفِّتاً كالخائفِ المتشرِّدِ

يبدو لعينكَ في العقيقِ خيالُهُ
وتراهُ في ورَقِ الغصونِ الميَّدِ

صورٌ مُعدَّدةٌ لغيرِ حقيقةٍ
كالآلِ[1] لاحَ لمُعطَشٍ في فدْفَدِ[2]

فَتَهُمُّ أن تدنو إليه، وتنثني
حتى كأنك خائفٌ أن تهتدي!

وكأنه حلُمٌ يصحُّ مع الكَرى
فإن انتهيتَ مع الكرى يتبدَّدِ

كم ذا تفتِّشُ في السفوح وفي الذُّرا
عنقاءُ[3] أقربُ منه للمتصيِّدِ

✡✡✡✡✡

يا أيها الشادي المغرِّدُ في الضحى
أهواكَ إن تنشدْ وإنْ لم تُنشِدِ

طوباكَ إنك لا تفكِّرُ في غدٍ
بَدْءُ الكآبةِ أن تفكِّر في غدِ

إن كنت قد ضيَّعتَ إلفَكَ إنني
أبكي على إلفٍ الذي لم يوجَدِ!

****

(١) السراب.
(٢) الفلاة التي لاشيء فيها.
(٣) العُقاب.

٥ - ماء وطين

[الخفيف]

سـألـتْـنِي وقـدْ رجـعتُ إلـيـهـا

وعلى مَـفْـرِقِي غـبـارُ الـسِّـنـيـنـا:

أيَّ شيءٍ وجـدتَ في الأرض بـعـدي؟

قـلتُ: إني وجـدتُ مـاءً وطـيـنـا

جـمَعَ الحُـسنَ والـدمـامـةَ والإقْـ

ـدامَ والخـوفَ والـنُّـهَى والجـنـونا

والـرجـاءَ الـذي يـصـيـرُ به الـفَـدْ

فَـدُ[1] روضـاً وشـوكُهُ نَـسْـريـنـا

والـقـنـوطَ الـذي يُـعـرِّي من الأوْ

رَاقِ، في نـشـوةِ الـربـيع، الـغـصـونا

ووجـدتُ الـهـوى كـمـا كـان قِـدْمـاً

ثِـقَـةً تـارةً، وطـوراً ظـنـونـا

وشـبـابـاً سـكـرانَ من خـمـرةِ الـوَهْـ

ـمِ يـخـالُ المحـالَ أمـراً يـقـيـنـا

فـإذا شـاختِ الـرؤى وتلاشتْ

وصَـحـا، بـاتَ جَـزمُهُ تَـخْـمـيـنـا

لا يـزالُ الإيمـانُ نـوعـاً من الـرَّهْـ

ـبَـةِ، والحُـسْنُ لـلـغـرورِ خَـديـنـا

لا يـزال الـغـنيُّ يـخـتـالُ في الأرْ

ضِ وإنْ كـان جـاهلاً مـأفُـونـا

---

(١) المفازة الواسعة الخالية.

كلُّ مَن قــد لــقــيتُ مــثــلُكِ يــانَــفْ

سي في مــا تُــبــدينَ أو تُــخْــفِــيــنــا

فــانــظــري مــرَّةً إلــيكِ مَــلــيّــاً

تُــبــصِــري الأولــينَ والآخِــريــنــا

****

٦ - الإبريق

[الطويل]

ألا أيــهــا الإبــريقُ مــا لكَ والــصَّــلَفْ
فــمــا أنتَ بــلّــورٌ ولا أنت من صَــدَفْ
ومــا أنت إلاّ كــالأبــاريقِ كــلِّــهــا
تــرابٌ مَــهِــينٌ قــد تــرقّى إلى خــزَف
أرى لكَ أنــفــاً شــامــخــاً غــيــرَ أنهُ
تــلــفَّعَ أثــوابَ الــغــبــارِ ومــا أنِف
ومــسَّــتْهُ أيــدي الأدنــيــاءِ فــمــا شــكــا
ومــصَّــتْهُ أفــواهُ الــطَّــغــامِ فــمــا وجَف
وفــيكَ اعــتــزازٌ لــيس لــلــديكِ مــثــلُهُ
ولــستَ بــذي ريشٍ تــضــاعَفَ كــالــزَّغَف[1]
ولا لكَ صــوتٌ مــثــلُه يــصــدعُ الــدُّجى
وتــهــتِفُ فــيه الــذكــريــاتُ إذا هَــتَف

✡✡✡✡✡

وأَنْــصَتُّ أســتــوحــيهِ شــيــئــاً يــقــولُهُ
كمــا يَســكتُ الزّوّارُ في مَــعرِض الــتُّحَفْ
وبــعــد ثــوانٍ خِــلتُ أني ســمــعــتُهُ
يُــثــرثــرُ مــثلَ الــشــيــخِ أدركَهُ الخَــرَف
فــقــال: «ســقــيتُ الــنــاسَ»، قــلتُ له: أجلْ
ســقــيــتَهمُ مــاءَ الــسَّحــابِ الــذي وكَف

(١) زغفت البئر: كثر ماؤها، وزغف كلاماً كثيراً: زاد فيه بالكذب.

ودمعَ السواقي والعيونِ الذي جرى

وماءَ الينابيعِ الذي قد صفا وشَفْ

فقال: لِيذْكُرْ فضليَ الماءُ وليُشدْ

بمدحي ألَم أحمِلْه؟ قلتَ: لك الشَّرَف!

فقال: ألَمْ أحفظْهُ؟ قلتُ: ظلمتَهُ

فلولاهُ لم تُنقَل ولولاك ما وقَف!

****

٧ ـ أمنيّة إلهة

[مختلط]

أحَبَّ إلـهٌ فـي صِـبَـاهُ إلاهـةً
جـرى الـسِّحـرُ في أعطافِها والـترائبِ[١]

تـمـنّتْ عـلـيه آيـةً لم يـجـئْ بـهـا
إلهٌ سِـواهُ في الـعـصـورِ الـذَّواهب

لـيُـمسي عـلى الأربـابِ أجـمعَ سـيِّداً
وتُـمـسي تُـبـاهي كلَّ ذاتِ نوائب

وكـان إلـهـاً جـامـحـاً مـتـضـرِّماً
هـوىً، فـأتى بـالمـعـجِـزاتِ الـغـرائب

كـسـا الأرضَ بـالـزهـرِ الـبديعِ لأجلـهـا
ورصَّعَ آفـاقَ الـسَّـمـا بـالـكـواكب

ومـا زال حـتى عـلَّمَ الـطـيـر مـا الـهـوى
فـحَـنّتْ وغـنّتْ في الـذُّرا والـمَـنـاكب[٢]

وأنـشـأَ جـنـاتٍ وأجـرى جـداولاً
ومـدّ المـروجَ الخـضـرَ في كلِّ جـانب

وشـاء فـشـاعَ الـعـطـرُ في المـاء والـضِّـيا
وفي كل صـوتٍ أو صـدىً مُـتَـجـاوب

✡✡✡✡✡

ومسّ الـضُّحى فـارفضَّ تِـبْـراً عـلى الـرُّبـا
وسـال عـقـيقـاً في حـواشي الـسَّبـاسبِ[٣]

---

(١) موضع القلادة من الصدر (مفردها: تريبة).

(٢) يقصد: سفوح الجبال، مابون نراها.

(٣) السبسب: الأرض القفر البعيدة.

وقـــال لأحلامِ الــبـحـــار: تجـسـَّـدي

مــــواكبَ ألـــوانٍ وجـيـش عـــجــائب

فـكـانتْ لآلٍ في الـشـطوطِ، وفي الـفـضـا

غُـيـومٌ، ومـوجٌ ضـاحكٌ في الـغَـوارب[1]

ولـمـا رأى الأشـيـاءَ أحـسنَ مـا تُـرى

وتـمَّتْ له دنـيـا بـغَـيـرِ مَـعـايب

دعـاهــا إلـيه كي تُـبـاركَ صُـنـعَهُ

ولم يـــدرِ إن الحبَّ جَمُّ المـــطــــالب

فـقـالت له أحـسـنتَ! أحـسـنتَ مُبْـدِعَـاً

فـيـا لكَ ربّـاً عـبـقَـريَّ المـواهب

ولـكنّ لي أُمـنـيـةً مـا تحـقَّـقتْ

إذا لم تُـنِلْـنيـهـا فـمـا أنتَ صـاحـبي!

✡✡✡✡✡

فـدنـيـاكَ هـذي عـلـى حُـسـنـهـا

وسِـحـرِ مَـشـاهـدِهَـا والـصـورْ

تُـشـاركـني سـائـرُ الآلـهـاتِ

لَـذاذاتِـهـا ونـسـاءُ الـبـشـر

✡✡✡✡✡

أريـدُ دنـيـا فـيـهـا شُـعـاعٌ

يـبـقى إذا غـابتِ الـنـجـومْ

أريـدُ دنـيـا تُـحِسُ نـفـسي

فـيـهـا نـفـوسـاً بلا جـسـوم

أريـدُ خـمـراً بلا كـؤوسٍ

من غـيـرِ مـا تُـنـبِتُ الـكـروم

---

(١) غوارب الماء: أعاليه.

أريـــــد عـــــطـــــراً بلا زهـــورٍ

يَــــســــري وإن لم يَـــكُنْ نـــســـيم

☼☼☼☼☼

وزَادتْ فـــقـــالتْ: أريــدُ أنـــيــنـــاً

يُـــشـــوِّشْ روحي ولا مُـــحْــتَـــضَـــرْ

ومـــــــاءً يمـــــوجُ ولا جـــدولٌ

ونـــاراً بلا حـــطبٍ تَـــســـتَـــعِـــر

فـــــأطـــــرقَ ذاكَ الإلـهُ الــــفـــتيُّ

وفي نـــفـــســهِ ألمٌ مُـــسْـــتَـــتِـــر

وقـــال: أمـــهـــلـــيـــني ثلاثَ لــــيـــالٍ

أذلِّلُ فـــيـــهـــا المـــرادَ الـــعَـــسِـــر!

☼☼☼☼☼

وراحَ يـــجـــوبُ رحـــابَ الـــفـــضـــاء

يـــحـــدوه شـــوقٌ ويـــدعـــوه سِـــرّ

فـــســـالَ مع الـــشـــمس فـــوق الـــرُّبـــا

وغـــلـــغلَ في الحِـــنْـدِسِ[1] المـــعـــتـــكِـــر

وأصـــغى إلى نـــســـمـــاتِ المـــروجِ

وأصـــغَى إلى نَـــفـــحـــاتِ الـــزَّهَـــر

وبـــعـــدَ ثلاثِ لـــيـــالٍ أتـــاهـــا

فـــظـــنَّـــتهُ جـــاء لـــكي يـــعـــتَـــذِر

فـــقـــال: وجـــدتُ الـــذي تـــطـــلُـــبـــينَ

لـــدى شـــاعـــرٍ ســـاحـــرٍ مُـــبـــتَـــكِـــر

وأخـــرجَ خـــيـــطـــاً قـــصـــيـــرَ المـــدى

بـــلـــونِ الـــترابِ ولِـــينِ الـــشَّـــعَـــر

(١) الظلمة.

فـــلـــمـــا رأتْهُ عَـــرَاهـــا الأسى

وغـــوَّر إيمـــانَـــهـــا وانـــدثـــر

فـصـاحتْ بـغـيظٍ: أتـسـخَـرُ مـنِّي؟

إذن فـاحـملِ الـعـارَ، أو فـانـتَـحِـر!

أجـــاب: رُويـــدَكِ يـــا ربَّـــتِي

فـمـا في الـتـعـجُّلِ إلا الـضَّـرَر!

وشَـــدَّ إلى آلـــةٍ خـــيـــطَهُ

ودغْـــدغهُ صـــامـــتـــاً في حَـــذَر

فـــفـــاضتْ خُـــمـــورٌ وســـالت دمـــوعٌ

وشَـــعّتْ بـــروقٌ ولاحتْ صـــور!

فـــصـــاحتْ به وهي مـــدهـــوشـــةٌ:

ألا إنَّ ذا عـــالَمٌ مُـــخـــتَـــصَـــر!

فـيـا لـيتَ شِـعـريَ مـاذا يُـسـمَّى؟

فـقـال لـهـا: إن هـذا الـوتَـر!

****

٨ - ليل الأشواق

[الخفيف]

رُبَّ لـيلٍ نجـومُهُ ضـاحـكـاتُ
مِـثلُ أحلامِ غـادةٍ في صِـبـاهـا

لـمستْ إصـبعُ الـسـكـيـنـةِ أشـوا
قي فَـهـبَّتْ مـذعـورةً من كَـرَاهـا

كـطـيـورٍ في الأَسْـرِ تـبـغي انـعـتَـاقـاً
قـبلَ أن يُـفـسـدَ الإسـارُ لُـغَـاهـا

أَبِقَ[1] الـنَّـومُ، فـانـطـلـقتُ إلى الـنَّـهْـ
رِ بـنـفسٍ كـادتْ تـسـيلُ دمـاهـا

ومـعـي صـاحبٌ رقـيقُ الحـواشي
تجـدُ الـنـفسُ في رُؤَاهُ رؤاهـا

إن دَجَتْ لـيـلـةٌ أراكَ ضُـحَـاهـا
أو ذوتْ زهـرةٌ أراكَ شَـذاهـا

✡✡✡✡✡

قـال: مـا أجـملَ الـكـواكبَ! مـا أحْـ
ـلى سـنـاهـا! فـقـلتُ: مـا أحلاهـا

قـال: لا شـوقَ، لا صـبـابـةَ لـولا
هـا! فـتـمـتـمتُ قـائلاً: لـولاهـا!

قـال: هل تـشـتـهي الـوصـول إلـيـهـا؟
قـلت: إنـي لا أشـتـهي إلاّهـا!

✡✡✡✡✡

---

(١) هرب.

كــان طــرفي يــجــولُ في الــعــالم الأعـ

ــلى وروحي تجـول في مَــغْــنــاهـــا

وجَـلـيـسي يـظنُّ في الـشُّـهبِ قـصـدي

وأنـــا أحــسَبُ الجــلــيسَ عَــنــاهــا

قــال: والــنــهــرُ كم طـوى من صَـبـابـا

تٍ! فــأطـرقتُ استـشِفُّ الـمِـيـاهـا

فــإذا الــنــهــرُ فــيه رعــشــةُ روحي

حــين يَـدْوِي فــيــهــا صــدَى ذكْــراهــا

قــال: والــلــيلُ.. قـلتُ حـسْـبُكَ إعـنـا

تُ لــنـفـسي وحَـسْبُ نـفـسي دُجـاهـا

فــانــقــطَــعْــنــا عن الــكلام وبــتــنـا

كلُّ نــفسٍ لِــذَاتِــهـــا نَــجــواهـــا

✡✡✡✡✡

خِــلتُ أني إذا بَــعُــدتُ سَــأنــسَــا

هــا ويـطـوي الـزمــانُ سِـفـرَ هـواهـا

وتَـــوهَّـــمتُ أنـــني ســـوف ألـــقى

ألفَ لــيــلى، وألفَ هــنــدٍ، سِــواهـــا

فـــإذا الحبُّ كــالــفَــضــاء وقــلــبي

طــائــرٌ في الــفَــضــاء ضَلَّ وتــاهــا

أنـــا في عـــالَمٍ قَــصِيٍّ سَــحـــيقٍ

لا أراهــــا لـــكنَّ روحي تَـــراهـــا

قـــد نــشِــقتُ[1] الأزهــارَ في كل أرضٍ

يــا شــذاهُنَّ لــستَ مِــثلَ شــذاهـــا!

---

(١) نشِق: شمّ.

كـيف أنـسى وأيـنـمـا سِـرتُ في الـدُّ
نـيـا أراني أسـيـرُ في دنـيـاهـا
وإذا مـا لمحتُ في الأرض حُـسـنـاً
فـكـأني لمحْـتُـهـا إيـاهـا
وإذا داعبَ الـنـسـيـمُ ردائي
قـلتُ: قـد عـلَّـمَـتْهُ هـذا يـداهـا!
هـي أدنى من الأمـانـي إلى قـلْـ
ـبي، وقـلـبي يـصـيحُ: مـا أقـصـاهـا!
لـستُ أشـكـو الـنـوى مَلالاً ولـكنْ
طَـربُ الـروحِ أن تُـذيعَ جَـواهـا[1]

✡✡✡✡

قـال قـومٌ: إنّ المحـبَّـةَ إثمٌ!
ويْحَ بـعضِ الـنـفـوسِ مـا أغـبـاهـا!
إنّ نـفـسَـاً لم يُـشـرقِ الحبُّ فـيـهـا
هي نـفسٌ لم تـدرِ مـا مـعـنـاهـا
خـوَّفـوني جـهـنَّـمـاً ولـظـاهـا
أيُّ شيءٍ جـهـنَّمُ ولـظـاهـا؟
لـيس عـنـدَ الإلـهِ نـارٌ لـذي حبٍّ
ونـارُ الإنـسـانِ لا أخـشـاهـا!
أنـا في الحبِّ قـد وصـلتُ إلى نـفـسي
وبـالحبِّ قـد عَـرَفتُ الـلهَ!

****

---

(١) الجوى: الحرقة وشدة الوجد.

٩ - عِش للجمال

[البسيط]

عِشْ لـلـجـمـالِ تـراهُ الـعـينُ مُـؤتَـلِـقـاً
في أنجمِ الـلـيل أو زَهـرِ الـبـسـاتـينِ

وفي الـرُّبـا نـصَـبَتْ كفُّ الأصـيلِ بـهـا
سُـرادِقـاً من نُـضَـارٍ لـلـريـاحـينِ

وفي الجـبـال إذا طـافَ المـسـاءُ بـهـا
ولـفَّـهَـا بـسَـرابـيلِ الـرَّهـابـينِ[1]

وفي الـسَّـواقي لـهـا كـالـطـفلِ ثـرثـرةٌ
وفي الـبـروقِ لـهـا ضِـحْكُ المجـانـينِ

وفي ابـتـسـامـاتِ «أيّـارٍ» وروعـتِـهَـا
فـإن تـولّى، فـفي أجـفـان «تـشـرين»

لا حـينَ لـلـحـسنِ لا حـدٌّ يـقـاسُ به
وإنمـا نـحن أهلُ الحـدِّ والحـينِ

فـكم تَـمـاوجَ في سِـربـالِ غـانـيـةٍ
وكم تـألَّقَ في أسـمـالِ مِـسـكـينِ

وكم أحسَّ به أعـمـى فَـجُنّ لـه
وحـولَهُ ألفُ راءٍ غـيـرِ مَـفـتُـونِ

---

(١) الرهبان.

عِشْ لــلــجــمــالِ تــراهُ هــهــنــا وهــنــا

وعشْ لـه وهــو ســـرٌّ جِــدُّ مــكـــنـــون

خـــيـــرٌ وأفـــضـلُ ممن لا حـــنـــينَ لـــهم

إلـى الـجـمـــالِ، تـــمـــاثـــيلٌ من الـــطِّـــين

****

١٠ - وقائلة

[الوافر]

وقــائــلــةٍ: هــجَــرْتَ الــشّــعــرَ حــتى
تــغــنّى بــالــسَّــخــافــاتِ الــمُــغــنِّي

أتــى زمــنُ الـــــربـــــيـعِ وأنت لاهٍ
وقـــد ولّى ولم تـــهـــتِفْ بـــلـــحنِ

ونــفــسُكَ كــالــصَّـدى في قــاعِ بــئــرٍ
ومــثلِ الــفــجــرِ مــلــتــحــفــاً بــدَجْنِ[1]

فــمَــا لكَ لــيس يَــسْــتــهــويكَ حُــسْنٌ
وأنتَ المـــرءُ تـــعـــشقُ كلَّ حُـــسْنِ

أتـــســكتُ والــشــبــابُ عــلــيك ضــافٍ
وحــولكَ لـــلـــهـــوى جــنّـــاتُ عــدْنِ؟

ركـــودُ المـــاءِ يـــورثُه فـــســـاداً!
فــقــلتُ لــهــا: اسْــتَــكــيــني واطــمَــئِــنّي

فـــمـــا حـــطَـــمَتْ يـــدُ الأيـــامِ روحي
وإنْ حـــطـــمتْ أبـــاريـــقي ودَنِّي

ولـم أعــقِــد عــلــى خــوفٍ لــســاني
ولا ضَــنّــاً عــلــى الــدنــيــا بــفَــنِّي

ولـــكـــنّي امــرؤٌ لـــلـــنــاس ضِــحْــكي
ولي وحـــدي تـــبـــاريـــحي وحُـــزْني

إذا أشـــكـــو إلى خِـــدْنٍ هُـــمـــومي
وفي وُسْــعي الــسُّــكوتُ، ظــلــمتُ خِـدْني

---

(١) الغيم المطبق في السماء.

وتَـــأَبَّى كـــبـــريـــائي أن يَـــراني

فـــتًى مُـــغــرورَقَـــاً بـــالـــدمع جـــفــني

فـــأســـتـــرُ عَـــبــرتي عـــنه لـــئلا

يـــضـــيقُ بـــهـــا وإنْ هـيَ أحـــرقَـــتْـــني

ويـــبـــكي صـــاحـــبي فـــإخـــالُ أني

أنـــا الجـــاني وإنْ لم يـــتَّـــهِـــمـــني

فـــأمـــسحُ أدمـــعـــاً في مـــقـــلـــتـــيهِ

وإنْ حـــكَتِ الـــلـــهـــيبَ، وإنْ كَـــوتْـــني

لأنـي كـــلّـــمـــا رفَّـــهْتُ عـــنه

طـــربتُ كـــأنـــني رفّـــهتُ عـــنّي

كـــذلك كـــان شـــأني بـــين قـــومي

وهـــذا بـــينَ كلِّ الـــنـــاسِ شـــأني

أقـــولُ لـــكل نـــوَّاحٍ رويـــداً

فـــإن الحُـــزنَ لا يُـــغــني، ويُـــضـــني

وجـــدتُ الـــدمعَ بـــالأحـــرارِ يُـــزري

فـــليت الـــدمعَ لم يُـــخـــلَقْ بـــجَـــفن!

✲✲✲✲✲

ســـبـيلُ الـــعِـــزِّ أن تَـــبـــني وتُـــعـــلي

فلا تَـــقـــنَعْ بـــأنَّ ســـواكَ يَـــبْـــني

ولا تكُ عَـــالَـــةً في عُـــنْقِ جَـــدٍّ

رمـــيمِ الـــعـــظمِ أو عِـــبْـــئاً عـــلى ابنِ

فَـــمنْ يَـــغـــرسْ لـــكي يـــجـــني ســـواهُ

يـــعِشْ، ويمـــوتُ مَنْ يـــحـــيـــا لـــيَـــجـــني!

✲✲✲✲✲

ألائِـمَـتِي اتـركِـيـنـي في سُـكـونـي
ولُـومي من يـضِـجُّ بـغـيـرِ طِـحْنِ[1]
إذا صـار الـسَّـمـاعُ بلا قـيـاسٍ
فلا عـجَبٌ إذا سـكَتَ المـغـنـي
أنـا ولَـئِنْ سـكتُّ وقـال غـيـري
وجَـعـجَعَ صـاحبُ الـصـوتِ الأرنِّ
إذا أنـا لم أجِـدْ حـقلاً مَـريـعـاً[2]
خَـلـقتُ الحـقلَ في روحي وذِهـنـي
فـكـادتْ تـملأُ الأثـمـارُ كَـفِّي
ويَـعـبَقُ بـالـشَّـذا الـفـوّاحِ رِدْني

****

(١) الدقيق.
(٢) الخصيب.

١١ - موميات

[المجتث]

عرَّج صاحبُ الديوان في إحدى سفراته على فندقٍ فخمٍ، فلم يرَ إلا عجائزَ فقال:

لِـمَنْ يـضـوعُ الـعَـبـيـرُ؟
لِـمَن تُـغَـنِّي الـطُّـيـورُ؟
لِـمَنْ تُـصَفُّ الـقـنـاني؟
لمن تُـصَـبُّ الخُـمـور؟
ولا جـمـالٌ أنـيـقٌ
ولا شـبـابٌ نَـضـيـر
بل مُـومـيَـاتٌ عـلـيـهـا
أطـالِـسٌ وحـريـر
راحتْ تُـقـعـقـعُ حَـولِي
فـكـادَ عَـقـلـي يـطـيـر
ولاذ قـلـبي بِـصَـدري
كـأنـهُ عُـصْـفُـور
لاحتْ لـه فـي الأعـالـي
بـواشِـقٌ وصُـقـور
وقـال: ضُـويِـقْـتَ فـاهـربْ!
قـلتُ: الـفـرارُ عـسـيـر
مـا لـي جَـنـاحٌ ولا لـي
سَـيّـارةٌ أو بـعـيـر
صـبـراً فـهـذا بلاءٌ
مـقـدَّرٌ مـسـطـور

ورحتُ أسألُ ربِّي

وهو اللطيفُ الخبير

أين الحِسَانُ الصّبايا

إن كانَ هذا النشورُ؟

ليت الحضورَ غِيابٌ

والغائبينَ حضور

بل ليتَ كلَّ نسيجٍ

براقعٌ وسُتور

فقد أَضرّ وآذى

عينيّ هذا السُّفُور

✡✡✡✡✡

هذي العُصورُ الخوالي

تطوفُ بي وتدورُ

من كلِّ شَمطاءَ ولّى

شبابُها والغرور

كأنما الفمُّ منها

مقطَّبٌ مَزرور

كأنما هوَ جرحٌ

مرّت عليه شهور

يا طالبَ الشُّهدِ أقصِرْ

لم يبقَ إلا القَفِير[1]

كأنما الوجهُ منها

قد عضّهُ الزَّمهَرير

---

(١) خلية النحل.

كـــــالـــــبَــــدرِ حــــين تــــــراهُ

يُـــــعــــيـــــنكَ «الـــنــــاظـــور»

تـــبـــدو لِـــعَـــيـــنـيكَ فــيه

بــــــــرازخٌ وبُــــــــحــــــور

وأنجُـــــــــــدٌ ووهـــــــــادٌ

لـــــكـــــنّه مَـــــهـــجـــور!

مـــــــثلُ المِـــــسَنّ ولـــــكن

لا مـــــــاءَ فــــــيه يمــــــور

مــــا لــــلــــبـــعـــوضـــةِ فـيه

قـــوتٌ بل الـــتَّـــضْـــويـــر

ولا يــــــــؤَثِّـــــرُ فـــــيه

نـــــــابٌ ولا أُظْـــــــفُــــــور

ولـــلـــيـــدينِ ارتـــعـــاشٌ

ولــــلــــعــــظــــامِ صَـــريـــر

أمــــا الـــعـــيـــونُ فـــغـــارتْ

ولا تـــــزالُ تــــــغُــــــور

مَـــغَـــاوِرٌ، بل صـــحَـــارَى

بل أكـــــهفٌ، بل قـــــبــــور

والخـــصـــرُ، عـــفـــواً وصـــفـــحـــاً!

كـــانت لـــــهنّ خُـــصــــور!

✡✡✡✡✡

هُنَّ الـــسَّـــعَـــالَى[1] ولـــكنْ

سُـــعـــالُـــهنَّ كـــثـــيـــر

(١) السِّعلاة: أخبث الغيلان، مما خلقته المخيلة.

حـــديـــثُـــهُنَّ انـــتـــفـــاضٌ
وضِـــحـــكـــهنَّ هَـــريـــر[١]

ومَـــشـــيـــهُنَّ ارتـــبـــاكٌ
وتـــارةً تـــقـــديـــر

يَـــغـــضَـــبنَ إن مـــال ظلٌ
وإنْ شَـــدا شُـــحـــرور

وإنْ تـــهـــادتْ غـــصـــونٌ
وإن تَـــسَـــارى[٢] عـــبـــيـــر

وإنْ تـــمـــايلَ عـــشـــبٌ
وإنْ تـــمـــاوجَ نـــور

فـــكـــلُّ شـــيءٍ قـــبـــيـــحٌ
وكـــلّ شـــيءٍ حـــقـــيـــر

وكـــيـــف يـــفـــرحُ قـــلـــبٌ
رجـــاؤهُ مَـــدحـــور؟

مـــا لـــلـــرَّمـــادِ لـــهـــيـــبٌ
مـــا لـــلـــجـــلـــيـــدِ خَـــريـــر

✡✡✡✡

مِـــن حَـــولـــهِنّ الأقـــاحـــي
والـــوردُ والمـــنـــثـــور

وهـــنّ مـــكـــتَـــئـــبـــاتٌ
كـــأنَّـــهـــنّ صُـــخـــور

لا يـــبـــتَـــســـمـــنَ لـــشـــيءٍ
أمَـــا لـــهُـــنَّ ثُـــغـــور؟

---

(١) صوت الكلب دون نباحه.

(٢) تفاعل من (سرى) !

بـــــــلى، لَـــــــهُنَّ ثُــــــغـــــورٌ

وإنمّـــــــا لا شـــــــعــــــــورُ!

كـــــــأنمَّـــــــا الحُـــــــسْنُ فـي الأرْ

ضِ كـــــــلُّـه تَـــــــزويـــــــر

✡✡✡✡

فـي فُـــــنـــــــدقٍ أنـــــــا أم فـي

جـــــهــــــنّـمٍ مـــــحــــــشــــــورُ؟

وهـل أنـــــــا فـــــــيه ضـــــــيفٌ

لـــــــســـــــاعـــــــةٍ أم أســـــــيـــــــر

يـــــــا لـــــــيـــــــتـــــــني لم أزُرْهُ

ولـــــــيـــــــتَـهُ مَـــــــهـــــــجـــــــور

فـــــــلـــــــيس يـــــــهـــــــنَـــــــأُ فـــــــيه

إلاّ الأصـمُّ الـــــــضَّـــــــريـــــــر!

****

١٢ - هدايا العيد

[الخفيف]

خرجَ الناسُ يشترونَ هدايا الْـ
عيدِ للأصدقاءِ والأحبابِ
فتمنَّيتُ لو تُساعِفُني الدُّنْـ
يا فأقضي في العيدِ بعضَ رِغابي
كنتُ أُهدي، إذَنْ، من الصَّبرِ أرْطَا
لاً إلى المُنشئينَ والكتّاب
وإلى كلّ نابغٍ عبقريٍّ
أمَّةً أهلها ذوو ألباب
وإلى كلّ شاعرٍ عربيٍّ
سلَّةً من فواكهِ الألقاب
وإلى كلِّ تاجرٍ حُرِم التَّوْ
فيقَ زِقَّيْنِ من عصيرِ الكِذَاب
وإلى كلِّ عاشقٍ مُقلةً تُبْـ
ـصِرُ كم من مَلاحةٍ في التّراب
وإلى الغادة الجميلة «مرآ
ةً» تُريها ضمائرَ العُزّاب
وإلى الناشئ الغريرِ مِرَانًا
وإلى الشيخِ عَزْمةً في الشَّباب
وإلى معشرِ الكَسَالى قُصوراً
من لُجَينٍ وعسجدٍ في السَّحاب
علَّني أستريحُ منهم فقد صا
روا كظلِّي في جَيْئتي وذَهابي

وإلى ذي الغِنَى الذي يَرْهَبُ الفَقْـ
ـرَ ازديادَ الذي به من عذاب

كلّما عَدّ مالَهُ مطمئنّاً
أبصرَ الفقرَ واقفاً بالباب

وإلى الصاحبِ المُراوغِ وجهاً
أسوداً حالكاً كوجه الغُراب

فإذا لاحَ فرّتِ الناسُ ذُعراً
من طريقِ المنافقِ الكذّاب

وإلى المؤمنينَ شيئاً من الشكْـ
ـكِ وبعضَ الإيمانِ للمُرتَاب

وإلى من يسبُّني في غيابي
شَرَفَا كي يصونَه من سِبابي

وإلى حاسِديَّ عُمراً طويلاً
ليدومَ الأسى بهمْ ممّا بي

وإلى الحقلِ زهرَه وحُلاهُ
من ندىً لامعٍ ومن أعشاب

فقبيحٌ أن نرتدي الحُللَ القُشْـ
ـبَ وتبقى الرُّبا بغيرِ ثياب

لم يكنْ لي الذي أردتُ، فحسبي
أنني بالمنى ملأتُ وِطابي[1]

ولو اَن الزمانَ صاحبُ عقلٍ
كنتُ أهدي إلى الزمان عِتابي

****

(١) الوطب والوطاب: سقاء اللبن.

١٣ - الفراشة المحتضَرة

[البسيط]

لـو كـان لي غـيـرُ قـلـبي عـنـد مَـرآكِ
لمـا أضـافَ إلى بـلـواهُ بَـلـواكِ

فـيمَ ارتجـاجُكِ؟ هلْ في الجـوّ زلـزلـةٌ؟
أم أنتِ هـاربـةٌ من وجهِ فَـتّـاكِ؟

وكم تـدورينَ حـولَ الـبـيت حـائـرةً
بنتَ الـرُّبـا، لـيس مـأوى الـنـاسِ مـأواكِ

قـالـوا: فـراشـةُ حـقلٍ لا غَـنَـاء بـهـا،
مـا أفـقـرَ الـنـاس في عـيـني وأغـنـاكِ!

سـيـمـاءُ غـاويـةٍ، أطـوارُ شـاعـرةٍ،
عـلى زَهـادة عُـبَّـادٍ ونُـسَّـاك

طُـغْـراءُ[١] مَـمْـلـكـةٍ وشَّى حـواشـيَـهـا
مَن ذوَّبَ الـشـمسَ ألـوانـاً ووشَّـاكِ

رأيتُ أحـلامَ أهـلِ الحبّ كـلِّـهـمُ
لـمّـا مـثَـلـتِ أمـامي، عـنـد شُـبَّـاكي

من نـائـمـينَ عـلى ذُلٍّ ومَـتْـربـةٍ
ومـن تجـارٍ وأشـرافٍ ومُـلاَّك[٢]

وقَصَّ شـكـواكِ قـلـبي قـصـةً عـجـبـاً
من قَـبْلُ أنْ سـمـعتْ أُذنـاي شـكـواك

---

(١) الطُّغرَاء: الطرّة في أعلى الرسائل، تتضمن نعوت الحاكم وألقابه.
(٢) المتربة: الفاقة والمسكنة.

أليس فيك من العُشَّاقِ حَيْرتُهم؟
فكيف لا يفهمُ العُشَّاقُ نجواك؟

✡✡✡✡✡

حَلِمتِ أن زمانَ الصيفِ منصرمٌ
ويلاهُ! حَقَّقَتِ الأيامُ رُؤياكِ
فقد نعاهُ إليك الفجرُ مُرتعشاً
وليس منعاهُ إلاّ بعضَ مَنْعاك
فالزهرُ في الحقلِ أشلاءٌ مُبعثَرةٌ
والطَّيرُ؟.. لا طائرٌ إلا جناحاك
مَدَّ النهارُ إليه كفَّ مختلسٍ
وفَتَّحَ الليلُ فيه عينَ سفَّاك
شاء القضاءُ بأنْ يشقَى فجَرَّدَهُ
من الحُليِّ وإن تشْقَيْ فأبقاك
لم يبقَ غيرَك شيءٌ من محاسنه
ولا من العابدينَ الحسْنَ إلاَّك
تَزوّدَ الناسُ منه الأُنسَ وانصرفوا
وما تزوَّدَ إلا اليَأسَ جَفناك

✡✡✡✡✡

يا روضةً في سماء الرَّوضِ طائرةً
وطائراً كالأقاحِي ذا شذاً ذاكِ
مضى مع الصَّيفِ عهدٌ كنتِ لاهيةً
على بساطٍ من الأحلام ضَحَّاك
تُمسينَ عند مجاري الماء نائمةً
وللأزاهرِ والأعشابِ مَغْداك
فكلَّما سمعتْ أذناكِ ساقيةً
حثثتِ للسفحِ من شوقٍ مطاياك

وكـلّـمـا نـوَّرتْ في الـسـفح زنـبـقـةٌ
صـفّـقْـتِ من طَـربٍ واهـتـزّ عِـطـفـاك
فـمـا رشـفـتِ سـوى عـطـرٍ ولا انـفـتـحتْ
إلا عـلى الحَـسَنِ المحـبـوبِ عـيـنـاك
وكم لـثـمتِ شـفـاهَ الـوردِ هـائـمـةً
وكم مـسـحتِ دمـوعَ الـنـرجسِ الـبـاكي
وكم تـرجّـحتِ في مـهـد الـضـيـاء عـلى
تـوقـيعِ لحنِ الـصَّـبَـا أو رَجْـعِـهِ الحـاكي

✲✲✲✲✲

وكم ركـضـتِ فـأغـريتِ الـصـغـارَ ضُـحىً
بـالـركض في الحـقـل مـلـهـاهُمْ ومَـلـهـاك!
مَـنَّـوا بـأسـرِهمُ إيـاكِ أنـفـسَـهمْ
فـأصـبـحـوا بـتـمـنّـيـهم أُسَـاراك
جَـرَوا قُـصـاراهمُ حـتى إذا تـعـبـوا
وقـفتْ سـاخـرةً مـنـهمْ قُـصَـاراك
لـولا جـنـاحـاكِ لم تَـسـلمْ طـريـدتُـهمْ،
قـد نَـجَّـيـاكِ، ولـكنْ أين مَـنـجـاك؟
هـا أنتِ كـالحـقلِ في نـزعٍ وحـشـرجـةٍ
وهَتْ قُـواكِ كـمـا اسـتـرخَى جـنـاحـاك
أصـبـحتِ لـلـبؤس في مـغـنـاكِ تـائـهـةً
كـأنه لم يـكن بـالأمسِ مَـغـنـاك

✲✲✲✲✲

فـراشـةَ الحـقلِ.. في روحي كـآبـتُه
ممـا عَـراهُ وممـا قـد تـولاّكِ
أحـبـبـتُهُ وهـو دارٌ تـلـعـبـينَ بـهـا
وسـوف تـهـواه نـفـسي وهـو مـثـواك

قـد بـات قـلـبيَ في دنـيـا مُـشـوَّشـةٍ

مــنـــذُ الـــتَـفتُّ إلى آثـــارِ دنـــيـــاك

لا يـــســـتــقـــرّ بـــهـــا إلاّ عـــلى وَجَلٍ

كـــالـــطـــيــر بـــين أَحـــابـيلٍ وأَشــراك

☆☆☆☆☆

خَـــلتْ أرائكُ كـــانت أمسِ آهـــلـــةً

غــنّـــاءَ، فـــالـــيـــومُ لا شـــادٍ ولا شـــاك

أرضٌ خلاءٌ وجـــوّ غـــيـــرُ ذي أَلَقٍ

بـلى، هـنـاك ضـبـابٌ فـوق أشـواك

فـيـا ريـاحَ الخـريفِ الـعـاتـيـاتِ كَـفَى

عَـصْـفـاً فـقـد كـثُرتْ في الأرض قـتْلاك

كـيـف اعـتـذارُكِ إن قـال الإله غـداً:

هل الـفـراشـةُ كـانت من ضـحـايـاكِ؟

يـا نـغـمـةً تـتلاشى كـلّـمـا بَـعُـدَتْ

إن غبتِ عن مـسـمـعي مـا غـاب مـعـنـاك

مـا أقـدرَ الـلـهَ أن يُـحـيـيك ثـانـيـةً

مع الـربـيـع، كـمـا من قـبلُ سَـوّاك

فـيـرجعُ الحـقلُ يـزهـو في غلائـلـهِ

وتـرجـعـينَ، وأغـشـاهُ فـألـقـاك!

****

١٤ - ابتسم

[الكامل]

قال: «السماءُ كئيبةٌ!» وتجهَّمَا
قلتُ: ابتسمْ، يكفي التَّجهّمُ في السما!

قال: الصِّبا ولّى! فقلتُ له: ابتسمْ
لن يُرجعَ الأسفُ الصّبا المُتصرِّما!

قال: التي كانت سمائي في الهوى
صارتْ لنفسي في الغرامِ جهنّما

خانتْ عهودي بعدما ملَّكتُها
قلبي، فكيف أُطيقُ أن أتبسَّمَا؟

قلتُ: ابتسمْ واطرَبْ فلو قارنتها
قضَّيتَ عمرَكَ كلّه مُتألِّما!

قال: التجارةُ في صراعٍ هائلٍ
مثلُ المسافرِ كاد يقتله الظَّما

أو غادةٍ مسلولةٍ محتاجةٍ
لدمٍ، وتنفُث، كلَّما لهثتْ، دما!

قلتُ: ابتسمْ ما أنت جالبَ دائها
وشفائِها، فإذا ابتسمتَ فربَّما...

أيكونُ غيرُكَ مُجرِمًا وتبيتُ في
وجَلٍ، كأنك أنت صرتَ المجرما؟

✲✲✲✲✲

قال: العِدا حولي علَتْ صَيْحاتُهمْ
أَأُسَرُّ والأعداءُ حولِي في الحِمى؟

قلت: ابتسمْ، لم يطلبوكَ بذمِّهمْ
لو لم تكُنْ منهمْ أجلَّ وأعظَما!

✡✡✡✡✡

قال: المواسمُ قد بدَتْ أعلامُها
وتعرَّضتْ لي في الملابس والدُّمى
وعليَّ للأحبابِ فرضٌ لازمٌ
لكنَّ كفّي ليس تملكُ درهما
قلتُ: ابتسمْ، يكفيكَ أنك لم تزلْ
حيّاً، ولستَ من الأحبّةِ مُعدِما!

✡✡✡✡✡

قالَ: الليالي جرّعتني عَلقماً
قلتُ: ابتسمْ ولئن جرَعتَ العلقما
فلعلَّ غيرَك إن رآكَ مُرنَّماً
طرحَ الكآبةَ جانباً وترنَّمَا
أتُراكَ تغنَمُ بالتبَرُّم درهماً
أم أنتَ تخسرُ بالبَشاشةِ مَغْنما؟
يا صاحِ، لا خطرٌ على شفتيكَ أن
تتثَلَّما، والوجهِ أن يتحطّما
فاضحكْ فإن الشُّهبَ تضحكُ والدُّجى
متلاطمٌ، ولذا نحبُّ الأنجُما!
قال: البشاشةُ ليس تُسعدُ كائناً
يأتي إلى الدنيا ويذهبُ مُرغَما
قلتُ: اِبتسمْ ما دام بينك والردى
شبرٌ، فإنك بعدُ لن تتبسَّمَا!

****

١٥ - لو أستطيع

[مجزوء الكامل]

لـــو أســـتـــطـــيعُ سَـــكـــبتُ رو
حي خـــمـــرةً في كـــاســـهـــا

حـــتى إذا حـــالَ الـــنَّـــوى
بـــيـــني وبـــين كِـــنـــاسِـــهـــا[1]

وتجـــاهـــلتْ أو أنـــكـــرتْ
أمـــري لـــدى جُلاّسِـــهـــا

أطـــلـــلتُ من أجـــفـــانـــهـــا
وجـــريتُ مـعْ أنـــفـــاســـهـــا!

****

(١) بيت تلجه الظباء والبقر، تستكنّ فيه من الحر.

١٦ - يا نفس

[السريع]

يـــا نــفسُ لــو كــنتِ تــرَين الــشُّــؤونْ
كــمـــا يــراهـــا ســـائـــرُ الـــنـــاسِ
لــمـــا رمـــاني بــعــضُـــهمْ بـــالجــنـــونْ
ولـم أجـــدْ في الـــنـــاس من بـــاس

✡✡✡✡✡

بـــالأمسِ مَـــرَّ المـــوكبُ الأكـــبـــرُ
فـــيه الـــفـــتى الـــراكبُ والـــنـــاعلُ
واقـــبـــلتْ غِـــيـــدُ الحِـــمى تـــخـــطِـــرُ
يـــهـــتـــفنَ: عـــاد الـــبـــطلُ الـــبـــاسِلِ
مـــا لكِ يـــا هـــذي لا تـــهـــتِـــفـــينْ
لـــصـــاحبِ الـــدولـــةِ والـــبـــاس؟
فـــقـــلتِ لي ضـــاحـــكـــةً تـــســـخـــرينْ:
ويـــلـــكَ! هـــذا قـــاتلُ الـــنـــاس!

✡✡✡✡✡

ومـــجـــلـــسٍ دارتْ به الأكْـــؤُسُ
فـــشـــربَ الـــقـــومُ ولم تـــشـــربي
وامـــتلأتْ بـــالـــطـــربِ الأنـــفسُ
وأنتِ في صـــمـــتكِ لم تَـــطـــرَبي
كـــأنمـــا غـــيَّـــبَكِ الحـــنـــدِسُ
أو تـــاهت الـــلـــذاتُ في سَـــبْـــسب[١]

---

(١) المفازة والقفر.

مـــا لكِ يـــا هـــذي لا تـــضــــحـــكـــينْ

لــــلــــحــــبَبِ الـــضـــاحكِ في الـــكـــاسِ؟

قـــالت: نـــهـــاني أنَّ مـــوجَ الـــســـنـــينْ

ســـــيـــغــــمـــرُ الأقـــداحَ والحـــاسي!

✲✲✲✲✲

وسِــرْتِ في الـــروضـــةِ شـــاعَ الجـــمـــالْ

فـــيـــهـــا، وشـــاعَ الحبُّ بـــين الـــطـــيـــورْ

الــــطلُّ فـــيـــهـــا كـــدمـــوعِ الـــدَّلالْ

والـــشـــوكُ فـــيـــهـــا كـــحـــديثِ الـــغـــرور

مَـــشـــيتِ في أرجـــائـــهـــا كـــالخـــيـــالْ

يـــطـــوفُ في الـــظـــلـــمـــاء بـــين الـــقـــبـــور

كـــأنَّـــمـــا لا ورْدَ في الـــيـــاسَـــمـــينْ

كـــــأنَّـــــمـــــا لا عـــــطْـــــرَ في الآس

ويـــحكِ! لا في عُـــزلـــتي تـــطـــربـــينْ

ولا إذا كــــــنـــتِ مع الــــــنـــــــاس

✲✲✲✲✲

كـــان زمـــانٌ كـــنتِ تـــســـتـــأنـــســـينْ

بـــكلِّ وهْمٍ خـــادعٍ كـــالـــسَّـــرابْ

حـــتى إذا أســـفـــرَ وجهُ الـــيـــقـــين

رأيـــتِهِ كـــالـــوهمِ شـــيـــئـــاً كِـــذاب

دنـــيـــا الـــورى لـــيلٌ وصـــبحٌ مُـــبـــين

ولـــيس في دنـــيـــاكِ إلاّ الـــضَّـــبـــاب

مـــا لاحت الأشـــجـــارُ لـــلـــنـــاظـــرينْ

إلا رأيتِ شـــــبحَ الـــــفـــــاسِ!

ولا ســـمـــعتِ الـــكــاسَ ذاتَ الــرنـــينْ

إلا ســـمـــعتِ حــطْـــمــةَ الــكـــاس!

✡✡✡✡

مَـــسَـــخْتِ في عـــيــنيَّ لـــونَ الـــنـــهـــارْ

لـــمّـــا لمحتِ الـــلــيلَ بـــالمَـــرصـــدِ

ومـــــات فـي أذْنـيَّ لحنُ الــــــهَـــــزَارْ

لـمّـا سـبـقتِ الـصَّـمتَ لـلـمُـنْـشِـدِ

فَـــرَرتِ بــــالــــلَّـــذّاتِ قـــبل الـــفـــرارْ

فـــضـــاعَ يـــومي حـــائـــراً في غـــدي

خـــالـفتِ مــقــيـاسَ الـورى أجـمـعـينْ

فـــكـــيف يـــرضَـــونَ بمـــقـــيـــاسي؟

مـــا بـــرِحَ الـــنـــاسُ كــمـــا تـــعـــلـــمينْ

ولـم أزلْ فــــرداً من الـــــــنــــــاس

****

١٧ - الكنار الصامت

[مجزوء الكامل]

نـــسِيَ الـــكـــنــــارُ نـــشــيـــدَه
فــتــعـــالَ كي نـــنـــسى الـــكـــنـــارْ
ولـــــيــــــقــــــذِفنَّ به الــــــمَلالُ
من الـــقـــصـــور إلى الـــقِـــفَـــار
ولــــــتـــــرمــــــيَنَّ بـــــريـــــشه
للأرضِ عـــاصــــفـــةُ الـــنِّـــفــــار[1]
ولـــنـــســـتـــعضْ عـــنه بـــطـــيـــرٍ
مـن لُـــــجَـــــينٍ أو نُـــضَـــــار[2]
لا، لا، فـــإن ســـكَتَ الـــكـــنَـــا
رُ فـــلـم يـــزلْ ذاك الـــكَـــنـــارْ
أو كـــــانَ فـــــارقَهُ الــــصُّــــدا
حُ فـــلـم يـــفـــارقْهُ الـــوَقـــار
صـــمْتُ الـــكـــنـــار، وإنْ قـــسَــا
خـــيـــرٌ من الـــنَّـــغَم الـــمُـــعـــار
صـــبـــراً فـــســـوف يـــعـــودُ لـــلـــتْ
ـــتَـــغْـــريـــدِ إنْ عـــادَ الـــنـــهـــار

****

---

(١) الهرب أو التفرق والمجانبة.
(٢) الفضة أو الذهب.

١٨ - لم يبق غير الكأس

[الكامل]

لم يبقَ ما يُسليكَ غيرُ الكاسِ
فاشربْ، ودعْ للناسِ ما للناسِ!
ذهب الشبابُ على الشجون تبثُّها
لأخٍ مُؤاسٍ أو لغيرِ مُؤاس
وعلى الحياةِ تحارُ في أطوارها
وتحارُ في تعليلِ كلِّ نطاسي
ثمَّ استفقتَ وليس في روض المنى
إلاَّ الضبابُ، وغيرُ شوكِ الياس
وجراحُ نفسٍ ينظر الآسي لها
فيعودُ لآخَرَ آس
الحسُّ مجلبةُ الكآبةِ والأسى
قُمْ ننطلقْ من عالمِ الإحسَاس
وأرى السعادةَ لا وصولَ لعرشِها
إلاَّ بأجنحةٍ من الوسواس
فكأنَّما هي صورةٌ زيتيَّةٌ
للشطِّ فيه مراكبٌ ومَراسي
تبدو لعينيكَ السَّفائنُ عُوَّماً
وتكادُ تسمعُ رَعشةَ الأمْرَاس
لكنْ إذا أدنيتَها ولَمَسْتَها
لم تلقَ غيرَ الصَّبْغِ والقِرطاس

دنـيـا مُـزيّـفـةٌ ودهـرٌ مـاذقٌ[1]
مـا في انـفلاتكَ مـنـهـمـا من بـاس
إنَّ الـلَّـذاذاتِ الـتي ضـيّـعـتَـهـا
رجـعتْ إلـيكَ عُـصـارةً في الـكـاس
فـاصـبغْ روَاكَ بـهـا تَـعُـدْ ذهـبـيَّةً
عِـطـريّـةَ الألـوانِ والأنـفـاس
واخـلُقْ لـنـفـسِكَ بـالـمُـدامَـةِ جَـنّـةً
فـي الأربع الـمـهـجـورة الأدراس[2]
الحُبُّ فـيـهـا بـلـبلٌ وخَـمـيـلـةٌ
ونـدىً وأضـواءٌ عـلـى الأغـراس
لِـلـقـصـرِ يـخـلُـقُه خـيـالكَ روعـةٌ
كـالـقـصـرِ من جُـدُرٍ ومن آسـاس

✡✡✡✡✡

يـا أيـهـا الـسـاقي! أدرْ كـاسَـاتِـهـا
كـمَـشـاعلِ الـرُّهـبـانِ في الأغلاس[3]
وانسَ الـهـمـومَ فـلـيس يَـسـعـدُ ذاكـرٌ
واسقِ الـنـجـومَ فـإنـهـا جلاّسي
واصـرعْ بـهـا عـقلَ الـنـديمِ ولُـبَّهُ
مـا نـغَّصَ الحـاسي كـعـقلِ الحـاسي
واهـجـرْ أحـاديثَ الـسـيـاسـةِ والأُلَى
يـتـعـلَّـقـون بـحـبلِ كلِّ سـيـاس
إني نـبـذتُ ثـمـارَهـا مـذ ذقـتُـهـا
ووجـدتُ طـعمَ الـغـدرِ في أضْـرَاسي

(١) المذْق: قلة الإخلاص.
(٢) الرّبع الدارس: العافي بفعل الزمن.
(٣) الغلَس: ظلمة آخر الليل.

وغسلتُ منها راحتي فغسلتُها
من سائرِ الأوضارِ والأدناس
وتركتُها لاثنينِ: غُرٍّ ساذَجٍ،
ومُشعْوذٍ، وكُذُبذُبٍ[١] دسّاس
يرضى لموطنِه يصيرُ مَوَاطناً
وتصيرُ أمَّتُه إلى أجناس
ويبيعُها بدراهمٍ معدودةٍ
ولو أنَّها جاءتْ من الخُنَّاس[٢]
ما للمنافقِ من ضميرٍ رادعٍ
أيُّ الضميرِ لحَيَّةِ الأجراس؟
ولربَّ قائلةٍ تعاتِبُني على
صمتي، وبعضُ القولِ حَزُّ مَواسي:[٣]
اثنانِ ما لاقيتُ أقسى منهما:
صمتُ الدجى والشاعرِ الحسَّاسِ
فأجبتُها: أقسى وأهولُ منهما
في مِسْمعي: هذا العتابِ القاسي
لم تعلمي، والخيرُ ألا تعلمي،
كم في السكوتِ فواجعاً[٤] ومآسي
قالتْ: أظنكَ قد نسيتَ. فقلتُ: لا
ما كنتُ بالناسي ولا المتناسي
لكنّ جرحاً كلّما عالجتُه
غمر القنوطُ جوارحِي وحواسي

---

(١) تتعدد الصيغ في العربية لتسمية الكاذب، ومنها: الكيذُبان ومكذبان وكُذبذب.
(٢) خنس: تأخر وغاب. والخناس: الشيطان لأنه يغيب عند ذكر الله.
(٣) الموسى الذي يحلق به، وشفرته حادة وجمعه: مواسٍ.

ولـــو أنّه فـي الـــرأسِ كـــنتُ ضَـــمَـــدْتُه
لـــكـــنّه فـي الـــقـــلب لا فـي الـــراس
إن الأُلَى قـــد كـــنتُ أرمـي دونــــهمْ
غَـلُّـوا يـديَّ وحـطَّـمُـوا أقـواسي
واستبدلوا سيفي الجُرازَ[1] بأسيُفٍ
خشبٍ، وباعوا عَسْجدي بنحاسي
والطَّلّ غيرُ الماسِ، إلا أنهم
خُدعوا برقرقةِ النَّدَى عن ماسي
وإذا حَسِبتَ الروضَ تُغني صورةٌ
عنه، فذلك مُنتهى الإفلاس
أسَدُ الرُّخامِ وإن حكى في شكله
شكلَ الغَضنفرِ، ليس بالفَرَّاس

✡✡✡✡✡

قد كان لي حُلمٌ جميلٌ مُونقٌ
فأضعتُه لمّا أضعتُ نُعاسي
فكّرتُ في ما نحن فيه كأمّةٍ
وضربتُ أخماسي إلى أسداسي
فرجعتُ أخيبَ ما يكونُ مؤمِّلٌ
راجٍ وأخْسَرَ ما يكونُ الخَاسي[2]
نرجو الخلاص بغاشمٍ من غاشمٍ
لا يُنقِذُ النَّخّاسُ من نَخَّاس
ونقيسُ ما بين الثُّريّا والثَّرى
وأمورُنا تجري بغيرِ قِياس

---

(١) القاطع.
(٢) الخيس: التغير والنقص والخيانة والغدر.

نـغـشى بلادَ الـنـاسِ في طـلَبِ الـعُلا

وبلادُنـا مَـتـروكـةٌ لـلـنـاس!

ونـكـادُ نـفـتـرشُ الـثَّـرى، وبـأرضِـنـا

لـلأجـنـبيِّ مـوائـدٌ وكَـرَاسِ

ونـلـومُ هـاجِـرَهـا عـلـى نـسـيـانه

والـلائمُ الـنـاسـينَ أوّلُ نـاسِ

ونـبـيتُ نـفـخـرُ بـالـصَّـوارم والـقَـنَـا

ورقـابُـنَـا ممـدودةٌ لـلـفـاس

كَمْ صـيـحَـةٍ لـلـدهـر في آذانـنـا

مـرّتْ كـمـا مـرّتْ عـلـى أرْمَـاس!

****

١٩ - رأي الأكثريَّة

[البسيط]

لـمّـا سـألتُ عن الحـقـيـقـةِ قـيلَ لي:
الحقُّ مــا اتّــفـقَ الــسَّــوادُ عــلــيـهِ
فـعـجـبتُ كيف ذبحتُ ثوري في الـضُّحى،
والـــهـــنـــد ســـاجـــدةٌ هـــنـــاك لـــديهِ
نــرضَى بـحـكـمِ الأكـثـريـةِ مـثـلـمـا
يــرضى الــولــيــدُ الــظـلـمَ من أبــويه
إمّــا لــغُــنـمٍ يــرتَــجِـيه مـنــهــمـا
أو خــيــفــةً مِن أن يُــســاء إلـــيه

****

٢٠ - كتابي

[الطويل]

وسـائـلـةٍ: أيُّ المـذاهب مـذهـبي
وهل كـان فـرعـاً في الـديـانـاتِ أمْ أصلا
وأيُّ نـبيٍّ مُـرْسَلٍ أقـتـدي به
وأيُّ كـتـابٍ مُـنـزَلٍ عـنـديَ الأغـلى؟
فـقـلـتُ لـهـا: لا يـقْـتَـني المـرءُ مـذهـبـاً،
وإنْ جلَّ، إلاّ كـان في عـنـقِهِ غُـلاّ
فـمـا مـذهبُ الإنـسـانِ إلاّ زجـاجـةٌ
تـقـيَّـدَه خـمـراً وتـضـبِـطُه خَلاّ
فـإنْ كـان قُـبْـحـاً لم يـبـدِّلْهُ لـونُـهـا
جـمـالاً، ولا نُـبْلاً إذا لم يـكن نُـبلا
أنـا آدمـيٌّ كـان يـحـسِبُ أنّهُ
هـو الـكـائنُ الأسمـى وشِرْعـتُهُ الفُـضلى
وأنّ له الـدنـيـا الـتي هـو بـعـضُـهـا
وأنّ لـه الأخُـرى إذا صـامَ أو صـلّى
أمُنُّ عـلى الـصَّـادي[1] إذا مـا سـقـيـتُهُ
وأُلـزمهُ شـكـري، ولـستُ أنـا الـوَبْلا
وأُزهـى إذا أطـعـمتُ جَـوْعـانَ لـقـمـةً
كـأني خـلـقتُ الحَبَّ في الحـقل، والحَـقلا
تـتـلـمـذتُ للإنـسـان في الـدَّهـر حِـقـبـةً
فـلـقَّـنَـني غَـيّـاً، وعـلّـمـني جَـهلا

(١) الصادي: العطش (والفعل: صدِيَ).

نـهَـانيَ عن قـتْلِ الـنـفـوسِ، وعـنـدمـا
رأى غِـرّةً مـنّي تـعـلَّم بي الـقـتْلا!
وذمَّ إلـيّ الـرِّقَّ ثم اسـتـرقَّـني
وصـوّرَ، ظـلـمـاً فـيه، تـمـجـيـدَه عـدلا
وكـان يُـريـني الإثمَ في كلّ مـا أرى
وكلَّ نـظـامٍ غـيـرَ مـا سنَّ مُـخـتلاً
فـصـار الـورَى عنـدي: عـدوّاً وصـاحـبـاً،
وأنـفسُـهمْ صنـفـينِ: عـلـيـاءَ أو سُفـلى
وصـرتُ أرى بـغـضـاً، وصـرتُ أرى هـوىً،
وصـرتُ أرى عـبـداً، وصـرتُ أرى مَـوْلى
ويـا رُبّ شـرٍّ خِـلـتُه الخـيـرَ كـلَّهُ،
ويـا رُبَّ خـيـرٍ، خـلـتُه نَـكْـبـةً جُـلَّى
إلى أنْ رأيتُ الـنـجمَ يـطـلُعُ في الـدُّجى
لـذي مُـقـلـةٍ حَـسْـرَى، وذي مُـقـلـةٍ جَذْلَى
وشـاهـدتُ كـيف الـنـهـرُ يـبـذُلُ مـاءَهُ
فلا يـبـتـغي شـكـراً ولا يـدّعي فـضـلا
وكـيـف يَـزينُ الـطلُّ ورداً وعَـوْسَـجـاً
وكيف يُـروِّي الـعـارضُ[1] الـوعْـرَ والـسـهلا
وكـيف تُـغـذّي الأرضُ آلْـأمَ نـبـتِـهـا
وأقـبـحَـهُ شـكـلاً كـأحـسـنِـه شـكـلا
فـأصـبحَ رأيي في الحـيـاة كـرأيـهـا
وأصـبـحتُ لي دينٌ سِـوى مـذهـبي قَـبْلا

---

(١) السحاب، لأنه يعترض الأفق.

وصـــار نــبـيّـي كلُّ مـا يُـطـلـقُ الـعَـقْلا

وصـارَ كـتـابي الـكونُ لا صـحفٌ تُـتْـلى

✡✡✡✡

فَـديـنِـي كـدِينِ الـروضِ يـعـبَقُ بـالـشَّـذا

ولـو لـم يـكُنْ فـيه سـوى الـلصّ مُـنْـسَلاّ

فـلـيـستْ تُـخـومُ المـالـكـيـةِ تُـخـومَهُ

وإنّ لـه، إنْ يـعـلَـمـوا، غـيـرَهم أهلا

فـكَمْ هشّ لـلأنـسـامِ والـنـورِ والـنَّـدى

وآوى إلـيه الـطـيـرَ والـذَّرَّ والـنـملا

وكم بَـعَـثَـتْهُ لـلـحـيـاة من الـبِـلى

قـريـحـةُ فـنّـانٍ، فـأورقَ واخْـضَلاّ

وأصـبح يُـجـلى «طـيـفُهُ» في قـصـيـدةٍ

وفي رُقـعـةٍ أو لـوحـة «وهـو» لا يُـجْـلى

وديـني الـذي اخـتـارَ الـغـديـرُ لـنـفسه

ويا حُسنَ ما اختـارَ الغـديرُ وما أحلى!

تَـجيءُ إلـيه الـطـيـرُ عـطـشى فـتـرتـوي

وإنْ وَردَتْـهُ الإبلُ لم يَـــزجُـــرِ الإبلا

ويـــغـــتـــسلُ الـذئبُ الأثـيـمُ بمـائه

فلا إثمُ ذا يُـمـحـىَ، ولا طُـهْـرُ ذا يَـبـلى!

وديـني كـدينِ الـشُّـهبِ تـبـدو لـعـاشقٍ

وقَـالٍ[1]، وفـيـهـا مـا يُـحَبُّ ومـا يُـقـلى

فـمـا اسـتـترتْ كـيـمـا يـضِلَّ مـسـافـرٌ

ولا بـزغتْ كي يَـسـتـنـيـرَ الـذي ضَلاّ

---

(١) من القلى: البغض (قلاه – يقليه).

وليس لها أن تمنعَ الناسَ ضوءَها
ولو فتلوا منه، لتكبيلها، حَبْلا
وديني كدينِ الغيثِ إن سحَّ لم يُبَلْ
أروَّى الأقاحي أم سقىَ الشوكَ والدِفْلى[1]
فلم يتخيَّرْ في الفضاء مسيرَهُ
ولم ينهمرْ جوداً ولم ينحبسْ بُخلا
وإنْ لم أكنْ كالروضِ والنجم والحَيا
فحسبي اعتقادي أنَّ خِطَّتها المُثلى

✡✡✡✡✡

يرى النحلَ غيري إذْ يرَى النحلَ حائماً
وأُبصرُ قرْصَ الشُّهدِ إذ أُبصرُ النَّحلا
وألمح واحاتٍ من النَّخلِ في النّوى
إذا جرَفَ الإعصارُ من واحتي النَّخْلا
وإنْ أشربِ الصَّهباءَ أعلمُ أنني
شربتُ بشاشاتِ الزمانِ الذي ولّى
وما همسَتْهُ الريحُ في أذُنِ الثرى
وما ذرفَتْ في الليل نجمتُهُ الثكلى
وغَصّاتِ من ماتوا على اليأسِ في الهوى
فيا شاربيها هل لمحتم دمَ القتلى؟
وإنْ مَرَّ بي طفلٌ رأيتُ به الورى
من المَثَلِ الأدنى إلى المثَلِ الأعلى
فيا لكِ دنيا حسنُها بعض قُبحها
ويا لكَ كوناً قد حوى بعضُهُ الكلاّ

****

(١) الأصل: لم يبالِ.

٢١ - كن بلسماً

[الكامل]

القصيدة التي ألقاها صاحب الديوان في المأدبة الكبرى التي أقامتها الطائفة الأرثوذكسية، على شرف المندوب البطريركي المطران ثيودوسيوس أبو رجيلي في بروكلن - نيويورك .

كنْ بلسماً إن صارَ دهرُكَ أرقَما[١]
وحلاوةً إن صار غيرُكَ علْقَما

إن الحياةَ حَبَتك كلَّ كنوزِها
لا تبخلنَّ على الحياةِ ببعض ما...

أحسنْ وإنْ لم تُجْزَ حتى بالثنا
أيَّ الجزاءِ الغيثُ يبغي إن همَى؟

من ذا يكافئُ زهرةً فوّاحةً؟
أو مَن يُثيبُ البلبلَ المترنّما؟

عُدَّ الكرامَ المحسنينَ وقِسْهُمُ
بهما تجدْ هذين منهمْ أكرما

يا صاحِ خُذْ علْمَ المحبّةِ عنهما
إني وجدتُ الحُبَّ علْماً قيِّما

لو لم تَفُحْ هذي وهذا ما شدَا
عاشتْ مُذمَّمةً وعاشَ مُذمَّما

فاعملْ لإسعادِ السِّوى وهنائهمْ
إن شئتَ تسعدَ في الحياةِ وتنعُما[٢]

✡✡✡

(١) الحية التي فيها سواد وبياض.

أيـقظ شـعـورَكَ بـالمحـبّـة إن غـفـا

لـولا الـشُّعـورُ: الـنـاسُ كـانـوا كـالـدُّمى

أحـبِبْ فـيـغـدو الـكـوخُ كـونـاً نـيّـراً

أبـغِضْ فَيُمسي الكونُ سجناً مُظلما

مـا الـكـأسُ لـولا الخـمـرُ غـيـرُ زجـاجـة

والمـرءُ لـولا الحبُّ إلا أعـظُـمـا

كَـرِهَ الـدُّجى فـاسـودّ إلا شُـهْـبَه

بـقـيتْ لـتـضـحـكَ مـنه كـيف تجـهّـمـا

لـو تـعـشقُ الـبـيـداءُ أصـبحَ رمـلُـهـا

زهـراً، وصـار سَـرابُـهـا الخـدَّاعُ مـا[1]

لـو لم يـكنْ في الأرض إلا مـبـغضٌ

لـتـبـرَّمتْ بـوجـودِه وتـبـرَّما

لاح الجـمـالُ لـذي نُـهىً فـأحـبَّه

ورآه ذو جـهـلٍ فـظنّ ورجَّـما

لا تـطـلـبنَّ مـحـبّـةً من جـاهلٍ

المـرءُ لـيس يُـحَبُّ حـتى يُـفْـهَـمـا

وارفُقْ بـأبـنـاء الـغـبـاءِ كـأنَّـهمْ

مـرضى، فـإنّ الجـهلَ شيءٌ كـالـعَـمى

وَلْهُ بـورْدِ الـروضِ عن أشـواكه

وانْسَ الـعـقـاربَ إن رأيتَ الأنجـمـا

✡✡✡✡✡

يـا مَن أتـانـا بـالـسلام مُـبـشّـرًا

هشَّ الحِـمَى لـمـا دخـلـتَ إلى الحِـمَى

وصَـفُـوكَ بـالـتـقـوى وقـالـوا: جِـهْـبِذٌ،

---

(١) ماءً.

علاّمــةٌ، ولــقـد وجـدتُكَ مـثـلـمـا

لــفظٌ أرَقٌّ من الـنـسـيـمِ إذا سَـرَى

سَـحَـراً، وحـلـوٌ كـالـكَرى إنْ هَـوَّمـا

وإذا نـطـقـتَ فـفـي الجـوارحِ نـشـوةٌ

هي نـشـوةُ الـروحِ ارتـوتْ بـعـد الـظَّمـا

وإذا كـتـبتَ فـفـي الـطـروسِ حـدائقٌ

وشَّى حـواشـيَـهـا الـيَـراعُ ونمـنـمـا

وإذا وقـفتَ عـلـى المـنـابـرِ أوشـكتْ

أخـشـابُـهـا لـلـزهـوِ أنْ تـتـكـلـمـا

إنْ كـنتَ قـد أخـطـاكَ سـربـالُ الـغِـنَى

عـاش ابنُ مـريمَ لـيس يمـلِكُ درهـمـا

وأحَـبَّ حـتـى مـن أحـبَّ هـلاكَـه

وأعـانَ حـتى من أسـاء وأجْـرَمـا

نـامَ الـرعـاةُ عن الخِـرافِ ولم تـنَـمْ

فـإلـيكَ نـشـكـو الـهـاجِـعـين الـنـوَّمـا

عـبـدوا الإلهَ لمـغـنَمٍ يـرجـونَهُ

وعـبَـدتَ ربّك لـست تـطـلبُ مَـغـنـمـا

كم روَّعُـوا بـجـهـنَّمٍ أرواحَـنـا

فـتـألّمَتْ من قَـبْلُ أن تـتـألّـمـا!

زعـمـوا الإلهَ أعـدَّهـا لـعـذابـنـا

حـاشـا، وربُّك رحـمـةٌ، أن يَـظْلِـمـا

مـا كـان مِن أمـرِ الـورَى أن يـرحـمـوا

أعـداءَهـمْ إلاّ أرقَّ وأرحـمـا

لـيـستْ جـهـنّمُ غـيـرَ فـكـرة تـاجـرٍ

الـلـهُ لم يَـخْـلُقْ لـنـا إلاّ الـسَّـمـا

✸✸✸✸

٢٢ - الخمر والدنيا

[الرجز]

يشربُ بنتَ الكرْمِ بعضُ الناسِ
لكُرْبةٍ في النفسِ أو وِسْواسِ
وبعضُهُمْ لأنه قد ظَفِرا
وبعضُهمْ لأنه قد خَسِرا
وبعضُهُمْ لأنه في فَرَحِ
وبعضُهمْ لأنه في ترحِ
وبعضهمْ كي يستردَّ الأمْسَا
وبعضهم يَجرعُها كي يَنسى
وبعضُهمْ ليستفيدَ قوّهْ
وبعضهمْ لسَوْرةِ الفتوَّهْ
وبعضُهمْ كيما يحُلَّ مشكلهْ
وبعضُهمْ لأنه لا شُغْلَ لهْ
وبعضُهمْ عن رغبةٍ وعن هوىً
وبعضُهُمْ لعلَّةٌ يُرضي السِّوى
وبعضُهمْ مِن حُبّهِ للبائعِ
وبعضُهمْ نكايةً للمانعِ!
وبعضُهمْ يشربُها أحيانا
وبعضُهمْ في أيَّ وقتٍ كانا
وبعضُهُمْ مع صحْبِهِ في الدارِ
وبعضُهمْ في حانةِ الخَمَّارِ

وبـــعــــضُــــهمْ في زمـــرةِ الـــنُّـــدمـــانِ
وبـــعـــضُـــهمْ في وَحـــدةِ الـــرُّهـــبـــانِ
وبـعـضـّـهمْ في الـصـيف ذي الـرمـضـاءِ
وبـــعـــضُــــهمْ في زمن الـــشـــتـــاءِ
وبـعـضُــهمْ عـنـد انجيـابِ الـظـلـمهْ
وبـعـضُــهمْ عـنـدَ طـلـوعَ الـنـجـمهْ
وبـعـضُــهمْ يـذمُّـهـا اسـتـهـجـانـا
وبـعـضُــهمْ يمـدحُـهـا اسـتـحـسـانـا
لـــكـــنَّـــهمْ كـــلّـــهُمْ يــحْــسُـــوهـــا
المـــادِحُـــوهـــا والمـــقـــبِّـــحُـــوهـــا
فـــمـــا وجـــدتُ في زمـــاني رجلا
وقـــلـتُ: هل تحـــبُّـــهـــا؟ فـــقـــال: لا
وسِـــرُّ هـــذا أنـــهـــا كـــالـــدنـــيـــا
تـــؤذي ولـــكن مع أذاهـــا تُـــهـــوَى

****

٢٣ - لمّا

عــجــبــاً لمن أمــسى وكلُّ فــخَــارِهِ

بــنُــضــارِهِ المخــبــوءِ في الــصــنــدوقِ

مــاذا يــقــولُ إذا الــلــصــوصُ مــضَــوا به

وأقــامَ بــعــد نُــضــارِهِ المــســروقِ؟

إنْ يــرفــعِ المــالُ الــكــريمَ فــإنه

لــلــنــذْلِ مــثلُ الحــبلِ لــلــمَــشْــنــوقِ

لــمّــا صــديــقي صــار من أهل الــغِــنَى

أيــقــنتُ أني قــد أضــعتُ صــديــقي!..

****

(١) السراب.

٢٤ - تأمّلات

[الكامل]

لـيت الـذي خـلقَ الحـيـاةَ جـمـيـلـةً
لم يُـسـدلِ الأسـتـارَ فـوقَ جـمـالِـهـا

بل لـيـتَهُ سـلَبَ الـعـقـولَ فـلم يـكنْ
أحـدٌ يـعـلّلُ نـفـسَهُ بمُـنـاهـا

لـلهِ كم تُـغـرِي الـفـتَى بـوصـالِـهَا
وتـضِنُّ، حـتى في الـكـرى، بـوصَـالـهـا

تُـدنـيه من أبـوابـهـا بـيَـمـيـنـهـا
وتـردُّه عن خِـدْرهـا بـشِـمَـالـهـا

كم قـلتُ: هـذا الأمـرُ بـعضُ صـوابـهـا
فـوجـدتُه بـالخُـبْـر بـعضَ مُـحَـالـهـا

ولَـكَم خُـدِعتُ بـآلـهـا[1] وذممـتُهُ
ورجـعتُ أظـمـأَ مـا أكـونُ لآلـهـا

قـد كـنتُ أحـسَـبُـني أمِـنتُ ضَـلالَـهـا
فـإذا الـذي خَـمَّـنتُ كلّ ضـلالـهـا

إنَّ الـنـفـوسَ تَـغـرُّهـا آمـالُـهـا
وتـظلّ عـاكـفـةً عـلى آمـالـهـا

ذهَبَ الـصِّـبـا وأنـا أعـالجُ سـرَّهـا
مُـتـحـيِّـراً في كُـنـهِـهَـا ومَـآلـهـا

حـتى رأيتُ الـشـمسَ تُـلـقي نـورَهـا
في الأرض، فـوقَ سـهـولِـهـا وجـبـالـهـا

---

(١) القُلّة: الذروة.

ورأيتُ أحقَرَ ما بناهُ عَنْكَبٌ
متلفّفاً ومطوَّقًا بحِبالها
مثلُ القصورِ العاليات قِبابُها
الشّامخاتِ على الذُّرا بقُلالها[1]
فَعَلِمْتُ أنَّ النفسَ تخطرُ في الحُلى
والوشيِ، مثلُ النفس في أسْمَالها
ليستْ حياتُكَ غيرَ ما صوّرتَها
أنت الحياةُ بصَمْتِها ومقالها
ولقد نظرتُ إلى الحَمَائم في الرُّبا
فعجبتُ من حال الأَنام وحالها
للشَّوكِ حظُّ الوردِ من تغريدها
وشريكُه، من بَعْدُ، في إعْوالها
تشدو وصائدُها يمدّ لها الردى
فاعجبْ لحسنةٍ إلى مُغْتالها
فَغِبطتُها في أمْنها وسلامِها
ووددْتُ لو أُعطيتُ راحةَ بالها
وجعلتُ مذهَبَها لنفسيَ مذهباً
ونسجتُ أخلاقي على منوالها
مَن لجَّ في ضَيْمي تركتُ سماءَهُ
تبكي عليّ بشمسِها وهِلالها
وهجرتُ روضتَهُ فأصبحَ وَرْدُها
لليأسِ، كالأشواكِ في أدغالها
وزجَرتُ نفسي أن تميلَ كنفسهِ
عن كوثرِ الدنيا إلى أوحالها

---

(١) الصلّ: الحية التي تقتل إذا نهشت، من ساعتها.

نِسْيانكَ الجاني المسيءَ فضيلَةٌ

وخمودُ نارٍ جَدّ في إشعالِها

فاربأْ بنفسِكَ، والحياةُ قصيرةٌ،

أن تجعلَ الأضغانَ من أحمالِها

✡✡✡✡✡

زمنَ الشباب رحلتَ غيرَ مُذمَّمٍ

وتركتَ للحسراتِ قلبي الوالِها

دبَّتْ عقاربُها إليه تنوشُهُ

ورمتْ بقاياهُ إلى أصلالِها[1]

لم يبقَ من لذّاته إلا الرؤى

ومِن الصَّبابةِ غيرُ طيفِ خَيالِها

ومن الكؤوسِ سِوى صَدَى رنّاتِها

والرَّاحِ غيرُ خُمَارِها وخَبالِها

يا جنَّةً عُوجِلتْ عن أثمَارِها

ولذاذةً عُرّيتْ مِن سِربالِها

ما عابها شيءٌ سِوى اضمحلالِها

والذنبُ للأقدارِ في اضْمِحْلالِها

✡✡✡✡✡

ومليحةٍ في وجهِها أَلَقُ الضُّحى

والسِّحرُ والصَّهباءُ في أقوالِها

قالتْ: أينسى النازحونَ بلادَهُمْ؟

ما هاجَ حُزنَ القلبِ غيرُ سُؤالِها

الأرضُ، سوريّا أحَبُّ ربوعِها

(١) المطر.

(٢) الأسد.

(٣) خيمة الناطور.

(٤) الطائر، ومفرده: قطاة.

عــنــدي، ولــبــنــانُ أعــزُّ جــبــالــهــا
والــنــاسُ أكــرمُــهمْ عــلــيّ عــشــيــرُهَــا
روحــي الــفــداءُ لــرهــطِــهــا ولآلــهــا!
والــشُّــهبُ أَسـطـعُـهـا الـتـي في أُفـقِـهـا
لــيس الجلالُ الحقُّ غــيــرَ جلالــهــا
وأحَبُّ غــيــثٍ مــا هــمَى في أرضِــهــا
حــتى الحَــيــا[1] الــبــاكي عــلى أطلالــهــا
مــرحُ الــصِّــبــا الجــذلانِ في أســحَــارِهــا
ومُنى الــصِّــبــا الــولــهــانِ في آصَــالــهــا
إنــي لأعــرفُ ريــحــهــا من غــيــرِهــا
بــنَــوافحِ الأشْــذاءِ في أذيــالــهــا
تــلك المــنــازلُ كم خــطَــرتُ بــســاحِــهَــا
في ظلّ ضَــيْــغَــمِــهــا[2] وعــطْفِ غــزالــهــا
وشــدوتُ معْ أطــيــارهــا، وســهــرتُ مع
أقــمَــارِهــا، ورقــصــتُ مع شلاَّلــهــا
وســجــدتُ للإلــهــامِ معْ صــفــصَــافِــهــا
وضــحــكتُ لــلأحلامِ مع وَزّالــهــا[3]
وملأتُ عــقــلــي من حــديثِ شــيــوخِــهــا
وأخــذتُ شــعــري من لُــغَى أطــفــالــهــا
تــشــتــاقُ عــيــني قَــبْلَ يُــغــمــضُــهَــا الــردى
لــو أنــهــا اكــتــحــلتْ ولــو بــرمــالــهــا
مــرَّتْ بيَ الأعــوامُ تــقــفــو بــعــضَــهــا
وثُبَ الــقَــطــا[4] تــعــدو إلى آجــالــهــا
وتــعــاقــبتْ صــورُ الجــمــالِ فــلم يــدُمْ
في خــاطــري مــنــهــا سِوى تِــمــثــالــهــا

---

(1) الكوكب الدرّي: النجم المضيء.

****

٢٥ - شاعر الشهور

[مخلع البسيط]

«أيـــارُ» يـــا شـــاعـــرَ الـــشُّـــهـــورِ
وبـــســـمـــةَ الحبِّ في الـــدهـــورِ
وخـــالـقَ الـــزهـــرِ في الـــرَّوابي
وخـــالـقَ الـــعِـــطـــرِ في الـــزهـــور
وبـــاعـثَ المـــاءِ ذا خَـــريـــرٍ
ومُـــوجِـــدَ الـــسِّـــحـــرِ في الخـــريـــر
وغـــاسِـلَ الأفـقِ والـــدراري(١)
والأرضِ، بـــالـــنـــورِ والـــعَـــبـــيـــر
لـــقـــد كـــسَـــوتَ الـــثَّـــرى لـــبـــاســـاً
أجـــمـلَ عـــنـــدي من الحـــريـــر
مـــا فـــيـكَ قَـــرٌّ ولا هـــجـــيـــرٌ
ذهـــبتَ بـــالـــقـــرِّ والـــهـــجـــيـــر
فـلا ثـــلـــوجٌ عـــلـــى الـــروابي
ولا غَـــمـــامٌ عـــلـــى الـــبـــدور
أتـــيتَ فـــالـــكـــونُ مِـــهـــرجَـــانٌ
من الـــلـــذاذاتِ والحُـــبـــور
أيـــقـــظْتَ في الأنـــفسِ الأمـــاني
والابـــتـــســـامـــاتِ في الـــثُّـــغـــور
وكـــدتَ تُـــحْـــيي المـــوتى الـــبَـــوالي
وتُـــنـــبتُ الـــعُـــشبَ في الـــصـــخـــور
وتجـــعـــلُ الـــشّـــوكَ ذا أريـــجٍ

وتجعلُ الصَّخرَ ذا شعور

فأينما سِرتَ صوتُ بُشْرَى

وكيفما مِلتُ طيفُ نور

تشكو إليكَ الشتاءَ نفسي

وما جناهُ من الشُّرور

كم لذَّعَ الزَّمهريرُ جلدي

ودَبَّ حتى إلى ضميري

فلُذْتُ بالصُّوفِ أتّقيه

فاختَرَقَ الصُّوفَ كالحرير

وكم ليالٍ جلستُ وحدي

مُنقَبضَ الصدرِ كالأسير

يهتزُّ معْ أُنملي كتابي

ويرجُفُ الحِبْرُ في السُّطور

تُعْوِلُ فيها الرياحُ حولي

كنائحاتٍ على أمير

والغيثُ يهْمِي بلا انقطاعٍ

والرعدُ مستتبِعُ الزئير

والليلُ مُحلَولِكُ الحواشي

وصامتُ البَدءِ والأخير

والشُّهبُ مرتاعةٌ كطيرٍ

مُخْبئاتٍ من الصُّقور

في غرفتي موقدٌ صغيرٌ

لله منْ موقدي الصَّغير!

يكاد ينقدُّ جانباهُ

---

(١) الالتياح: العطش.

من شــدةِ الــغــيظِ لا الــسَّــعِــيــر

لـــولا لـــظـــاهُ رقـــصتُ فـــيـــهـــا

بـــغـــيـــر دُفٍّ عـــلـى ســـريـــري

وســـاعـــةٌ وجـــهُـــهـــا صـــفـــيقٌ

كـــأنه وجْهُ مُـــســـتَـــعِـــيـــر

أبـــطـــأ في الـــسَّـــيـــر عَـــقْـــربـــاهـــا

فـــأبـــطـــأَ الـــوقتُ في المـــسِـــيـــر

حـــتى كـــأنَّ الـــزمـــانَ أعـــمى

يمـــشي عـــلـى الـــشَّـــوْكِ في الـــوعـــور

كـــنَّـــا طـــويـــنـــا الـــمُـــنى وقـــلـــنـــا:

مـــا لـلأمـــانيِّ مـن نـــشـــور

فـــلـــو يـــزورُ الـــصـــدورَ حُـــلْـمٌ

عَـــرَّجَ مـــنـــهـــا عـــلـى قـــبـــور

لـــقـــد تـــولَّى الـــشـــتـــاءُ عـــنَّـــا

فـــصـــفِّـــقِي يـــا مـــنًى وطـــيـــري!

****

٢٦ - الكأس الباقية

[الخفيف]

دمعة على جبران خليل جبران

أيّــهــا الــشّــاعــرُ الــذي كــان يــشــدو
بــيــن ضــاحٍ من الجَــمــالِ وضــاحِكْ
جَــلــلٌ أن يــصــيــدَكَ الــقــدرُ الأعْـ
ـمَى ويَــمــشي مِــقــصُّهُ في جــنــاحِك
مــوكبُ الــشِّــعــرِ تــائهٌ في فــضــاءٍ
لــيس فــيــه ســوى حَــطــيــمِ سلاحِك
والــبــســاتــيــنُ، والــبلابلُ فــيــهــا
تــتــغــنّى، حــزيــنــةٌ لــرَواحِك
قــنِــعتْ بــالــنُّــواحِ مــنك فــلَــمّــا
زالَ عــاشتْ بــذكــريــاتِ نُــواحِك
والــدُّجَى، والــنــجــومُ تَــســطعُ فــيه،
واجمٌ حــســرةً عــلــى مــصــبــاحِك
تــلــمِسُ الــعــينُ أيــنــمــا لــمــسَتْهُ
جَــمَــراتِ الــتِــيــاحِــنــا والــتِــيــاحِك(١)
قــد تــولّت جلالــةُ الــسِّــحــرِ عــنــهُ
واضْــمــحَــلّتْ مُــذْ صــار غــيــرَ وشَــاحِك

✲✲✲✲

هــبــطتْ ربّــةُ الحــيــاةِ لــكي تَــسْـ
ـكُبَ خَــمــرَ الجَــمــالِ في أقْــداحِك
فــإذا أنتَ في الــسَّــريــرِ مُــسَــجّى

صـــامتٌ كـــالـــطـــيـــوفِ في ألـــواحِك

فـــتَـــولّت مـــذعـــورةً تـــلـــطِمُ الـــوجْـ

ـهَ وتَـــبـــكـــيكَ، يـــا قـــتـــيلَ سَـــمـــاحِك!

سَـــبـــقَـــتْـــهـــا إلاهـــةُ المـــوتِ كي تحْـ

ـــظَى ولـــو بـــالـــيـــســـيـــرِ من أفـــراحِك

ويـــحَـــهـــا! ويحَ حـــبِّـــهـــا من أثـــيمٍ

طَـــرَدتْـــنـــا ولم تُـــقِـــمْ في سَـــاحِك

أيـــبـــستْ روضَكَ الجـــمـــيلَ، ولم تَظْـ

ـــفَـــرْ بـــغـــيـــرِ الـــتُّـــرابِ من أدْواحِك

ذهبَ المـــوتُ بـــالـــكـــؤوس جـــمـــيـــعـــاً

غـــيـــرَ كـــأسٍ مَـلأْتَـــهـــا من جِـــرَاحِك!

****

(١) الغيم الكثيف.

٢٧ - الشجاع

[الخفيف]

لا أحِبُّ الإنـسـانَ يَـرضخُ لـلـوهْـ
ـمِ ويـرضَى بـتَـافـهَـاتِ الأمـاني

إنّ حـيّـاً يـهـابُ أنْ يـلـمسَ الـنُّـوْ
رَ كَـمـيْتٍ في ظُـلـمـة الأكـفـان

وحـيـاةً أمـدّ فـيـهـا الـتَّـوقّي
لا تـوازي في المجـدِ بـضعَ ثـوان

الـشـجـاعُ الـشـجـاعُ عـنـدي من أمـ
ـسَى يـغـنِّي والـدمعُ في الأجـفَـان

****

(١) عش الطائر في جبل أو جدار (أقل من الوكر).

٢٨ - أبي

[الطويل]

طَوى بعضَ نفسي، إذْ طواكَ الثَّرى عني
وذا بعضُها الثاني يَفيض به جفني

أبي! خانني فيك الرَّدى فتقوَّضتْ
مقاصيرُ أحلامي كَبَيتٍ من التِّبْن

وكانتْ رياضِي حالياتٍ ضواحكاً
فأقوتْ، وعفّى زهرَهَا الجَزَعُ المُضني

وكانت دِناني بالسرور مليئةً
فطاحتْ يدٌ عمياءُ بالخمرِ والدَّن

فليس سِوَى طَعْم المنيّةِ في فمي
ولَيس سوى صوتِ النوادبِ في أُذْني

ولا حَسَنٌ في ناظريَّ وقلّما
فَتَحتُهما من قبلُ إلاّ على حُسْن

وماصُوَرُ الأشياء بعدَك غيرَها
ولكنمّا قد شوَّهتْهَا يدُ الحزن

على منكبي تِبْرُ الضُّحى وعقيقُهُ
وقلبيَ في نارٍ وعينايَ في دَجْن[1]

أَبحتُ الأسَى دمعي وأنهبتُه دمي
وكنتُ أَعدُّ الحزنَ ضرباً من الجُبْن

فَمسْتَنكِرٌ كيف استحالتْ بشاشَتي

(١) ضعف الرأي (ومنه: مأفون).
(٢) العبد القِنّ: هو العبد المملوك هو وأبواه.

كمستنكرٍ في عاصفٍ رَعشةَ الغصن

يقولُ المعزّي ليس يُجْدي البُكا الفتى

وقولُ المعزّي لا يُفيدُ ولا يُغني

☆☆☆☆☆

شَخَصتُ بروحي حائراً متطلِّعاً

إلى ما وراء البحرِ أدنو وأسْتَدني

كَذاتِ جناحٍ أدركَ السيلُ عشَّها

فطارتْ على رَوْعٍ تحومُ على الوكْن(١)

فَواهاً لو انّي كنتُ في القومِ عندما

نظرتَ إلى العُوّادِ تسألُهمْ عنّي

ويا ليتَما الأرضُ انطوَى لي بساطُها

فكنتُ مع الباكينَ في ساعةِ الدَّفن

لَعَلّي أفِي تلك الأبوّةَ حقَّها

وإنْ كان لا يُوفَى بكيلٍ ولا وزن

فأعظَمُ مَجْدي كان أنك لي أبٌ

وأكبرُ فخري كان قولَكَ: ذا إبني!

أقولُ: لو انّي.. كي أُبرِّدَ لوعَتي

فيزدادُ شَجْوِي كلّما قلتُ: لو أني!

أحتّى وداعُ الأهلِ يُحْرَمُهُ الفتى؟

أيا دهرُ هذا منتهى الحَيْفِ والغَبْن!

أبي! وإذا ما قلتُها فكأنني

أنادي وأدعو يا مَلاذي ويا رُكني

لمن يلجأُ المكروبُ بعدكَ في الحِمَى

فيرجعَ ريّانَ المُنى ضاحكَ السِّنّ؟

خلعتَ الصِّبا في حَوْمَة المجدِ ناصعاً
ونُزِّهَ فيك الشيبُ عن لُوثةِ الأَفْن[1]

فذهنٌ كنجم الصيفِ في أوّل الدُّجى
ورأيٌ كحدِّ السّيفِ أو ذلكَ الذهنِ

وكنتَ ترى الدنيا بغير بشَاشةٍ
كأرضٍ بلا ماءٍ وصوتٍ بلا لحن

فما بكَ من ضُرٍّ لنفسكَ وحدَها
وضحْكُكَ والإيناسُ للجارِ والخِدْن

جريءٌ على الباغي، عَيُوفٌ عن الخَنا،
سريعٌ إلى الداعي، كريمٌ بلا مَنّ

وكنتَ إذا حدّثتَ حَدّثَ شاعرٌ
لبيبٌ دقيقُ الفهمِ والذوقِ والفنّ

فما استْشعَرَ المُصغي إليك مَلالةً
ولا قلتَ إلاّ قال من طَرَبٍ: زدْني!

✡✡✡✡✡

برغْمِكَ فارقتُ الربوعَ، وإننا
على الرَّغم منّا، سوف نلحقُ بالظُّعْن

طريقٌ مشى فيها الملايينُ قبْلَنا
من المَلِك السّامي إلى عبدِهِ القِنّ[2]

نظنُّ لنا الدنيا وما في رحَابها
وليستْ لنا إلاّ كما البحرُ للسُّفن

تروحُ وتغدو حُرّةً في عُبَابِهِ
كما يتهادَى ساكنُ السّجنِ في السِّجن

وزَنْتُ بسرّ الموتِ فلسفةَ الورى

(١) طير أبيض. والذكر قُمْري.

فـشـالتْ، وكـانت جـعـجـعـاتٍ بلا طِحْن

فـــأصـــدقُ أهلِ الأرضِ مـــعـــرفـــةً به

كـــأكـــثـــرِهمْ جـــهلاً يُـــرَجّمُ بـــالـــظّن

فـــذا مـــثلُ هـــذا حـــائـــرُ الـــلبّ عـــنـــدَهُ

وذاكَ كـــهـــذا لـــيس مـــنه عـــلى أَمْن

فـــيـــا لكَ سِـــفـــراً لم يـــزلْ جِـــدّ غـــامضٍ

على كـثـرةِ الـتـفـصـيلِ في الـشّرحِ والـمَتْن

أيـــا رمـــزَ لـــبـــنـــانٍ جلالاً وهـــيـــبـــةً

وحـصنَ الـوفـاء المحْضِ في ذلك الحِصْن

ضـريـحُكَ مـهـمـا يـسـتـسـرُّ، وبـلـدةٌ

أقـمتَ بـهـا تـبـني المحـامـدَ مـا تـبـني

أَحَبُّ من الأبـــراجِ طـــالتْ قِـــبـــابُـــهـــا

وأجـــملُ في عـــيـــنـــيَّ من أجـــملِ المـــدْن

عـــلى ذلك الـــقـــبـــرِ الـــسلامُ فَـــذِكـــرُهُ

أريجٌ به نـفـسي، عن الـعِـطْـرِ تَـسـتـغـني

****

---

(١) الصحيح «أحدٌ».

٢٩ـ ذكرى

[الكامل]

إنِّي امْـــرُؤٌ لا شيءَ يُـــطْــرِبُ روحَهُ
ويَـــهُـــزُّهـــا كـــالـــزهـــرِ والألحـــانِ

الـــلحنُ من قُـمْـريّـةٍ[1] أو مُـنـشـدٍ
والـــزهـــرُ في حـــقلٍ وفي بـــســـتـــان

هـــذا يُـــحـــرِّكُ بي دفـــينَ صَـــبـــابـــتي
ويـــهـــزّ ذاك مـــشـــاعـــري وكـــيـــاني

يـــهـــوى المَلاحـــةَ نـــاظـــري صـــوراً تُـــرى
وأحَـــبُّـــهـــا في مَـــسْـــمـــعيَّ أغـــانِ

وأحـــبّـــهـــا نـــوراً جـــمـــيلاً صـــافـــيـــاً
مـــتـــألّـــقـــاً في الـــنـــفس والـــوجـــدان

وأحـــبُّـــهـــا سِـــحْـــراً يـــرِفُّ مع الـــنـــدى
ويمـــــوجُ في الألـــــوان كـــــالألـــــوان

وأحـــبُّـــهـــا ذكـــرى تُـــطـــيفُ بـــخـــاطـــري
لأخٍ هَـــــويْتُ، وغـــــادةٍ تـــــهـــــواني

أو مـــجـــلسٌ لـــلـــحبّ في ظِلّ الـــصِّـــبـــا
إن الحـــيـــاةَ جـــمـــيـــعَـــهـــا هَـــذان

أو في خـــيـــالِ مـــنـــازلٍ أشـــتـــاقُـــهـــا
كم من جـــمـــالٍ في خـــيـــالِ مـــكـــان

ولـــقـــد نـــظـــرتُ إلـــيـــكمُ فـــكـــأنمـــا
أنـــا في الـــربـــيعِ، وفي رُبـــا لـــبـــنـــان

أُصـــغي إلى الـــنَّـــسَـــمـــاتِ تـــروي لـــلـــرُّبـــا

مــا قــالتِ الأشــجــارُ لــلــغُــدْران

وإلى الــسَّــواقي وهي تُــنـشِـدُ لــلـصَّــبـا

والحبَّ، في الــفــتــيــاتِ والــفــتــيــان

وإلى الأزاهــرِ كــلَّــمــا مــرَّتْ بــهــا

عـــذراءُ ذات مـلاحَـــةٍ وبـــيـــان

مُــتَــهــامِــســاتٍ: « مــا نــظنّ (فلانــةً)

أحـــداً(١) بـــهـــا أولى مـن (ابن فلان)

يــا لــيتَ يــنــثــرُنــا الــغــرامُ عــلــيــهــمــا

من قَــبْلُ يَــنْــثُــرنــا الخــريفُ الجــاني»

ألــفَتْ مُــجــاورةَ الأنــامِ فــأصــبــحتْ

وكـــأنّـــهـــا شـيءٌ مـن الإنـــســـان

فــإذا نــظــرتَ إلــيــهــمــا مــتــامِّلاً

شـــاهـــدتَ حـــولَكَ وَحـــدةَ الأكْـــوان

****

٣٠ - يا جنّتي

[الكامل]

لـــــمّـــا رأيـتُ الـــوردَ في خـــدَّيكِ

وشــقــائقَ الــنُّــعــمــانِ في شــفــتــيكِ

ونـــشَـــقْتُ من فَـــوْديك نَـــدّاً عـــاطـــراً

لـــمّـــا مـــشتْ كـــفـــاكِ في فـــودَيْك

ورأيتُ رأسكِ بـــالأقـــاح مـــتـــوجّـــاً

والـــفلَّ طـــاقَـــاتٍ عـــلى نـــهْـــديك

وسـمـعتُ حـولَكِ هـمسَ أرواحِ الـصّـبا

عـنـدَ الـصـبـاحِ، تُـهـزُّ من عِـطْـفـيك

أيـــقـــنتُ أنكِ جَـــنَّـــةٌ خلاّبـــةٌ

فـحـنـنْتُ، مِن بـعـدِ المـشـيبِ، إلـيكِ

ولـذاكَ قـد صـيَّـرتُ قـلـبي نَـحـلـةً

يـا جـنّـتي، كـيـمـا يـحـومَ، عـلـيك

روحي فـــداؤكِ إنـــهـــا لـــو لم تـــكنْ

في راحَـــتـــيكِ هَـــوَتْ عـــلى قـــدمـــيك

****

(١) الذي يعيي الأطباء.

٣١ - الشاعر في السماء

[مخلع البسيط]

رآنـيَ الـــــــــلـهُ ذات يـــــــــومٍ
فـي الأرض أبـــكي مـن الـــشَّـــقَـــاءْ
فَـــــرَقَّ، والـــــلـهُ ذو حـــنـــــانٍ،
عـــلـى ذوي الـــضُّـــرِّ والـــعـــنـــاء
وقـــــال: لــــيس الـــــتُّـــرابُ داراً
لـلـشِّـعـرِ، فـارجعْ إلـى الـسَّـمـاء!
وشـــادَ فـــوقَ الـــسِّـــمـــاكِ بـيـــتي
ومَـــدَّ مُـــلـــكِي عـــلـى الـــفـــضـــاء
فـــالـــتـــفّتِ الـــشُّـــهْبُ حـــولَ عـــرشي
وســـار في طـــاعـــتي الـــضِّـــيـــاء
وصـــرتُ لا يـــنـــطـــوي صـــبـــاحٌ
إلاّ بـــأمـــري ولا مـــســـاء
ولا تـــســـوقُ الـــغـــيـــومَ ريحٌ
إلاّ ولـي فـــوقَـــهـــا لـــواء
فـــالأمـــرُ بـــينَ الـــنـــجـــومِ أمـــري
لِي الْـحُـكمُ فـيـهـا ولِي الْـقَـضـاء

✡✡✡✡✡

لـــكـــنَّـــني لم أزلْ حـــزيـــنـــاً
مُـــكـــتـــئبَ الـــروحِ في الـــعـلاءْ
فـــاسْـــتـــغـــرَبَ الـــلـهُ كـيفَ أشْـــقَى
فـي عـــالـمِ الـــوحـيِ والـــسَّـــنـــاء

وقــــال: مـــــا زالَ آدمـــــيّـــــاً

يـــصـــبـــو إلى الـــغِـــيْـــدِ والـــطِّلاءْ

ومسَّ روحي واســـــتلَّ مـــــنـــــهـــــا

شـــوقي إلى الخـــمـــرِ والـــنِّـــسَـــاء

وظـنَّ أنـي انـــــتَـــــهَـى بـلائـي

فـــلـم يَـــزِدْنـي سِـــوى بـلاء

واشــــتـــدَّ نَـــوْحي وصـــارَ جـــهـــراً

وكـــانَ من قَـــبْلُ في الخـــفـــاء

وصـــارَ دمـــعي ســـيـــولَ نـــارٍ

وكـــان قـــبلاً ســـيـــولَ مـــاء

✡✡✡✡

يـــا أيُّـــهـــا الـــشَّـــاعـــرُ المـــعـــنّى

حـــيَّـــرني داؤُكَ الـــعَـــيـــاءْ[1]

هل تـــشـــتـــهي أن تـــكـــونَ طـــيـــراً؟

فـــقـــلـــتُ: كلاَّ، ولا غِـــنـــاء!

هل تـــشـــتـــهي أن تـــكـــون نجـــمـــاً؟

أحـــبـــبـــتُ: كلاَّ، ولا بَـــهَـــاء!

هل تـــبـــتَـــغِي المـــالَ؟ قـــلـتُ: كلاَّ

مـــا كـــانَ من مـــطـــلـــبي الـــثَّـــراء

ولا قـــصـــوراً، ولا ريـــاضـــاً

ولا جـــنـــوداً ولا إمـــاء

ولـــيـــس مـــا بي يـــا ربُّ داءٌ

ولا احـــتـــيـــاجِي إلى دواء

ولا حـــنـــيـــني إلى الـــقـــنَـــاني

(١) الجبل.

ولا اشْـــتِـــيـــاقي إلى الـــظِّـــبـــاء

ولا أريـــــدُ الـــــذي لِـــــغَـــــيْـــــرِي

ذا حـــكـــمـــةٍ كـــانَ أمْ مَـــضَـــاء

لـــكنّ أمـــنـــيّـــةً بـــنـــفـــسي

يَـــسْـــتـــرُهـــا الخـــوفُ والحـــيـــاء!

فـــقـــال: يـــا شـــاعـــراً عـــجـــيـــبـــاً

قُـلْ لـي: إذن مـــا الـــذي تَـــشَـــاء؟

فـــقـــلـتُ: يـــا ربِّ فـــصـلَ صـــيفٍ

في أرضِ لـــبـــنـــانَ أو شـــتـــاء

فـــإنـــني هـــهـــنـــا غـــريبٌ

ولـــيس في غُـــربـــةٍ هـــنـــاء!

فـــاســـتـــضـــحكَ الـــلـهُ من كلامي

وقـــالَ: هـــذا هـــو الـــغَـــبـــاء

لـــبـــنـــانُ أرضٌ كـــكُلِّ أرضٍ

ونـــاسُـهُ والـــورَى سَـــواء

وفـــيه بُـــؤسى وفـــيه نَـــعْـــمَى

و أرديـــاءٌ وأتـــقِـــيـــاء

فـــأيَّ شيءٍ تَـــشـــتـــاقُ فـــيه؟

فـــقـــلت: مـــا ســـرَّني وسَـــاء!

تحِنُّ نـــفـــسي إلى الـــسَّـــواقي،

إلى الأقـــاحِي، إلى الـــشَّـــذاء

إلى الـــرَّوابي تَـــعـــرى وتُـــكـــسَـــا

إلى الـــعـــصـــافـــيـــر والـــغـــنـــاء

إلى الـــعـــنـــاقِـــيـــدِ والـــدَّوالي

---

(١) الظبة: حدّ السيف، وجمعها في المعاجم: ظبات (ولامها واو: ظبوتُ).

والمـاءِ والنـورِ والهـواءْ!

فأشـرفَ اللـهُ من عُلاهُ

يشـهدُ «لبنانَ» في المسـاء

فقـالَ: مـا أنتَ ذا جـنونٍ

وإنمـا أنـتَ ذو وفـاء

فإنَّ لبـنانَ لـيس طَـوْداً،[1]

ولا بـلاداً، لـكنْ سَـمـاء!

****

(١) السادة والقادة.

٣٢ - كلوا واشربوا

[المتقارب]

كُلوا واشربوا أيُّها الأغنياءُ
وإن مَلأَ السِّكَكَ الجائعونْ
ولا تلبسوا الخزَّ إلا جديداً
وإن لَبسَ الخِرَقَ البائسون
وحُوطُوا قصوركُمُ بالرجالِ
وحوطوا رجالَكمُ بالحصون
فلا تُبصرونَ ضحايا الطَّوى
ولا يُبصرونَ الذي تَصْنعون
وإنْ ساءكُمْ أنهمْ في الوجودِ
وأزعجَكمْ أنهمْ يُعْولِون
مُرُوا فَتَصُولُ الجنودُ عليهمْ
تعلِّمهمْ كيفَ فَتْكُ المنون
فَهُمْ معتدونَ، وهم مجرمونَ،
وهمْ مقلِقونَ، وهم ثائرون
وتلك العِصيُّ لتلكَ الرؤوسِ
وتلك الحرابُ لتلكَ البُطون
وتلكَ السُّجُون لمن شدتُّموها
إذا لم تَزجُّوهمُ في السّجون؟
كِلُوا للظُّبا[1] حَلْقَ هامَاتهمْ
فإنَّ الملوكَ كذا يَفْعلون
إذا الجندُ لم يحرُسوكُمْ وأنتمْ

سَراةُ[1] البلادِ فمن يَحْرُسون؟
وإنْ همُ لم يَقْتلوا الأشقياءَ
فيا ليتَ شِعرَي، مَنْ يقتلون؟
ولا يَحْزُنُنَّكمُ موتُهمْ
فإنهمُ للردى يُولدون
وقولوا كَذا قد أرادَ الإلهُ
وإنْ قدَّرَ اللهُ شيئاً يكون
ويا فقراءُ لماذا التشكّي؟
ألا تستحونَ؟ ألا تخجلونْ؟
دعوا الأغنياءَ ولذّاتهمْ
فهمْ مثلُ لذّاتهمْ زائلون
سيُمسُونَ في «سَقَرٍ» خالدينَ
وتمسونَ في جنّةٍ تَنْعُمون
فلا تعطشونَ، ولا تسغبونَ،
ولا يرتوونَ، ولا يشبعون
لَكُمْ وحدكمْ ملكوتُ السَّماء
فما بالُكُمْ لستمُ تقنعون؟
فلا تَحزنوا أنكمْ ساهرونَ
فسوف تنامونَ ملءَ الجفون
ستتّكِئونَ مع الأنبياءِ
تظلِّلكُمْ وارفاتُ الغصون
يضوعُ السَّنا حولكُمْ بالشَّذا
وتجري الطِّلا أنهُراً وعُيون
وتسقيكمُ الخمرَ حُوْرٌ حِسانٌ
كما يشتهينَ، كما تشتهون

كـــذا وعَـــدَ الـــلـهُ أهلَ الـــتُّـــقَى
وأنـــتمْ همُ أيـــهـــا المـــتـــعَـــبـــون
ألا تـــؤمـــنـــونَ بـــقـــولِ الـــكـــتـــابِ؟
فـــويـلٌ لـــكمْ إنـــكمْ كـــافـــرون!

****

(١) مزامير النبي داود (الزبور). و(اسحق الموصلي) و(معبد) من مغني التراث الغنائي العربي في العصرين الأموي (معبد) والعباسي (الموصلي).

٣٣ـ حديث موجة

[الكامل]

قالها في حفلة تكريم سامي الشّوا التي أقامتها له الجالية في مدينة نيويورك عندما زارها.

عندي لكمْ نبَأٌ عجيبٌ شيّقٌ
سَأقصُّهُ وعليكُمُ تفسيرُهُ

إني رأيتُ البحرَ أخرسَ ساهياً
كالشيخ طال بما مضَى تفكيرُه

فسألتُ نفسي حائراً مُتلجْلجاً:
يا ليتَ شِعْري أين ضاعَ هديرُه؟

«بالأمسِ» قالتْ موجةٌ ثرثارةٌ
ومضَتْ، فأكملَت الحديثَ صخورُه:

بالأمسِ مرّ بنا فتًى من قومِكمْ
رقّتْ شَمائلُهُ ودقّ شُعوره

مُترنِّحٌ من خَمرةٍ قُدْسيّةٍ
فيها الهوى وفتونُه وفتوره

مترفِّقٌ في مَشْيِه يطأُ الثَّرَى
وكأنما بين النجومِ مسيرُه

يلهو بأوتارِ الكمنجَة والدُّجى
مرخيّةٌ، فوق العُبَابِ، سُتوره

يهدي إلى الوطن القديم سلامَهُ
ويُناشدُ الوطنَ الذي سيزوره

فشَجَا الخِضَمَّ نشيدُهُ وهتافُهُ
فسَهَا، فضاعَ هديرُه وزئيرُه

أعــرفــتُــمــوهُ؟.. إنه هــذا الــفــتى

هــذا الــذي ســحَــرَ الخِـضَـمَّ مُــرورُه

«داودُ» والمــــزمـــارُ في نـــغَـــمَـــاتِه

و«المـوصِـلـيُّ» و «مـعـبـدٌ» وسـريـره[1]

يــا ضَــيــفَــنــا، والأنسُ أنت رسـولُه

وبــشــيــرُه، والــفنُّ أنت أمــيــرُه

لــو شــاءَ في الــفـردوسِ أنك بـيـنـنـا

لَــمــشتْ إلــيــنــا ســافــراتٍ حــورُه

ذهب الــربــيعُ وجـئـتَـنـا فـكـأنما

جــاء الــربــيعُ، زهــورُه وطــيــوره

الــــفنُّ هشَّ إلــــيك في أمــــرائه

وتــفــتَّــحتْ لكَ دُورُه وقــصـــوره

إنَّ الجــواهــرَ بــالجــواهــرِ أُنــسُــهـا

أمَّــا الــتــرابُ فــبــالــتُّــرابِ حــبــوره

يــا شــاعــرَ الألحــان! إنِّيَ شــاعــرٌ

أمــســى ضــئــيلاً عــنــدَ نــوركَ نــوره

أســمى الــكلامِ الــشِّــعــرُ إلا أنه

أسْـمـاهُ[2] مـا أعـيـا الـفـتى تـصـويـره

وأحَبُّ أزهـــارِ الحـــدائقِ وردُهـــا

وأحبُّ من وَردِ الــريــاضِ عــبــيــرُه

أنتَ الــفتى، لك في الــنـسـيمِ حـفـيـفُه،

ولكَ الــغــديــرُ صــفــاؤُهُ وخــريــرُه

الــقــومُ صــاغــيــةٌ إلــيك قــلــوبُــهمْ

والــلــيلُ مُــنــصِــتَــةٌ إلــيكَ بُــدوره

وبـــهـــذه الأوتـــارِ ســـحـــرٌ جـــائلٌ

مــتــمــلــمــلٌ كــالــوحـي حــانَ ظــهــورُه
إن كــنــتَ لا تَــهــتــاجُهُ وتُــثــيــرُه
فــمَــنِ الــذي يَــهــتــاجُه ويُــثــيــره؟
دَغـدِغْ بـريـشـتِـكَ الـكـمـنـجـةَ يَـنْـطـلقْ
ويَــدُبُّ فـي أرواحِــنــا تــأثــيــره
وامشِ بــنــا في كل لحنٍ فــاتنٍ
كــالمــاء يــجــري في الــغــصــونِ ظــهــورُه
وأدِرْ عــلى الجُلاّسِ أكــوابَ الــهــوى
في راحــتــيكَ سُلافُهُ وعــصــيــرُه
فــيــخِفُّ في الــرجل الحــلــيمِ وقــارُهُ
ويــراجعُ الــشــيــخَ المــسنَّ غــروره
وتــنــامُ في صــدْرِ الــشَّــجيِّ هــمــومُهُ
ويُــفــيقُ في قَــلْبِ الحــزينِ ســروره
هــذي الجــمــوعُ الآن شــخصٌ واحــدٌ
لك حــكــمُهُ، وكــمــا تــشــاءُ مــصــيــرُه
إنْ شــئتَ طــالَ هُــتــافُهُ ونــشــيــدُهُ
أو شــئتَ دامَ نُــواحُهُ وزفــيــره
إنــا وهــبْــنــاكَ الــقــلــوبَ ولم نــهبْ
إلا الــذي لك قــبــلَــنــا تــدبــيــرُه!

****

---

(١) قيدوم كل شيء: مقدّمه وصدره.
(٢) النجر والنجار: الأصل والحسب.

٣٤ - ابسِمي

[الرمل]

ابـسِـمي كـالـوردِ في فـجـر الـصِّـبَـا
وابـسـمي كـالـنـجمِ إنْ جَنّ المـسـاءْ
وإذا مـا كـفّنَ الـثـلجُ الـثّـرَى
وإذا مـا سـتّـرَ الـغـيمُ الـسَّـمـاء
وتـعَـرّى الـروضُ من أزهـارِه
وتـوارى الـنـورُ في كـهفِ الـشـتـاء
فـاحـلُـمي بـالـصـيفِ ثم ابـتـسِـمي
تـخـلُـقي حـولكِ زَهْـراً وشَـذاء
وإذا سَـرَّ نـفـوسـاً أنّـهـا
تُـحـسنُ الأخـذَ فـسُـرّي بـالـعـطـاء
وإذا أعـيـاكِ أن تُـعـطي الـغـنى
فـافـرحي أنّكِ تُـعـطـينَ الـرجـاء

****

(١) السحاب لأنه يعترض في الأفق.

٣٥ - مجاهد

[الكامل]

ألقى هذه القصيدة في الحفلة التذكارية التي أقامتها جمعية الشُّبَّان المسلمين في مسرح «أكادمي أوف ميوزك» في بروكلين لفقيد الأمة موسى كاظم باشا الحُسيني:

قالوا قضى «موسى» فقلتُ قد انطوى
علَمٌ، وأُغمِدَ صارمٌ بتّارُ

فتشوَّشتْ صُورُ المُنى وتناثرتْ
كالزهرِ بدَّدَ شَملَها الإعصار

وكأنما وَتَرَ الردى كلَّ امرئٍ
لمّا تولّى ذلك الجبّار

جزِعتْ لمصرعِه البلادُ كأنّما
قد غابَ عنها جَحْفَلٌ جَرّار

وبكتْ «فلسطينُ» به قَيْدومَها[1]
إنّ الرَّزايا بالكبارِ كِبار

لمّا نعَوهُ نَعَوا إلينا سيّداً
شَرُفَتْ خلائِقُه وطابَ نَجار[2]

✡✡✡✡✡

لبِس الصِّبا ونَضاهُ غيرَ مدنَّسٍ
كالنجمِ لم تعلَقْ به الأوضارُ

ومشى المشيبُ برأسه فإذا به

---

(١) النضار: الذهب الخالص.
(٢) السراب.

كـالحـقلِ فـيه الـزَّهـرُ والأثـمـار

وتَـطـاولَـت أعـوامُـهُ، فـإذا بـهِ

كـالـطَّـودِ فـيه صلابـةٌ ووقـار

تـرتـدُّ عـنه الـعـاصـفـاتُ كـلـيـلـةً

ويـزِلُّ عـنه الـعـارضُ[1] الـمِـدرار

أُوذِي فـلـم يـجـزعْ، وضِـيْمَ فـلـم يـهِنْ

إنّ الـكـريمَ عـلـى الأذى صَـبّـار

صـقلتْ مُـكـافَـحَـةُ الـشـدائـدِ نـفـسَـهُ

والـروضُ تجـلـو حُـسـنَهُ الأمـطـار

فـلـه من الـشَّـيخ الأصـالـةُ، والـفـتى

إقـدامُـهُ، إذ لـلـفـتـى أوطَـار

يـتـهـيَّبُ الـفُـجَّـارُ صـدقَ يـقـيـنـهِ

وبـرأيـهِ يـسـتـرشـدُ الأحـرار

مـا زالَ يـزأرُ دونَ ذيَّـاكَ الحِـمـى

كـالـليثِ ريعَ فـمـا لـه اسـتـقـرار

ويـجـشِّمُ الـنـفسَ المخـاطـرَ هـادئـاً

كـيلا تُـلـمّ بـقـومِـه الأخـطـار

حـتى اسـتـقَـرّ بـه الـرَّدى في حُـفـرةٍ

وخلا، لـغـيـرِ جـوادِه، المِـضْـمَـار

فـاعـجَـبْ لمن مـلأ المـسـامـعَ ذِكـرُهُ

تـطـويـهِ في عُـرضِ الـثَّـرَى أشْـبَـار!

✡✡✡✡✡

---

(١) مبالغة من (ساخر).

(٢) يريد: الطائرة (والعقاب: الطير).

(٣) السم الناقع: البالغ الثابت.

أيّارُ مذكورٌ بحُسنِ صنيعِه
ولئن تولّى وانقضَى أيّارُ
فاخدُمْ بلادَكَ مثلَ «موسى كاظمٍ»
تُسبغْ عليك ثناءَها الأمصَار
إنّ السنينَ كثيرُها كقليلِها
إن لم تَزِنْ صفحَاتِها الآثار
فاصرفْ عِنانَكَ في الشباب إلى العُلا
بُرْدُ الشبيبةِ كالجَمالِ مُعَار
لا تقعُدنَّ عن الجهادِ إلى غدٍ
فلقدْ يَجِيءُ غدٌ وأنتَ غُبار
ماذا يُفيدُكَ أن يكونَ لك الثَّرى
ولغيركَ الآصالُ والأسْحَار
مَن ليس يفتحُ للنهارِ جفونَهُ
هيهاتَ يَكحُلُ مُقلتيهِ نهار

✡✡✡✡✡

وأحبِبْ بلادَك مثل «موسى كاظمٍ»
حُبّاً به الإخلاصُ والإيثار
تضفِرْ لرأسِكَ من أَزَاهِرِها الرُّبا
تاجاً، وتهتِفْ باسْمِكَ الأغوار
إيّاكَ ترمُقَها بمقلةِ تاجرٍ
إنّ اتِّجارَكَ بالمواطنِ عار
ودعِ المُنافقَ لا تثقْ بعهوده
وطَنُ المنافقِ فِضّةٌ ونُضَار[1]

---

(١) الاسم من الرّوغان: الإقبال والميل، مثل (المراوغة).
(٢) أرج الطيب: فاح (أرج - يأرج).

٣٦ - الكريم

[مجزوء الكامل]

قالوا: ألا تَصِفُ الكريمَ لنا؟ فقلتُ على البَدِيهْ:
إنّ الكريمَ كالربيعِ، تحبُّهُ للحُسنِ فيهْ
وتهَشُّ عندَ لقائه، ويغيبُ عنك فَتَشْتَهيهْ
لا يرتضي أبداً لصاحبه الذي لا يرتضِيه
وإذا الليالي ساعفَتْهُ لا يُدلُّ[1] ولا يتيهْ
وتراهُ يبسِمُ هازئاً في غمرةِ الخطب الكريه
وإذا تحرَّقَ حاسدوهُ بكى ورقَّ لحاسديه
كالوردِ ينفَحُ بالشَّذا حتى أنوفَ السَّارقِيه

****

(١) أصل المعنى: أدلّ به: وثق. وأكسبها هنا معنى التفاخر والتيه.

٣٧ - عَبْد

[المتدارك]

فــوقَ الجُــمَّــيــزةِ ســنــجــابٌ

والأرنـبُ تــــمـــــرحُ فـي الحـــــقلِ

وأنـــــا صــــيّـــــادٌ وثّـــــابٌ

لـــكنّ الــصَّــيــدَ عــلــى مــثــلي

مـــحـــظـــورٌ إذ إنّــي عـــبْـــدُ

والــــديكُ الأبـــيضُ في الـــقِنِّ

يــخـــتـــالُ كــيــوسفَ في الحُــسْنِ

وأنـــــا أتـــــمــــنَّى لــــو أنِّي

أصـــطـــادُ الـــديكَ ولــــكــــنّي

لا أقـــــدرُ إذ إنّــي عـــــبـــــدُ

وفـــــتـــــاتي في تـــــلك الــــدارِ

ســـوداءُ الـــطُّـــلـــعـــةِ كـــالـــقـــارِ

ســـيـــجيءُ ويـــأخـــذُهَـــا جـــاري

يـــا ويـــحي من هـــذا الـــعـــار!

أفلا يـــكـــفي أني عَـــبْـــدُ؟!

****

٣٨ - لبنان

[الكامل]

في حفل توديع صديق لبناني ، عائد إلى الوطن .

اثنانِ أعيا الدهرَ إن يُبليهما: لبنانُ والأملُ الذي لذويهِ
نشتاقُهُ والصّيفُ فوقَ هضابهِ ونحبُّهُ والثلجُ في واديه
وإذا تمدّ له ذُكاءُ حبالَها بقلائدِ العقْيانِ تستغْويه
وإذا تُنقِّطهُ السماءُ عشيّةً بالأنجمِ الزهراءِ تسترضيه
وإذا الصَّبايا في الحقول كزهرِها يضحكْنَ ضِحْكاً لا تكلُّفَ فيه
هنَّ اللواتي قد خَلقنَ ليَ الهوى وسَقَينَنْي السِّحرَ الذي أسقيه
هذا الذي صانَ الشبابَ من البِلَى وأبى على الأيّام أن تَطْويه

✡✡✡✡✡

ولربما جبلٌ أشبّهُه به مُسترسلاً مع روعةِ التشبيهِ
فأقولُ يحكيه، وأعلمُ أنهُ مهما سما هيهاتَ أنْ يحكيه
يا لذَّةً مكذوبةً يلهو بها قلبي ويعرفُ أنها تؤذيه

إنـي أذكّــــرُه بـــــذيّـــــاكَ الحِــــمى

وجَـــمــــالِه وإخــــالُــــنِي أُنْــسِــــيه

وإذا الحـقـائقُ أحـرجتْ صـدرَ الـفـتى

ألـــقَى مـــقـــالـــدَهُ إلى الــتَّـــمـــويه

وطـني سـتـبـقى الأرضُ عـنـدي كـلُّـهـا

- حـــتى أعـــود إلـــيه - أرضَ الـــتِّـــيه

سـألـوا الجَـمـال فـقـال: هـذا هـيـكـلي

والـــشِّـــعـــرَ قـــال: بــنــيتُ عــرشي فــيه

✡✡✡✡✡

الأرضُ تــســتـجـدي الخِـضَـمَّ مـيـاهَهُ

وكــنـــوزَهُ والـــبـــحـــرُ يـــســـتـــجـــديه

يُـمـسي ويُـصـبحُ وهـو مـنـطـرحٌ عـلى

أقــدامِه طــمـــعـــاً بمـــا يـــحـــويه

أعـــطـــاهُ بـــعضَ وقـــارِه حـــتى إذا

اســتـجـداهُ ثـانـيـةً سـخـا بـبـنـيه

لـبـنـانُ صُنْ كـنـزَ الـعـزائمِ واقـتـصـدْ

أخـــشى، مع الإســـرافِ، أن تُـــفـــنـــيه

✡✡✡✡✡

غــيـري يـراهُ سـيـاسـةً وطـوائـفـاً

ويـــــظـلُّ يـــــزعُمُ أنـه رائــــــيـهِ

ويــروحُ من إشـــفــاقِه يــبــكي له

لـــبـــنـــانُ أنت أحقُّ أن تَـــبـــكـــيه

لا يَـسـْفِـرُ الحـسنُ الـنـزيهُ لـنـاظـرٍ

مـــا دام مــنه الــطَّــرْفُ غــيــرَ نــزيه

✡✡✡✡✡

قُلْ لـلأُلـى رفــعــوا الــتُّـــخـــومَ لأرضِـه
ضَـــيَّـــقـــتُمُ الـــدنـــيـــا عـــلـى أهـــلـــيـهِ
ولمن يـــقـــولـــون: الـــفِـــرنْجَ حُـــمـــاتُه
الــــلـهُ قـــبلَ ســـيـــوفِـــهِمْ حـــامـــيـه

✲✲✲✲

يـــا صـــاحـــبي يَـــهْـــنـيكَ أنَّك في غـــدٍ
ســـتـــعـــانِقُ الأحـــبـــابَ في نـــاديهِ
وتَـــلَـــذُّ بـــالأرواح تـــعـــبَقُ بـــالـــشَّـــذا
وتـــهـــزُّكَ الأنـــغـــامُ من شـــاديه
إنْ حـــدّثـــوكَ عن الـــنَّـــعـــيمِ فَـــأطـــنَـــبُـوا
فـــاشـــتَـــقْـــتَهُ لا تـــنسَ أنك فـــيه!

****

٣٩ـ أنتِ والكأس

[مجزوء الخفيف]

أنتِ والكأسُ في يدي
فَلِمَن أنتِ في غدِ؟

فاسْتَشاطتْ لقولتي
غضباً في تمرُّد

وأشَاحتْ بوجْهِها
وادّعتْ أنّني رَدِي!

كاذبٌ في صَبابتي
ماذقٌ[1] في تَودُّدي

قلتُ: عفواً فإنها
سَورةٌ من مُعَرْبِد

وجرى الصلحُ والْتَقَى
ثغرُها ثغريَ الصَّدي[2]

أذعَنَ القلبُ طائعاً
بعدَ ذاكَ التَّمرُّد

فَنعِمنا هُنَيهَةً
بالولاءِ المجدَّد

بينَ ماءٍ مصفَّقٍ[3]
وهَزارٍ مُغَرِّد

---

(١) لم يخلص في ودّه.(مذق - يمذق).
(٢) صديَ صدى: عطش.
(٣) تصفيق الماء: تحويله من إناء إلى إناء.

ثُـمَّ عــــــــادتْ وسَــــــــاوســي
فـــــأنـــــا فـي تـــــــرددُ
راعـــهـــا مـــنّي الـــسُّـــكـــو
تُ فـــــذمّتْ تــــبــــلُّـــــدي
قـــــالـتِ: الحـبُّ سَـــــرْمـــــدُ
قـــــلـتُ: لا شـيءَ ســــرمـــــدي
أتُـــحِــبــيــنــني إذا
زالَ مـــــجـــــديْ وسُـــــؤدَدي؟
فـــأجـــابتْ لِـــفَـــورِهـــا
أنـتَ، لا المجـــدُ، مَـــقـــصـــدي
قـــلـتُ: هل تحـــفــظـــينَ عَـــهْـ
ـــديْ إذا ضـــاعَ عَـــسْـــجَـــدي؟
فـــأجـــابتْ بـــرِقَّـــــةٍ
أنتَ، مـــا عـــشْتَ، ســـيِّـــدي
كـــنتَ كـــالـــشـــمس في الـــغِـــنى
أم فـــقـــيـــراً كَـــجُـــدْجُـــد
حـــســـنـــاً.. قـــلتُ ضـــاحـــكـــاً:
يـــــا مَـلاكـي وفَـــــرْقَـــــدي
إنمــــــا هــلْ يـــــــدومُ لــي
حـــبُّـكِ الـــمُـــشْـــرِقُ الـــنّـــدي
إن حـــنَـى الـــدهـــرُ قَـــامـــتي
ومَـــحَـــا الـــشَّـــيبُ أسْـــودي
وانــــطـــوى رونـقُ الـــصِّـــبـــا
مـــثْلَ بَـــرقٍ بِـــفَـــدْفَـــد[1]

---

(١) الفلاة التي لا شيء فيها.

قـــــالـتِ: الـــــــشكُّ آفـــــةُ الْـ

ـــــحبِّ فـــانْـــبُـــذْه تـــســعَـــدِ

لـــيس حُـــبِّـيكَ لـــلــصِّـــبـــا

لـــســتَ فـــيه بـــــأوحَـــــد

بَلْ لمـــــا فـــــيكَ من صِـــفـــا

تٍ ومن طِـــيبِ مَـــحـــتِـــد

قـــــــلـتُ والـــــــشّـكُّ رائـحٌ

في ضـــمـــيـــري ومُـــغْــتــد:

وإذا غَـــــالـــــني الحِـــمَـــــا

مُ وأصـــــبـــــحتُ في غـــــد

جُـــثّـــةً لـــفَّـــهـــا الـــثَّـــرَى

بـــــالـــظلامِ المـــــؤبَّـــــد

لـــيس فـــيـــهـــا لـــصـــاحبٍ

أرَبٌ أو لحُـــــــــــــسَّـــــــــد

وسَـــــرى الـــــدودُ حـــولـــهـــا

يـــتـــغـــذّى ويـــعـــتـــدي

ومـــــررتِ الـــــغـــــداةَ بـي

فـــمـــررتِ بـــجـــلْـــمـــد[1]

ونَـــــظَـــــرتِ فـــــلـم تَـــــرَيْ

غـــيـــرَ عـــظْـمٍ مُـــجَـــرَّد

بـــعـــثـــرتْهُ يـــدُ الـــبِـــلَى

كـــنِـــفـــايـــاتِ مَـــوقِـــد

هـلْ تحـــــبِّـــــيـــــنـــي إذنْ

لخـلالـي ومَـــــحْـــــتِـــــدي؟

(١) الجلمد والجلمود: الصخر.

ويْكَ! صاحتْ ودمعُها
كجُمانٍ[1] مُبَدَّد

كم تظنُّ الظَّنونَ بي
أيها الزائغُ اهْتَدِ

أُشهِدُ الصبحَ فائضاً
في مروجِ الزَّبَرجَد[2]

أُشهِدُ الليلَ لابساً
طَيلَسانَ التَّمرُّد

أُشهِدُ الغيثَ مُعطِياً
أُشهِدُ الحقلَ يجتدي

وذواتِ الجناحِ من
باغمٍ[3] أو مُغَرِّد

والأزاهيرَ والشذا
في وِهادٍ وأنجُد

أُشهِدُ الأرضَ والسما
أُشهِدُ اللهَ موجِدي

سوفَ أحيا كما ترى
للهوى والتوجُّد

فأناجيكَ في الضُّحى
وهو أمراسُ عَسْجَد[4]

---

(١) اللؤلؤ.

(٢) الجوهر المعروف (لعله: الزمرّد).

(٣) البغام: الصوت.

وأناجيكَ في المسا
والأصيلِ المورَّد
في الرُّبا تخلعُ الجما
لَ بُرُوداً وترتدي
والسَّواقي لها غنا
ءُ كألحانِ (مَعْبَد)[1]
والعصافيرِ أقبلتْ
نحوها لتبرُّد
أسهرُ الليلَ وحشةً
بفؤادٍ مشدَّد
وإذا نِمْتُ نمتُ كي
يطرقَ الطَّيفُ مَرقَدي
فيظلُّ الهُيامُ بي
ينتهي حيثُ يبتدي
وبحزنٍ تنهَّدتْ
فاسْتجاشتْ تنهُّدي
فاعتنقنا سُويعةً
مثلَ جفنَيْ مسهَّد

✡✡✡✡✡

أفْلتَ الأمسُ هارباً
وغدٌ؟ ليس من غدِ!
صرتُ وحدي وليس لي
أربٌ في التَّوحُّد
يا نديمي إلى الكُؤو
سِ ويا مُنشِدُ انْشُد

---

(١) من مغنّي العصر الأموي.

زدْ لـي الخــــمـــرَ كـــلَّـــمـــا

قـــلـتُ: «يـــا صـــاحـــبي زِد»

لا تـــــــقـلْ أيُّ مــــــوسمٍ

ذا، فـــذا يـــومُ مـــولـــدي!

أنــــا، مـــا زلـتُ في الحـــيـــا

ةِ، لـي شــــبـــابـي وسُـــؤددي

ولُـــجَـــيـــني وعَـــسْـــجَـــدي

وخـلالـي ومـــــحــــتِـــدي

إنمّـــا «تـــلـك» أخـــلـــفتْ

قـــبلَ لـــيـــلـــينِ مَـــوعِـــدي

لـم تَـــــمُـتْ .. لا، وإنمـــــا

أصـــبـــحتْ في سِـــوى يـــدي!

✡✡✡✡✡

آفـــــــــــــــةُ الحـــبِّ أنـــه

فـي قـــلـــوبٍ وأكـــبُـــدِ

فـــهـــوَ كـــالـــنـــارِ لم تـــدُمْ

فـي هـــشـــيمٍ لـــوقِـــد!

✱✱✱✱

٤٠ - الشباب والحبّ

[الطويل]

بكيتَ الصِّبا من قبلِ أن يذهبَ الصِّبَا
فيا ليتَ شعري ما تقولُ إذا ولّى؟

توهَّمتَهُ يبقى إذا أنتَ صُنتَهُ
عن الشفةِ الحمراء والمُقْلةِ الكحلا

وخلتَ الهوى جهلاً فلم يكُنِ الهدى
أخيراً سوى الأمرِ الذي خِلْتَهُ جهلا

خشيتَ عليه أن يطوِّحهُ الهوى
فألقاكَ هذا الخوفُ في الهوَّةِ السُّفلى

أتُلجمُ ماءَ النهرِ عن جريانه
مخافةَ أنْ يفنى؟ إذن فاشربِ الوَحلا

سيبلَى الصِّبا مهما حَرَصْتَ على الصِّبا
فدعْهُ يذوقُ الحبَّ من قبْلِ أنْ يَبلَى

✲✲✲✲✲

فما ديمةٌ صبَّتْ على الصخرِ ماءَها
فما أنبتتْ زهراً ولا أطلعتْ بَقلا

بِأضيَعَ من بُرْدِ الشباب على امرئٍ
إذا استطعَمَتْهُ النفسُ أطعمَها العذْلا

فلا تكُ مثلَ الأقحوانةِ راعَها
من الحقلِ أن تُجْنى فلم تسكُنِ الحقلا

وأعجَبَها الوادي فلاذتْ بقاعه
فجاءَ عليها السيلُ في الليل واستتلى

فما عانقتْ نورَ الكواكبِ في الدُّجَى
ولا لثمتْ فجراً ولا رشفتْ طَلاًّ

وزالتْ فلم يستشْعِرِ النورُ والندى
على فَقْدِها غمّاً كأنْ لم تكن قبلا

ولا تكُ كالصَّدّاحِ إذ خالَ أنه
إذا ادَّخَرَ الألحانَ أكسبها نُبلا

فضَنَّ بها والشمسُ تنثرُ تِبْرَها
وفضَّتَها والأرضُ ضاحكةٌ جَذْلى

فلمّا مضى نورُ الربيعِ عن الرُّبا
ودبَّ إلى أزهارِها الموتُ مُنْسَلا

تحفَّزَ كي يشدو فلمْ يلقَ حولَهُ
سِوى الورَقِ الهاوي كأحلامِه القتلى!

****

٤١ - الغابة المفقودة

[السريع]

يا لهفةَ النَّفسِ على غابةٍ
كنتُ وهنداً نلتقي فيها
أنا كما شاءَ الهوى والصِّبا
وهيَ كما شاءتْ أمانيها
تكادُ من لُطْفٍ معانيها
يشربُها خاطرُ رائيها
آمنتُ باللهِ وآياتهِ
أليسَ أنّ اللهَ باريها؟

✡✡✡✡✡

نُباغتُ الأزهارَ عند الضُّحَى
متَّكئاتٍ في نواحيها
ألوى على الزنْبقِ نَسرينُها
والتَفّ عاريها بكاسيها
واختلجتْ في الشمس ألوانُها
كأنّها تذكرُ ماضيها
تآلفتْ فالماءُ مِن حولها
يرقصُ، والطيرُ تُغنِّيها
مَنْ لقَّنَ الطيرَ أناشيدَها؟
وعلَّمَ الزهرَ تآخيها؟
يا هندُ هذي مُعجِزاتُ الهوى
وإنّها فينا كما فيها

لا يستحي الزهرُ بإعلانها
فما لنا نحن نُواريها؟
وتهتِفُ الطيرُ بها في الرُّبا
فما لنا نحن نُعمِّيها؟
للهِ في الغابةِ أيّامُنا
ما عابَها إلاّ تلاشيها
طوراً علينا ظِلٌّ أدواحِها
وتارةً عطفُ دواليها
وتارةً نلهو بأعنابِهَا
وتارةً نُحصِي أقاحِيها
تسكتُ إذ نشكو شَحَاريرُها
كأنّما التغريدُ يُؤذِيها
وإنْ تَضاحكْنا سَمعنا الصَّدى
يضحكُ معْنا في أقاصِيها
وإن مَشَينا فوق كُثْبَانِها
لاحتْ فَشَاقَتْنا أدانيها
وفوقَنا الأغصانُ معقودةٌ
نوائبُ طالَ تدلِّيها
إذا هَزَزْناها على غِرَّةٍ
ألقتْ من الذُّعرِ لآلِيها
نسيرُ من كهفٍ إلى جدولٍ
نكتشفُ الأرضَ ونطويها
والنورُ عطرٌ في تعاريجِها
والعطرُ نورٌ في حواشِيها
وتختَبي هندُ فأشتاقها
وأختَبي عنها فأُغْريها

كم أوهمتْني الخوفَ من طارئٍ
تُشجي بذا نفسي فتُشجِيها
فرُحتُ أعدو نحوَهَا مُشفقاً
فكان ما حاذرتُ تمويها!
فاعجبْ لأطواري وأطوارِها
تعبثُ منّي وأُجَاريها!

☼☼☼☼

اللهَ لو دامَ زمانُ الهَوى
ودامَ من هندٍ تجنِّيها
لا غابتي اليومَ كعهدي بها
ولا التي أحْبَبْتُها فيها
ولا تلالٌ كنهودِ الدُّمَى
ولا سفوحٌ كتَراقِيها[(١)]
ولا الندى دَرَّ على عُشبِها
ولا الأقاحي في روابيها
ولا الضُّحى يُلقي على أرضِها
شِباكَ تِبْرٍ مِن أعاليها
أهبَطَنِي أمسِ إلى حِضْنِها
شوقي إلى سَجْعِ قُماريها[(٢)]
فلم تخمِّشني بأوراقها
ولم تهلِّلْ لي سواقيها
قد بدّلَ الإنسانُ أطوارَها
واغتصبَ الطيرُ مآويها

---

(١) الترقوة: العظم بين ثغرة النحر والعاتق.
(٢) القُمري: طائر يشبه الحمام (والجمع: القماري).

وفتّ بـــالـــبـــارودِ جُـــلـــمـــودَهَـــا
واجـــتثَّ بـــالـــفـــأسِ دوالـــيـــهـــا
وشـــادَ مِن أحـــجـــارِهـــا قـــريـــةً
ســـكّـــانُـــهـــا الـــنـــاسُ وأهـــلـــوهـــا
يـــا لـــهـــفـــةَ الـــنـــفسِ عـــلـى غـــابـــةٍ
كـــنتُ وهـــنـــداً نـــلـــتـــقي فـــيـــهـــا
جـــنّـــةُ أحـلامـي وأحـلامِـــهـــا
ودارُ حـــبِّي وتـــصـــابـــيـــهـــا
نـــبـــكي من الـــيـــأس عـــلـى شـــوكِـــهـــا
وكـــان يُـــدمـــيـــني ويُـــدْمِـــيـــهـــا
كـــانت تُـــغـــطّـــيـــنـــا بـــأوارقِـــهـــا
فـــصـــارتِ الـــدُّورُ تـــغـــطّـــيـــهـــا!

****

٤٢ - أبو غازي

[الوافر]

أبَا غازِي السَّلامُ عليكَ مِنّا
وعفواً أيّها المَلكُ الهُمَامُ

فما ضاقَ الكلامُ بنا ولكنْ
وجَدْنا الحزنَ أرخصُهُ الكلام

وخطْبُكَ لا يَفِيه دَمْعُ باكٍ
ولو أنَّ الذي يَبكي الغَمَام

ونحن أحقُّ أن نُبكَى ونُرثى
فموتُكَ من بني العُرْبِ انتقام

خبا نبراسُنا، والليلُ داجٍ،
وموجُ الحادثاتِ له الْتِطَام

وكنتَ لنا الدليلَ، فغبتَ عنّا
وكنتَ حُسامَنَا، فنَبَا الحُسام!

كأنّك قد وتَرْتَ الموتَ قِدْماً
وهابَكَ في كِنانتِكَ السِّهام

فدبَّ إليك مثلَ اللصِّ ليلاً
وكان الموتُ ليس له ذِمَام

طَوَى الدنيا نعيُّكَ في ثوانٍ
فريعَ البيتُ والبلدُ الحَرام

و «دجلةُ» كالطعينِ له أنينٌ
وفي «بردى» الْتِياعٌ واضْطِرام

ورُحـنـا بـين مَـصْـعـوقٍ وسـاهٍ
كَـمَنْ صَـرَعَتْ عـقـولَـهمُ الـمُـدام

كـأنّ الأرضَ قـد مـادتْ وفُـضَّتْ
عن المـوتى الـصـفـائحُ والـرِّجـام[1]

فَـمْن لـلـبـيضِ[2] والجُـرْدِ المـذاكي[3]؟
و «فـيـصلُ» بـاتَ يـحـويه الـرَّغـام[4]

ومَن لـلـحقِّ يـنـشـرُه لـواءً
به لـلـنـاس هـدْيٌ واعـتِـصـام

تـوارى المجـدُ في كـفَنٍ ولحْـد
وغـابتْ في الـتُّـرابِ مُـنىً عِـظـام

مـضَى وحـديـثُهُ في الـنـاس بـاقٍ
كـعُـمـرِ الـشَّـمسِ لـيس له انْـصِـرام

فـيـا جَـدَثـاً حـواهُ لـستَ قـبـراً
ولـكن أنتَ في الـدنـيـا وِسَـام

✡✡✡✡✡

حـيـاتُكَ « يـا أبـا غـازي « حـيـاةٌ
كـفَـصْلِ الـصـيفِ: زهـرٌ وابـتِـسـامُ

وقـد تُـحـصَى الـكـواكبُ والأقـاحي
ولا تُـحـصَى أيـاديكَ الجِـسَـام

مـددتَ إلى مُـنى الـعـرَبِ الـغَـوافي
يـداً، فـتـفـتّـقَتْ عـنـهـا الـكِـمـام

وأمـسى بَـنْـدهُـمْ[5] ولـه خُـفـوقٌ
وأمـسى عِـقـدهمْ ولـه نـظـام

(١) حجارة ضخام تجمع على القبور.
(٢) البيض: السيوف.
(٣) الجرد المذاكي: الخيل الأصيلة.
(٤) التراب.
(٥) العلم أو الراية.

وكم أسـقـمتَ جـسـمَكَ كي يَـصِـحُّـوا

وحـــالــفتَ الـــسُّـــهـــادَ وهمْ نـــيـــام

وكم جـــازيتَ عن شـــرٍّ بـــخـــيـــرٍ

وكم جـــازاكَ بــــالـــغـــدرِ الأنـــام

خُـذلتَ فـمـا عَـتِـبتَ عـلى صـديقٍ

ولـم تحـــنِقْ وقـــد كـــثُـــر الـــمَلام

وكم قـــد فُـــزتَ في حـــربٍ وسَـــلمٍ

فـلـم يـلـعبْ بِـعـطـفـيكَ الـعُـرام[1]

خلائـقُ مَـن لـه عِـــــرْقٌ كــــريمٌ

وخِـــطَّـــةُ من له قـــلبٌ عِـــصَـــام

خـذوا الخُـلُقَ الـرفـيعَ من الـصَّحـارَى

فـإنَّ الـنـفسَ يُـفـسِـدُهـا الـزِّحـام

وكم فـقَـدتْ جلالـتَـهـا قـصـورٌ

ولـم تـفـقِـدْ مـروءتَـهـا الخـيـام

✵✵✵✵✵

وقـــالـــوا انـــدكَّ عـــرشُكَ في دمـــشقٍ

كـأنَّ الـعـرشَ أخـشـابٌ تُـقـامُ

وكـــيف تـــهـــدُّ سُـــدَّتكَ الـــعَـــوالي

ولم يـسـلـبْكَـهَـا المـوتُ الـزؤام

فـمـا كـان انـتـصـارهمُ علاءً

ولا كـــان انـــكـــســـارُكَ فـــيه ذامُ

إذا لم تَـــنْـــصُـــرِ الأرواحُ مَـــلْـــكـــاً

فـأحـسنُ مـا حَـوَى جـثثٌ وهَـام

ومـــا زالتْ لـك الأرواحُ فـــيـــهـــا

ومـــا زالتْ عـــشـــيـــرتُكَ الـــشَّـــآم

(١) الحدّة والشرس.

تـــصـــفِّقُ لاســمِكَ الأمــواهُ فــيــهــا

ويـــهــتفُ في خَـــمــائـلِـهــا الحَــمَـام

ويــذكــرُ أهــلُــهــا تــلــك الــسَّــجَــايــا

فــيُــشــرقُ من تــذكُّــرِهــا الــظلام

ولــــــيس أحبَّ من حُـــــرٍّ مُــــؤاسٍ

إلى شــعــبٍ يُــســاءُ ويُــسْــتَــضَـام

✡✡✡✡

فــقلْ لــلــسَّــاخــطــينَ عــلــى الــلــيــالي

ومَنْ ســكـــنــوا عــلــى يــأسٍ ونــامــوا

ســيــنــحَــســرُ الــضَّــبــابُ عن الــروابي

ويــبــدو الــوردُ فــيــهــا والخُــزَام

ويــصــفــو جَــوُّنــا بــعــد انــكــدارٍ

ويَــسْــقِي أرضَــنــا المــطــرُ الــرِّهــام[1]

ونـــرجِعُ أمَّـــةً تُـــرجى وتُـــخــشَى

وإنْ كَــرِهَ الــزَّعــانفُ والــطَّــغَــام

****

---

(١) الرهمة: المطر الدائم الصغير القطر.

٤٣ ـ فلسطين

[المتقارب]

ديـــارُ الـــسَّلامِ، وأرضُ الـــهـــنـــا
يـــشقّ عـــلـى الـــكلّ أن تَـــحْـــزنَـــا
فَـخَـطْبُ فـلـسـطـينَ خـطبُ الـعُلا
ومـــا كـــان رزءُ الـــعُلا هـــيِّـــنـــا
سَـــهِـــرْنـــا لـه فـكـأنّ الـسـيـوفَ
تَـــحـــزُّ بـــأكـــبـــادِنـــا هـــهـــنـــا
وكـــيـف يـــزورُ الـــكـــرى أعـــيُـــنـــاً
تـــرى حـــولَـــهـــا لـــلـــرَّدى أعـــيُـــنـــا؟
وكـــيـف تـــطـــيبُ الـحـــيـــاةُ لـــقـــومٍ
تُـــســـدَّ عـــلـــيـــهـمْ دروبُ الـمـــنـى
بلادهمُ عُـــرْضـــةٌ لـــلـــضَّـــيـــاعِ
وأمّـــتـــهـمْ عُـــرْضـــةٌ لـــلـــفـــنـــا
يُـــريـــدُ الـــيـــهـــودُ بـــأنْ يـــصـــلـــبـــوهـــا
وتـــأبـى فـــلـــســـطـــينُ أن تُـــذعِـــنـــا
وتـــأبـى المـــروءةُ في أهـــلـــهـــا
وتـــأبـى الـــسُّـــيـــوفُ، وتـــأبـى الـــقـــنـــا
أأرضَ الخـــيـــالِ وآيـــاتـــه
وذاتَ الجـلالِ، وذاتَ الـــسَّـــنـــا
تـــصـــيـــرُ لـــغـــوغـــائـــهـمْ مـــســـرحـــاً
وتـــغـــدو لـــشُـــذَّاذهـمْ مَـــكْـــمَـــنـــا

✲✲✲✲✲

بـنـفـسـيَ «أردنُّـهـا» الـسـلـسـبـيلُ
ومَـنْ جـاوروا ذلـك الأُردُنـا

لـقـد دافـعـوا أمسِ دون الحـمى
فـكـانتْ حـروبُـهـمُ حـربَـنـا

وجـادوا بـكلّ الـذي عـنـدهمْ
ونـحـن سـنـبْـذُل مـا عـنـدنـا

فـقلْ لـلـيـهـودِ وأشـيـاعـهم
لـقـد خَـدعَـتْـكمْ بُـروقُ الـمُـنى

ألا لـيت «بـلـفـورَ»[1] أعـطـاكمُ
بـلاداً لَـهُ لا بـلاداً لـنـا

«فـلـنـدنُ» أرحبُ من قُـدْسـنـا
وأنـتمْ أحبُّ إلـى «لُـنـدنـا»

ومـنّـاكُمُ وطـنـاً في الـنـجـومِ
فـلا عـربيَّ بـتـلك الـدُّنـا

أيَـسـلُبُ قـومَـكُمُ رشـدَهمْ
ويـدعـوهُ قـومُـكمُ مـحـسـنـا!

ويـدفعُ لـلـمـوت بـالأبـريـاءِ
ويـحـسـبُهُ مـعـشـرٌ دَيِّـنـا!

ويـا عـجـبـاً لـكم تـوغـرونَ
عـلى الـعَـرَبِ «الـتـامـزَ والـهُـدسُـنَـا»[2]

وتـرمـونـهـمْ بـقـبـيحِ الـكلامِ
وكـانـوا أحقّ بـضَـافي الـثَّـنـا

وكلُّ خـطـيـئـاتـهمْ أنّـهـم
يـقـولـونَ: لا تَـسْـرِقـوا بـيـتَـنـا

---

(١) اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا، وصاحب الوعد الذي وجهه إلى الثري اليهودي (روتشيلد).
(٢) نهر التايمز في بريطانيا. والهدسُن: في أمريكة.

فـليـسـت فـلـسـطـينُ أرضـاً مَـشـاعـاً
فَـتُـعـطَى لمن شـاء أن يَـسـكُـنـا
فـإنْ تـطـلـبـوهـا بـسُـمـرِ الـقـنـا
نـردُّكـمُ بـطـوالِ الـقَـنـا
فـفـي الـعـربيِّ صـفـاتُ الأنـام
سِـوى أن يـخـافَ وأن يَـجـبُـنـا
وإن تحـجـلـوا بـيـنـنـا بـالخـداعِ
فـلـن تَـخْـدعـوا رجلاً مـؤمـنـا
وإن تـهـجُـروهـا فـذلك أولى
فـإنّ «فـلـسـطـينَ» مُـلْكٌ لـنـا
وكـانتْ لأجـدادِنـا قَـبْـلَـنـا
وتـبـقى لأحـفـادِنـا بـعْـدَنـا
وإنّ لـكـمْ بـسـواهـا غِـنىً
ولـيـس لـنـا بـسـواهـا غِـنى
فلا تحـسَـبـوهـا لـكُـمُ مـوطـنـاً
فـلـم تكُ يـومـاً لـكـمْ مـوطـنـا
ولـيس الـذي نـبْـتَـغـيهِ مُـحـالاً
ولـيس الـذي رُمـتـمُ مُـمـكـنـا
نـصـحـنـاكمُ فـارعـوُوا وانـبُـذوا
«بـبـلـفـورَ» ذيّـالكَ الأرعَـنـا
وإمّـا أبـيـتـمْ فـأُوصِـيـكمُ
بـأنْ تحـمِـلـوا مـعْـكُمُ الأكْـفُـنـا
فـإنّـا سـنـجـعلُ من أرضـهـا
لـنـا وطـنـاً ولـكـمْ مَـدفَـنـا!

****

٤٤ - الغبطة فكرة

[مجزوء الرمل]

أقــبلَ الــعــيــدُ، ولــكنْ لــيس في الــنــاس المــسَــرَّهْ

لا أرى إلاّ وجــوهــاً كــالــحــاتٍ مُــكْــفَــهِــرَّه

كــالــرَّكــايــا[١] لم تَــدَعْ فــيــهــا يــدُ المــاتحِ قــطــرَه

أو كَــمِــثْلِ الــروضِ لم تــتــركْ به الــنــكــبــاءُ[٢] زهــرَه

وعــيــونــاً دنَّــقت[٣] فــيــهــا الأمــاني المــسْــتَــحِــرَّهْ[٤]

فــهْيَ حَــيْــرَى ذاهلاتٌ في الــذي تــهــوى وتــكــرَه

وخــدوداً بــاهــتــاتٍ قــد كــســاهــا الــهمُّ صُــفــرَه

وشِــفَــاهــاً تحــذرُ الــضــحكَ كــأن الــضّــحكَ جَــمْــره

لــيس لــلــقــومِ حــديثٌ غــيــرَ شــكــوى مُــسْــتَــمِــرَّه

قــد تَــســاوَى عــنــدهمْ لــلــيــأس نــفعٌ ومــضــرَّه

لا تــسَلْ مــاذا عَــرَاهُمْ، كــلُّــهمْ يَــجــهلُ أمــرَه

حــائــرٌ كــالــطَّــائــرِ الخــائف قــد ضــيّعَ وكْــرَه

فــوقَهُ الــبــازيُّ، والأشْــرَاكُ في نَجْــدٍ وحُــفْــرَه[٥]

فــهــو إنْ حطَّ إلى الــغــبــراءِ شكَّ الــسَّــهمُ صَــدرَه

وإذا مــا طــارَ لاقى قَــشْــعَمَ[٦] الجــوِّ وصــقــرَه

كــلُّــهم يــبــكي عــلى الأمس ويــخــشَى شــرَّ «بُــكْــره»

---

(١) الركيّة: البئر.

(٢) الريح.

(٣) دنّقت العين: غارت، والوجه هزل.

(٤) المرتفعة الحرارة لقوّتها (المستعرة).

(٥) يريد الأرض العالية، والحفرة الغائرة في الأرض.

فـهمُ مـثلُ عـجـوزٍ فـقَـدتْ في الـبـحـرِ إبْـرهَ
أيُّـهـا الـشَّـاكي الـلـيـالي إنمـا الـغِـبـطـةُ فِـكْـره
ربمـا اسْـتـوطـنتِ الـكـوخَ ومـا في الـكـوخ كَـسْـره
وخـلـتْ مـنـهـا الـقـصـورُ الـعـالـيـاتُ الـمُـشْـمَـخـرَّه
تـلـمسُ الـغـصنَ المـعـرَّى فـإذا في الـغـصن نَـضْـره
وإذا رفّتْ عـلـى الـقَـفْـرِ اسـتـوى مـاءً وخُـضـرَه
وإذا مَـسّتْ حَـصـاةً صَـقـلـتْـهـا فـهـيَ دُرَّه
لكَ، مـا دامتْ لـك، الأرضُ ومـا فـوق الـمَـجَـرَّه
فـإذا ضـيَّـعـتَـهـا فـالـكـونُ لا يـعـدلُ ذرَّه
أيـهـا الـبـاكي رويـداً لا يـسـدُّ الـدمعُ ثُـغْـره
أيـهـا الـعـابسُ لن تُـعـطى عـلـى الـتـقـطـيبِ أُجْـرَه!
لا تـكن مُـرّاً، ولا تجـعلْ حـيـاةَ الـغـيـرِ مُـرَّه
إنّ من يـبـكي لـه حَـوْلٌ عـلـى الـضّـحك وقُـدْره
فـتـهـلّلْ وتـرنّمْ فـالـفـتى الـعـابسُ صـخـره
سـكنَ الـدهـرُ وحـانتْ غَـفـلـةٌ مـنه وغِـرَّه
إنه الـعـيـدُ.. وإن الـعـيـدَ مـثلُ الـعُـرْسِ مَـرَّه

****

٤٥ ـ الفتى الأفضل (معرّبة)

[المتقارب]

مضى زمنٌ كان فيه الفتى
يُباهي بما قومُه أثّلوا[1]

ويرفعُهُ في عيونِ الأنام
ويخفضُ من قَدرِه المُنْزِلُ

فلا تقعدنْ عن طِلابِ العُلا
وتعذِلْ بلادكَ إذ تُعذِلِ[2]

فإنَّ الخلائقَ حتى عِداكَ
متى ما سبقتَهمُ هلّلوا

فثابرْ بجِدٍّ على نَيْلِها
فليس يخيبُ الذي يعمل

وكن رجلاً ناهضاً ينتمي
إلى نفسه عندما يُسأَل

فلستَ الثيابَ التي ترتدي
ولست «الأسامي» التي تحمل

ولست البلادَ التي أنبتتْكَ
ولكنما أنتَ ما تفعلُ

إذا كُنتَ من وطنٍ خاملٍ
وفُزتَ فأنت الفتى الأفضل

****

---

(١) من الأثلة: وهي أصل كل شيء. والتأثيل: التعظيم والتمكين.

(٢) من العذل: اللوم.

٤٦ - مَنْ أنا

[المتقارب]

أنـــا، مَن أنـــا يـــا تُـــرى، فـي الـــوجـــودِ؟
ومـــا هُـــوَ شـــأني ومـــا مـــوضـــعي؟
أنـــا قـــطـــرةٌ لـــمـعتْ في الـــضـــحى
قـــلـــيلاً عـــلى ضِـــفَّـــةِ الـــمَـــشْـــرَعِ[1]
ســـيـــأتي عـــلـــيـــهـــا الـــمـــســـاءُ فـــتـــغـدو
كـــأن لم تُـــرقـــرقْ ولم تـــلـــمـعِ
أنـــا نـــغـــمـــةٌ وقَّـــعَـــتْـــهـــا الـحـيـــاةُ
لـمنْ قـــد يَـــعي ولـمنْ لا يـــعي
ســـيـمـشـي عـلـيـهـا الـسـكـوتُ فـتُـمـسي
كـــأنْ لم تـــمـــرَّ عـــلـى مَـــســـمَـعِ
أنـــا شـــبـــحٌ راكـــضٌ مُـــســـرعٌ
مع الـــزمنِ الـــراكضِ الـــمُـــسْـــرِعِ
ســـيُـــرخَى عـــلـــيـه الـــســـتـــارُ ويَـــخـفى
كـــأن لم يـــجِـــدَّ ولم يُـــهْـــطِـعِ[2]
أنـــا مـــوجـــةٌ دَفـــعـــتـــهـــا الـحـيـــاةُ
إلـى أوسـعٍ فـــإلـى أوسـعِ
ســـتـــنـــحـلُّ في الـــشطِّ عـــمـــا قـــلـيلٍ
كـــأنْ لـم تَـــدفَّـعْ ولـم تُـــدفَـعِ

---

(١) يريد: مشرعة الماء، مورد الشاربة.
(٢) أهطع في عدوه: أسرع.

فيا قلبُ لا تغتررْ بالشَّبابِ
ويا نفسُ بالخُلْدِ لا تطمعي

فإن الكهولةَ تمضي كما
تولّى الشبابُ ولم يرجعِ

ولكنّ فيها جمالاً بديعاً
وفيها حنينٌ إلى الأبدع

ومن لا يرَى الحُسنَ في ما يراهُ
فما هو بالرجلِ الألمعِي

بَني وطني من أنا في الوجودِ،
وما هو شَأني وما مَوضِعي؟

أنا أنتمُ إن ضحكتمْ لأمرٍ
ضحكتُ، وأدمعُكمْ أدمعي

ومُطربُ أرواحِكُمْ مُطرِبي
ومَوجِعُ أكبادِكُمْ مُوجِعي

أما نحن مِنْ مصدرٍ واحدٍ
ألسنا جميعاً إلى مرجِعِ؟

رفعتمْ مُقامي وأعليتُموهُ
لمّا قد صنعتُ ولم أصنعِ

أحقُّ بإكرامكمْ طائرٌ
يُغرّدُ في الروضِ والبلْقَع

وأولى به كوكبٌ طالعٌ
على سُهَّدٍ وعلى هُجَّع

أنا واحدٌ منكمُ يا نجومَ
بلادي، متى تَسْطَعوا أَسْطَع

فمن قام يَمدحُني بينكمْ
فقد تُمدَحُ الكفُّ بالإصبعِ

وما الغيثُ غيرُ الخضمِّ، وليس

الغديرُ سوى السُّحْبِ الهُمَّع[1]

فلولاكمُ لم أكنْ بالخطيبِ

ولا الشاعرِ السّاحرِ المبدع

أنا الآن في سَكْرةٍ لا أعي

فيا ليتني دائماً لا أعي

فذي ليلةٌ بجميعِ الزمانِ

إذا كان في الدهرِ من أجمع

فيا أيها الليلُ باللهِ قِفْ

ويا أيها الصبحُ لا تطلُع

إذا كنتُ قد بِنْتُ عن مَرْبعي

فإني وجدتُ بكم مَرْبعي[2]

يميناً سأحملُ في أضلعي

هواكمُ ما بقِيتْ أضْلُعي

وأشكرُكمْ بلسانِ النسائمِ

والروضِ والجدولِ المُتْرَع

فلا عذرَ للطيرِ إمّا رأى

جمالَ الربيعِ ولم يسجَع

إذا لم أكنْ معكمْ في غَدٍ

فإني سأمضي وأنتمْ معي

****

(١) همع: سال.
(٢) المنزل والمحلّة.

٤٧ - كمنجة الشوَّا

[السريع]

كمنجةَ «الشَّوّا» عليكِ السَّلامْ
بهيكلِ الوَحْيِ وعرشِ الغرامْ

فيكِ التقتْ أرواحُ أهل الهوى
نجوى وشكوى وبُكا وابتسام

وأودعتْ فيك الصَّبا هَمْسَها
وخبَّأَ الأسرارَ فيك الظلام

وذابَ فيك الحبُّ ذوبَ النَّدى
في مَبْسِمِ[1] الوردِ وجفنِ الخُزام

رُدِّي إلينا اليومَ دنيا الرؤى
فإننا نشقى بدنيا الحُطام

أجنحةُ الأشواقِ مقصوصةٌ
أو موثَقاتٌ، والأماني رِمَام[2]

قد انقضى العمرُ وأرواحُنا
مفطومةٌ بالحرصِ، بئسَ الفِطام

ننأى عن الحُسنِ ونشتاقُهُ
ونهجُرُ الماءَ ونشكو الأُوام[3]

ويبعثُ الحقلُ إلينا الشَّذا
ونحن لا نَنشقُ إلا الرَّغام[4]

---

(١) الثغر.

(٢) البقايا.

(٣) العطش الشديد.

نسيرُ والأضواءُ من حولِنا
كأنَّنا في هَبْوَةٍ أو قَتام[1]
والماءُ يجري حولنا كوثراً
ونحن نستَسقي السَّحابَ الجَهام[2]
ونسهرُ الليلَ لغيرِ الهوى
ما تنفعُ اليقظةُ والقلبُ نام
حتى نَسَيْنَا كيفَ لونُ الضحى
ولم نعدْ نذكرُ سَجْعَ الحَمَام
خيرٌ من اليقظةِ عندي الكَرَى
إن كانتِ الغِبطةُ بنتَ المنام
خِلْنا الهوى ترجِعُ أيامُهُ
لم يرجعِ الحُبُّ ولا المالُ دام
فيا فتى «الشَّهباءِ» يا شاعراً
قد رفعَ الفنَّ لأسمى مَقام
رجعتَ بالسِّحرِ وكان انطوى
وجئتنا بالوحي في غيرِ جام
هذا عصيرُ الوحيِ في آلةٍ
خرساءَ يجري فِتَناً للأنام
فإن تجِدْنا حولها عُكَّفاً
فالمنهلُ العذبُ كثيرُ الزِّحام
فدغدغِ الأوتارَ لا تكترثْ
أن تذهبَ الفتنةُ بالإحْتِشام

(١) الهبوة: الغبار، والقتام مثله.
(٢) السحاب الذي لا ماء فيه.

سـعـادةُ الأَنـفُسِ فـي نَـشْـوةٍ
مـن صـورةٍ أو نـغَـمٍ أو مُـدام
وقلْ لمن يَـحـذَرُ أن يـشـتـكي
ويـحـبِسُ الـدمعَ لـئلا يُلام
اِسـمعْ! فـهـذا وتـرٌ نـائحٌ
وانـظـرْ! فـهـذا خـشَبٌ مُـسْـتَـهـام

☼☼☼☼

نـيـويـوركَ! يـا ذاتَ الـبـروجِ الـتي
سَـمَتْ وطـالتْ كي تَـمسَّ الـغَـمَـامْ
لن تَـبـلُـغي والـلـهِ بـابَ الـسَّـمـا
إلا بـأوتـارِ كـنـارِ الـشَّـآم
فـاصـغِي إلى ألحـانِـه لحـظـةً
تحـتـقِـري كلّ صـنـوفِ الـكلام
وتـدركي أن قـصـورَ الـمُـنى
تـبـقى وتـنـهَـدُّ قـصـورُ الـرِّجـام[١]
فـرَحِّـبي مـعـنـا به واهـتِـفي:
هـذا أمـيـرُ الـفنِّ، هـذا الإمـام!

****

(١) حجارة ضخام قد تجمع على القبر.

٤٨ـ إذا

[الهزج]

إذا جـدّفتَ جُـوزيتَ عـلى الـتَّـجـديفِ بـالـنَّـارِ
وإن أحـبـبتَ عُـيِّـرتَ مـن الجَّـارةِ والجَّـار
وإن قـامَـرتَ أو راهـنتَ فـي الـنَّـادي أوِ الـدّار
فـأنتَ الـرَّجلُ الآثمُ عـنـد الـنـاسِ والـبـاري

✡✡✡✡✡

وإنْ تَـسـكَـرْ لـكي تـنـسى هـمـومـاً ذاتَ أوقـارِ
خـسـرتَ الـدينَ والـدنـيـا ولم تـربحْ سِـوى الـعـار

✡✡✡✡✡

وإنْ قـلـتَ: إذنْ فـالـعـيشُ أوزارٌ بـأوزارِ
وإنَّ المـوتَ أشـهى لـي إذا لـم أقْـضِ أوطـاري
وأسـرعتَ إلى الـسَّـيفِ أو الـسُّمّ أو الـنَّـار
لـكي تـخـرجَ من دنـيـا ذووهـا غـيـرُ أحـرار
فـهـذا المـنـكَـرُ الأعـظمُ في سـرٍّ وإضْـمَـار
إذن فـاحْيَ ومتْ كـالـنَّـاسِ: عـبـداً غـيـرَ مُـخـتـار!

****

٤٩ - شبح

[الكامل]

رسالة من لبنان إلى أبنائه المهاجرين، قالها في حفلة.

بـأبي خـيـالٌ لاح لـي مـتـلـفِّـفـاً
بـعـبـاءةٍ من عَـهْـدِ فـخـر الـدِّينِ
يمـشي عـلى مَـهَلٍ ويُـرسلُ طَـرْفَهُ
في حَـيْـرةِ المـسـتـوحشِ المحـزون
من أنتَ يـا شـبـحاً كـئـيـباً صـامـتـاً؟
قل لي فـإنّك قـد أثـرتَ شُـجـوني
أخـيـالُ خَـصـمٍ أتّـقي نَـزواتـه؟
أم أنتَ يـا هـذا خـيـالُ خَـدِين؟
فـأجـابـني مـتـرفّـقـاً مـتـحـبِّـبـاً
فـسـمـعتُ صـوتَ أبٍ أبـرَّ حـنـون

✲✲✲✲✲

يـا شـاعـري قل للألَى هـجَـروني
أنـا مـا نـسـيـتـكُمُ فلا تـنـسَـوني
مـا بـالـكمْ طـوّلـتمُ حـبلَ الـنّـوى
يـا لـيتَ هـذا الحـبلَ غـيـرُ مـتـينِ
قـد طُـفْـتمُ الـدنـيـا فـهلْ شـاهـدتمُ
جـبَلاً عـلـيه مـهـابـتي وسـكـوني؟
أوَرُدتمُ كـمـنـاهـلي؟ أنـشـقـتمُ
كـأزاهـري في الحُـسنِ والـتـلـوين؟
ولـقـد تـظـلـلـتمْ بـأشـجـارٍ فـهل
رفّتْ غـصـونٌ فـوقـكمْ كـغُـصـوني؟

وسَمِعتُمُ شَتَّى الطيورِ صَوادحاً
أسمعتمُ أشجى من الحسُّونِ؟[1]
هل أنبتت كالأرزِ غيري بُقعةٌ
في مجْدِهِ وجلالِه الميمونِ؟
أرأيتمُ، في ما رأيتمْ، فِتنةً
كالبدرِ حين يُطِلُّ من صِنِّين؟[2]
أو كالغزالةِ وهي تنفضُ تبْرَها
عند المغيبِ على ذُرا حَرْمون؟[3]
مرّت قرونٌ وانطوتْ وكأنَّني
لمحاسني كُوِّنتُ منذ سنين
أبليْتُها وبقيتُ، إلاّ أنَّني
للشوقِ كاد غيابكمْ يُبْليني

✲✲✲✲✲

لبنانُ! لا تعذلْ بنيكَ إذا همُ
ركبوا إلى العلياء كلَّ سَفينِ
لم يهجُروكَ ملالةً لكنَّهمْ
خُلقوا لصيدِ اللؤلؤ المكنون
وَرِثُوا اقتحامَ البحرِ عن فِينيقيَا
أمِّ الثقافةِ مَصْدرِ التَّمدين
لمّا ولدتَهمُ نسوراً حلّقوا
لا يقنعونَ من العُلا بالدُّون
والنَّسْرُ لا يرضى السجونَ وإنْ تكنْ
ذَهَباً، فكيف محابِسٌ من طين

(١) الطائر الحسن الصوت.
(٢) الجبل، في المتن الشمالي من لبنان.
(٣) الجبل (حرمون).

الأرضُ للحشرات تزحفُ فوقها
والجوّ للبازيّ والشّاهين[1]

✡✡✡✡✡

فأجابني والدمعُ ملءُ جفونه
كم ذا تسلّيني ولا تُسْليني؟[2]
أنا كالعَرينِ اليومَ غابَ أُسودُهُ
وتفرّقوا عنه لكلّ عَرين
الأرمنيُّ على سفوحي والرُّبا
يبني الحصونَ لنفسه بحصوني
وبنو يهوذا ينصبونَ خِيامَهُمْ
في ظلّ أوديتي وفوق حُزوني[3]
وبَنِيَّ عني غافلون كأنّني
قد صِرتُ في الأشياء غيرَ ثمين
أنتمْ ديونٌ لي على أميركا
ومن المروءة أن تُردّ ديوني
أو ليس من سُخْرِ القضاءِ وهُزئه
أنْ يأخذَ المُثْري من المسكين؟
عودوا فإنّ المالَ لا يُغنيكمُ
عنّي، ولا هو عنكمُ يُغْنِيني

✡✡✡✡✡

فشَجِيتُ ممّا قالهُ لكنّني
لمّا رأيتكمُ نسيتُ شُجوني
لبنانُ فيكمْ ماثلٌ إن كنتمُ
في مصرَ أو في الهندِ أو في الصّينِ

---

(١) من الطيور التي تُطلق للصيد.
(٢) أسلاه: كشف عن همه.
(٣) الحزْن: ما غلظ من الأرض.

إن بِـــنـــتُمُ عـــنه فـــمـــا زال الـــهـــوى

يُـــدنـــيـــكمُ مـــنه كـــمـــا يُـــدنِـــيـــني

وحَـــرَاكــكُمْ[1] لـــعَلائه وســـكـــونُـــكُمْ،

وإلى ثَـــراهُ حـــنـــيـــنُـــكُمْ وحـــنـــيـــني

لـــو أمـــستِ الـــدنـــيـــا لـــغـــيـــري كـــلُّـــهـــا

ورُبَـــاهُ لـــي، مـــا كـــنتُ بـــالمـــغْـــبُـــون

أنـــا فـــي حِـــمـــاكُمْ طـــائـــرٌ مُـــتَـــرنِّمٌ

بـــين الأقـــاحِ الـــغضِّ والـــنَّـــسْـــرين

أنـــتمْ بـــنـــو وطـــني وأنـــتمْ إخـــوتي

وأنـــا امـــرؤٌ دِينُ المـــحـــبـــةِ دِيـــني

****

(١) الحركة.

٥٠ - أنا وابني

[مجزوء الرمل]

قالَ إبني وهْوَ حَيرانُ بما يُحكى ويُقرا
كيف كان اللهُ؟ إنّي قد وجدتُ اللهَ سِرّا
أسمعُ الناسَ يقولون به خيراً وشَرّا
فأفدْني . قلتُ: يا ابني أنا مثلُ الناس طُرّا
لي في الصِّحة آراءٌ وفي العلّة أخرى
كلّما زحزحتُ سِتراً خلتُني أُسدِلُ سِترا
لست أدرى منك بالأمر ولا غيري أدرى!

✵✵✵✵✵

أَحْسَبُ اللهَ الذي صاغ من الذرّات صَخرا
والذي شاء فصارتْ قطراتُ الماء بحرا
والذي شاءَ فضمّ البحرُ أصدافاً ودُرّا
وأراد الضوءَ أجراماً فصار الضوءُ زُهرا[1]
إنّ هذا اللهُ لّما شاء هذا كان « فِكرا»،

✵✵✵✵✵

ثمّ لمّا نظمَ الألوانَ في الأرض زهورا
ورأى أن يعلن الحُبّ غناءً وحُبورا
فتمشّى في حواشي الأرض سِحراً وعُطورا
وتهادى في حواشي الأفقِ أطيافاً ونورا
عندما أوجدَ هذا كان « حِسّاً وشُعوراً»

✵✵✵✵✵

(١) الأنجم الزهر. والزُّهرة هي الكوكب الأبيض.

مَن أحبَّ الـــلـهَ جـــبّـــاراً وفـــتّـــاكـــاً وقـــاهـــرْ

فـــأنـــا أهـــواهُ رسّـــامـــاً وفـــنّـــانـــاً، وســـاحـــر

وأراهُ في الـــنـــدى والـــزهـــرِ والـــشـــهّـبِ الـــسّـــوافـــرْ

فـــإذا الأنجمُ غـــارتْ وانـــطـــوتْ كلُّ الأزاهـــر

وتلاشـى كلُّ مـــا أنـــشـــا وســـوّى من مـــنـــاظـــر

لاح لـي فـي حـــســـنـه الأكـــملِ في ديـــوان شـــاعـــر!

****

٥١ - عبد الله البستاني

[السريع]

يا ميِّتاً فيه جمالُ الحياةْ
ما حازَ منك اللحدُ إلاّ الرفاتْ

أنت الفتى الباقي بآثارهِ
ما أنتَ بالمرء إذا ماتَ مات!

وكيف يمتدُّ إليك الردى
وذاتُكَ الحسناءُ في ألفِ ذات؟

إذا اختفى في الوَردِ لونُ الضحى
فالذنبُ ذنبُ الأعينِ الناظرات

يصوِّحُ الزهرُ ويبقى الشَّذا
ويذهبُ المرءُ وتبقى الصِّفات

✲✲✲✲✲

يا نائماً أغفى عن التُّرّهاتْ
إني وجدتُ الموتَ في التُّرّهات

أإنْ مضى الشيءُ نقولُ انقضى
إذن فمِنْ أين تجيءُ الحياة؟

أليس دنيا الصحْوِ دنيا الكرى
ومثلُ ظلّ العيش ظلُّ الممات؟

تُقسِّمُ الأشياءَ أفهامُنا
وليست النخلةُ إلا النواة

وفي الغدِ الأمسُ، ولكنَّنا
للجهل قلنا: الدهرُ ماضٍ وآت

بـــعضُ الـــردى فـــيه نجـــاةُ الـــفـــتى

وربمــــا كـــان الـــرَّدى في الـــنـــجـــاة

✡✡✡✡✡

يـــا قَـــرَوِيّـــاً عـــظُـــمتْ نـــفـــسُهُ

حـــتى تـــرضَّـــتـــهـــا نـــفـــوسُ الـــعُـــتـــاة

وحـــســـدتهُ الـــصِّـــيـــدُ في كـــوخِه

وحـــســـدتْ قـــريـــتَهُ الـــعـــاصـــمـــات

تـــلـــك الـــســـجـــايـــا لم تـــزل بـــيـــنـــنـــا

ســـاطـــعـــةً كـــالأنجمِ الـــزاهـــرات

وعـــلـــمُكَ الـــزاخـــرُ بـــاقٍ لـــنـــا

مـــا بـــقـــيتْ في الأرض أمُّ الـــلـــغـــات

في أنـــفُسِ الـــنـــاسِ وألـــبـــابِـــهمْ

وفي بـــطـــونِ الـــسِّـــيَـــرِ الخـــالـــدات

وفي تـــلامـــيـــذكَ أهلِ الحِـــجَـــا

والأدبِ الجمِّ الجـــمـــيلِ الـــسِّـــمـــات

من شـــاعـــرٍ كـــالـــروضِ أشـــعـــارُهُ

تـــســـمعُ هـــمْسَ الحبِّ فـــيه الـــفـــتـــاة

وســـامـــرٍ تحـــســـبُ أقـــوالَه

مـــســـروقـــةً من مُـــقَل الـــغـــانـــيـــات

وكـــاتبٍ تُـــشـــرقُ ألـــفـــاظُه

كـــالـــدُّررِ المخـــتـــارةِ الـــمُـــنْـــتـــقـــاة

وصُـــحَّبٍ[1] أخلاقـــهمْ كـــالمـــنى

يـــروونَ عـــنك الحِـــكَمَ الـــغـــالـــيـــات

---

(١) مثل عُجَّز وقُصَّر...

لم يَــخْــتَــرمْك المــوتُ يــا لوحــةً

بــاســقــةً قــد خَــلَّــفتْ بــاســقــات

☆☆☆☆☆

يــا حُــجّــةَ الــفُــصــحى ودِهــقــانَــهــا[1]

وبــحــرَهــا الــطَّــامي وشــيخَ الــثِّــقــات

«الــضَّــادُ» من بــعــدِكَ في مــأتَمٍ

حــاضــرُهــا والأعــصُــرُ الــغــابِــرات

فــلــيس في لــبــنــانَ غــيــرُ الأسى

ولــيس غــيــرُ الحــزنِ حــولَ الــفُــرات

فــمن يــعــزِّي جــبلاً واحــداً

عــزَّى الــرواسي في جــمــيع الجــهــات

☆☆☆☆☆

ســلــخــتَــهــا ســبــعــينَ من أجــلــهــا

في عــالمِ الــطِّــرسِ ودنــيــا الــدَّوَاة

الــنــاسُ من حــولِكَ في قِــيــلِــهِمْ

وأنت كــالــعــابــد وقتَ الــصَّلاة

غَــنِــيَتَ (بــالــضَّــادِ) وأســرارِهــا

عن الــغــواني والــطِّلا والــسُّــقــاة

أنت الــذي ردّ إلــيــهــا الــصِّــبــا

إنّ الــهــوى يــجــتــرحُ المــعــجِــزات

فــاخــتــلــجتْ أوضــاعُــهــا بــالمــنى

وجــاء مــاءُ الحُــسنِ في المــفــرَدات

ولَــهَــجَتْ بــاســمك آفــاقُــهــا

وردَّدَتْــهُ فــي الــبــوادي الحُــدَاة

---

(١) التاجر (فارسي معرّب).

وحنَّتِ النُّوقُ إلى سَمْعِهِ
وطَربتْ من ذكرِهِ الصَّافِنَاتْ[1]

فيا شباباً يطلبونَ العُلا
إنّ العُلا للأنفُسِ الماضيات

ويا فقيراً يتمنّى الغِنى
هلاّ تمنَّيْتَ غِنَى المكرُمات؟

ويا سَرَاةً[2] يبذُلونَ اللُّهى[3]
هذا فقيرٌ كان يعطي السَّرَاة!

من روحه لا فيضِ أمواله
إنّ هِباتِ الروحِ أسمى الهبات

لا يقتضي قاصدَه حمدَه
ويشكرُ العافي[4] الذي قال: هات

وإنْ مضى العافونَ عن بابه
سارتْ عطاياهُ وراء العُفاة

فكان كالكواكب يمشي على
ضيائهِ الرَّكْبُ وذئبُ الفَلاة

وكان كالغيثِ إذا ما هَمى
أصابَ في الأرض الحصى والنَّبات

وكان كاليَنبوعِ يرتادُهُ
ذو الشّيمِ الحسنى وذو السَّيِّئات

---

(١) يريد الخيل (والصافن منها: القائم على ثلاث).
(٢) السريّ: الرئيس (والجمع: سَراة).
(٣) اللُّهوة: العطية، (والجمع: اللُّهى)
(٤) السائل: (عفا الرجلَ: سأله).

وكـــالـــفـــضـــاءِ الـــرَّحبِ في حِـــلـــمِهِ

يـــضـــطـــربُ الـــبـــازي بـه والـــقَـــطـــاة

يـــا صـــاحبَ «الـــبـــســـتـــانِ»[1] نَمْ آمِـــنـــاً

فـــإنَّ فـي المـــوت زوالَ الـــشُّـــكـــاة

مـــا غـــاب مـــاءٌ غـــابَ تحت الـــثَّـــرى

فـــأَطـــلعَ الـــنـــبْتَ وأحـــيـــا المـــوات

****

(١) معجم (البستان) لعبد الله البستاني.

٥٢ - كم تشتكي

[الكامل]

قالها في مهرجان (بردجفيل)

كم تشتكي وتقولُ: إنك مُعْدِمُ
والأرضُ مِلْكُكَ والسَّماءُ والأنجمُ
ولك الحقولُ وزهرُها وأريجُها
ونسيمُها والبلبلُ المترنِّم
والماءُ حولَكَ فِضَّةٌ رَقراقةٌ
والشمسُ فوقَكَ عَسْجدٌ يتضرَّم
والنورُ يبني في السُّفوح وفي الذُّرا
دُوراً مزخرفةً، وحيناً يَهدِم
فكأنَّهُ الفنَّانُ يعرضُ عابثاً
آياتِه ، قُدّامَ مَن يتعَلَّم
وكأنَّه لصفائه وسنائه
بحرٌ تعومُ به الطيورُ الحُوَّم
هشَّتْ لك الدنيا فمالكَ واجماً،
وتبسّمتْ فعلامَ لا تتبسَّم؟
إن كنتَ مُكتئِباً لِعزٍّ قد مضى
هيهاتَ يُرجِعُهُ إليكَ تندُّم
أو كنتَ تُشفقُ من حلولِ مُصيبةٍ
هيهاتَ يمنعُ أنْ تَحُلّ تجهُّم
أو كنت جاوزتَ الشبابَ فلا تقلْ
شاخَ الزمانُ فإنه لا يهْرَم

انــظــرْ فــمــا زالــتْ تَــطُلُّ من الــثَّــرى

صــورٌ تــكــادُ لحــســنِــهــا تــتــكــلَّم

مــا بــين أشــجــارٍ كــأنَّ غــصُــونَــهــا

أيــدٍ تُــصــفِّقُ تــارةً وتُــســلِّم

وعــيــونِ مــاءٍ دافــقــاتٍ في الــثَّــرَى

تــشــفي الــسَّــقــيمَ كــأنمــا هي زمــزم

ومــســارحٍ فُــتِنَ الــنَّــسيمُ بــحــسْــنِــهــا

فــسَــرَى يــدنــدنُ تــارةً ويُــهــمــهِم

فــكــأنهُ صَبٌّ بــبــابِ حــبــيــبــهِ

مــتــوسِّلٌ مــســتــعــطِفٌ مُــســتــرحِم

والجــدولُ الجَــذلانُ يــضــحــكُ لاهــيــاً

والــنــرجسُ الــولــهــانُ مُــغْفٍ يَــحْــلُم

وعــلــى الــصَــعــيــدِ مُلاءةٌ من سُــنــدسٍ

وعــلــى الــهــضــابِ لــكلِّ حُــسْنٍ مِــبْــسَم

فــهــنــا مــكــانٌ بــالأريجِ مــعــطَّــرٌ

وهــنــاك طــودٌ بــالــشــعــاعِ مُــعَــمَّم

صُــوَرٌ وآيــاتٌ تــفــيضُ بــشــاشــةً

حــتى كــأنَّ الــلهَ فــيــهــا يَــبــسِم

فــامش بــعــقــلِكَ فــوقَــهــا مــتــفــهِّــمــاً

إن الــمَلاحَــةَ مِــلْكُ من يــتــفــهَّم

أتــزورُ روحُكَ جــنَّــةٌ فــتَــفُــوتَــهــا

كــيــمــا تــزورَكَ بــالــظُّــنــونِ جــهــنَّم

وتــرى الحــقــيــقــةَ هــيــكلاً مــتــجــسِّداً

فــتــعــافُــهــا لــوَسَــاوسٍ تُــتَــوهَّم

يــا مَنْ يــحــنُّ إلى غــدٍ في يـــومه

قــد بِــعتَ مــا تــدري بمــا لا تــعــلَم!

✡✡✡✡✡

قم بــادرِ الــلــذّاتِ قــبلَ فــواتــهــا

مــا كلُّ يـــومٍ مــثلِ هـــذا مــوسمُ

وأشِــرْ بــسِــرّ الــحــصْنِ سِــرَّ شــبــابهِ

وارْوِ أحـــاديثَ المــــروءةِ عـــنـــهم

المــعــرضـــينَ عن الخَــنــا، فــإذا عَلا

صــوتٌ يــقــول: «إلى المــكــارم» اقــدَمــوا

الــفــاعــلــينَ الخــيــرَ لا لــطَــمــاعــةٍ

في مَــغــنمٍ، إنّ الجــمــيلَ المــغــنم

أنت الــغــنيُّ إذا ظــفــرتَ بــصــاحبٍ

مــنــهمْ وعــنــدكَ لــلــعــواطفِ مِــنجَم

رفــعــوا لــديــنــهمُ لــواءً عــالــيــاً

ولــهمْ لــواءٌ في الــعــروبــةِ مُــعْــلَم

إنْ حــازَ بعضُ الــنــاس سهماً في العُلا

فــلــهم ضــروبٌ لا تُــعــدُّ وأســهم

لا فــضلَ لي إن رحتُ أعــلنُ فــضــلَــهمْ

بــقــصــائــدي. إنّ الــضّــحى لا يُــكــتم

لــكــنَّــنِي أخــشى مــقــالــةَ قــائلٍ

هــذا الــذي يُــثــني عــلــيــهمْ مــنــهمُ!

أحــبَــابَــنــا مــا أجــملَ الــدنــيــا بــكم!

لا تَــقْــبُــحُ الــدنــيــا وفــيــهــا أنــتم!

✱✱✱✱

٥٣ - فلوريدا

[البسيط]

يا جنَّةً قَبلَمَا حلّتْ بها قدمي
أحببتُها قصّةً واشتَقتُ راويها
كانت لها صورةٌ في النَّفس حائرةٌ
مثلُ القصيدةِ لم تُنسجْ قوافيها
ودِدْتُ لو أنّها تَمّتْ فيُبصرها
غيري، وتُسكِرُه مثلي معانيها
وكيف تَكْمُل في ذِهني ولم أرَها
وما لصورتها شيءٌ يُحَاكيها؟
وأيُّما نغمةٍ أدّى عذوبتَها
كلامُ راوٍ ولا شادٍ يغنِّيها
أأنشُقُ العطرَ لم أهبطْ خمائلَها؟
وأشربُ السّحرَ لم أسمعْ قَماريها؟(١)
وتصعدُ النفسُ منّي للسَّماء ولا
حِبالُ نُورٍ تدلّتْ من دراريها؟
كانت سعادةُ نفسي في تصوُّرِها
والنفسُ يُسعدُها وهْمٌ ويُشقِيها
بالوهمِ توجدُ دنيا لا وجودَ لها
وتنطوي عنك دنيا أنت رائيها
فكم ظَمِئْتُ وفي روحي جداولُها
وكم رَويتُ وغيري في سَواقِيها

---

(١) القُمْري: طير أبيض يشبه الحمام، (والجمع: القماري).

قـد كـنتُ من قـبلُ مـثلَ الـنـاس كـلِّـهمُ
أقـــولُ: إنّ إلـهَ الــكـــونِ بـــاريـــهـــا
حـتى نـظـرتُ إلـيـهـا في جلالـتـهـا
فـصـــار كلُّ يَـقـيـنـي أنّه فـيـهـــا!
لــمّــا رأيتُ الجـمـــالَ الحقَّ أدركَـني
زُهْـدٌ بـكلِّ جـمـــالٍ كـان تـمـويـهـــا
كـأنّـمـا الحُـورُ مـرّتْ في شـواطـئـهـا
في لـيـلـةٍ طَـفْـلـة[1] رقّتْ حَـواشـيـهـا
فـفي الـرمـالِ سَـنـاءٌ من تـضـاحُـكِـهـا
وفـي المـيـــاهِ أريجٌ من أغـــانـــيـهـــا
أتـيـتُـهـا بـشـبـابٍ ضـاعَ أكـثـرُهُ
وغـيَّـبَـتْهُ الـلـيـالي في مـطـاويـهـا
فـاسـتَـرجَعَ الحبَّ قـلـبي فـهـوَ مُـغـتـبِطٌ
وعـادتِ الـروحُ خـضـراءً أمـانـيـهـا

✲✲✲✲✲

سـئـلتُ مـا راقَ نـفـسي من مـحـاسِـنِـهـا؟
فـقـلتُ لـلـنـاس: بـاديـهـا وخـافـيـهـا
ومـا حـبَـبْتَ من الأشـجـار؟ قـلت لـهم:
إنّي افـتُـتِـنْتُ بـكـاسـيـهـا وعـاريـهـا
ومـــا هـــويتَ من الأزهــارِ؟ قــلتُ لـــهمْ:
الحبُّ عـنـدي لـنـامـيـهـا وذاويـهـا
قـالـوا: ومـا تـتـمـنّى؟ قـلت مـبـتـدراً:
يـا لـيـتـني طـائـرٌ أو زهـرةٌ فـيـهـا
فـرُبَّ أنـــشـــودةٍ من بـلـبلٍ غـردٍ
حـوَتْ حـكـايـةَ حبٍّ خِـفْتُ أحـكـيـهـا

---

(١) الرخصة الناعمة.

وربَّ روحٍ كروحي في بنفسجةٍ
وَسْنَى، أطلّتْ على روحي تُناجيها
وربَّ قطرةِ ماءٍ لا غَناءَ بها[1]
شاهدتُ مصرعَ دنيا في تلاشيها
كلُّ الذي لاحَ لي في أرضها حَسَنٌ
وأحسنُ الكلِّ في عيني أهاليها
إلا ذوي السِّحَنِ السَّوداء واعجباً
أجنَّةٌ وذُبابٌ في نواحيها؟
إني لَيكبتُ روحي أنْ ألاحظَهمْ
بمقلةٍ أبصرتْ فيها غوانيها
دعِ المساوئَ في الُّدنيا فما برحتْ
فيها محاسنُ تُنسينا مساويها
كم حاولَ الليلُ أن يطوي كواكبَهُ
فكان ينشرُها من حيثُ يَطويها
واذكرْ أكارمَ قومٍ طابَ عنصرهُمْ
وأشبهوا بسجاياهم أقاحيها
بني بلادي! وفيكمْ من خَمائلها
جمالُها والتّسَامي من روابيها
تسلَّتِ النفسُ عن أحبابِها بكمُ
لولاكمُ لم يكنْ شيءٌ يُسلِّيها
أكرَمْتُمُوني فشكراً غيرَ منقطعٍ
دوامُ شُكرِكَ للنَّعماءِ يُبقيها

****

(١) لا تفي بشيء.

٥٤ - بين مدّ وجزر

[الكامل]

ألقاها في حفلة تكريم صديقه الشاعر جورج صيدح عندما زار نيويورك.

سيّرْتُ في فجر الحياةِ سفينَتي
واختَرْتُ «قلبي» أن يكونَ إمامي

فجرَتْ على الأمواج قصْراً من رؤًى
مِلءَ الفضا، ملءَ المُدى المُترامي

وأقلَّ منها البحرُ حين أقلَّها
دنيا من الأضواء والأنغام

ومشى الخيالُ على الحياةِ بسحرِهِ
فإذا الهوى في الماء والأنسَام

وإذا الرِّمالُ أزاهرٌ فوّاحَةٌ
والشَّطُّ هيكلُ شاعرٍ رسَّام

وإذا العُبابُ ملاعِبٌ ومراقصٌ
وإذا أنا من صَبْوةٍ لغَرَام

أتلَقَّفُ اللذّاتِ غيرَ مُحَاذرٍ
وأعُبُّ في النزلاّت والآثام

لا أكتفي وأخافُ أنّي أكتفي
فكأنّما في الإكتِفاء حِمَامي

وكأنّ هَديي أن تطولَ ضلالتي
وكأنّ رِيِّي أن يدومَ أُوامِي(١)

---

(١) حرّ العطش.

مـرّتْ بيَ الأعـوامُ تـتـلـو بـعـضَـهـا
وأنــا كــأنّـي لــستُ في الأعــوام
كـالموجِ ضَـحِكي، كـالـضّـياء تـرنُّحي،
كـالـفـجـرِ زَهْـوي، كـالخِـضمِّ عُـرامي[1]
حــتى إذا هــتفَ المــشــيبُ بــلُــمّــتِي
ودنـتْ يــــدُ المـــاحـي إلى أحـلامـي
صـرخَ «الحِجـا» بي سـاخِطاً مُـتـهكمّاً:
«هــذا الــغِـنَـى شــرٌّ من الإعــدام»
«أسـلَـمـتَـني لـلـقـلبِ وهـو مُـضـلِّلٌ
فــأضــرَّني وأضــرّكَ اســتــسلامي»
«يا صاحبي! أطلقني من سجن الرؤى
أنــا تــائهٌ! أنــا جــائعٌ! أنــا ظــامي!»
وأرادَ «عـقـلـي» أن يـقـودَ سـفـيـنـتي
لـلـشطِّ في بـحـرِ الحـيـاةِ الـطَّـامي
فـطـويتُ أعلامَ الـهـوى وهـجـرتُـهـا
ونــســيتُ حــتى أنّــهـا أعلامي!
وحـسـبتُ آلامي انـتـهت لـمّـا انـتـهى
فــإذا الــنِّــهــايــةُ أعـظمُ الآلام
وإذا الــطـريقُ مَـخَــاوِفٌ وَوَسَــاوِسٌ
وإذا أنــا من هَــبْــوَةٍ لــقَــتَــام[2]
أبـغي الـثـراءَ ولم يـكنْ من مـطـلـبي
وأرى الجـمـالَ بـنـاظـرٍ مُـتَـعَـام
وأَشـيـدُ، مـثلَ الـنـاسِ، مـجـداً زائـفـاً
وأشـدُّ حـولَ الـروحِ ثـوبَ رَغَــام[3]

(١) الشدة والقوة والشراسة.

(٢) الهَبْو والقتام: الغبار المختلط بالغبار.

فـإذا أنـا والأرضُ مِـلـكي والـسَّـمـا،

قد صرتُ عبدَ الـنـاس، عـبدَ حُـطـامي

فـتـضـايقَ الـقـلبُ الـسَّـجـينُ وقـال لي:

«يـا أيّـهـا الجـاني! قـتـلتَ هُـيَـامي!»

«الـقـفـرُ بـالأحلام روضٌ ضـاحكٌ

فـإذا تلاشتْ فـالـريـاضُ مَـوامي»[1]

«أين الـعـيـونُ تُـذيـبُـني حـركـاتُـهـا

وتـمـوتُ في سـكَـنـاتِـهـا آلامي»

«وأُطلّ من أهـدابـهـا الـسَّـكْـرى عـلى

ظِلٍّ، وأنـداءٍ، وزهـرٍ نـام»

«لـمّـا عـصـاني أن أشُبَّ ضـرامَـهـا

أعـيـا عـلـيـهـا أن تـشُبَّ ضـرامي»

«الخـمـرُ ملءُ الجـامِ لـكن قـد مـضى

شـوقي إلى الخـمـرِ الـتي في الجـام»

«أسـلَـمَـتْـني «لـلـعـقلِ» وهـو مُـضـلِّلٌ

فـأضـرّني وأضـرّكَ اسـتـسـلامي»

«انـظـرْ، ألـستَ تـراكَ في أوهـامِهِ

أشـقى وأتـعسَ مـنك في أوهـامي»

«المـالُ! من ذا يـشـتـريه كـلَّهُ

مـنّي بـلـيلِ صَـبـابـةٍ وغـرام؟»

«يـا صـاحـبي أطـلـقـني من سجن الـنُّهى

أنـا تـائهٌ! أنـا جـائعٌ! أنـا ظـامي»

✲✲✲✲✲

(١) الموماة: الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس.

لا تــســـألــونـي الــيــومَ عن قــيــثـــارتـي
قـــيـــثـــارتـي خـــشـبٌ بلا أنـــغـــام!

يــا شــاعــراً غـنَّى فـردَّ لـيَ الـصِّـبـا
فــإذا مـــواكــبُهُ تــســـيــرُ أمـــامـي

إنّـا الـتـقـيـنـا في الـشـبـابِ وفي الـهوى
في حَـــوْمَــتَـيْنِ ـ الــشِّـعــرِ والإلـــهـام

وســنــلــتــقي وإن افــتــرقــنــا في غَــدٍ
في حُبِّ لـــبــنـــانٍ وحُبِّ الـــشَّـــام

وســتــلــتَــقِي روحي وروحُك بــعــدمــا
تــفــنَى الــهــيــاكلُ في الإلـهِ الــسَّـامي

أهلاً بـذي الأدبِ الـصُّـراحِ المـصـطـفى
بـــالـــفـــاتحِ الـــروحيِّ بـــالمِـــقـدام

بـــالـــشـــاعــرِ الــغــرِّيــدِ في ألحـــانه
عَـــبَقُ الـــربـــيعِ ونَـــضْـــرةُ الأكْـــمَـــام

هـــو إنْ ذكــرتَ الـشِّـعــرَ من أُمـــرائه
وإذا ذكــرتَ المجــدَ فـــهـــوَ عِـــصَـــامي

****

٥٥ - مستشفى تل شيحا

[الوافر]

أنشدها في مهرجان أقامته لجنة المستشفى في مدينة دترويت.

أبـاعِـثَـةَ المـطـايـا مِن حـديـد
كـأسـرابِ الـقَـطـا لـلـعـالَـمـينا

ركـائبُ في فِـجـاجِ الأرض تَـسـري
تُـقِلُّ الـذاهـبـينَ الآيـبـينـا

تـقصُّ عـلى المـدائن والـقـرايـا[1]
حـكـايـةَ قـومِكِ المـسْـتَـنـبِطـينـا

وكـيـف الـعـقلُ يُـخـلَقُ من زريٍّ
مَـهـينٍ، لا زريٌّ ولا مَـهـينـا

ويـنـفخُ في الجـمـادِ قُـوىً وحِسّـاً
فـيـركضُ تـارةً ويـطـيـرُ حـيـنـا

ويـهـتِفُ بـالـقـصـائـد والأغـاني
وقـد ذَهَبَ الـرَّدى بـالمـنـشِـدينـا

لـقـد حَـسـدتْك أمّ الـفَنِّ «رومـا»
كـمـا حَـسَـدتك ضَـرَّتُـهـا «أثـيـنـا»

فـمـجـدكِ فـوق مـجـدهـمَـا عـلاءً
وحُـسـنكِ فـوق حـسـنِـهـمـا فُـتـونـا

نـزلْـنـا في حِـمَـاكَ فـقـرِّبـيـنـا
وبـاركْـنَـا ثـراكِ فـبَـاركِـيـنـا

فـمـا لـطَـمـاعَـةٍ[2] بـنـضـارِ «فـوردٍ»

---

(١) تجمع القرية في معاجم اللغة، على: قرىً.
(٢) الأصل في المعجم: طماعية.

وفـــضَّـــتِهِ إلــيكَ الــيــومَ جــيــنــا
فــمــا هــوَ في سَــمــاحــتِهِ «كــمــعنٍ»[١]
ولـــيــستْ نُــوقُهُ لـــلــذَّابِــحــيــنــا
ولـــكنْ فـــيكِ إخـــوانٌ هَـــوِيــنــا
لأجـلــهمُ جــمــيعَ الــسَّــاكــنــيــنــا
أحـــبُّـــونـــا كـــأنّـــهمُ نوونـــا
وأنـــسَـــونـــا بـــلُـــطـــفـــهمُ نويــنــا
وعَـــاهـــدنـــاهمُ إذْ عـــاهَـــدونـــا
فـــلم نـــنـــكُثْ ولا نـــكَـــثُـــوا يمــيــنــا
إذا غَـضِبـوا عـلـى الـدنـيـا غَـضِبْـنـا
وإنْ يـرضـوا عـلـى الـدنـيـا رضـيـنـا
دعـــاهمْ لـــلـــعُلا والخـــيـــرِ داعٍ
من «الــوادي» فـلــبَّــوا أجـمـيـعـنـا
أيـــخـــذُلُ «جـارةَ الــوادي» بـنــوهــا؟
مـــعـــاذَ الــلـه! هـــذا لن يـــكـــونـــا
فــمــا لاقــيتُ «زحْــلــيّــاً»[٢] جــبــانــاً
ولا لاقــيتُ «زحْــلــيّــاً» ضَــنــيــنــا
تـــأمَّلْ كـــيف أضـــحى «تلُّ شـــيـــحـــا»
يُـحـاكي في الجلالــةِ «طُـورَ سـيـنـا»
فـــعَنْ هـــذا تحـــدَّرتِ الـــوَصـــايـــا
وفي هــذا وجَـدْنـا الـمُـحْـسِـنـيـنـا
عـــلـى جـــنـــبـــاتِهِ وعـــلـى ذُراهُ
جـــمـــالٌ يـــبـــهَـــرُ المـــتـــأمِّـــلـيـنـا
فـــلم أرَ مـــثـــلَهُ لـــلـــخـــيـــر دنـــيـــا

---

(١) معن بن زائدة أحد كرماء العرب في التاريخ.
(٢) نسبة إلى زحلة في لبنان.

ولم أر مــثـلَـه فــتــحــاً مــبــيــنــا

فــيــا أشْــبــالَ «لــبــنــانَ» الْــمـُـفــدّى

ويــا إخــوانَــنــا وبــنــي أبــيــنــا

تــرنّحَ عــصــرُكُمْ فــخــراً وهــشَّتْ

لــصــنــعــكمُ عِــظــامُ المــائِــتِــيــنــا

تــبــارى الــنــاسُ في طــلــب المــعــالي

فــكــنــتمْ في المجــال الــسَّــابــقــيــنــا

بــنَى الأهــرامَ «فــرعــونٌ» فــدامتْ

لــتــخــبــرَ كــيف كــان الــظَّــالمــونــا

وكم أشــقى الجُــمــوعَ الــفــردُ مــنــهمْ

وكم طَــمسَ الألــوفَ لــكي يَــبِــيــنــا

وشِــدْتمْ مــعــهــداً في «تلّ شــيــحــا»

ســيــبــقى مــلــجــأً لــلــبــائِــســيــنــا

يُــطلّ الــفــجــرُ مُــبــتَــســمــاً عــلــيه

ويــرجعُ مــطــمــئــنّــاً مُــسْــتــكِــيــنــا

ويمــضــي يملأُ الــوادي ثــنــاءً

عــلــيــكمْ والأبــاطحَ والحُــزونــا

أرى غَــيْــثَــيْنِ يــســتــبــقــان جُــوداً

هــمــا مــطــرُ الــسَّــمــا والــغــائِــثــونــا

لــئنْ حَــجبَ الــغــمــامُ الــشَّــمسَ عــنّــا

فــلــم يــطــمِسْ ضــيــاءَ الــلــهِ فــيــنــا

ولــم يــســتــرْ ســبــيلَ الخــيــرِ عــنــكمْ

ولــم يُــقْــبِضْ أكفَّ الــبــاذلــيــنــا

وجــدتُ المــرءَ حبُّ الخــيــرِ فــيه

فــإنْ يــفــقــدْه صــار المــرءُ طــيــنــا

تَــكــمّشَ في الحــقــول الــشــوكُ بُــخلاً

فــذلَّ وعــاش مُــكْــتــئِــبــاً حــزيــنــا

وأســـــنى[1] الــــوردُ، إذ أعـــطى شَـــذاهُ،

مــكــانــتَهُ، فــكن في الـــواهِــبــيــنــا

ســـألتُ الــشِّــعــرَ أن يُــثــني عــلــيكمْ

فــقــالتْ لي الــقــوافي: قــد عَــيِــيــنــا

ســـيـــجـــزيـــهمْ عن الـــبـــؤســـاءِ ربٌّ

يــكــافئُ بــالجــمــيلِ الــمُــحــســنــيــنــا

****

(١) أسنى الورد مكانته: رفعها (أسناه: رفعه).

٥٦ - أفاتحة أم ختام

[السريع]

قالها في رثاء الأسقف عمانوئيل أبو حطب

مــا وعظَ الإنـســانَ مــثلُ الحِـمَـامْ
فـلـيـتَّـعظْ بـالـصَّـمتِ أهلُ الـكلامْ

أفــصحُ من كلّ فــصـيحٍ بـنـا
هــذا الــذي أعـيـاهُ ردُّ الـسَّلام

إنّي أراهُ وهـــوَ في صـــمْـــتِهِ
أروعَ من جـيشٍ كـبـيـرٍ لُـهـام[1]

نـامتْ جـفـونٌ سَـهـرتْ لـلـعُلا
من قَـبلِ أن يـنـجـابَ جـنحُ الـظلامْ

وسَـــكنَ الـــوثّـــابُ في صـــدرِهِ
من قَـــبْلِ أن يُـــدركَ كلَّ الـمــرام

يـا لـهـفـةَ الـقـومِ عـلى كـوكبٍ
لاحَ قـلـيلاً واخـتـفَى في الـغَـمَـام

ولـــهــفــةَ الــدِّينِ عـلى سـيّـدٍ
كـان يُـرجَّى في الخَـطـوب الجِـسـامْ

وصـاحبٍ قـد كـان في صَـحْـبِهِ
كـالـروضِ فـيه أرَجٌ[2] وابـتـسـام

مـا غـابَ عـنّـا وكـأنّي به
يــفــصِـلُـهُ عن صَـحْـبِهِ ألفُ عـام!

---

(١) الجيش الكثير، كأنه يلتهم كل شيء.

(٢) انتشار فوح الطيب (أرج - يأرج).

مَن الــــذي يُــطـــفئُ من بـــعـــدِه

في الــمُـــهجِ الحَـــرَّى ذكيَّ الــضِّـــرام؟

مَن الـــــذي يمـــــسحُ دمعَ الأسى

ومـــاسحُ الأدمعِ تحت الــــرَّغــــام؟[1]

يـا نـائـمـاً مُـسـتـغـرِقـاً في الـكَرَى

خـطـبُكَ قـد أقـلقَ حـتى الـنـيـام!

خـــبِّـــرْ فـــإنّ الـــقـــومَ في حَـــيـــرةٍ

هل الـــردى فـــاتحـــةٌ أم خِـــتـــام؟

وهل صـــحـــيحٌ أنّ كلَّ الــمُـــنى

يطحَنُها صَرفُ[2] الـردى كـالـعـظام؟

وهـل حـــقـــيقٌ أنّ أهـلَ الـــعُلا

والـفـضلِ بـعـد الموتِ مـثلُ الـطَّغَام؟[3]

أم بـــعـــد هـــذا يـــقـــظـــةٌ حـــلـــوةٌ

يَـنْـسى بـهـا المـرءُ الـشَّـقـا والـسَّـقام؟

ويـــصـــبحُ الـــنَّـــابِهُ في مـــأمنٍ

من عـــنَتِ المـــال وعَـــيْشِ الحُـــســـام؟

وتـــســـتـــوي الحـــالاتُ في حـــالـــةٍ

لاحـيْفَ فـيـهـا، لا أذىً، لا انْـتِـقـامْ؟

خـــبِّـــرْ، وحـــدِّثْ، كـــلّـــنـــا حـــائـــرٌ

ذو الجـــهلِ مـــنّـــا والأرِيْبُ الـــهُـــمَـــامْ

---

(١) التراب.

(٢) صرف الدهر: نوائبه.

(٣) أوغاد الناس.

لأيِّـــمَـــا أمـــرٍ يـــعـــيشُ الـــورَى؟

لأيِّـــمَـــا أمـــرٍ يمـــوت الأنـــام؟

وأين دارٌ لـــيس فـــيـــهـــا شَـــقَـــا

إن لم تـــكنْ هـــاتـــيكَ دارَ الـــسَّلامْ؟

نم آمـــنـــاً، فـــالمـــرءُ بـــعـــد الـــردى

كـــالـــفـــكـــرِ، لا يُـــزرَى به، لا يُـــضَـــامْ

****

٥٧ - الأسطورة الأزليّة

[السريع]

توطئة:

كان زمانٌ لم يزلْ كائناً
وحالةٌ ما برحَتْ باقِيَهْ

مَلَّ بنو الإنسانِ أطوارَهُم
وبرَموا بالسُّقمِ والعافيَه

فاستَصرخُوا خالقَهمْ واشتَهَوا
لو أنه كوَّنَهمْ ثانيه

وبلغتْ أصواتُهمْ عَرشَهُ
في ليلةٍ مُقمِرَةٍ صافيَه

فقال إنّي فاعلٌ ما اشتَهوا
لعلّ فيه حكمَةً خافِيه

وشاهدوهُ هابطاً من عَلٍ
فاحتشَدوا في السَّهلِ والرابيَه

من القرى القانعَةِ الطاويهْ
والمدُنِ الجامحةِ الغاديه

تألّبُوا من كلّ صَوبٍ كما
تجتَمعُ الأمطارُ في السَّاقِيَه

يُسابقُ الصُّعلوكُ ربَّ الغِنَى
والأبلَهُ الباقعَةَ[1] الداهيهْ

ويدفَعُ الشَّيخُ الْتوَى عودُهُ
وصار مثلَ الرِّمَّةِ الباليَه

---

(١) الداهية.

فـتـىً مـضـى الـفـجـرُ ولـمّـا تـزلْ
روعَـتُـه فـي وجـهِـهِ بـاقـيـه
وتَـزحَـمُ الـحـسـنـاءُ ممـكـورةً[1]
خلاّبـةً كـالـروضـةِ الحَـالـيَـه
دَمـيـمَـةٌ تُـشـبهُ فـي قُـبـحِـهـا
مـديـنـةً مـهـجـورةً عـافـيَـه[2]
فـصـاحَ ربُّ الـعـرشِ: مـا خـطـبُـكُمْ
مـا بـالُـكُمْ صَـرَخـاتُـكُمْ عـالـيه؟
هل أصـبـحَتْ أرضـكُمُ عـاقـراً؟
أم غَـارَتِ الأنجـمُ فـي هَـاويَـه؟
أم أقـلـعَ المـاءُ فـلا جـدولٌ؟
ومـاتـتِ الـطَّـيـرُ فـلا شـاديه؟
أم فـقـدَتْ أعـيـنُـكمْ نـورَهـا؟
أم غـشـيَتْ أرواحَـكمْ غـاشِـيَه؟
أين الـهـوى؟ إنْ لم يـكنْ قـد قـضَى
فـكُلُّ جُـرحٍ واجِـدٌ آسِـيَه[3]

الفتى

قـال الـفـتـى: يـا رَبِّ إنّ الـصِّـبَـا
مـصـدَرُ أحـزانـي وآلامـي
ألـبَـسـتَـنـيـهِ مُـونِـقـاً بـعـدمـا
أبـلاهُ أخـوالـي وأعـمـامـي

---

(١) المستديرة الخصر، المحفوفة.
(٢) عفا الرسم: زال وامّحى.
(٣) الآسي: الطبيب.

وصـــار، فـي مـــذهَـــبِـــهِـمْ، عـــصــــرُهُ
فـــــــتـــــــرَةَ زلاّتٍ وآثـــــــــام
فـــاخـــتـــلـــفَـتْ حـــالي وحـــالاتُـــهـمْ
كـــــأنَّـــــني في غـــــيـــــرِ أقـــوامـي
وصِـــرتُ كـــالجـــدولِ في فَـــدْفَـــدٍ[1]
أو شـــاعـــرٍ مـــا بـــين أصـــنـــام
والأخـــضـــرِ الـــمُـــورقِ في يـــابسٍ
أو مـــــثـلِ صـــــاحٍ بـــــين نُـــــوَّام
دنـــيـــاهُمُ دنـــيـــايَ لـــكـــنَّـــمـــا
أعـلامُـــــهـمْ لـــــيـــــستْ كـــأعـلامـي
عـــنـــدَهـمُ الـــرَّوضـــةُ أشـــجـــارُهـــا
والـــروضُ عـــنـــدي الـــزَّهَـــرُ الـــنَّـــامي
والـــــطَـــــيـــــرُ لحمٌ ودمٌ عـــــنـــــدَهـمْ
ولـــيس عـــنـــدي غـــيـــرُ أنـــغـــام
سُـــكـرِي بـــهـــا أو بـــالـــنَّـــدى والـــشَّـــذا
وســـكْـــرُهُـمْ بـــالخـــمـــرِ في الجَـــام
يـــســـخَـــرُ قـــلـــبي بـــلـــيـــالـــيـــهـمُ
ويـــســـخـــرُ الـــدَّهـــرُ بـــأيّـــامي
كـــأنَّـــني جـــئتُ لِـــتَـــبـــكـــيـــتِـــهـمْ
كـــــأنَّـــــهـمْ جـــــاءوا لإيـلامـي
عبءٌ عـــلـى نـــفـــسـيَ هـــذا الـــصِّـــبـــا
ألجـــائشُ المـــســـتـــوفِـــزُ الـــطَّـــامي
يـــزرعُ حـــولِي زَهَـــراتِ الـــمُـــنـى
وشَـــوكُـــهـــا في قـــلـــبيَ الـــدّامي

---

(١) الفدفد: المفازة الواسعة.

فـــــانٍ لـه فـي كلِّ فـــــانٍ هـــــوىً

فـــانٍ، ولا يـــنـــجُـــو مِنَ الـــذَّام

خُـــذهُ، وخـــذْ قـــلـــبي وأحلامَهُ

فـــإنَّـــني أشـــقَى بـــأحلامي

ومُـــرْ يَـمُـــرُّ الـدهـــرُ في لحـظـةٍ

كـالـطـيفِ أو كـالـبـرقِ قُـدَّامي

وازرعْ نجـومَ الـشَّـيبِ في لِـمَّـتى

فـيـنـجـلـيْ حِـنـدِسُ أوهـامي

فَـأُبْـصِـرُ الحِـكـمـةَ في ضـوئه

إني إلـيـهـا جـائعٌ ظـامي

الشيخ

وجـــاء شـــيخٌ حـــائـــرٌ واجِفٌ

مُـشـتَـعلُ الـلِّـمَّـةِ بـالي الإهـابْ

كـــأنَّـــمـــا زلـــزلـــةٌ تحـــتَهُ

لمـا به من رَعْـشـةٍ واضْـطِـراب

فـصـاحَ: يـا ربَّـاهُ! خُـذ حِـكـمَـتي

واردُدْ عـلـى عـبـدِكَ عـصْـرَ الـشَّـبـاب

إنَّ أمــــاني الـــرُّوحِ أزهـــارُهـــا

وإن روحـي الـيـومَ قَـفـرٌ يَـبَـاب

لا جـدولٌ لا بـلـبلٌ مُـنـشِـدٌ

بـلـى، بـهـا الـوحـشـةُ والإكـتِـئـاب

تـلـك الأمـانيُّ عـلـى كِـذْبـهـا

لم تـكـن الـلـذَّةُ فـيـهـا كِـذَاب

زالتْ ومـــازلتُ ، وإنَّ الـــشَّـــقـــا

أن تُـطـمَسَ الآيُ ويـبـقي الـكـتـاب

وتُسلَبُ السَّرْحَةُ أوراقَها
ولم تزلْ أعراقُها في التُّراب
كنتُ غنياً في زمان الصِّبا
وكنتُ صِفْرَ الكَفِّ صِفْرَ الوِطَاب[1]
صحوتُ من جَهلي فأبصرتُني
كأنني سفينةٌ في العُبَاب
قيل لها: في البحر كلُّ المُنى
فلم تجدْ في البحر إلا الضَّباب
نأتْ عن الشَّطِّ ولم تقتربْ
شبراً من السرِّ الذي في الحِجاب
ولو تُرَجَّى أوبةٌ لاشتَفَتْ
لكنَّما عزَّ عليها الإياب
مُرْ تقفِ الأيامُ عن سيرِها
فإنَّها تركضُ مثلَ السَّحاب
وضَعْ أمامي، لا ورائي، المُنى
وطوِّلِ الدربَ وزِدْ في الصِّعاب
ما لذَّتي بالماء أُروى به
بل لذَّتي في العَدْوِ خلفَ السَّراب

الحسناء

وقالتِ الحَسْناءُ: يا خالِقي!
وهبتَني الحُسنَ فأشقَيتَني
وجهي سنيٌّ مُشرقٌ إنّما
مَرْعى عيونِ الخَلْقِ وجهي السَّني

---

(١) الوطاب: آنية اللبن (سقاؤه).

حَـــظِّيَ مـــنه حظُّ وَردِ الـــرُّبـــا

من عــطـرِه الــفـوّاحِ والــسَّــوسَنِ

ومـــثلِ حظِّ الـــسَّــرْوِ في فــيــئِه

والــطَّــيـرِ من تــغـريـدهــا الـمُـتـقَن

ومـــثلِ حظِّ الـــنــجمِ من نـــوره

في الجِـنـدِسِ الـمُـعـتـكِـرِ الأدْجَن

لـلـقـائلِ الـفيءُ، ولـلـسـامعِ الـتْـ

ـتَـغْـريـدُ، والـزهـرةُ لـلـمُـجـتـني

والـــنـــورُ لـلـمـدلجِ والمجـتَـلـي

والــدرُّ لـلـقـانصِ والـمُـقـتَـنِي

كم ريِــبَـــةٍ دبّتْ إلى مَـــضــجَـــعي،

وتــهـمـةٍ حــامتْ عـلى مــسـكـني

كـــأنّـــمــا لا أدبٌ ممـــكنٌ

مع الجَـمـالِ الــرائعِ المــمـكن

إن عــشــقَتْ نــفـسي فـويلٌ لــهـا

والـــويلُ لي إنْ رَجُلٌ حـــبَّـــني

الــسّمُّ والــشـوكُ وجـمـرُ الـغَـضَـا

أهــونُ من كــاشِـحـةِ الألْـسُن

كم تـقـتَـفِـيـني نـظـراتُ الخَـنـا

ويـلـيَ من خـائـنـةِ الأعـين

لـم يـبقَ في روحـيَ مِن مـوضعٍ

يــا ربُّ لم يُـخـدَشْ ولم يُـطـعَن

إنّ الــغِـنَـى في الــوجهِ لي آفَــةٌ

يـا لـيـتـني دمـيـمـةٌ لـيـتـني!

وسـكـتَتْ، فـصـاحتِ الجـاريهْ
بـاكـيـةً من بُـؤسـهـا شـاكـيهْ
ذنـبي إلى هـذا الـورى خِـلْـقَـتي
فـهلْ أنـا المجـرمـةُ الجَـانـيه؟
إن أخـطـأ الخـزّافُ في جَـبْـلـهِ الـطْ
ـطِـيْنَ فـأيُّ الـذنبِ لـلآنـيه؟
ألـيس مَن يَـسـخـرُ بي يَـزدَري
بـالـقـوّةِ الـمُـوجـدَةِ الـبَـاريه؟
لـو كـنتُ حـسـنـاءَ بـلـغتُ الـعُلا
فـلـلـجـمـالِ الـرتْـبَـةُ الـعـالـيه
وبـاتَ من أسـجُـدُ قـدّامَهُ
صـاغـرةً يَـسـجـدُ قـدّامِـيَه
فـإنّـني في مـلأٍ ظـالـمٍ
أحـكـامُهُ جـائـرةٌ قـاسـيه
لـيس لـذاتِ الـقُـبحِ مِن غـافـرٍ
وفـيه مَن يـغـفـرُ لـلـزانـيه
نـفـسيَ جُـزءٌ مـنك يـا خـالِـقي
وإنـهـا عـاقـلـةٌ راقـيه
ألـيس ظُـلـمـاً، وهْيَ بـنتُ الـعُلا،
إن تكُ بـالـقُـبحِ إذنْ كـاسِـيه
فـلـيـكُنِ الحُـسْنُ رداءً لـهـا
تـرفُلُ به أو فـلـتَـكُنْ عَـاريه

الفقير

وأقبلَ الصُّعلوكُ مُسترحِماً
في مُقلَتَيهِ شبحُ اليأسِ
يصرُخُ: يا ربّاهُ حتى متى
تُحكِّمُ الموسِرَ في نفسي؟
وتضعُ التاجَ على رأسِه
وتضعُ الشَّوكَ على رأسي؟
ويشربُ اللَّذاتِ من كأسِه
وأشربُ الغصَّاتِ من كأسي
وتَتَجلَّى الشُّهبُ في ليلِهِ
ضاحكةً كالغيدِ في عُرس
ويتوارى في نهاري السَّنا
أو يتبَدّى حَانِقَ الشَّمس
يا ربِّ لا تنقلْهُ عن أُنْسِهِ
وإنّما انقُلني إلى الأُنس
فإن تَشَأْ ألا يذوقَ الهنا
قلبي، فجَرّدْني من الحِسِّ
لو لم يكن غيريَ في غِبطةٍ
ما شعَرَتْ روحيَ بالبؤسِ

الغني

وقال ذو الثروةِ: ما أشتَهي
لا أشتَهي أنّيَ ذو ثروةِ
أنفقتُ أيّاميْ على جمعِها
وخِلتُني أدركتُ أمنيّتي

فاستعبدتني في زمان الصبا
وأوقرت بالهمّ شيخوختي
قد ملكتني قبلما حزتها
وملكتني وهي في حوزتي
كنحلة أمسكها شهدها
من الجناحين فلم تفلت
حسبتها تكسبني قوةً
فافترست قوتها قوتي
جنت على نفسي وأحلامها
جناية الشوك على الوردة
ينمو فتذوي فهي علّيقةٌ
يحذرها الطائف بالروضة
من قائلٌ عنّي لمن خالني
أمرحُ من دنيايَ في جنّة
لا تنظر الأضواءَ في حجرتي
وانظر إلى الظلماء في مهجتي
ولا يغرّنّك قصري فما
قصري سوى سجنٍ لحريتي
إنّي في القصر الرفيع الذرا
كطائرٍ، في قفصٍ، ميّت
كم في عباب البحر من سابحٍ
قد مات ظمآناً إلى قطرةٍ
موتُ الطوى شرٌّ، ولكنّما
أفظعُ منه الموتُ بالتخمة
كم من فقيرٍ مرّ بي ضاحكاً
كأنّما يسخرُ من كربتي

رأيتُهُ بالأمسِ من كُوَّتي

فخِلتُني أنظرُ من هُوَّةِ

وكنتُ كالحوت رأى موجةً

ضاحكةً ترقصُ كالطِّفلة

أو حيّةً تدبّ في مَنجمٍ

ترنو إلى فَرَاشةٍ حُرّة

قد اختفتْ ذاتيَ في بُردتي

فما يرى الخَلقُ سِوى بُردَتي

فهمْ إذا ما سلّموا سلّموا

على خيوط البُردِ والجُبّة

ربّاهُ أطلقْ من عقالِ الغِنى

رُوحي، فإنّي منه في مِحنة!

وانزعْ معَ الدينارِ من قبضتي

صَلابةَ الدِّينارِ من سِحْنَتي

وحَوّلِ المالَ إلى راحةٍ

وحوّلِ القصرَ إلى خيمة

الأبلَه

وصرخَ الأبْلَهُ مستفسِراً:

ما القصدُ من خَلْقي كذا ما المُرادْ؟

ألم يكنْ يكمُلُ هذا الورى

إلاّ إذا أوجَدتَني في فسَاد؟

لي صورةُ الناسِ وحاجَاتهمْ

من مطعَمٍ أو مشرَبٍ أو رُقَاد

لكنّ لُبّي غيرُ ألبابِهمْ

فإنّه مُكتَنَفٌ بالسَّواد

يُـــعـــجـــزني إدراكُ مـــا أدركـــوا
كـــأنّ عـــقـــلي فَـــحـــمـــةٌ أو رَمـــاد
إن كـــنتُ «إنـــســـانًـــا» فـــلمْ يـــا تـــرى
لـــستُ بـــإدراكي كـــبـــاقـي الـــعِـــبـــاد؟
أو لم أكن مـــنـــهـــم فَـــمُـــرني أكن
جـــرادةً أو أرنـــبـــاً أو جَـــواد
فـــالـــنِّـــدُّ لا يـــعـــدَمُ مِن نِـــدِّه
ذريـــعـــةً لـــلـــسِّـــلم أو لـــلـــجـــهـــاد
لا تـــســـخَـــرُ الـــنـــمـــلـــةُ من نمـــلـــةٍ
ولـــيس يُـــزري بـــالـــقُـــرادِ الـــقُـــراد[1]
أم أنت كـــالـــحـــقل عـــلـى رغـــمـــه
يـــنـــمـــو مع الـــحـــنـــطـــةِ فـــيه الـــقَـــتَـــاد؟

الأرِيب

وجـــاء بـــعـــد الأبـــله الـــمُـــســـتـــريبْ
الألـــمعيُّ الـــعـــبـــقـــريُّ الـــلـــبـــيبْ
فـــقـــال: إنّي تـــائـــهٌ حـــائـــرٌ
أنـــا غـــريبٌ في مـــكـــانٍ غـــريب
أبـــحثُ عن نـــفـــسي فلا اهـــتـــدي
ولـــيس يَـــهـــديـــني إلـــيـــهـــا أريب
أنـــا عـــلـــيمٌ حـــيثُ لا عـــالِمٌ
أنـــا لـــبـــيبٌ عـــنـــد غَـــيـــرِ الـــلـــبـــيب
لـــو أنّـــني كـــنتُ بلا فـــطـــنـــةٍ
سِـــرتُ ولم تـــكـــثُـــرْ أمـــامي الـــدُّروب
وكـــان عـــقـــلي كـــعـــقـــول الـــورَى
وكـــان قـــلـــبي مـــثلَ بـــاقي الـــقُـــلـــوب

(١) دُويّبَة تعض الإبل.

وصــــار عــنــدي كــالــنُّــجــومِ الــورَى
فـلا عـــدوٌّ فــيـــهـمُ أو حـــبـــيـب
ولـم أجــدْ في ضِـحْــكِـهِمْ والــبُــكَــا
شَـيْـئـاً سِـوى الـضِـحْـك وإلا الـنَّـحـيب
ولـم أســائلْ كــوكــبــاً طــالــعــاً:
مــا لكَ تَــبــدو ولـمــاذا تَــغِــيب
ولـم أقفْ في الــرَّوضِ عــنــد الــضُّـحى
يُــذهِــلُــنـي لــونٌ وشــكلٌ وطِـــيب
ولـم أقلْ مـــا كـــنتَ من قَـــبـلَــمــا
كـنتَ ولا مـــا في سِــجلّ الــغُــيـوب
مــا الــعــقلُ يــا ربُّ سـوى مــحــنــة
لــولاهُ لم تُــكــتَبَّ عــليَّ الــذنــوب

الخاتمة

لمّـــا وعى الـــله شـــكـــايــا الـــورى
قــال لــهم: كـونــوا كـمــا تـشـتــهـونْ
فــاسـتــبـشـرَ الــشـيخُ، وسُــرّ الــفـتى
والــكــاعبُ الحــســنــاءُ، والحَـــيْــزبـون
لـــكـــنّـــهم لمّـــا اضــمــحلّ الـــدُّجى
لم يــجــدوا غـــيـــر الـــذي كـــانـــا!

✡✡✡✡

هُمْ حــدّدوا الــقــبحَ فـكــان الجــمــالْ
وعــرّفــوا الخـــيــر فــكـــان الــصلاحْ
ولـــيس من نـــقصٍ ولا من كـــمـــالْ
فــالــشَّـوكُ في الــتـحـقـيق مـثلُ الأَقـاح
وذَرّة الـــرمل كـــكلّ الجـــبــــالْ
وكــالـــذي عـــزَّ الـــذي هـــانـــا!

****

المحتوى

الديوان الرابع (الخمائل)

****

الديوان الخامس

(تبر وتراب)

الطبعة الأولى (دار العلم للملايين. بيروت ١٩٦٠).

يضم تسعة وخمسين نصاً شعرياً، جمعها الشاعر المهجري جورج صيدح، صديق أبي ماضي، من المجلات والصحف التي نُشرت فيها، وكثير منها يتكون من أبياتٍ قليلة، أُلحقت بدواوين الشاعر الأربعة، وكوّنت ديوانه الخامس ـ الأخير. وما تبقى من شعر الشاعر، خارج هذه الدواوين الخمسة، ألحقناه بها، بعد أن وُثِّقتْ مصادره .

****

١ - وطن النجوم

[مجزوء الكامل]

وطنَ النُّجومِ.. أنا هنا حدِّقْ.. أتذكرُ من أنا؟
ألَمحتَ في الماضي البعيدِ فتىً غريراً أرعَنا؟
جَذلانَ يمرحُ في حقولِكَ كالنَّسيمِ مُدَنْدِنا
المُقتني المملوكَ ملعبُهُ وغيرُ المقْتَنَى!
يتسلَّقُ الأشجارَ لا ضجَراً يُحسُّ ولا ونَى
ويعودُ بالأغصانِ يَبريها سيوفاً أو قَنا
ويخوضُ في وَحْلِ الشِّتا مُتهلِّلاً مُتَيمِّنا
لا يتقي شرّ العيونِ ولا يخافُ الألسُنا
ولكَمْ تشيطنَ كي يقولَ الناسُ عنه: «تَشَيْطنا»
أنا ذلك الولدُ الذي دنياهُ كانت ههنا!
أنا مِن مياهِكَ قطرةٌ فاضتْ جداولَ من سَنا(١)
أنا مِن تُرابك ذرّةٌ ماجتْ مواكبَ من مُنى
أنا مِن طيورِكَ بُلبلٌ غنّى بمجدِكَ فاغْتنَى
حملَ الطلاقةَ والبشاشةَ من ربوعِكَ للدُّنا
كم عانقتْ روحي رُباك وصفّقَتْ في المنحنى؟
للأرزِ يهزأُ بالرياحِ وبالدُّهورِ وبالفَنَا
للبحرِ ينشرُه بنوكَ حضارةً وتمدُّنا
لليلِ فيكَ مُصلِّياً للصبح فيك مُؤذّنا
للشمسِ تُبطئُ في وداعِ ذُراكَ كيلا تحزَنا

---

(١) النور.

للبدرِ في نيسانَ يكحَلُ بالضِّياء الأعيُنا
فيذوبُ في حَدَقِ المها سِحْراً لطيفاً ليِّنا
للحقل يرتجلُ الروائعَ زنبقاً أو سَوسنا
للعُشبِ يرتجلُ النَّدى للغصنِ أثقلَهُ الجَنى
عاشَ الجمالَ مشرَّداً في الأرض ينشدُ مَسْكنا
حتى انكَشَفتَ له فألقى رحلَهُ وتوطّنا
واستعرضَ الفنُّ الجبالَ فكنتَ أنت الأحْسَنا
لله سرٌّ فيكَ يا لبنانُ لم يُعلنْ لنا
خلق النجومَ وخافَ أن تُغوِي العقولَ وتفتِنا
فأعارَ أرزكَ مجدَه وجلالَهُ كي نؤمِنا
زعموا سَلَوتُكَ.. ليتَهُمْ نسَبوا إليّ المُمكنا
فالمرءُ قد ينسى المُسيءَ المفتَرِي والمحسِنا
والخمرَ والحسناءَ والوترَ المرنَّحَ والغِنَا
ومرارةَ الفقرِ المُذلّ بلى، ولذّاتِ الغِنى
لكنّه مهما سَلا هيهاتَ يسلو الموطِنا

****

٢ - تحية الشام

[الكامل]

حيِّ الشآم مُهنَّداً وكتابا
والغوطةَ الخضراءَ والمحْرَابا

ليستْ قِباباً ما رأيتُ وإنما
عزمٌ تمرَّدَ فاستطالَ قِبَابا

فالثُمْ بروحِكَ أرضَها تلثمْ عصُو
راً للعُلا سكنتْ حصىً وترابا

واهبِطْ على بَرَدى يُصفِّق ضَاحكاً
يستعطفُ التلعَاتِ[1] والأعشابا

روحٌ أطلّ من السَّماء عشيَّةً
فرأى الجمالَ هنا فحنَّ فذابا

وصَفَا وشَفَّ فأوشكَتْ ضِفّاتُهُ
تنسابُ مِن وَجْدٍ به مُنسَابا

بل أدمعٌ حورُ الجنانِ ذَرفْنَها
شوقاً، ولم تملكْ لهُنَّ إيابا

بردى! ذكرتُكَ للعَطَاشى فارتَوَوا
وبني النُّهى[2] فترشَّفُوك رُضَابا

مرَّتْ بك الأدهارُ لم تخبُثْ ولم
تَفسد، وكم خَبُثَ الزمانُ وطابا

✵✵✵✵✵

---

(١) التلْعة: ما ارتفع أو انخفض من الأرض (من الأضداد).

(٢) النهية: العقل (والجمع: نهى).

بــأبي وأمـي فـي الــعَــراءِ مــوسَّــدٌ
بـعَثَ الحـيـاةَ مـطـامـعـاً ورِغـابـا
لــمّـا ثَــوَى فـي مـيـسـلـونَ تـرنّـحتْ
هـضـبـاتُـهـا وتـنـفَّـستْ أطـيـابـا
وأتـى الـنـجـومَ حـديـثُهُ فـتـهـافـتتْ
لـتـقـومَ حـرّاسـاً له حُـجَّـابـا
مـا كـان يـوسفُ واحـداً بل مـوكبٌ
لـلـنورِ غـلـغلَ في الـشّـموسِ فَـغَـابـا
هـذا الـذي اشـتـاقَ الـكرى تحت الـثَّرى
كـي لا يــرى في جــلَّـقَ الأغْــرَابــا
وإذا نـبَـا الـعـيشُ الـكـريمُ بمـاجـدٍ
حُــرٍّ رأى المــوتَ الــكـريمَ صَــوابـا
إنـي لأُزهَـى بـالــفـتى وأُحــبُّهُ
يـهـوى الحـيـاةَ مـشـقّـةً وصِـعـابـا
ويـضـوعُ عـطـراً كـلـمـا شَـدّ الأسى
بـيـديه، يـعـرُكُ قـلـبَهُ الـوثّـابـا
ويـسـيل مُـاءً إنْ حـواهُ فَـدْفَـدٌ[1]
وإذا طـواهُ الـلـيلُ شعّ شِـهـابـا
وإذا الـعـواصفُ حـجّـبتْ وجهَ الـسَّمـا
جَـدَلَ الـعـواصفَ لـلـسَّمـا أسـبـابـا
وإذا تـقـوَّض صـرحُ آمـالٍ بـنَـى
أمـلاً جـديـداً من رجـاءٍ خـابـا
فـابْنُ الـكـواكبِ كلُّ أفقٍ أفـقُه
وابنُ الـضَّـراغمِ لـيس يَـعْـدِمُ غـابـا

✲✲✲✲✲

---

(١) الفلاة لا شيء فيها.

عــجــبــاً لــقــومــي والــعــدوُّ بــبــابــهــمْ

كــيــف اســتــطــابــوا الــلــهــوَ والألــعــابــا؟

وتــخــاذلــتْ أســيــافُــهُــمْ عــن ســحــقِــه

فــي حــيــنَ كــان الــنــصــرُ مــنــهــمْ قــابــا[1]

تــركــوا الــحــســامَ إلــى الــكــلام تــعــلُّلاً

يــا ســيــفُ لــيــتــك مــا وجــدْتَ قِــرابــا!

دنــيــاكَ يــا وطــنَ الــعُــروبــةِ غــابــةٌ

حَــشــدتْ عــلــيــك أراقِــمَــاً[2] وذئــابــا

فــالــبسْ لــهــا مــاءَ الــحــديــد مَــطــارِفَــاً

واجــعــلْ لــســانَــك مِــخــلــبــاً أو نــابــا

لا شَــرْعَ فــي الــغــابــاتِ إلا شــرعُــهــا

فَــدَعِ الــكــلامَ شــكــايــةً وعِــتــابــا

هــذي هــي الــدنــيــا الــتــي أحــبــبــتَــهَــا

وســقــيــتَ غــيــرَك حُــبَّــهــا أكــوابــا

وضــحــكــتَ مــعْ أحــلامِــهــا وبــكــيــتَ فــي

آلامــهــا، وجــرَعــتَ مــعــهــا الــصَّــابــا[3]

وأضــلَّ روحــكَ فــي الــسُّــرى وأضــلَّــهــا

مــا خِــلْــتَــه مــاءً فــكــان ســرَبــا

ونــظــرتَ، والأوصــابُ تــنــهشُ قــلــبَــهَــا

فــرأيــت كــلَّ لــذاذةٍ أوصــابــا[4]

شــاءَ الــظّــلــومُ خــرابَــهَــا فــإذا الــورى

لا يُــبــصــرونَ ســوى نُــهــاهُ خَــرابــا

---

(١) قريباً (قاب الرجل: قرُب).

(٢) الأرقم من الحيات: ما فيه بياض وسواد.

(٣) عصارة شجر مرّ.

(٤) الوصب: المرض.

دنـيـا تــألّقَ أمــسُــهَـا في يــومــهـا
فـاسـتـجـمعَ الأنـسـابَ والأحـسَـابا
وسـرى سـنـاءُ الـوحيِ من آفـاقِـهَـا
يـغشى الـعـصـورَ ويـغـمـرُ الأحـقـابا
الحقُّ مــا رَفـعتْ به جـدرانَــهـا
والخـيـرُ مـا زانتْ به الأبـوابـا
فـاسـتـنطقِ الـتَّـاريخَ هل في سِـفْـرِهِ
مـجـدٌ يُـضَـاهي مـجـدَهـا الخلاَّبـا؟
شـابتْ حـضـاراتٌ، ودالتْ وانـطـوتْ
أممٌ، ومـجـدُ أمـيَّـةٍ مـا شَـابـا
الأمسُ كـان لـهـا وإنّ لـهـا غـداً
تـتـلـفَّتُ الـدنـيـا له إعـجـابـا
غَـنـيّتَ من قـبلُ الـمُـحُـولـةَ والـعَـرَا
أفلا تـغـني الروضـةَ الـمـخْـصَـابـا؟[1]
عَـطَـفتْ لـيـالـيَـهَـا علـيكَ بـشـاشـةً
فـانسَ الـلـيـالي غُـرْبـةً وعـذَابـا
وانـشـرْ جـنـاحَـك فـالـفـضـاءُ مـنـوِّرٌ
واملأْ كـؤوسَك قـد وجَـدْتَ شَـرابـا
فَـلِـشَـدْوِ مـثـلِكَ كُـوِّنتْ، ولمـثـلـهـا
خـلَقَ الإلهُ الـبُـلـبلَ الـمِـطْـرابـا

✡✡✡✡✡

لـيت الـرِّيـاضَ تُـعـيـرُني ألـوانَـهـا
لأصُـوغَ مـنـهـا لـلـرئـيس خِـطـابـا

---

(١) المُحُولة: الجدْب، وانقطاع المطر ويبوسة الأرض.

وأقــولَ: إنـي عــاجــزٌ عن شــكــرِهِ
عــجْــزَ الأنــاملِ أن تَــلُمّ عُــبَــابــا
أشـكـو إلـى نـفـسـي الـعَـيـاءَ، فـتـشـتـكي
مـثـلـي، وتـصـمُتُ لا تَـحـيـرُ جَـوابـا
فـلـقـد رأيتُ الـبـحـرَ حـينَ رأيـتُهُ
فـوقـفتُ مـضـطـربَ الـرؤى هـيَّـابـا
أعـمـيـدَ سـوريّـا وكـاشفَ ضُـرِّهـا
خَـلـقتْ يـداك من الـشـيـوخ شَـبـابـا
وبلابلٌ كــانت تَــئِنُّ ســجــيــنــةً
أطــلــقــتَــهــا وأطَــرْتَــهــا أســرابـا
يـا صـاحبَ الخُـلُق المـصفّى كـالـنَّدى!
لـو لم تـكنْ بـشَـراً لـكـنتَ سَـحَـابـا
أمَلُ الـشـبـيـبـةِ في يـديكَ وديـعــةٌ
فــارفعْ لـــهـــا الأخـلاقَ والآدابـــا
فـالجـهلُ، أنّى كـان، فـهـو عـقـوبـةٌ
والـعـلْمُ، أنّـى كـان، كـانَ ثَـوابـا
يـا ويحَ نـفـسـي كم تـطـاردُني الـنَّوى
وتـهـدُّ مـني الـقـلبَ والأعـصَـابـا
ودَّعْتُ خـلـفَ الـبـحـرِ أمسِ أحـبـةً
وغـداً أودِّعُ هـا هـنـا أحـبـابـا

****

٣ - الشاعر والكأس

[مجزوء الخفيف]

باتَ، والكأسُ في الظلامْ، ... في حديثٍ، ولا كلامْ

هي في صمتِها تضيءْ ... وهوَ في صمتِهِ يُضام

شاعرٌ أنفقَ الصِّبا ... من غرامٍ إلى غرام

ذاهلُ النَّفسِ بالرؤى ... عن حُطامٍ وذي حُطَام

وعَنِ الفقرِ والغنى ... وعنِ الحربِ والسَّلام

بالشفاهِ التي طفا ... بين أهدابِهَا الأُوام[1]

بالغواني تُطيعُهُ ... والغواني لها احتكام

بالشَّذا وهْوَ فائحٌ ... والشَّذا وهوَ بالكِمَام[2]

بالسَّحابِ الذي يَسُحْ ... حُ وبالخادعِ الجَهَام[3]

---

(١) حرارة العطش.

(٢) الكمّ: وعاء الطلع وغطاء النَوْر، في الزهر.

(٣) السحاب لا ماء فيه.

بـــــالأغـــــاريـــــد والـــــبَلا
لِ والـــــنَّـــــورِ والخُـــــزام
حـــــولَـهُ الـــــكـــــونُ في وغىً
وهْـــوَ والـــكـــونُ في وِئـــام

✲✲✲✲✲

مـــــا لـهُ الآنَ وحـــــدَهُ
ســاكنُ الـــعِـــرْقِ كــالـــنِّـــيــام
ســـــاهـــــرٌ غـــــيـــــرَ أنـه
خـــادِرُ الـــروحِ والـــعِـــظَـــام
صـــــامتٌ مـــــثلُ كُـــــتْـــــبِهِ
وكَـــــدنـــــيـــــا بلا أنَـــــام
أتُـــــرى عـــــضَّهُ الـــــطَّـــــوى؟
لا! فـــفـي بـــيـــتِـهِ طـــعـــام
لـم تـــزلْ كـــأسُهُ لـــديْـ
ـه وفـي كـــأسِـه مُـــدَام
ولَـهُ تـــضـــحكُ الـــبُـــرو
قُ وُيـــبـكي الحَـيـا الـسِّجَـام[1]
ولَـهُ تـــرتـــعي الـــكـــوا
كِبُ في مـــســـرحِ الـــظلام
ولـهُ تـــلـــبَس الـــرُّبَـــا
بُـــرُدَ الـــنُّـــورِ والـــغَـــمَـــام
ولـه يُـــعـــبَقُ الـــشَّـــذا
ولـه تُـــعْـــصـــرُ الـــمُـــدام

(١) الحيا: المطر والخصب. وسجم سجاماً: سال.

ولـه يـــــــلـــــــمعُ الــــــنَّـــــدى

ولـه يَــــســـــجَعُ الحَـــــمَـــــام

ولــه الــــــغــــــادةُ المـــــلــــيْــ

ــــحَـــةُ والـــفـــارسُ الـــهُــمَـــام

كـــــلُّـــهـــا. كـــلُّــــهـــا لـه

وعـــــلـى غــــيــــرِه حَـــــرام

وهـــــوَ ســــاهٍ كـــأنَّـــــمـــــا

بــــســِــــواهـــــا لـه مَــــرام

وجـــــهُـهُ غـــــيــــرُ وجـــــهِهِ!

أمْ عـــــلـى وجــــهِهِ لِـــثَـــام

كـــالــــتــــمــــاثــــيلِ حـــولَهُ

مِـن نُـــحــــاسٍ ومـن رُخـــــام

لا اكـــــتــــئــــابٌ ولا رِضـــــاً

لا بـــكـــــاءٌ ولا ابــــتــــســـــام

لــــيــــلـــةٌ مـــا أمَــرَّهـــا

لــــيــــلــــةُ الـــيـــأسِ ألفُ عـــام

بـــــقـيَ الحُــــسْـنُ إنَّــــمــــا

مــاتَ في الــــشَّــاعــرِ الــهُــيـــام

فـــــإذا الــــكــــونُ عــــنـــده

جَـــــدَثٌ كــــلُّـه رِمــــــام[1]

****

(١) الرمّة: القطعة البالية من الحبل، والجمع رُمم ورِمام.

٤ - موكب التراب

[الكامل]

في يوم من أيام الصيف الشديدة الحر كان الشاعر جالساً مع بعض أصحاب له، أمام داره، فهبت ريح شديدة أثارت الغبار وعقدته في الفضاء كالسرادق. وكان في مشهد الغبار ما حمله على التفكير فنظم القصيدة التالية :

مِن أين جِئتَ؟ وكيف عُجْتَ ببابي؟
يا موكبَ الأجيالِ والأحقابِ
أمِنَ القبورِ؟ فكيف مَن حَلّوا بها؟
أهناك ذو ألَمٍ وذو تَطْرابِ؟
ولهم صَباباتٌ لنا؟ أم غودروا
في بَلْقَعٍ ما فيه غيرُ خَرابِ؟

✡✡✡✡✡

أمررتَ بالأعشاب في تلك الرُّبا
وذكرتَ أنك كنتَ في الأعشاب
حَوْلَ الصخورِ النائمات على الثَّرى
وعلى حواشي الجدول المُنساب
وعلامَ تصعدُ كالسَّحابةِ في الفضا
وإلى التراب مصيرُ كلَّ سَحاب؟
لما طلعتَ على الشّعاع موزَّعاً
مُتَرجرجاً كخواطرِ المُرتاب
وذهبتَ في عَرْض الفضاء كخيمةٍ
رُفعَتْ بلا عَمَدٍ ولا أَطناب[1]

---

(١) الطنُب: حبل الخباء.

قال الصِّحابُ ليَ : استترْ، وتراكضوا
للذُّعر يعتصمونَ بالأبواب
وَهَبِ اتَّقيتُكَ بالحِجاب فإنَّني
لابدَّ خالعهُ وأُنت حِجابي!
كم سارحٍ في غابةٍ عند الضُّحى
جاء المساءُ فكان بعضَ الغاب!
ومصفِّقٍ للخمرِ في أكوابه
طرباً، وطيفُ الموتِ في الأكواب
أنا لو رأيتُ بك القَذَى، محضَ القذَى،
لسترتُ وجهي عنك مثلَ صِحَابي
لكنْ شهِدتُ شبيبةً وكهولةً
ومنىً، وأحلاماً بغيرِ حساب
والشاربينَ بكلِّ كأسٍ، والأُلَى
عاشواً على ظَمَأٍ لكلِّ شراب
والضاربينَ بكلِّ سيفٍ في الوَغى
والخانعينَ لكلِّ ذي قِرْضاب[1]
والصارفينَ العمرَ في سُوقِ الهوى
والصَّارفينَ العمرَ في المِحْراب
والغيدَ بين جميلةٍ ودَميمَةٍ
والعاشِقينَ : الصبَّ والمُتَصابي
والعبدَ في أغلاله وحِباله
والمَلْكَ في الديباجِ والأطْيَاب
آبوا جميعاً في طريقٍ واحدٍ
الخاسرُ المَسبيُّ مثلُ السَّابي

(١) آلة القرْض، وهو القطع.

فضحكتُ من حرصي على مُلْكِ الصِّبا

وعجبتُ كيف مضَى عليه شبابي

ووقعتَ أنت على ترابٍ ضاحكٍ

لمّا وقعتَ عليّ في جِلْبابي

وكذاك أشواقُ التراب: مآلها

ولئن تقادمَ عهدُهَا، لِتُراب

****

٥ـ أين عصر الصبا

[السريع]

مـــا لي ومـــا لِـــلـــرشَـــإِ الأغْـــيَـــدِ
خـــلـتْ مـن الحُبِّ ومـــنـه يـــدي

نَـــأى فـــمـــا في قـــربه مـــطـــمعٌ
لا تَـــصِلُ الـــكفُّ إلى الـــفَـــرْقَـــدِ

قـطّـعتُ بـالـيـأسِ خـيـوطَ الـمُـنى
وقـــلت لـــلـسُّـــلـوانِ : لا تـــبـــعُـــدِ

وصـــرتُ لا يُـطـــربـــني مُـــنـــشـــد
ولا أنـــا أصـــبـــو إلى مُـــنـــشِـــدِ

أسـيـرُ في الـروضـةِ عـنـد الـضُّحى
حـــيـــرانَ كـــالـــمُـــدلجِ في فَـــدْفَـــدِ[1]

أمـــامـيَ الـمـــاءُ ولا أرتـــوي
وحـــولِـيَ الـــنُّـــورُ ولا أهـــتـــدي

يـا لـيت شِـعْـري: أين عـهـدُ الـصِّـبـا؟
وأيـن أحـلامُ الـــفـــتـى الأمـــرد؟

ولّـى وولّتْ كـــخـــيـــال الـــكـــرى
يـــلـــوحُ في الـــذِّهنِ ولـم يُـوجـد

فـيـا قـلـوبَ الـكـاشـحـينَ اسـكُـني
ويـا عـــيـــونَ الحـــاســـدينَ ارقُـــدي

---

(١) المفازة الواسعة لا شيء فيها.

ويــا شِــيــاهـــاً تــتــقي صَــولــتي
قـــلَّـــمتُ أظــفـــاريَ فـــاسْــتـــأسِـــدي!

✡✡✡✡✡

يــا ســائــلي عن أمسِ: كــيف انــقــضى؟
دَعْـهُ، وسَـــلْـــنِي يـــا أخي عن غـــدِ
أروَحَ لـــلـــنـــفسِ وأهْـــنَـــا لـــهـــا
إن تحـــســبِ المـــاضـيَ لم يُـــولـــد

****

٦ - الصّيف

[الرَّمل]

عــادَ للأرضِ مع الــصــيف صِــبَــاهــا
فــهْيَ كــالخَــوْدِ[(١)] الــتي تــمَّتْ حُلاهــا

صُــورٌ من خُــضْــرةٍ في نَــضْــرةٍ
مــا رآهــا أحــدٌ إلا اشْــتَــهــاهــا

ذَهَبُ الــشَّــمسِ عــلى آفــاقِــهَــا
وســوادُ الــلــيل مِــسْكٌ في ثَــراهــا

ونــســيمُ الــفــجــرِ في أشــجــارِهــا
وشَوْشَــاتٌ يُــطربُ الــنــهــرَ صَــداهــا

والــسَّــواقي فِــتَنٌ راقــصــةٌ
ضِــحْكُــهــا شــدوٌ وتــهــلــيلٌ بُــكَــاهــا

والأقــاحي صُــوَرٌ خــلابــةٌ
وأغــاني الــطــيــرِ شِــعْــرٌ لا يُــضَــاهى

إنــهــا الجــنــةُ فــاعــجبْ لامــرئٍ
هــوَ فــيــهــا وقــلــيلاً مــا يَــراهــا

أيــهــا الــمُــعــرِضُ عن أزهــارِهَــا
لكَ، لــو تــعــلــمُ يــا هــذا، شَــذاهــا

أيــهــا الــنــائمُ عن أَنجُــمِــهَــا
خــلَقَ الــلــهُ لِــعــيــنــيْكَ سَــنــاهــا

أيــهــا الــكــابحُ عن لــذّاتِــهــا

---

(١) الحسناء الشابة.

نفسَهُ، هيهاتَ لن تُعطى سِواها
لا تُؤجِّلْ لغدٍ ليس غدٌ
غيرَ يومٍ كالذي ضاعَ وتاها
وإذا لم تُبصِرِ النفسُ المُنى
في الضّحَى كيف تَراها في مَسَاها
هذه الجنةُ فَاسْرحْ في رُباها
واشهدِ السِّحر زهوراً ومِياها
واستمعْ للشِّعر من بُلبلِها
فهْوَ الشّعرُ الذي ليس يُضَاهى

✡✡✡✡

ما أُحيلى الصيفَ! ما أكرمَهُ!
ملأ الدنيا رَخاءً[1] ورَفَاها
عندما ردَّ إلى الأرض الصِّبا
ردّ أحلامي التي الدهرُ طواها
كنت أشكو مثلما تشكو الضَّنى
فشَفَى آلامَ نفسي وشَفَاها

✱✱✱✱

(١) سعة الحال.

٧ - الغد لنا

[الطويل]

تَـــبـــدَّل قـــلـــبي من ضـلالَـــتِه رُشْـــدا
فلا أرَبٌ فـــيه لـــهــنـــدٍ ولا سُـــعْــدَى

ولم تَـخْبُ نـارُ الـوجْـدِ فـيه ولا انـطـوتْ
ولـكن هُـيـامـي صـار بـالأنـفعِ الأجْـدى

ومـا الـزُّهـدُ في شيءٍ سـوى حبِّ غـيـرِه
أشَـدُّ الـورى نُـسْـكـاً أشـدُّهمُ وَجْـدا

أَحبَّ سـواي الـعـيشَ لـهـواً وراحـةً
وأنـكـرته لـهـواً فـأحـبـبـتُه كَـدّا

ومـا دام في الـدنـيـا سُـمـوٌ ورفـعـةٌ
فـمـا أنـا من يَـرضَى ويـقـنعُ بـالأَرْدا

✿✿✿✿✿

هـوَ المـوُت أن نـحـيـا شِـيـاهـاً وديـعـةً
وقـد صـار كلُّ الـنـاسِ مِن حـولـنـا أُسـدا

وأن نـكـتـفي بـالأرض نَـسـرحُ فـوقـهـا
وقـد مـلـكوا من فـوقـنـا الـبرْقَ والـرَّعدا

وأن يـنـشـروا في كلِّ أُفْقٍ بُـنـودَهُم[1]
وألا نـرى فـوق الـسِّـمـاك[2] لـنـا بَـنْـدا

✿✿✿✿✿

(١) الرايات.

(٢) أحد النجمين النيّرين في السماء.

تـأملتُ مـاضـيـنـا المجيـدَ الـذي انـقـضـى

فــزَلـزلَ نــفـسـي أنه انــهــارَ وانْــهَـدّا

وكـيـف امّـحتْ تـلك الـحـضـاراتُ كـلُّـهـا

وصــارتْ بلادٌ أنـبـتَـتْـهَـا لـهـا لَـحْـدا

وصِـرْنـا عـلـى الـدنـيـا عِـيـالاً وطـالما

تـعـلّم مـنـا أهـلُـهَـا الـبـذْلَ والـرِّفـدا

ونـــحـن الألـى كـــان الـحـــريـــرُ بُـــرودَهُمْ

عـلـى حـينَ كـان الـنـاسُ مَـلـبسُـهمْ جِـلـدا

✡✡✡✡✡

إذا الأمسُ لم يــرجِعْ فـــإنَّ لـــنـــا غـــداً

نُـضـيء بـه الـدنـيـا ونمـلـؤهـا حَـمْـدا

وتُـلـبِـسُـنـا فـي الـلـيل آفـاقُهُ سَـنـاً[1]

وتَـنـشـرنـا فـي الـفـجـر أنـسـامُهُ نَـدّا

فـإنَّ نفـوسَ الـعُـرْبِ كـالشُّـهبِ، تـنـطـوي

وتَـخـفـى، ولـكن لـيس تَـبـلَى ولا تَـصْـدا

ومــثلُ الـــلآلي لا يـــخـيسُ جـمـــالُـــهـا

وإنْ هـي لم تُـرْصَـفْ ولم تَـنـتـظِم عِـقْـدا

إذا اخـتَـلـفتْ رأيـاً فـمـا اخـتـلَفتْ هـوىً،

أوِ افـتـرقتْ سَـعْـيـاً فـمـا افـتـرقتْ قَـصْـدا

****

(١) النور.

٨ - قنبلة الفناء

[المتقارب]

إذا سَحقتْ أرضَنا القُنبُلَهْ
كما يسحقُ الحجرُ الخَرْدَلَهْ

وقوَّضَ مفعولُها الراسيات
فصارتْ غُباراً له جَلْجَله

ودَبَّ الفنا في ذوات الجَناح
وغَلْغل في النَّبْتِ فاسْتأصَله

وفي الماشياتِ وفي الزاحفات
عليها، إلى آخر السِّلسله

فلا زَهْرَ يأرَجُ[1] في روضة
ولا ديكَ يَصدحُ في مَزْبله

وضاعَ الزمانُ ومقياسُهُ
وأشبَهَ آخرُه أوَّلَه

ولم يبق حيٌّ على سطحها
وأصبح عزريلُ لا شُغلَ لهْ

فذلكَ خطبٌ يهولُ النُّفوسَ
تصورُه قبل أن تَحمله

ولكنّ أمراً يعزِّي الجميع
إذا سَحَقت أرضَنا القنبله

فلنْ يدعَ الموتُ حيَّاً يلوم
سِواه على هذه المَقْتلهْ!

****

---

(١) أرج الطيب: فاح (أرَج - يأرِج).

٩ - تلك السنون

[الكامل]

في حفلة اليوبيل الفضي لجريدة «السمير»

تـلك الـسـنـونَ الـغـاربـاتُ ورائي
سِـفْـرٌ كـتـبتُ حـروفَهُ بـدمـائي
مـا عـشـتُـهـا لأَعُـدَّهـا، بل عِـشـتُـهـا
لـتـبـيـنَ في سـيـمَـائـهـا سِـيـمَـائي
سَـيَّـانِ، لـو أني قـنِـعتُ بِـعـدِّهـا،
عـمـري وعـمـرُ الـصـخـرةِ الـصَّمّـاءِ
ولَـبَـذَّني يـومَ الـتَّـفـاخـرِ شـاطئٌ
مـا فـيه غـيـرُ رمـالِهِ الخـرسـاء
لاحتْ ليَ الـعـلـيـاءُ في آفـاقِـهَـا
فَـأَردْتُّـهـا دربـاً إلى الـعـلـيـاء
ومـحـبـةً لـلـخـيـرِ تَـسـري في دمي
ورعـايـةً لـلـضَّـعفِ والـضُّـعـفـاء
وعـبـادةً لـلـحـق أين وجـدتُهُ
والحـسـنِ في الأحـيـاء والأشـيـاء
لـتـدورَ بـعـدي قـصـةٌ عن شـاعـرٍ
رقـصَتْ به الـدنـيـا جـنـاحَ ضـيـاء
نَـشَـرَ الـطـيـوبَ عـلى دروبِ حـيـاتِه
وسَـرَى هـوىً في الـطـيب والأنْـداء
وأطلَّ من قـلـب الـبـخـيلِ سـمـاحـةً
وشـجـاعـةً في الـسِّـلْم والـهـيـجـاء

ومــشى إلى المــظــلــوم بــارقَ رحــمــةٍ
وهـــوى عـــلى الـــظُّلاَّمِ سَـــوْطَ بلاء
فـــتــعِـــزُّ دنــيـــا قـــد طــوتْ آبـــائي
وتـــهَشُّ دنـــيـــا أطـــلـــعتْ أبـــنـــائي

☼☼☼☼☼

تـلك الـسـنـونَ ببـؤسِـهـا ونـعـيـمِـهَـا
مـــالتْ بـــعـــودي وانـــطـــوتْ بـــرُوائي[1]
أيـن الـــشَّـــبـــابُ ألُـفٌ أحـلامـي بـه
لـــيس الـــشَّـــبـــابُ الآن لـي بِـــرداء
نــفــسـي تُــحسُّ كــأنـمــا أثــقــالُــهــا
قــد خُــيِّـرتْ فــتــخــيَّــرتْ أعــضــائي
كم من رؤىً طــلــعتْ عــلى جــنَــبَــاتِــهــا
رَكْـــبـــاً من الأضـــواء والأشـــذاء
قــلَّـبتُ فــيــهــا، بَــعْــدَ لَــأيٍ، نــاظــري
فــتَــعــثَّــرتْ عــيــنــاي بــالأشلاء
يــا لَــلــضــحــايــا، لا يــرِفُّ لمــوتِــهــا
جــفنٌ، ولا تُــحــصَى مع الــشــهــداء
ودَّعتُ لـــذّاتِ الـخــيـــال وعِـــفْــتُـــهـــا
ورضِـــيتُ أن أشـــقى مع الحُـــكــمـــاء
فـــعـــرفتُ مـــثـــلـــهمُ بـــأني مُـــوجِـــدٌ
بـــؤسـي، وأني خـــالـقُ نَـــعْـــمـــائي

☼☼☼☼☼

إني أراني بـــعـــد مـــا كـــابـــدتُهُ
كـــالـــفُـــلْكِ خـــارجـــةً من الأنْـــواء

---

(١) الرُّواء: حسن المنظر.

وكسائحٍ بلغَ المدينةَ بعدما
ضلَّ الطريق وتاه في البَيداء
شكراً لأصحابي فلولا حبُّهمْ
لم اقتربْ من عالَم اللألاء
بهمُ اقتحمتُ العاصفاتِ بمركبي
وبهمْ عقدتُ على النجوم لوائي

✡✡✡✡

شكراً لأعدائي فلولا عَيْثُهمْ
لم أدر انهمُ من الغَوغَاء
نهشَ الأسى لما ضحكتُ قلوبَهمْ
عِرْسُ المحبةِ مأتمُ البغضاء
ذنبي إلى الحُسّادِ أني فُتُّهم
وتركتهمْ يتعَثْرونَ ورائي
وخطيئتي الكبرى إليهم أنهم
قَعَدوا ولم أقعدْ على الغَبْراء(١)
عفوَ المروءةِ والرجولةِ، إنني
أخطأتُ حين حسِبتُهمْ نُظَرائي

✡✡✡✡

شكراً لكلِّ فتًى مزجتُ بروحهِ
روحي، فطابَ ولاؤُهُ وولائي
من كان يحلُم بالسماء فإنني
في قلب إنسانٍ وجدتُ سمائي
ليس الجمالُ هو الجَمالَ بذاته
الحُسنُ يوجدُ حين يوجدُ راءِ

---

(١) الأرض.

مـا الـكـونُ؟ مـا في الـكـونِ لـولا آدمٌ
إلا هَـبـاءٌ عـالقٌ بَـهـبـاء
وأبـو الـبَـريَّـةِ مـا أبـانَ وجـودَهُ
وأتمّ غـايـتَهُ سِـوى حـوَّاء
إني سكـبتُ الخـمـرَ حـين سكـبتُـهَا
لـلـنـاس، لا للأنجُمِ الـزَّهـراء
لا تـشـربُ الخـمـرَ الـنجـومُ وإن تـكُنْ
مـعـصـورةً من أنـفُسِ الـشُّـعـراء

✡✡✡✡✡

تـلك الـسُّـنونَ. عـقـيمُـهَا كـولَـودِهَا
حـلْـوٌ لـديَّ. كـذا يَـشـاءُ وفـائي
فـالـلـيلـةُ الـعَـسـراءُ من عـمـري و عُـمْـ
ـرِ الـدهـر مـثل الـلـيلـةِ الـسَّـمحـاء
يـا مَن يـقـول: « ظـلـمتَ نـفـسَكَ فـاتَّـئِدْ»
دعـني فـلـستَ بـحـاملٍ أعـبـائي
إن الحـيـاةَ الـروحُ بـعضُ عـطـائـهـا
وأنـا ثـمـارُ الـروحِ كلُّ عـطـائي
مـا الـعـمـرُ؟ إنْ هُـوَ كـالإنـاء، وإنـني
بـالـطـيِّب الـغـالي ملأتُ إنـائي
فـإذا بـقـيتُ فـلـلـجـمـالِ بـقـائي
وإذا فـنِـيتُ فـفـي الجـمـالِ فَـنَـائي

✡✡✡✡✡

لـلـه مـا أحـلى وأسـنى لـيـلَـتي
هيَ في كـتـابِ الـعـمـرِ كـالـطُّـغَـراء[1]

(١) الطّرّة في رأس الكتاب، تتضمن النعوت والألقاب.

يـا صـحبُ لن أنـسى جـمـيلَ صـنـيـعِـكُمْ

حـتى تـفـارقَ هـيـكـلي حَـوْبـائي[1]

وتـقـول عـيـني «قـد فـقـدتُ ضـيـائي»

ويـقـول قـلـبي « قـد فـقـدتُ رجـائي»

****

(١) النفس.

١٠ - امتنان

[الخفيف]

في حفلة ميلاد ديوانه (الخمائل)

مــا لــقــلــبيْ يَــلِجُّ في الخــفَــقَــانِ

لا أنـــا عـــاشقٌ ولا أنـــا جَـــانِ

ابــتــغي أن أقــولَ شــيــئــاً فــيَــعْــصَــا

ني لــســاني، والــسِّــحــرُ تحت لــســاني

أنــا كــالــطــائــر الــذي انــدفق الــسِّــحـ

ــــر عـــلـــيه، فـــغَصّ بـــالألحـــان

أو كــفُــلْكٍ في الــبــحــر أوفى عــلــيــهــا

عــارضٌ[1] بــعــد عــارضٍ هــتّــان

غــلــبــتــني عــواطفُ الــصَّــحْبِ حــتى

صِــرتُ في حــاجــةٍ إلى تَــرْجَــمــان

أين في مـــوكب الـــقـــريضِ لـــوائي

قـــد طـــواهُ بـــيـــانُـــهُمْ وطـــواني

أيُّـــهـــا المـــادحـــونَ خَـــمـــري رويـــداً

مـــنـــكمُ الخَـــمـــرةُ الـــتي في دِنـــاني

من أنـا؟ مـا صـنـعتُ كي تـعصِبوا بـالـتّـ

ــتَـــاجِ رأسي، وأيُّ شـــانٍ شـــاني؟

لا افْـتِـخـارٌ لِـنَـحـلـةٍ وجـدتْ حَـقْـلاً

فــعـــادت من زهـــره بـــالـــمَـــجـــاني(٢)

---

(١) العارض: السحاب يعترض الأفق.

أنَــا مِن روضِــكُمْ قــطــفتُ أزاهِـــيـ
ــرِي، ومِن بــحــرِكُمْ غــرفتُ جُــمــانـي

إنْ أكنْ فـــرقَـــداً فـــأنـــتمْ ســـمـــائي
أو هَـــزاراً فـــأنـــتمُ بُـــســـتـــانـي

أيُّ بِـــدْعٍ إن أخـــرَجَ الحـــقلُ لـــلـــنَّـــا
سِ صُـنـوفَ الـنـبـاتِ في نَـيْـسـان؟

لـــيس لي من قـــصـــائـــدي غـــيـــرُ أوزا
نٍ، ولـــيـــست أصـــيـــلـــةً أوزانـي

أصـــدقُ الـشِّـعـرِ في الحـيـاة وفـيـكُمْ،
لـــيس غـــيـــرُ الأظلال[1] فـي ديـــوانـي

☆☆☆☆☆

مـــا هـــوَ الـــشِّـــعـــرُ؟ إنـــني مـــا رأيت اثْـ
ـــنـــينِ إلا وفـــيه يـــخـــتـــصـــمـــانِ

قـــال قـــومٌ: «وحيٌ يُـــنـــزِّلُهُ الـــلـ
ـهُ»، وقـومٌ: «نَـفْثٌ من الـشَّـيـطـان»

ضَلَّ هـــذا وذا، فـــمـــا حَـــفَـــزَ الإنـ
ـسـانَ شيءٌ لـلـشِّـعـر كـالإنـسـان

يـــعـــشقُ المـــرءُ ذاتَه في ســـواهُ
ويـــحـــبُّ «الإنـــســـانَ في الأكـــوان

أنـــا من أجـــلـهِ بـــنـــيتُ قُـــصـــوري
وفـــرشْتُ الـــدروبَ بـــالـــرَّيـــحـــان

أنـــا من أجـــلـه ســـكـــبتُ خُـــمـــوري
وشَـــددتُ الأوتـــارَ في عِـــيـــدانـي

أنـــا من أجـــلـه رجـــعتُ من الـــرَّو
ضَـــةِ، في راحـــتـيَّ، بـــالألـــوان

---

(١) يجمع الظل على ظلال وأظلال وظلول.

واستعرْتُ التهليلَ من جدول الوا
دي، وضحْكَ الرِّضَا من الغُدران
ومنَ الشَّمسِ في الأصائلِ والأصْـ
ـباحِ[1] ذوبَ اللُّجينِ والعِقيان[2]
وحَملتُ الجلالَ من أرضِ (سوريْـ
ـيَا) إليه، والسِّحرَ من (لبنان)
نحن أهل الخيالِ أَسْعَدُ خلق الـ
ـه، حتى في حالةِ الحِرمان
كم زهدنا بثروةٍ من نُضارٍ
وقنِعنا بثروةٍ مِن أماني
وانطوينا في موكبٍ مِن ضياءٍ
وسَطَعْنا في غمرةٍ من دُخان
نتراءى على الصَّعيد صـ
ـعاليكَ ولكنْ أرواحُنا في العَنان[3]
إن ظَمِئنا وعَزَّ أن نَرِدَ الما
ءَ روانا تصوُّرُ الغُدران
وإذا غابت النجومُ اهتدينا
بالرُّؤى، بالرَّجاء، بالإيمان
لا يَعُد الورى علينا الليالي
نحن قومٌ نعيشُ في الأزمان

☆☆☆☆☆

رُدَّ عني الكؤوسَ يا أيُّها السّا
قي، فَرُوحي نشْوَى بخمرِ المعاني

---

(١) جمع (الصبح).

(٢) اللجين: الفضة، والعقيان: الذهب الخالص.

(٣) الصعيد: الأرض المرتفعة أو الأرض إطلاقاً. والصعلوك: الفقير الذي لا اعتماد له. والعنان هنا: السحاب.

بالقوافي (جداولاً) من وفاءٍ
والأغاني (خَمائلاً) من حنانِ
زَهَدَ الناسُ حين دارتْ عليهمْ
بالَّتي في كؤوسهمْ والقَناني
أيُّها الليلُ! أنت أبهى من الفَجْـ
ـرِ وإن كنت أسْودَ الطَّيلسَان
بالوجوهِ الزهراءِ، بالأنفسِ السَّمْـ
ـحاء، من يَعْرُبٍ ومن غسَّان
بملوكِ البيان، بالأدبِ الرَّا
ئعِ، بالمُنشدينَ، بالألحان
بالغَواني، فديتهنَّ، فأسمى الشْـ
ـشِعْرِ والفنِّ في الحياة الغواني
هذه الشَّمسُ هل رأى الناسُ وجهاً
مثلَهَا في البهاءِ واللمَعان
تتجلَّى لنا على اليُسْرِ والعُسْـ
ـرِ ونمشي في نورها الفَتَّان
قد نسينا شعَاعَها وسَناها[1]
عندما أشرقتْ وجوهُ الحِسَان
قُسِّمَ الدهرُ: أنت يا ليلُ شطرٌ
مِن حياتي، والعُسْرُ شطرٌ ثان
أنت عصرٌ مُسْتَجمَعٌ في سُويعا
تٍ، ودنيا رحيبةٌ في مكان
قد تلاقت فيك القلوبُ على الحُبْـ
ـبِ تلاقي الأجفان بالأجفانِ

(١) الضوء والنور.

لا تــــقـــولـــوا دقـــائقٌ وثـــوانٍ
ذاهــبــاتٌ فــالـعــمــرُ هــذي الــثَّــواني

✡✡✡✡✡

أنــا مــا عِـشتُ سوف أذكـرُ بـالـشُّـكـر
رِ جـــمـــيلَ الـــرفـــاقِ والإخـــوان
وإذا مِـتُّ في غـــدٍ فـــســـيـــأتـــيـ
ـــكمْ ثـنـــائي من ظُـلـمـةِ الأكـفـان

****

١١ - اسألوها

[الخفيف]

اِسْـألـوهـا، أو فـاسـألـوا مُـضْـنَـاهـا:
أيَّ شيءٍ قــالت له عــيــنــاهــا؟
فــهــوَ في نــشــوةٍ ومــا ذاقَ خــمــراً
نــشــوةُ الحبِّ هــذه إيــاهــا
ذاهلُ الـطَّـرفِ شـاردُ الـفـكـرِ، لا يـلـ
ـمَح حـسـنـاً في الأرض إلا رآهـا
الـسَّـواقي لـكي تحـدِّثَ عـنـهـا
والأقـاحي لـكي تـذيعَ شَـذاهـا
وحَـفـيفُ الـنَّـسـيم في مَـسْـمَع الأو
رَاقِ نجـوى تـبـثُّـهـا شـفـتـاهـا
يـحـسَبُ الـفـجـرَ قبْـسـةً من سـنـاهـا
ونجـومَ الـسَّـمـاء بـعضَ حُلاهـا
وكـذاك الـهـوى إذا حلّ في الأر
واح، سـارت في مـوكبٍ من رؤاهـا
كـان يـنـهى عن الـهوى نـفسَه الـظَّمْـ
ـآى، فـأمـسى يـلـومُ من يَـنـهـاهـا
لسَ الحبُّ قـلـبَه فـهـو نـارٌ
تـتـلـظَّى ويـسـتـلِـذُّ لَـظـاهـا!
كلُّ نـفسٍ لم يـشـرقِ الحبُّ فـيـهـا
هيَ نـفسٌ لم تـدرِ مـا مـعـنـاهـا

****

١٢ - أم القرى

[الرمل]

هذه « ملفردُ »[1] قد لاحتْ رُبَاها
فانسَ يا قلبُ الليالي وأذاها

واشهدِ الفنَّ سُفوحاً وذُرًا
والهوى الصَّافي أريجاً ومياها

ههنا أودعتُ أحلامَ الصِّبا
أفَما تلمحُ نوراً في ثراها؟

ههنا بالأمسِ في دارتِهَا
كنتُ مثلَ النَّسْرِ حُراً في ذُراها

أتلقى الوحيَ عن بلبلِهَا
وهو ولهانُ يغني لرُباها

وتُحسُّ الوحيَ روحي هابِطاً
من سماها، في ضحاها ومساها

ذهبَتْ عشرون في فُرقَتِهَا
ليتها فيها انقضتْ لا في سواها

كم جلسنا تحت صفصافتِهَا
اشتكي وجْدي، وتشكو لي هواها

والسَّواقي استترتْ إلاّ غِناها
والروابي هجَعتْ إلا شَذاها

والصَّدى في الغاب لم ننبِسْ معاً
نبْسةً إلا وعاها وحكاها

---

(١) هي ملفرد في ولاية بنسلفانيا حيث أقام الشاعر في صباه، وخطب فتاة أحلامه، وعاد إليها في فصل الشتاء.

نــتــنَــاجَى ويــدي في يــدِهــا
فــإذا لاحَ خــيــالٌ نــتَلاهَى

أنــا دنــيــا من شــبــابٍ وهــوىً
وهي كــالــروضــة قــد تــمتْ حَلاهــا

أحــسنُ الأيــامِ في الــعــصــر انــقــضَتْ
آه لــو يــنــشــرُهَــا مَن قــد طــواهــا

صــرتُ في نــيــويــوركَ طــيــفــاً شــارداً
مع طــيــوفٍ حــائــراتٍ في سُــراهــا

طــرحتْ عــنــهــا رؤاهــا ومــضتْ
تــنــشــدُ المجَــد الــذي فــيه شــقــاهــا

كــنــعــاجٍ عــمــيَتْ أبــصــارُهَــا
ووهتْ في طــلــب الــعُــشبِ قُــواهــا

كــلَّــمــا جَــدَّتْ لــكي تــدركَهُ
وجَــدَتْهُ صــار في الأرض وراهــا!

أين في نــفــسي رؤىً تُــســعِــدُهَــا؟
سـرقتْ (نـيـويـوركُ) من نــفــسي رؤاهــا

في يــدي أمــري ولا أمــلِــكُهُ
ومــعي ذاتي وأخــشى أن أراهــا!

هــذه « أم الــقــرى » قفْ في حِــمــاهــا
تــســتــرحْ نــفــسيَ من بــعض جَــواهــا

هــهــنــا الإنــســانُ يــلــقَى ذاتَهُ
هــهــنــا لا يــحــجُبُ المــالُ الإلــهــا

لا تــقلْ لي جــئــتَــهــا عــاريــةً
فَــقْــرُهــا عــنــدي جــمــيلٌ كــغِــنــاهــا

لم يــزلْ لــلــصَّــيف فــيــهــا عَــبَقٌ
وسمــاءُ الــصَّــيف مــا زالتْ ســمــاهــا

لا يـــــزالُ الحـبُّ فـي شَـلاّلِـــــهَـــــا
وبــواديــهــا حــديــثــاً وانــتــبــاهــا
لـم يــجــرِدْهــا الــشِّــتــا من وَشْــيِــهــا
بل كــســاهــا روعــةً فــوق بــهــاهــا
فـــهــيَ في ديــبــاجــةٍ من صِـــبْـــغِه
مــا رآهــا أحــدٌ إلا اشــتَــهَــاهــا

****

١٣ - «من اشتهى الخمر فليزرع دواليها»

[البسيط]

خُذْ ما استطعتَ من الدنيا وأهليها
لكنْ تعلَّمْ قليلاً كيف تُعطِيها
كُنْ وردةً طيبُهَا حتى لسارقِها
لا دمنةً[١] خُبْثُها حتى لساقيها
أكانَ في الكون نورٌ تستضيءُ به
لو السماءُ طوتْ عنّا دراريها
أو كان في الأرض أزهارٌ لها أَرَجٌ
لو كانت الأرضُ لا تُبدي أقَاحِيها[٢]
إن الطيورَ الدُّمى سِيَّانِ في نظري
والوُرْقُ إن حُبسَتْ هذي أغانيها
إن كانت النفسُ لا تبدو محاسنُهَا
في اليُسرِ صار غناها من مخازيها

✲✲✲✲✲

يا عابدَ المالِ قُلْ لي هل وجدتَ به
روحاً تؤاسيكَ أو روحاً تؤاسيها
حتّامَ يا صاحِ تُخفيهِ وتَطمُرُهُ
كأنما هو سوءاتٌ تُواريها؟
وتحرِمُ النفسَ لذاتٍ لها خُلقتْ
ولم تصاحبْكَ يا هذا لتُؤذيها

---

(١) من معاني الدِمنة: الأثر، والضغينة، وبقية الماء في الحوض.

(٢) الأرَج: توهج ريح الطيب (أرِج - يأرج).

انظرْ إلى الماء إنّ البذلَ شيمتُهُ

يأتي الحقولَ فيَرويها ويُحييها

فما تعكَّر إلا وهو مُنحَبِسٌ

والنفسُ كالماء تَحكيه ويَحكيها

السّجنُ للماء يؤذيه ويُفسدُهُ

والسّجنُ للنفس يؤذيها ويُضْنيها

وانظرْ إلى النَّارِ إنّ الفَتْكَ عادتُها

لكنّ عادتَها الشنعاءَ تُرديها

تُفني القُرى والمغاني وهي ضاحكةٌ

لجَهلِها أن ما تُفنيه يُفنيها

أرسلتُ قولي تمثيلاً وتشبيهاً

لعلَّ في القول تذكيراً وتنبيها

لا شيءَ يُدرَكُ في الدنيا بلا تعَبٍ

مَنِ اشتهى الخمرَ فليزرعْ دَواليها

****

١٤ - ستعود دنيانا أحبَ وأجملا

[الكامل]

لم أنسَ حينَ مشتْ إليّ تلُومُني
لمّا رأتني باسماً مُتَهلّلا

قالتْ: أتطربُ والمنايا حُوَّمٌ
في الأرض، كيف رمَتْ أصابتْ مقْتَلا

انظرْ فقد خَلَتِ البيوتُ من الشَّبا
بِ ولا جمالٌ لمنزلٍ منهم خلا

فسألتُها: أو ليس من أجل العُلا
وهَنائِنا خاضوا الوغى؟ قالت : بلى

يا هذه أإذا بكيتِ لبُعْدهمْ
يتبسمونَ؟ أجابتِ الحسناءُ : لا

كُفِّي المَلامَ إذن، فما أنا جاهلٌ
ما تعلمينَ، وكيف لي أن أجهلا

لكنْ بعثتُ الفكرَ في آثارهمْ
في البحر، في الأجواءِ، في عُرْضِ الفلا

فرأيتُ نورَ المجدِ فوق بنودهمْ
ورأيتهمْ يمشونَ من نصرٍ إلى ..

سدّوا على الباغي المسالكَ كلَّها
فالموتُ إنْ ولّى وإن هوَ أقبلا

فـإذا شَـمـمتِ الـيـومَ رائـحـةَ الـدِّمـا

ءِ وطـالـعتْ عـيـنـاكِ آثـارَ الـبِـلى

فـاسْـتبـشِـري فـغداً إذا الـنَـقْعُ[1] انجلى

سـتـعـودُ دنـيـانـا أحبَّ وأجـملا

****

(١) الغبار.

١٥ - رؤيا

[الكامل]

رؤيا مَنامٍ.. رُبَّ حُلْمٍ في الكَرَى
فيه تلوحُ حقائقُ الأشياءِ
إني حَلَمتُ كأنَّما أنا سائرٌ
في روضةٍ خلاّبةٍ غنَّاء
النورُ مفروشٌ على طُرقاتِها
والعطرُ في النسماتِ والأفياء
والعشبُ فيها سُندسٌ متموِّجٌ
والجوُّ أضواءٌ على أضواء
وإذا بصوتٍ كالهَرير[1] يطِنُّ في
أذني، وأنيابٍ تُصرُّ ورائي
فأدرتُ طَرْفِي باحِثاً مُتعجباً
ممَّا سَمعتُ. ولستُ في بيْداء
فإذا ورائي في الحديقةِ نابحٌ
ضاري المَحاجرِ ضامرُ الأحشاء
كادتْ تُطِلُّ عُروقُه من جِلْدِه
وتُطلُّ معْها شهوةٌ لدمائي
أشفقتُ يعلَقُ نابُه بردائي
فرَفَسْتُه غَضَباً فطار حذائي

(١) هرير الكلب: صوته دون نباحه.

فـــطــوَى نــواجِــذَه عـــلـــيه كـــأنمـــا
عــضّتْ نــواجِــذُهُ عـــلى الـــعــنــقــاء[1]!
ومـــضى به لـــرفـــاقِه فـــتـــهــلّـــلـــوا
وتـــقـــاســمُـــوُه فـــكـــان خـــيــرَ عـــشـــاء!
لا يـــعـــجــبنْ أحـــدٌ رآني حـــافـــيـــاً
أبـــلَتْ نـــعـــالي ألـــسُنُ الـــسُّــفــهـــاء!

****

(١) طائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم ! أو الداهية عموماً.

١٦ - رؤيا ثانية

[الكامل]

وحــلَــمتُ ثــانــيــةً، وكــان الــكــونُ لم
تــبــرحْ عــلــيه كَلاكلُ[(١)] الــظَّــلــمَــاءِ

أنــي رأيتُ جَــــرادةً مَـــطْــــروحــــةً
في سَــبْــخَــةٍ[(٢)] مــنــهــوكــةَ الأعــضــاء

تــرنــو إلى الأُفُق الــبــعــيــدِ بمُــقــلــةٍ
كـــلْــــمَى، وتــــشــــتِمُ أنجمَ الجــــوزاء

فــســألــتُــهــا: مــاذا عَــراكِ فــلم تُــجبْ
فــســألتُ عــنــهــا زُمــرَةَ الــرُفــقــاء

قــالــوا: رفــيــقَــتُــنــا شــهــيــدةُ هُــزئِــهــا
بــنــصــائحِ الــعُــقلاءِ والحــكــمــاء!

كـــانت إذا جــاعتْ فــحــبَّــةُ خــردَلٍ
تــكــفي، وإن عــطــشتْ فــنــقــطــةُ مــاء

ســمــعتْ بــنــهــرٍ في الــسَّــمــاء وَجــنَّــةٍ
لــيــست لــتَــصــويحٍ[(٣)] ولا لــفــنــاء

الــعــطــرُ في أثــمــارهــا، والــشَّــهْــدُ في
أنــهـــارهـــا، والــسِّــحــر في الأنــداء

فــاســتــنــكَــفتْ أن تــســتــمرَّ حــيــاتُــهَــا
في الأرض جــاثــمــةً عــلى الأقـــذَاء

---

(١) الكلكل والكلكال: الصدر.

(٢) الأرض السبخة: ذات ملح ونزّ.

(٣) صوّح النبت: تمّ يُبسه.

فـمـضـتْ تحـلِّقُ في الـفـضـاءِ، ولـم تـزلْ

حـتى وهَتْ، فـهـوتْ إلى الـغَـبـراء[1]

رجـعتْ إلـى الـدنـيـا الـتي خُـلِـقَتْ لـهـا

لـم تُـخْـلـقِ الـحـشـراتُ لـلأجـواء

هـذي حـكـايـتُـهَـا وفـيـهـا عِـبْـرةٌ

لـلـطـائـشـينَ كـهـذهِ الحَـمـقـاء

****

(١) الأرض.

١٧ - أيلول الشاعر

[الكامل]

من قصيدة يصف بها المناظر الرائعة التي مر بها في طريقه إلى مونتريال

الحُسْنُ حولكَ في الوهاد وفي الذُّرا
فانظرْ، ألستَ ترى الجمالَ كما أرى؟

«أيلول» يمشي في الحقول وفي الرُّبا
والأرضُ في أيلولَ أحسنُ منظرا

شهرٌ يوزِّعُ في الطبيعةِ فنَّهُ
شجراً يُصفِّقُ أو سَناً مُتَفجِّرا

فالنَّوْرُ[1] سِحْرٌ دافقٌ، والماءُ شِعرٌ
رائقٌ، والعِطْرُ أنفاسُ الثَّرَى

لا تحسَبِ الأنهارَ ماءً راقِصاً
هذي أغانيه استحالتْ أنهُرا

وانظرْ إلى الأشجار تخلعُ أخضراً
عنها، وتلبسُ أحمراً أو أصفرا

تَعْرَى وتُكسَى في أوانٍ واحدٍ
والفنُّ في ما ترتديه وفي العَرا

فكأنَّما نارٌ هناك خفيَّةٌ
تنحلّ حين تهُمُّ أن تستَشعِرا[2]

وتذوب أصباغاً كألوان الضُّحى
وتموجُ ألحاناً وتَسري عَنْبرا

(١) زهر الشجر الأبيض.

(٢) تهمّ أن تنعقد وتشبّ.

صورٌ وأطيافٌ تلوحُ خفيفةً
وكأنها صورٌ نراها في الكرى
لِلهِ من « أيلولَ « شهرٌ ساحرٌ
سبقَ الشهورَ وإنْ أتى متأخِرا
من ذا يُدبِّجُ أو يَحوكُ كَوَشْيِهِ
أو من يصوِّرُ مثلما قد صَوّرا؟
لمسَتْ أصابعُهُ السماءَ، فوجهُها
ضَاحٍ ومَرَّ على الترابِ فنَوّرا
ردَّ الجلالَ إلى الحياةِ وردَّني
من أرضِ نيويوركٍ إلى أمِّ القُرى[1]

****

(١) هي (ملفرد) في ولاية بنسلفانيا. انظر النص السابق رقم ١٢

١٨ - يا رفاقي

[الرمل]

القصيدة التي ألقاها الشاعر في حفلة تكريم الدكتور ظافر الرفاعي وزير خارجية سوريا والدكتور فريد زين الدين سفير سوريا في واشنطن ومندوبها الدائم في الأمم المتحدة.

جُـعتُ والخـبـزُ وفـيـرٌ في وِطَـابي[١]
والـسَّـنـا حـولي، وروحي في ضـبـابِ
وشـربتُ المـاءَ عـذْبـاً سـائـغـاً
وكـأنـي لم أذُقْ غـيـرَ سـراب
حـيـرةٌ لـيس لـهـا مـثْلٌ سـوى
حَـيْـرَةِ الـزورقِ في طـاغي الـعُـبـاب
لـيس بي داءٌ ولـكـنـي امـرؤٌ
لـستُ في أرضي ولا بـينَ صِـحـابي
مَـرّتِ الأعـوامُ تـتـلـو بـعـضَـهـا
لـلـورى ضِـحْكي، ولي وحْدي اكْـتِـئـابي
كـلّـمـا اسْـتَـولـدتُ نـفـسـي أملاً
مـدَّتِ الـدنـيـا لـه كفَّ اغـتِـصَـاب
أفـلَـتتْ مـنـي حـلاَواتُ الـرُّؤى
عـنـدمـا أفـلـتَ من كـفّي شـبـابي
بِتُّ لا الإلـهـامُ بـابٌ مُـشْـرَعٌ
لـي، ولا الأحـلامُ تـمـشـي في رِكَـابي

(١) الوطب والوطاب: سقاء اللبن. يريد: وعاء الزاد.

أشـتـهي الخـمـرَ وكـأسي في يـدي
وأحسُّ الـروحَ تَـعـرَى في ثـيـابي
يـا رفـاقي! حـطِّـمُـوا أقـداحَـكُمْ
لـيس في دَنّيَ خـمـرٌ لانْـسِـكـاب
جَفَّ ضَـرْعُ الـشِّـعـرِ عـنـدي وذوَى
ولـكَمْ عـاش لِـمَـرْيٍ[1] واحْـتِلاب

✡✡✡✡✡

أيـهـا الـسـائلُ عـنّي مَن أنـا؟
أنـا كـالـشـمسِ إلى الـشّـرقِ انـتـسابي
لـغـةُ الـفـولاذِ هـاضتْ[2] لـغـتي
لا يـعـيشُ الـشـدْوُ في دنـيـا اصْـطِـخـاب
لـست أشـكـو إن شـكـا غـيـري الـنَّـوى
غـربـةُ الأجـسـامِ لـيـست بـاغـتـراب
أنـا كـالـكَـرامَـةِ لـو لم تـغـتَـربْ
مـا حـواهـا الـنـاسُ خـمـراً في الخـوابي
أنـا كـالـكَـرمـةِ لـو لم تـغـتـربْ
مـا حـواهـا الـنـاسُ خـمـراً في الخَـوابي
أنـا كـالـسَّـوسنِ لـو لم يـنـتـقلْ
لم يُـتـوّجْ زهـرُهُ رأسَ كَـعَـاب[3]
أنـا في نـيـويـوركَ بـالجـسم وبـالـرْ
رُوحِ في الـشـرق عـلى تـلك الـهـضـاب
في ابـتـسـامِ الـفـجـرِ، في صـمتِ الـدُّجى
في أسى تَـشـرينَ، في لـوعـةِ آبِ

---

(١) مرى الضرع: مسحه ليدرّ.
(٢) هاض الشيء هيضاً: كسره.
(٣) المرأة كَعَب ثديها (ظهر)، فهي كاعب وكَعَاب.

أنـــا فـي الـــغُـــوطـــةِ زَهـــرٌ ونَـــدىً
أنـــا في « لــبـنـانَ » نَــجْــوى وتَــصَــابِ
ربِّ هَـــــبْـــــنـي لـــــبلادي عَـــــودةً
ولْــيـكنْ لــلــغـيــر في الأُخــرى ثــوابي

✡✡✡✡

أيُّـــــهـــــا الآتُـــــونَ من ذاك الحِـــمَى
يــا دُعــاةَ الخَــيــرِ يــا رمــزَ الــشَّــبـاب
كم هَــشَــشْـنــا وهــشــشــتُمْ لــلــمـنى
وبــكَــيــتمْ وبــكــيــنـــا في مُــصـــاب!
واشـــتــركـنـــا فـي جِـــهـــادٍ أو عـــذابٍ
والْـــتَــقـــيـــنـــا في حـــديثٍ أو كـــتـــاب
وعـــرفـــتمْ وعـــرَفـــنـــا مـــثْـــلَـــكُمْ
أنَّـــمـــا الحقُّ لـــذي ظُـــفْـــرٍ ونـــاب
كلُّ أرضٍ نـــام عـــنـــهـــا أهـــلُـــهـــا
فـــهـيَ أرضٌ لاغْـــتِـــصـــابٍ وانـــتِـــهـــاب
إنـــــــني ألمحُ فـي أوجـــــــهـــــــكُمْ
دفْـــقَـــةَ الـــنُّـــورِ عـــلـى تـــلك الـــرَّوابي
وأرى أشـــــبـــــاحَ أعـــــوامٍ مـــــضَـتْ
فـي كـــــفـــــاحٍ ونـــــضـــــالٍ ووثِـــــاب
وأرى أطـــــيـــــافَ عـــــصـــــرٍ زاهـــــرٍ
طـــالعٍ كـــالــشــمس من خـلْــفِ الحِــجـاب
لـــــيـــــتَه يُـــــســــــرِعُ كي أُبـــصـــرُه
قـــبلَ أن أغـــدو تـــرابـــاً في الـــتُّـــراب

✱✱✱✱

١٩ ـ لوس أنجيلوس

[الكامل]

القصيدة التي ألقاها الشاعر في «الحفلة التكريمية» التي أقيمت على شرفه في لوس أنجيلوس، برعاية الجمعية السورية اللبنانية، في فندق أمباسادور.

أنا لستُ في دنيا الخيالِ ولا الكرَى
وكأنني فيها لِروْعَةِ ما أرى
يا قومُ هل هذي حقائقُ أم رؤىً
وأنا؟ أصاحٍ أم شربتُ مُخدِّرا؟
لا تعجبوا من دَهشتي وتَحيُّري
وتعجَّبوا إنْ لم أكنْ مُتَحيِّرا
كيفَ التَفَتُّ رأيتُ آيةَ شاعرٍ
لَبِقٍ تعمَّدَ أن يُجيدَ ليَبهَرا
مَسحتْ بإصبَعها الحياةُ جفونَهُ
فرأى المحاسنَ فانتقى وتخيَّرا
ما «لوس أنجيلوس» سوى أنشودة
اللهُ غنَّاها فَجُنَّ لها الورَى
خلعَ الزمانُ شبابَهُ في أرضها
فهوَ اخضِرارٌ في السُّفوحِ وفي الذُّرا
أخذتْ من المدنِ العواصمِ مجدَهَا
وجلالها وحَوَتْ حلاواتِ القُرَى
هي واحةٌ للمتعَبين، وجنَّةٌ
للعاشقينَ، وملعبٌ لذوي الثَّرا
كَفَّنتُ في نيويوركَ أحلامَ الصِّبا
وطويتُها. وحسبتُها لن تُنشرا

لــــكــنَّــــنِي لــــمَّــــا لمحتُ زهــورَهَــــا
شـــاهـــدتُ أحلامـي تُـــطِلُّ من الـــثَّـــرى
تـتـنـفسُ الـهَضَـبـاتُ في رأْدِ[1] الـضُّحى
تِـبْــراً وفي الآصــالِ مِــسْــكــاً أذفَــرا[2]
فـالـسِّـحـرُ فـي ضِـحْكِ الـنَّدى مُـترقـرقـاً
كـالـسِّـحـر في رقْصِ الـضِّـيـاء مُـعطَّـرا
قُلْ لـلأُلَى وصــفـوا الجِـنــانَ وأطـنَـبـوا
لـيـستْ جِـنــانُ الخُـلـدِ أعـجـبَ مـنـظـرا
كلُّ الــفـصــولِ هــنــا ربــيـعٌ ضــاحكٌ
فـــإذا تـــرى شـــهـــراً رأيتَ الأشـــهـــرا
إنْ كـنـتَ تجـهـلُ مـا حـكـايـاتُ الـهـوى
فـانـصِتْ لـوشْـوَشـةِ الـنَّـسـيمِ إذا سَرَى
وانـظـرْ إلى الـغَـبـراءِ تُـنـبِتُ سُـنـدسـاً
وتــأملِ الـــغُـــدْرَانَ تجـــري كـــوثَـــرا
واشـــربْ بـــعَـــيـــنـــيكَ الجـــمـــالَ فـــإنه
خـمـرٌ بـغـيـرِ يـدِ الـهـوى لن تُـعـصَـرا
حـــاولتُ وصـفَ جَـمـالِـهَــا فـكـأنـني
ولَــدٌ بــأُنْــمــلِه يَــحــوشُ الأبـــحـــرا
واســتـنـجـدتْ روحي الخـيـالَ فـخـانـني
وكَـبـا جـوادُ فـصــاحَـتي وتَـعـثَّـرا
أدركتُ تـقـصـيـري وضـعـفي عـنـدمـا
أبـــصـــرتُ مـــا صـــنـع الإلهُ وصَـــوَّرا
إنـي شـــهـــدتُ الحُـسْـنَ غَـيــرَ مُـزيَّف
بـئـسَ الجـمـــالُ مُـزيَّـفــاً ومُـزوَّرا

---

(١) رأد الضحى: رونقه، أو ارتفاعه حين يعلو النهار.
(٢) الذَفَر: كل ريح منتشرة من طيب أو غيره.

أحـببتُ حـتى الـشَّوكَ في صـحـرائـهـا
وعـشـقتُ حـتى نـخـلَـهـا الـمُـتكـبِّـرا

اللابسَ الـورَقَ الـيـبـيسَ تـنـسُّـكـاً
والـمُشْـمَـخِـرَّ إلى الـسـمـاء تَـجَـبُّـرا

هـو آدمُ الأشـجـارِ أدركَهُ الحَـيَـا
لـمّـا تـبـدى عُـرْيُه فَـتَـسـتَّـرا

ابنُ الـصَّـحـارى قـد تحـضَّـرَ وارتـقى
يـا حُـسْـنَه مُـتَـبَـدِّيـاً مُـتَـحـضِـرا

وبـدتْ غِـيـاضُ الـبُـرتـقـالِ فـأشـبـهتْ
جـلـبـابَ خَـوْدٍ بـالـنُّـضـارِ[1] مُـزرَّرا

من فـوقـهـا انـتـشـرَ الـضِّـيـاءُ مُلاءةً
من فـوقه جَـوٌّ صَـفـا وتـبَـلْـورا

وكـأنَّـمـا تـلك الـقـصـورُ عـلى الـرُّبـا
عِـقْـدٌ لـغـانـيـةٍ هـوى وتـبـعـثـرا

لمـا تـراءتْ من بـعـيـد خِـلْـتُـهَـا
سُـفُـنـاً وخِـلْـتُ الأرضَ بَـحـراً أخـضـرا

نَـفَضَ الـصـبـاحُ سـنـاهُ في جُـدرانـهـا
وأتـى الـدُّجـى فـرأى مـنـائـرَ لـلـسُّـرى

مُـتـألـقـاتٍ كـابـتـسـامـاتِ الـرِّضـا
تُـنـسـيكَ رؤيـتُـهـا الـزمـان الأعـسَـرا

أنـا شـاعـرٌ مـا لاحَ طـيفُ مـلاحَـةٍ
إلا وهـلّلَ لـلـجـمـالِ وكـبَّـرا

وزّعتُ نـفـسي في الـنـفـوس مـحـبـةً
لا شـاكـيـاً ألـمـاً ولا مُـتـضَـجِّـرا

---

(١) الخود: الحسناء الشابة. والنضار: الذهب الخالص.

ومشَيتُ في الدنيا بقلبٍ يابسٍ
حتى لقيتُ أحبتي فاخْضَوضَرا
قد كنتُ أحسَبُني كَياناً ضائعاً
فإذا أنا شخصٌ يعيش مكرَّرا
فكأنَّني ماءُ الغَمامِ إذا انطوى
في الأرض ردَّتْهُ نباتاً مُثمِرا
ما أكرمَ الأشجارَ في هذا الحِمَى
فيها لقاصِدِها البشاشةُ والقِرَى[1]
تَقري الفقيرَ على خصاصةِ حالِه
كَرَماً كما تَقري الغنيَّ المُوسِرا
البذلُ دَيْدَنُهَا، سواءٌ جئتَها
مُتقدِماً أم جِئتَها مُتأخِّرا
فكأنَّها منكمْ تعلَّمتِ النَّدى
كيما تُغيثُ الناسَ إنْ خطْبٌ عَرا[2]

****

(١) الإحسان إلى الضيف (قراه - يقريه).
(٢) عراه - يعروه: غشيه.

٢٠ - عصر الشبيبة

[الكامل]

القصيدة التي ألقاها الشاعر في الحفلة التكريمية التي أقامها له صديقه السيد مالك الدوماني في فندق روزفلت - هوليوود بكاليفورنيا.

يا ليتما رجعَ الزمانُ الأولُ
زمنُ الشباب الضاحكُ المُتهللُ

عهدٌ ترحّلَتِ البَشاشةُ إذ مضى
وأتى الأسى فأقامَ لا يترحَّل

ولّى الصِّبا وتبددتْ أحلامُهُ
أودى به وبها قَضاءٌ حُوّل[1]

حصَدتْ أنامِلُه المُنى فتسَاقطتْ
صَرْعَى كما حصَدَ السنابلَ مِنْجَل

فالروحُ قيثارٌ وهتْ وتقطعتْ
أوتارُهُ، والقلبُ قفْرٌ مُمْحِل

والشيبُ يُضحكُ بَرْقُهُ في لِمَّتِي
هذي الضَّواحِكُ يا فؤاديَ أنصُلُ

أشتاقُ عَصْرَكِ يا شبيبةُ مثلما
يشتاقُ للماء النَّميرِ الأيَّلُ[2]

إذ كانت الدنيا بعيني هيكلاً
فيه إلاهَاتُ الجمالِ تُرتِّل

(١) يتحول ويتغير.

(٢) ذكر الوعل.

من كلِّ حسناءٍ كأنّ حديثَها السْـ

ـسَلْوى أوِ الوحيُ الطَّهورُ المُنَزَل

وأنا وصحْبي لا نفكّرُ في غدٍ

فكأنَّ ليس غدٌ ولا مُستقبَلِ!

نلهو ونلعبُ لا نُبالي ضَمَّنا

كوخٌ حقيرٌ أمْ حَوانا مَنزل

نتوهَّمُ الدنيا لِفَرْطِ غرورِنَا

كملتْ بنا وبغيرنا لا تكمُل

ونخالُ أن البدر يَطلُعُ في الدُّجى

كيما يسامرُنا فلا نتَململ

ونظنُّ أنّ الرَّوضَ ينشرُ عِطرَهُ

من أجلنا. ولنا يُغنِّي البُلبل

فكأنَّما الأزهارُ سِرْبَ كواعبٍ

وكأنَّما هو شاعرٌ يَتغَزَّل

في كلِّ منظورٍ نراه ملاحَةً

وسعادةً في كلِّ ما نتَخَيَّل

لا شيءَ يُزعجُ في الحياة نفوسَنا

لا طارئٌ، لا عارضٌ، لا مُشكِل

فكأننا في عالَمٍ غيرِ الذي

تَتَزاحمُ الأيدي به والأرجُل

وكأننا رَهْطُ الكواكبِ في الفَضا

مهما جرى في الأرض لا تَتَزلزل

النـاسُ في طَلبِ المَعاشِ وهمُّنَا
كأسٌ مُشَعشَةٌ وطرْفٌ أكْحَل
كم عَنَّفُونَا في الهوى واسْترسلوا
لو أنَّهم عَرَفوا الهوى لم يَعذُلوا
ولو أنَّهُمْ ذاقُوا كما ذُقنا الرُّؤى
شَبِعتْ نفوسُهُمُ وإنْ لم يأكلوا
زعموا تبَذُّلَنا ولم يَتبذَّلوا
إن الحقيقةَ: كلُّنا مُتَبذِّل!
حُرِموا لَذاذاتِ الهُيام وفاتَنا
درْكُ الحُطام، فأيُّنا هو أجهل؟
إني تأملتُ الأنامَ فَراعني
كيف الحياةُ بهم تجِدُّ وتهزِل
لا يضبطونَ مع الصُّروفِ قيادَهُمْ
إلا كما ضَبَطَ المياهَ المُنخُل
بينا الفتى ملءُ النواظرِ والنُّهى
فإذا به رقْمٌ خفيٌّ مُهمَل
يا صاحبي والعمرُ ظلٌّ زائلٌ
إن كنت تأمُلُ فيه أو لا تأمُل
الذِّكْرُ أثمنُ ما اقتنيتَ وتقتني
والحبُّ أنفسُ ما بذلتَ وتبذُل
قيل: اغْتَنَى زيدٌ، فليتكَ مِثلُهُ
أنا مِثلُه، إن لم أقُلْ: أنا أفضل!
الشَّمسُ لي وله، ولألاءُ الضُّحى
والنيِّراتُ، ومِثلُنا المُتسوِّل

أمــا الــنُّــضــارُ فــإنَّه يــا صــاحــبي

عَــرَضٌ يــزولُ وســلْــعــةٌ تــتــنــقَّل

مــا دُمتُ فـي صــحــبي ودامَ وفــاؤهُمْ

فــأنــا الــغــنيُّ الحقُّ لا الــمُــتــمــوِّل

أنــا لــستُ أعــدِلُ بــالمــنــاجمِ واحــداً

وأبــيــعُ من عَــقَــلــوا بمــا لا يَــعْــقِل

****

٢١ - عطش الأرواح

[الرمل]

زَحزَحتْ عن صدرها الغَيمَ السَّماءْ
وأطلّ النُّورُ من كهْفِ الشِّتاءْ

فالرَّوابي حُلَلٌ من سُندُسٍ
والسَّواقي ثرثراتٌ وغِناء

رجعَ الصَّيفُ ابتِساماً وشَذاً
فمتى يرجعُ للدنيا الصَّفاء

فأرى الفردوسَ في كلِّ حِمىً
وأرى الناسَ جميعاً سُعداء

زالت الحَربُ وولتْ إنما
ليس للذعرِ من الحربِ انقضِاء

إنْ صَحونَا فأحاديثُ الوغَى
في الحِمى الأهلِ والأرضِ العَراء

وإذا نمنَا تَراءتْ في الكَرَى
صُوَرُ الهَولِ وأشباحُ الفَناء

فهْيَ في الأوراق حِبْرٌ هائجٌ
وعلى « الراديو» فَحيحُ الكهرباء

نَتَّقِي في يومنا شرَّ غدٍ
وإذا الصُّبحُ انطوى خِفنا المساء

عجباً! والحربُ بابٌ للردى

---

(١) عفا المنزل: درس.

وطـــريقٌ لـــدمـــارٍ وعَـــفَـــاء[1]

كـيفَ يـهـواهـا بـنـو الـنـاسِ، فـهلْ

كَـرِهـوا في هـذه الـدنـيـا الـبَـقـاء؟

إن يــكُنْ عِـلْمُ الـورَى يُـشـقِـيـهمُ

يـا إلــهي ردَّ لــلـنـاسِ الـغَـبـاء

ولــيـجئْ طُـوفـانُ نُـوحٍ قـبـلَـمـا

تَـغـرقُ الأرضُ بـطـوفـانِ الـدِّمـاء

واعـصِمِ الأسـرارَ واحـجُبْ كُـنـهَـها

عن ذوي الـعِـلمِ وأربـابِ الـذَّكـاء

فـلـقـد أكـثـرتَ أسـبـابَ الأذى

عـنـدمـا أكـثـرتَ فـيـنـا الـعُـلـمـاء

كم وجـدنـا آفـةً مُـهـلِـكـةً

كـلَّـمـا زَحْـزحتَ عن سِـرٍ غِـطـاء

قـد تَـرْقَى الخَـلْقُ لـكن لم تـزلْ

شِـرْعـةُ الـغـابـةِ شَـرْع الأقـويـاء

حُـرِّمَ الـقَـتلُ، ولـكن عـنـدهُمْ

أهـونُ الأشـيـاءِ قـتلُ الـضُّـعـفـاء

لا تـقلْ لي هـكـذا الـلـه قـضَى

أنت لا تـعـرفُ أسـرارَ الـقـضـاء

جـاءني بـالـمـاءِ أروي ظَـمَـئي

صـاحبٌ لي من صِـحـابي الأوفـيـاء

يـا صـديـقي! جـنِّبِ المـاءَ فـمي

عَـطَشُ الأرواحِ لا يُـروَى بمـاء

أنـا لا أشـتـاقُ كـاسـاتِ الـطِّلا

لا ولا أطـلـبُ مَـجْـداً أو ثـراء

إنمـا شـوقي إلى دنـيـا رِضـاً

وإلـى عـــــصــــــرِ سَلامٍ وإخـــــاء

لا تــعِــدْني بـالــسَّــمــا يــا صــاحــبي

الــسّــمــا عــنــديَ قــربُ الأصــدقــاء

وأراني الآن فـي أكـــــنـــــافـــــهمْ

فـــأنـــا الآن كـــأني فـي الـــسَّـــمـــاء!

****

٢٢ - بلادي

[الكامل]

إنِّي مـــررتُ عــلى الـــريـــاض الحـــالــيَةْ
وســمــعتُ أنــغــامَ الــطــيــورِ الــشَّــاديَه
فـــطـــربتُ، لـــكن لم يُـــحبَّ فـــؤاديَه
كـــطـــيـــور أرضي أو زهـــورِ بلادي

☆☆☆☆☆

وشـــربتُ مـــاءَ الـــنِّــيل شــيخِ الأنــهـــرِ
فـــكـــأنـــني قـــد ذُقتُ مـــاء الـــكـــوثـــرِ
نـــهـــرٌ تـــبـــاركَ من قـــديمِ الأَعـــصُـــرِ
عَـــذْبٌ، ولـــكنْ لا كـــمـــاء بلادي

☆☆☆☆☆

وقـــرأتُ أوصـــافَ المـــروءة في الـــسِّـــيَـــرْ
فـظـنـنـتُـهـا شـيـئـاً تلاشى وانـدثـر
أو إنـــهـــا كـــالـــغُـــول لـــيس لـــهـــا أثـــر[1]
فـــإذا المـــروءة في رجـــال بلادي

☆☆☆☆☆

ورســـمتُ يـــومـــاً صـــورةً في خـــاطـــري
لـــلـــحُـــسْنِ، إن الـــحـــسنَ ربُّ الـــشـــاعـــرِ
وذهـــبتُ أُنـــشـــدهـــا فـــأعْـــيـــا خـــاطـــري
حـــتى نـــظـــرتُ إلى بـــنـــات بلادي

☆☆☆☆☆

(١) إشارة إلى كونه من السّعالى المتخيلة (توصف بالخبث والسلاطة).

قـــالـــوا : ألـــيسَ الحُـــسْنُ في كلِّ الـــدُّنـــا
فـــعلامَ لم تَــمــــدحْ ســـواهــــا مَـــوْطِــنـــا
فـــأجـــبــتـــهمْ: إني أُحبُّ الأَحْـــســـنـــا
أبــــــداً، وأحــــــسَنُ مــــــا رأيتُ بلادي

✡✡✡✡✡

قـــالـــوا: رأيـــنـــاهــــا فـــلـم نـــرَ طـــيِّـــبـــا
ولّـى صِـبـــاهـــا والجـــمـــالُ مع الـــصِّـــبـــا
فـــأجـــبـــتـــهمْ: لِـــتـــكن بلادي سَـــبْـــسَـــبـــا
قَـــفـــراً، فـــلـــستُ أُحبُّ غـــيـــرَ بلادي

✡✡✡✡✡

قـــالـــوا: تـــأملْ أيَّ حـــالٍ حـــالَـــهـــا
صـــدعَ الـــقـــضـــاءُ صُـــروحَـــهـــا فـــأمـــالَـــهـــا
ســـتـــمـــوتُ.. إنِ الـــدَّهـــر شـــاء زوالَـــهـــا
أتـــمـــــــوتُ؟ كلا لـــن تـــمـــــــوتَ بلادي

✡✡✡✡✡

هـي كـــالـــغـــديـــرِ إذا أتى فـــصلُ الـــشِّـــتـــا
فَـــقـــدَ الخَـــريـــرَ وصـــار يـــحـــكي الـــمـــيِّـــتـــا
أو كـــالـــهَـــزارِ حـــبـــســـتَـــه.. لـــكن مـــتـى
يَـــعُـــدِ الـــربـــيـــعُ يَـــعُـــدْ إلى الإنـــشـــادِ

✡✡✡✡✡

الـــكـــوكبُ الـــوضَّـــاحُ يـــبـــقى كـــوكـــبـــا
ولـــئنْ تـــســـتَّـــرَ بـــالـــدُّجى وتـــنـــقَّـــبـــا
لـــيس الـــضَّـــبـــابُ بـــســـالـــبٍ حُـــسْنَ الـــرُّبـــا
والـــبـــؤسُ لا يمـــحـــو جَـــمـــالَ بلادي

✡✡✡✡✡

لا عِــــزَّ إلا بـــالـــشـــبـــاب الـــراقـي
الـــنـــاهضِ الـــعَـــزَمـــاتِ والأخلاق
الـــثـــائـــرِ الـــمـــتـــفـــجِّـــر الـــدفّـــاق
لـــــولاهُ لـم تـــــشْـــمَـخْ جـــبـــالُ بلادي

****

٢٣ - روعة العيد

[البسيط]

يـا شـاعـرَ الحُـسْنِ هـذي روعـةُ الـعـيـدِ
فـاسـتـنـجـدِ الـوحيَ واهـتِفْ بـالأنـاشـيـدِ

هـذا الـنـعـيمُ الـذي قـد كـنتَ تَـنـشُـدُهُ
لا تـلْـهُ عـنه بـشـيءٍ غـيـرِ مـوجـود

مـحـاسنُ الـصَّـيفِ في سـهلٍ وفي جبلٍ
ونـشـوةُ الـصـيف حـتى في الجلامـيـد

ولـستَ تُـبـصِـرُ وجـهـاً غـيـرَ مُـؤتـلقٍ
ولـستَ تـسـمعُ إلا صـوتَ غِـرِّيـد

قُمْ حَدِّثِ الـنـاسَ عن لـبـنـانَ كـيف نجـا
منَ الـطـغـاةِ الـعُـتـاةِ الـبـيضِ والـسُّود

وكـيـف هـشَّتْ دمـشـقُ بـعـد مـحـنـتِـهَـا
واسـتـرجـعتْ كلَّ مـسـلـوبٍ ومـفـقـود

✡✡✡✡✡

فـالـيـومُ لا أجـنـبيٌّ يـسـتـبـدُّ بـنـا
ويـسـتـخفُّ بـنـا اسـتـخـفـافَ عِـرْبـيـد

يـا أرزُ صـفِّقْ، ويـا أبـنـاءَهُ ابـتـهـجـوا
قـد أصـبح الـسِّـربُ في أمْنٍ من الـسِّـيد[1]

مـا بـلـبلٌ كـان مـسـجـونـاً فـأطـلـقَهُ
سَـجَّـانُهُ، بـعـد تـعـذيبٍ وتـنـكـيـد

---

(١) الذئب.

فـراحَ يـطـوي الـفـضـاءَ الـرَّحبَ مـنـطـلـقـاً
إلى الـــرُّبـا والـــسَّـــواقي والأَمَـــالـــيـد[1]
إلى المـــروجِ يُـصــلّي في مَـسَـــارِحِـهَـــا
إلى الـــكُـــروم يُـــغـــنّي لـــلـــعَـــنـــاقِـــيـــد
مـنِّي بـأسـعَـدَ نـفْـسَـاً قـد نـزلتُ عـلى
قـومي الـصَّـنـاديـدِ أبـنـاءِ الـصَّـنـاديد[2]
سـمــاءُ لــبـنــانَ بِـشْــرٌ في مـلامِـحِـهِمْ
وفــجــرُه في ثــغــور الخُـرَّدِ الـغِـيـد[3]
إنْ تـسـكـنوا الـطَّـودَ صـار الـطَّـودُ قِـبـلـتَـنا
أو تـهـبِـطوا الـبِـيـدَ لم نـعـشـقْ سِوى الـبيـد

****

(١) الأملود من النساء: الناعمة المستوية القامة.

(٢) الصنديد: السيّد الشجاع.

(٣) الخريدة: الحسناء الشابة.

٢٤ - يا أنشودتي انطلقي

[البسيط]

أنـــشـــودةٌ فـي ضـــمــيــري كم أُواريـــهـــا
وَمــا شِــفَــائي إلا أنْ أُغَــنِّـــيــهـــا

ولّى الـــشـــتـــاءُ ونـــفـــسي في كـآبـتِـهـا
واسْـتَـضْـحَـكَ الـصـيفُ إلا في نـواحِـيـهـا

كـــأنـــهـــا زَهــرةٌ في الـــظلِّ نـــابِـــتـــةٌ
لا نـورَ يـغـمُـرُهـا، لا مـاءَ يَـسـقـيـهـا

كــأنَّــهــا الـحـربُ في قــلــبي زلازِلُــهــا
وبـعـضُ أهـلـيَ أقـــوامٌ تُــعـــانــيـــهـــا

حِـكـايـةٌ أتَـقـلَّـى حـين اسـمـعُـهـا
ويــأكلُ الـحُـزنُ قـلـبي حـين أرويـهــا

وارَحــمــتــاهُ لأوربّــا فــمــا فَــتَــكَتْ
أفـعـى بـأفـعى كـأهـلـيـهـا بـأَهـلـيـهـا

لم يـبقَ غـيـرُ الـضّـواري في خلائـقِـهَـا
ومِن حَـضـارتِـهـا إلاّ مَـخَـازيـهـا

كـانت تُـعِـدُّ الـدَّواهي في مـصَـانـعِـهـا
لـغـيـرِهـا، فـأصـابـتْـهـا دَواهـيـهـا

وكلُّ طـــابخِ سُمٍّ ســـوف يـــأكـــلُه
وكل حـــافِـــرِ بِـــئـــرٍ واقعٌ فـــيـــهـــا

لـو دامَ إيمـانُـهـا لم تـنـطـلقْ سَـقَـرٌ
بـدُورِهَـا، والأفـاعي في مَـغَـانـيـهـا

لــكنْ أكـــبّتْ عـــلى الآلاتِ تـــعـــبُـــدُهَـــا
وتـــســتـــعـــينُ بـــهـــا مِن دونِ بـــاريـــهـــا
فــصــارَ مــالِــكُــهــا عــبــداً لــسُــلــطَــتِــهــا
وصـــار كلُّ ضـــعـــيفٍ من أضـــاحـــيـــهـــا
وصـــار إنـــســـانُـــهـــا لـــلـــحَـــلْـبِ آونَـــةً
والــذَّبحِ، مِــثْلَ المــواشـي في مــراعــيــهــا
يــا نـفسُ سَرِّي[1]، ويــا أنـشـودتـي انـطـلـقـي
من عــالَم الــصَّمت، إنَّ الــصَّمتَ يُــؤذيــهــا
أيُــشـــرِقُ الأفقُ لم يُـــطـــلِـعْ كـــواكـــبَــه
وتجــملُ الأرضُ لــم تُــخــرِجْ أقــاحــيـــهــا
الــيــومَ يــومُ الــقَــوافـي تــهــتِــفـــينَ بــهــا
لا يــشــربُ الــنــاسُ خــمــراً لــم تَــصُــبِّــيــهـا
هــذا هـــو الـــعـــيـــدُ قـــد لاحت مـــواكـــبُهُ
يــا قــلبُ هــلِّل لــهــا، يــا شِــعــرُ حــيــيِّــهــا

****

---

(١) سَرِّي عنك.

٢٥ - في قلبك الله

[البسيط]

مرّت ليالٍ وقلبي حائرٌ قلقٌ
كالفُلْكِ في النَّهر هاجَ النوءُ مجراهُ
أو كالمسافرِ في قَفْرٍ على ظمأٍ
أضنَى المَسيرُ مطاياهُ وأضْناه
لا أدْركُ الأمرَ، أهواه وأطلبه
وأبلغُ الأمرَ، نفسي ليس تهواه!
عَجِبْتُ من قائلٍ: إني نسيتكمُ،
من كان في القلب كيف القلبُ ينساه؟
إن كنتُ بالأمسِ لم أهبِطْ مرابِعَكُمْ
فالطَّيرُ يقعدُ مَوثوقاً جناحاه
فلا يُقرّبُه شوقٌ إلى نَهَرٍ
وليس تنقلُهُ في الرَّوضِ عيناه
وليس يشكو ولا يبكي مخافةَ أنْ
تؤذي مسامعَ مَن يهوَى شَكَاواه
إني لأعجبُ منّا كيف تخدعُنا
عن الحَقائقِ أمثالٌ وأشباه
إذا بنى رجلٌ قصراً وزخرفَهُ
سُقنَا إليه التّهاني وامتَدحناه
وما بنى قصرَهُ إلا لِيَحجُبَ عن
أبصارِنا في زواياهُ خطاياه

ونمـــدحُ المـــرءَ من خَــزٍّ ملابـــسُه
وذلك الخـــزُّ لم تـــنـــسُـــجْهُ كـــفَّـــاه
وإنْ أتـــانـــا أخـــو مـــالٍ يـــكـــاثـــرُنـــا
بـالـتِّـبْـرِ تـيـهـاً رجـونَـاهُ وخِـفـنـاه
وقـــد يـــكـــونُ نُـــضـــارٌ في خـــزائـــنه
دمـاً سـفـكـنـاهُ أو جُـهـداً بـذلـنـاه
لا تحـسَبِ المجـدَ مـا عـيـنـاكَ أبـصـرتـا
أو مـا مـلـكتَ هـو الـسـلـطـانُ والجـاه
المـالُ مـولاكَ مـا أمـسـكـتُهُ طـمـعـاً
فـانـفِـقْهُ في الخـيـر تُصـبحْ أنتَ مـولاه
مـــا دام قـــلـــبُكَ فـــيه رحـــمـــةٌ لأخٍ
عـــانٍ، فـــأنت امـــرؤٌ في قـــلـــبكَ الـــله

****

٢٦ - الرأي الصّواب

[الكامل]

يا نفسُ هذا منزلُ الأحبابِ
فانْسَي عذابكِ في النَّوى وعذابي

وتهلَّلي كالفجر في هذا الحِمَى
وتألَّقِي كالخمر في الأكواب

ولْتمسَحِ البُشرى دموعكِ مثلما
يمحو الصباحُ ندىً عن الأعشاب

واسترجِعي عهدَ البشاشَةِ والرِّضا
فالدهرُ عاد تضاحُكاً وتَصابي

أنا بين أصحابي الذين أحبُّهمْ
ما أجملَ الدنيا مع الأصْحَاب!

قد كنتُ مثلَ الطائر المحبوسِ في
قَفَصٍ، ومثلَ النجمِ خلفَ ضَباب

يمتدُّ في جُنح الظلام تأوُّهي
ويطولُ في أُذْن الزمان عِتابي

وأهُزُّ أقلامي فترشحُ حِدّةً
وأسىً، ويندى بالدموع كتابي

حتى لقيتُكمُ فبِتُّ كأنني
لمسَرَّتي، استرجعتُ عصرَ شبابي

ليس التعبُّدُ أن تبيتَ على الطّوَى
وتروحَ في خِرَقٍ من الأثواب

لــــكـــنه إنـــقـــاذُ نـــفسٍ مـــعـــذَّبٍ

من رِبـــقَـــةِ الآلام والأوصَــــاب[1]

لــيس الـتـعـبُّـدُ عـزلـةً وتـنـسُّـكـاً

في الـديـر، أو في الـقـفـرِ، أو في الـغـاب

لــكـــنه ضـــبْطُ الــهـــوى في عـــالَمٍ

فـــيه الـــغَـــوايـــةُ جَـــمّـــةُ الأسـبـاب

وحـــبـائلُ الـشـيـطـانِ فـي جـنـبَـاتِه

والمـــــالُ فـــــيه أعـــظمُ الأربـــاب

هـــذا هـــو الـــرأي الـصَّـــوابُ وغـــيـــرُهُ

مـــهـــمـــا حـلا لـــلـــنـــاس، غـــيـــرُ صـــواب

****

(١) الوصب: الوجع والمرض (وصِب – يوصَب وصباً).

٢٧ ـ ليس السرُّ في السَّنوات

[الكامل]

قُلْ للذي أحصَى السِّنينَ مُفَاخِراً
يا صاحِ ليس السِّرُّ في السَّنواتِ

لكنه في المرءِ كيف يَعيشُها
في يقْظةٍ أم في عميقِ سُبَاتِ

قُمْ عُدَّ آلافَ السنينَ على الحصَا
أتعدُّ شيَه فضيلةٍ لحصاةِ؟

خيرٌ من الفَلَواتِ لا حدُّ لها
روضٌ أغنُّ يُقاسُ بالخطواتِ

كنْ زهرةً أو نغمةً في زهرةٍ
فالمجدُ للأزهارِ والنغَماتِ

تمشي الشُّهورُ على الورود ضَحوكةً
وتنامُ في الأشواك مكتئِباتِ

وتموتُ ذي للعُقْمِ قبلَ مماتِها
وتعيشُ تلك الدَّهرَ في ساعاتِ

تُحصَى على أهلِ الحياةِ دقائقٌ
والدهرُ لاَ يُحصَى على الأمواتِ

العمرُ ـ إلاّ بالمآثرِ ـ فارغٌ
كالبيتِ مهجوراً وكالموماةِ[1]

جَعلَ السِّنينَ مجيدةً وجميلةً
ما في مطاويها من الحَسَناتِ

****

(١) المفازة الواسعة التي لا ماء فيها ولا أنيس..

٢٨ - إليكَ عنّي[١]

[الكامل]

كم تستثيرُ بيَ الصَّبابةَ والهوى
عنِّي إليكَ، فإنَّ قلبيَ من حجَرْ

ما لي وللحَسناءِ أُغري مُهجتي
بوصَالها، والشَّيبُ قد وَخَطَ الشَّعَر

كم « بالجزيرةِ » لو يتاحُ ليَ الهوى
من غادةٍ تحكي بطلعتِها القمر

ولكَمْ بها من جَدولٍ وحديقةٍ
من صَنْعةِ الرَّحمن لا صُنعِ البشر

فيها اللواتي إنْ رمَتْ ألحاظُها
شَلَّتْ يدَ الرَّامي وقطَّعتِ الوتر[٢]

قد كان لي في كل خَوْدٍ مطمعٌ
ولكل رائعةِ المحاسنِ بي وتَر[٣]

أيامُ شَعري كالدجى مُحْلولِكٌ
أيامُ عَيْشي لا يُخالطُه كدَر

✡✡✡✡✡

ذرني وأشجاني، وجسمي، والضَّنى
ويدي، وأقلامي، وطَرْفِي، والسَّهَرْ

---

(١) النص مجتزأ من نص طويل موجه إلى (شكري أبي صالح). انظر في شعر الشاعر (خارج الدواوين)، النص رقم (٢) وانظر ما قلنا فيه.

(٢) واحد من أوتار القوس.

(٣) يعني هنا وتراً من أوتار العود.

أأبيتُ ألهو والهمومُ تُحيط بي

وأنامُ عن قومي، وقومي في خطر!

صوتُ المصفِّقِ موعدٌ ما بيننا

ماذا أقول لهم، إذا الديكُ اسْتَحَر؟[1]

****

(١) استحر الطائر: غرّد بسحر، يعني: الدعوة إلى النهوض.

٢٩ - دودة وبلبل

[الخفيف]

نــــظَــــرتْ دودةٌ تــــدِبُّ عــــلى الأرْ

ضِ إلى بُـلـبلٍ يـطـيـرُ ويَـصـدَحْ

فـمَـضتْ تـشـتـكي إلى الـوَرَقِ الـسَّـا

قِطِ في الحـقل: أنَّـهـا لم تُـجَـنَّح

فـأتتْ نمـلـةٌ إلـيـهـا وقـالت

اقـنَـعي واسـكُـتِي فـمـا لكِ أَصـلَح

مـا تـمـنَّـيتِ إذ تـمـنـيتِ إلا

أن تـصـيـري طـيـراً يُـصـاد ويُـذبح

فـالـزَمي الأرضَ فـهي أحـنَى عـلى الـدُّو

دِ وخَـلِّي الـكلامَ فـالـصَّـمتُ أريح

****

٣٠ - هديّة العيد

[الخفيف]

أيَّ شيءٍ في العيد أُهدي إليك
يا ملاكي، وكلُّ شيءٍ لديكِ

أسِواراً؟ أم دُمْلُجاً من نُضَارٍ؟[١]
لا أُحبُّ القُيودَ في مِعْصَمَيْك

أم خُموراً؟ وليس في الأرض خَمرٌ
كالتي تسكبينَ من لحظَيْك

أم وروداً؟ والوردُ أجملُهُ عِنْـ
ـدي الذي قد نَشَقْتُ من خدَّيك

أم عقيقاً كمُهجَتي يتَلظّى؟
والعقيقُ الثمينُ في شفتيكِ

ليس عندي شيءٌ أعزُّ من الرُّو
حِ وروحي مَرهُونةٌ في يديك

****

(١) الدُمْلُج والدملوج: السوار من الحليّ، ويغطي العضد. والنضار: الذهب الخالص.

٣١ - إن الحياة قصيدة!

مــا لــلــقــبــورِ كــأنَّــمــا لا ســاكنٌ

فــيــهــا وقــد حَــوَتِ الــعُــصــورَ المــاضــيهْ

طَــوَتِ الملايــينَ الــكــثــيــرةَ قــبــلَــنَــا

ولــســوفَ تَــطــويــنــا وتــبــقَى خــالــيه

أينَ الــمَــهــا وعــيــونُــهــا وفــتــونُــهــا

أينَ الجَــبــابِــرُ والمــلــوكُ الــعــاتــيه

زالــوا من الــدُّنــيــا كــأنْ لم يُــولَــدوا

سَــحَــقَــتْــهُمُ كفُّ الــقــضــاءِ الــقــاســيه

إنَّ الحــيــاةَ قَــصــيــدةٌ أعــمــارُنــا

أبــيــاتُــهــا، والمــوتُ فــيــهــا الــقــافــيه

مَــتِّعْ لِــحَــاظَكَ في الــنُّــجــوم وحُــسْــنِــهــا

فــلــســوفَ تــمــضــي والــكــواكبُ بــاقــيه

****

٣٢ - ليالي بوسطن

[الرمل]

إنْ أَغِبْ يـا صـحبُ عن ذاكَ الحـمى
لـم أزلْ مـعْـكُمْ كـمـا أنـتمْ مـعي
فـإذا الأنجمُ شـعَّتْ في الـسَّـمـا
قـلتُ هـذي أنـتمُ في مَـجْـمع
وإذا الـشَّـادي بـلـحنٍ رنَّـمـا
خِـلـتُهُ أصـواتَـكُمْ في مَـسْـمعي

✡✡✡✡

آهِ لـو يُـغْـنِي خَـيـالٌ عن عِـيَـانِ
كـان كـالـمَـنْـهلِ، رسمَ المَـنْـهلِ
ولـعـاشَ المـرءُ في دُنـيـا الأمـاني
يـقـطعُ الـدُّنـيـا ولم يـنـتَـقِـلِ
وَسَـلَـوْنـا عن مـكـانٍ بمـكـانِ
ولأغْـنَـى آخـرٌ عـن أوّلِ

✡✡✡✡

ولَـنـابتْ عن نجـومٍ نَـيِّـراتٍ
صُـوَرٌ مـطـبـوعـةٌ في الـورَقِ
واكـتـفـيـنـا بـخـريـرِ الـسَّـاقـيـاتِ
في الـدُّجى عن مـائـهـا المُـنـدَفِقِ

✡✡✡✡

يـا لـيـالي « بـوسَـطُنْ » هل تـرجـعـينْ
فـأرى صـحـبِي الـكـرامَ الـبَـررَهْ

ويـــزولُ الـــهمُّ عن قـــلـــبي الحـــزينْ

بـالـوجـوه الـمُـشْـرقَـاتِ الـنّـضِـرهْ

إنـه يـــســـــألُــــني في كلِّ حـــينْ:

أين تـــلك الجـــنَّـــةُ المخـــتَـــصَـــره؟

✡✡✡✡

ذهـــبتْ يـــا قـــلبُ إلا ذكـــريـــاتْ

كـــبـروقٍ ضـــحـــكتْ في الـــغَـــسَقِ[1]

تَـــأنسُ الـــعـينُ بـــهـا في الـظُّـلـمـاتْ

وهـي تـــفـــنى في رحـــابِ الأفُق

يـا لـيـالي بـوسَـطُنْ لـيت الحـيـاةْ

عَـدلَتْ فـيـنـا فـلـم نَـفْـتَـرِق

****

(١) الغسق: أول ظلمة الليل.

٣٣ - صوت من سوريّا

[مجزوء الرمل]

صـــوتُ ســـوريَّـــا الجـــمـــيـــلـهْ
صـــوتُكِ الـــعـــذبِ الـــرخـــيمْ
ضـــاحكٌ مـــثلَ الخـــمـــيـــلَهْ
لاعبٌ مـــثلَ الـــنَّـــســـيم

✡✡✡✡✡

يـــا أخَـــا الـــورْقَـــاءِ[1] غنِّ
فـــالـــغِـــنَـــا شـــعـــرُ الـــســـمـــاءْ
فـــهْـــوَ في الـــغُـــصن تَـــثَنِّ
وهـــو في الـــنَّـــجم بـــهـــاء

✡✡✡✡✡

صـــوتُ ســـوريـــا الجـــمـــيـــلهْ
صـــوتُكِ الـــعـــذبُ الـــرخـــيم
ضـــاحكٌ مـــثلَ الخـــمـــيـــله
لاعبٌ مـــثلَ الـــنـــســـيمْ

✡✡✡✡✡

غـــنِّـــنـــا حـــتى نَـــمِـــيلا
مـــثلَ أغـــصـــانِ الأَراكِ[2]
كم بِـــنـــا صـــبّـــاً عـــلـــيلا
لا يـــداويـــه ســـِـــواكِ

✡✡✡✡✡

(١) الحمامة في لونها بياض وسواد.
(٢) شجر أغصانه طيبة الرائحة، يُتخذ منها السّواك.

صـــوتُ ســــوريّـــا الجـــمـــيــــلهْ
صـــوتُكِ الــــعـــذبُ الــــرّخـــيم
ضــــاحكٌ مــــثلَ الخـــمـــيـــــله
لاعبٌ مــــثلَ الــــنّـــســــيمْ

☆☆☆☆☆

أيـــهـــا الـــمَـــحـــزونُ هـــيّـــا
واســـمعِ الــيــومَ الــــكَــنـــارْ[1]
ســاجِـعــاً سـجْـعــاً شَـجـيّــا
ذاكــــراً تـــلـــك الــــديــــار

☆☆☆☆☆

صـــوتُ ســــوريّـــا الجـــمـــيــــلهْ
صـــوتُكِ الــــعَـــذبُ الــــرخـــيم
ضــــاحكٌ مــــثلَ الخـــمـــيـــــله
لاعبٌ مــــثلَ الــــنّـــســــيمْ

☆☆☆☆☆

لــــيــتـــنـــا كـــنّـــا طـــيـــورا
حــــولَ عـــيْنٍ أو غــــديـــــرْ
نــــرشفُ المــــاءَ نَـــمـــيـــرا[2]
نــلـــقُطُ الحَبَّ الــــنــــثـــيــــر

☆☆☆☆☆

صـــوتُ ســــوريّـــا الجـــمـــيــــله
صـــوتُكِ الــــعـــذبُ الــــرخـــيم

---

(١) الكناريّ طائر حسن الصوت، منسوب إلى جزر الكناري الإسبانية في المحيط الأطلسي.
(٢) الماء النمير: الماء الناجع.

ضـــاحكٌ مـــثلَ الخَـــمـــيـــلـه
لاعبٌ مـــثلَ الـــنَّـــســـيمْ

✡✡✡✡✡

مـــوطنٌ نـــهـــوى سُـــهـــولَهْ
مـــثـــلـــمـــا نـــهـــوى رُبـــاهْ
الـــصَّـــبـــا فـــيه عـــلـــيـــلَهْ
تَـــتَـــداوى بِـــنـــداه

✡✡✡✡✡

كم بـــدا الـــبـــدرُ ضَـــحـــوكًـــا
راقـــصـــاً فـــوق الـــكـــرومْ
واسْـــتَـــوى الـــلـــيلُ مَـــلـــيْـــكـــا
لابـــســـاً تـــاجَ الـــنُّـــجـــوم
صـــوتُ ســـوريـــا الجـــمـــيـــلهْ
صـــوتُكِ الـــعـــذْبُ الـــرخـــيم
ضـــاحكٌ مـــثلُ الخـــمـــيـــلـه
لاعبٌ مـــثلَ الـــنَّـــســـيم

****

٣٤ - حكمة المتنبّي

[الطويل]

جلستُ أناجي روحَ أحمدَ في الدُّجى
ولِلهمٍّ حَولي كالظلامِ سُدولُ
أُفكِّر في الدنيا وأبحثُ في الورى
وعينيَ ما بين النجومِ تَجُول
طويلاً، إلى أن نال من خاطري الونى[1]
ورانَ على طَرْفي الكليلِ ذُبول
فأطرقتُ أمشي في سطورِ كتابه
بطرفي، فألفيتُ السطورَ تقول
« سِوى وجَعِ الحُسَّادِ داوِ فإنه
إذا حلّ في قلبٍ فليس يَحول»
« فلا تطمَعَنْ من حاسدٍ في مودةٍ
وإن كنتَ تُبديها له وتُنيل»

****

(١) الضعف والفتور والإعياء.

٣٥ - أنفُس العُشّاق

[مجزوء الكامل]

بالأمسِ بادَرَني صديقٌ حائرٌ يستَفهِمُ
أجهَنَّمُ نارٌ، كما زعَمَ الهُداةُ وعلّموا؟
أم زمهريرٌ قارِسٌ قاسٍ وكَونٌ مُظلم؟
فأجبتُه: ما الزَّمهريرُ وما اللّظى المتضرِّم
بجهنَّمٍ..! لكنَّما ألا تُحَبَّ: جهنَّم
يا صاحبي إنّ الخَواءَ هو العذابُ الأعظم
القلبُ، إلاّ بالمحبةِ، منزلٌ مُتردِّم[1]
هي للجراحةِ مَرْهمٌ، هيَ للسَّعادة سُلَّم
هيَ في النُّجوم تألقٌ، هي في الحياة ترنُّم
هيَ أنفسُ العُشّاقِ في غَسَقِ[2] الدُّجى تَتَبسَّم

****

(١) متهدم (يملؤه الردم).

٣٦. روحي فداك

[الكامل]

لـــمّـــا رأيتُ الـــوردَ في خـــدّيْكِ
وشـقـائقَ الـنُّـعـمـانِ في شـفَـتـيك
وعلى جـبـيـنِكِ مـثلُ قَـطْـراتِ الـنَّـدى
والـنَّـرجسُ الـوسـنـانُ في عـيـنـيك
ونـشـقتُ من فَـوْدَيْك[1] نـدًّا عـاطـراً
لـمّـا مـشتْ كـفّـاك في فَـوْديك
ورأيتُ رأسَكِ بـالأقـاحِ مُـتـوَّجـاً
والـفُلَّ طـاقـاتٍ عـلى نـهـديك
وسـمعتُ حـولَكِ همسَ نـسْمات الـصَّـبا
عـند الـصـباح، تـهزّ من عِطْـفـيك[2]
أيـقـنـتُ أنك جـنّـةٌ خَلاّبـة
فـحـنـنتُ من بَـعْـدِ الـمَـشـيبِ إلـيك
ولـذاكَ قـد صَـيَّـرتُ قـلـبي نَـحْـلـةً
يـا جـنَّـتي، حـتّى يـحـومَ عـلـيك
روحي فِـداؤُك إنَّـهـا لـو لم تـكن
في راحـتـيكِ، هَـوَتْ عـلى قـدمـيك..

****

---

(١) جانبا الرأس.

(٢) العطفان: الجانبان عن يمين وشمال.

٣٧ - لو

[السريع]

لــو أنــني يــا هــنــدُ بــدرُ الــسّــمــا
نــزلتُ من أفْــقي إلى مَــخْــدَعِكْ[١]
وصِــرتُ عِــقــداً لكِ أو خــاتَــمــا
في جِــيــدِكِ الــنّــاصعِ أو إصــبَــعِكِ
أو بُــلــبلَ الــروضِ مــا لــذّ لِي
الإنــشــادُ إنْ لم يــكُن في مَــســمَــعِك
ولــو أكــونُ الأرجَ الــذاكي
لمــا هــجــرتُ الــرَّوضَ لــولاكِ
ومــا حَــواني غــيــرُ مَــغْــنــاك
ولم أَفِحْ حــتى تــكــوني مــعي

✡✡✡✡✡

فــيكِ وفي الــوردةِ سِــرُّ الــصِّــبــا
وفي الــصِّــبــا سِــرُّ الــهوى والجــمــالْ
فــإنْ تَــرَيْــني واجــمــاً بــاهــتــاً
حــيــالَــهــا أخشى عــلــيــهــا الــزّوال
فــإنّــني شــاهــدتُ طــيفَ الــرّدى
يــنــسلُّ كــالــسّــارقِ بــين الــظّلالْ

(١) المَخْدَعُ: الحجرة في البيت.

ولاحَ لـي فـي الـــــورَقِ الــــنَّـــــامـي

مُــــنــــطـــرِحـــاً في الأرض قُـــدّامـي

أشــــــبـــــاحُ آمـــــــالـي وأحـلامـي

أحـلامُ مَن؟ أحـلامُ مُـــــضْـــــنـــــاكِ

****

٣٨ - مقلتان

[السريع]

رأيتُ في عـيـنـيكِ سِـحـرَ الـهـوى
مُـنـدفِـقـاً كـالـنُّـورِ من نَـجـمـتـينْ
فـبتُّ لا أقـوى عـلـى دفـعـه
من ردّ عـنه عـارضـاً[1] بـالـيـدين؟
يـا جـنَّـةَ الحُبِّ ودنـيـا الـمُـنى
مـا خِـلْـتُـني ألـقـاكِ في مُـقْـلَـتـين

****

٣٩ - فردوسي

بـنـيـتُ فِـرْدوسـي وزَخْـرفْـتُـهُ
حـتى إذا مـا تمَّ ضـيّـعـتُـه
أجـريـتُ في أنـهـاره كـوثـراً
فـذاقَهُ الـنـاسُ ومـا ذُقـتُـه

****

(١) العارض هنا: ما يعترض المقدم على الأمر.

٤٠ - ثقيل

[الخفيف]

وثـــقـــيلٍ كـــأنه بَـــرْدُ كـــانـــو
نَ قـــلـــيلِ الحـــيـــاءِ جمٍّ الـــكلامِ

لـــيس يـــدري بـــأنه لـــيس يـــدري
إنَّ بـــعضَ الأنـــامِ كـــالأنـــعـــام

يـــتـــمـــنى يـــا بُـــعْـــدَ مـــا يـــتـــمـــنَّى
لـــو جـــرى ذكـــرُهُ عـــلـــى الأقلام

والـــذي أطـــمعَ الـــلـــئـــيمَ وأغـــرا
هُ بـــسبِّ الـــكِـــرام حِـــلْمُ الـــكِـــرام

والـــذي صـــيَّـــرَ الـــكـــريمَ حـــلـــيـــمـــاً
كُـــرْهُهُ أن يُـــعَـــدَّ صِـــنْـــوَ الـــطَّـــغَـــام[1]

مَـــنَـــعَ الـــبـــومَ أن يُـــصَـــادَ ويُـــرمَى
كـــونُهُ غـــيـــرَ صـــالحٍ لـــلـــطـــعـــام!

****

---

(١) أوغاد الناس.

٤١ - وداع

[الكامل]

ذهبَ الربيعُ ففي الخمائل وَحْشةٌ
مثلُ الكآبةِ من فِراقكَ فينا

لو دُمتَ لم تحزَنْ عليه قلوبُنا
ولئن أضَعْنَا الوردَ والنَّسْرينا

فلقدْ وجَدْنا في خِلالكَ زهرَهُ الْـ
ـمُفْترَّ والماءَ الذي يَروينا

ونسيمَهُ السَّاري كأنفاسِ الرضا
وشعاعَهُ يغشى المروجَ فُتونا

حُزتَ المحاسنَ في الربيع وفُقْتَهُ
إذْ ليس عندكَ عَوْسَجٌ[1] يُدمِينا

✡✡✡✡✡

يا أشهراً مَرَّتْ سِراعاً كالمُنى
لو أستطيعُ جعلتكنَّ سِنينا

وأمرتُ أن يقفَ الزمانُ عن السُّرى
كيلا نمرَّ بساعةٍ تُبكينا

ونمدّ أيديَنا فترجعُ لم تُصِبْ
وتعودُ فوقَ قلوبِنا أيدينا

خوفاً عليها أن تَساقطَ حسرةً
أو أن تَفيضَ لواعِجاً وشُجونا

---

(١) شجر من شجر الشوك (المفرد عوسجة).

قــد كــنـتُ خِــلْتُ الــدهــرَ حــطّمَ قــوسَهُ

حــتـى رأيتُ سِــهــامـهُ تُــصــمِــيــنـا

فـــكـــأنَّـــمـــا قـــد ســـاءَهُ وأمـــضـَّه

أنّـا تـمَـتَّـعْـنـا بـقـرْبِـكَ حـيـنـا

****

٤٢ - تحيَّة الشاعرِ

[الرمل]

قالها في بعض الشُّعراء وأهل الفكر في الوطن والمهجر «في يوبيل شكيب أرسلان»

امـنـحـيـني يـا نجـومُ الألَـقَـا
وهَـبـيـني يـا زهـورُ الـعَـبَـقـا

أبـعثُ الـشِّـعـرَ إلى الـدنـيـا هـوىً
وضـيـاءً وغِـنـاءً شَـيِّـقـا

فـإذا خـامـرَ نـفـسَـاً طَـرِبتْ
وإذا لامس قـلـبـاً خَـفَـقـا

وإذا يُـتـلَى لـمُـشـتَـاقٍ سَلا
وإذا يُـروى لـبَـاكٍ صَـفَّـقـا

فَـمِنَ الـشِّـعـرِ لـقـومٍ حـكـمـةٌ
ومـن الـشّـعـرِ لأقـوامٍ رُقى[1]

أنـا لا أسـتـعـذبُ الـشّـعـرَ إذا
لـم أجـدْهُ روضـةً أو أُفُـقـا

✡✡✡✡✡

حـبَّـذا لـيـلـتُـنـا من لـيـلـةٍ
يُـكْـرِمِ الأحـرارُ حُـرّاً لَـبِـقـا

شـاعـرٌ مـا إنْ جـرى في حـلْـبـةٍ
أبـداً إلاّ وكـان الأسـبَـقـا

كـاتبٌ لا بلْ سَـحـابٌ هَـتِـنٌ[2]
كم روى الأرواحَ خَـمـراً وسَـقـى!

(١) الرُقية: العوذة.

(٢) هتن المطر: هطل.

قُلْ لمن حاولَ أن يلحقَهُ
إنَّ هذا عارضٌ[1] لن يُلْحَقا

قلمٌ يَهْمِي على أمَّته
رحمةً إذ تُمطِر الدنيا شَقَا

وإذا ما أوذِيَتْ أو ظُلِمَتْ
أمْطرَ الدُّنيا شُواظاً[2] مُحْرِقا

ودَوتْ زعْقاتُه كابن الشَّرى
ريعَ في عِرِّيسه أو ضويقا[3]

هو للحقِّ إلى أن ينجَلي
وعلى الباطل حتى يُزهَقا

أنفَق العُمرَ على خِدمتِها
آهِ ما أغلى الذي قد أنفَقا!

قُلْ لمن أَرجفَ كي يُقلقَهُ
في حِماه: إنَّه لن يُقْلَقا

ولمن حاولَ أن يُغضِبَهُ:
إنَّه أعلى وأسمى خُلُقا

أأميرٌ تتَّقيه دولةٌ
يتوقَّى كاشحاً مختلِقا؟

وهو مثلُ الشمس لن يبلغَها
صاعدٌ مهما تعالى وارتقى

إنَّ يوبيلَكَ يُوبيلُ النُّهى
هنَّأتْ (بغدادُ) فيه (جِلَّقا)[4]

****

(١) السحاب يعترض الأفق.

(٢) القطعة من النار.

(٣) الشَرى: موضع تنسب إليه الأسود، ويقال للشجعان: هم أسود الشَّرى. وعرِيسة الأسد (دون تشديد) ما يجمعه في مأواه لأشباله، كالعش للطائر.

٤٣ - أخو الورقاء

[الكامل]

رسالة إلى الشاعر القروي أُلقيت في الحفلة الوداعية التي أُقيمت في ولاية تكساس وقد تعذَّر على النَّاظم حُضورَها.

لـــلـهِ من عَـبَثِ الـقـضـاءِ وسُـخْـرِهِ
بـالـنـاسِ والحـالاتِ والأشـيـاءِ

كم دُرّةٍ في الـتَّـاجِ، ألفُ مـثـلُـهـا
في الـقـاعِ، لم تـخـرُجْ من الـظـلـمـاءِ!

ولـكم تـعـثَّـرَ بـالـغـبـارِ سَـمَـيْـدَعٌ[1]
وانـداحتِ الأَطـوادُ لـلـجُـبـنـاءِ

ولـكَم جَـنَى عِـلْمٌ عـلى أربـابِهِ
وجـنَى الـهـنـاءَ جـمـاعـةُ الجُـهلاءِ

أرأيتَ أعـجبَ حـالـةٍ من حـالـنـا
أَزِفَ الـرَّحـيلُ ولـم نَـفُـزْ بـلِـقـاءِ!

عـاشتْ شُـهـوراً بـالـرَّجـاءِ قـلـوبُـنـا
وبـلـحـظـةٍ أمـستْ بـغـيـرِ رجـاءِ

مـاتتْ أمـانـيـنـا الحِـسَـانُ أَجِـنَّـةً
لم تَـكْـتَـحِلْ أجـفـانُـهـا بـضـيـاءِ

فـكـأنَّـهـا بَـرْقٌ تـألَّقَ وانـطـوى
في الـلـيل، لم تـلْـمـحْهُ مُـقـلـةُ راءِ

وكـأنـنـا كـنَّـا نُـحـلِّقُ في الـفـضـا
صُـعُـداً لـنـلـمسَ مَـنـكِبَ الجـوزاءِ

---

(١) السيد الكريم السخيّ الشجاع السريع (جمعه: سمادع وسمادعة).

حـتى إذا حـانَ الـوصـولُ.. رَمَتْ بـنـا
نـكْـبـاءُ عـاتـيـةٌ إلى الـغَـبـراء[1]!
وكـأنَّ « تِـكْـسَـسَ» وهي في هـذا الحِـمى
صُـقْـعٌ[2] « كـسـانـبـولٍ » قَـصِـيٌ نـاءِ
طُـوبى لـهـا، إن كـان يـعـلـم أهـلُـهـا
أنَّ الــنـزيلَ بـهـا أخـو الــورْقـاءِ[3]
كـانتْ مَـسـارحَ « لـلـرُّعـاةِ » فـأصـبـحتْ
لـمّـا أتـاهـا، كـعـبـةَ الـشُّـعـراء
هـو بـلـبلٌ عَـبَقُ الـنُّـبـوّةِ في أغَـا
نِـيه، وفـيـهـا، نَـكْـهَـةُ الـصَّـهْـبـاء
وجلالُ لـبـنـانٍ وقـد غـمـرَ الـمَـسَـا
هـضـبـاتِه، وانـسـالَ في الأوداء
غـنَّى، فـفي الـنَّـسـمـاتِ والأوراق والـ
غُـدرانِ أعـراسٌ بلا ضـوضـاء
وبـكى، فـشـاعَ الحـزنُ في الأزهـار والـ
أظلالِ والألـوان والأضْـواء
هـو نـفـحـةٌ قُـدْسـيَّـةٌ هـبـطتْ إلى
هـذا الـثّـرى من عـالَمِ اللألاء
لـو عـاد لـلـدنـيـا الـبُـراقُ وحُـزتُهُ
مـا كـان إلا نـحـوَهُ إسْـرائي[4]
أشـكـو الـبِـعـادَ ولـيس لي أن أشـتـكي
فـسـمـاؤهُ مَـوصـولـةٌ بِـسَـمَـائي

(١) الأرض.
(٢) الناحية والجهة والمحلّة.
(٣) الحمامة الورقاء: الرمادية اللون.
(٤) البراق: مركب الرسول (ص) ليلة الإسراء والمعراج.

مـا حــالَ بــين نــفـوسـنــا: مــا حــالَ بَـيْـ

ـنَ جُـسـومـنـا من أجْـبُلٍ وفـضـاء

فـلـكَمْ نـظـرتُ إلى الـرُّبـا فـلـمـحـتُه

في الأقْـحـوانِ الخَـيِّـرِ الـمِـعْـطـاء

وسـمـعتُ سـاقـيـةً تَـئنُّ فـخِـلْـتُـني

لِـبُـكـائِه أوطـانَه إصـغـائي

وإذا تـلـوحُ لـيَ الجـبـالُ ذكـرتُهُ

فـالـشـاعـرُ الـقَـرويُّ طَـوْدُ إِبـاء

مَن كـان يـحـلُمُ بـالـغـديـر فـإنَّه

يـبـدو له في كلِّ قـطـرةِ مـاء

إنْ كـنتُ لم أرَهُ فـقـدْ شـاهـدتُهُ

بـعُـيـونِ أصـحـابي، وذاكَ عَـزائي

✡✡✡✡✡

أفَـتَى الـقَـوافيَ كـالـشّـواظ عـلـى الـعِـدا

وعـلـى قـلـوبِ الـصَّـحْبِ كـالأنـداء

سـارت إلـيكَ تحـيَّـتي ولـو انَّـني

خُـيِّـرتُ، كـنت تحـيـتي ودُعـائي

****

٤٤ - شاعر الدّير

[البسيط]

أُلقيت في حفلة تكريم الشاعر مسعود سماحة.

عــادتْ ريــاضُ الــقــوافي وهي حَــالــيــةٌ
وكــان صــوَّحَ فــيــهــا الــزهــرُ والــعُــشُبُ

واسْــتــرجَــعتْ دولــةُ الأقلام نــخــوتَــهَــا
وكـــان أدْركَـــهـــا الإعـــيـــاءُ والـــتَّـــعب

بــشـــاعــرٍ عَــبــقــريٍّ، في قــصــائــده
عــطْــرٌ وخــمــرٌ وسَــحــرٌ رائقٌ عَــجَب

فــاشــربْ بــروحكَ خَــمــراً كــلّــهــا أرَجٌ
وانــشَقْ بــروحكَ عــطــراً كــلُّهُ طَــرَب

وامــرَحْ بــدنــيــا جــمــالٍ من تــصــوُّره
فــإنَّــهـــا الـــسّـــحـــرُ إلا أنّه أدَب

والــبَسْ مَــطــارفَ حــاكَــتْــهَــا يــراعــتُهُ
تَــبقى عــلــيكَ ويَــبلَى الخَزّ والــقَــصَب[1]

كم دُرَّةٍ يــتــمــنّى الــبــحــرُ لــو نُــسِــبَتْ
إلــيه، بــاتتْ إلى مــســعــودَ تَــنْــتــسِب

لــو أنَّــهـا فــيه لم تــهــتَجْ غَــواربُه[2]
لــكــنَّــهــا لــســواهُ فــهــو يَــصــطَــخِب

فلا جُــنــاحٌ إذا مــا قــال شــاعــرُنــا
لــلــبحــر: يــا بــحــرُ أغلى الــدُّرِّ مــا أهَب!

✡✡✡✡✡

(١) الخزّ: الحرير، والقصب: أنابيب من جوهر. والمُطْرف: الرداء من الحرير (والجمع: مطارف).

(٢) غرب كل شيء حدّه.

يـا شـاعـرَ «الـدَّيـرِ»[1] كم هَـلَّـهْـلتَ قـافـيـةً
غـنّى الـرواةُ بـهـا واخْـتَـالتِ الـكُـتبُ
طلاقَـةُ الـفـجـرِ فـيـهـا وهـو مـنـبـثقٌ
ورقَّـةُ المـاء فـيـهـا وهـو مُـنـسِـكب
مـرَّتْ عـلى هَـضـبـاتِ الـدَّيـر هـائـمـةً
فـكـادَ يـورِقُ فـيـهـا الـصَّـخـرُ والحـطب
إذا تَـسـاقَى الـنَّـدامى الـراحَ صـافـيـةً
كـانت قَـوافـيكَ في الـرّاح الـتي شـربـوا
فـأنتَ في ألـسُنِ الأشـيـاخِ إنْ نـطـقـوا
وأنت في هـمَمِ الـشُّـبـان إنْ وثـبـوا

✡✡✡✡

مـسـعودُ عـيدُك والـشّـهـرُ الجـمـيلُ[2] مـعـاً
قـد أقـبلا وأنـا في الأرضِ أضْـطَـرب
يـحـزُّ نـفـسيَ أنِّي الـيـومَ مـبـتـعِـدٌ
وأنت من حـولكَ الأنـصـارُ والـصَّـحَبُ[3]
الـبِـيـدُ «والـنـاس» مـا بـيـني وبـيـنـكمُ
لـيت المَـهَـامِهَ[4] تُـطْـوَى لي فـأقـتـرِبُ
مـا كـان أسـعـدَني لـو كـنتُ بـيـنـكمُ
كـيـمـا يـؤدي لـسـاني بـعضَ مـا يـجب
لـصـاحبٍ أنـا تـيَّـاهٌ بـصُـحْـبـتِهِ
وشـاعـرٍ طـالمـا تـاهتْ به الـعَـرَب

****

(١) دير القمر بلدة الشاعر سماحة.
(٢) شهر أيار ١٩٣٩
(٣) الصحْب: (على الأصل) وجمعها أصحاب.
(٤) المهمه: المفازة البعيدة، وجمعها (مهامه).

٤٥ - لا يُدرِك الهرمُ النجوم

[مجزوء الكامل]

قصيدة بعث بها إلى صديقه الشاعر المرحوم مسعود سماحة.

يا شاعراً حلوَ المودّة في الحضورِ وفي الغيابْ
شَهْدٌ ولاؤكَ والأنامُ ولاؤهُمْ شَهدٌ وصَاب[١]
أنا إن شكوتُ إليك منكَ، وسالَ في كُتُبي العتابْ
فحكايتي كحكايةِ الظمآنِ في قَفْرٍ يَباب
لم يَرْوِهِ لمعُ السَّرابِ فراحَ يستسقِي السَّحاب
فهَمَى فكان الخيرُ فيه للأباطحِ والهِضاب
« مسعودُ » أهونْ بالمشيبِ فما امَّحى إلا الخضاب
ماذا عليكَ من الثلوجِ وفي ضلوعكَ حَرُّ آب
الكأسُ أجملُ في النواظر إذ يرصِّعُها الحَبَاب[٢]
إنْ شابَ منك المَفْرِقَانِ فما أظنّ القلبَ شاب
لا تزعُمَنَّ له المتابَ فإنّ توبته كذاب
ما زالَ يخفُقُ بالهوى، ويفيضُ بالسِّحر العُجاب
ويُريكَ دنيا لا تُحَدُّ، ومن ورائك ألفَ باب
دنيا من اللذّاتِ والأفراح في دنيا عَذَاب
ويُريكَ جنّاتِ الجَمالِ وأنت في الطَّللِ الخَراب

✡✡✡✡

أفَتى القوافي الشادياتِ كأنها أطيارُ غاب

---

(١) الصاب: عصارة شجر مرّ (واحدته صابة).

(١) الفقاعات التي تعلو سطح الشراب (اليعاليل).

إنْ قيلَ إنَّك صِرتَ شيخاً قُلْ: أجلْ شيخَ الشَّباب
أتُرى إذا العنوانُ ضاع يضيعُ مضمونُ الكِتاب؟
السَّيفُ ليس يَعيبُه مشيُ الخُلوقةِ في القِراب[1]
والخمرُ خمْرٌ في إناءٍ من لُجينٍ أو تراب
وحياةُ مثلكَ ليس تدخلُ في قِياسٍ أو حِساب
فغدٌ زمانُكَ مثلُ أمسٍ وإنْ مضى عصرُ الشَّباب
لا يدركُ الهَرمُ النجومَ وأنت في الدنيا شِهاب
وإذا يُعابُ على المَشيب فتىً فَمَن ذا لا يُعاب
أو كان يُمدحُ بالسّوادِ فمن تُرى مدحَ الغُراب؟

✡✡✡✡✡

يا نفحةً من شاعرٍ
أرِجَ الكِتابُ بها وطابْ
الفجرُ أهدى ليَ السَّنا
والروضُ أهدى ليَ المَلاب[2]

****

(١) قِراب السيف: غمده. والخلوقة بفعل القِدم والاستعمال.
(٢) السنا: النور. والمَلاب: ضرب من الطيب كالخَلوق والزعفران.

٤٦ ـ بنت القفر

[الوافر]

أرسل الشاعر مسعود سماحة إلى صاحب الديوان القصيدة التالية مصحوبة بكميَّة من البُنْ الفاخر.

أدِرْهـا قـهـوةً كـعـصـيـر بِـكـرِ
تجـلَّتْ في الـكـؤوسِ بـكفِّ بِـكـرِ[1]
كـأنَّ المسْكَ يـغـلـي حـينَ تـغـلِي
ويـجـري في الأواني حـينَ تجـري
تُـعـيدُ إلى الـضَّـعيفِ قـوىً وتُـهدي
إلـيه غـبـطـةً وصَـفـاءَ فِـكـرِ
تَـعـشَّـقُـهـا الـشـعوبُ فَكلُّ شـعْبٍ
أعـدَّ لـهـا الـثـغـورَ وكلَّ قُـطـرِ
تَـلـوَّحَ حـبُّـهَـا في كلِّ كـوخٍ
ولاح حَـبَـابُـهـا في كلَّ قَـصْـرِ
يَـضُـوعُ عـبـيـرُهـا بـرمـالِ نَـجـدٍ
ويـعـبَقُ عِـطـرُهـا بـقـصـورِ مِـصْرِ
تـمـشـي عـنـبـراً في كلِّ أنفٍ
وتـنـزلُ قـرقـفـاً[2] في كلِّ ثَـغْـرِ
ويـزري طـعـمُـهـا حُـلْـواً ومُـرّاً
بمـا في الأرض من حُـلْـوٍ ومُـرّ

✡✡✡✡✡

(١) القهوة البكر، والفتاة البكر.
(٢) الخمر.

وسَمراءٍ إذا زادتْ صباحاً
أحَبٌّ إليَّ من بيضٍ وسُمر
يحوكُ لها البخارُ رداءَ نَدٍّ(١)
ويكسوها الحُبابُ وشاحَ دُرّ
كَسرْتُ الدِّنَّ من عهدٍ بعيدٍ
فأمستْ بعدَ خمرِ الدنِّ خمري
فإنْ حلَّت قُواكَ جيوشُ ضَعْفٍ
وهَالَكَ عبءُ همٍّ مُسْبَطِرّ(٢)
عليكَ بقهوةٍ رقَّتْ وراقتْ
كشِعرِكَ لا يُجارَى أو كشِعْري
(مسعود)

فأجابه بالقصيدة التالية:

شَرِبْنَاها على سِرّ القوافي
وسِرِّ الشاعرِ السَّمْحِ الأَبَرِّ
سقانا قهوتَيْنِ (بغيرِ مَنٍّ)
عصيرِ شُجَيرةٍ وعصيرِ فِكْر
فنحن اثنانِ: سَكْرانٌ لحينٍ
على أمْنٍ، وسكرانٌ لدهر
فَمَنْ أمسى يهيمُ ببنتِ قَصْرٍ
فإنّا هائمونَ ببنتِ قَفْر
إذا حَضَرَتْ فذلكَ يومُ سَعْدٍ
وإن غابتْ فذلك يومُ قهر
لها من ذاتِها سِتْرٌ رقيقٌ
كما صَبَغَ الحَياءُ جبينَ بِكْر

---

(١) ضرب من الطيب يدخّن به.
(٢) اسبطرّ: اضطجع وامتد.

إذا دارتْ عــــلى الجُلاّس هــــشُّــوا
كـــأن كَـــؤوسَـــهَـــا أخــبـــارُ نــصْـــر
ونـــرشـــفُـــهـــا فـــنـــرشفُ ريقَ خَـــوْدٍ[1]
ونـــنـــشَـــقُّـــهـــا فـــنـــنـــشَقُ ريحَ عـــطـــر
ولا نـــــخـــــشى من الحُـــكّـــامِ حَـــدّاً
وعـــــنـــــدَ الـــــلـهِ لم تـــــوصَمْ بـــــوِزْر
فـــمـــا في شــــربــــهـــا إثمٌ ونُـــكـــرٌ
وشــــربُ الخــــمـــرِ نـــكـــرٌ أيُّ نُـــكـــرِ
ولـــيـــستْ تـــســـتـــخفُّ أخَـــا وقـــارٍ
وبـــــنـــتُ الــــدنِّ بـــــالأحلامِ[2] تُـــــزري
وتحـــفظُ ســـرَّ صـــاحِـــبِـــهـــا مـــصـــونـــاً
وبـــــنـتُ الـــكـــرم تـــــفـــضَـحُ كلَّ ســـرّ
ولـــــلــــصَّــــهـــــبَـــــاء أوقـــــاتٌ، وهــــذي
شــــرابُ الــــنـــاس في حَــــرٍّ وقَــــرّ
وتَـــصـــلحُ أن يُـــطـــافَ بـــهـــا مـــســـاءً
وتَـــحُـــسنُ أن تـــكـــونَ شـــرابَ ظُـــهْـــر
فـــلـــو عـــرفتْ مـــزايـــاهـــا الـــغـــواني
لـــعُـــلِّقَ حـــبُّـــهـــا في كلِّ نَـــحْـــر
كـــأن حـــبـــوبَـــهَـــا خُـــضْـــراً وصُـــفْـــراً
فـــصُـــوصُ زُمُـــرُّدٍ وشـــــنور[3] تِـــبْـــر
كـــــأن الجنَّ قـــــد نـــــفـــــثتْ رُؤاهـــا
عـــلى أوراقِـــهـــا في ضَـــوْءِ فـــجـــر
ألـــستَ تـــرى إلـــيـــهـــا كـــيف تـــطـــغى
وكـــيـــف تـــثـــورُ إن مُـــسّتْ بـــجـــمـــر

(١) الحسناء الشابة.

(٢) العقول.(الحِلم: العقل).

(٣) الشذرة: هي، في الأصل، القطعة من الذهب.

كـأنَّ نــخـيلَ مـصـرٍ قـد حَـسَـاهـا
وإلا مـا اهـتـزازُ نـخـيلِ مِـصـر؟
جَـلَـوْتُ بـهـا من الأكـدارِ ذِهْـني
كـمـا أنّي غـسـلتُ هـمـومَ صـدري
ومـا هيَ قـهـوةٌ تُـطـهَى وتُـحْـسَى
ولـكن نَـفـحَـةٌ من روح حُـرّ
حَـوى في شِـعـره عَـبَـثُ (ابنِ هـاني)
وزادَ عـلـيه فـلـسـفـةَ (الـمَـعـرّي)[1]
فـيـا لكَ شـاعـراً لـبِـقـاً لَـعُـوبـاً
كـأنّ يـراعَـهُ أُنـبـوبُ سِـحْـر
يـفـيضُ سَلاسَـةً في كلّ لـفظ
ويـجـري رِقَّـةً في كلّ سـطـر
حـوتْ دارُ «الـسـمـيـرِ» هـديـتَـيْهِ
وتَـحْـوي هـذه الأوراقُ شُـكـري

****

(١) ابن هانئ هو أبو نواس، والمعرّي هو أبو العلاء.

٤٧ - تلكِ المنازل

[الكامل]

ألقاها في حفلة تكريم الأستاذ كمال جُنبلاط.

تلك المنازلُ.. كيف حالُ مُقيمها[(١)]
إنّا قنِعْنَا بعدَها.. برسُومِها

تمشي على صُوَرِ الطيورِ لِحَاظُنا
نَشْوَى، كَمَنْ يُصغي إلى ترنيمِها

ونكادُ نعشقُ في الأزاهيرِ الدُّمى
أزهارَها ونُحسُّ نَفْحَ شَمِيمِهَا

نَشتَاقُها في بؤسِنا ونعيمِنا
ونُحبُّها، في بؤسِها ونعيمِها

لولا الخيالُ يُعينُ أنفسَنا لما
سكنتْ ولم يهدأْ صُراخُ كَلومِهَا

ولكان شُهْدُ الأرضِ في أفواهِنَا،
وهو اللذيذُ، أمَرَّ من زَقُّومِها[(٢)]

يا حاملاً في نفسه وحديثه
أحلامَ أَرْزتِها ولُطْفَ نسيمِها

حدِّثْ بَنِيْها شيخَهُمْ وفتاهُمُ
عن ليثِ غابتِها وظَبْيِ صَريمِها[(٣)]

---

(١) يريد السؤال عن المقيمين فيها.

(٢) كل طعام يقتل (في المعاجم: طعام أهل النار).

(٣) الصريم: أرض لا تنبت شيئاً. والقيصوم: نبات قريب منه، كثير في البادية.

خَبِّرهمُ أنَّ الكواكبَ لم تزلْ
تَحنُو على العشاقِ بين كُرومِها
مازال بُلبلُهَا يُغنّي للرُّبا
والسّحرُ تنفُثُه لواحِظُ ريمِها
والرِّيحُ تلتقطُ الشَّذا وتُذيعُهُ
من شيحِها طَوراً ومن قَيْصُومِها[1]
وهضابُها يلبسْنَ عَسْجدَ شمسِها
حيناً، وأحياناً لُجينَ نجومِها[2]
والفجرُ يرقصُ في السُّهول وفي الذُّرا
متهللاً فتهَشُّ بعد وُجومِها
إن بُدّلتْ منها التُّخومُ فإنَّها
ما بَدّلتْ واللهِ غيرَ تُخومِها
حَدِّثهُمُ عن ليلها ونجومِها
وعن الهوى في ليلها ونجومِها
وعن الشُّطوطِ الحالماتِ بعَوْدةٍ
للغائبينَ، ورَجعةٍ لنعيمِها
وعن الرّوابي الشَّاخصاتِ إلى السَّما
العالقاتِ رؤوسُها بغيومِها
فكأنَّها سُحُبُ هَوتْ من حالقٍ
ورستْ على وجهِ الثَّرى بهمومِها
وعن الحياةِ جميلِها وقبيحِها
وعن النفوس صحيحِها وسقيمِها
وعن الأُلَى مَلَكوا فلمْ يتورّعوا
عن سلْبِ أعزلِها وظُلْمِ يتيمِها

---

(١) الشيح: نَبْت سُهْليٌّ رائحته طيبة قويّة.

(٢) العسجد: الذهب. واللجين: الفضة.

وعن الـــثــعـــابـــينِ الـــتي في أرضِـــهـــا

وعن الـذئـابِ الـعُصْلِ[1] خَلْفَ تُـخومِـهـا

الجـــاهـــلـــيـــةُ، آهِ من أصـــنـــامِـــهـــا

بـوركتَ يـا مَنْ جَـدَّ في تحـطـيـمِـهـا

والـــطـــائـــفـــيَّـــةُ أنتَ أوَّلُ مِـــعْـــوَلٍ

في سـورهـا، ثـابـرْ عـلى تَـهـديمِـهـا

حـــتى تـــعـــودَ وواحـــدُ أُقْـــنـــومُـــهـــا

ويـحـلُّ روحُ الـلـهِ في أُقْـنـومِـهَـا[2]

قل لــلــشَّـــبِـيـبَـةِ أن تُـــبِـــينَ وجـــودَهـــا

وتُـعـزَّ أنـفـسَـهَـا بِـهَـوْنِ جـسـومِـهـا

كم ذا تَـــشِـعُّ ولا تُـــضـيءُ عـــلـــومُـــهَـــا

سُـرُجُ الـظلامِ إنْ جـلـيلُ عـلـومِـهـا

يـــا واحـــداً مـــنـــهـــا يُـــحَـــمِّلُ نـــفـــسَـهُ

آلامَ عـانـيـهـا ولـيلَ سـلـيـمِـهـا[3]

إنْ أكـــرمَـــتْكَ نـــفـــوسُـــنـــا في لـــيـــلـــةٍ

فـلـكمْ قَـضَـيْتَ الـعـمـرَ في تَـكـريمِـهـا

****

(١) العصل: الالتواء والاعوجاج والصلابة (أعصل، عصلاء) يشير إلى الأنياب.

(٢) الأقنوم: الأصل.

(٣) العاني: الأسير، يريد هنا: المتعب والمعاني. والسليم: اللديغ (السَّلْم: لدغة الحية).يريد هنا: المصاب.

٤٨ ـ دمعة الشاعر

إلى روح الشاعر خليل مطران

[مجزوء الرمل]

(مرات يتفجع فيها صاحب الديوان على الراحلين من زملائه الشعراء).

عندما أبدعَ هذا الكونَ ربُّ العالمينا
ورأى كلَّ الذي فيه جميلاً وثمينا
خلَقَ الشاعرَ... كي يَخلُقَ للناس عُيونا
تُبصِرُ الحُسنَ...وتهواه حَراكاً وسكونا
وزماناً، ومكاناً، وشُخوصاً وشؤونا
فَارْتقَى الخَلْقُ...وكانوا قَبلَهُ لا يرتَقُونا
واستمرَّ الحُسْنُ في الدنيا ودام الحبُّ فينا

✡✡✡✡✡

إنه روحٌ كريمٌ لبِسَ الطينَ المَهينا
ونبيٌّ بَهَرَ الخَلقَ وما أعلن دينا
يلمحُ النَّجمَ خفيّاً، ويرى العِطر دفينا
ويُرينا الطُّهرَ حتى في الجنَاة الآثمينا
ويُحسُّ الفرحَ الأسمى جريحاً أو طَعينا
كلّما شاعت دِماه أملاً في البائِسينا

✡✡✡✡✡

مَن سِواه ثائرٌ فيه وقارُ الناسِكينا
مَن سِواه عابدٌ فيه جنونُ الثائرينا
مَن سِواهُ عانق الله يَقيناً لا ظنونا

مـن تُــــرى إلاّهُ يـــحـــيـــا نـــغَـــمَـــاتٍ ولحُـــونـــا
مـن تـــــرى إلاّه يُـــفـــنِي ذاتـه.. فـي الآخَـــريـــنـــا

✡✡✡✡

لـــو أبى الـــلـهُ عـــلـــيـنـا وعـــلـــيه أن يـــكـــونَـــا
عـــادتِ الأرضُ وهَـــاداً شـــاحِـــبـــاتٍ وحُـــزُونـــا[1]
تـــرتـــدي الـــوحْـــشَـــةَ والـــهَـــول ضـــبـــابـــاً ودُجـــونـــا[2]
وأقـــاحـــيـــهـــا هـــشـــيـــمـــاً لا أريـــجـــاً وفُـــتُـــونـــا
وسَـــواقـــيـــهـــا سَـــرابـــاً هـــازئـــاً بـــالـــظَّـــامِـــئـــيـــنـــا
وشَـــواديـــهـــا[3] دُمـىً خـــرســـاءَ تـــؤذي الـــنَّـــاظـــريـــنـــا
واسْـــتَـــفـــاقَ الجـــدولُ الحَـــالِمُ غَـــيـــظـــاً وجُـــنـــونـــا
واســـتـــوى الـــنـــهـــرُ عـــلـى وجه الـــثَّـــرى جُـــرحـــاً ثَـــخِـــيـــنـــا
وانـــطـــوتْ دنـــيـــا الـــرؤى فـــيـــهـــا.. ومـــاتَ الحَـــالمـــونـــا

✡✡✡✡

أي وربي، لـــو مـــضَـى الـــشـــاعـــرُ عـــنَّـــا لـــشَـــقـــيـــنـــا
ولـــعِـــشـــنـــا بـــعـــدَه في غُـــصَـصٍ لا يَـــنـــتـــهـــيـــنـــا
ولأمـــســـى الـــلـهُ مـــثْلَ الـــنـــاس مَـــغـــمـــومـــاً حـــزيـــنـــا!

✡✡✡✡

زعـــمـــوا ولّـى ولـن يـــرجِـعَ... ويـحَ الجَّـــاهِـــلـــيـــنـــا
لـم يمُـتْ من كـــان لـــلـــه خـــلـــيـلاً وخَـــديـــنـــا
عـــاش حِـــيـــنـــاً، وسَـــيَـــحْـــيـــا بـــعـــدمـــا غـــاب قُـــرونـــا

****

(١) الأرض فيها حزون غليظة.
(٢) الدجن: الغيم المطبق في السماء.

٤٩ - مازال في الأرض حيّاً

[الخفيف]

قال الشاعر هذه القصيدة عندما جاءه نبأ وفاة صديقه الأديب أمين الريحاني، وقد تأثر بالنبأ المفاجىء.

أيُّ خَطْبٍ دَهَا فبَاتَ المَهجرْ
مثلَ حقلٍ مَرَّتْ عليه صَرْصَرْ[1]
ضَرَبتْ عِقْدَ زهرِهِ فتبعْثَر
ومشت فوق عُشبه فتنكَّر
بَعْدَ أن كان عبهريَّاً[2] نَديّا

✡✡✡✡✡

قد سمعنا يا ليتَنا لم نسمعْ
نبأً زعزعَ القلوبَ وضَعضعْ
فجَزِعنا وحَقُّنا أن نجزَعْ
لفراقِ الفتى الأديبِ الألمَعْ
وذرفنا دمعاً سَخِيناً سَخيّا

✡✡✡✡✡

قد بكَينا كما بكى لبنانُ
وحنَتْنا كأرزِه الأحزانُ
ليس بَعْدَ الأمينِ ثَمّ مكانُ
غيرَ مُستوحِشٍ ولا إنسانُ
ذو وفاءٍ لم يَبْكِ ذاكَ الوفيّا

✡✡✡✡✡

---

(١) باردة.

(٢) العبهر: الياسمين أو النرجس.

ألمــعيٌّ قـــد غـــابَ تحت الـــرَّغَـــامِ[1]
إنَّـــمـــا لم يـــغب عن الأفـــهـــامِ
فـــهـــو بـــاقٍ فـــيـــنـــا مـــدَى الأيـــام
فـــعـــلـــيه تحـــيـــتي وسلامـي
عـــاش حـــراً ومـــات حُـــراً أبـــيّـــا

✲✲✲✲✲

لم يُـــعـــفِّـــرْ جـــبـــيـــنَهُ في الـــتـــرابِ
لم يـــواربْ في مـــوقفٍ، لم يُـــحـــابِ
لـم يَـــبِـــعْ قـــومَهُ من الأغـــرَابِ
لم يَـسِـــرْ في ســوى طـريقِ الـصَّـواب
لم يـــكن خـــائـــنـــاً ولا إمَّـــعـــيّـــا[2]

✲✲✲✲✲

عـاش في الأرض مـثلَ زهـرِ الـبـنـفـسجْ
كـــلَّـــمـــا زادَ فَـــرْكُهُ يـــتـــأرَّجْ[3]
وكـــنـــجـــمٍ في بُـــرْجِه يـــتـــوهَّجْ
لا يـــبـــالـي أحـــبَّهُ مَن أدلَـجْ[4]
أمْ أحبَّ الـلـيلَ الـبـهـيمَ الـدَّجـيّـا[5]

✲✲✲✲✲

فـــابـــسِـــمي فـــوقَ قـــبـــرِه يـــا نجـــومُ
وتـــرنَّـــمْ مِنْ حـــولِه يـــا نـــســـيمُ

---

(١) التراب.
(٢) الإمعة: الذي لا رأي له، يتابع كل أحد، ولا يثبت على شيء.
(٣) الأرج: نفحة الطيب، ويتأرّج: تنتشر رائحته.
(٤) الدُّلجة: سير السحَر أو سير الليل كله.
(٥) دجا الليل: هدأ وسكن، مع انتشار سواده وخفوت نجمه. والبهيم من الإبهام.

فــالــدفــينُ الــذي هــنــاكَ يُــقــيمُ

بَــطَلٌ مُــصــلِحٌ وروحٌ كــريم

ولــســانٌ تــخــالُه نــبــويّــاً

وتــنــصَّتْ إذا رأيتَ الأقــاحي

جــاثــيــاتٍ في هــيــكلِ الأرواحِ

قــائلاتٍ بــلــهــجــةِ الــنُّــصّــاحِ

أيــهــا الــنــاسُ! بــعضَ هــذا الــنُّــواحِ

« فــأمــينٌ » مــا زال في الأرضِ حَــيّــا

****

٥٠ - يا قائد القوم

[البسيط]

رثى بها صديقه الحميم الدكتور رزق حداد ألقاها في الحفلة التأبينية.

يا أيها الشِّعرُ أسعِفْني فأرثيه
ويا دموعُ أعينيني فأبكيهِ

بحثتُ لي عن مُعَزٍّ يومَ مصرعه
فلم أجِدْ غيرَ محزونٍ أُعزِّيهِ

وما سألتُ امرَءاً فيما تَفَجُّعُهُ
إلا وجاوبَ: « إني من مُحبّيه »

كأنَّما كلُّ إنسانٍ أضاعَ أخاً
أو انطوتْ فجأةً دنيا أمانيه

فذا أسَاهُ لهيبٌ في أضالُعه
وذا أساهُ دموعٌ في مآقيه

فهل دَرَى أيَّ سَهْمٍ في القلوب رمى
لمّا نعاهُ إلى الأسماع ناعِيه؟

يا شاعرَ الحُسْنِ هذا الرَّوضُ قد طلعتْ
فيه الرَّياحينُ وافترَّتْ أقاحِيه

وشاعَ « أيار » عِطْراً في جوانبِه
ونَضْرةً واخضِراراً في رَوابيه

فأين شِعرُكَ يسري معْ نسائمه؟
وأين سِحْرُكَ يجري في سَواقيه؟

هَجَرْتَهُ فامَّحتْ منه بَشاشَتُهُ
مات الهوى فيه لمّا مات شَاديهِ

أغنى عن الدرّ في القيعان مُختبئاً
دُرٌّ يَساقِطُهُ الحدّادُ من فِيه

وكـان لـلـسِّـحـر تـأثـيـرٌ فـأبـطـلَهُ
بـالـسِّـحـرِ يـجـري حَلالاً في قـوافـيه
بلاغــةُ «المــتــنــبي» في مَــدائــحه
ودَمْعُ «خـنـسـاءَ صَـخْـرٍ»[1] في مـراثـيه
لا يَـعْـذُبُ الـشِّـعـرُ إلا حـين يـنـظِـمُهُ
أو حــينَ يُــنــشــده أو حــينَ يَــرويه
ويـا طـبـيـبـاً يـداوي الـنـاسَ من عِـلَلٍ
داءُ الأسى الـيـومَ فـيـهمْ مَنْ يُـداويه؟
أمـسى الـذي كان يُـشـجـيـنـا ويُطـربـنـا
لا شيءَ يُــطـربُهُ لا شيءَ يُــشــجِـيه
لـقـد تـسـاوى لـديه شـدْوُ سـاجِـعـةٍ
وصـوتُ نـائـحـةٍ في الحيِّ تَـبـكـيه[2]
صـارتْ لـيـالـيهِ نَـومـاً غـيـرَ مـنـقـطِعٍ
ولـم تــكنْ هــكــذا قــبلاً لــيــالــيه
قد كـان نَـبْـراسَـنـا في الـمُـعْـضِلات إذا
مـا لــيــلُــهَـا جَنّ وارْبَــدَّتْ نـواصِـيه[3]
فَــمَن لــنــا في غـدٍ إن أزْمــةٌ عــرَضَتْ
ولـيس فـيـنـا أخُـو حـزْمٍ يُـضـاهـيه
مَنْ لــلــحَـزينِ يُـواسـيه ويُـسـعـدُهُ
ولــلــمــريضِ يُـداويه فَــيَــشْــفـيه
يـا قـائـدَ الـقـومِ إن تـسـألْ فـإنَّـهمُ

---

(١) (الخنساء) الشاعرة التي بكت (في صدر الإسلام) أخاها (صخراً) في مراثٍ ذائعة.

(٢) سجع الحمامة، يريد: الغناء والشدو.

(٣) الناصية: مقدّم شعر الرأس.

(٤) تيه اليهود في سيناء، أربعين عاماً، بعد خروجهم من مصر، مع موسى عليه السلام.

باتوا حَيَارى كإسرائيلَ في التِّيهِ[٤]
لمّا رأوكَ مُسَجَّى بينهمْ علِموا
ما العيشُ غيرُ أخابيلٍ[١] وتَمويه
يا رزقُ قلبي عليك اليومَ منفطِرٌ
وكلُّ قلبٍ كقلبي في تَشَظّيه
لم يحوِ نَعْشُكَ جسماً لا حَراكَ به
بل أنت آمالنا موضوعةً فيه
غداً يُواريكَ عن أبصارِنا جَدَثٌ
لكنّ فضلَكَ لا شيءٌ يُواريه

****

(١) الخبال: الفساد، والأخابيل جمع (أخبولة).

٥١ - ليتهم عرفوه!

[الكامل]

رثى بها صديقه يعقوب روفائيل صاحب مجلة (الأخلاق).

يــا نــفسُ قــد ذَهَبَ الــرفــيقُ الألمــعي
فَــتَــجــلَّــدي لــفــراقِهِ أو فــاجــزَعي

هــذي الــنــهــايــةُ لا نــهــايــةَ غــيــرُهــا
لــلــحــيِّ إن يُــســرِعْ وإن لم يُــسْــرِعِ

لــلــموتِ مَنْ مــلَكَ الــبــســيــطــةَ كــلَّــهــا
أو حــازَ من دنــيــاه بــضــعــةَ أذرُعِ

فــازرعْ طــريــقَكَ بــالــورودِ وبــالــسَّــنــا[1]
لا يــحــصــدُ الإنــســانُ إن لم يــزرعِ

واعــملْ لــكي تــمــضي وتــبــقى رقــةٌ
في مَــبْــسمٍ أو نــغــمــةٌ في مَــسْــمعِ

أو صــورةٌ مــثلُ الــربــيعِ جــمــيــلــةٌ
في خــاطــرٍ أو نــاظــرٍ مُــســتَــمــتِعِ

✲✲✲✲✲

يــا صَــحْبَ يــعــقــوبٍ ويــا عُــشَــراءَهُ
مَنْ مــنــكمُ أبــكي ولا يَــبــكي مــعي؟

إنّــا تَــسَــاويــنــا فَــبَــيَن ضــلــوعِــكمْ
نــارٌ ومــثلُ ســعــيــرِهــا في أضــلُــعي

✲✲✲✲✲

---

(١) النور.

لـبـنـانُ! هـذا من ريـاضِكَ زهـرةٌ
ذهـبتْ كـأنْ[1] في الأرضِ لم تـتـضـوَّعِ
لـبـنـانُ! هـذا من سـمـائكَ كـوكبٌ
غـرَّبْـتَهُ حـتى انـطـوى في بَـلـقَعِ[2]
لـبـنـانُ! هـذا من مُـروجِكَ قـطـعـةٌ
فـيه بـشـاشَـةُ كلِّ مَـرْجٍ مُـمْـرِعِ[3]
قُلْ لـلـبـنـفـسجِ في سُـفـوحكَ والـرُّبـا:
ولّى شـبـيـهُكَ في الـوَداعـةِ فـاخْـشَعِ
وأمُـرْ طـيـورَكَ أن تـنـوحَ عـلى فـتىً
قـد كـان يـهـواهـا وإنْ لم تَـسـجَعِ
قـد عـاش مِـثـلُكَ لـلـمـروءةِ والـعُلا
مُـتـعـفِّـفـاً كـالـزَّاهـدِ الـمُـتـورِّعِ
مُـتـرفِّـعـاً في قـولِه وفِـعـالِه
عَـمَّن غَـوى وهَـوى ولم يـتـرفَّعِ
كم حـرَّضَـتْهُ الـنـفسُ في نَـزَواتـهـا
لـيـكونَ صـاحبَ حـيـلـةٍ أو مَـطْـمَعِ
فـأجـابـهـا : يـا نَـفْسُ لا تـتـورَّطي
صـدأُ الـنـفوسِ هي الـمطـامعُ فـاقـنَـعي
لـيس الـمُـحـاربُ في الـوغَى بـأشـدَّ بـأ
سَـاً من مُـحـاربِ نَـفـسِـه أو أشْـجَعِ

✡✡✡✡✡

يـا صـاحبي! أضنكْتَ[4] جسمَكَ فـاسـترحْ
وأطـلْتَ يـا يـعـقـوبُ سُـهدك فـاهـجَعِ

(١) مخففة من (كأنها).
(٢) المفازة لا شيء فيها.
(٣) مرُع الوادي وأمرع: انتشر فيه الكلأ أو أخصب، فهو مَريع ومُمرع.
(٤) من الضنك: الضيق.

حدَّثتَ قومَكَ حِقبةً فتَسمَّعوا
والآن دورُ حديثِهِمْ فتسمَّعِ

هجروا الكلامَ إلى الدموع لأنهُمْ
وجدوا البلاغةَ كلَّها في الأدمُع

كيف الْتفتُّ وسرتُ لا ألقى سِوى
مُتوجِّعٍ يشكو إلى مُتوجِّع

حتى الأُلَى نَفَثوا عليك سُمومَهُمْ
حَزَّ الأسى أكبادَهُمْ كالمِبْضَع[1]

عرفوا مكانكَ بَعْدَ ما فارقتَهُمْ
يا ليتَهُمْ عرفوه قبل المَصرَعِ

ولكمْ تمنَّوا لو تعودُ إليهِمُ
أنت الشبابُ، إذا مضى لم يرجعِ

☆☆☆☆☆

حنُّوا إلى أرَجِ الأزاهرِ بعدما
عَبَثَتْ بها أيدي الرياحِ الأَربَع

واستعذبوا الماءَ المسَلْسَل بعدَما
نضبَ الغديرُ وجفَّ ماءُ المَشْرع[2]

يا لوعةَ الأحبابِ حين تَساءلوا
عنه، وعادوا بالجوابِ الموجِعِ

إن الذي قد كان معْكُمْ قد مضى
من موضعٍ أدنى لأرفعِ موضع

---

(١) مبضع الجرّاح.
(٢) مشرعة الماء: مورد الشارب.

من عـــالَمٍ مـــتـــكـــلِّفٍ مـــتـــصـــنِّعٍ
تـــشـــقى نـــفـــوسٌ فـــيه لم تـــتـــصـــنَّعِ

لـــلـــعـــالَم الأســـمى الـــطَّـــهـــورُ، ومن مُـــجـــا
وَرَةِ الأنــــامِ إلـى جِـــوارِ الـــــمُـــــبْـــدِعِ

****

٥٢ ـ سكت الشادي وبُحّ الوتر!

[الرمل]

قالها يرثي رفيقه الشاعر ندره حداد وقد فاجأته المنيّة في حفلة عرس.

لا تَسَلْ أين الهوى والكوثرُ
سكت الشّادي وبُحّ الوَترُ

فجأةً.. وانقلبَ العُرسُ إلى
مأتَمٍ .. ماذا جرى؟ .. ما الخبر؟

ماجَتِ الدارُ بمن فيها، كما
ماجَ نهرٌ ثائرٌ مُنْكدر

كلُّهمْ مُستفسرٌ صاحبَهُ
كلُّهمْ يؤذيه من يَستفسِر

همسَ الموتُ بهم همستَه
إنّ همسَ الموتِ ريحٌ صرصرُ

فإذا الحَيْرةُ في أحْداقهِمْ
كيفما مالوا وأنّى نظروا

علموا... يا ليتهم ما علموا
أن دنيا من رُؤىً تُحتَضَر!

والذي أطربَهمْ عن قُدْرةٍ
بات لا يَقْوى ولا يَقْتَدِر

يبِسَ الضِحْكُ على أفواههِمْ
فهو كالسُّخْر وإن لم يَسخَروا

وإذا الآسي.. يدٌ مَخذولةٌ
ومُحيّا.. اليأس فيه أصفَر[1]

(١) الآسي: الطبيب.

شــــاع في الـــدار الأسى حـــتى شــكتْ
أرضُـــــهــــا وطـــــأتَه والجُــــدُر
فـــعـــلى الأضـــواء مـــنه فـــتْـــرةٌ
وعـــلى الألـــوانِ مـــنه أثَـــر
والـــقـــنـــاني صـــورٌ بـــاهِـــتــة
والأغـــاني عـــالَم مُـــنـــدَثِـــر
الـــهَـــنـــا أفـــلتَ من أيـــديـــهمُ
والأمـــاني..؟ .. إنـــهـــا تَـــنـــتَـــحِـــر
ذُبـــحتْ أفـــراحُـــهمْ في لَـــمـــحَـــةٍ
قـــوةٌ تَـــجـــني ولا تَـــعـــتَـــذِر
تَـــقْـــلعُ الـــنَّـــبت الـــذي تَـــغـــرسُهُ
والـــشَّـــذا فـــيه. وفـــيه الـــثَّـــمـــر
اِعـــبـــثي مـــا شـــئتِ يـــا دنـــيـــا بـــنـــا
وتحَـــكَّمْ مـــا تَـــشَـــا يـــا قَـــدَر
إن نـــكنْ زهْـــراً فـــمـــا أمـــجـــدَنـــا
أو نـــكُن شـــوكـــاً فـــهـــذا الخَـــطَـــر
فـــلـــنـــعشْ في الأرض زهـــراً ولـــيَـــطُل
أجلُ الـــشَّـــوكِ الـــذي لا يُـــزهِـــر

✡✡✡✡✡

رحلَ الـــشـــاعـــرُ عن دار الأذى
وانـــقـــضتْ مـــعه الـــلـــيـــالي الـــغُـــرَر[1]
كم حَـــوته وحَـــواهـــا مَـــلـــكـــاً
دولـــةُ الـــرُّوحِ الـــتي لا تُـــقـــهَـــر

---

(١) الأغرّ: الأبيض.

عـــــاشَ لا يُــــــنــــــكِــــــرُ إلا ذاتَه

إن حـبَّ الـــــذاتِ شـيءٌ مُــــنْــــكَــــر

شــاعــرٌ أَعْــجَبُ مــعــنىً صــاغَه

لــــلــبَــرايَــا.. مــوتُه المــبْــتَــكَــر

الجــــمــــالُ الحق مـــا يَـــعْــبُــده

والجــمــالُ الــزُّور مـــا لا يُــبْــصِــر

والحــديثُ الــصَّــفْــو مـــا يَــنــشُــرُه

والحــديثُ الــسُّــوء مـــا يَــخْــتــصِــر

إنـه كــــــان مَلاكَـــــاً بَـــــشَــــراً

فــمــضـى عــنَّـــا الـــمَلاكُ الـــبَــشَـــر

ونــــفــــوسُ الخَــلقِ إمـــا طِــيــنــةٌ

لا سَــنـــا فــيــهـــا، وإمـــا جــوهـــر

✡✡✡✡✡

يـــا رفـــيـــقي! مـــا بــلــغتَ الـــمُــنــتَــهَى

لـــيــستِ الحــدَّ الأخـــيــرَ الحُــفَــرُ

فـــاعـــبُـــرِ الـــنـــهـــرَ إلى ذاك الحــمى

حـيث «جــبــرانُ»[1] الـعـمـيـدُ الأكـبـر

«ورشـــيـــدٌ» نـــغـــمـــةٌ شـــاديـــةٌ

«ونـــســـيبٌ» نـــغمٌ مُـــسْـــتــبــشِــر

«وجــمـــيلٌ» فـــكـــرةٌ هـــائـــمـــةٌ

«وأمـــينٌ» أملٌ مُـــخْـــضَـــوضِــر[2]

قُلْ لـــهمْ إنّـــا غـــدونـــا بـــعـــدهمْ

لا حــــديثٌ طــــيبٌ لا سَـــــمَـــر

---

(١) جبران خليل جبران عميد الرابطة القلمية، وكان الشاعر عضواً فيها.

كـــســـمـــاءٍ لـــيس فـــيـــهـــا أنجُمُ

أو كـــروضٍ لــــيس فـــــيه زَهَـــــر

كـــلُّـــنـــا مـــنـــتـــظِـــرٌ ســـاعـــتَهُ

والـــمَـــصـــيـــرُ الحقُّ مَـــا نـــنـــتـــظـــر

****

٥٣ - لم يهدم الموت إلا هيكل الطين

[البسيط]

رثى بها رفيقه الشاعر نسيب عريضه.

لم يـبـرَحِ الـروضُ فـيه المـاءُ والـزَّهَـرُ

ولم يـزلْ في الـسـمـاء الـشـمسُ والـقـمَـرُ

لـكـنَّـهـا الآن في أذهـانـنـا صُـوَرُ

شَـوهـاءُ، لا الـقـلبُ يـهـواها ولا الـنَّظَـر

قـد انـطوى حُـسـنُـهـا لما انـطوى الـشـاعرْ

✡✡✡✡✡

قل لـلـمـغـنّي الـذي قـد غَصَّ بـالـنَّـغَمِ

إنِّي نـظـيـرُكَ قـد خـانَ الـكلامُ فـمي

ومـثلُ مـا بك بي من شـدّةِ الألَـمِ

أمّـا الـعـزاءُ فـشـيءٌ زال كـالحُـلُـم

كـيف الـسَّـبـيلُ إلى خـمـرٍ ولا عـاصـرْ!

✡✡✡✡✡

مـضى الـذي كـان في الـبـلوى يُـعـزّيـنـا

وكـان يُـحـيي - إذا مـاتتْ - أمـانـيـنـا

ويـسـكبُ الـسِّـحـرَ أنـغـامـاً ويَـسـقِـيـنـا

مـضى « نـسـيبُ » الـنبيُّ المصطفى فـيـنا

وصـار جـسـمـاً رمـيـمـاً في يَـدِ الـقـابرْ

✡✡✡✡✡

كم جـاءنـا في الـلـيـالي الـسُّـودِ بـالألَقِ
وبـالـنّـدى من حـواشي الـقـفْـر والـعَـبَقِ
وبـــالأغـــاني ومـــا من صـــادحٍ لَـــبِقِ
وإنَّـــمـــا هـــوَ ســـحـــرُ الحِـبْـرِ والـورَقِ
الـسِّـحـرُ بـاقٍ ولكن قـد مـضـى الـسّـاحـرْ!

☆☆☆☆

كالـشـمسِ يستُرها عند المسـا الغَسَقُ(١)
ونـــورُهـــا في رحـــابِ الأرضِ مُـــنـــطـــلِقُ
تَـــذْوي الـــورودُ ويـــبـــقى بـــعـــدَهـــا الـــعَـــبَقُ
حـــتى لمن قـــطـــفـــوا مـــنـــهـــا ومن سَـــرقـــوا
كـــعَـــالَمٍ غـــابـــرٍ في عـــالَمٍ حـــاضـــرْ

☆☆☆☆

إن كـــان مـــاتَ « نـــســـيبٌ » كـــالملايـــين
من الـــعـــبـــيـــدِ المَـــوالي والـــسَّلاطـــينِ
فـــالحيّ في هـــذه الـــدنـــيـــا إلى حـــينِ
لـــكنْ نـــســـيبٌ إلى كل الأحَـــايـــين
وإن نـــأى وسَـــمـــا لـــلـــعـــالم الـــطـــاهـــرْ

☆☆☆☆

لـــسوفَ يـــرجِعُ عِـــطـــراً في الـــريـــاحـــينِ
أو نـــســـمـــةً تـــتـــهـــادى في الـــبـــســـاتـــينِ
أو بَـــســـمـــةً في ثُـــغـــور الخُـــرّدِ الـــعِـــينِ(٢)
فـــالمـــوتُ مـــا هـــدَّ إلا هـــيـــكلَ الـــطِّـــينِ
لا تحـــزنـــوا، فـــنـــســـيبٌ غـــائبٌ حـــاضـــرْ

****

(١) أول ظلمة الليل.

(٢) المرأة الخريدة: الحسناء التي لم تُمسس قط. والعيناء، الواسعة العين. والعِين: أرادها للجمع.

٥٤ ـ ريح الرّدى

[الرمل]

عَـصَـفَتْ ريحُ الـرّدى بـالمِـشْـعَلِ
فخَبا

✡✡✡✡✡

أيـهـا الـنَّـائمُ عـنَّـا والـعـيـونْ
في سهرْ
نـحن مِن بَـعـدكَ أسـرى لـلـشُّـجـونْ
والكدرْ
تـشـتـكي أرواحُـنـا ظـلمُ الـمَـنـون
والقدرْ
لـلـسَّـمـا. لـلـيلِ. لـلـفـجـرِ الجـلي
للرُّبا

✡✡✡✡✡

لـلأقـاحـي الـذابـلاتِ الـذاويهْ
كالأماني
لـلـسَّـواقي الـنـائـحـاتِ الـبـاكـيهْ
كالغواني
سَـلَبَ الـدهـرُ حُلاهـا الـغـالـيهْ
في ثوانِ
وبـشـاشـاتِ الـزَّمـانِ الأَولِ
والصِّبا

✡✡✡✡✡

يـــا ربـــيـــعـــاً مـن وفـــاءٍ وكَـــرَمْ

في بَدَنْ

من رأى قـــبـــلَك دنـــيـــا من شِـــيَم

في كفَنْ

خـــلَـــصتْ روحُكَ مـن ســـجنِ الألَـم

والشَّجَنْ

ومـــضى لـــلـــبـــحـــرِ مـــاءُ الجـــدولِ

طَربا

✡✡✡✡

يـــا كـــريم الأصل قـــد زانك فـــعـــلُكْ

وصفاتُكْ

عـــشتَ لـــلـــنـــاس كـــأنّ الـــكلَّ أهـــلُك

ولِداتُكْ

لـــهم كلّ الـــذي تحـــوي وتـــمـــلِك

وحياتُكْ!

كـنت في دنـيـا الـضَّـبـاب الـمُـسـدَل

كوكبا

✡✡✡✡

عـــصـــفتْ ريحُ الـــرَّدى بـــالمِـــشْـــعل

فخبا

فـــــإذا كلُّ قـــــصُـــــورِ الأمـل

كالهَبا

****

٥٥ - الشاعر في حفلات تكريمه

الماهدون في المهجر

[الكامل]

ألقاها في المأدبة الكبرى التي أقامها المجلس الملّي في مونتريال كندا بمناسبة مرور ٤٠ سنة على تأسيسه.

الأربــعــونَ لــو أنــهــا تــتــكــلّمُ
لــرَوَتْ لــنــا قــصصَ الــعَــظــائمِ عــنــكمُ
ولحــدّثــتْــنــا كــيف عن أعــشــاشــكُمْ
طــرتُمْ بــأجــنــحــة الــمُــنى إذ طــرتم
يــومَ الــفــراقِ كــظــمــتمُ آلامَــكُمْ
وأخفُّ من ألم الــفــراق جَــهــنَّم
وبكى الأحــبَّــةُ حــولَــكُمْ، وجــفــونُــكُمْ
تــعصي البكا، حُــزْنُ الجَبابــرِ أبْكَم
أيــدٍ تــودِّعُ مَــوطــنــاً وعــشــيــرةً
ومَــطــامحٌ خَــلْفَ الــبــحــار تُــسَــلَّم
ضــاقتْ عــلى أحلامــهم تــلك الــقُــرى
فــاخــترتمُ الدنيا الــوِســاعَ لــتحلُــمــوا
وغــــزوتمُ الآفــــاقَ لا زادٌ لــــكُمْ
إلا الــصِّــبــا الــمــتــوثِّبُ الــمــتــضَــرِّم
كــالــلــيث لــيس له سلاحٌ في الــسُّــرى
إلا مــخــالــبَه الــتي لا تُــثــلــم
تــتــخــيــلونَ الــبــحــرَ شُقَّ لــتــعــبُروا
وانــداحَ بــين الــشــاطــئــينِ لــتــسلَــمــوا
والــدرَّ مــخــبــوءاً لــكُمْ في قــاعه
كي تُــخــرِجُــوه وتــغــنَــمــوا مــا شــئــتم

والمــوجُ إذ يــطــغى ويــهــدُر حــولــكُمْ

جَـوقــاً لــطــرد هــمــومــكُمْ يــتــرنَّم

وإذا الــنــجــومُ تــألَّــقتْ تحت الــدُّجى

خــلــتمْ لأجــلــكمُ تُــضــيءُ الأنجم

وحــســبــتُمُ شُمَّ الجــبــال سلالمــاً

نُــصِبَتْ لــكمْ كي تــصــعــدوا فــصــعِدتم

والــشــمسُ مَــنجمُ عَــسْــجدٍ[1] مــتــكــشِّفٌ

لــذوي الــطّــمــوحِ وأنــتُمُ أنــتمْ همُ

ولــكَمْ تــلــثَّــمَتِ الحــقــائقُ بــالــرُّؤى

كــالأرض يــغــشَــاهــا الــسَّــرابُ المــوهِم

لِــتــطلَّ من أرواحــنــا أشــواقُــهــا

فــنــطــوفُ حــولَ خُــدورِهــا ونــحــوِّم

لم تــقــنــعــوا كــالخــامــلــينَ بــأنَّــكُمْ

لــكمُ شــرابٌ في الحــيــاة ومَــطــعم

لــو أن تــكــونَ حــيــاتُــكُمْ كــحــيــاتــهِمْ

عَــبَــثَــاً، يمــوتُ به الــوقــارُ ويُــعــدم

وتَــأفُّــفــاً في الــلــيل وهــو مــنــوَّرٌ

وتــبــرُّمــاً في الــصــبح وهــو تــبــسُّم

لــو أن يــكــونَ تُــراثــكُمْ كــتــراثِــهِمْ:

قَــصْــرٌ عــفــا أو هــيــكلٌ مُــتــردّم[2]

وحــديثُ أسلافٍ قــد الــتــحــفــوا الــقَــنــا

فــهــم ســواءٌ في الــقــيــاس وجُــرْهم[3]

---

(١) العسجد: الذهب.

(٢) جرى فيه الإصلاح (تردّم ثوبَه: رقّعه وأصلحه).

(٣) قبيلة كانت تقطن مكة المكرمة.

من يقترب من أمسٍ يبعُدْ عن غدٍ
ويعشْ مع الموتى ويُصْبحْ منهمُ!!
وكرهتُمُ أن تنقضي أيامُكُمْ
شكوى لمن يَرثي ومن لا يَرْحم
أو أنْ يبيتَ على الحضيضِ مُقامكُمْ
والدودُ يزحفُ فوقَه والأَرقم[1]
فنفرتمُ كالنَّحل، ما من زهرةٍ
فيها جَنىً، إلا وفيها مغنَم
في كلِّ شطٍّ ماردٌ، في كل طَودٍ
قَشعَمٌ، في كل وادٍ ضَيْغم[2]
المجدُ مطلبُكُمْ وأنتم سُهَّدُ
والمجدُ حُلمكُمُ وأنتم نُوَّم
لا شيءَ صعبٌ عندكُمْ حتى الرّدى
الصعبُ عند نفوسكُمْ أن تُحجموا
ما بضعةً من أمةٍ، هي أمّةٌ
في ذاتها، ولها طرازٌ مُعْلَم
فيكُمْ جميعُ صفاتها وخلالهَا
والرَّوضُ يَحويه عطوراً قُمقُم
إن الألى عابوا الجهادَ عليكُمُ
علكوا مداركَهمْ ولم يستطعِموا!!
طلبوا السَّلامةَ في القعود ففاتَهُمْ
دركُ الثراءِ وبعدَ ذا لم يَسْلموا!!
هؤلاءِ دودُ القَزِّ أحسنُ منهمُ
وأجلُّ في نظر الحياةِ وأفهم

(١) الحيّة فيها بياض وسواد.

(٢) الضيغم: الأسد. والقشعم: من أسمائه.

قــالــوا: كـهـولٌ قــد تـصــرَّمَ عــصــرهُمْ
لــيتَ الــشَّــبــابَ من الــكــهــول تــعــلَّــمــوا
إن لــم تَــشــيــدوا كـــالأوائلِ «تـــدمُـــراً»
أو « بــعــلــبكَّ « فـــإنَّـــكم لم تَــهـــدِمــوا
ولـــكُمْ غـــدٌ وجــمـــالُهُ وبـــهـــاؤُه
ولـــكُمْ من الأمسِ الـــنَّـــفـــيسِ الـــقـــيِّم

✡✡✡✡✡

حــدثتُ نــفــسي والــقِــطــارُ يــخِبُّ بي
عَــجْلانَ يــخــتــرقُ الـــدُّجى ويُـــدمــدم
فــســألــتُــهــا مُــســتــفــهِــمــاً. ولــربمــا
ســـألَ الـــعــلــيمُ ســواهُ عــمّــا يَــعــلم:
مـــا أحـــسنُ الأيـــامِ؟ قـــالت: يـــومُـــكُمْ!
والـــنـــاسِ؟ فـــابــتــدرتْ وقـــالت: أنــتمُ
والــــدُّورِ؟ قـــــالت: دُورُكُمْ. والمـــــالُ؟
قـــالت: إن أحــسَـــنه الـــذي أنـــفـــقـــتمُ
والحُــسْنِ؟ قـــالت: كلّ مـــا أحـــبــبـــتمُ
والأرضِ؟ قـــالت: أيـــنـــمـــا اســـتـــوطـــنـــتمُ
مـــا كـــان أكـــملَ يـــومَـــكُمْ وأتـــمَّهُ
لـــو لم يـــكن في مـــهــد عـــيـــسى مَـــأتَم
وكــذا الحــيــاةُ قــديمُــهــا وحــديــثُــهــا:
ذكـــرى نُـــســـرُّ بـــهـــا، وذكـــرى تُـــؤلِم

****

٥٦ ـ قف يا قطار بنا

[الكامل]

ألقاها في المأدبة الكبرى التي أقامتها مؤسسة وطنية في مدينة كانتون، أوهايو.

مــنــذُ افْــتــرقــنـــا لم أذُقْ وَسَــنَـــا
لـــلـهِ مـــا صــنَـعَ الـــفــراقُ بـــنـــا!
قُلْ لـــلـــخـــلـــيِّـيْنَ: الـــهـــنـــاءُ لـــكم
الحبُّ قـــد خـــلـقَ الـــعـــذابَ لـــنـــا
لم أنسَ قـــولَـــتَـــهـــا الـــتي ملأتْ
نـــفـــسي أسىً وجـــوانـــحي شَـــجَـــنـــا
مـــاذا جَـــنـــيـــنَـــا كي تُـــفـــارِقَـــنَـــا
أمَـلَـلْـتَـنـا وسـئـمتَ صُـحـبَـتَـنـا؟
فـــأجـــبـــتُـــهـــا بـــلـــســـانِ مُـــعـــتـــذرٍ:
لم تجـــنـي أنتِ ولا مــــلَـــلْتُ أنـــا
لـــكن رأيتُ المـــاءَ مـــنـــطـــلـــقـــاً
ريِّـــاً، فـــإنْ هـــو لم يَـــســـرْ أَجَـــنـــا[1]
والـــسَّـــيفُ إن طـــالَ الـــثَّـــواءُ به
يـــصـــدأْ ويـــصـــبحْ حـــدُّهُ خَـــشِـــنـــا
والـــسُّـــحبُ إن وقـــفتْ ومـــا هـــطـــلتْ
لم تَـــروِ أوديـــةً ولا قُـــنَـــنَـــا[2]
إن الحـــيـــاةَ مع الجـــمـــودِ قَـــذىً
ومع الحَـــراك بـــشـــاشـــةٌ وهَـــنـــا

---

(١) أجن الماء يأجِن: تغير طعمه ولونه.

لا تــعــذُلــيــنـي فــالــقُــرى أرَبي
حــيث الحــيــاةُ رغــائبٌ ومُــنى

حــيثُ الــنــجــومُ تــلــوحُ ســافــرةً
لم تــلــتــحِفْ ســتْــراً ولا كــفَــنَــا

والــفــجــرُ ملءُ جــيــوبهِ أرَجٌ
والــطــيــرُ يملأ شــدْوُهــا الــوُكُــنــا[1]

وعــلــى الــرُّبــا الأطْلالُ راقــصــةٌ
ويــدُ الــنَّــســيمِ تُــداعبُ الــغُــصُــنــا

ويحَ المــدائنِ إنَّ ســاكــنَــهــا
كــالمــيْتِ لم يُــطــمَــرْ ولا دُفِــنــا

كم رُحْتُ اســتــســقي ســحــائــبَــهــا
فَــهَــمَتْ ولــكن مــحــنــةً وضَــنى

ولــكمْ ســهــرتُ فــلم أجــدْ قــمــراً
ولــكمْ شــدوتُ فــلم أجــدْ أُذُنــا

لــو كــان يــألَفُ بــلــبلٌ غَــرِدٌ
قــفــصــاً، أحبَّ الــشــاعــرُ الــمُــدُنــا

كــرِهَ الــوَرَى طــولَ الــمُــقــام بــهــا
فــاســتــنــبَــطــوا الــعــجلاتِ والــسُّــفُــنــا

ولــقــد ظــفــرتُ بمــركبٍ لَــجِبٍ
فــخــرجتُ أطــوي الــســهلَ والحَــزَنــا[2]

والــشــوقُ يَــدفــعُــه ويــدفــعــني
حــتى بــلــغتُ الــمــنــزلَ الحَــسَــنــا

✡✡✡✡✡

---

(١) الوكن: عش الطائر في حديقة أو جدار (الوكر: عش الطائر).
(٢) الحزْن: ما غلُظ من الأرض (الحُزونة).

قفْ يا قطارُ على ربوعِهِمُ
إنَّ الأحبَّةَ يا قطارُ .. هُنا

هذي منازلُهُمْ تهَشُّ لنا
أخطأتُ.. بل هذي منازلُنا!

ما حلّ منهمْ موضعاً أحدٌ
إلا وصارَ لكلِّنا وطَنا

«سوريّةٌ» في «كانتِنٍ» نغمٌ
عذْبٌ، «ولبنانٌ» شَذاً وسَنَا[1]

إنْ تنطفِئْ زُهْرُ النجومِ ففي
هذي الوجوه عن النجومِ غِنى

وإذا الحياةُ طوَتْ محاسنَها
عني وصار نعيمُها مِحَنا

مثَّلْتُهمْ في خاطري فإذا
دنيايَ فيها للسرورِ دُنا

✡✡✡✡✡

يا قومُ هذا اليومُ يومكُمُ
من ينتهِزْهُ ينلْ رضاً وثَنا

فلتنبسطْ أيديكمُ كَرَماً
السُّحبُ أنفعُها الذي هتَنا

أنا لا أرى مثلَ البخيلِ فتًى
يَضوَى ويُهزَلُ كلَّما سَمِنا

من لا يَشيدُ بماله أثراً
أو يَستفيدُ بماله مِنَنا

ويعيشُ مثلَ العنكبوتِ يعِشْ
في الناس مَذموماً ومُمتَهنا

---

(١) السنا: النور.

فـــابـــنـــوا وشَـيـِّـدوا تُـكـرِمــوا رجُلاً
كم قـــد ســعى من أجـــلِـــكُمْ وبـــنى
وطـنٌ وأهـلٌ لائـــــــــذونَ بـــــــكُمْ
أفـــتـــخـــذُلــونَ الأهلَ والــوطَــنَــا؟
« قَـطَـنـا » بـنـوكِ الـيـومَ قـد نـهـضـوا
فَـتَـمـجَّـدِي بـبـنِـيكِ يـا « قَـطَـنـا »

****

٥٧ - «ميامي فلوريدا»

[البسيط]

ألقاها في المأدُبة التي أقامها النادي السُّوري اللبناني الأميركي في ميامي فلوريدا تكريماً له.

ما طائرٌ كان في بيداءَ مُوحِشةٍ
فساقَهُ دَرٌ نحو البساتينِ

فباتَ تُسعِدُهُ فيها بلابلُها
حيناً ويُسعِدُها بعضَ الأحَايين

مني بأسعدَ حظّاً مُذْ نزلتُ بكُمْ
يا معشرَ السَّادةِ الغُرِّ المَيامِين

فررتُ من بَرْدِ كانونٍ فقَابلَني
في أرضِكُمْ بالأقاحي شهرُ كانون

أنسامُ «أيارَ» تَسرِي في أصَائلِها
وفي عشيّاتِها أنفاسُ « تَشرين »

تُوزِّعُ السِّحرَ شطراً في مغارسِها
وآخرٌ في لِحَاظِ الخُرَّدِ العِين[1]

كلُّ الشتاء ربيعٌ في شواطئها
وكلُّ أيامِها عيدُ الشَّعَانين[2]

لكنْ مَيامِي وإنْ جلَّتْ مفَاتنُها
لولا وجودُكُمُ ليستْ لِتُغْرِيني

إني لأشهدُ دنيا من عواطفِكُمْ
أحبَّ عنديَ من دنيا الرياحين

---

(١) العيناء: الواسعة العين.

(٢) عيد عند المسيحيين، يحتفل فيه بذكرى دخول السيد المسيح بيت المقدس.

وكــلَّــمــا ســمــعتْ نجــواكمُ أُذُني

ظَــنــنْتُ أنِّيَ في دنــيــا تَلاحِــين

لأنــتمُ الــنُّورُ لي والــنُّورُ مُــنطَــمِسٌ

وأنــتمُ المــاءُ إذ لا مــاءَ يَــرويــني

أحــبــبــتــكُمْ حُبَّ إنــســانٍ لإخــوته

إذ لــيس بــيــنــكمُ فــوقِي ولا دوني

إن كــان فــيــكُمْ قــويٌّ لا يُــقــاهــرني

أو كــان فــيــكُمْ ضــعيفٌ لا يُــداجــيني[1]

قل لامــرئٍ مــثلِ قــارونٍ بــثــروتهِ

إني امــرؤٌ بــصِــحــابي فــوق قــارون[2]

من يــكــتــسبْ صــاحــبــاً تــبــقَى مــودّتُهُ

فــهــو الــغــنــيُّ به لا ذو الملايــين

فــاخــترْ صِحَابك وانــظرْ في اخــتــيــارهمُ

إلى الــطِّــبــائع قــبلَ الــلّــونِ والــدِّين

لــيس الــوِدادُ الــذي يــبــقَى إلى أبــدٍ

مــثلَ الــوداد الــذي يــبــقى إلى حــين

والمــرء في هــذه الــدنــيــا عــواطــفُه

إن تــنــدرسْ، فــهــو بيتٌ غــيــرُ مَــســكون

وإنّ عــاطــفــةً هــذي مــظــاهــرُهــا

من عــالَمِ الــرُّوح لا من عــالَمِ الــطِّــين

لــو فــاتَــني كلُّ مــا في الأرض من ذهبٍ

ولم تَــفُــتْــنِي فــإني غــيــرُ مَــغْــبــون

لــو الــقــوافي تُــؤاتِــيــني شــكــرتُــكُمُ

كــمــا أريــدُ، ولــكنْ لا تــؤاتِــيــني

---

(١) المداجاة: المداراة.

(٢) من وزراء أحد فراعنة مصر. يضرب مثلاً في الغنى والغرور، وإليه تُنسب البحيرة في الفيوم.

لا يَـمـدحُ الـوردَ إنـسـانٌ يـقـول له:

يـا وردُ إنَّك ذو عـطـرٍ وتَـلـوين

فاستنطِقوا القلبَ عني فهو يُخبرُكُمْ

فـالحُبُّ والـقـلبُ مـكـنـونٌ بمـكـنـون

لـولا المحـبَّـةُ صـار الـكـونُ أجـمـعُهُ

طـوبىَ الأفـاعي وفـردوسَ الـسَّـراحِـين[1]

إني سـأحـفظُ في قـلـبي جـمـيـلَـكُمُ

وسـوف أذكـرُهُ في الـعُـسْـرِ والـلِّـين

****

(١) السِّرحان: الذئب.

٥٨ - ضَرَّةُ جِلّق

[الكامل]

ألقاها في الحفلة التكريمية التي أقامتها له الجالية في مونتريال.

لا تَـقـلَـقي يـومَ الـنَّـوى أو فَـاقـلَـقي
يـا نـفسُ كلُّ تجـمُّعٍ لِـتَـفـرُّقِ

الـلـهُ قـدَّرَ أنْ تَـمَسَّ يـدُ الأسى
أرواحَـنـا كـيـما تـرقَّ وتـرتـقي

أوفَى عـلى الـشُّـهبِ الـدُّجى فـتـألَّـقَتْ
لـولا اعـتـكـارُ الـلـيل لم تـتَـألّق

والـفـحمُ لـيس يُـضيء إن لم يـضـطـرمْ
والـنـدُّ لـيس يـضـوعُ إنْ لم يُـحـرَق

لا أضـرِبُ الأمـثـالَ مَـدحَـاً لـلـنَّـوى
لـيتَ الـفـراقَ ويـومَه لم يُـخْـلَق

مـا في الـوداعِ سِوى تَـلـعـثُمِ ألـسنٍ
وذهـولِ أرواحٍ وهَـمٍّ مُـطْـبِق

✡✡✡✡✡

عـنَّـفتُ قـلـبي حـين طـال خُـفُـوقُهُ
فـأجـاب: بل لُـمْـني إذا لم أَخـفِق

أنـا طـائـرٌ قـد كـان يمـرحُ في الـرُّبـا
وعـلى ضِـفـافِ الجـدولِ المـتـرقـرق

فـطـوى الـقـضـاءُ مـروجَهُ وفـضـاءَهُ
لِـيُـزَجَّ في قَـفَصِ الحـديـدِ الـضَّـيِّق

لا، بل أنــا مَــلِكٌ صــحــوتُ فــلم أجِــدْ

عــرشي ولا تــاجي ولا إســتَــبْــرقي[1]

هــانتْ مَــعــاذيــري وضــاعَتْ حِــكْــمــتي

لــمــا ســمــعتُ حــكــايــةَ الــقــلبِ الــشَّــقي

لــو تــعــدِلُ الــدنــيــا بــنــا لم يــنــتــثِــرْ

شَــمْلُ نــظــمــنــاهُ، ولم نــتَــفَــرَّق

✡✡✡✡✡

لــلــهِ مــونــتــريــالُــكُمْ ذاتُ الحُــلي

ومــديــنــةُ الــطَّــودِ الأشمِّ الأبْــلَق

كَمْ وقــفــةٍ لي عــنــد شــاطئ نــهــرِهــا

لا أســتــقي مــنه، وروحِي تَــسْــتَــقي

مُــتــعــلــمــاً مــنه الــتَّــواضعَ والــنَّــدى

والــصــفحَ عن عَــبَثِ الجَــهــولِ الأحْــمَق

أعــطى الحــقــولَ حــيــاتَــهَــا ومــضى كــأنْ

لم يُــعْــطِــهــا شــيــئــاً ولم يــتَــصــدَّق

من كــان لا يــدري فَــيــقــظــةُ زَرْعِــهــا

من فَــضْلِ هــذا الــهــاجعِ المــســتــغــرِق

ضَــيَّــعتُ عــنــد الــواعــظــينَ ســعــادتي

ووجــدتُــهــا في واعظٍ لم يَــنْــطُق

مــلءُ المــدائنِ والــقُــرى آلاؤُهُ

وهِــبــاتُه، ويــعــيشُ عَــيْشَ الــمُــمْــلِق

لــولاهُ لم يــخــضَــرَّ قــاعٌ مُــجــدِبٌ

لــولاكُمُ شــجــرُ الــمُــنى لم يُــورِق

---

(١) الإستبرق: الديباج (معرب).

عـرضَتْ مـحـاسـنَـهـا الـحـيـاةُ عـلـيـكُمُ

فــأخــذتُمُ بــأحَــبِّــهــا والأَلْــيق

أنــا مــنــكمُ في روضــةٍ مِــعــطــارةٍ

مِن مُــونقٍ فـيـهـا الـلِّـحـاظُ لـمُـونق

الــعــطــرُ يـعـبَقُ من جـمـيع وُرودِهَـا

مــا إن مــررتُ بــزهــرةٍ لم تَــعْــبَق

✲✲✲✲✲

لــلــهِ مــونــتــريــالُــكُمْ وجلالُــهــا

هي رومَــةُ الــصُّــغــرى وضَــرَّةُ جِـلَّق

رَقَّتْ عــلــيّ نجــومُــهَــا وتــواضَــعتْ

حــتى لــكــدتُ أحــسَّــهــا في مَــفــرِقي

فــكــأنمــا هي أنــتمُ وكــأنمــا

أرواحــكُمْ من نُــورهــا المــتــدفّق

رجعَ الــشــبــابُ إليّ حــين هــبــطــتُــهــا

والــيــومَ أخــرجُ من شــبــابي الــريِّق

سـأطـيُـر عـنـهـا في غـدٍ بـحُـشـاشـةٍ

مَـكـلُـومَـةٍ وبـنـاظـرٍ مُـغْـرَورِق

ويـغـيبُ عـنّي طَـودُهـا وقِـبـابُـهـا

وقـصـورُهـا خـلفَ الـفـضـاء الأزرق

وتـظلُّ صـورتُـهـا تـلـوحُ بـخـاطـري

بـعضُ الـرؤى سـلـوى وإنْ لم تَـصْـدُق

****

٥٩ - الشباب أبو المعجزات

[المتقارب]

سلامٌ عليكُمْ رجالَ الوفاءِ
وألفُ سلامٍ على الوافياتْ
ويا فرَحَ القلبِ بالناشئينَ
ففي هؤلاء جمالُ الحياة
هُمُ الزَّهْرُ في الأرض إذ لا زهور
وشُهبٌ إذ الشُّهب مُستخفِيات
إذا أنا أكبرتُ شأنَ الشبابِ
فإنَّ الشبابَ أبو المعجزات
حصونُ البلادِ وأسوارُها
إذا نامَ حُرّاسُها والحُمَاة
غدٌ لهمُ وغَدٌ فيهمُ
فيا أمسِ فاخِرْ بما هو آت
ويا حبَّذا الأمَّهاتُ اللواتي
يلِدنَ النوابغ والنابغات
فَكَمْ خَلَدتْ أمّةٌ بيراعٍ
وكم نشأَتْ أمّةٌ في دَواة

✡✡✡✡✡

أنا شاعرٌ أبداً تائقٌ
إلى الحُسْنِ في الناس والكائنات
أُحبُّ الزُّهورَ وأهوى الطُّيورَ
وأعشق ثرثرةَ السَّاقيات

ورقْصَ الأشــعـــةِ فــوقَ الـــرَّوابـي

وضِــحكَ الجــداولِ والــقَــهــقَــهــاتْ

تــطــالعُ عــيــنــايَ في ذا المــكــانِ

روائـعَ فــاتــنــةٍ ســاحــرات

كــأن الــفــضــاءَ وفـيه الــطــيــورُ

بــحــورٌ بــهــا ســفنٌ ســابــحــات

كــأن الــزهــورَ تُــرقــرقُ فــيــهــا

ســقــيطَ الــنــدى أعــينٌ بــاكــيــات

ومِن بــلــبلٍ ســاجعٍ لِــمُــغنٍّ

من زهــرة غــضــةٍ لــفــتــاة

✡✡✡✡✡

فــمــا أجــملَ الــصــيفَ في الخَــلَــوات

وأروعَ آيــاتِه الــبــيِّــنــاتْ!

نــضَــا الــسِّــترَ عن حسـنـاتِ الـوجـودِ

وكــانتْ كــأســرارِه الــمُــضــمَــرَاتْ

وأحــيَــا رغَــائِــبَــنــا الــذابلات

فَــعــاشتْ وكــانت كــأرضٍ مَــوَاتْ

فــفي الأرض ســحــرٌ، وفي الجــوِّ عــطــرٌ

فــيــا لَــكــريمٍ ويــا لَــلــهِــبَــاتْ

أمــامَــكُمُ الــعــيشُ حــرٌّ رغــيــدٌ

ألا فــاغْــنَــمــوا الــعــيشَ قــبْلَ الــفَــواتْ

****

المحتـوى

الديوان الخامس (تبر وتراب)

****

(ما لم تجمعه الدواوين)

جمعه الدكتور جورج ديمتري سليم من الصحف والمجلات العربية والمهجرية، التي نشر فيها، في كتاب سماه «إيليا أبو ماضي ١٨٨٩ - ١٩٥٧»، دراسات عنه، وأشعاره المجهولة - ووثّقها بالرجوع إلى مصادرها، فسمّاها وحدّد تواريخها وأعداد أبياتها.

الطبعة الأولى (دار المعارف. القاهرة ١٩٧٧).

تضم المجموعة خمسة وستين نصاً شعرياً، بين طويل ومعتدل وقصير. وهي سَعَة ديوان كامل من دواوين الشاعر، أو تزيد على بعضها، وتكوّن ما يزيد على خُمس مجموع شعره في الدواوين الخمسة، وتُكمله، في تغطية المناسبات والأحداث والمواقف، على امتداد حياته، في لبنان ومصر وأمريكة .

****

١ - إلى بطل الوطنية

الشيخ عبد العزيز جاويش(١)

[الوافر]

لــئن حــجَـبُـوكَ عن مُـقَلِ الـبَـرايــا
فـمَـا حـجـبـوا هـواكَ عن الـصُّـدورِ
وإن تَكُ قــد حُــبْـسـتَ وأنت حُــرٌّ
فــكم في الحــبس من أسَــدٍ هــصُـور
كــبــيــرُ الــقــوم أكــبــرُهُمْ خــطــوبـاً
لــذاكَ رُمــيتَ بــالخــطب الــكــبــيــر
لــقــد أَعــلــيتَ قــدْرَ الــسِّجنِ حــتى
أحبَّ الــســجنَ ســكــانُ الــقــصــور
ولا عــــجبٌ إذا أُســـكـــنتَ فـــيه
فــكَمْ في الــلــيل من قــمَــرٍ مُــنــيــر
تَــعــددتِ الــطــيــورُ فلا حــبــيسٌ
سِـوى الـغَـرِدِ الجـمـيلِ من الـطـيـور
يـقـول الـشَّـامـتـون: الـسـجنُ يُـزري
لــئن صـدقـوا فـبـالجـاني الـكَـفُـور
ومــا في صُـحــبَـةِ الأشــرار عــيبٌ
عــلـى الــداعي إلى تــرك الــشُّـرور

---

(١) رأسَ تحرير جريدة (اللواء) لسان حال الحزب الوطني الذي أنشأه زعيمه مصطفى كامل (ت ١٩٠٨) قبضت عليه سلطات الاحتلال الإنجليزي أكثر من مرة وأودع السجن لأسباب متعددة تتعلق بمواقفه الوطنية ومقالاته في

فـصــبــراً، يــا نــزيلَ الــسِّــجنِ، صــبــراً

فــمــا عَــرَفَ الــهــنــاءَ سِــوى صــبــورِ

وحــسْــبُكَ عــطفُ هــذا الــشــعب فــخــراً

وحَــسْــبُ عِــداك تــوبــيخُ الــضَّــمــيــر

****

٢ - مصر والاحتلال

[الرمل]

خَلِّني أستصرخُ القومَ النِّياما
أنا لا أرضى لـ « مصرٍ » أن تُضاما

لا تلُمْ في نُصرةِ الحقِّ فتىً
هاجَه العابثُ بالحقِّ فلاما

أو فلُمني إنَّ قلبي كلّما
زدتَ في تعنيفِهِ زاد هُيَاما

سوف أشكو الهمّ إن أحْرجَني
رُبَّما خَفَّفَتِ الشكوى السَّقاما(١)

وقفةً في شاطئ « النيل » معي
نُقرِئُ «النيلَ» التّحايا والسلاما

وأناجِيه أماني أمّةٍ
منعوها ماءَه إلا لِمَاما

علَّه يبعثُ من أسراره
قوةً تبعثُ في الشعبِ اعْتزاما(٢)

قسماً بـ «النيلِ» لو أن به
ما بنفسي من جوىً(٣) سال ضِراما

لستُ أنسى ليلةً بتُّ بها
والأسى يدفع عن عيني المناما

---

(١) المرض.
(٢) العزيمة.
(٣) الجوى: الحرقة وشدة الوجد من الحزن أو غيره.

أرقبُ الأقمارَ في أفلاكها
مثلما يرقبُ راعيها السَّواما[1]

لم يُؤرِّقْني اشْتياقٌ أو هوى
ما الهوى بُغيَةُ مَن بالمجد هاما

راعَ نفسي أن «مصراً» رُوِّعت،
بأبي «مصرَ» ومن فيها أقاما!

حَسْبُ «مصرٍ» أنها الأرضُ التي
إمَّن اللهُ بها «البيتَ الحراما»

وبنيها أنهمْ نسلُ الأُلَى
عركوا الدهرَ فتيّاً وغلاما

كَرُمت «مصرُ» وأهلوها فما
نقَضَتْ عهداً ولا خانوا ذِماما

كان للأحرار فيها موئِلٌ
يعصِمُ الحُرَّ فلا يخشى اهتِضَاما

ثم هاضَ الدهرُ من جانبها
إنما يهْتَضِم[2] الدهرُ الكراما

أَرَبي «مصرُ» على رغم العِدا
لستُ أعني بالعدا إلا الطَّغَاما[3]

لستُ مصريّاً ولكنْ نسبةٌ
بيننا تجمعُ «مصراً» و «الشآما»

أمّةٌ ترتقبُ استقلالَها
مثلما يرتقبُ الصّادي[4] الغَمَاما

---

(١) سامت الماشية: رعت، فهي السائمة والسُّوام.
(٢) هاضه: كسره. وهضمه حقه واهتضمه، فهو مهتضَم (مظلوم).
(٣) الغوغاء وأرديأ الناس.
(٤) العطشان (صدي - يصدَى).

مـــا لـــهم يـــســـعَــونَ في إيــذائـــهـــا؟

مـــا رمتْ ســهـــمــاً ولا ســلّت حــســـامـــا

زعـــــمـــــوا إصلاحَـــــهــــا وهي الـــتي

مـــا شـــكَتْ غـــيــرَ همُ داءً عَــقــامــا[1]

حـــبــســــوا «الـــنــيل» عــلى نــفــعــهِمُ

وأعـــاضُـــوهـــا[2] من الـــريِّ الأُوامـــا[3]

فـــإذا مـــا صَــرختْ تــشــكــو الـــصَّــدَى

جــعــلــوا الــقــانــونَ في فِــيــهــا لِــجــامــا

أنـــكـــروا خَـــطـــوتَــــهــــا نـــحــــو الــــعُلا

« رُبَّ ذي لُبٍّ عن الحقِّ تَـــــعــــــامَى»

ورمـــوهـــــا بـــالــــتَّــــواني، ويــــحَــــهُمْ

أخـــمـــولٌ أنـــهـــا تـــهـــوى الـــسَّلامـــا؟

قـــد خَـــلتْ تـــســـعـــةُ أعـــوامٍ عـــلى

شـقـوةِ «الـنـيل»، سِـوى عـشـرينَ عـامـا

وانـــقـــضَـى الـــعـــمـــرُ ولـــمَّـــا تـــنـــجـــلـــوا

فـــإلام أيــــهــــا الــــقــــومُ، إلا مـــا؟

✲✲✲✲✲

كـــبِّـــلـــوا أقلامَـــنــــا جُـــهــــدكمُ

وامـــنـــعـــوا الألـــسُنَ والـــصُّحْفَ الـــكلامـــا

وإذا عــــزّ عـــلـــيـــكمْ أنَّـــنَـــا

في وئـامٍ، فـانـشــروا فــيـنـا الـخِـصَـامـا

وإذا عــــزَّ عـــلـــيـــكمْ أنـــنـــا

في حـيـاةٍ، فـابـعـثـوا فـيـنـا الـحِـمـامـا

---

(١) لا شفاء منه (العقيم).

(٢) أعطوها العوَض (عاضه وأعاضه).

(٣) حر العطش (آم - يؤوم).

يـــنــــزِعُ الأرواحَ من أجـــســـادهـــا،

أو فـــكـــونـــوا أنـــتمُ المـــوتَ الـــزُّؤامَـــا

إنمـــــا يـــــنـــــقـــــلـبُ الأمـــــرُ إلى

ضِـــدِّهِ إن جـــاوزَ الأمـــرُ الـــتّـــمـــامـــا

****

٣ - روزفلت[1] ومصر

[الوافر]

خطيبَ الأمسِ ما أنصفتَ «مصراً»
ولا أنصفتَ ماضيَك القريبا
ولكنْ كنتَ للباغي علينا
أقومي! إنَّ للباغي ضَريبا
لعمرُكَ ما حللتَ بنا صديقاً
ولكن كنتَ طوّافاً مُريبا
أطعتَ بنا الوشاةَ، وما عَهِدْنا
- وحقِّكَ - واشياً إلا كذوبا
كأني بـ «العميد»[2] إليك أوحى
بما أوحى، فقمتَ بنا خطيبا
تحاولُ أن تُحبِّبَهمْ إلينا
متى ألفَيتَنا نهوى الخُطوبا؟
وتأمُلُ أن نَبيتَ على قُنوطٍ
كأنّ اليأسَ ما قتَل الشُّعوبا
أيا ضيفَ «الكنانة»! جُرْتَ فاقصدْ[3]
فما شعبُ « الكنانةِ « دون « كوبا »
أنرجو أن تكونَ لنا نصيراً
وترجو لو تكون لهم حبيبا؟
لقد خَدَعَتْك، يا « روزفلتُ» منهم
زخارفُ تَخْدعُ الفَطِنَ الأريبا

****

---

(١) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وقتها (١٩١٠). خطب في الجامعة المصرية خطبة لم ترض عنها مصر.
(٢) عميد السلطة الإنجليزية المحتلة (غورست) والشاعر يأتي على ذكره أكثر من مرة.

٤ - عيد الحرية العثماني[١]

[البسيط]

هــذا مــجــالٌ، فــهل في الحيِّ قــوّالُ؟
إني، على العَجْزِ، في المِضمارِ جوّالُ

ما أجملَ القولَ والآذانُ صاغيةٌ
والصَّمتَ، حيثُ على الأسماعِ إقفالُ!

حَسْبي وحسبُكَ أن الشَّملَ مُلتئمٌ
والصفو دانٍ وللأيام إقبالُ

وحَسْبُ شِعرِكَ هذا العيدُ، من سَببٍ
إذا نَبَتْ بكَ أسبابٌ وأوصالُ

لم يبقَ في الشَّرقِ من قُطْرٍ ولا بلدٍ
إلا وفيه احتفالاتٌ وحُفَّالُ[٢]

فانشرْ قوافيكَ في الآفاق، فهْيَ على الـ
أكبادِ ماءٌ وفي الأذواقِ جِريالُ[٣]

إني أراك مُطاعاً في شَواردِها
ما أنتَ ممَّن على الأشعارِ يحتالُ

إن القوافي إذا أحكمتَ عُقْدَتَها
فما يَعيبُكَ إكثارٌ وإقلالُ

وإنْ أجَدْتَ فلا تعبأْ بذي سَفَهٍ
فحيثُما كان مَجدٌ كان عُذّالُ

---

(١) بمناسبة مرور سنة على إعلان هذا الدستور (١٩١٠).
(٢) حفل القوم: اجتمعوا واحتشدوا، فهم حافلون وحفّال.
(٣) جريال: الخمرة.

فــــفـــيمَ صـــمــــتُكَ، لا واشٍ ولا رَصَــدٌ
يُــخـشى، ولا ظـالمٌ لـلـحُـرِّ يَـغـتَـال؟[1]
إن كـنتَ تـبـخلُ بـالأقـوالِ تـمـلِـكُـهـا
فـكـيف جـودُك بـالـدنـيـا ولا مـال؟

✡✡✡✡✡

طـالَ الـسُّـكـوتُ، ومـا لـي فـيه من أربٍ
وإنمـــا بي لـــهـــذا الـــعـيـــدِ إجْلال
عـــيـدٌ إذا عُـدَّ في الأعـيـاد زَيَّـنَـهـا
كالشمس في الشُّهب، هل للشمسِ أمثال؟
عـيـدٌ رآه ذوو الحـاجـاتِ، فـابـتَـسَـمـوا
شـوقـاً، وكم لـذوي الحـاجـاتِ آمـال
تـفـاءلـوا أن «تـمـوزاً» يـكـون لـهم
عـيداً كـغـيـرهمُ، قـد يـصـدُقُ الـفـال
«تـمـوز» أنت مـنـيلُ الـشَّـرقِ بُـغْـيَـتَهُ
في حـينِ أسـمحُ[2] قـومٍ فـيه بُـخَّـال
بـتـنـا نـودُّ شـهـورَ الـعـام أجـمـعَـهـا
«تـمـوز » أو أنَّ يـومَ الـعـيـد أجـيـال!

✡✡✡✡✡

بـاد الـزمـانُ الـذي تُـخـشَى غـوائـلُه
فـــيـــنـــا، وبَـــدَّلت الأحـــوالَ أحـــوالُ
وبـات طـاغـيــةُ الأملاكِ مـعـتـقَلاً
لـه من الـــهمِّ أصـــفـــادٌ وأغلال
لم أنـسَهُ، وهـوَ في « يـلـديـزَ» ممـتـنعٌ
خـوفَ المـنـيـةِ، إن الخـوفَ قـتَّـال

---

(١) الرَّصد: الراصدون (يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث).
(٢) سمح وأسمح: جاد وأعطى عن كرم وسخاء.

والشعبُ قد جاشَ كالبركانِ من غضبٍ
أوِ الغَضنفر بانتْ عنه أشبال
والجيشُ مندفعٌ كالسيل من حَنَقٍ
والبِيضُ مشرعةٌ والرُّمحُ عَسَّال[1]
وللقذائفِ حولَ القصرِ فرقعةٌ
يكاد يَحدثُ منها فيه زِلزال
وللبنادقِ أصواتٌ إذا طَرَقتْ
أذْنيه، أيقنَ أن الشعبَ فَعَّال
لمّا رأى الموتَ أمسى منه مُقتربا
بكى بكاءَ صغيرٍ ما له آل
أمسكْ عليك دموعاً غيرَ مُجديةٍ
دمعُ المُضيِّع دمعَ الشَّعب إذلال
نَقضْتَ عهدَكَ لما صِرتَ مؤتمَناً
لو عاهدَ الذئبُ أوفى وهو خَتَّال
قُمْ فانزعِ التَّاجَ طوعاً قبل تنزعَه[2]
عنكَ العَوالي، فقد ضَاقتْ بنا الحال
وَدّعْ سريرَ «بني عثمانَ» عن كَثَبٍ
ما أنت أهلٌ له، للمُلْكِ أقْيَال[3]
المُلْكُ لاقَ به مَن كـ «الرشادِ» حِجَاً
هيهاتَ ما لـ «رشاد» المُلْك أمثال
به المنازلُ أضحَتْ وهي عامرةٌ
وكنتَ فيها وكانت وهي أطلال

✲✲✲✲✲

(١) عسل الرمح: اهتز.
(٢) على تقدير: أن تنزعه.
(٣) القَيل في الأصل: الملك من ملوك حمير، وجمعه أقيال.

«دارَ السلامِ»! سَقتْكِ السُّحبُ هامِيةً
ما دام للسُّحب في الأكوانِ تِجْوالُ
إني أرى فيكِ «بغداداً» وأُبصِرُ في
بُرْدِ «الرشيد» «رشاد» المُلك يختال
يَعُدُّني القومُ من نُزّال «مصرَ» ولي
قلبٌ على البُعدِ ممن فيك نزّال
إمّا ثَنتْ بصري عنك الجبالُ فما
كانت لتحجُبَ سمعي عنك أجبال
يا درّةَ الشّرقِ، دمتِ الدهرَ حاليةً[1]
فالشّرقُ لولاكِ أمسى وهو مِعْطَال[2]

****

(١) الحالي: ذو الحلية (حلي – يحلى).
(٢) العطل: فقدان الحلي، والمرأة عاطل ومعطال.

٥ - نفثة مصدور

[الوافر]

سِوى «لبنانَ» يمقُتُه فؤادي
وغيرُ بنيهِ أمنعُهمْ ودادي

بلادُ اللهِ واسعةٌ ولكنْ
تضيقُ لديَّ إن ضاقتْ بلادي

بلادٌ قد طُبِعتْ على هواها
كما طُبِعَ الزمانُ على عِنادي

فما أنفكُّ أطمحُ للمعالي
ولا ينفكُّ يبخلُ بالمُرَاد

يصوِّبُ كلَّ حين كلَّ سهمٍ
إليّ فلا يُصيبُ سِوى فؤادي

لقد كثُرتْ خطوبُ الدهرِ عندي
ولم تبرحْ لديّ على ازدياد

لَعَمرُ أبيك لو كانت نُضاراً[1]
أمِنْتُ عليه من داء النَّفاد

نَحِلْتُ من الهُموم، فلو تَراني
لَمَا مَيَّزْتَ طيفي من سَوادي[2]

ولا أدري وقد طال اغترابي
لمن أشكو وقد طال انفرادي

(١) الذهب الخالص.

فلولا يَشمَتُ الأعداءُ مني
جرَى دمعي فأزرَى بالسُّهاد
أضِنُّ به ولي قلبٌ كريمٌ
جوادٌ لا يضِن بمستَفاد
شعوبٌ لا تُعَدُّ، ولا كقومي
تَسَاوَى باعْتِقادهمُ اعتقادي
أحِنُّ إلى لقائهمُ وأصبو
كما حنّت إلى الماء الصَّوادي[1]
يكادُ الشوقُ ينقلُني إليهمْ
لو ان الشَّوقَ ينقل غيرَ باد
ترى، هل عندَهمْ أني ودهري
لأجلهمُ أبيتُ على جهاد؟
ففي أرَقٍ إذا غفِلوا وناموا
وفي خوفٍ ولو أمِنوا العَوادي
كرامٌ في زمانٍ ليس فيه
كريمُ الكفِّ في الكُرَب الشِّداد
يَزينُونَ النَّجادَ إذا احتبَوه
ويزدانُ العوالمُ[2] بالنَّجاد
شُموسٌ يُستَضَاءُ بهم، غُيوثٌ
إذا سُئلوا، ليوثٌ في الطِّراد
ولكن ساءتِ الأحكامُ فيهم
فساؤوا سُمعةً في كلِّ ناد
تمادَوا في التساهلِ معْ أناسٍ
تمادَوا في النقائصِ والفَسَاد

(١) الصادية: العطشى، وجمعه: الصوادي (صدِيَ – يصدَى).

فَــرَاجَ الـــظـــلـمُ حـــتى بـــات ســـهلاً
وإنّ الـــظـــلـمَ أجـــدَرُ بـــالـــكـــســـاد

وبـــات الـــعـدلُ مــضــطـهَـداً لــديــهمْ
وهمْ أولى بـــذاكَ الإضْـــطِـــهـــاد

فــيــا لــهَـفي عـلـى « لــبـنـانَ « يُـمـسي
وأهـــلُـــوه عـــلـى وشْك الـحِـــداد

عـــلـــيلٌ يـــســـتـــغـــيثُ ولا طـــبـــيبٌ
ومـــأســـورٌ ولـــيس هـــنـــاك فـــادِ

يَـــســـومُ الـــسَّـــاكـــنـــيهِ الخـــسفَ غِــرٌّ
غَـــويٌّ ضلَّ عن نـــهْج الـــرَّشَـــاد

وأحـــزابٌ كـــمـــا أَدري وتَـــدري
تُـــنـــادي بـــالـــوِفـــاقِ ولا تـــنـــادي

رأوْا فـي الـــشَّـــعب راحـــلـــةً ذلـــولاً
عـــلى وهْنٍ، فـــكـــانـــوا كـــالـــقُـــراد[1]

وفي «لــبـنــانَ» مُـرتـبـعــاً خـصــيـبـاً
عـــلى ضـــعفٍ، فـــكـــانـــوا كـــالجـــراد

فـــمـــا تـــركـــوا لـــنـــا مـــجـــداً طـــريـــفـــاً
ولا أبـــقَـــوا عـــلـى مـــجـــدٍ تِـلاد[2]

ســـتـــأتـــيـــهمْ شـــواردُ مُـــقْـــلـــقَـــاتٌ
تـــقـــيم الـــهـــاجـــعـــينَ عن الـــوِسَـــاد

أشـــدُّ عـــلـى الـــنـــفـــوسِ من المـــنـــايـــا
ومِن وقْـعِ الـــســـيـــوفِ عـــلى الـــهـــوادي[3]

---

(١) القُراد: دويبة تعض الإبل.

(٢) القديم الأصلي، ضد الطارف.

(٣) الهوادي: أوائل الخيل.

يُحبِّرُها فتىً في الشِّعر فذٌّ
«حبيبٌ» دونه و«أبو دؤاد»[1]

يغرُّهمُ سكوتُ الشعب حيناً
ولا يدرونَ ما تحت الرَّماد

ولا يدرونَ أن الشَّعبَ سيْلٌ
إذا مَا انْصبَّ أفعمَ كلَّ واد

وبحر ليس يَسلم راكبُوه
فإنّ البحرَ صعبُ الإنقياد

فإن يرقُدْ فإنّ لكلِّ جفنٍ
ولا نُكرٌ، نصيباً في الرُّقاد

لنا دَينٌ عليهم غيرُ نذْرٍ
وإن الدَّين أحرَى بالسَّداد

فإن دامتْ عَمايتُهُمْ وداموا
ودامَ الظلمُ يَجري في العِباد[2]

فأنذرْهمْ بيومٍ مستطيرٍ
يطيرُ لهولهِ قلبُ الجماد

تنوبُ به عن القلم العَوالي
وأنهارُ الدماءِ عن المِداد[3]

****

(١) أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (الشاعر العباسي). وأبو دؤاد الإيادي (الشاعر الجاهلي).
(٢) عَمايتهم: الغِواية واللجاج في الباطل.

٦ - نجوى لبناني[١]

[الكامل]

لا الغيدُ تُصْبِيني[٢] ولا الأقداحُ
مهما تَغالى فيهما المُدّاحُ

إني امرؤٌ كلِفٌ بإدراكِ العُلا
دأَبي الجهادُ وغايتي الإصلاح

أهوى بلادي دانياً أو نائياً
أَعَليَّ في حبِّ البلاد جُناح؟

«لبنانُ»، لستَ أبي، ولستُ فتاكَ، إنْ
صَرَفتْ فؤادي عن هواكَ رَداحُ[٣]

زعَمَ العواذلُ أنْ سلوتُك، ويحَهم
غيرُ السّلوّ لمن أحبّ يُتاح؟

ما إن هجرتُكَ عن قلىً لكنما
قلبٌ إلى نيلِ العُلا طَمّاحُ

«لبنانُ» حسبي أنني لك أنتمي
وكَفَاك أنّي البلبلُ الصَّداح

أشدو بذكركَ ما بقيتُ، ومرقَمي
تجري به فوقَ الطُّروسِ الرّاح[٤]

قالوا: سكتّ فقلت: ليس بضائري
بعضُ السكوتِ كأنه إفْصَاح

(١) أول قصيدة تنشرها له (مرآة الغرب) بعد نزوله سَنَسَناتي.
(٢) صَبا: مال إلى الجهل. وأصباه: أماله.
(٣) امرأة رداح: تامة الخَلق.

فـلـربـمـا صـمـتـتْ شـفـاه ذوي الـهـوى

عـمـداً، لـكـي تَـتَـخـاطبَ الأرواحُ

✡✡✡✡✡

شيخَ الرواسي[1]! ما لأهلكَ أصبحوا

لا الحزنُ يجمعُهُمْ ولا الأفراح

كالغصنِ يسكن كلّما سكن الصَّبا

ويميل أنّى مالت الأرياح

عبَثتْ بهم أهواؤُهم فتفرَّقُوا

شيعاً، وليس مع الخلاف نجاح

لا يملكونَ مع الزمان قيادَهمْ

كالفُلك تجري ما لها مَلاَّح

للهِ أنت إذِ الزَّمانُ مُسالمٌ

وبَنُوكَ كوكبُ سَعدِهِمْ وضّاحُ

أيامَ كان عليك من صُنع العُلا

حُلَلٌ، ومن نسْجِ الفَخار وِشاح

بالأمسِ يرهِبُك الزمانُ وصَرفُهُ

واليومَ بات حِماكَ وهو مُباح

لم يبقَ شيءٌ فيكَ لم تَعْلَقْ به الْـ

أكدارُ، إلا الماءَ فهوَ قَراح[2]

أضحى صباحاً ليلُ «مصرَ» بـ «يوسفٍ»

فعلامَ ليس لليلِنا إصْبَاح؟[3]

سعِدَتْ به وبعهدِه، في أرضنا

يشقى الأميرُ ويُرهَقُ الفلاح

---

(١) الجبال.

(٢) الماء القراح: الزلال الصافي.

(٣) يقصد النبي يوسف بن يعقوب (عليه السلام).

وتنالُ كفُّ الظلمِ كلَّ أخي نُهىً
حُرٍّ، ويخفى الحقُّ وهو صُراح
فكأن «بيتَ الدين» أصبح «يلدزاً»
وكأنما هو ذلك السَّفّاح[1]
نرجو الصلاحَ من الفساد جهالةً
هيهاتَ، ليس مع الفساد صلاح

✡✡✡✡✡

أبناءَ ذا الجيل الأشمِّ! تحيةً
تزكو ويزكو نشْرُها الفيّاح[2]
حتّام أنتم مغمِضُونَ على القَذى
لا تنهضون، كأنكم أشباح؟
أجهلتُمُ أن البقاءَ تَنازُعٌ؟
أنسيتمُ أن الحياةَ كفاح؟
فمتى أراكمْ طارحينَ خمولكم
ولكم غدوٌ للعُلا ورَواح؟
بالعِلْم فاعتصِموا فلم أرَ سُبّةً
كالجهل، فهوَ لأهله فَضّاح
فالعلمُ في الرجل القوي فضيلةٌ
والعلمُ في الرجل الضعيفِ سلاح
هؤلاء أهلُ «الغرب» قد بلغوا «السُّها»
مجداً، وما غيرَ العلوم جَناح[3]
«فتشبهوا إن لم تكونوا مثلَهم
إنّ التشبُّهَ بالكرامِ فَلاح»

****

(١) بيت الدين: قصر الرئاسة في لبنان آنذاك، ويلدز قصر السلطان عبد الحميد في استانبول.
(٢) النشر: الريح الطيبة. وفاح – يفوح – ويفيح.
(٣) السُّها: كويكب خفيٌّ الضوء في بنات نعش الكبرى.

٧ - عتاب إلى إلياس عطا الله

[البسيط]

يـا روحَ «إلـيـاسَ» بـالأرواح نـفـديكِ
إن الـمـلـيـكـةَ تُـفـدَى بـالـمـمـالـيكِ

لـولا تجـنـيّكِ لم أحـسُـدْ أخـا ولَعٍ
مـا كـان أسـعـدني لـولا تجـنّـيك

لِمَ الـصّـدودُ ومـا قـلـبي بمـنـصَـرفٍ
إلى سـواكَ، ولا سـرِّي بمَـهْـتـوك؟

« كـاتَـبْـتِـنـا مـرّةً في الـعُـمـرِ واحـدةً
ثَـنِّي ولا تجـعـلـيـهـا بـيـضَـةَ الـدِّيك»

✡✡✡✡✡

«نـيـويـورك»، يـا من فَـتَـنتِ الخـلقَ كلَّـهمُ
مـا كـنتِ فـاتـنـتي لـولا فـتىً فـيك

أخـو سـجـايـا، لَـو انَّ الـلـهَ فـرّقـهـا
في الـنـاس، مـا أبصرتْ عيـني بصعلوك

هـلالُ لـطفٍ وظـرفٍ غـيـرِ مـنـخـسفٍ
وطـودُ حِـلمٍ وحـزمٍ غـيـرِ مَـدْكـوك

يـجـودُ لـلـنـاس بـالـعِـقْـيَـانِ مِـرْقَـمه[1]
إن شـاء مـنـسـبِكـاً أو غـيـرَ مَـسـبُـوك

فـاقتْ كِـتـابـتُـه الـكـتّـابَ قـاطـبـةً
وفـاقَ إعلانُـه إعلانَ «مَـلّـوك»![2]

---

(١) المِرقَم: القلم. والعقيان: الذهب الخالص.

لــو كــان يــكــتبُ لــلـ «إفــرنج» كــان له
رسمٌ يُــمَـــثِّـــلُه فـي كلِّ مَـــســــلــوك(١)

لـــو كـــنتُ ذا نَـــشَبٍ أهـــديـــتُه نــشَــبي
لـــكنّ لا ذهبٌ عـــنـــد المَـــفَـــالـــيك(٢)

شـاء الـزمـانُ – ومن يـعصي مـشـيـئـتَهُ؟–
ألا يُـرى الحـرُّ فـيـنـا غـيـرَ مـأفُـوك(٣)

لــو لم يك الــدهــرُ فَــدْمــاً لا كَــفــاء به
مــا بــات يــنــعُم فــيه كلُّ بــاروك(٤)

يمــشي إلــيــنــا عــلى تــيهٍ يــكــاثــرنــا
بــالمــال مــا بــين مــطــبــوعٍ ومــسْــكُــوك

حــتى لَـتــحـسِبَ «كــســرى» من بـطــانـتهِ
وقــد تــخــالُ عـظــيـمــاً قــدْرَ «مــنــلــيك»(٥)

وكـــان يــهــتــزُّ قــبلَ الــيــوم من طــربٍ
لـو قد رأى بـالـنوم أشـبـاحَ «الـمَـتَـاليك»(٦)

دنـــيـــاي! قـــدْ ضـــاع فــيكِ كلُّ ذي أدبٍ
كمـا يـضـيعُ الـشّـذا في أنفِ مَـضْـنوك(٧)

☆☆☆☆☆

يــا نــفسُ، إن الــلــيــالي غــيــرُ عــاقــلــةٍ
فــإنْ شـــكَـــوتِ أذاهـــا بتُّ أشْـــكُـــوك

---

(١) درباً مسلوكاً.

(٢) المفلوك: الفقير (والجمع: مفاليك).

(٣) المأفوك: المأفون: الضعيف الرأي والعقل.

(٤) الفَدْم: العيي عن الحجة والكلام، مع الثقل. و باروك: صاغها من برك: جثا على ركبتيه، بمعنى الخائر الكسول.

(٥) منليك الثاني: امبراطورالحبشة (١٨٩٦) له صلات بالسطان عبد الحميد الثاني.

(٦) من مفردات العملة، في أصغر صورها، في العصر العثماني.

(٧) الضنك: الضيق من كل شيء. وأضنكه: ضيّق عليه.

صـبـراً، فـإن تـنـقُـمي أركَـبـتِـنـي خَـشِـنـاً
أو تـقـنَـطي فـلـقـد أَشْـمَـتِّ شَـانِـيك
لَـعلَّـمَـا رقـعـةٌ تحـظى الـعـيـونُ بـهـا
من الحـبـيب فـتَـشْـفِـيـهـا وتَـشْـفِـيك

****

٨ - اليهودي التائه

[مجزوء الرجز]

أكلُّ يـــومٍ مَـــخْـــرقـهْ
وقـــصـــةٌ مـــلـــفَّـــقـهْ؟
مـن أحـــمـقٍ ذي غُـــررٍ
أو جـــاهـلٍ ذي فَـــيـــهَـــقَـه[١]
وكـلُّ يـــومٍ طـــارقٌ
يـــأخـــذُكـمْ بـ «الـــهـــيـــبَـــقَـه»[٢]
كـــذا الـــذي طـــافَ عـــلـــيْ
ــكُمْ يَـــســـتَـــدرّ الـــصَّـــدقَه
ويـــســـتـــثـــيـــرُ الـــدينَ فـيْ
ــكم، وهـــوَ ربُّ الـــزَّنـــدقه
فـــمـــا تـــراءى شـــبـحٌ
مـــنـــكـمُ إلا لَـــحِـــقَه
ومـــا أصـــاب مُـــوصَـــداً
فـي الحـي إلا طَـــــــرَقَـه
ومـــا رأى مـــائـــدةً
إلا أمـــالَ عُـــنـــقَـه
أعـــجـــبه سَـــمْـــنَـــكُمُ
فـــصـــار مـــثْلَ الـــعَـــلـــقَه

(١) تفيهق في مشيته أو كلامه: تبختر وتعالَم وتشدّق.
(٢) من اللغة المحكية: أخذ الأمور بالمشاغلة وضجيجها.

يمتصُّ أموالَكُمُ
مصَّ الهجيرِ[1] الزنبقه

يملأُ مِن جيوبِكُمْ
جيوبَهُ المُخَرَّقه

إنْ تستحوا لا يستحي
كذا الإلهُ خَلَقه

جارَى «اليهودي» تائهاً
بلْ بزَّه، بل سبقه

فاليومَ في مِنْطقةٍ
وفي غدٍ في مِنْطقَه

يا حاملَ «الكشكولِ» في الـ
ـعاتِقِ أين «المنطقة»[2]

✡✡✡✡✡

ما عجَبي من رجلٍ
صار قفاه مَفْرِقَه[3]

بل عَجَبي من مَفْرِقٍ
قد صار خلف العَنْفَقةْ[4]

فيا لها من قَرْعةٍ
بل يا لها من مَزلقَه!

دائرةً مثلَ الرَّحى
بيضاءَ مثل «الشّرنَقه»

في البَرْدِ تغدو جَمَداً
وفي الهجِيرِ مَبْصَقه

---

(١) الهجير والهاجرة: نصف النهار، عند الزوال إلى العصر.
(٢) ما بين المنكب والعنق. والمنطقة: كل ما شُدَّ به الوسَط، مثل (النطاق).
(٣) مفرِق الرأس: حيث يُفرق فيه الشعر.

رأسٌ تُـــــــظـلُّ أرجـلَ الْـ
ـــبُـــرْغُـــوثِ فـــيه قَـــلِـــقه
فـــلـــو تـــراه حـــاســـراً
ظـــنـــنـــتَهُ قـــد حـــلَـــقَه
هـــذا هـــو « الـــسِّـــنـــدان» والـ
أنف الـــكـــبـــيـــرُ «المـــطـــرقه»

✲✲✲✲✲

عقَّ بـــنـــاني قـــلَـــمِي
أضـــاعَ شِـــعـــري رونـــقَهْ
ولا أطـــاعـــتـــني الـــقَـــوا
فِي الـــشَّـــارداتُ الـــمُـــونِـــقه
إنْ كـــنـــتُ لا أرعـــاكُمُ
رعى الجـــفـــون الحَـــدَقه
إلامَ يـــســـتـــجـــهـــلُـــكمْ
أجـــهلُ من «هـــبـــنَّـــقَه»؟[1]
دمُ الـــقـــلـــوبِ مـــالُـــكمْ
فـــحـــاذروا أن يُـــهْـــرقَه
أتجـــعـــلـــونَ عـــرقَ الـ
أجْـــســـاد مـــنـــكم «عـــرقَهْ»؟
أَراقـــكُمْ مَـــنْـــطِـــقُهُ؟
وقـــد عـــرفـــتم مَـــنْـــطِـــقَه
أمْ صـــوتُـــه؟ وصـــوتُـــهُ
أحـــسنُ مـــنه الـــنـــقـــنـــقه
أمْ وجـــهُـــهُ؟ ولـــو رآ
هُ الـــقـــردُ «طـــاح الحـــلَـــقه»!

---

(١) الهبنَّق: الأحمق (والتاء للمبالغة). وقد أصبح مثلاً يُضرب.

قوموا اقْرؤوا تاريخَهُ

هل فيه إلا مُوبِقَه؟[1]

في كل يومٍ يبتغي

ضريبةً أو نفقه

كأنكمْ بُعولةٌ

كأنه مطلّقه

بل كلَّما أحسّ بالْ

إملاق أبدى مَلَقه

فصوّر البحر لكم

وهو أُجاجٌ[2] «مرقَه»

وصوَّر الأرضَ على اتْـ

ـتِساعِها كـ «البندقه»

وحَولَه عصابةٌ

تجهلُ إلا الشَّقْشَقَه

ضمائرٌ ميّتةٌ

وألسنٌ مفرَّقه

يرعى لها عهودَها

كما تُراعي مَوْثقه

قد وافقَتْه مثلما

«وافقَ شنٌّ طبقه»

لكنها لِعِلَّةٍ

قد نزعتْ منه الثِّقه

(١) الموبق: من المعاصي الكبائر المهلكة.

(٢) ملْح مرّ.

والـــلـهِ، لـــو كـــان قِـــصَـــا

صُ «الـــنَّـــصـبِ» مـــثـلَ الـــسَّـــرقه

لأصـــــبـــــحـتْ أيـــــديــــهِـمُ

مـــقـــطـــوعـــةً مـــعـــلّـــقـه

وأبـــصَـــرتْ أعـــيُـــنُـــكـمْ

أتـــقـــاهـمُ فـي المِـــشـــنـــقَـه!

****

٩ - وقْفٌ عليك الشعر

(إلى كل حامل كشكول)

[الكامل]

أسَفي على الكشكولِ كيف تمزَّقَا
يا صاحبَ الكشكولِ، طالَ لك البَقَا
لا يَحزُنَنْكَ اليومَ أنك مُخفِقٌ
ما أنت أوّلُ ذي رياءٍ أخفَقَا
عقبى الحَمَاقةِ ما علِمتَ، وإنما
هيهاتَ أن تعظَ الحوادثُ أحمقَا
أعيَيْتَ كلَّ مهذّبٍ ومؤدّبٍ
حتى العصا، وعييتَ أن تتَخلَّقا
كم ذا تطوَّفَ في المدائن والقُرَى
متبججاً، مُتَنطِعاً، مُتَفيهقا
مُتوعداً كلَّ امرئٍ مُستضعَفٍ
مُتملقاً من يعشق المتملقا
خلَت السنونَ وأنت تستجدي الورى
فمتى أراكَ على الورى مُتَصدقِا؟
جاءوك بالموفور حتى أملقُوا
وتلقَّتُوا فرأوك منهم أملقا
أنفقتَ مالهمُ كما أنفقتَهُ
اللهُ أعلَمُ كيف بادَ وأُنفِقَا
لو كان شِعراً كنت صاحبَ لِمّةٍ
أو كان لفظاً كنت أغزرَ منطقا

بـــددتَـه وعـــفـــوتَ عن أرواحـــــهمْ

لـــلـهِ قـــلــبُكَ مـــا أرقَّ وأشـــفــقـــا!

مـــالُ الـــشِّـــحَـــاذةِ لا يـــدومُ، وإن يـــدُمْ

فـقــدْ اقـتـنـيتَ بـه سـعـيـراً مُـحْـرِقـا

✲✲✲✲✲

كم ذا تَـشـيـدُ الـبـاخـراتِ وتـبـتـني!

مــهلاً، فـإن الـبـحـرَ أصـبح ضَـيِّـقـا

أقـلـقْتَ حـتَّى «الإنـكـلـيـز»، وطـالمـا

ظـنـوا الـعُـبـابَ لـهم حلالاً مُـطـلَـقـا

هلاّ - وقـد هـيـجْت كـامِنَ حـقـدهمْ -

صـافـيـتَـهم وعـقـدتَ مـعـهم مَـوْثـقـا؟

لا، لا، فـــإن همْ أغــرقــوهـــا كــلَّـــهـــا

بـقـيتْ لـديك «سـفـيـنـةٌ» لن تَـغـرقـا

أعـني المـدرَّعــةَ المـصـفـحــةَ الـتي

تـخشى الـعواصفَ حولَـها أن تُـخفـقـا

هي طـاســةٌ سِـحـريــةٌ، مُـرْهَـا تـكنْ

في المـاء فُـلْـكـاً، في الـفـضـاءِ مُـحلِّـقـا

قــد قــال قـومٌ: مِـغـنـطـيسٌ تحـتَـهـا

ويــقــول قـــومٌ: إن فـــيـــهـــا زئـــبـقـــا

كَـذَب الـذين تـقـوّلـوا: يـا سـيـدي!

الحقُّ أن بـهـا الجـنـونَ الـمُـطـبِـقـا!

✲✲✲✲✲

جفَّ الـقَـذالُ[1]، وبـات أجـردَ عـاريـاً

لـو كـنـتَ تحـفظ مـاء وجـهك أورقـا

(١) القذال: جماع مؤخر الرأس (الجمع: أقذلة وقُذُل).

طار السوادُ عن المفارقِ وامّحَى

فاليومَ أصبح كلُّ رأسِك مَفْرِقا

لو حاولَ البُرغوثُ يمشي فوقَهُ

لم يأمن البُرغوثُ أن « يتزحْلَقا »

ضيَّعتَ عمرَك في المعاصي كلَّه

فمتى تحنّ إلى الفضيلة والتُّقى؟

☆☆☆☆☆

وقْفٌ عليك الشِّعرُ حتى تَرعَوي

وعلى الضَّلال الحقُّ حتى يُزهِقا

أنّى حللتَ وجَدتَ ثَمَّ شَوارداً

تُلهيك إنْ تلهو وإنْ تتشدَّقا

ملءَ الشِّفاهِ، فإن هَممْتَ بلفظةٍ

نطقتْ بها الأفواهُ كي لا تنطِقا

تغري بقلبك كلَّ همٍّ مقلِقٍ

وتذودُ عنك النومَ حتى تأرقا

وتكونُ إمّا سِرت غرباً مَغْربا

وتكونُ إما سرتَ شرقاً مَشرقا

فإذا رآك إلى لقائك شيِّقٌ

أمسى إلى التوديعِ منه أشوقا

لا «مرحباً» إمّا نزلتَ، ولا إذا

أزمعتَ تسمع من يقول: «إلى اللقا»

يا ساكني «كندا»، السلام عليكمُ

إنّ المنافقَ بينكم لن يَنْفُقا

وافَاكمُ ذاك الغرابُ مُبكّراً

فمنعتموه بينكم أن ينعَقا

لـو لـم تـكـونـوا الأُسْـدَ أو أشـبـالَـهـا
مـا خـافَ أن يَـعْـوي ولا أن يَـنْـهَـقـا
مـا مَـرَّ ذكـركمُ عـلـى ذي مَـسْـمعٍ
إلا تـمـلَّـكَهُ الـسُّـرورُ فَـصَـفَّـقـا

****

١٠ - ماذا؟

[البسيط]

ما الطَّيرُ ضاقتْ بها الأوكارُ فاضطربتْ
في الأرض باحثةً عن مرتَعٍ خَصِبِ
تغالبُ الريحَ في الأجواء صاعدةً
وتتقي الناسَ عند الحَسْوِ والنَّغَب[١]
حتى إذا هبطتْ في السفح مزدَرَعاً
فيه الفواكهُ من نخْلٍ ومن عنب[٢]
وأودعتْ زُغْبَها الأعشاشَ، وانطلقتْ
تقتاتُ بالبُسْرِ أحياناً وبالرُّطَب[٣]
ساقَ القضاءُ إليها كل محتَبِلٍ
فلم تجُزْ عَطَباً إلا إلى عَطَب[٤]
أشقى وأتعسُ حظّاً من مُهاجِرةٍ
في «الغرب» شرقيةِ الأنسابِ والحَسَب
كأنما البؤسُ خُلْقٌ من خلائقها
فكلّما غالبَتْهُ فازَ بالغَلَب
طِلْبُ النوائبِ في حَلٍّ ومرتحَلٍ
في دارةِ الأرض أو في دارةِ الشُّهُب
إنْ تركبِ البحرَ فالسِّمسارُ يرصُدُها

(١) حسْو الطائرِ الماء، والنّغْب مثله. (نغَب - ينغَب - نغْباً).
(٢) المزدرع: موضع الزرع، مثل (المزرعة).
(٣) من مراحل نضج التمر: البسْر والرُّطَب، والتمرُ آخرها.

أو تطلبِ البَّرَّ فالدلاّلُ في الطَّلب

حاموا عليها كما حام النسُّورُ على

جَرحي اللهاذِم[1] والهنديّة القُضُب

أو كالذّباب على صحنٍ من الضَرَب

أو ك «اليهود» على عِجْلٍ من الذهب[2]

كأنها الشّاةُ، غالَ الموتُ راعيَها

فكلُّ ضرْعٍ عليه كلُّ مُحتَلِب

هناك يَسلُبها حكّامُها، وهنا

أهلُ الكشاكيلِ والأكياسِ والحُقُب

باسمِ المساكينِ أحياناً، وآونةً

باسمِ الهياكلِ والإصلاحِ والأدب

موتى الضمائر، موتى كلِّ عاطفةٍ

فليس فيهمْ - وكم بين اللصوص - أبي

إن يُرهِقُوها، وهم منها، فلا عجبٌ

لا يعرفُ السوسُ غيرَ الفتْكِ بالخشب

في كلِّ يومٍ لهم في قتْلها أَرَبٌ

وما لها أَرَبٌ في قتْلِ ذي أرَب

تَغرَّبتْ في سبيل المجد، واغتربوا

طَماعة بمجاني كلِّ مُغترِب

يا ليت مَن شاطروها مالَها حملوا

شطراً من الظلم، أو شطراً من التعب

✡✡✡✡✡

يا أمَّةً هاضتِ الأيامُ جانبَهمْ

(١) لهْذَمَه: قطعه. واللهذم: السنان القاطع. وقضبَ: قطع (يعني: السيوف الهنديّة القاطعة).

(٢) الضَرَب: العسل الأبيض الغليظ.

وطـمّعَ الـضّـعفُ فـيـهمْ كلّ مُـغـتَـصِبِ

لا تـــأخـــذوا بـــأمـــانيٍّ مـــزوّقـــةٍ

مـا دُرُّ أهل الأمـاني غـيـرُ مُـخْـشَـلَبِ[1]

أمـــوالــكمْ، أنـــتمُ أولى الأنــامُ بـــهـــا

فـراقـبـوا الـلـهَ في مُـسـتـحـدَثِ الـنَّشَبِ

هـذا الـسلاحُ الـذي يُـشـرى الـسلاحُ به

هـذا المـسـمّى بـحقٍ كـاشفَ الـنُّـوَبِ

هـذا المـنـجِّي من الآفـاتِ صـاحـبَه

إنْ تـفـقـدوهُ فـقـدتمْ أنـفعَ الـصَّحَبِ[2]

لا تحـسَـبُـوا أنـني بـالـشُّح آمُـرُكمْ

إن المـواطـرَ عـنـدي أفـضل الـسُّحُبِ

وإنمـــا رَفْـــدُكُمْ مَن لا خَلاقَ لـــهمْ

كـمُلْـبِسِ الخـزِّ ذاتَ الـظّـلف والـغـبَبِ[3]

جُـودُ الـكـريمِ عـلى من يـسـتـخفّ به

مُـضَـيَّعٌ، كـالحَـيـا[4] في المـوضـع الخـرِبِ

مـاذا؟ أيَـعْـجُمُ أهلُ الـلـؤم عُـودَكُمُ

وأنـتم الـنُّـجْبُ نسلُ الـسَّادةِ الـنُّجُبِ؟[5]

وتـطـربـون، وسـيفُ المـوتِ مـنـصـلتٌ؟

وتـلـعـبـون، وشـرُّ الـنـاسِ ذو الـلـعبِ؟

إن كـان صـوتيَ لم يـبـلغْ مـسـامـعَكُمْ

فـذاكَ من حُـسـنِ حظِّ الـبُـومِ والخُـرَبِ

---

(١) الدرّة الزائفة.

(٢) جمع الصاحب: صَحب.

(٣) ذوات الأظلاف: المجترة من الحيوان. والغبب والغبغب: الجلد تحت الحنك.

(٤) الحيا: المطر.

(٥) عَجَمَ: اختبر وجرّب وراز ومافي معناها.

✡✡✡✡✡

ثلاثــةٌ لا أصــابتْ غــيــرَ أوّلــهــا
أهلُ الــنِّــفــاقِ وداءُ الــسُّلِ والجَــرَب

يــقــول قــائــلُــهم: مــهلاً إلى «رجبٍ»
كــأنــني ســوف أُبــقــيه إلى «رجب»!

إن يــعــجبِ الــنــاسُ من فَــدْمٍ تــوعّــدني
فــإنه عَــجَبٌ أدعى إلى الــعَــجَب[1]

إن الــغــريقَ إذا ضــاقتْ مــذاهــبُه
لا يــحــمَــدُ البــحــرَ ذا الــتــيــار والــعُــبُب[2]

تبَّ الــنُّــحــاةُ، وتبَّ المــؤمــنــون بــهم
أهلُ الــسَّخافــاتِ والتَّضلــيلِ والــكَذب[3]

كم جــــوزّوا من كلامٍ لا جَــــواز لــه
وأوجــــبــــوا من أمــــورٍ قطُّ لم تجِب

وكم روَوا من أحــاديثٍ مــلــفَّــقَــةٍ
وزوّروا من حــكــايــاتٍ ومن خُــطَب

الــنحــوُ والــصرفُ والإعرابُ أجــمــعُــهــا
سفــاسفٌ، لم تــكن من قــبلُ في « الــعرب»

هــذي تــعــالــيمُ كَــسلَــى مــا يُــدل بــهــا
إلا فــتــىً «أعــجــميٌّ» الحَــلْق والــنَّــسَب

فلا حَــبَــا الــلــهُ نــحْــويــاً بــرحــمَــتِه
أولى بــرحــمــته مــنــه « أبــولــهب»

لــولا أكــاذيــبُــهمْ مــا بــات مــنــتــصِــبــاً

---

(١) الفَدْم: العييّ عن البيان، الثقيل في الكلام.
(٢) العُبُب: المياه المتدفقة.
(٣) تبّ: هلك.
(٤) الرماح.

بين العوالي[٤] الغوالي فارغُ القَصَب

«ما كنتُ آمَلُ أن يمتدَّ بي زمني»

حتى يطاولَني قِرْدٌ بلا ذنَب[١]

يا أجهلَ الخلْقِ - حتى ناقلِ القُرَبِ -

اِربأ بنفسك أن يَهتاجَني غضبي

أو تَطلَعنَّ عليكمْ كلُّ آكلةٍ

ترعى الهشيمَ ولا تُبقي على العُشُب

تنقضُّ مثلَ نجوم الرجْم هاويةً

في إثر كل رجيمٍ غير ذي أدب

فما تُغادرُ قلباً غيرَ منخلعٍ

ولا تُغادر حبلاً غيرَ مضطرب

فإن جنَحتم إلى كهفٍ ليحجُبكمْ

وجدتمُ الموتَ في الأستارِ والحُجُب

حتى إذا ظنَّ أن الساعةَ اقتربتْ

جعلتُ كل قريبٍ غيرَ مقترب

وما أنا بالذي يهوى البقاءَ لكم

لو أنّ في الموت ما في العيش من كُرَب

****

(١) لأسعد رستم معارضة شعرية للنص بعنوان (فإنه مثله في الذنْب والذنَب) (انظر كتاب جورج سليم ص٢٩٢).

(١) الوعل: تيس الجبل.
(٢) العِلج: الرجل الشديد الغليظ.

١١ - حكاية

[المجثت]

ربّيتُ كلباً صغيراً
وكان ذلك نَذْرا

وقلتُ: يحرسُ داري
إذا أتى اللصُّ سرّا

فكنت آتيه صُبحاً
باللحمِ، والشّحم عصرا

حتى إذا اجتاز ستاً
من الشهور، وأخرى

وأشبهَ الوعلَ(١) ساقاً
وأشبهَ البغلَ ظَهرا

وصار كالعِلْجِ(٢) عُنْقاً
وصار كالفيل صدرا

وافى إليّ صِحابي
وأنت بالصّحب أدرى

فأبصروا الكلبَ عندي
عيناه تقدحُ جَمْرا

فقال منهمْ ظريفٌ:
قنوتَ، والله، مُهرا!

---

(١) هرّ الكلب: صوّت دون نباح.

بحُرمةِ الودِّ إلا

سَمَّيتَ ذا الكلبَ «نِمْرا»

✡✡✡✡✡

أطَعتُ أمرَ صديقي

وقد سُررتُ وسُرَّا

لكنما الصِّفْرُ صِفْرُ

وإنْ دعوناه تِبْرا

✡✡✡✡✡

ترعرعَ الكلبُ «نِمْرٌ»

فصار أعظمَ شرَّا

يعوي إذا الناسُ ناموا

فيُسمعُ الناسَ نُكرا

وينبحُ البدرَ ليلاً

وينبحُ الشمسَ ظهرا

وكلَّما مرّ سَارٍ

أو هبَّتِ الريحُ هَرّا(١)

ويتبع الضَّيفَ حتى

إذا استقرّ استقرا

ويتركُ العَظْمَ مُلقَى

ويسرِقُ الخبزَ جهرا

فروّعَ النشءَ حتى

ما تَطلب الدارَ ذُعرا

ونفّرَ الطَّير حتى

ما تألفُ الطَّيرُ وكَرا

---

(١) السحت: الحرام.

فـــأقـــبلَ الحيُّ يـــشـــكـــو

فـــقـــلتُ: يـــا قـــومُ، صَـــبـــرا

لــــو كـــــنتُ أكـــسِبُ أجـــراً

أو كـــــنتُ أُحـــــرِزُ فـــــخـــــرا

خـــنـــقتُ بـــالحـــبل «نـــمْـــرا»

لـــكنّ لـــلـــكـــلبِ عُـــمـــرا

✲✲✲✲✲

«مـــديـــنـــةُ الـــعِـــلْم» كـــانت

لأهــــلِـه مُـــســـتـــقَـــرّا

فـــخـــانـــهـــا الـــدهـــرُ حـــتى

بـــنى بـــهـــا الجـــهلُ جُـــحـــرا

✲✲✲✲✲

يـــا مـــنـــشئَ الـــفُـــلك، مـــهلاً

لا تَـــمـــخُـــرِ الـــفُـــلْك بَـــرّا

ويـــا كـــثـــيـــرَ الأمـــاني،

شـــيـــدتَ في الجـــوِّ قَـــصْـــرا

أضـــــاقتِ الأرضُ حـــــتى

ولّـــيتَ وجـــهَك بـــحـــرا؟

أتـــأكلُ المـــالَ سُـــحْـــتـــاً[1]

وتـــقـــتـــضي الـــشّـــعب أجْـــرا؟

أتحـــسَبُ الـــنـــاسَ حـــمـــقَى؟

يـــا أحـــمقَ الـــنـــاسِ طُـــرّا

لا تَـــلـــبَسِ الـــدِّينَ ثـــوبـــاً

عـــصـــرُ الجَـــهـــالـــة مَـــرّا

ولا تـــقـــاتلْ بمَـــكْـــرٍ

فـــالـــلـهُ أعـــظمُ مَـــكْــرا

✡✡✡✡✡

وأنـتَ يـــا واوَ «عــــمــــرٍو»

حـــتّـــام تـــتـــبعُ «عَـــمْــرا؟

ولـــست تجـــلبُ نـــفـــعـــاً

ولـــــست تــــدفـعُ ضُــــرّا

إن الـــبـــلـــيـــةَ غِـــرٌّ

أمـــسـى يـــنـــاصــر غِـــرا

لا تـــعـــذُلِ الـــشِّـــعَـــر إمّـــا

جـــنَى عـــلـــيك الأَمَـــرّا

قـــد كـــنتَ قـــبل الـــقـــوافي

أقـلَّ عــــــقـلاً وقـــــــدرا

✡✡✡✡✡

مـــا في ضـــلـــوعيَ حـــقـــدٌ

ولـــــستُ أطـــــلبُ ثـــــأرا

لـــكـــنـــمـــا الحُـــرّ يـــأبى

أن يَـــخـــدعَ الـــنـــذلُ حُـــرّا

وأهـلُ «لـــبـــنـــانَ» أهـــلي

وكـــنتُ بـــالأهـلِ بَـــــرّا

✱✱✱✱

---

(١) نفطويه: من نحويي العرب.

(٢) الداء العضال: الشديد الذي يعيي الأطباء.

(٣) الآل: السراب.

١٢ - أيا عجل اليهود

[الوافر]

تــوعّــدَني مُــقــلِّــدُ «نــفْــطــويه»
كــمــا تــتــوعــدُ الأنــثى الــرِّجــالا[١]

ويـــعـــلــم أنه دوني مَـــقـــامـــاً
ولـــكن يَـــنـــبَحُ الـــكـــلبُ الـــهلالا

ولـــو أغـــفَى ولاح لـه خَـــيـــالي
لـــظنَّ المـــوت بـــاغـــتَه خـــيـــالا

مـــعَـــاذَ الـــلهِ يـــخـــلُقُ غـــيـــرَ شيءٍ
فــمَنْ هــذا الــذي خــلقَ الــمُــحــالا؟

ويـــكـــذِبُ «آدمٌ» إمـــا ادّعـــاه
فـــإن الـــنـــاسَ لا تـــلـــدُ الـــبِـــغَـــالا

أبَــعْــدَ الــيــومِ أعــجبُ من عــجــيبٍ
ومــقــلــوبُ اسْــمِهِ يــبــغي الــنــضــالا؟

أظن حـــيـــاتَه هـــانتْ عـــلـــيه
وإلا لاتّـــقى الـــداءَ الـــعُـــضَـــالا[٢]

وإمّـــا الـــلهُ شـــاءَ هلاكَ نـــفسٍ
عـــلى ظـــمـــإٍ، أراهـــا المـــاءَ آلا[٣]

شَــحَــا فــاهُ فــلــمَّــا مــرّ ذكــرى
بــطــرْف لَــهــاته أمــسى سُــعــالا[٤]

وكـــنتُ نـــســـيتُ أهلَ الـــلؤمِ حـــتى

---

(١) المذَل والمذال: القلق والضجر (مذِل بالشيء: ضاق به).
(٢) الجلّ للدابة كالثوب للإنسان (والجمع جِلال). والسحال: اللجام.

نظرتُ اليومَ ألأَمَهم خِصالا

وما فَكَّرتُ بالغوغَاء حتى

سمعتُ اليومَ أسخَفَهم مقالا

إذا عُدَّ الأفاضلُ كان صِفْراً

وصِفراً يلزم الجَنْب الشِمالا

فواعجباً، أماتَ الخَلْقُ حتى

يمارسَ حِرْفَةَ الأدبِ الكُسالى؟

ويا لَهْفَ البلاغةِ كيف ذلَّتْ

ولهْفَ الشعرِ كيف غدا مَذالا[1]

ويا لَهْفَ الصحافةِ يدَّعيها

حمارٌ طالما لبس الجِلالا

متى فارقتَ، يا هذا، المَراعي؟

وكيف قطعتَ، يا هذا، الحِبالا؟

أتنهقُ، والغضنْفر قِيدُ باعٍ

وتحسَبُه وما عافَ القِتالا؟

فما زالتْ مواضغُه حِداداً

وما برحتْ مَخالبُه طِوالا

بلى، أنتَ الذي بالأمس شدَّتْ

عليكَ يدايَ في السَّفر الرِّحالا

فلستُ بنابغِ الشُّعراءِ إن لم

أردَّ عليكَ جُلَّك والسِّحالا[2]

أما، والله، لو طُلْتَ «الثُّريَّا»

---

(١) الشسْع: أحد سيور النعل.

(٢) الفودان: جانبا الرأس، والقذال: جماع مؤخر الرأس.

(٣) الدحل: حفرة ضيقة من فوق، واسعة من أسفل (الجمع: دِحال ودُحول).

وجاوزتَ المناكِبَ والقِلالا

لمّا أمسيتَ إلا دون شِسْعي
ينالُكَ كيف مِلْت وكيف مالا[1]

فإمّا تستتر الفَودَينِ عنه
فلستَ بساترٍ عنه القَذالا[2]

ودعوى الفضلِ لا تُجديكَ شيئاً
فقد كنتَ الحقيرَ ولن تَزالا

أيا عجلَ «اليهود»، ولستَ تِبْراً
وإلا كنتَ أحسنَ منك حالا

إذا هزَّ العصا «موسى» وأهوى
فليس يَقيكَها قَرْنان طالا

أتهربُ من أمامِ الليثِ ذُعْراً
وتَزعُم أنه لزِم الدِّحالا؟[3]

وتجبُن ثم تدعوه جَباناً؟
لقد أضحكتَ، يا هذا، الثَّكالى

ومن تكن الحماقةُ فيه طبعاً
يكنْ هذا المآلَ له مآلا

يدافعني «اللئيمُ» بكل غِرٍّ
فلم أرحمْ، ولا رحِم السِّخَالا

زعانفُ لست أرضاها مَطايا
ولا أرضى رؤوسَهُمُ نِعالا

لقد فرَسَتْ نفوسَهُمُ القوافي
وإن الحقّ يَفترسُ الضَّلالا

إذا حَرُم الهجاءُ على حَرامٍ

---

(١) السُلّ والسُّلال: الداء يضني ويقتل.

فـــلــــيس يــــكــــون فـي شيءٍ حَلالا

ومن يَـــدري ويُـــغــــضي عن فــــســــادٍ

فـقـد خـان الـفـضـيـلـةَ والـكَـمـالا

لَـــتـــذرُوَهـمْ عـــواصـــفُـــهـــا رِمـــالا

وتَـــنـــســــفَــــهمْ ولـــو صـــاروا جـــبـــالا

وتـــرمِــــيَــــهُمْ أوائـــلُـــهـــا ســـهـــامـــاً

وتـــقـــرعَـــهـمْ أواخـــرُهـــا نِـــصـــالا

وتُـــمـــسـيَ في حـــنـــاجـــرهمْ جِـــراحـــاً

وتَـــمـــشـيَ في دمـــائـــهـمُ سُلالا[1]

فـإن سلِـمـوا فـقـد سلـمـوا لـيـومٍ

تـــوقّـــاهُ الأجِـــنّـــةُ والحَـــبَـــالى

****

---

(١) الفَسْل: الرديء من كل شيء. والجُعَل: من دواب الأرض، أسود اللون.

(٢) البقاع: أراض من لبنان تجاور الحدود السورية اليوم.

(٣) الباء، لغة، تدخل على الذاهب، على غير مافي البيت.

١٣ - يا نوح

أين دلائل الطوفان؟

[الكامل]

أهلَ الفسادِ وزمرةَ الشَّيطانِ
كم تدَّعونَ محبةَ الأوطانِ!

خلّوا النُّواح على الرُّبوع وأهلِها
ما ثَمَّ من خطرٍ على «لبنان»

أنّى يَضيعُ، وأهلُه أُسْدُ الشَّرَى
وله من الدّولاتِ خيرُ ضَمانِ

وإذا الضَّراغِمُ لم تَصُن أجَماتِها
أيصونُها فَسْلٌ من الجُعْلانِ؟[1]

أمّا «البقاعُ» فلا يُردّ بألسُنٍ
ثرثارةٍ، بل بالنَّجيع القاني[2]

رُدّوا على الشَّعبِ المُهاجر مالَه
لا تُبدلوه حقائقاً بأماني[3]

فالقومُ حاجتُهمْ إلى أموالِهمْ
مثلُ احتياجِهِمُ إلى العِرْفانِ

تعِسَ الذي رضيَ الأماني ثروةً
إن الأماني ثروةُ الكسلان

✡✡✡✡✡

قلتمْ: نذودُ الضَّيمَ عن إخوانِنا

---

(١) يشير إلى العلَم الأمريكي.
(٢) السلطان العثماني.

إخــوانــكمْ في غــبْـطــةٍ وأمَــان

يَـحـمـيـهمُ عَـلَـم الـنُّـجـوم، ولم يـزلْ

عـلَـمُ الـكـواكـبِ مُـكْـرمَ الـضّـيـفَـان[1]

همْ بــين أهــلــيه وفـي أكْــنــافــهمْ

وكــــأنــــهم فـي الأهل والإخــــوان

وزعــمــتمُ بــالــنــازحــينَ غــرامُــكمْ

وغــرامُــكمْ بــالأصــفَــرِ الــرنّــان

لـــو صَحَّ زَعــمــكمُ وكــنــتمْ قــوةً

لـوقَـيْـتُـمـوهمْ سَـطـوة «الـعِـبْـدان»

جـارُوا عـلـيـهم، لم يـبـالـوا زاجـراً

جَـورَ الـقـوي عـلى الـضـعـيفِ الـعـاني

لـهَـفِي عـلـيـهمْ، كـيف رُوِّعَ سِـرْبُـهم

وتــبــدّلــوا من عِــزّهم بــهــوان

ولـقـد أتـتـكمْ صـرخـةُ اسـتـنـجـادهمْ

فـكــأنــهــا مــرَّت عـلى حِـيـطـان

بــاتــوا يُــســامُــون الــعـذابَ، وبــتُّمُ

تَــدعــون بــالإعـزازِ لــلــسُّــلـطــان[2]

نِــمــتمْ فـخِــلْـتمْ كلَّ طَـرْفٍ نــائـمــاً

مــا أجـهلَ الـوسَـنـان بـالـيـقـظـان!

رُفـع الــســتــارُ، وبــانَ كلُّ مُــكـتَّمِ

أتـقــاتــلــونَ الحقَّ بــالــبُــهـتــان؟

لا غــروَ إمــا ســبَّــني سُــفــهــاؤكم

(١) يقصد: يعوق (العتق: خلاف الرق).

(٢) قلاه: أبغضه. والسَّنا: الضوء.

(٣) اللوى: منقطَع الرمل وادٍ بعينه أكثر الشعراء القدامى من ذكره في مواطن الشجن. والعُقاب: من الجوارح (جمعه: عُقبان).

(٤) الهِميان: منطقة تشد على الوسَط وتجعل فيها النفقة.

إن الجريحَ يَسُبُّ كلَّ سِنان

ذمَّ الخفافيشُ الضياءَ لأنه

يَعتاقُ أقواها عن الطَّيَران[١]

ومن العجائب أنها تقلي السَّنا

وتظلُّ حائمةً على النِّيران[٢]

خُلِقَ الورى، ولكل نفسٍ غايةٌ

وخُلقتُم للهذْر والهَذَيان

أنَّى نجاتُكِ، يا عصافيرَ اللِّوى

ولقد أتاكِ كاسرُ العُقْبان؟[٣]

✲✲✲✲✲

قُلْ للذي ملأَ اليبابَ سَفَائناً:

يا نوحُ! أين دلائلُ الطُّوفان؟

من ذا يسيرُ بها إلى غاياتِها؟

بل كيفَ تحميها من القُرصان؟

الآن أيقَنتِ البريّةُ أنها

- وإن ارتقتْ - فرعٌ من السَّعْدان

لا تعذِلِ الصبيانَ في سُخْفٍ، فقد

تحوي الكهولُ سخافةَ الصِّبيان

يضعُ المسلِّمُ كفَّهُ في كفِّهِ

وتظلُّ عيناه على الهِمْيان[٤]

والله، لولا أنه في مَثْلِهِ

---

(١) الكشكول: (كلمة فارسية) الحقيبة التي تحوي كل شيء، وتعلّق بالكتف.

(٢) السرطان: من حشرات الماء.

(٣) الدجْن: امتلاء السماء بالغيوم.

(٤) الغول: كل ما اغتال الإنسان، والجمع (غيلان).

(٥) سجَر التنور: أوقده وأحماه فلعله أراده.

مــــا كـــــان إلا ســـــائقَ الأظـــعَـــــان

أوَ مـــا تـــراه حـــاملاً كَـــشـــكـــولَه

مــتــنــقلاً من مـــوضعٍ لـمــكــان؟[1]

خَـبَـلـتْه شــاردةُ الـقــوافي فــانـثَـنَى

لــلـذعـر يَـمـشي مِـشْـيـةَ الـسَّـرطـان[2]

مُـتَـخـبِّطٌ والـشـمسُ في كـبـدِ الـسَّـمـا

فــكـــأنه في حــــالِك الأَدْجــــان[3]

أَمـسى يُـسـمِّي الـنـائـبـاتِ قـصـائـداً

وفـتى الـقـصـائـدِ طـارقَ الحِـدْثـان

فـإذا تُـطـيفُ به اقـشَـعـرّ فـؤادُه

خـوفَ الـصَّـغـيـرِ طـوائفَ الـغِـيلان[4]

ويـظـنُّـهـا في أكـلِـه وشـرابِه

وتـخـالُـهـا الأجـفـانُ في الأجـفـان

يـا قـومُ! أخـشى أن يَـضـيعَ رسـولُـكمْ

من «عـنـزةٍ»، قـد ضـاع قـبلُ اثـنـان!

إن كـان في أكـبـادِكُمْ من رحـمـةٍ

فـتـداركُـوه بـالـرسـول الـثـاني

✡✡✡✡✡

مـا بـالُ مـصـفـوعِ المـفَـارقِ والـقـفـا

يـهـذي، كَـمنْ قـد بـات في سَـجـران[5]

لا تحـسُـدا، يـا أخـدَعَـيْه، قَـذالَه

---

(١) العَيْر: الحمار الوحشي والأهلي.

(٢) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي.

(٣) الأبيات الستة التي تنتهي بهذا البيت كان الشاعر استلَّها من النص بعنوان آخر (العَيْر المتنكر) وصدرت في ديوانه الثالث (الجداول) (النص ٧).

(٤) الشِسع: أحد سيور النعل.

عــنــدي لــكلٍ مــنــكــمــا نَــعْلان[٦]

بل مــا لـمقــلــوبِ اسْـمِـه يُـخـفِي اسْـمَه

والحُـــسْنُ لا يَـــخـــشى من الإعلان

إن الــتَّـحـجُّبَ لـو يـكـون فـضـيـلـةً

لـم يَـبْـدِ من خِـدْريـهِـمـا الـقـمـران

وإذا هــتـكتَ الـسِّـتـرَ عن مُـتَـكَـتِّمٍ

لـم تــلـقَ إلا خــائــفــاً أو جــاني

زعـمَ المــؤدِّبُ أن عَــيْــراً ســاءَه

ألاّ يُــســـارَ به إلـى المَــيْــدان[١]

فـمـضى فـقـصَّـرتِ الـقـواطعُ ذيـلَهُ

وسـطتْ مَـواضـيـهـا عـلى الآذان

حــتى إذا جــاء المُـرَوِّضُ واعــتـلى

مَـتْـنـيه رابَ الـفـارسَ الـكَـشْـحان[٢]

لــكـنه مــا زال غــيــرَ مُـصَـدِّقٍ

حــتى علا صــوتٌ كـصــوت الجــان

فــاسـتلَّ صـارمَهُ فـطـاح بـرأسِهِ

ورمى بـجـثَّـتِهِ إلى الـغِـربـان

مــادام يـصـحَبُ كلَّ حيٍّ صـوتُه

فـالـعَـيْـرُ لا يُـخـفِيه جِـلْـدُ حِـصان[٣]

إن تـسـتـترْ هـيـهاتَ تَـسـتُرُ مَـفْرِقـاً

آثـار شِـسْـعي فـيه كـالـعُـنـوان[٤]

يــا أيــهــا الــغِـرُّ الـذي من أجـلِهِ

---

(١) الأخمص: باطن القدم وخصره.

لــــعنَ الـــــقــــريضَ مــــؤلّفُ الأوزان

مــا أنتَ بــالغٌ مــا وطــأتُ بــأخــمَــصي

حـــتى تـــنـــالَ الـــفَـــرقَـــدَين يـــدان(١)

****

(١) السفير العثماني في واشنطن.
(٢) الموماة: المفازة الواسعة التي لا ماء فيها ولا أنيس.
(٣) يقصد ما طلع به رستم بك على الناس (الطلْعة).
(٤) السائمة: الإبل الراعية (سامت – تسوم: رعت)

١٤ - توديع رستم بك[١]

[الخفيف]

زُلتَ عـنّـا، فـلم نُـبَل، مـثـلـمـا زا
لَ، مع الـلـيلِ، طـارقُ الأحلامِ

مـا كـرهتَ المُـقـام فـيـنـا، ولـكنْ
يـأنفُ الـذئبُ غـيـرَ سُكنى الـمَوامي[٢]

كـنتَ ضـيـفـاً فـلم يـزلْ بك سـوءُ الـطْ
ـطَـلـعِ[٣] حـتى خـسـرتَ عـطفَ الـكِرام

خُـلُقُ الـسُّـوءِ في الـفـتى لـيس يُـخْـ
ـفـيه جـمـالُ الـرداء والـهِـنْـدام

وإذا المـرءُ كـان غـيـر كـريمٍ
فَـضَـحَـتْه مـظـاهـرُ الإكـرام

لـقـنـتْك «الإسلامَ» عـصـبـةُ شـرٍ
لـيـتـهـا لـقـنـتْكَ عـلْمَ الـكلام

جـئت تـنـفي الإجـرامَ عـنـهـمْ، فـأجـرمْـ
ـتَ إلى الـصِّـدق أيَّـمـا إجـرام

كـيف أنـكـرتَ ذبْـحَـهـمْ أُمَّـةَ «الأرْ
مَنِ»، ذبحُ الجـزّارِ بـعض الـسَّـوَام[٤]

---

(١) الكأس الدهاق: المترعة الممتلئة (دهق الماء: أفرغه بشدة).

(٢) الداهية، والأمر الفظيع.

(٣) الغادية: السحابة، وجمعها: الغوادي.

(٤) طما الماءُ طُمياً، فهو طام: إذا ارتفع وملأ النهر.

(٥) أرض فروق: استانبول.

ودمُ الأبـــريـــاءِ مـــا جَفَّ، لا جَـــفْـ

ــفَتْ عـلــيــهم مــدامعُ الأيــتــام؟

سَـــلَـــبــوا الـــطـــفلَ أمَّهُ وأبـــاهُ

ورمَـــوهُ في الـــنـــار ذاتِ الـــضِّـــرام

أحـرَقُـوا الـدُّورَ، روّعُـوا سـاكـنـيـهـا

وأتَـــوْا كلَّ مُـــنـــكَـــرٍ وحَـــرَام

جَـرّعـوهمْ كـأسَ الحِـمَـامِ دِهـاقـاً

واسْـتـسَـاغـوا دمـاءَهم كـالـمُـدَام[١]

مـا أثـاروا حـربـاً، ولا ارتـكـبـوا إدْ

دَاً[٢] ولم يـبـسُـطـوا يـداً لِـحُـسَـام

ولـــئن صحَّ أنـــهم أحـــدثـــوا إثْـ

ـــمـاً أتُـــنْـــفى الآثـــامُ بـــالآثـــام؟

زلّــةٌ لــو وُقِـيـتَـهــا، لم تُـحـقَّـرْ

مِن كـــبـــارِ الـــنـــفـــوسِ والأحلام

فَـتَـحـمَّلْ، لا شـيَّـعَـتْك الـغـوادي

لا، ولا عَـدْتَ نـحـونـا بـسلام[٣]

هـــكـــذا يـــقـــذف الـــنّـــواةَ فمُ الآ

كِلِ، والجـيـفـةَ الخِـضـمُّ الـطّـامي[٤]

وإذا مـــا بَـــلَـــغْتَ أرضَ «فَـــروقٍ»

مـرتعِ الـظُّـلمِ، مـربعِ الـظُّلاّم[٥]

حـيث يـقـضي الحـيـاةَ فـيـهـا «ضـيـاءُ»

بـــين عُـــودٍ وقَـــيـــنـــةٍ وغلام[٦]

حـــيث يَـــشـــقَى الحُـــرُّ الأبيُّ، ولا يَـــنْـ

ـعَـمُ إلا زعـــانفُ الأقـــوام

قُلْ لمن أرّقوا العِبَادَ وناموا:

إنَّنا ساهرونَ غيرُ نيام

نحن لا نمقُتُ الحكومةَ، لكن

نَمْقُتُ المستَبِدَّ بالأحكامِ

إنَّ دينَ «الإسلام» يبرأُ منكمْ

أيها العابثون بـ «الإسلام»

قدْ سَلَبتمْ مالَ الرّعايا وكِدتمْ

تسلُبونَ العيونَ طَيْفَ المَنام

كُشِفَ الخيرُ عنكمُ، فإذا أنْـ

ـتُمْ لصوصٌ في صورةِ الحكّام

****

---

(١) المجلة التي كان يصدرها عبد المسيح حداد، وأصبحت تنطق بلسان الرابطة القلمية.

(٢) الشَنَب: برودة وعذوبة في الأسنان.

(٣) الحوَر: شدة بياض العين في شدة سوادها.

١٥ - إلى شاعر «السائح»(١)

[المتدارك]

بـــالــــقَــــدِّ الأهــيَفِ، بـــالــــنَّـــهــــد
بـــالـــثــغـــر الأشــنَبِ(٢)، بـــالخــدِّ
بـــالــمَــفــرقِ، بـــالــشَّــعَــرِ الجــعْــد
بـــعـــيــونِ الحُــوَرِ(٣) الـــسَّــحَّـــارهْ

مـــا شـــدْوُ الـــقَـــيــنـــة في الـــسَّــحَـــرِ
وهُـــتـــاف الـــطـــيـــرِ عـــلـــى الـــشَّـــجَـــرِ
فـي الـــفـــجـــرِ، ورَنّـــاتُ الـــوتَـــرِ
أحـــلـى من صـــوت الـــنَّـــقّـــارهْ

ذو الـــبـــلـــوى يـــعــشقُ ذا الـــبـــلـــوى
فـــانـــشُـــدْ، فـــغـــنـــاؤك لي ســـلْـــوى
لـــو يـــعــطي الـــشـــاعـــرُ مـــا يَـــهـــوَى
لـــتـــمـــنَّى تُـــنـــشِـــدُ أشـــعـــارهْ

أفـــديك بـــروحي، يـــا صـــاحِ،
وبـــكـــلِّ هَـــــزارٍ صـــــدّاحِ
فـلأنـتَ حـــــيـــــاةُ الأرواحِ
فـــاشـــدُدْ لـــلـــمَـــزْهَـــر أوتـــارهْ

ضـع كـــفّك، يـــا ذا، فـي كـــفّي

فـــكِلانــــا يـــبـــحثُ عن إلْفِ

حـــلـــــوِ الأخلاقِ، أخـي لـــطْفٍ

مـــــا بـــدّل شـيءٌ أطـــــوارهْ

كم تـــشـــكـــو هـــمّكَ لــلـــنـــاس

وبلاؤك مـــــنـــــهمْ، يـــــا نـــــاسِ

كن قـاسـي الـقـلـبِ عـلـى الـقـاسـي

فـــالحـــازمُ يُـــخـــفـي أســـرارَهْ

صُنْ دمــعكَ عــنــهم في الــطّــرفِ

لا تُــغــزَى الــقــوةُ بــالــضّــعف

مـــــا تـــرجـــو، يـــــا ربّ الـــدُّف،

مِن شـــعــبٍ يــــكــــرَهُ أحـــراره؟

قـــد شـــئتَ وشـــئتَ بـه الـيُــســرا

وأراد الـــلـــهُ بـه الـــعُـــسْـــرا

فـــعـــلـــيـه أن يَـــجـــني الـــوِزْرا

وعـــلـــيـــنـــا أن نَـــجـــني عَـــارهْ

يــــا مـــلَـــكـــاً بــين شـــيـــاطــين

صـــرّحْ بـــالحـقِّ المـــكـــنـــونِ

لا تـــرهـب لَـــوْمـــة مـــأْفـــونِ

ثـــرثـــارٍ يـــخـــدُم ثـــرثـــارهْ

قـــد آن بـــأن يـــبـــدو الـــنـــورُ

وَيَبينُ الحقُّ المستورُ
فليخرسْ ذاك المأجورُ
من قَبلِ نُمَزِّقَ أستارهْ

ما شاء اللهُ فقد كانا
لا تبغي المِلّةُ شيطانا
المِلّةُ تطلب مَطرانا
لا يؤذي الجارَ ولا الجارهْ

مَطراناً تعرفُه الأمّهْ
مَطراناً يُخلصُ في الخِدمَهْ
مَطراناً لم يحصِرْ همَّهْ
في جمع الدِّرهمِ والبارهْ

مَطراناً تُغمَضُ عيناهُ
إلا عن خدمةِ مَولاهُ
يعصي الضّلّيل ودنياه
ويحب العِلْمَ وأنصاره

يا شعباً بات بلا أملِ
إنْ ضاقَ عليك الأمرُ سَلِ
كم ذئبٍ في ثوب الحَمَلِ
قد سَنّ لِقتلِكَ أظفارهْ!

---

(١) الصنارة: رأس المغزل (في الأصل).

فـــارغَبْ بـــالـــصـــبـــرِ عن الـــيـــاسِ

واحـــذر نَـــزعـــاتِ الخـــنّـــاس

وَوسَـــاوسَ أهـلِ الـــوســـواسِ

فـــوراء الـــطُّـــعم الـــصّـــنّـــارهْ[1]

****

(١) الجُعَل: دويبة سوداء.

(٢) الغسَق: أول ظلمة الليل.

١٦ - انقر يا دف على الطارة

[المتدارك]

بـــالحقِّ، بـــأحـــرارِ الـــبـــلـــدِ
مـــا دام يـــراعـي طـــوعَ يـــدي
وفـــؤادي يـــخـــفُقُ في جـــســـدي
لا أنـــصـــرُ إلا أنـــصـــارهْ

يـــا قـــومي، قـــد طـــفح الـــكـــيلُ
وتـــعـــالَى لـــلـــقِـــمم الـــســـيلُ
وتـــنـــكّـــر لـــلـــصـــبح الـــلـــيلُ
واســـتـــأســـدَ جُـــعلانُ[1] الحـــارهْ

فَـــدعَـــوا « أيـــارَ» وأطـــيـــارَهْ
والخـــمـــرَ وربَّ الخَـــمـــارهْ
ولـــيـــنـــفخْ كلُّ مـــزمـــارهْ
لِـــنـــشُنَّ عـــلى الجـــهلِ الـــغـــارهْ

ونـــقـــاتلَ بـــالـــصـــبح الـــغَـــسَـــقَـــا[2]
ونـــســـدَّ عـــلى الـــشـــرِّ الـــطُـــرُقَـــا
ونـــضـــايـــقَـــهُ كي يَـــخـــتَـــنِـــقَـــا

---

(١) الشُّفر: واحد أشفار العين، وهي حروف الأجفان تنبت عليها الهدب.
(٢) الجبل.
(٣) نهر في أمريكا.

وتَفُكُّ يداهُ أزرارهْ

ما أثقلَ ذيّاكَ الضَّيْفَا
أرأيتمْ «كانوناً» صيفا؟
لا حلَّ على طَرْفي طَيْفا
أخشى أن يسلُبَ أشْفاره[1]

إنْ مَرّ على حُسْنٍ شانَهْ
أو طَوْدٍ[2] زعزعَ أركانهْ
أو قصرٍ روّعَ سكّانهْ
أو روضٍ أذبلَ أزهارهْ

لو تدري الأرضُ به انقلبتْ
أو تدري الشمسُ به احتجبتْ
ومياه «الهُدسُن»[3] لاضطربتْ
والليل لَساقطَ أقمارَهْ

تمساحٌ يخطُر في حُلّهْ
شَرٌّ في القلب مِن العلّهْ
ظِلُّ الطّاعونِ ولا ظِلَّه
لا جاور إلا سُمْسارهْ

يا هذا، أولى بكَ السَّفرُ

(١) المرقَم: القلم. وانصلت القلم: مضى وسبق.
(٢) الدِمنة: آثار الناس وما سوّدوا. والجمع: دِمَن.

فـي لـــــيلٍ لــــيس بـه قـــــمـــــرُ
أو فـــاســـكتْ يـــحـــمـــدْكَ الـــبـــشـــرُ
وتُـــصـــالـحْ جـــارتَـــهـــا الجـــارهْ

صـــمـــتـــاً، أو يـــنـــطقُ من سَـــكـــتـــا
فَـــوحقّ الـــشّـــعـــر إذا رمـــتـــا
كَـــفـــاهُ، ومِـــرْقـــمُهُ انـــصَـــلَـــتـــا[1]
هـــيـــهـــاتَ يُـــفـــيـــدُكَ ثـــرثـــارهْ

يـــا حـــامل مـــكـــروبِ الـــفِـــتَنِ
قـــد طـــال وقـــوفُكَ في الـــدِّمَنِ[2]
لا تُـــــلـقِ الأمـــــةَ في المِـــــحَنِ
يـــكـــفـــيك الـــشـــاعـــرُ إنـــذارهْ

****

(١) عبدالمسيح حداد صاحب مجلة (السائح)، وزميل أبي ماضي في (الرابطة القلمية) وكان من المقرّبين إليه قبل أن تسوء العلاقة بينهما.
(٢) طالب رِفْد.
(٣) لعلها: «العضب» وهو السيف القاطع.

١٧ - وقائلة

[الوافر]

أيا «عبدَ المسيحِ»[١] عليك مني
سلامٌ كلّما ذُكِرَ المسيحُ

حَببْتُكَ لا لأنك ربّ وفْرٍ
تجودُ به، ولا أنا مُستميح[٢]

ولا أنا من يَسيرُ به هواهُ
ويَخفُقُ كلّما هزّتْهُ ريح

ولكنْ شَاقني الأدبُ المصَفّى
وتيَّمَني بكَ الصدقُ الصَّريح

وأنك والوفاءُ على اتصالٍ
وبينك والرياءِ مدىً فسيح

ومِنْ عجبٍ، ولم أصحَبْك عمري
أحسُّ كأننا جسدٌ وروح

لكَ القلمُ الذي ما اهتزّ إلا
تهيّبَ سطوَهُ القصبُ الصَّفيح[٣]

لئن أمسيتَ من قومٍ بغيضاً
فمكروهٌ من الجَربى الصحيحُ

وإنَّ الشمسَ، وهي أحبُّ شيءٍ
يَذمُّ ضياءَها الجفنُ القَريح

وهذا المِلحُ يدخلُ كلَّ جوفٍ
ويخشى مسَّه العضوُ الجريحُ

وكَمْ في الناسِ من مُثْرٍ كبيرٍ

ولــكن لــيس كــالــسَّــمحِ الــشــحــيحُ

وقـــائـــلـــةٍ: أعـــاد غـــرابُ نـــوحٍ؟

نـــعم، عـــادَ الـــغـــرابُ، فـــأينَ نـــوحُ؟

غـــــرابٌ ريـــــشُـهُ ســـــرقٌ وخـــــزٌّ

وصـــوتُ الـــنـــاعـــقـــاتِ بـه فـــحـــيح

يـــنـوحُ عـــلى الـــصّـروحِ وســاكِـنـيـهـا

ومـــا مـــاتـــوا، ولا خـــلَـت الـــصُّـــروح

ولـــكنْ في الـــغُـــرابِ الـــنَّـــوحُ طـــبعٌ

وأيُّ غـــــرابِ سُـــــوءٍ لا يـــــنـــــوح؟

قـــبـــيحٌ أن يَـــذُمَ الحُـــسَنَ فـــيـــنـــا

قـــبـــيحٌ كلُّ مـــا فـــيه قـــبـــيحُ

وأقـــبح أن يـــظلَ الـــيـــوم حـــيّـــاً

ويـحـوي الـبـلـبلَ الـغـردَ الـضَّـريحُ

دخـــيلٌ لـــو حَـــواه الخُـــلـــدُ أمـــسى

جـحـيـمـاً لـيس فـيه مُـسـتـريح

أتى، لم يـــدْعُهُ أحـــدٌ إلـــيـــنـــا

أيـــا هـــذا الـــثـــقـــيل، مـــتى تـــروح؟

قـــد اشـــتـــاقَ الـــذين نـــزحتَ عـــنـــهم

وملَّ مُـــقـــامَك الـــقـــومُ الـــنُّـــزوح

أهُمُّ بـــأن أحـــدّثُ عـــنـــه قـــومي

ويُـــمـــســـكُـــني الإبـــاءُ فلا أبـــوح

فـــأقـــنعُ بـــالأشـــائـــر، وهـي نـــزْرٌ

لأن الـــقـــومَ أكـــثـــرُهمْ فَـــصـــيح

وإنَّ وراءَهـــا ووراءَ صـــمـــتي

سهاماً لا تُميتُ ولا تُريح
وصيحاتٍ تزعزعُ كل طَودٍ
وتُنكرُ بعدها الضيفَ المُسوح

****

(١) عمَد: جمع العمود.
(٢) قوم حِلّة: حلوا في مكان ونزلوا فيه (المحلّة).
(٣) الرذْل من الرجال.

١٨ - يا قومي!

[المتدارك]

إنَّ المُعتزَّ بأموالهْ
مِثلُ المعتزِّ بأخوالهْ
فخرُ الإنسان بأعمالهْ
لا بالدينار ولا البَارهْ

ما هذي القصَّةُ، يا عَمَدُ؟[1]
أرجالٌ يرأسهم ولدُ؟
لم يَنظرْ قبلكمُ أحدُ
أُسْداً تتصيدها فاره!

وجبالاً تسحبها نملَهْ
وبِحَاراً تُخزن في سلّهْ
مثلاً أصبحتم في الحِلّةْ[2]
يتناقلُه أهلُ الحارهْ

أيهاجمُ كاهنَكمْ نَذْلُ؟
ويَسُب أديبَكمُ فَسْلُ؟[3]
أجمودٌ فيكمْ أم جهلُ؟
أمْ تلك النفسُ الأمّارةْ؟

(١) التبّ: الهلاك والخسران (تبت يداه).

يا قومي، دعوةُ لا واهِ
يومَ الهيجاءِ ولاَ لاهِ
بالخَالقِ، بل بابنِ الله
لا تؤذوا اللّهَ وأنصَارهْ

تَبَّ[1] الشيطانُ وتُبَّاعُهْ
والشرُّ ونفسٌ تبتاعُهْ
شجرٌ ملعونٌ زُرّاعهْ
مَن منكم يَعشقُ أثماره

بل غَرْسٌ يأكلُ غارسَهُ
ولباسٌ يجرح لابسهُ
ولهيب يحرِق قابسَهُ
ومَزارٌ يهتِكُ زُوّارهْ

إن تغسِلْ بالوحل الثوبا
يزدَدْ إثماً، تزدَدْ عيبا
إنْ تَخضِبْ بالليل الشَّيبَا
لا تُخْفِ الليلَ وأقمارهْ

من يطلبْ من غيرٍ نصرا
كالمطفئ بالزيت الجَمرا
من يحضُنْ، يا قومي، الهِرّا
لا يَجْني إلا أقذارهْ

---

(١) سماء مدرار: تدرّ بالمطر.
(٢) المناطق الآهلة بالناس.

يـــا قـــومي، خـــلـــوا الأغـــراضـــا
يـــا قـــومـي، صُـــونـــوا الأعـــراضـــا
وتـــوقَّـــوا ذاك الـــعـــضّـــاضـــا
من قـــبلِ يُـــحَـــمِّـــلَـــكُمْ عَـــارهْ

أوَ مـــا فـــيـــكمْ ذو إحـــســـاسِ
يـــنـــهـــاهُ عن شـــتْمِ الـــنـــاسِ؟
أنـــســـيـــتمُ عـــامَ الإفلاسِ؟
فـــنـــقُصَّ عـــلـــيـــكم أخـــبـــاره

ونـــقـــيمُ المـــيّتَ من لحـــدهْ
ونـــسلُّ الـــصـــارمَ من غِـــمـــدهْ
إن عـــادَ الـــبـــحـــرُ إلى مَـــدّه
لا يمـــســـكْ شيءٌ تـــيّـــارَهْ

ونـــســـيّـــرهـــا صـــحـــفـاً صُـحُـفـا
تحـــكـي المـــدرار[1] إذا وَكَـــفـــا
إن نـــرْمِ الـــطَّـــود بـــهـــا رجَـــفَـــا
أو حـــصـــنًـــا دكّتْ أســـوارَهْ

فـــتـــزور المـــنـــزلَ والـــقـــصـــرا
وتَـــرُودُ الآهِـلَ[2] والـــقـــفْـــرا
ويـــطـــالـــعُـــهـــا ســـطـــراً ســـطـــرا
من لـــيـــس يُـــطـــالـــعُ أســـطـــارهْ

ويـــردِّدهـــا أهـــلُ الأدبِ

ويـــغـــنّـــيـــهـــا أهلُ الـــطـــرَبِ
وتـــدارُ بـــهـــا بـــنتُ الـــعـــنبِ
ويـــحـــيّي الجـــارُ بـــهـــا جـــارهْ

عـــنـــدي أســـرارٌ لـــو تُـــنـــشَـــرْ
لـــتَـــمـــنّى صـــاحـــبـــكم يُـــقْـــبَـــرْ
كـــحـــديثِ الـــفِـــســـطـــانِ الأحـــمـــرْ!!
فـــلـــيـــحـــذرْ ذاك الـــدوّارهْ

مـــــا دامـــتْ دارُك مـــن خَـــــشَـــبٍ
لا تـــقـــذفْ غـــيـــرَك بـــالـــلـــهبِ
إن هِـــجـــتَ الـــلـــيـــثَ بلا سَـــببٍ
لم يـــأمنْ جـــســـمُك أظـــفـــارهْ

****

(١) الفَدْم: العييّ الثقيل.
(٢) المِقْوَل: اللسان.

١٩ - يا هذا!

[المتدارك]

خُذْها أبياتاً مشهورةْ

كصُراخِ النفسِ المقهورةْ

ودموعِ البكرِ المذعورةْ

قد حمّلها الجاني عارهْ

يا هذا الضاربُ في الأرضِ

في غيرِ مُفيدٍ أو فرْضِ

كم يُغضِي الشعبُ ولا تُغضي

إلا لتحارب أحرارهْ

أيُفرَّقُ مالُ الإحسانِ

ما بين فلانٍ وفلانٍ؟

من فَدْمٍ ميْتِ الوجدانِ

أو غرٍّ يجهل مقداره[1]

أو أحمقَ من ذي الخُفَّيْنِ

شريرِ المِقْوَلِ[2] والعينِ

لا يعرفُ إلا شخصين:

دلاّلَ الشرِّ وسمسارهْ

---

(١) يبدو أن القصيدة تدور حول مشروع مريب يقوم على جمع أموال الإحسان، وصرفها في إحياء أرض قفراء،

إنْ تُقْبِلْ هَزَّ شواربَهُ
أو تدبرْ هزَّ حواجبَهُ
وأدار عليك عقاربَهُ
وأهانَ اللهَ ومختارَهْ

أدماءُ قلوبِ العمّالِ
ما بين نساءٍ ورجالِ
تُعطَى لغبيٍّ بطّالِ
ما فارقَ بابَ الخمّارَهْ؟[1]

عجبٌ، بل أعجبُ من عجبِ
أن يحمل شيخٌ عقلَ صبي
وجهولٌ يفخرُ بالذهب
فَخْرَ الأعمى بالنظّاره

ما هذا شأنُ الزهّاد
ما هذا شأنُ العُبّاد
أضحكتَ الرائحَ والغادي
والجارَ وأبناءَ الجاره

لله، فؤادُك ما أقسَى
نَنساكَ وتأبى أن نَنسى
أُرْدُدْ للأرملةِ الفَلْسا
واترك للعاملِ دينارَهْ

فالشعبُ أحقُّ بأموالِهْ

من ذاك القَفْرْ ومن آلهْ
ومن السلطان وعمّاله
وذئابِ «التُّرَكِ» الغدَّارهْ

أولى بالمال المجموعِ
عندي من ذاك «المشروعِ»
شعبٌ في الشرقِ، من الجوعِ
قد أوشكَ يأكلُ أطْمارهْ

يا قومي، أرواحُ البشَرِ
أولى بالعطفِ من الحَجَرِ
فسلوا الطوّاف، أخا السفرِ
أن يرفعَ عنكمْ أوزارهْ

يكفيكم بذلُ الآلاف
يكفيكم حمْلُ الأضياف
من كل بغيضٍ أو جافِ
لا يعرف محتاجٌ داره

ذاك المعدومُ إذا وجُدا
لا يحيا الشعبُ إذا فُقدا
أنبيعُ الوالدَ والولَدا

---

(١) البيت من قصيدة لابن زُريق البغدادي (من أصحاب الواحدة) ت ٤٢٠ هـ.
(٢) أرض هيعة: واسعة ومبسوطة.
(٣) المِقْوَل: اللسان.
(٤) الرَبْع: الدار، وجمعها: ربوع وأربع.
(٥) أضالعَه الأولى أي بما يخفي صدرُه. (أضالعُه الثانية) تضلّع من الطعام: ملأ أضلاعه به، وهو ما يعنيه في هذه الفقرة: ما يأكل مما أخذ من الناس.
(٦) حبالة القانص: أداة قنصه. والعافي: طالب المعروف، وجمعه: العفاة.

كي نُحيي القفرَ وأشجارهْ؟

****

٢٠ - ماذا تقول؟

[البسيط]

« كأنما هو في حَلٍّ ومُرتحَلٍ
موكّلٌ بفضاءِ الله يَذْرعُهُ»[١]

تخالُه في فِجاجِ الأرض مضطرباً
في قبضةِ الريح تَلويه وتدفعُه

كأنه الزئبقُ الرَّجراجُ منفلتٌ
أو مَهْيَعُ الزئبقِ الرجراجُ مَهْيَعُه[٢]

فما يَمُرّ بشخصٍ لا يسائلُه
ولا يمرُّ ببابٍ ليس يقرعُه

ولا يحركُ غيرُ المال مقْولَه
ولا يحرِّكُ إلا الشرَّ إصبَعُه[٣]

لا يسألُ الناس عذراً عن لَجاجَته
كأن أربُعَ هذا الخلْق أربُعُه[٤]

ليس البلاءُ بما يُخفي أضالعَه
لكنه في الذي تُخفِي أضالعُه[٥]

(١) أقضّ المضجع: خشن ونبا (الفعل يتعدى ويلزم).
(٢) القطاة: طائر كالحمام. وجمعه القطا.
(٣) الداحية: الأرض المبسوطة.

لو يقنُص البدرَ أمسى في حِبالتِه

لكن حَماهُ من العافي ترفّعُه[٦]

إني لأغبِطُ شخصاً ليس يعرِفُه

ولا أهنّئ إلا من يُودّعُهُ

٭٭٭٭٭

يا جامعَ المالِ آلافاً مؤلّفةً

لمن - ولا وارثٌ للمال - تجمعُه؟

هل أنت طابخُهُ يوماً فآكِلُه؟

أم أنت جاعلُه في الماء تجرعُه؟

أُردُدْ على العامل المسكين فِضّتَهُ

فقد أقضّ على المسكين مضجعُه[١]

لا ينفعُ المرءُ ما جادتْ به يدُهُ

حتى يكون لمحتاجٍ تبرعُه

أليس في الأرض غيرُ القفر تعشقُه؟

وغيرُ صوت القَطا[٢] في القفر تسمعُه؟

أما ترى الشيخ كاد الحزن يقتلُه؟

أما ترى الطفلُ كاد الجوُ يصرعُه؟

حتّام تُمسك شيئاً لست صاحبَه

وصاحبُ الشيء ما ينفكُّ يتبعه؟

أَولى بما بذل الجائُون أهلُهمُ

فكم تضِنّ بما جادوا وتمنعُه

ما البِرُ أن تبتنى داراً بداحيةٍ

لا يُبصرُ المرءُ فيها مَن يشيُّعه[٣]

وإنما هو إطعامٌ لذي سَغَبٍ

الماءُ حلْوٌ على العَطشان موقعُه

فـجُـدْ عــلــيه بمــا جُــدْنــا عــلــيك بهِ

يــجــزيك خــيــراً ويَــرضى عــنك مــبــدعُه

لا تجــعــل المــــالَ فــوق الــدّين مـــرتــبــةً

لــلــمــال مــوضــعُهُ، والــدينِ مــوضِــعُه

أودِعْتَ مـــا أُودعَ المـــمـــلـــوكُ في يـــده

فـــكن أمــيــنـــاً عـــلـى مـــا أنت مُــودَعه

دعِ الـــتَّــصـــنُّعَ فــيـــمـــا أنت قـــائـــلُه

فـــربمـــا فـــضح الجـــاني تـــصـــنّـــعه

إن كـــــان غـــــرّك ثـــــوبٌ أنت لابــــسُهُ

فـــانـظـــر إلــيك مــلـــيّـــاً حـــين تـــخـلـــعُه

لا تـــنـــصُـــرِ الـــبـــغْي إن الـــلـه يـــكـــرهُه

جــهــنّمُ مَـــرْتع الـــبـــاغي ومَـــضـــجـــعُه

مــــاذا تـــــقـــــول إذا جـــــئتَ الإله غـــــداً

وخــبَّـــرَ الـــنـــاس عـــمـــا كـــنت تـــصـــنـــعُه؟

****

(١) اختار جورج صيدح من هذا النص المقطعين الأخيرين في (تبر وتراب)، بعد أن أغفل الأبيات الثلاثة الأخيرة من المقطع الأخير، ووضع لهما عنواناً غير عنوان هذا النص (إليك عني). انظر النص رقم ٢٨ في (تبر وتراب). ولم نغفل المقطعين هنا حتى تكتمل صورة النص كما أرادها أبو ماضي، وينتظم السياق فيه.

(٢) النميقة: الكتاب (نمق الكتاب: يَنمُقه: كتبه وحسّنه وجوّده).

(٣) نار إبراهيم الخليل (عليه السلام) التي هي برْدٌ وسلام.

(٤) سقر: جهنم.

(٥) دياركم: (الربْع: الدار).

(١) إشارة إلى المثل المعروف: أصبح أثراً بعد عين.

٢١ - إلى شكري أبي صالح[١]

[الكامل]

وردتْ نَميقتُكَ الجميلةُ والصُّوَرْ
فلك الثناءُ من البصيرةِ والبصرْ[٢]

وعليك مني ألفُ ألفِ تحيةٍ
وعلى الأحبة في الإقامة والسَّفر

إنْ تَحمِلوا من شوقكُمْ وحنينكُمْ
نارَ «الخليل»[٣]، فإنَّ في قلبي سَقَر[٤]

«ما لاحَ برقٌ أو ترنَّمَ طائرٌ»
إلا ذكرتكمُ، ومثلي من ذكَر

فسلو الدُّجى عني إذا رق الدُّجى
عند الدجى، عني وعن وجدي خَبَر

وسلوا السماءَ وما بها من أنجُمٍ
وسلوا الغمائمَ والنسائِمَ، والشجر

وسلوا الحمائمَ حين تشدو في الضحى
فأنا الذي علّمتها تلك السُّور

أشتاقكُمْ، وأحبُّ من يشتاقُكمْ
وأحبُّ أربُعَكمْ[٥] ومن فيها استقرْ

تالله لم يشغَلْ فؤادي شاغلٌ

---

(١) وتر القوس.
(٢) الخود: الحسناء.
(٣) استحر الطائر: غرد بسحر، يعني: الدعوة إلى النهوض.
(٤) من يحملون الكشكول ويسألون الناس. والنوَر: (في الأصل) جيل من الناس، دأبهم الترحال، لهم لغة خاصة، ويعيشون على الكدية والسرقة.

عـنـكمْ ولـكن عـاقَـني صَـرْفُ الـقَـدرْ

لـولا الحـوادثُ مـا قـعـدتُ عن الـلِّـقـا

ورضـيـتُ، بـعـدَ الـعـين مـنـكم، بـالأثـر[1]

شـكـري!وقـد عَـبَـثَتْ بـنـا أيـدي الـنَّـوى

صـبـراً فـإن الـلـهَ يـجـزي من صـبَـر

يُـغـنـيكَ صـوتُ الـعـود عن جسِّ الـوتـرْ

فـاعـذرْ أخـاكَ فـإنَّ مـثـلَك مَن عـذر

✡✡✡✡✡

كم تـسـتـثـيـر بيَ الـصَّـبـابـةَ والـهـوى

عـني إلـيكَ، فـإن قـلـبي من حـجَـر

مـا لي ولـلـحـسـنـاء أُغـري مُـهـجَـتي

بـوصـالِـهـا والـشَّـيبُ قـد وخَطَ الـشَّـعَـر

في الـشَّـيب مـتَّـعَظ وفـيه مـزدَجـرْ

وبمـا مـضـى عـظـةٌ وفي الآتي عِـبَـر

كم بـ «الجـزيـرةِ» لـو يُـتـاح ليَ الـهـوى

من غـادةٍ تحـكي بـطـلـعـتِـهـا الـقـمـر

مـثلِ الـغـزالِ إذا رنـا، مـثلِ الـقَـضـيْـ

ـبِ إذا انـثـنى، مثلِ الـصبـاح إذا سَـفَـر

وبـ «سـنـسـنـاتي» من مـسـارحَ لـلـمَـهـا

من صـنـعـةِ الـرحـمن لا صـنـعِ الـبـشـر

ولـكَم بـهـا من جـدول وحـديـقـةٍ

تُـنـسـيك هـاتـيك الخـمـائلَ والـنـهَـر

فـيـهـا الـلـواتي إن رمتْ ألحـاظُـهـا

(١) زمّله: لفّه في ثوبه. في الكلام إشارة إلى الآية الكريمة: «يا أيها المزمّل».

شَلّتْ يدَ الرامي، وقطَّعَتِ الوتر[1]

قد كان ليْ في كلِّ خَوْدٍ مطمعٌ

ولكل رائعةِ المحاسنِ بي وطَر[2]

أيام شَعْرِي كالدّجى مُحْلَولِكٌ

أيامَ عيشي لا يخالِطُه كدَر

✡✡✡✡✡

ذرني وأشجاني وجسمي والضَنى

ويدي وأقلامي وطَرْفي والسهرْ

أأبِيْتُ ألهو والهمومُ تُحيط بي؟

وأنام عن قومي وقومي في خطر؟

صوتُ المصفِّقِ موعدٌ ما بيننا

ماذا أقول لهم إذا الدّيكُ اسْتَحر؟[3]

أقسمتُ بالله العظيم ثلاثةً

لتُمزِّقَنَّ يدي كشاكيلَ النَّوَر[4]

من كلِّ أحمقَ بيننا متجوِّلٍ

إن غاب غاب الهمُّ أو يَحضُرْ حضر

لا أنثني، لا أنثني، لا أنثني،

حتى يفوزَ العاملون على البقر

****

٢٢ -و...

[البسيط]

وزاهدٍ همُّهُ في المدح يسمعُهُ

مِن كلِّ مَن همُّهُ أن يخلُقَ الكَذِبا

يُعلِّم الناسَ ألا يعبُدوا أحداً

إلا الإلهَ، ويُمسي يعبُد الذَّهبا

وأنْ يَجُودوا بما تحوي خزائنُهمْ

ولا يجودُ بدينارٍ لمن نُكِبا

ضيفٌ يتيهُ على المُثري وصاحبِهِ

كما يَتيهُ على المغلوب مَن غلَبا

ذنبُ المُقِلِّ لديه غيرُ مغتفَرٍ

ومكثرِ البذلِ يقضي بعضَ ما وجبا!

كأنه دائنٌ طالَ المِطالُ بِه

كأنه يهَب الإنسانَ ما وهَبا

يا ذا المزمِّلَ إنَّ الدِّين والنشَبَا

ضدّان ما اتفقا يوماً ولا اصطَحَبا[1]

إن كنتَ من يبتغي الدنيا ويطلبُها

فارغبْ عن الدين واطرحْ ذلك اللَّقَبا

احفظْ لنفسِكَ بين الناس حُرمتَها

مَنْ يكسبِ الذمّ في مالٍ فما كسَبا

لا تنفخِ النارَ، لا تدفعْ سواك لها

إني لأُشفق أن تغدو لها حطَبا

✡✡✡✡✡

ما إنْ رأيتُ كقومي في سَماحتهِمْ

كالغيثِ يَسقون حتى الموضعَ الخَرِبا

لو كان للذئب أن يغشى منازلَهُمْ

ما عاد إلا وفي فكّيّه ما طَلَبا

ضعفٌ يُسميه من يُمنى به: «كرَماً»

كما يسمى الخُمارَ المُحتَسي «طَرَبا»

هذا الذي أوجد الكسلانَ بينهمُ

وأوجد اللهوَ للكسلان واللّعِبا

✡✡✡✡✡

وجاهلٍ يدّعي عِلْماً ومعرفةً

شرُّ البليات غِرٌّ يدّعي الأدَبا

إذا يساقُ إليه «العُرف» نَكّرَهُ

وإن رأى «الخفضَ» في أحواله نَصَبا

من «الأعاربِ» إلا أن منطقَهُ

ممّا يبغِّضّ فيه «العُجْمَ» و «العَرَبا»

أمسى يُشبَّهُ من يَحْكي بسيرته

«يهوذا»، بالذي من أجلنا صُلبا

لو كان يعرف رأيَ العارفين به

لراح يُنكرُ ما أُملي وما كُتبا

✡✡✡✡✡

وسافلٍ في حضيض الأرض ملتصقٍ

يحوك من أعظم الموتى له نَسَبا

---

(١) هو الحدْس: الظن والتخمين. (٢) الغلس: أول ظلمة الليل.

(٣) العالم بالأمور، الحاذق بالطب (ومثله: نطيس ونطاسيّ).

(٤) اللعَس: امتلاء مستحسن في باطن الشفة، لامتلائها بالدم.

فـي كـلِّ يـــــومٍ لـه دِيـنٌ يُـــــدِلُّ بـه
سـاء الــمُـتـاجِـرُ بـالأديـان مُـنْـقَـلـبـا

✡✡✡✡✡

وأبــــلَـهٍ ســــائـــــرٍ مـع كلِّ ذي أرَبِ
ســيْــرَ الــذَّلـــول، ولا تـــدري لـه أرَبـــا
لم يَـضــحـكِ الـنــاسُ لـو أمــسى له ذَنَب
لـــذاك لم يـــخـــلُقِ المـــولى لـه ذَنَـــبــا!

✡✡✡✡✡

قـد أكـثـر الـدهـرُ في عـيـني عـجـائـبَهُ
حــتى غـدا عــجَــبَــاً ألا أرى عَــجَــبـا
مَن عـاشـرَ الـنـاسَ لم يـأمَنْ دسـائـسَـهمْ
فـاخـترْ لـنفـسكَ من غـيـر الـورى صَـحَـبا

****

(١) عجز البيت من قصيدة ابن سينا (العينية) المعروفة. ساقه في تحية ضيف نيويورك راعي الطائفة الأرثوذكسية في كندا، الذي تولى حفلة (التعميد).
(٢) نزع: اشتاق (نزوعاً).
(٣) الشهاب الثاقب: المضيء.

٢٣ - ما كان أحْوجَني

[البسيط]

مـا كـان أحـوجَـني يـومـاً إلى لـقَبٍ
يـقـاتلُ الـشكَّ عـنـي في نوي الحَـدَسِ[(١)]

وطـيـلـسـانٍ به نـقشٌ وزركَـشـة
وصـولجـانٍ كـرمحِ الـفـارسِ الـشَّـكِس

إذنْ لـصـدَّقَـني من لا يـصـدِّقُـني
ولـو جـعلتُ الـضـحى جـزءاً من الـغَلَس[(٢)]

وودَّ من كـنتُ قـبلَ الـيـومِ خـادمَهُ
لـو أنه خـادمي، أو أنه فَـرَسي

فـإنْ مـشَـيْتُ رأيتُ الـغِـيدَ شـاخـصـةً
ومن هـنـا وهـنـاك الـنـاس كـالحَـرَس

وإن تـكـلـمتُ قـالـوا: لـيس ذا بـشـراً
وإنمـا هـو وحي الـروحِ ذي الـقُـدُس

فـهـانَ عـنـدَهُمُ بـذلُ الـنـفـائس لي
إن كـان في بـذلـهـا إدراكُ مُـلـتـمَـسي

وأيـدوا كلَّ مـشـروعٍ يـؤَيـدُني
فـيـهم، وإن كـان مـشـروعـاً بلا أُسُس

وبـاتَ لـثمُ يـدي في عُـرْفِ بـعـضِـهمُ
أشـفى له من دواءِ الـعـالِمِ الـنَّـطِس[(٣)]

يـحـنو فـيـمـلـؤهـا تـمـراً، وظـاهـرُهـا
لـثمـاً، كـتـقـبيل ذي وجْـدٍ لـذي لَـعَس[(٤)]

وقـد يـكـون كلامـي بـالـيـاً خَـلَـقـاً
لا روح فـيه، وكَـفِّي كفُّ مُـخـتَـلِسِ

لـو كـان ذلك لـي، أو كـنت صـاحـبَه
مـا احـتَـجتُ يـومـاً إلى سـيفٍ ولا تُـرُس

---

(١) اللوى: منقطع الرمل وادٍ بعينه يتردد ذكره في الشعر القديم.

٢٥ - النكبة في سوريا

[السريع]

لــــلـهِ مـــا أحـــلَى، ومـــا أجــمَلا

أن تـنـصـرَ الـمـسـكـينَ ذاتُ الحَـلى[١]!

إن الـــتـي تَـقــتلُ أجــفــانُـــهــا

أبتْ عــلـى الــبــائسِ أن يُــقــتَلا[٢]

فـــأقــبــلتْ تــبــذلُ أمــوالَــهــا

وتـــســـأل الــمُــثـريَ أن يَــبْــذُلا

في الـلـهِ مـسـعَـاهـا وإحـســانُــهـا

فــهــكـــذا الـــغـِـيــدُ وإلا فَلا

****

(١) و الحَلي. وجمعه: الحُليّ. والأبيات في الثناء على السيدات السوريات اللواتي خرجن إلى شوارع نيويورك لجمع الإعانات لإغاثة الجائعين المنكوبين بالوباء في سورية.

(٢) أجفانها: يريد العيون.

٢٦ - انقر يا دَفّ على الطارة

[المتدارك]

قد عاد النَّقْرُ على الطَّارهْ

والشاعرُ حرّك أوتارهْ[1]

ليُعينَ الحقَّ وأنصارَهْ

الآخذَ مالَ المحتاجِ

يا سيدَنا ربَّ التاجِ

ما أحلى الحقَّ وأنصارَه !

لا تلعبْ بين الأمواجِ

وتَوَقَّ البحرَ وتيّاره

أوَ ليست نفسُ المسكينِ

أولى بالمال من العِين؟[2]

أو ليست قاعدةُ الدِّينِ

أن يعطيَ ذو النُّعمى جاره ؟

إن كنتَ حقيقاً تُرْكيّا

فبربكَ صرِّح رسميّا

---

(١) كان المهجريون يتناشدونها وأمثالها في سهراتهم.

(٢) يريد الحسناوات واسعات الأعين (عيناء).

أَذِعِ المكتومِ المَخْفِيّا
وأزحْ عن وجهكَ أستاره

لو يلقى صخْرٌ ما تلقى
مِن وخْزِ يراعٍ لانْشَقَا
لا تغضبْ إنْ قلنا الحَقّا
وذَممْنا الجهلَ وأضراره

إن كانت وخَزاتُ الدّاعي
لم تُدْمِ جِلْدَ الطمّاعِ[1]
فتنكّبْ، يا هذا الراعي
نارَ الحدّادِ ومِسْمَاره

****

(١) الذي هو القاتل نفسه (الشاعر).

٢٧ - توديع أمين الريحاني[١]

[الكامل]

كم ذا يـلـومُ عـلـى الـهـوى الـمُـتـشـدِّقُ
غـيـرُ الـغـرام يـجـوزُ فـيـه الـمَـنـطقُ

وإلى مـتـى يُـلـحى المحبُّ عـلـى الـهـوى
وأحقُّ بـالـلـوم الـذي لا يَـعـشَق ؟

يـا صـاحـبي!هـو ذا الـغـرامُ، مـريـضُهُ
لا يُـرتجَى، وأسـيـرُه لا يُـعْـتَق

لـي مـهـجـةٌ تـأبى الـرضـوخَ لآمـرٍ
رضَـخَتْ له، وهـو المـلـيك الـمُـطـلَق

ضـحِكَ الأُلى جـهـلـوا الـغـرامَ وبطـشَه
لـمّـا رأوني في دمـوعي أَغـرَق

مـاذا عـلـى اللاحِـين ؟ لا أجـفـانُـهمْ
سَـكْـرى، ولا أحـشـاؤهمْ تـتـمـزَّق

مـا شـارك الـعـشـاقَ في آلامـهم
إلا عـلـيمٌ بـالـهـوى أو شـيِّق

يـهوَى أخـو الـبلـوى أخـا الـبلـوى، كـمـا
يـهـوى الـوريقَ[٢] من الـغـصـون المُـورِق

إنْ عـنَّفَ الخـالي الـشَّـجيَّ فـربمـا
لام الـذكيَّ عـلـى الـذكـاء الأحـمق

---

(١) في مناسبة سفره إلى فرنسة (١٩١٦).

(٢) الغصن الوريق: الأخضر المكتسي بالورق. وأورق الشجر - يورق: اكتسى بالورق.

فُطِرَ الأنامُ على الأذى، فَقَويُّهم
متصلِّفٌ[1]، وضعيفُهم مُتملِّق

أخذت نحائزُهم عليهم مَوْثقاً
ألاّ يدومَ لهم ليومٍ مَوْثِق[2]

ألِفوُا الرياءَ، فلا يسوءُ نفوسَهم
مثلُ امرئٍ حُرٍّ يقول فيَصدُق

كم لفّقوا أكذوبةً، واسترسلوا
في الغَيِّ[3] حتى صدّقوا ما لفّقوا

لو أنهم نظروا لغير مَعاشهم
وجدوا أضرَّ الخَلقِ من يتخلَّق

والدهرُ أهلُوه، كذلك دهرنا،
غيرُ الأديب الحُرّ فيه موفَّق

لكنْ على رغم الغَويّ وخَبْطه
سيدومُ في هذي الحياةِ الأَلْيق

والحقُّ منتصرٌ على أعدائه
ولَوَ انهم خلفَ الكواكبِ خَنْدقُوا

✡✡✡✡✡

لا أرمُق الدنيا بمُقلةِ ناقدٍ
إلا ودِدْتُ بأنني لا أرمُق

دنيا يحارُ المرءُ في أطوارِها
ويضيعُ في أسرارِها المتعمِّق

في الصدرِ همٌّ لا أحاولُ بثَّه
هذا مجالُ مثلُ صدريَ ضيِّق

(١) متكلف الصلف، وهو: تجاوز القدر.
(٢) النحيزة: الطبيعة (وجمعها: نحائز).
(٣) الضلال (غوى – يغوي).

لا تحسبوا هذا المشَعْشَعَ خمرةً

هذي نفوسُ ذوي الهوَى تَترقْرق[1]

لم تكتسبْ لونَ العقيقِ كؤوسُها

لو لم تكن من مُهجَتي تتدفق

فإذا انصرفتُ عن الرَّحيق فإنني

أخشى تُذكِّرَني الحبيبَ فأَشْرَق[2]

وإذا بكَيتُ من الفراق ووقعِهِ

لا تعجبوا، هذا عدوِّي الأزرق

✡✡✡✡✡

ما بالُ نفسي عندما أزَف النوى

فرِقَتْ[3] وكنتُ أظنُّها لا تَفرَق

بل ما لقلبي خافقاً في أضلُعِي

أمِنَ السُّرورِ أم الكآبة يَخفُق ؟

إني أرى حولَ «الأمين» صحابةً

كالنيِّراتِ وجوههمْ تتألّق

فأكاد من فرحي بأنصار الحِجَا

وذوي المُروءةِ والوفاءِ أُصَفِّق

فإذا ذكرتُ غداً وقُربَ مجيئه

ضغط الأسى نفسي فكادت تُزهَق

في ذمةِ الله الكريمِ وحفظه

رجلٌ يباهي الغربَ فيه المشرقُ

---

(١) المشعشع: غير الكثيف من الشراب والظلال.

(٢) في التقدير: «أن تذكرني..» والشرَق: الغُصَّة (شرِق – يشرَق).

(٣) خافت (الفَرَق).

هــذا الــذي إن قــيل ذا رجلَ الــنُّــهى

لا يَــزدهي عُــجْــبــاً ولا يــتَــفَــيــهق[1]

دلّ الــعــيــونَ عــلــيه صِــدقُ مــقــالِه

ولــكَمْ يــدُلّ عــلى الــنــفــوسِ المــنــطِق

مــا زالَ يَــسْــتَــنْــدي الأكفَّ لــذي الــطَّوى

حــتى لــكــادَ بــنــفــسِهِ يَــتــصَــدَّق[2]

هــو زهــرةٌ يُــحــيي الــنــفــوسَ أريــجُــهــا

هـــو كـــوكبٌ أنـــوارُه لا تُـــمـــحَق

شَـــتَمَ المـــقـــصـــرُ عـــنه كلَّ مـــبـــرّزٍ

لمـــا رآه غـــبـــارُه لا يُـــلْـــحَق

لم يــدْرِ أن الــبــدرَ يُــعــرَفُ في الــدجى

والــعُــودَ يَــظْــهــرُ طِــيــبُه إذ يُــحــرَق

يــا صــاحــبي! وأخــو الــعَلاء مُــحَــسَّــدٌ

ولأنت أعـــرفُ بـــالأمـــورِ وأصْـــدَق

مـــا مَن يـــكـــرّسُ لـــلـــبلاد يَـــراعَهُ

مِـــثلُ الـــذي بـــيَـــراعهِ يَـــسْـــتـــرْزِق

ســـامحْ عِـــداتَك واغـــتـــفـــرْ زلاّتـــهم

فـــالــصـــفحُ أجـــدرُ بـــالـــكـــريم وأخْـــلَق

مـــا أنتَ أولُ عـــبـــقـــريّ نـــابغٍ

كـــاد الـــطَّـــغَـــامُ له فـــفـــازَ وأخْــفَــقُــوا

✲✲✲✲✲

يــا قــاصــدَ الــبــلــدِ الــبــعــيــدِ، تــرفُّــقــاً

مـــا دام هـــذا الـــدهـــرُ لا يـــتَـــرفَّق

---

(١) المتكبر، المتوسع في الكلام.

(٢) استندى الأكف: استعطاها (الندى: الكرم والعطاء).

إن كـان بـعضُ الـودِّ يُـخـلـقُه[1] الـنّـوى

ويـــبـــتُّه[2]، فَـــودَادُنـــا لا يَـــخــــلُق

فــإذا رأيتَ الـــبــحــرَ يــعـلـــو مــوجُهُ

فـــاعـــلَمْ بـــأن دمـــوعَـــنَـــا تـــتـــدفَق

وإذا رأيتَ الـــنــجمَ يــنــظــرُ ســاهــيـاً

فــاعــلمْ بــأنّــا في الـــنــجــومِ نُــحــدِّق

وإذا سـمـعتَ الـطـيرَ تـهـتِفُ في الـضـحـى

فـــاعـــلمْ بـــأن قـــلـــوبَـــنـــا تـــتـــشـــوَّق

إنّـــا ســـنـــحـــفظُ لـــلـ «أمـــينِ» ولاءَهُ

مـــهـــمـــا أثـــار المـــفـــســـدون وأقـــلـــقـــوا

وإذا الـجـــســـومُ عن الـجـــســـوم تــــفــرَّقَتْ

فـــنـــفـــوسُ أهلِ الـــوُدّ لا تـــتـــفَـــرَّق

****

(١) يُبليه. (خلُق الثوب – يخلُق: بليَ).
(٢) يقطعه (البتّ: القطع).

٢٨ - إكليل توفيق خوري

[الكامل] و[الوافر]

قد قال «ندرا» واصفاً «ميماسكُمْ»
فأثار بي شوقاً إلى «الميْماسِ»[1]
ما كنتُ حمصيّاً، ولكني فتىً
في سرِّ «حمصَ» الآن أشربُ كاسي[2]

✡✡✡✡✡

أيا ابنَ مدينة «العاصي»[3] الجميلهْ
تهانئَ شاعرٍ يَهوى الفضيلهْ
وألفاظٌ تنمُّ على وفاءٍ
وإخلاصٍ وإن كانت قليله
جعلتُ إلى محبتكم دليلي:
فؤادي، والهوى الصّافي دليلَه
ملكتمْ مُهْجتي لا بالعَوالي
ولكنْ بالسَّجيّاتِ النبيله[4]
متى أروي من «العاصي» غليلي ؟
ويروي كل حمصيٍّ غليله ؟
فإني مثلَكم أهوى رُباها
كما أهوى نسائمَها العليله

(١) الميماس: من متنزهات حمص المعروفة.
(٢) ارتجل البيتين في بيت صاحب الإكليل في التعقيب على قصيدة ألقاها ندرة حداد (وهو في حمص) زميل أبي ماضي في (الرابطة القلمية) والأبيات بعدها ألقيت في الحفلة نفسها.
(٣) الخطاب لتوفيق خوري نفسه (في النص السابق).

فلا يــفــخــرْ عــلـى «حــمص» قَــبِـيلٌ

بمـــحـــتِـــدِهِ[١]، فــواحـــدُكم قَـــبـــيـــلهْ

نــفــوسُ رجـــالــكُمْ فـــيـــهـــا شَــبـــابٌ

وفـي شُــبّـــانـــكم حـــزمُ الـــكُــهـــوله

لـــنـــا ولـكَ المـــســـرَّةُ والـــتـــهـــاني

فــقــد عــاشتْ أمـــانـــيـــنـــا الــقــتـيـله

«وأعطِ الـــقـــوسَ بـــاريَـــهـــا» بـــيـــومٍ

قـــطـــفتَ أحبَّ أزهـــارِ الخـــمــــيـــله

بــقــيتَ مع «الـنـبـيـهـةِ» في صــفــاءٍ

تــرفُّ عــلـيـكـمـا الـنِـعَمُ الجـزيـله[٢]

****

(١) المحتد: الأصل.
(٢) النبيهة: اسم العروس.

٢٩ - حاملات الطيب[١]

[الرمل]

«حـاملاتُ الـطـيب» تـشـدو طـربـاً
بـــلـِـــقـــاكمْ، يـــا كـــرامْ
وتُـحـيِّي حَـبْـرنـا الـمـنـتـخَـبـا
مَـن لـه أســـمـى مَـــقـــام
فـانشُـري عطرَكِ، يـا ريحَ الـصَّبـا
وتَــــغَنَّ، يـــا حَـــمـــامْ
فـلـقـد نـلـنـا الـمُـنى والأرَبـا
وظـــفـــرنـــا بـــالمــرام

✡✡✡✡✡

نـحـمـدُ الـلـهَ الجـزيلَ المِـنَنِ
مَـن نـــفـى عـــنـــا الـــكُـــرَبْ
وحـبـانـا بـعـد طـول الـزمنِ
بـــالـــرئـــيس المـــنـــتـــخب
ذي المعالي، صـاحب القـدْرِ السَّني
خـــيـــرِ راعٍ، خـــيـــرِ أبْ
عــزَّ فـيـه الـدِّين بـعـد الـوهَنِ
وعـــلا صـــــــــــــــرحُ الأدب

✡✡✡✡✡

---

(١) نشيد أنشده أعضاء (جمعية حاملات الطيب) في الحفلة التي أقامها تكريماً لأسقف (بروكلن).

ولْــنــحــيِّ بــعــد ذاك الــعــلَــمــا

عـــلَــمَ الـــعـــدلِ الجـــمـــيلْ

عــلــمــاً فـي ظــلــه الحقُّ ســمــا

فـــهـــو لـــلـــحقِّ كـــفـــيل

رافـقت فـيه الخــطــوطُ الأنجــمــا[1]

ولــه ظِـلٌّ ظـــــــــلـــــــــيل

فـلـتـعـش «أمـيـريـكـا» خـيـرُ حِـمى

ألفَ جـــيـلٍ بـــعـــد جـــيل

****

(١) علَم أمريكا.

٣٠ - ولقد ذكرتكِ

[الكامل]

ولقد ذكرتكِ، يا بلادي، بعدما
ذهبَ الشَّبابُ، ومرّتِ الأعوامُ

فتمثّلتْ تلك الربوعُ لناظري
خِرَباً[١]، عليها وَحشةٌ وظَلام

ورأيت قومي ساقطينَ على الثَّرَى
جُثَثاً تلوح كأنها أصنام

يمشي عليها الظالمون بخيلهمْ
وينال منها الذئبُ والضِّرْغام

بالأمس كانوا والطيورُ طعامُهمْ
واليومَ هم للكاسِراتِ طعام

وهنا، نرى إخوانَهم، أجفانُهمْ
مفتوحةٌ، لكنّهم نُوّام

لاهينَ عنهمْ بالجِدال كما لَها
بَبَوات[٢] «رومةَ» قبلُ، والأروام

فبكيتُ، ثم بكيتُ، من فرطِ الأسى
يا ليت شعري، هل بكى «اللمّام»؟[٣]

لم يبكِ، بل أرخى العِنانَ لصوته
يشدو ويرقصُ حولَه الأقزام

غنّى، وفي تلك البلاد مناحةٌ
فعلى الجمادِ تحيةٌ وسلام

****

---

(١) الخرْبة: موضع الخراب، والجمع: خِرَب.
(٢) باباوات، وخُطفت لسلامة الوزن.

٣١ - تنصير ابن حنا نحاس

[الوافر]

تكاثرتِ الكواكبُ والأهلَّهْ
لذلك غابت الشمسُ المُطلَّهْ

كواكبُ لا يُلمُّ بها خسوفٌ
ولا تُخفي أشعتَها الأكِلَّه(١)

أُراني بين إخوانٍ وصحْبٍ
بهم يَنسى غريبُ الأهل أهلَه

أتينا اليومَ نفرحُ معْ صديقٍ
جعلنا في جوانحنا مَحَلَّهْ

يُرَجَّى في الحياةِ ككلِّ حُرٍّ
لنصر فضيلةٍ ولدفع عِلّه

وحَبْرٍ(٢) هام فيه عارفوه
ولم يُنْكِر عليه الضِدُّ فضلَه

به وبمثلِه في كل نادٍ
نفاخرُ كلَّ طائفةٍ ومِلّه

فما ضَرَّ الذي عملتْ يدا
على تفريقنا لو كان مثلَه

أيا مَولَى القلوب، بلا نزاعٍ
وأكرمَ نازلٍ في ذي المَحَلَّه

---

(١) يبدو أرادها جمعاً (للإكليل) أو (للكلّة) بمعنى الستر، وجمعهما في المعاجم (أكاليل) و(كِلَلْ).
(٢) أُسقف (بروكلن) جنوبي (نيويورك) الذي تولى عملية التعميد.

لــقــد خــافتْ عــلــيكَ ســمــاءُ «أزلن»
فــحَــاكَتْ من غــمــائــمِــهــا مــظَــلَّه
و «حــنَّــا» عــمّــدَ «الــفــادي» قــديمــاً[1]
وأنتَ الــيــومَ قــد عَــمَّــدتَ نجــلَهْ

****

(١) أفاد أبو ماضي من اسم أبي الطفل المعمّد (حنّا) فذكر معه النبي يحيى (يوحنا) الذي عمّد المسيح (الفادي) في مياه الأردنّ.

٣٢ - جمعية الصليب الأحمر السورية[1]

[الكامل]

إنَّ الصَّليبَ وكان آلةَ نِقْمةٍ
أمسى شعارَ الخيرِ والتهذيبِ

لا تعجبوا مما به من حُمرةٍ
هذا - وحقِّكمُ - دمُ المصلوب

لا بِدْعَ أن ظهرتْ عجائبُهُ لنا
فلَكَمْ أتى بعجيبةٍ وعجيب

هذا لواءٌ[2] ضامنٌ كشفَ الأذى
عن قلبِ كلِّ معذَّبٍ منكوب

لمّا شهدتُ، كما شهدتمْ، صُنعَه
طرِبَ الفؤادُ وكان غيرَ طروب

إني أحيي الناهضاتِ إلى العُلا
باسم الجنودِ، وباسمِ كلِّ أديب

هنّ الكواكبُ في الشروق، وإنما
هيهاتَ يؤذِن نورُها بمغيب

لو كلُّ فاضلةٍ تخاطبُ قومَها
قالت لكلِّ لبيبةٍ ولبيب:

«أبناءَ «سوريا»، احملوا صُلْبانكمْ
للخير، إني قد حملتُ صليبي»!

****

(١) ألقاها في حفلة أقامتها جمعية الصليب الأحمر السورية (١٩١٧) وجُعل ريعها لإعانة الجنود الأمريكيين والسوريين.
(٢) يقصد: الراية.

٣٣ - توديع نعمة تادرس[1]

[الكامل]

زمنُ الــربــيــعِ مــضــى وكــنــتُ أحــبُّهُ
فــجــلــستُ بــعــد ذَهــابه أبــكــيهِ
والــيــومَ يــهــجــرُني حــبــيبٌ آخــرٌ
فــكــأن مــا في الــقــلب لا يَــكــفــيه
اثــنــان مــا لــلــشِّــعْــر بــعد نَــواهُــمــا
مــعــنىً يَــلــوحُ له فَــيَــســتــهــويهِ
فــصْلُ الــربــيــعِ لأنه الــفــصْل الــذي
يــجــدُ الــفــتى كلَّ الــلــذاذةِ فــيه
وأخٌ يَــســوقُ الــعُــرْفَ[2] نــحــو صــديــقه
عــفــواً، ولا يــؤذي الــذي يُــؤذيه
وإذا يَــلــوذُ به امــرؤٌ في نَــكــبــةٍ
فــكــأنمــا هــو لائــذٌ بــأخــيه
هــذا الــذي تــأسى الــقــلوبُ لــبُــعــدهِ
عــنــهــا، وتَــصــحَــبُه لــكي تَــحــمــيه
مــا لــلــكِــنــايــةِ والإشــارةِ مــوضــعٌ
يــا صــاحــبي أنتَ الــذي أَعــنــيه
شــاء الــذي خــلقَ الــسَّــمــاحَ وأهــلَهُ
فَــبَــرَاكَ كي تــعــلــو وكي تُــعْــلِــيه

---

(١) تاجر السجاد الشرقي في (نيويورك) الذي أهداه أبو ماضي ديوانه الثاني (سماه: الجزء الثاني) وطبعه في نيويورك ١٩١٩ (وهو الذي تبرع لأبي ماضي بتكاليفه).
(٢) المعروف والجود والإحسان والنَّصَفَة وحسن الصحبة.

فـإذا يـجـود ذوو الـنُّضَـار[1] بـبـعـضِـه

جـــادتْ يـــداك بـــكـلِّ مـــا تَـــحـــويه

لك في الـقـلـوب مـكـانـةٌ لـو أنَّـهـا

كـانت لـغـيـرِك هـزَّ عِـطْفَ[2] الـتِّـيـهِ

كلٌ يـــودّع فـــيك صـــاحـــبَه الـــذي

بـنـفـيـسِـه وبـنـفـسه يَـفـديه

سـيُـحـبُّك الـبـحـرُ الـذي تجـتـازه

ويـــحـــبُّك الـــبَّـــرُّ الـــذي تـــطـــويه

ويـحـبُّكَ الـبـلـدُ الـذي تـخـتـاره

إن كـــنتَ أو مـــا كـــنتَ من أهـــلـــيه

كلّ المَـــواطنِ لـــلـــكـــريم بلادُهُ

والـــنـــاسُ مـــنه كـــلُّـــهمْ كـــذَويه

ســافــرْ تـرافـقْكَ الـسَّلامـةُ ولْـتـعُـدْ

بـــالـــيُـــمْن والإقـــبـــالِ والـــتَـــنْـــويه

لـــكن بـــربِّكَ لي إلـــيك وصـــيـــةٌ

لـــيـــست بـــأمـــرٍ، لا، ولا تَـــنْـــبـــيه

هي إنْ تـــزُر وطـــنـــاً نـــقـــدِّسُ ذكـــرَه

ونُـــجِـــلُّه ونَـــصُـــونُه ونَـــقـــيه

فـانـظـرْ بـأعـيـنِـنـا الـبلادَ وأهـلَـهـا

لـــيَـــرى بك الـــوطنُ الـــقـــديمُ بَـــنـــيه

****

(١) النضار: الذهب الخالص.
(٢) أحد الجانبين، عن يمين وشمال.

٣٤ - دار رشيد أيوب[١]

[السريع]

كـيف تـركتَ الـدارَ، يـا صـاحـبي
مـفـتـوحـةَ الـبـابِ لمن يَـطـرقُ؟
ألـيس في هـذا الحِـمَى سـارقٌ ؟
ألـيس في بـيـتِك مـا يُـسـرَق؟
أم عـلِمَ الـقـومُ عـلى جـهـلـهِم
أنكَ ذاك الـشّـاعـرُ الـمُـفْـلِق؟[٢]
جـمـيـلـةٌ دارُك، يـا سـيـدي
ودربُـهـا، والـشـجـر الـمُـورِق
لـكـنـهـا عـمـيـاءُ صـمـاءُ لا
عـينٌ ولا سـمـعٌ ولا مَـنـطِق
جـئتُ إلـيـهـا آملا شـيّـقـاً
وعـدتُ مـنـهـا وأنـا أشْـوَق!

****

(١) زار الشاعر داره في ميلفورد (بنسلفانيا) فلم يجد فيها أحداً، ووجد الأبواب مفتّحة (١٩٢١).
(٢) شاعر مُفلق: مُجيد، يجيء بالأعاجيب.

٣٥ - رثاء المَطران أثناسيوس عطا الله[١]

[مجزوء الكامل]

زُرتُ الحديقةَ في الضُّحى لأرى الغصونَ المورقهْ
فإذا الطيورُ صوامتٌ، وإذا الأزاهر مُطرِقهْ

وإذا النسيمُ له أنينٌ كالجريح أو الطعينْ
ويلاهُ مِن ذاك السكوتِ، وآهٍ من هذا الأنينْ

ماذا أصاب الأقْحُوانَ، فإنه لا يَبْسمُ
ماذا دها طيرَ الأراكةِ؟ فهوَ لا يترنَّمُ!

أيُّ المصائبِ بالرياض ؟ فقيل لي: نضَبَ الغديرْ!
فالطيرُ والأزهارُ حائرةٌ تفكّر في المصيرْ

فعرفتُ أني في الحديقة حاضرٌ في مأتمِ
وشعرتُ أن الحزنَ يَسرُبُ[٢] في عروقي معْ دمي

الجنةُ الغنّاء، يا أبناءَ «حمصٍ»، أنتمُ
أما الغديرُ فإنه هذا الفقيدُ الأعظمُ

«أثناسيوس»، علّمتَنا ووعظتَنا حياً وميْتا
أشرقتَ إشراقَ الصباح، ومثلما يمضي مضَيْتا

---

(١) مَطران حمص.
(٢) سرَب: مضى وذهب.

الـــلـهُ بـــارِكَ «حـــمصَ» حـــين ســـكـــنتَ في أرجـــائــــهـــا
وديـــانـــةً قـــد كـــنتَ في دنــــيـــاك من رؤســـائــــهـــا

كم مَـــهْـــمهٍ[1] لـــلــيـــأس كـــنتَ به دلـــيلَ الـــتَّـــائـــهـــيـــنـــا
كم حـــوْمـــةٍ لـــلـــبؤس كـــنتَ بـــهـــا مُـــقِـــيلَ[2] الـــعـــاثـــريـــنـــا

قـــد كـــنتَ مـــصـــبـــاحـــاً إلـــهـــيّـــاً يـــضـيء لـــكل ســـارْ
وقـد انـطـفـأتَ فـكـلّـنـا لـلـحـزن يَـعـثُـر في الـنـهـارْ

عـلـمـتَـنـا أن الـتـنـسُّكَ لـيس في سُـكْـنى الـسَّـبَـاسبْ[3]
بل في مـقـارعـةِ الخُـطـوب، وفـي مـصـارعـةِ الـتـجـاربْ

لـيس الـفـضـيـلـةُ والـتـقـى ألا يَـضُـرّ المـرءُ غـيـرَهْ
ويـصـونَ مـنـه نـفـسَهُ، بل أن يـسـوقَ إلـيه خـيـرَهْ

خـــالـــفتَ كل الـــنـــاســـكـــينَ، من الأوائل والأواخـــرْ
خُـضت المَـعـاثـر[4] عـنـدمـا خـافـوا الـتـعـرُّض لـلـمَـعـاثـرْ

قـــد كـــان نُـــســـكُك جـــرأةً عـــظـــمى ونـــســـكُـــهمُ فـــرارا
يـــا ويـــحَـــهمْ لم يـــنـــفـــعـــوا في نُـــســـكـــهم حـــتى الـــقِـــفـــارا

---

(١) المهمه: المفازة البعيدة.
(٢) أقاله من عثرته: أقامه منها.
(٣) السَبْسَب: الأرض القفر البعيدة.
(٤) العثرة: الزلّة. والمعاثر: حيث يعثُر المرء.

قد كنت تَزهد بالجواهر وهي أكوامٌ لديكا
وتُسَرُّ إذ تسعى إلى المسكين أو يَسعى إليكا

ما أحقرَ التِّيجانَ عندي، إن ذكرتُك، والأرائكْ
إن الملوكَ من الأنام، وأنت من جنسِ الملائك

شادوا على الجثث العروشَ وشِدْتَ عرشكَ في النفوسْ
فمضت عروشُهمُ، وعرشك خالد مثلُ الشُّموسْ

لله كيف حواكَ لَحْدٌ، أيها البحرُ الكبيرْ
لله كيف خبا سَناؤك، أيها القَبَس المُنيرْ

قد كنتَ كُلَّكَ، أيها الراعي الأمينُ، لكُلِّنا
«أثناسيوس»، نم هانئاً فلكمْ سهرتَ لأجلنا

****

٣٦ - جمعية الاتحاد السوري[١]

[البسيط]

مـا طـائـرٌ كـان في قـفْـرٍ عـلى ظـمـأٍ
فـسـاقَهُ قـدَرٌ نـحـو الـبـسـاتـينِ

فـاعـتـاضَ من لـفـحـاتِ الـقـيظِ وارفـةً
ممـدودةَ الـظِّلِ خـضـراءَ الأفـانـين

وبـات تُـنـشـده فـيـهـا بلابـلُـهـا
حـيـنـاً ويُـنـشـدُهـا بـعضَ الأحَـايـين

مـنّي بـأسـعـدَ نـفْـسـاً مـذْ نـزلتُ بـكم
يـا مـعـشـرَ الـسـادةِ الـغُـرِّ المـيـامـين

فـإن روحي لـتـمـشي من عـواطـفـكم
مـغـمـورةً بـالأقـاحي والـريـاحـين

ومـقـلـتي تـتـمـشى، من وجـوهـكمُ،
في أنجمٍ تـتـجـلّى لي فـتَـهـديـني

أرنـو فـيُـشـرقُ في نـفـسي جـمـالُـكمُ
كـالـوحي في خـاطـرٍ بـالـوحي مـفـتـون

إن المـروءةَ لـو شـادتْ أريـكـتَـهـا
كـانت قـوائـمُـهـا شُـمَّ الـعَـرانـين[٢]

تـرقُّ أخلاقُـكمْ كـالخـمـر آونـةً
وتـارةً تـمـزُجـون الـبـأسَ بـالـلـين

(١) ألقيت في الحفلة التي أقامتها الجمعية لتكريمه (١٩٢٥) بصفته رئيسها السابق. اختار منها جورج صيدح ثلاثة عشر بيتاً في الديوان الذي أصدره من شعر الشاعر (تبروتراب) : النص ٥٧.

ومن يجرِّبكمْ في الحالتين يجدْ
لُطفَ الملائكِ أو حَزْمَ الأساطين[1]
بكُمْ أَصولُ على الأيام ثائرةً
خطوبُها، وأُبَاهي من يُباهِيني
لأنتمُ الماءُ لي والنفسُ ظامئةٌ
وحُبكمْ قمري في ليل «كانون»
أحببْتُكمْ حبَّ إنسانٍ لإخوتِه
إذ ليس بينَكمُ فوقي ولا دوني
إنْ كان فيكمْ ضعيفٌ لا يحاذرني
أو كان فيكم قويٌّ لا يُقاويني
ولا أُداجي لأمرٍ منكمُ أحداً
ولا أرى أحداً منكمْ يُداجيني[2]
نحلتموني فضلاً لستُ صاحبَه
ولم يكن قطُّ في ظني وتَخْميني
لكن رأيتمْ خيالاً من فضائلكمْ
فخِلتمُ أنه خُلْقي وتكويني
والشمسُ إن نظرتْ في الماء صورتَها
رأتْ هنالكَ شمساً ذاتَ تلوين

✡✡✡✡✡

قُلْ لامرئٍ مثلِ «قارونٍ» بثروتِه:
إني امرؤٌ بصِحابي فوقَ «قارون»[3]
من يصطنعْ صاحباً تبقَى مودتُه
فهْوَ الغنيُّ به لا ذو الملايين

(١) الأساطين: السواري، المفرد: أسطوانة، وهي السارية.
(٢) المداجاة: المداراة.
(٣) من وزراء الفراعنة. يُضرب به المثل في الغنى والغرور، وإليه تنسب البحيرة في الفيوم.

فـاخـتـرْ صِـحَـابك وانـظـر فـي اخـتـيـارِهِـمُ
إلـى الـغــرائــز قــبلَ الــلــونِ والــدِّين

✡✡✡✡✡

المـــرءُ في هـــذه الـــدنـــيـــا عـــواطـــفُه
إن تـــنـــدرسْ فـــهـــوَ بـــيتٌ غـــيـــرُ مَـــســـكـــون
وإنّ عـــاطـــفـــةً هـــذي مـــظـــاهـــرُهـــا
مِن عـــالَم الـــروح لا من عـــالَم الـــطـــين
لـــو فَـــاتـــني كلُّ مـــا في الأرض من ذهبٍ
ولـم تـــفُـــتْـــني فـــإني غـــيـــرُ مَـــغـــبـــون

✡✡✡✡✡

لَـــوِ الـــقَـــوافي تُـــؤاتـــيـــني شـــكـــرتـــكـمُ
كـــمـــا أريـــدُ، ولـــكنْ لا تـــؤاتِـــيـــني
فـاستـنـطِقُوا القلبَ أو جُسّوه يـخبرُكم[1]
فـــالحبُّ والـــقـــلـب مـــكـــنـــونٌ بمـــكـــنـــون
وفـي زوايـــــاه شِـــــعْـــــرٌ لا وِزان لـه
ورُبَّ شـــعـــرٍ جـــمـــيـلٍ غـــيـــرِ مـــوزون
إني ســأحــمـــدُ يـــا صـــحـــبي صـــنـيـعَـكمُ
حـــمْـــداً إلـى الـــدهـــر لا حَـــمْـــداً إلى حـــين

****

(١) وقعت جواباً للطلب، ولكنه ساقها على هذا النحو، حفاظاً على الوزن.

٣٧ - نشيد يوسف بك كرم[1]

[البسيط]

يـا من هـزمتَ الـعِـدا في كل مُـعْـتـرَكٍ
في مـهـجـتي جـيشُ حـزنٍ غـيـرُ مـنـهـزمِ

لـفّوك بـالـعَـلَم الـقـاني، ومـا عـلـمـوا
أن الـتُّـقَى والـنُّـهى والمجـدَ في الـعَـلَم

وغـيـبـوا الـبـطلَ الـصِّـنـديـد في جَـدَثٍ
وأودعـوا في الـثَّـرى طَـوداً من الـشَّـمَم

لا «يـوسفٌ» آخـرٌ يَـحـمي مَـرابـعَـنـا
مضى الردى بـالـشـجاع الـطاهـر الـشِّيم

ولا فـوارسَ حـول الأرز رابـضـةً
كالأُسْد في الغاب، كالعِقبان[2] في القِمَم

«لـبـنـانُ» بـعـدك في لـيلٍ بلا قـمـرٍ
وأرزُ «لـبـنـانَ» في جـوٍّ من الألَم

لـلـهِ عـهـدُكَ من عـهـدٍ نـقّـدسهُ
وتَـسْـتـلـذُّ به الأرواحُ في الحُـلُم

لم يـبقَ غـيـرُ خـيـالاتٍ تـطـوفُ بـنـا
فـيـا نـفـوسُ إذا مـرَّتْ بكِ ابـتـسِـمي

يـا راقـداً في ضـريحٍ كـلُّه شـرفٌ

(١) زعيم لبناني تزعم حركة تمرد مسلحة ضد الوالي العثماني. دفن في (اهدن) حيث ولد، بعد أن نفي إلى فرنسا (١٨٢٣ - ١٨٨٩). ابتاعها أحد الموسيقيين (اسكندر المعلوف) ولحّنها وسجّلها على اسطوانة صارت تباع في الأسواق.

(٢) العُقاب: من جوارح الطير (أنثى) وجمعها: عِقبان.

قــام الأسُــودُ إلى أســيــافــهم، فــقُمِ
يا صاحبَ السَّيفِ، كاد السَّيفُ يُهلكُنا
يـا لـيثَ «لـبـنـان»! عـاثَ الـذئبُ بـالـغَنَم
أشْـرِفْ بـروحك مِن أَوْج الـسَّنـاءِ عـلى
سـهـولِ «لـبـنـانَ» والـغـابـاتِ والأكَم[1]
يـدعـوك لـلـجـود «لـبـنـانٌ» وأرزتُه
يـا ابن الأكـارمِ، هـذي سـاعـةُ الـكَرَم

****

(١) الأكمة: التلّ، وجمعها: أكم وآكام.

٣٨ - إلى ندره حداد[١]

[مجزوء الكامل]

إنَّ العيونَ وطالما أودعتَ شعرَك سحرَها
حَملَتْ عليكَ فأدركتْكَ، وأدركتْ بكَ ثأرها
قد كنتَ تَخشى أسْرها، فغدوتَ تحمَد أسْرها
وإذا الفتى عرَفَ الهوى، عرفَ الحياةَ وسرَّها
فأحبَّها تسقيه حازرَ[٢] خلِّها أو خَمرِها
وإذا رأى أشواكَها أغضَى ليلمحَ زهرَها
ويظلُّ يرجو فجرَها، والليلُ يطمُس فجرَها

✡✡✡✡✡

قدْرُ الفتى في حبِّه، فارفعْ لنفسكَ قدْرها
«ندره»، صبرْتَ على زمانِك طائعاً لا مُكْرَها
الغيدُ حولَك كالنجوم، وأنت تؤثرُ هجرَها
ولكَ الشبابُ وكلُّ ما خدعَ النفوسَ وغرَّها
لا النفس زاهدةٌ، ولستَ كمَن تكلَّفَ قهرَها
لكنْ شُغلتَ بغادةٍ تَخِذتْ قريضَك خِدْرَها
ما زلتَ تنعتُها وتجهلُ مثلَ غيرِك أمرَها
حتى جفَتْ قَصْرَ الخيال، وصار قلبُك قصرَها
فاشكُرْ لدهرك جُودَه واحمَدْ لنفسكَ صبْرها
ونَعِمْتُما وأمِنتُما مَدَّ الحياةِ وجَزْرَها

****

---

(١) أرسلها إلى زميله في (الرابطة القلمية) يهنئه فيها بخطبته عام ١٩٢٥. وتلا القصيدة التي بعدها (النص ٣٩) في حفل زواجه.

(٢) الحزْر من اللبن: فوق الحامض.

٣٩ - في عرس ندره حداد

[مجزوء الخفيف]

شـــاعــرٌ كـــان حـــائــــراً
أذهـبَ الحبُّ حـــيـــرتَـهْ

طـــائــرٌ كـــان تـــائـــهـــاً
وجـــد الآن جـــنّـــتـه

صـــولـــةُ الحُـــسْن والـــهـــوَى
تـــســلُبُ المـــرءَ صـــولَـــتَه

إنّ «نَـــدْرَةَ» الـــذي بـــغى
أن يُـــعـــاصي مـــشـــيـــئَـتـه

أســـلَمَ الـــيـــومَ قـــلـــبَهُ
بـــيــديه ومـــهـــجـــتَه

لـم يـــكـن زاهـــداً ولا
جـــاهـلاً قـطُّ قـــوتـه

فـــلـــكَمْ هـــدّ قـــلـــعَـــةً
قـــبـــلـــمـــا هـــدّ قـــوتَه

بلْ لأمـــرٍ مـــقـــدَّرٍ
أخّـــرَ الـــدهـــرُ قُـــرعـــتَه

يـــا أســـيـــراً كـــأنه
آســـرٌ نـــال بُـــغـــيـــتـه

لـــيس بـــالـــعـــاشقِ امـــرؤٌ
خـــافَ في الحب مِـــحـــنـــتـه

إنمـــــا الحبُّ ضَـــــلّـــــةً
لـــو عـــرفـــنـــا حـــقـــيـــقـــتَه
أنتَ يـــا صـــاحِ بـــلـــبلٌ
يـــعـــشقُ الـــكلُّ نـــفـــحَـــتَه
جـــدَّدتْ دولـــةُ الـــهـــوى
بك لـــلـــشِّـــعـــرِ دولـــتَه
دمتَ في الـــعـــيش صـــاحِ لا
يُـــخـــلقُ[1] الـــدهـــرُ جِـــدَّته

✡✡✡✡

نـــصَـــبَ الحبُّ فـــخَّـــهُ
وهـــو يـــدري قَـــنـــيـــصـــتـــه
وكـــمـــا صـــادَ «نـــدرةً»
ســـوف يَـــصـــطـــادُ إخـــوتَه
فـ «جـــواداً» و «ثُـــريّـــا»
و «خـــلـــيلاً» وزمْـــرَتـــه
وغـــداً، وهـــوَ مُـــقْـــبلٌ،
يـــعْـــلَقُ الـــكلَّ عَـــلْـــقَـــتَه!

✱✱✱✱

(١) أخلق الدهر جدّته: أبلاها (خَلُق الشيء: بَلِيَ).

٤٠ - كذا الإله خَلَقَهْ[1]

[مجزوء الرجز]

إلى متى تُضلُّكمْ
يا قومُ تلك الورقهْ؟
إلام يَستجْهِلُكمْ
أَجهلُ من «هَبَنَّقَهْ»؟[2]
أراقكُمْ مَنطقُهُ؟
وقد عرفتمْ مَنْطقَه
أم صوتُه ؟ وصوتُهُ
أحسنُ منه النقْنَقَه
أم وجهه ؟ ولو رآ
هُ القردُ «طاح الحَلَقه»
هو الذي طاف عليْ
كمْ يستدرُّ الصَّدَقه
فما تراءى شبحٌ
منكمُ إلا لَحِقَه
وما أصابَ مُوصَداً
في الحي إلا طرَقه

---

(١) (جريدة مرآة الغرب ٩ / ١ / ١٩٢٦) ردّ بها على أبيات ظهرت في جريدة (الهدى) أواخر سنة ١٩٢٥ وأوائل سنة ١٩٢٦. وعارضها أسعد رستم في أربعين بيتاً (جريدة الهدى ١٥ / ١ / ١٩٢٦) بعنوان: «هل يستحق المشنقة ؟» وهو عجز بيت كان أبو ماضي أتى به في أبيات من قصيدة نظمها سنة ١٩١٤ ونقل منها هنا (على عادته أحياناً) جملة أبيات (انظر النص رقم ٨: اليهودي التائه).

(٢) يُضرب به المثل في الحمق.

ومـا رأى مـائـدةً

إلا أمـالَ عُـنُـقَـه

أعـجـبَـهُ سَـمْـنُـكمُ

فـصـار مـثل الـعَـلَـقه

يَـمـتصُّ أمـوالَـكمُ

مصَّ الـهـجـيـرِ الـزَّنـبـقه

يمـلأ مـن جـيـوبـكمْ

جـيـوبَـه الـمُـخَـرَّقه

في كل يـومٍ يـبـتـغي

ضـريـبـةً أو نَـفَـقه

كـأنـكمْ بُـعُـولَـةٌ

كـأنـه مُـطَـلَّـقه

بل كـلَّـمـا أحسَّ بـالْ

إمـلاقِ أَبْـدى مَـلَـقه

فـصـوَّرَ الـبـحـرَ لـكم

وهـو أُجـاجٌ(١) «مَـرَقـه»

وصـوَّر الأرضَ عـلـى اتْـ

تِـسـاعِـهـا كـالـبُـنْـدُقه

إن تَـسـتـحـوا لا يَـسـتـحي

كـذا الإلـهُ خَـلَـقـه!

****

(١) شديد الملوحة.

٤١ - النار أشره آكل[١]

[الطويل]

ويـــــا رُبَّ عـــــاوٍ ظنَّ أن عِـــــواءَهُ
يَــقــيه - ولــكن مــا وقــاهُ - غــوائــلي
يَــصــيحُ، وفــرطُ الـخـوفِ يُـرجفُ روحَهُ،
صــيــاحَ صــغــارِ الـطـيـر خـوفَ الأجـادل[٢]
ويــبـكي ولـم تـضـغطْ عـلى عـنْـقه يـدي
فــكــيف إذا فَــارتْ عــلــيه مَــراجــلي؟
جــهــولٌ، وبــعضُ الجــهلِ يُــهـلكُ أهــلَهُ
غــبيٌ رأيــنــا فــيه صــورةَ «بــاقل»[٣]
نــصــحــتكَ ألا تجـعـل الـنَّـصْل مَـرْكـبـاً
فــإن الــمــنــايــا فـي ركـوبِ الــمَــنــاصلِ
وإنــيَ نــارٌ لــيس يــخــبــو ســعــيــرُهــا
فلا تــصــطَــلي، فــالــنــارُ أشْــرهُ آكلِ

****

(١) ردّ بها على مقالة ظهرت في جرية (الهدى) بعنوان (النسناس القوّال).
(٢) الأجدل: الصقر.
(٣) يضرب به المثل في الغباء، في تراثنا.

٤٢ - إلى النابح العاوي[1]

[البسيط]

يـا أيـهـا الـنـابحُ الـعـاوي بلا سـببٍ
أمَـا لِـنـفـسكَ ذو ودّ فـيـنـهـاهـا؟

إن كـان غـرّك أن الحِـلْم شـيـمـتـنـا
فـربمـا خـالـفتْ نـفسٌ سـجـايـاهـا

نـحن الـنـجـومُ الـتي تـهـدي أشعـتُـهـا
من ضلَّ، بل نـحن أسـمَـاهـا وأسـنـاهـا

لـكـنـنـا نـغـتـدي إن ثـار ثـائـرُنـا
نـيـازكـاً تـتـقِي الـدنـيـا شـظـايـاهـا

مـا حَـدَّثـتْـنـا بـغـيرِ المجـدِ أنفـسُـنا
ولم نـشـأْ غـايـةً إلا بـلـغـنـاهـا

هل يـزعجُ الـشُّـهبَ نـبّـاحٌ بلا ذَنَبٍ ؟
وهل يـعـوِّقُ في الأفلاكِ مَـسْـراهـا ؟

إذا سـكَـتْـنـا فـإنَّ الـلـيثَ يـأنفُ من
قـتلِ الـبـعـوضـةِ مـهـمـا طـال قَـرْنـاهـا

إذا نـظـرنـا إلى الجِـعْلانِ[2] سـارحـةً
ولم نـطـأْهَـا فـإنـا قـد حـقَـرْنـاهـا

وفي الحـدائقِ ذاتِ الـزهـر مـشـغـلـةٌ
عن رؤيـة الجُـعْل يمـشي في زوايـاهـا

(١) كتبها ردّاً على قصائد نشرها أسعد رستم ونشرتها جريدة (الهدى) ١٩٢٦، وعارضها هذا بعد نشرها، بقصيدة أخرى جعل عنوانها (هاها، الدور لي) !

(٢) المفرد: جُعَل: من دوييات الأرض.

فيا غبيّاً على جهلٍ يطاولُنا

ورّطتَ نفسكَ فانظرْ كيف عُقباها

مَن أنت ؟ هل أنت ذو قدْرٍ فنخفضَه

أو حُرمةٍ تتأذى إن هتكْناها ؟

ما أنت إلا الهَباءُ المُستطارُ، فهل

نَفري الهَباء بأسيافٍ حَمَلناها ؟

☆☆☆☆☆

يا كلبَ سوقٍ ويا خِنزيرَ مَزْبلةٍ

يا جيفةً ما تحامى الناس إلّاها

على الدروبِ كلابٌ ما لها عددٌ

لاشك أنك أعْداها وأعْواها

وإنما الناسُ في أمرٍ قد اختلفوا:

هل أنت «أسعدُها «أم أنت أشقاها ؟

إن السَّفالةَ لو تأوي إلى سَكَنٍ

كالخَلْقِ، لم يكُ إلا أنتَ مأواها

أعياكَ أن ترتقي حتى ترى بشَراً

فصِرْتَ كالتيسِ نَطّاحاً وتَيّاها

خبّئْ قُرونَك، واحذَر أن تتيهَ بها

فكم قرونٍ كهذي قد حَطَمناها

في «الأخطبوط» الذي صاحبتَه عِظةٌ

لو كنت تفهمُ معناها ومَغْزاها

كم مرةٍ قرُبتْ منا كتائبُه

فلم تكنْ لحظةٌ حتى هزمناها

فارتدّ يُعوِلُ من يأسٍ ومن ألمٍ

عويلَ جاريةٍ قد مات مولاها

ألم تكُنْ كقرونِ الوعْلِ، شائكةٌ
قرونُه السُّودُ كُبْرَاها وصُغْرَاها ؟
اليومَ ليس لها عيْن ولا أثرٌ
نحن الذين بأيدينا كَسَرْناها
إنْ يستعنْ بك فالغَرْقانُ لو نظرتْ
عيناه في البَرِّ سَعلاةً[1] لناداها
وإن تكن نفسُه في الجسم باقيةً
فإنما خُبثها في الجسم أبقاها
فما نجت بُومةٌ يوماً بقوّتها
وإنما قُبْحها المشهورُ نجّاها
نفسٌ لو انتشرتْ يوماً نقائصُها
لعمّت الأرضَ أدناها وأقصَاها
نفسٌ يشُكّ الورى في الله إن زعموا
أن الذي خلقَ الأرواحَ سَوّاها
فإنَّ «عزريل» يخشى أن تدنسَهُ
والأرضَ إن أصبحتَ في الأرض مثواها
ما ضرّ مَن وُصِمتْ بالعار جبهتُهُ
لو أنه بسِوَى الأوحَالِ غطّاها
أتيتُه بعدما شَالتْ نعامتُهُ
وغيّبَ البَرُّ يُمناها ويُسرَاها[2]
فكان مثلَ الذي ماتت كرامتُه
وكنتُ مثل الذي قد جاء يَنعاها

✡✡✡✡✡

(١) السعلاة: الغول (والجمع السَّعالي).
(٢) شالت نعامته: كناية عن التفرق وزوال النعمة، أو الغياب والموت.

يـا نـذلُ!والـنـذل إنـسـان بلا شَـمَمٍ
مـا سِـيمَ من خِـطّـةٍ إلا ويـرضـاهـا
زعـمتَ خـطفَ الـظِـبـاءِ الـغـيـد عـادتَـنـا
هل أخـبـرتْك بـأنـا قـد خـطـفـنـاهـا ؟
بـالـلـه يـا نجلَ «... [1]» مـعـذرةً
إذا ذكـرنـا لُـبـانـاتٍ قـضـيـنـاهـا
كـنـا نـسِـيـنـا، ولـكن مـا بـرِحتَ بـنـا
حـتى ذكـرنـا الـتي كـنـا نـسِـيـنـاهـا
فـاغـفِـرْ خـطـيـئتنا، نـغـفـر خـطـيـئـتَـهـا
واسـتـغـفـرِ الـلـهَ كي نـسـتـغـفـرَ الـلـه

✡✡✡

ورُبَّ طـاهـرةٍ في الـبـيـت آمـنـةٍ
جـشّـمـتَـهـا خِـطّـةً شـنـعـاءَ تـأبـاهـا
حـسـبـتَـهـا كـالـتي سـاءت خلائـقُـهـا
بل كـدتَ تحـسَـبُـهـا يـا وغـدُ إيـاهـا
دنـوتَ لـلـوَرد في الخـدَّين تـقـطـفُـهُ
فـراح يـرتعُ في خـدَّيْك نَـعـلاهـا !

✡✡✡

سلِ الـسُّـجـونَ الـتي جـاورتَـهـا زمـنـاً
كم لـيـلـةٍ بتّ مـلْـقىً في زوايـاهـا
وفـي قـفـاكَ نـعـالُ الجُـنـد راقـصـةٌ
كـأنمـا هـو نـاديـهـا ومَـلْـهـاهـا
شـدّوا عـلـيك، وقـد خـالـوا نـعـالـهمُ
تُـدمي قَـفـاكَ فـآذاهـا وأدمـاهـا !

---

(١) ينبغي أن يكون ذكر أمّه على صفةٍ لا تليق.

فـــانــظـــرْ قـــذالَكَ[1] فـي «المـــرآة» إنّ بـه
آثـــارَهـــا وكـــثـــيـــراً مـن بـــقـــايـــاهـــا !

إن كـــان هـــاجَ بـك الـــشـــوقُ الـــقـديمُ لـــهـــا
فـــعـــنـــدنـــا ألـفُ نـــعلٍ قـــد حـــفـــظـــنـــاهـــا

✡✡✡✡

مـــا ثَـمَّ فـي الأرض من عـــيبٍ نـــزيـــدُكَـهُ
أنت المـــعـــائـبُ أولاهـــا وأُخـــراهـــا

ومـــا هـــجَـــونـــاكَ يـــا «لا شـيءَ» نـــعـــرفُـه
بـــذي الـــقـــوافـي، ولـــكـــنَّـــا هـــجـــونـــاهـــا!

****

(١) جماع مؤخر الرأس.

٤٣ - دعهُ ينبح

[الخفيف]

قـد سـكَـتْـنـا عن الـلـئـيم طـويلاً
حـين كـان الـسـكـونُ أولى وأصـلحْ

وصـفـحْـنـا عن ذنـبه وعـفـوْنـا
عـفْـوَ حُـرٍّ، والحُـرُّ يـعـفـو ويَـصـفَح

وحـسِـبـنـاه يـرعـوي، فـتـمـادى
وظـنـنّـاهُ يـنـتـهي، فـتـنـطّح

فـصـفـعـنـاه صـفـعـةً بـات مـنـهـا
يـتـلـوّى، وتـارةً يـتـرجّح[1]

قُلْ لمن سـبَّه لـئـيمٌ كـهـذا:
شبّ بل شـابَ وهـو في الـلـؤم يَـسـبح

عَـرِّفِ الـكـلبَ أنه الـكـلبُ لـلـنا
سِ ودعْهُ من بـعـد ذلك يَـنـبح!

****

(١) يتثاقل (رجَح - يرجُح: ثقل).

٤٤ - خطبة ميشيل حداد

[مجزوء الكامل]

إنَّ الحـيـاةَ خـمـيـلـةٌ والـعـاشـقـينَ زهـورُهـا
الحبُ في أكـبـادنـا خَـفَـقـانُـهـا وشُـعـورُهـا
والحبُّ في زهـر الـرُّبـا ألـوانُـهـا وعـبـيـرُهـا
هـو في الجـداول شـدْوهـا، هـو في الـكـواكب نـورُهـا
من حبَّ كـان لـه الحـيـاةُ: سـرُّهـا وسـرورُهـا
ونـفـوسُ أبـنـاءِ الـغـرام إلى الخـلـود مـصـيـرُهـا
فـاشـربْ عـلـى ذكـرى الـهـوى كـأسـاً هـواك مُـديـرهـا
«مـيـشـالُ»، ممـلـكـةُ الـشـبـابِ الـيـومَ أنتَ أمـيـرُهـا
زارتْكَ مـثلَ الـشَّـمسِ في زمن الـربـيـع سُـفـورُهـا
حـسـنـاءُ كـالـظـبي الـغَـريـرِ دلالُـهـا ونُـفـورهـا
قـد طـاب خُـلـقُكَ واسْـتـوى وصـفـا، ورقّ ضـمـيـرهـا
ولـهـا الجـمـالُ وعَـرشُـه . ولك الـمُـنى وقُـصـورهـا
فَـرِحتْ لحـبِّـكُـمـا الـسَّـمـا ونجـومُـهـا وبُـدورُهـا

****

٤٥ - الجدول الطروب

[مجزوء الكامل]

من عــلّم الإنــشــادَ هــذا الــراقصَ المــتَــبــخــتِــرا ؟
إني اهــتــديتُ به إلــيه، وكــان ســـرّاً مُــضْــمَــرا
يــجــري طَــروبــاً وهْــو لا يــدري لمــاذا قــد جَــرى
الــدوحُ حــانــيــةٌ عــلــيه تــخــاف أن يــتــكــدَّرا
ويــلَــذُّ للأزهــار أن تــرنُــو إلــيه وتــنــظُــرا
ولــقــد ســمــعتُ الــطّــيــرَ تــدعــوه الحــبــيبَ الأكــبــرا
فــوقــفتُ أرمُــقُه وأســألُ حــائــراً مــســتــفــسِــرا
مــا حــبَّبَ الأطــيــارَ والأشــجــارَ فــيه يــا تُــرى ؟
أحَــصَــاهُ؟ إن الــبــحــر يــحــوي في حــشــاه جَــوهــرا
أمْ مــاؤهُ ؟ إني رأيــتُ الــسَــيــلَ مــنــه أغــزرا
أو طُــهــرُه ؟ إني وجــدت الــطلَّ مــنــه أطــهــرا
مــا الــســرُّ في هــذي ولا في كــونه يَــســقي الــثّــرى
بل كــونُه يُــســدي الجــمــيلَ ويــســتــحي أن يَــظــهــرا

****

٤٦ - صوت بلادي[١]

[الكامل]

مـــا الـــروضُ وشَـــاهُ الـــربـيـعُ بـــزهـــره
وكـــســـا ثَـــراهُ مُـــفَـــوَّفُ الأبـــرادِ[٢]

عـــنـــدي بـــأجـــملَ مـــنـــكمُ في نـــاظـــري
وأحبَّ من أرواحـــــكم لـــــفـــــؤادي

أبـــصـــرتـــكمْ فـــرأيتُ صـــورةَ أمَّـــتي
وســـمـــعـــتـــكمْ فـــســـمـــعتُ صـــوتَ بلادي

«لـــبـــنـــانُ» زوَّدَ بـــالـــطـــموحِ نـــفـــوسَـــكمْ
لـمّـــا رحـــلـــتم في طِلابِ الـــزَّاد[٣]

وحَـــبَـــتْـــكمُ «ســـوريّـــةٌ» بـــجـــمـــالـــهـــا
وجـــمـــالُـــهـــا فـــوق الجـــمـــال الـــعـــادي

فـــأنـــا أُحـــيـي في كـــهـــولـــكمُ الـــنُّـــهى
والـــطُّـــهـــرَ والأحـلامَ فـي الأولاد[٤]

والحُـــسْنَ في فـــتـــيـَـــاتِـــكم، والـــعَـــزمَ في
فِـــتْـــيـــانـــكم، ومـــروءةَ الأجـــداد

الـــنـــاسُ عـــنـــدي كـــالـــشـــهـــورِ، وإنـــكم
في الـــنـــاس كـــالآحـــادِ والأعـــيـــاد

فـــإذا ســـكـتُّ فـــكَـيْ أنـــاجِـــيَـــكم وإن
أُنـــشِـــدْ فـــلـــيس لـــغـــيـــرِكمْ إنـــشـــادي

****

(١) استهل بها خطبة ألقاها في الحفلة التكريمية التي أقامتها له الجالية في توليدو أوهايو (١٩٢٧).
(٢) الفوف: الزهر. والأبراد: جمع البُرد.
(٣) يقصد: طلب العيش.
(٤) النُّهية: العقل، لأنه ينهى. وجمعها: النُّهى.

٤٧ - يا ليتني...[١]

[السريع]

إذا أطلَّ البدرُ من خِدرِهِ
فإنما يطلُعُ كي تنظريهْ
وإن شدا البلبلُ في وَكرِهِ
فإنما يشدو لكي تَسمَعِيه
وإنْ يَفُحْ عطرُ زهورِ الرُّبا
فإنما يعبَقُ كي تنشَقيه
يا ليتني البدرُ الذي تنظرينْ !
يا ليتني الطيرُ الذي تسمَعين!
يا ليتني العطرُ الذي تنشَقين !
أواه لو تصدُق «يا ليتني»!

****

(١) نشر في ملحق الجداول (دار اليقظة) بعنوان (عروس الجمال).

٤٨ - الزمهرير[١] في نيسان

[الخفيف]

رجعَ الـزمـهـريـرُ أمسِ إلـيـنـا
ورجـعـنـا نـشـكـو من الـزمـهـريـرِ

جـاء «نَـيـسـانُ» كـالـحَ الأفق، عـاريَ الـ
أرض، حـيـرانَ كـالـيـتـيم الـفـقـيـر

أو كـمَـلْكٍ داس الـغـزاة حِـمَـاهُ
فـهـوَ في حَـيْـرةٍ وفي تـفـكـيـر

أو فـتـاةٍ مـفـجـوعـةٍ بـحـبـيبٍ
مـات في وجـهـهـا ضـيـاءُ الـسُّرور

إيـهِ «نَـيْـسـانُ «قـد أتـيـتَ، ولـكن
بمـحـيّـا إفْكٍ[٢] وحـالـةِ زُورِ

لا دلـيلٌ عـلى وجـودكَ يـا شَـهْـ
ـرَ الأقـاحي سـوى غـنـاءِ الـطـيـور

لـيتَ شـعـري مـاذا دهـاكَ فـلـم
تُـخـرجْ لـنـا الـزهـرَ من وراء الـسُّتـور؟

نـحن لـولا الـحـسـابُ خِـلْـنـاكَ لم تُـو
لَـدْ، وأنّ الـشـهـورَ غـيـرُ الـشـهـور!

****

---

(١) شدّة البرد.

٤٩ ـ النجمة الهاوية[١]

[مخلع البسيط]

هـــذا هـــو المـــنـــزلُ الأخـــيـــرُ
إلى هـنـــا يـنـتـهي الـمَـسـيـــرُ

ويـــنـــطـــوي الخـــوفُ والـــتـــرجّي
ويـــنـــقـــضي الحـــزنُ والـــسُّـــرور

مـــا كـــان أحـــلى الحـــيـــاةَ لـــو لم
يـــكنْ إلى الحُـــفـــرةِ الـــمَـــصـــيـــر

كم من عـــصـــورٍ مـــضتْ وغـــابتْ
فـــيـــهـــا ولم تـــشـــبَعِ الـــقـــبـــور

✡✡✡✡✡

مـــــررتُ بـــــالـــــزهـــــورِ ذابلاتٍ
كـــأنمـــا مـــسَّـــهـــا الـــسَّـــعـــيـــرُ

فـــقـــلت: مـــاذا عـــراكِ حـــتى
فـــارقكِ الـــزَّهـــو، يـــا زُهـــور ؟

فـــلـــم تجـــاوبـــني الأقـــاحي
وإنمـــا جـــاوب الـــغـــديـــر

فـــقـــال: «ســـلـــمى» مـــضتْ، وكـــانت
زنـــبـــقـــةً مـــا لـــهـــا نـــظـــيـــر

فـــغَـــاضَ نـــهـــرٌ وجفَّ روضٌ
وغـــاب نجم وانـــدكّ سُـــور

---

(١) في رثاء (سلْمى ملّوك)، قرينة (عزيز عطية). وتليت في مدفنها في نيويورك (١٩٤٠).

يـا وحـشـةَ الـدار بـعـد «سـلـمى»
فـقـد خَـبـا بـدرُهـا الـمـنـيـر
«سـلـمى» الـتي صـمـتُـهـا وقـارٌ
وفي أحـاديـثِـهـا عـبـيـر
فـلـيس في مَـشْـيـهـا اخْـتـيـالٌ
ولـيس في نُـطـقـهـا غـرور
كم بـائسٍ لاذ في حِـمـاهـا
وكم رجـا رفـدَهـا فـقـيـر
ألـيس جَـوراً من الـلـيـالي
أن تحـتـوي الـلـؤلـؤَ الـقـبـورُ ؟

✵✵✵✵✵

يـا قـبـرَ «سـلْـمى»، مـا أنتَ قـبـرٌ
بل عـالَم نـيِّـرٌ طـهـور
فـفـيك مـثلَ الـريـاض عـطـرٌ
وفـيك مـثلَ الـسـمـاء نـور
حـويتَ دنـيـا نُـبلٍ وفـضلٍ
يـا أيّـهـا الحـيِّـزُ الـصَّـغـيـر
لم أرَ مِن قـبـلـهـا ثـريّـا
شـعّـاعـةً في الـثَّـرى تـخـور[1]
وقـبل إخـوانـهـا نـسـوراً
تـبـكي، أجل قـد بـكى الـنُّـسـور

✵✵✵✵✵

---

(١) خار – يخور: صاح. يريد هنا: أرسلت نورها.

«عزيزُ»، يا ضَيغماً[1] جريحاً
وطائراً جنْحهُ كسير
الدمع في مقلتيه يَطغى
والحزنُ في صدره يَغُور
الخَطبُ يا صاحبي كبيرٌ
وأنت يا صاحبي كبير
فكنْ صبوراً على الرزايا
فإنما يُؤجَرُ الصَّبور

****

(١) الضيغم: الأسد.

٥٠ - رثاء رشيد أيوب

[الرمل]

نـــام لـــمَّـــا تــعِــبتْ أجــفـــانُهُ
وإذا مـــا تـــعبَ الإنــســـانُ نـــامْ

خـــرجَ الـــشَّـــاعـــرُ من دنـــيـــا الأسى
مـــثـــلـــمـــا يـــنـــسلُّ نـــورٌ من قَـــتـــام

ومـــضـــى عـــنـــا إلى مـــوطـــنـــه
وطنُ الـــشَّـــاعـــر أمْـــنٌ وسلام

لا تـــقلْ: هـــذا الـــذي كـــان انـــطـــوى
مـــا انـطـوى، يـا صـاحـبي، إلا الـرُّغَـام[1]

ســـائِـــلـــو الجـــدولَ عن ألحـــانـه
فـــهـي في الجـــدول وجْـــدٌ وهُـــيـــام

وســـلـــوا الأزهـــارَ عن أحـلامـه
فـــهـي في الـــزهـــر أريجٌ وابـــتـــســـام

وســـلـــوا «صِـــنِّـــين»[2] عن شـــاعـــره
إنـه فـــيـــه جـلالٌ واحـــتـــرام

هـــو في قـــمَّـــتـه عـــزَّتُـــهـــا
وهـــو في الـــوادي اتِّـضـــاعٌ واحـتِـشـام

لم يـــزلْ مـــا بـــيـــنـــنـــا أســـطـــورةً
يـــتـــلـــقـــاهـــا كـــرامٌ عن كـــرام

✡✡✡✡✡

---

(١) الرُّغام: التراب.

(٢) الجبل في المتن الشمالي من لبنان. والمرثيّ من قرية (بسكنتا) في سفحه. وهو زميل أبي ماضي في (الرابطة القلمية).

أيـــهـــا الـــشَّـــاعـــرُ لا تـــخشَ الأذى

لـــستَ بـــعـــد الـــيـــومِ جـــاراً لأنـــام[(١)]

جـــهـــلـــوا قـــيـــمـــةَ أرواحـــهـمُ

فـــغـــدا الجـــوهـــرُ عـــبـــداً لـــلـــحُـــطـــام

لا هـــنـــاءٌ لـــنـــفـــوسٍ صُـــوِّرتْ

من ســـنـــاءٍ[(٢)] معْ نـــفـــوسٍ من ظلام

أُعـــتـــقتْ روحُك مـن أغلالـــهـــا

وأنـــاشـــيـــدُك من أســـرِ الـــكلام

أنت بـعـد الـيـومِ لا يـشـكـو الـطَّـوى

جـسمُك الـعـاني، ولا تـخشَ الـسَّـقـام[(٣)]

أنت في الـدنـيـا الـتي أحـبـبـتَـهـا

وهي دنـيـا الحُـر فـيـهـا لا يُـضـام

لـــيس فـــيـــهـــا قِـــيَمٌ زائـــفـــةٌ

تـــخـــدعُ الـــعـــقل وآمـــالٌ جَـــهَـــام[(٤)]

لـــيس فـــيـــهـــا كـــالـــتي فـــارقـــتَـــهـــا،

أعـــيـــنٌ يـــقـــظـى وأرواحٌ نـــيـــام

رَوِيتْ نـــفـــسُك من كـــوثـــرهـــا

وبـــقِـــيـــنـــا لِـــعَـــنَـــاءٍ وأُوام[(٥)]

نمْ هـــنـــيـــئـــاً، إن أحـــلـى غـــبـــطـةٍ

ـ مـثـلـمـا تـعـرفُ ـ رؤيـا في مَـنـام!

****

(١) لم تعد جاراً لأحد من الناس.

(٢) السناء: الرفعة، وأرادها للنور (السنا).

(٣) السقام: المرض. والعاني: المتعب.

(٤) الجَهام: السحاب الذي لا ماء فيه.

(٥) الأوام: العطش. ودُوار في الرأس.

٥١ - إنه الشاعر[١]

عـنـدمـا أنـشـأ الـوجـودَ الـلـهُ
في زمـانٍ في الـدهـر مـا أقـصـاهُ
وبَـدَتْ في الـنَّـبـاتِ والمـاء والأحـيـا
ء والـصـخـرِ يـقْـظـةٌ وانـتـبـاه
فـأطـلَّت من الـسـمـاء الـدَّراري
وتجـارَتْ عـلى الـصَّـعـيـدِ المـيـاه
وتـرامى الـنَّـسـيمُ في صـفـحـةِ الـنـهْـ
ـرِ بـأسـرارِ وَجْـدهِ وهـواهُ
وسـرى الـفـجـرُ يـوقظ الـروضـةَ الـوسْـ
ـنى ويُـذري عـلى المـروج نَـداه
ومـشى الـلـيل بـعـده يَـطـمُـس الأشـ
ـيـاء إلا أحـلامَـه ورؤاه
والـورودَ الحـسـنـاءَ إلا شـذاهـا
والـغـديـرَ الـطـروب إلا صـداه
نـظـر الـلـه في الـسـمـاء وفي الأر
ضِ طـويلاً فـتـمـتـمتْ شـفـتـاه:
« إنـنـي قـد خـلـقت كـونـاً بـديـعـاً
كلُّ شيءٍ فـيـه كـمـا أهـواه
غـيـرَ أني نـسـيتُ أخـلُقُ شـيـئـاً
لازمـاً لا يُـتـمّـه إلاه

---

(١) يبدو أن المعني فيها: الشاعر الحمصي نسيب عريضة، وهو زميل أبي ماضي في (الرابطة القلمية).

وهو «عينٌ» ترى الوجود كعيني

ولسانٌ يقول: ما أحلاه »!

وإذا الله شاء أمراً قضاهُ

أو تمنّى وجودَ شيءٍ بَراه

فإذا كائنٌ له هيكلُ الطيـ

ـن وفي هيكلِ التراب إله!

ذو فؤادٍ تظلُّ فيه الأماني

في صباها، وإن تقضّى صِباه

كلُّ من يعشَقُ الجمالَ أخوهُ

كل أرضٍ فيها الهوى مغناه

هو للحقِّ غيظُه ورضاهُ

وهو للحبِّ ضِحْكُه وبُكاه

مَن تُراه هذا الذي صاغه اللـ

ـه كما يشتهيه لمّا اشتهاه ؟

إنه الشّاعرُ الذي كلُّ دنيا

تنطوي قبلَ تنطوي[1] دنياه

كم سقانا خمراً بغير كؤوسٍ

فَسكِرنا ولم تَذُقها الشِّفاه

وأرانا الصَّباحَ والليلُ يغشا

نا بأكفانه كما يَغشاه

يعشقُ الروضَ في حُلاه، ويَهْـ

ـواهُ معرّىً مجرّداً من حُلاه

يرتوي الناسُ بالمياه ويرويْـ

ـهِ خريرٌ تُصغي له أُذْناه

(١) في التقدير: « قبل أن تنطوي. ..»

أيـــهـــا الـــســـائـــلـــون عـــنـــه: لمـــاذا
لـــيس يـــســـعى لـــلـــغـــنى كـــســـواه ؟
مـــا الـــغِـــنَى عـــنـــدكمْ ؟ فـــإنيَ أخـــشى
أن تـــكـــونـــوا جَـــهِـــلـــتمُ مـــعـــنـــاه
أهـــو المـــال ؟ مـــا وجـــدتُ غـــنـــيّـــاً
قـــطُّ إلا ومـــــــالُـــهُ مـــــــولاه
أفَـــمَنْ كـــان كـــوكـــبـــاً يـــهـــجُـــرُ الأُفْـ
ـقَ لـــتُـــمـــسي زجـــاجـــةٌ مـــثـــواه ؟
والـــذي الـــكـــونُ دارُه، كـــيف يُـــرضِـــيـ
ـهِ انـــزواءٌ في حَـــفـــنـــةٍ من ثَـــراه ؟
وجـــد المـــالَ عـــاتـــيـــاً مـــســـتـــبـــداً
فـــأبى أن يـــكـــونَ مِن أَســـراه
لا تـــقـــولـــوا: مـــاذا اقـــتـــنى وحَـــواهُ ؟
أيُّ شـيءٍ خَـــيـــالُـه مـــا حـــواه ؟
إنه الـــشَّـــاعـــرُ الـــذي ازدادتِ الـــدُّنْـ
ـــيـــا بـــهـــاءً لَمّـــا غـــدتْ مـــأواهُ
فـاشـربـوا، يـا رفـاقُ، سـرَّ فـتى «الـعـا
صـي» وحـــيُّـــوه، إنـه إيّـــاه!

****

٥٢ - تكريم الأب منصور إسطفان[١]

[الكامل]

لم أنسَ حين مشتْ إليَّ تلومُني
لما رأتْني باسماً مُستَهلّلا
قالتْ: أتطربُ، والمنايا حُوّمٌ
في الأرض، كيف رمتْ أصابتْ مقتلا ؟
انظر، فقد خلَتِ البيوتُ من الشَّبا
بِ ولا جمالَ لمنزلٍ منهم خلا
فسألْتها: أوَليس من أجل العُلا
وهَنائنا خاضوا الوغى ؟ قالت: بلى
يا هذه، أإذا بكيتِ لبُعدهِمْ
يتبسَّمونَ ؟ أجابت الحسناء: لا
كُفّي الملامَ إذنْ، فما أنا جاهلٌ
ما تعلمينَ، وكيف لي أنْ أجهلا ؟
لكن بعثتُ الفكرَ في آثارهمْ،
في البحر، في الأجواء، في عُرْض الفلا
فرأيت نورَ المجدِ فوق بُنودهمْ
ورأيتُهمْ يمشونَ من نصرٍ إلى..
سدّوا على الباغي المسالكَ كلها
فالموتُ إنْ ولّى وإنْ هو أقبلا

---

(١) اقتصر جورج صيدح، من النص على أحد عشر بيتاً الأولى، ونشرها في الديوان الخامس الذي أشرف على إصداره بعد موت الشاعر، باسم (تبر وتراب النص ١٤)، وجعلها بعنوان عجز البيت الحادي عشر: (ستعود دنيانا أحب وأجملا).

فـإذا شـمـمتِ الـيـومَ رائـحـةَ الـدِّمـا

ءِ وطـالـعَتْ عـيـنـاك آثـارَ الـبِـلى

فـاسـتـبـشـري، فـغـداً إذا الـنـقْعُ[1] انجلَى

سـتـعـودُ دنـيـانـا أحبَّ وأجـملا

بـالـطـامـحـين إلى الـكـمـال، الـعـامـلـيـ

ـن عـلـى الإخـاء، الـنـاهـضـين إلى الـعُلا

كـ «الإسـطـفـانيّ» الـذي لا يـأتـلي

حـربـاً عـلـى الـبـاغي وعـونَ الـمُـبـتَـلى

مـسـتـهـديـاً بـ «الـنـاصـريّ»[2]، مـبـشّـراً

بـالحبِّ والـغـفـران مـا بـين الـمَلا

حـلـوُ المـودة، لا يـشـوبُ ولاءَه

كَـلَفٌ، ولا يـسـلـو الـصـديقَ وإن سَلا

مـا إنْ دعـا داعٍ لـنُـصـرةِ بـائسٍ

إلا وكـان هـو الـمُـغـيثَ الأوّلا

إن لم يـشـيِّـد هـيـكلاً من مـرمـرٍ

فـلـقـد بـنـى في كل قـلـب هـيـكلا

خُـلُق كـمـاء المُـزْن عـذْب طـاهـرٌ

وسـجـيّـةٌ تَـحـكي الـرحـيقَ الـسَّـلـسَلا

يـا ابْنَ الألى مـا دارَ يـومـاً ذكـرهمْ

في مَـحـفِلٍ إلا أضـاءَ الـمَـحـفِلا

كـانـوا ربـيـعـاً زاهـراً في جـيـلـهم

ومـضَـوا، ومـا زالـوا ربـيـعـاً مُـقْـبِلا

لـبِس الحُـلى[3] قـومٌ فـمـا شـرُفـوا بـهـا

وغُـنِـيت بـالخُـلُقِ الـرفـيعِ عن الحُـلَى

---

(١) الغبار.

(٢) السيد المسيح (عليه السلام) وقد ولد في الناصرة.

(٣) يريد: الحلْي، وجمعه: الحُليّ.

عـبـثـاً يـحـاولُ طـمْسَ فـضـلـك مُـرْجِفٌ[1]

لا يـبـلـغُ الـنـجـمَ الـغـبـارُ وإنْ عَلا

كم هـاجـمتْ «لـبـنـانَ» ريحٌ صَـرصـرٌ[2]

لـتـدكَّه، أرأيـتـمـوه تَـزلْـزلا ؟

زعمَ الـقـصـائـدَ لـيس تُـشـبع جـائـعـاً

لم يـخـلُقِ الـلـهُ الـورودَ لـتُـؤكلا !

الأنـبـيـا - والـوحي شـعـر رائع -

شـبعوا، ومـا أكَلوا الـكتابَ الـمُنْزلا !

الـشِّـعـر رَيْـحـانُ الـنـفـوسِ إذا صَـفَتْ

أمَّـا إذا كَـشـفتْ طـبـيـعـتَـهـا فَلا

فـاغـفـرْ مَـسـاءَتَهُ، فـإن الحُـرّ مَن

يـعـفـو عن الجـانـي الأثـيـمِ تَـفـضُّلا

✡✡✡✡✡

سُـقتُ الـثـنـاءَ إلـيكَ حـلـواً سـائـغـاً

لـو لم يـكن في مـدْحِ شـخـصِك مـا حَلا

هـؤلاءِ قـومُكَ، يـا حـبـيبَ قـلـوبِـهم،

وافَـوا كـمـا تـرِدُ الـطـيـورُ الـمَـنْـهلا

لم يُـكـرمـوا الـعـشـرين والخـمس الـتي

مـرَّتْ، بل الأدبَ الـصـحـيحَ الأنْـبلا

عِش، يـا صـديقي، مـثـلَـهـا في مـثـلـهـا

لـلـعـلم رُكـنـاً، لـلـفـضـيـلـة مَـوئلا

✱✱✱✱

---

(١) أرجف: خاض في الأخبار الكاذبة.

(٢) ريح صِرّ وصَرْصَر: شديدة البرد، وشديدة الصوت.

٥٣ - رثاء إلياس عطا الله [1]

[الكامل]

دنــيــا مـن الآمـــال والأحـلامِ
زالـتْ وغـابتْ مـثلَ طـيف مـنـامِ

عـصَفَ الـردى بـورودهـا فـتـنـاثـرتْ
ومـضـى بـشـاديـهـا وبـالأنـغـام

لم يـبقَ فـيـهـا دوحـةٌ تحـنـو عـلى
تـعبٍ، ولا مـاءٍ يـفـيضُ لـظـامي

أرسـلتُ صـوتي في جـوانـبـهـا فـلم
يـرجعْ إلى أذني غـيـرُ كلامي

«إلـيـاس» إنك أنت دنـيـاي الـتي
ضـيـعـتُـهـا، ورجـعتُ بـالآلام

يـا صـاحـبًـا قـد كـنت أسـتـهـدي به
إن ضـاع مـصـبـاحي، وجنَّ ظلامي

لا تـسـألـني عن فـؤادي، إنـني
سـلّـمتُ لـلأحـزان قـلـبي الـدامي

أرفـيق روحي، قـد أتـيت مـسـلـمـا
«إلـيـاس» مـا لك لا تـردّ سلامي؟

عـجـبًـا، كـأنك في زمـان غـابـرٍ
أو مـوضـعٍ قـاصٍ وأنت أمـامي

---

(١) ألقاها الشاعر في حفل تأبين زميله في (الرابطة القلمية) إلياس عطا الله (١٩٤٣)، في بروكلن، جنوبي نيويورك.

أنـــا مع رفـــاقِكَ تـــائـــقـــونَ لـــقـــولـــةٍ
أو لـــفـــظـــةٍ، فـــانـــطقْ ولـــو بملام
يـــا عِـــظْمَ خَـــيـــبـــتـــنـــا، فـــإنـــا نـــبـــتـــغي
خـــمـــرًا، ولا من خـــمـــرةٍ في الجـــام
إن الـــذي قـــد كـــان مـــعـــنـــا قـــد ســـمـــا
عـــنـــا، وصـــار مـــع الإلـــه الـــسّـــامي
ومَن اســـتـــوى فـــي عـــالـــم الأرواح لا
يـــدنـــو إلـــيـــه عـــالـــمُ الأجـــســـام

****

٥٤ - دار «السمير» الجديدة[١]

[الرجز]

يا مرحباً بالأصدقاء، مرحبا
ملأتمُ الدار وروحي طَرَبا

ضحكتُ لمّا قيل لي: الصيفُ انقضى
وأنتمُ حَولِي كأزهار الرُّبا

صيَّرتموها فَلَكاً مؤتلقاً
لما طلعتمْ في ذُراها شُهُبا

وصارتِ الدنيا بعيني جنةً
وصار مائي كوثراً، بل أعْذَبا

لو جئتكمْ من «عبقرٍ»[٢] بسحْرِها
وسُقتُ في شعري الدَّراريْ[٣] موكبا

لمّا وفَيتُ بعضَ بعضِ دَيْنكم
ولا قضيتُ اليومَ شكراً وَجَبا

من يستفدْ مثلي صِحاباً مثلَكمْ
قد استفادَ أدباً ونَسَبا

ما كانت «السمير» إلا ورَقاً
لولاكمُ، والدارُ إلا خَشَبا

إن كان من حُسْنٍ فمنكم قد أتى
ما قيمةُ المِصباح لولا الكهرَبا

(١) ألقاها الشاعر في حفل تأبين زميله في (الرابطة القلمية) إلياس عطا الله (١٩٤٣)، في بروكلن، جنوبي نيويورك.
(٢) أرض الجن التي توحي بالشعر (ولكل شاعر شيطان يتبعه ويوحي إليه)، في الأسطورة المتناقلة. وإليها ينسب الشعراء فيقال (العبقريّ، والعباقرة).
(٣) نجوم السماء التي تضيء.

لـو كـانت «الـسـمـيـر» من أهل الـغِـنى
سـاقتْ تحـايـاهـا إلـيـكم ذَهَـبـا
أو روضـةً، أهـدتْ إلـيـكمْ زهـرَهـا
أو عـطـرَهـا مع الـقَـبـول والـصَّـبـا[1]
أو فـلَـكـاً، رفّتْ عـلـيـكم وحَـنَتْ
وعـلّـقتْ في كل بـيتٍ كـوكـبـا
أو جـدولاً، غـنّتْ لـكم مـيـاهُه
مـا دمـتمُ تُصـغـونَ حـتى تَـنـضُـبـا
لـكـنـهـا جـريـدةٌ قـد أنـشـئت
لِـتَـخـدُمَ الـعـلْم وتُـعـلي الأدبـا
تـريـد لـلـنـاس الحـيـاةَ حـرّةً
لـلـنـاس طُـرّاً «عـجـمـاً» و «عـربـا»
تـنـفقُ ممـا عـنـدهـا وإنـهـا
لـتـنـفق الـعـمـرَ الـلـذيـذ الـطـيّـبـا
لا تـطـلـبـوا مـنـهـا سِوى مـا ملـكتْ
لا تـمـلكُ الـصَّـهـبَـاء إلا الـطَّـربـا

****

(١) الريح الندية التي تهبّ من نجد.

٥٥ - إلى عازر داود

[الرمل]

أيــهــا الجــالسُ بــين الــنــجــمــتــينْ
غــنّــنــا، يــا صــاحــبي، أُنــشــودتــينْ
قــد شــربــنــا خــمــرةَ الــكَــرْمِ، وإنْ
أنتَ أنــشــدتَ شــربــنــا خــمــرتَــين

****

٥٦ - إلى المونسينيور منصور إسطفان[1]

[الكامل]

هــذي تحــيَّــتُــنــا إلى «المــنــصــورِ»
مــشــفــوعــةً بــتــحــيَّــةِ الجــمــهــورِ
مع أنــفُس الــشُّــعــراء نــرسلُ شــوقَــنــا
فــاســمــع بــأُذن الــروحِ لحنَ شــعــور
وانــشَقْ أريجَ قــلــوبِــنــا، فــقــلــوبُــنــا
من وجــدِهــا كــمــجــامــرِ الــبَــخُّــور
يــا نــســر «لــبــنــانَ» المحــلِّقَ في الــفــضــا
المجــدُ تحت جــنــاحِك المــنــشــور
فــاســلمْ لأمــتك الــتي تــبــني لــهــا
لــتــزيــدَهــا من ســعــيك المــبــرور

****

(١) أحد الأنباء (انظر النص ٥٢). وألقيت الأبيات في حفلة أقيمت لتدشين كنيسة لبنان (ألقاها سعيد عقل عريف الحفلة).

٥٧ - رثاء نجلاء صباغ[١]

[الكامل]

رجع الربيعُ إلى المدائنِ والقُرى
نوراً وعطراً في السُّفوح وفي الذُّرا
لَستْ يداه العُود أجردَ يابساً
فإذا به قد صار رَطْباً أخضرا
للهِ منه ساحِراً ومصوِّراً
بهرتْ عجائبُه العقول وحيّرا
عرض الجمالَ وقال للناس: انظروا
فاللهُ قد خلقَ العيونَ لتنظرا
لكنّما العينُ التي كانت ترى
ألَقَ الربيعِ وحسنَه ليست تَرى
الموتُ أغمضَها على غير الرؤَى
ما في الردى شيءٌ كأحلامِ الكَرى
لكنما القلبُ الذي يهوى الشّذا
والنورَ، قد أمسى دفيناً في الثَّرى
إن لم نرحِّب بالربيع ولم نَهِمْ
بالحُسنِ فيه، فحقُّنا أن نُعذرا
فلقد أضعنا حين جاء إلى الحِمَى
في بنت «مَطرانٍ» ربيعاً أنورا
سكتتْ لكي تتحدثَ الدنيا بها
وغفتْ لكي تَبكي العيونُ وتسهرا

(١) زوج أحد أصدقائه (قيصر صباغ). وألقيت الأبيات في حفلة دفنها، في ميلفورد بينسلفانيا.

« نجلاءُ «إنكِ روضــــةٌ مـــعـــطـــارةٌ

عـصـف الحِـمـام بـهـا، فـعـاثَ وبـعـثَـرا

رحلتْ عن الـقـصـر الـبـشـاشـةُ وانـطوى

عـهـد الـصـَّفـا والأنسِ في «أمّ الـقُرى»[1]

فــالــيــومَ لا الأرواحُ تــبــسِمُ لــلــمُــنى

فـــيه، ولا الـــلـــذاتُ تجـــري كـــوثـــرا

أفـنـيتِ نـفـسَكِ كـالـشـمـوع تـوقُّـداً

وقـطـعتِ عـمـرَكِ كالـكـواكب في الـسُّرى

فـازددتِ مـجـداً في الـزمـان وشـهـرةً

وازداد قـــومُكِ رفـــعـــةً بـــين الـــورى

زانـــتْكِ في الـــدنـــيـــا شـــمـــائلُ حُـرّةٍ

هي كـــالجـــواهـــرِ إنمـــا لا تُـــشْـــتَـــرى

فـعـليكِ، يـا فـخرَ الـنـسـاء وفـخرَنـا،

مـــنّـــا الـــسلامُ ممـــسَّـــكـــاً ومـــعـــطَّـــرا

ولـ «قـيـصـرٍ» مـنـا الـعـزاءُ، فـ «قـيـصـرٌ»

كـالـنَّـسْـرِ هِـيضَ جـنـاحُه وتـكـسَّـرا

بل صـــار بَـعـدكِ، يـا رفـيـقـةَ عـمـرِهِ،

وتـــراً، يـــغَصّ بـــلـــحـــنه مُـــتَـــعـــثِـــرا

إنّـــــا نـــــودّع نجـــــمـــــةً وضـــــاءةً

زالت، ونـــدفِنُ كـــنـــز فـــضـلٍ في الـــثّـــرَى

****

(١) لقب ميلفورد ببنسلفانيا (انظر النص ٣ من الديوان الثاني، والنص ١٢ من «تبر وتراب»).

٥٨ - في حفلة تكريمه ببيروت(١)

[مجزوء الكامل]

المـــرءُ لـــيس يُـــقَـــاسُ فِي الـــدْ
ـــدنْـــيـــا بـــعِـــلْمٍ أو بـــجـــهلِ

بل بـــالـــــذي في طـــبـــعِه
الـــفـــطـــريِّ من كـــرَمٍ ونُـــبْلِ

فـــلـــربّ ذي عِـــلْمٍ أسَـــا
ءَ لأهـــلـــه ولـــغـــيـــر أهلِ

ولَـــربَّ ذي جـــهـلٍ أفـــا
دَ الـــنـــاسَ في خِـــصْبٍ ومَـــحْلِ

لـــولا ارتـــفـــاعُ نـــفـــوسِـــكمْ
لم يـــرتـــفعْ أبـــداً مـــحَـــلّي

لـــولا عـــيـــونُـــكمُ المحـــبَّـــةُ
مـــا تـــراءى قطُّ فَـــضْـــلي

دامتْ مـــكـــارِمُـــكمْ لـــكي
يـــشـــدو بـــهـــا الـــشُّـــعـــراءُ مِـــثْـــلي

****

(١) الأبيات الختامية للقصيدة التي ألقاها الشاعر في الحفلة التي علّق فيها مدير خارجية لبنان وسام الأرز الوطني اللبناني من رتبة ضابط.

٥٩ - في حفلة تكريمه بدمشق[١]

[الكامل]

أنـا إن شـكـرتُكَ يـا «أبـا حـسّـانَ»
أعـلـيتُ من قـدري وقـدْرِ بـيـاني

أشـرقتَ في نـفـسي سَـنـاً فـأريـتَـنِي
وجهَ الـربـيعِ ولـستُ في «نَـيـسـان»

سـأَتِـيَهُ أنّي في زمـانك عـائشٌ
ومـعي يـتـيهُ - كـمـا أتـيه - زَمـاني

****

٦٠ - في صالة منصور

[مجزوء الرمل]

شـربتْ عـيـنـاكِ روحي
فـهْيَ في عـيـنـيكِ سِـحـرُ

وأذاب الحـبُّ قـلـبي
فـهـوَ في كـأسـيَ خـمـر

هـذه الـلـيـلـةُ دنـيـا
كلُ مـا فـيـهـا يَـسُـرّ

لا تـقلْ لـيلٌ ويمـضي
لـيس لـلَـذةِ عُـمْـر

****

(١) الخطاب في الأبيات لرئيس جمهورية سورية يومذاك (١٩٤٩) شكري القوتلي.

٦١ - في بيت فخري البارودي[١]

[السريع]

يا صاحبي! قد كمُلَ المجلسُ
ونحن نحن الملأُ الأقدسُ
لتنعسِ الأنجُمُ في أفلاكِها
سنسهرُ الليلَ ولا نَنْعَس!

****

٦٢ - إلى توفيق فخر[٢]

[الرجز]

رافقَكَ الهناءُ، يا رفيقُ
وعُدْتَ بالتوفيقِ، يا «توفيقُ»
يا شاعراً أخلاقُهُ كشعرِهِ
متانةً، كقلبه رقيقُ
أنت صديقٌ لا يَحول ودُّه
في زمنٍ قلّ به الصّديق

****

(١) في سهرة موسيقية، في بيته. وقد داهم الندامى النعاس.
(٢) كان يعاون الشاعر في تحرير جريدة (السمير)، وكان على أبواب رحلة إلى جمهورية الدومينيك.

٦٣ - إلى رشيد أيوب[١]

[الطويل]

رأيــتُكَ تحت الـلـيل كـالـلـيلِ سـاكـتـاً
وعـنـد ضـفـافِ الـبـحـرِ تـهـدُر كـالـبـحـرِ

تـئنُّ من الـدنـيـا الـتي طـال جَـورُهـا
وتـشـكـو من الـدهـر الخَـؤونِ إلى الـدهـر

بـكـيتَ فـأبـكـيتَ الجلامـدَ في الـثَّرى
ونُـحتَ فـحـرّمتَ الـرُّقـادَ عـلى الـبـدر

فـأصـبـح في هـذي الـسَّمـوات حـائـراً
كـصـاحب إيمـانٍ يمـيل إلى الـكـفـر

أراه بـعـيـني مُـصـغـيـاً كل لـيـلـةٍ
لأنك قـد عـوّدته رنّـة الـشّـعـر

أرى فـيك من «شـيخ الـمـعـرّة «نـفـحـةً
وفي نفحـاتِ «الشيخ»[٢] شـيءٌ من الـسـحـر

وهـبـتُك من شـعـري وعـنـدك مـثـلُه
ولـو كـنتُ ذا تـبـرٍ وهـبـتُك من تِـبْري

وإن لـم يـكن هـذا ولا ذاك شـافـعـاً
فـإنيَ قـد ألـقيتُ حِـمـلي عـلى «شـكـري»[٣]

****

(١) إثر صدور ديوانه (الأيوبيات). وكان يلقب بالشاعر الدرويش. انظر رثاء أبي ماضي إياه (النص ٥٠).
(٢) أبو العلاء المعري.
(٣) شكري أبو صالح الذي كتب له الشاعر (النص ٢١).

٦٤ - «زحلة الفتاة»

[الرمل]

لـي فــتــاةٌ مَلأتْ صــدري جَــوىً[١]
ذاب فـيـهـا الـقـلـبُ شـوقـاً واحـتـرقْ
كلَّ يــومٍ لـيَ مـنـهـا مـوعـدٌ
في صـبـاحٍ، في مـسـاءٍ، في غَـسَقْ[٢]
لا تـظـنـوني أثـيـمـاً في الـهـوى
فـ «فـتـاتـي» مـن مِـدادٍ وورق

****

٦٥ - شعار «السمير»[٣]

[الرمل]

أنـا لا أُهـدي إلـيـكمْ وَرَقـاً
غـيـرُكمْ يَـرضى بـحِـبْـر وورقْ
إنمـا أُهـدي إلى أرواحـكمْ
فِـكَـراً تـبـقى مـتى الـطِّرس[٤] احـتـرقْ

****

(١) الحرقة وشدة الوجد (جَوِيَ - يجوى).
(٢) أول ظلمة الليل.
(٣) جريدة أبي ماضي التي أصدرها ابتداءً من سنة ١٩٢٩.
(٤) الورق.

المحتوى

(ما لم تجمعه الدواوين)

****

المحتوى العام

****